رواية

د.هـ. لورنس

نساء عاشقات

ترجمة: أمجد حسين

نساء عاشقات



المـــــؤلـــــف : د . هـ . لورنس
عنوان الكتـــاب : نساء عاشقات
تـرجــــمـــــة : أمجد حسين
الـنـاشــــــــر : المدى
الطبـعـــة الأولى : ٢٠١٠

Author: D. H. Lawrence
Title: Women in Love
Translator: Amjad Housien
Al- Mada P.C.
First Edition : 2010

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

د. هـ. لورنس

نساء عاشقات

رواية

ترجمة: أمجد حسين



مقدمة المترجم

هذه رواية غير اعتيادية لروائي غير اعتيادي، ولهذا فليس من اليسير إسباغ أية سمة مفردة عليها مما قد يصح على روايات غيرها، سواء لـ (د. هـ. لورنس) أم لغيره.

استثنائية الرواية لم تتأت من كون (لورنس) قد عدّها أفضل رواياته حسب، بل لمجموعة من الخصائص يقف على رأسها امتلاكه ناصية التقنية الروائية المدهشة فيها، ليس على مستوى الرواية الإنكليزية الحديثة فقط، بل على المستوى العالمي. إن تنامي الأحداث على يده أشبه بتنامي (الحركات) في سمفونية (بيتهوفينية) متقنة، لا يسع القارئ حيالها سوى الانجراف مع تياراتها المتباينة في خضوع وانتشاء مطلقين.

ثم هناك (اللورنسي) المرهف الحسّ الذي يغور في أعماق النفس الإنسانية، بل وغير الإنسانية كذلك، والذي يكشف لك عن أدق الخلايا بلا مواربة ولا اكتراث بأية رقابة.

ولا يمكن إغفال الثقافة الموسوعية الهائلة التي يتمتع بها (لورنس)، والتي لا يتردد في الإفصاح عنها في كتاباته. فهناك عمق في كل جملة ولهذا يجدر تحذير القارئ من مغبة قراءة (لورنس) لمجرد المتعة. إن (لورنس) يجب أن يقرأ بتمهل وتمعن، ولاسيما حين يغوص في أعماق الوصف ـ وصف المشاعر، كما في وصف الطبيعة، كما في الفلسفة. إن الركض وراء الأحداث، وراء (المثير للخيال) دون (المثير للأفكار) لا يفضي بقارئ (لورنس) إلا إلى قراءة مبتسرة مسطحة.

ومثل أي كاتب عظيم، لقد أثار (لورنس) في مجمله عموماً وعند صدور (نساء عاشقات) خصوصاً موجات متعارضة من ردود الفعل: ما بين معجبين حد الانذهال ومنتقدين حد الاستسخاف.

فمنهم من سمّاه ـ وهو لم يزل يخطو خطواته الأولى ـ عبقرياً ومنهم من وصفه بأنه

بدائي صانع أساطير، باحث عن آلهة غامضة، في حين نعته مناوئوه بالعاطفية البليدة والهوس الجنسي ومناهضة الثقافانية.

إلا أن السمة التي تنأى بأعماله فوق كل هذه المهاترات هي أن هناك بحثاً دائماً عن المعنى ـ على حد قول «مايكو ستيفن» ـ يتجاوز البحث الذي وسم الوضعية المنطقية السائدة يومئذ.

ثم إن (لورنس) عاشق للحرية، بل متيم بها، وإنساني بدرجة مذهلة.

* * *

إن (نساء عاشقات) هو الكتاب المتمم لرواية (قوس قزح) المنشورة في أيلول ١٩١٥ والممنوعة بعد أقل من شهرين. إن (نساء عاشقات) ـ على حد قول «جوليان مووينهان» ـ هو كتاب (لورنس) «الأكثر اكتمالاً، الأصعب، وإحدى أهم ست روايات صدرت في القرن الحالي». وحين أوشك (لورنس) على الانتهاء من كتابة التنقيح النهائي له في تشرين الثاني ١٩١٦ كتب يقول: «هذا الكتاب يخيفني.. إنه لصيق جداً بنهاية العالم».

* * *

وبعد.. لست بصدد الإسهاب في الحديث عن الرواية. فتلك العملية، لو تحققت، لنسفت الرواية في يدي القارئ قبل فضها، لكن لا ضير في كلمة بشأن ترجمتها. إن ترجمة (لورنس) ليست بالمهمة اليسيرة. وما مرد ذلك إلى أن ترجمة الأفكار أعسر من ترجمة الأحداث، حسب، لكن لغة (لورنس) ـ على الرغم من موسيقيتها الفائقة أو ربما بسببها ـ تستدعي الكثير لكي يخرج (النغم) العربي قريباً من أصله (اللورنسي). وثمة مناشئ للصعوبة أخرى: منها ولعه الشديد بالنعوت المتعددة للمنعوت نفسه.. وتتخذ هذه صفة المفردة الواحدة أو شبه الجملة أو الجملة الكاملة، مجتمعة.

وهناك استخدامه مفردات متشابهة في المعنى وهو يريدها متناقضة أو متعارضة. أضف إلى ذلك أنه يلجأ في كثير من الأحيان إلى تضمين كتاباته مفردات أو جملاً من لغات غير الإنكليزية ـ في (نساء عاشقات) ينهل من الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية. وهو لا يفعل ذلك تقصداً أو على سبيل استعراض عضلاته الثقافية، بل إنها تأتي تلقائياً وعلى نحو سلس ضمن السياق، ولاسيما ضمن الحوار حيث يكشف

استعمال الألفاظ الأجنبية عن هذا النمط أو ذاك من الأشخاص ومستوياتهم الثقافية وما إلى ذلك.

* * *

ومرة أخرى.. لا أريد الإسهاب. فالكتاب بين يدي القارئ وهو الهدف.

أمجد حسين



الفصل الأول

الأختان

جلست «أرسيولا» و«غدرون برانغوين» ذات صباح على دكّة الشباك في دار أبيهما في (بلدوفر) تشتغلان وتتحدثان. كانت «أرسيولا» تخيط قطعة زاهية الألوان. من المطرّزات وكانت «غدرون» ترسم على لوحة ثبتتها على إحدى ركبتيها. كان ثمة صمت بينهما معظم الوقت، وحديث كلما سرحت أفكارهما داخل عقليهما.

قالت «غدرون»: («أرسيولا»، ألا تبتغين الزواج حقاً؟). فوضعت «أرسيولا» مطرزها في حضنها ورفعت بصرها. كان وجهها هادئاً وحذراً.

ثم أجابت: (لا أدري. فذلك يعتمد على ما تعنين).

فوجئت «غدرون» بذلك بعض الشيء، وراقبت أختها بضع لحظات. ثم قالت في تهكم: (حسن. إن ذلك يعني شيئاً واحداً كالمعتاد! ولكن ألا تظنين على أية حال أنك ستكونين) ـ قالتها عابسةً قليلاً ـ (في وضع أفضل مما أنت عليه الآن؟).

غام وجه «أرسيولا» وأجابت: (ربما.. لكنني لست متأكدة).

من جديد توقفت «غدرون» وهي مغتاظة قليلاً. لقد كانت تروم التحديد كل التحديد، فتساءلت: (ألا ترين حاجة المرء إلى خبرة الزواج؟).

فأجابت «أرسيولا»: (أوتظنين أن الخبرة لازمة؟).

فقالت «غدرون» ببرود: (لابد من ذلك بطريقة أو بأخرى). وأردفت: (قد يكون ذلك غير مرغوب فيه. ولكن لابد من تجربة ما).

ردت «أرسيولا»: (في واقع الأمر، كلا. الأرجح أن يكون ذلك نهاية التجربة).

عند ذلك توقفت «غدرون» عن الحراك تماماً كي تلتفت إلى هذه النقطة. ثم قالت: (طبيعي، ثمة هذا الأمر الذي يجب أخذه بنظر الاعتبار). وبهذا انتهى الحديث.

وتناولت «غدرون» ممسحتها، بما يقرب من الغضب، وشرعت تمسح قسماً من رسمها. أما «أرسيولا» فقد طفقت تطرز وهي مستغرقة في التفكير.

وهنا سألت «غدرون»: (ألن تتدبّري عرضاً جيداً يوم يرد؟)

ردت «أرسيولا»: (أظن أنني رفضت عروضاً عدة).

- (حقاً!)، قالتها «غدرون» وقد احتقن وجهها غامقاً - (ولكن هل كان شيئاً يستحق الاهتمام؟ أحقاً قد فعلت ذلك؟).

فقالت «أرسيولا»: (ألف كل عام(*). رجل لطيف جداً. أحببته كثيراً).

- (صحيح! ولكن ألم تتعرضي لإغراء فظيع؟).

- (نظرياً. لكنْ ليس فعلياً). وقالت «أرسيولا» مردفة: (فحينما تحق الحقيقة لا يشعر المرء حتى بالإغواء - آه، لو كنت قد أُغويت لتزوجت بسرعة الطلقة. لا يغريني سوى ما ينهيني عنه). وعلى حين غرة أشرق وجها الأختين استمتاعاً. وصاحت «غدرون»: (أليست مدهشةً قوةُ الإغراء على أن لا نفعل!). وضحكت كلتاهما وهما تنظران إحداهما إلى الأخرى. أما في قلبيهما فكانتا خائفتين.

كانت ثمة فترة صمت طويلة، فيما كانت «أرسيولا» تطرز و «غدرون» ماضية في تخطيط رسمها. كانت الأختان امرأتين: «أرسيولا» في السادسة والعشرين و«غدرون» في الخامسة والعشرين. لكن بدت كلتاهما في الهيئة العذرية النائية للفتيات العصريات: اختين لـ «ارتيمس» أكثر من كونهما أختين لـ «هيبي»(**).

كانت «غدرون» جميلة جداً، سلبية، ناعمة الجلد وناعمة الأطراف. وكانت ترتدي ثوباً من قماش حرير غامق الزرقة ذي مزركشات من دانتيلا الكتان الأزرق والأخضر في العنق والأكمام وجوارب لونها أخضر زمردي. كان منظرها الواثق المتحفظ يتباين ومنظر «أرسيولا» المتحفز الحساس. لقد أخافت القرويين رباطةُ جأش «غدرون» المطلقة وصراحة سلوكها الاستثنائية فقالوا عنها: (إنها امرأة ذكية). وكانت قد عادت تواً من لندن حيث كانت قد أمضت سنوات عدة طالبة في مدرسة للفنون وتحيا حياة الاستديوهات.

---

* المقصود: صاحب دخل قدره ألف باوند كل عام. (المترجم)

** «ارتيمس» إلاهة الصيد و«هيبي» حاملة كؤوس الآلهة، الإغريقيتان. (المترجم)

ـ (كنت آمل الآن أن يقبل عليَّ أحد الرجال). قالتها «غدرون» فجأة وهي تصك بأسنانها على شفتها السفلى وتزوّي وجهها على نحو غريب، نصفه ابتسامة ماكرة ونصفه عذاب، مما أخاف «أرسيولا». ثم قالت هذه ضاحكة: (لقد عدتِ إلى البيت إذاً متوقعة مجيئه إلى هنا؟).

فصاحت «غدرون» بنبرة حادة: (آه يا عزيزتي. ليس من شأني أن أخرج عن سبيلي بحثاً عنه. ولكن إذا صادف فعلاً أن أقبل شخص شديد الجاذبية وذو موارد كافية). ـ قالت «غدرون» الكلمات الأخيرة بنبرة متهكمة. ثم رمقت «أرسيولا» بنظرة فاحصة كأنها تريد أن تسبر أغوارها. ثم سألت أختها: (ألا ترين أن الضجر يتملكك؟ ألا تجدين أن الأشياء عاجزة عن التحقق؟ لا شيء يتحقق! كل شيء يذبل وهو لمّا يزل برعماً).

وهنا سألت «أرسيولا»: (ما الذي يذبل في البرعم؟).

ـ (أوه.. كل شيء.. النفس.. الأشياء عموماً). تبع ذلك صمتٌ، بينما شرعت كل من الأختين تنظر في مصيرها على نحو غامض. ثم قالت «أرسيولا»: (إنه لأمر مخيف حقاً). ثم حل صمت ثان قبل أن تردف: (لكنْ، أتأملين بلوغ أية غاية بمجرد الزواج؟).

فأجابت «غدرون»: (يبدو أنها الخطوة التالية التي لابد منها).

فكرت «أرسيولا» في ذلك بشيء من المرارة. فلقد كانت نفسها مدرّسة في مدرسة (ويلي غرين) الثانوية منذ بضع سنوات. ثم قالت: (أعرف ذلك. يبدو الأمر كذلك حين يفكر المرء تفكيراً مجرداً. لكن تصوري ذلك فعلياً.

تصوري أي رجل نعرفه. تصوريه قادماً إليك في البيت كل مساء قائلاً «مرحبا» ومقبّلاً إياك قبلة).

وتلا ذلك صمت أجوف. ثم قالت «غدرون» بصوت متقلص:

(أجل. إنه مستحيل تماماً. الرجل هو الذي يجعل الأمر مستحيلاً).

أما «أرسيولا» فقالت مرتابة: (هناك الأطفال طبعاً).

عندها تصلب وجه «غدرون» وتساءلت بصوت بارد: (أتريدين أطفالاً حقاً يا «أرسيولا»؟) فبدت على وجه الأخيرة نظرة انبهار وحيرة.

وقالت:

(يشعر المرء أن الأمر لا يزال خارج نطاق سيطرته).

فتساءلت «غدرون»: (هل تشعرين كذلك؟ إنني لا أحس بأي شعور، مهما كان، نحو فكرة حمل الأطفال).

نظرت «غدرون» إلى «أرسيولا» ووجهها خال من التعبير كأنه قناع.

أما «أرسيولا» فقطّبت جبينها ثم تلجلجت قائلة: (لعل ذلك غير حقيقي.. لعل المرء لا يريدهم، في واقع الأمر، في داخل نفسه - بل ظاهرياً فقط).

تصلب وجه «غدرون» التي لم تشأ أن تغالي في التحديد.

فقالت «أرسيولا»: (حين يفكر المرء في أطفال الآخرين..)

فعادت «غدرون» ورمقت أختها بنظرة كادت أن تكون عدائية، وقالت: (تماماً) كي تنهي المحادثة.

استمرت الأختان في العمل صامتتين. لقد كان لدى «أرسيولا» دوماً ذلك الألق الغريب لشعلةٍ جوهرية، يدركها الناظر ويلتقطها ويخترقها.

لقد عاشت طويلاً لنفسها بنفسها، وهي تعمل وتمضي من يوم إلى يوم، دائمة التفكير، محاولة أن تمسك بزمام الحياة، وأن تتفهمها بإدراكها الخاص. وقد توقفت حياتها الناشطة بيد أن شيئاً ما في الباطن، في الظلام، كان قادماً ليمر. آه لو أنها استطاعت أن تخترق الأغشية الأخيرة حسب! كانت تبدو كأنها تحاول إخراج يديها، كجنين في الرحم.

لكنها لم تستطع. لم تستطع بعد. ومع ذلك كان لديها حدس غريب بما هو آتٍ، معرفةٌ عن شيء ما قادم لم يجيء بعد.

نحّت «أرسيولا» عملها ونظرت إلى أختها وفكرت: ما أجمل «غدرون». إنها في غاية الجمال.. في طراوتها.. في الثراء الرقيق والرائع لنسيج بنيتها وفي رقة خطوط سيمائها. ثم إن شحنة من المراح كانت تغلفها، فتوحي باللوذعية أو التهكم وبتحفظ غير مستثار. كانت «أرسيولا» تتملى أختها بإعجاب صادق.

ثم سألتها: (لم عدتِ إلى البيت، «يا خوخة»؟). كانت «غدرون» تعرف أنها كانت موضع إعجاب. ارتدّت في جلستها منحّية رسمها ورمقت «أرسيولا» بنظرة من

بين رموشها المقوّسة بدقة، وأعادت سؤال أختها: (تسألينني لِمَ عدتُ يا «أرسيولا». لقد سألت نفسي ألف مرة).

- (أو لا تعرفين؟).

- (بلى، أظن أنني أعرف. أظن أن عودتي إلى الدار لم تكن سوى ارتداد لطفرة أفضل)(*).. قالتها ونظرت إلى «أرسيولا»: نظرة معرفة طويلة بطيئة. فهتفت «أرسيولا»: (أعرف ذلك)، وقد بدت مندهشة حائرة قليلاً، كما لو كانت غير عارفة.. (ولكن إلى أين هذه الطفرة؟).

- (أوه، لا يهم). قالتها «غدرون» بشيء من الجلال.. (إذا قفز المرء من فوق الحافة فلابد أنه سيستقر في مكان ما)..

فسألت «أرسيولا»: (أليست في ذلك مجازفة كبيرة؟).

فلاحت على وجه «غدرون» ابتسامة ساخرة بطيئة. ثم قالت ضاحكة: (إنْ هي إلا كلمات، جميعاً). وهكذا أنهت المحادثة ثانية. غير أن «أرسيولا» كانت لا تزال تفكر ملياً، فتساءلت: (وكيف تجدين البيت، ما دمتِ قد عدتِ إليه؟).

توقفت «غدرون» ببرود، بضع لحظات، قبل الإجابة. ثم قالت بصوت فاتر صادق: (أجدني منعزلة عنه كلياً).

- (وماذا عن الوالد؟).

نظرت «غدرون» إلى «أرسيولا» بما يشبه الامتعاض، وكأنها وُضِعَتْ في زاوية. ثم قالت ببرود: (لم أفكر فيه.. لقد امتنعت عن ذلك).

فقالت «أرسيولا» متلعثمة: (أجل). وانتهت المحادثة فعلاً. ووجدت الأختان نفسيهما أمام فراغ، أمام هوة مرعبة، كما لو أنهما كانتا تنظران من فوق الحافة.

استمرتا في العمل بصمت بعض الوقت. كانت وجنتا «غدرون» قد احتقنتا بعاطفة مكبوتة، كرهت إثارتها. ثم سألت بعد أمد، بصوت جدّ عرضي: (هلاّ خرجنا وشاهدنا ذلك الزفاف؟).

فهتفت «أرسيولا» في غاية التشوق: (نعم) منحّية ما كانت تخيط وقافزة كأنها

* قالت «غدرون» الجزء الأخير من الجملة باللغة الفرنسية. (المترجم)

تبغي الهرب من شيء ما، وبذلك تكون قد كشفت عن توتر الموقف، مما أثار شعوراً بعدم المحبة لدى «غدرون».

كانت «أرسيولا» عند صعودها السلم على وعي بالبيت، بموطنها المحيط بها. فمقتته، مقتت ذلك المكان القذر، المألوف أكثر مما ينبغي! كانت خائفة في الصميم من شعورها ضد الموطن، ضد المحيط، وأجواء وحالة هذه الحياة العقيمة عقماً كاملاً. وقد أخافها شعورها ذاك.

أسرعت الفتاتان بعد هنيهة في السير في طريق (بلدوڤر) الرئيس، وهو شارع عريض، قسم منه دكاكين وآخر مساكن، قذر وعديم الشكل كلياً، دونما فاقة. ولحداثة عهد «غدرون» منذ تركها العيش في (تشلسي) و(سَسكْسْ) فقد انكمشت بضراوة من هذا القبح الشاذ لبلدة منجم الفحم الصغير الكائنة في إقليم (الميدلاندز)(*). ومع ذلك مضت قدماً، خلال كامل المسلسل القذر للحقارة، في الشارع الطويل، غير المنتظم، والمغطى بحجر صغير. وتعرضت إلى كل حملقة، وكابدت قدراً من المعاناة. كان من الغريب أن تكون قد اختارت العودة وأن تعاني بنفسها كامل آثار هذا القبح القاحل الذي لا هيئة له. لِمَ شاءت أن تعرض نفسها له، وهل لا تزال تريد تعريض نفسها له؟.. للعذاب الذي لا يطاق.. لهؤلاء الناس القبيحَين الذين لا معنى لهم، لعذاب هذا الريف المشوَّه؟ لقد شعرت أنها كانت كخنفساء تكدح في التراب. فامتلأت نفوراً.

استدارت الأختان عن الطريق الرئيس، مروراً ببقعة حديقة عامة سوداء حيث البقايا السخمة لجذوع اللهانة(**) منتصبةً دون حياء. لم يفكر أحد بالحياء. لم يخجل أحد من كل ذلك.

قالت «غدرون»: (إنها كبلاد كائنة في عالم سفلي.. يحملها عمال المناجم معهم إلى ما فوق الأرض، يجرفونها إلى فوق بمجارفهم. إنه عجيب يا «أرسيولا»، عجيب حقاً.. إنه مدهش حقاً.. عالم آخر.. الناس كلهم غيلان. كل شيء فيه شبحي. كل شيء هو نسخة غولية من العالم الحقيقي، نسخة، غول، متسخ كلياً، كل شيء قذر. كأنه حالة من الجنون يا «أرسيولا»).

---

* وهو إقليم وسط إنكلترة. (المترجم).

** ويطلق على هذا النوع من الخضار أيضاً اسم (الكرنب) و(الملفوف). (المترجم).

كانت الأختان تعبران ممراً أسود عبر حقل مظلم متسخ، ثمة على جهة اليسار صقع واسع وواد ذو مناجم فحم وتلال مقابلة فيها غابات وحقول حنطة، أضفى بُعْدُ المسافة عليها لوناً أسود، كأنها تُرى عبر قناع من قماش (الكريب). وكان دخان أبيض وأسود يرتفع عالياً في أعمدة مستقرة، كالسحْر في الهواء المظلم. وثمة عن كثب تأتي الصفوف الطويلة للمساكن في خطوط مستقيمة على طول جبهة التل، وهي تقترب من منحدر التل بانحناء قائم. كانت مبنية بطابوق أحمر مسودّ، هشّ، وسقوفها من بلاط غامق اللون. كان الممر الذي تسير عليه الأختان أسود، قد داسته أقدام عمال المناجم الرائحين والغادين، تحدّه من جهة الحقل أسيجة من حديد. أما المرقى المؤدي إلى الطريق ثانية فقد حكّتْه إلى درجة اللمعان الأقمشة القطنية السميكة التي كان يرتديها عمال المناجم المارّون. هاهما هاتان البنتان تمران بين صفين من المساكن الأقل شأناً. كان ثمة نساء واقفات، وقد أثْنَيْن أذرعهن فوق مآزرهن الخشنة، يتبادلن القيل والقال في طرف مجموعة مساكنهن، ويحملقن في بنتي «برانغوين» حملقة السكان الأصليين البدائيين التي لا تتعب. أما الأطفال فكانوا يتشاتمون.

مضت «غدرون» في سبيلها شبه دائخة. إذا كانت هذه حياةً بشريةً، وإذا كان هؤلاء كائنات بشرية عائشة في عالم كامل، فماذا يكون عالماها هي في الخارج؟ كانت واعية لجواربها الخضر خضرة العشب، ولقبعتها الواسعة المخملية الخضراء خضرة العشب، ومعطفها الناعم شديد الزرقة. وأحست كأنها كانت تمشي في الهواء، دون أي استقرار. وانكمش قلبها كأنها على وشك أن تهوي إلى الأرض في أية دقيقة.

تمسكت «غدرون» بـ«أرسيولا» التي تعودت بالمران الطويل على هذا الانتهاك من عالم مظلم، عدائي، غير متكوّن. بيد أن قلبها كان يهتف طيلة الوقت، كما لو كان في صميم محنة ما: (أريد أن أعود، أريد أن أبتعد، أريد ألا أعرف، ألا أعرف أن هذا موجود) ومع ذلك كان يجيب عليها أن تمضي إلى أمام.

كان في وسع «أرسيولا» أن تحسّ بمعاناتها. فسألتها: (أنت تمقتين هذا، أليس كذلك؟).

فقالت «غدرون» متلعثمة: (إنه يحيرني).

ردت «أرسيولا»: (لست باقية مدة طويلة).

ومضت «غدرون» متشبثة بالفرج.

ابتعدت الأختان عن منطقة منجم الفحم وقطعتا منحنى التل باتجاه الريف الأنقى في الجهة المقابلة ـ نحو (ويلي غرين). ومع ذلك ظل سحر السواد الباهت قائماً فوق الحقول والتلال المغطاة بالأشجار. وبدا أنه كان يومض باسوداد في الجو. كان اليوم ربيعياً. بارداً. تطل الشمس فيه إطلالة وجيزة بين آن وآخر. وقد بانت بقلات الخطاطيف الصفر من أسفل سياج الشجيرات. أما شجيرات الكشمش في حدائق أكواخ (ويلي غرين) فقد شرعت تورق. في حين بدأت (الأليسوم) الرمادية المتعلقة بالجدران الحجرية تزهر زهيرات بيضاً.

استدارت الأختان قاطعتين الطريق الرئيس المؤدي إلى الكنيسة والذي يحدّه سدّان عاليان. وهناك. في أوطأ عطفة من الطريق. المنخفض تحت الأشجار. وقف جمع صغير من الناس المترقبين، وهم ينتظرون مشاهدة الزفاف. كانت ابنة مالك المناجم الأول في المنطقة «توماس كريتش» في سبيلها إلى الزواج من ضابط بحري.

ـ (لنرجع). قالتها «غدرون» وهي تستدير مبتعدة.. (فثمة كل هؤلاء الناس). ثم توقفت في الطريق.

فقالت «أرسيولا»: (لا عليك منهم. لا خوف منهم. إنهم يعرفونني جميعاً فلا يهمك أمرهم).

فتساءلت «غدرون»: (لكن يجب علينا أن نخترقهم).

فقالت «أرسيولا»: (حقاً. لا خوف منهم تماماً). ومضت قدماً. وهكذا اقتربت الأختان معاً من رهط الناس العاديين، غير المستقرين والمفتوحي الأعين. كان أكثرهم من النساء، زوجات عمال المناجم من الصنف الكسول. إنهن ذوات وجوه مفتوحة الأعين، تطل من عالم سفلي.

تماسكت الأختان واتجهتا مباشرة نحو الباب. أما النسوة فقد أفسحن الطريق لهما، ولكن بمقدار لا يكاد يكفي، كما لو كن محجمات عن التخلي عن مواقعهن. مرت الأختان صامتتين عبر البوابة الحجرية صعوداً على الدرجات المغطاة بسجاد أحمر. وكان ثمة شرطي يحصي خطواتهما.

ـ (ما أغلى الجوارب) هكذا انبرى صوت وراء «غدرون» فسرت في جوانح الفتاة موجة غضب شديد مفاجئ. غضب جارف قاتل. وودت لو أبيدوا جميعاً. لو صُفوا

ونُحوا. فيصفو لها العالم. كم كانت تكره المضي في ممر ساحة الكنيسة وعلى السجادة الحمراء، والاستمرار في السير على مرأى منهم.

ـ (لن أدخل الكنيسة). قالت ذلك فجأة وبدرجة من الحزم جعلت «أرسيولا» تقف فجأة وتستدير على عقبيها متجهة صوب ممر فرعي صغير يؤدي إلى الباب الصغير الخاص بالمدرسة الثانوية المحاذية للكنيسة أرضاً.

قعدت «أرسيولا» لترتاح لحظة على السياج البحري الواطئ تحت شجيرات الغار وراء مدخل منبت شجيرات المدرسة مباشرة، خارج فناء الكنيسة. وكان وراءها مبنى المدرسة الكبير الأحمر منتصباً في هدوء وشبابيكه مفتوحة كلها بمناسبة العطلة. وأمامها، من فوق الشجيرات، سقوف الكنيسة القديمة الباهتة وبرجها. وكانت أوراق الشجر تخفي الأختين.

جلست «غدرون» صامتة، وفمها محكم الغلق، وقد أشاحت بوجهها، لقد كانت نادمة ندماً مريراً لأنها قد عادت أصلاً. أما «أرسيولا» فكانت تنظر إليها وتفكر: (كم هي جميلة جمالاً مدهشاً، وقد احتقن وجهها تضايقاً، لكن «غدرون» كانت تشكل قيداً على طبيعة «أرسيولا»، إرهاقاً ما. وتمنت هذه أن تكون وحدها متحررة من التوتر والضيق الناجمين عن حضور «غدرون»).

سألت «غدرون»: (هل نحن باقيتان هنا؟).

فقالت «أرسيولا»: (كنت أستريح دقيقة فقط)، ثم قامت كما لو كان قد زجرها أحد.. (سوف نقف في الركن بجانب ساحة الكرة حيث سنتمكن من مشاهدة كل شيء).

سقطت أشعة الشمس نيّرة آنئذ على فناء الكنيسة. وكانت ثمة رائحة الربيع الغامضة، ربما من زهور البنفسج إذ تفوح من ناحية القبور. كما ظهرت بعض زهور اللؤلؤ الأبيض، وهي تشع كالملائكة، أما في الأعالي فإن أوراق الزان الآخذة بالتفتح كانت حمراء حمرة الدم.

في الساعة الحادية عشرة تماماً شرعت العربات بالوصول. فنشأت حركة في الجمع عند البوابة، وتحشّد فيما كانت إحدى العربات تقترب. وكان ضيوف الزفاف يصعدون الدرجات سائرين على السجادة الحمراء صوب الكنيسة. كانوا جذلين، متحمسين جميعاً إذ أن الشمس كانت مشرقة.

أما «غدرون» فكانت تراقبهم عن كثب بفضول موضوعي. لقد رأت في كل واحد منهم ما يشبه الصورة الكاملة، كأحد شخصيات كتاب ما، أو موضوع في صورة ما، أو دمية في مسرح.. كائن مكتمل. لقد كانت تستمتع بالتعرف على مختلف خصائصهم، ووضعهم في المنظور الحقيقي، وتهيئة البيئة الخاصة المحيطة بهم، وإقرار أمرهم نهائياً أثناء مرورهم أمامها في الممر المؤدي إلى الكنيسة. لقد كانت تعرفهم.

لقد حُسِمَ أمرهم، وختم، وبصم، بالنسبة إليها. لم يكن هناك أحد عنده أي شيء مجهول، غير محلولٍ، حتى شرع آل (كريتش) أنفسهم في الظهور. عند ذاك أثير اهتمامها. هوذا شيء ما لم يسبق استنتاجه تماماً.

قَدِمَتِ الوالدة، السيدة (كريتش)، مع ولدها الأكبر، «جرالد». كانت شخصية غريبة غير مصقولة على الرغم من المحاولات التي سبق أن أجريت كما هو واضح لتهيئتها لذلك اليوم. كان وجهها شاحباً مائلاً إلى الاصفرار وبشرتها صافية شفافة. وكانت تميل إلى أمام قليلاً، وملامحها، قوية أنيقة، ذات مظهر متوتر، قاسٍ، غير آبه. وكان شعرها عديم اللون، غير مرتب، تتطاير خصلات منه من تحت قبعتها الحرير الزرقاء على معطفها الحرير الواسع ذي اللون الأزرق الغامق. كانت تبدو وكأنها امرأة تعاني من خبال المسّ الأحادي، تكاد تكون ماكرة، لكنها ذات كبرياء مفرطة.

كان ابنها أشقر، لوّحته الشمس، طوله فوق المتوسط قليلاً، أنيق الملبس حد المبالغة تقريباً، لكنه كان أيضاً ذا هيئة متحفظة غريبة وألقٍ لا يُدْرَك كأنه لم يكن ينتمي في خلقته إلى الناس المحيطين به أنفسهم.

وعلى الفور حطّت «غدرون» عليه. كان فيه شيء ما من الشمال شدّها إليه كالمغناطيس. ففي بشرته الشمالية الصافية وشعره الأشقر كان ثمة ألق كأنه أشعة الشمس وقد انعكس خلال بلورات الجليد. كان يبدو جديداً كل الجدة، لم يُمَس، نقياً كشيء من القطب الشمالي. لعل عمره كان ثلاثين عاماً، أو ربما يزيد. إن جماله المنير، وفحولته، كذئب صغير مبتسم لطيف المزاج، لم يخفيا عنها هيئته الدالة على الجمود والتشاؤم، والخطر المتخفي في مزاجه الذي لا يقهر. (إن طوطمه(*) هو الذئب)، هكذا

---

* الطَوْطَم : رمز مقدس لعشيرة أو أسرة . (المترجم)

تحدثت «غدرون» إلى نفسها تكراراً. (وأمه ذئبة عجوز لم يقصم عودها). ثم شعرت بنوبة حادة، بنشوة، كأنها اكتشفت اكتشافاً لا يصدق، لا يعرفه أحد آخر على وجه الأرض. لقد استحوذت عليها نشوة غريبة. كل عروقها انتابتها نوبة من الشعور العنيف. فهتفت لنفسها: (يا إلهي! ما هذا؟). وبعد لحظة أخذت تقول مطمئنة: (سأعرف المزيد عن ذلك الرجل). لقد شعرت بالعذاب شوقاً لرؤيته ثانيةً، وبالحنين، وبضرورة رؤيته ثانية كي تتأكد أن ذلك لم يكن كله خطأً، أو أنها لم تكن خادعةً نفسها، وأنها تحس بهذا الشعور الغريب القاهر نحوه إحساساً حقيقياً، هذه المعرفة في صميمها، هذا الإدراك القوي له وتساءلت: (هل اخْترِتْ حقاً له دون الآخرين، على نحو ما؟ هل ثمة شيء من الضوء الذهبي الباهت، القطبي، يحيط بنا نحن الإثنين فقط فعلاً؟). لم تستطع أن تصدق ذلك، وظلّت مستغرقة في التأمل، لا تكاد تعي ما كان يجري حولها.

كانت إشبينات العروس هناك، ومع ذلك لم يكن العريس قد وصل. وتساءلت «أرسيولا» ما إن كان ثمة شيء ما على غير ما يرام، وإن كان الزفاف قد يؤول إلى فشل كلي بعد كل ذلك. فتضايقت كما لو كان ذلك من مسؤوليتها. كانت الإشبينات الأصليات قد وصلن. وشاهدتهن «أرسيولا» وهن يرتقين الدرجات. لقد كانت تعرف إحداهن: امرأة طويلة، بطيئة، ومترددة، ذات شعر أشقر كثيف ووجه طويل شاحب. كانت تلك «هرمايني رودس» إحدى صديقات آل (كريتش). جاءت هذه الآن، مرفوعة الرأس، توازن قبعة ضخمة مسطحة من القطيفة باهتة الصفرة يعلوها ريش نعام طبيعي رمادي. وانساقت قُدُماً كأنها تكاد لا تعي، رافعة وجهها الشاحب الطويل كي لا ترى العالم. لقد كانت غنية، وكانت ترتدي ثوباً من قطيفة حريرية رقيقة ذات لون أصفر باهت، وكانت تحمل الكثير من زهو «السايكلامين» الصغيرة الوردية. أما الحذاء والجوارب فرمادية تميل إلى اللون البني، مثل ريش قبعتها.

وكان شعر رأسها كثيفاً. ومضت ووركاها ثابتان على نحو غريب، في مشية عجيبة متمنعة. كانت تثير الاهتمام في أصفرها الباهت ووردّيها المائل إلى البني، لكنها كانت تثير الروع والنفور. صمت الناس فيما كانت تمر، كانوا يشعرون بوطأتها، مستثارين، يريدون أن يسخروا لكنهم كانوا يصمتون لسبب ما. لقد بدا وجهها

الشاحب الطويل، المرفوع على طريقة «روزيتي»(*) تقريباً، وكأنه قد خُدِّر، كأن مجموعة غريبة من الأفكار قد التفّت في الخبايا المظلمة داخلها ولم يسمح لها بالفرار قطّ.

راقبتها «أرسيولا» مفتونة. كانت تعرف عنها القليل. كانت أبرز امرأة في (الميدلاندز). كان أبوها أحد بارونات (دربيشير)، من المدرسة القديمة. أما هي فكانت من المدرسة الحديثة، ذات عقلية مثقفة تماماً، وإدراك مثقل بأعصاب مرهفة. وكانت مشغوفة بالإصلاح شغفاً عاطفياً، واهبةً نفسها للقضايا العامة. بيد أنها كانت امرأة رجالٍ، ذلك أن عالم الرجال هو الذي كان يتملّكها.

لقد كانت تربطها علاقات عقلية وروحية حميمة مختلفة بمختلف الرجال المقتدرين. ولم تكن «أرسيولا» تعرف من أولئك الرجال سوى «روپرت بركن»، أحد مفتشي المدارس في المقاطعة. لكن «غدرون» سبق أن التقت آخرين في لندن. فمن خلال اختلاطها بأصدقائها الفنانين في مختلف أنماط المجتمع عرفت الكثيرين من ذوي الشهرة والمركز. لقد سبق أن التقت «هرمايني» مرتين، لكنهما لم تستلطفا إحداهما الأخرى.

لهذا سيكون من الغريب أن تلتقيا ثانية هنا في (الميدلاندز) حيث يختلف مركزاهما الاجتماعيان بعد أن كانت معرفة كل منهما بالأخرى قائمة على قدم المساواة في بيوت مختلف المعارف في المدينة. ذلك أن «غدرون» كانت نجمة مجتمع ولها أصدقاء ضمن الارستقراطيين الكسالى الذين يقيمون لهم صلة بالفنون.

كانت «هرمايني» تعلم أنها حسنة الهندام وأنها الند الاجتماعي لأي شخص قد تلقاه في (ويلي غرين). هذا إنْ لم تكن المتفوقة كثيراً عليه. كانت تعلم أنها مقبولة في عالم الثقافة والذكاء لقد كانت وسيطاً للثقافة الفكرية(**). وكانت منسجمة مع كل ما هو أسمى، سواء في المجتمع أم الفكر أم في العمل العام، أو حتى الفن. كانت

---

* «كريستينا جورجينا روزيتي» (١٨٣٠-١٨٩٤) شاعرة بريطانية، تتميز سيماؤها بشحوب الوجه وطوله وسواد الشعر، الأمر الذي كان مثار إعجاب أخيها الشاعر والرسام «دانتي غابرييل روزيتي» فجعلها موضوعاً للعديد من رسومه. (المترجم)

** ورد تعبير (وسيطاً للثقافة الفكرية) بالألمانية. (المترجم)

تتحرك ضمن أبرز البارزين دون تكلّف. ولم يكن في مقدور أحد أن يذلّها أو يسخر منها، فهي من الأوائل: ومن كان يعاديها كان أدنى منها، إما في المرتبة أو الثروة أو في ما يتصل وثيقاً بالفكر والتقدم والفهم. ولهذا، فإنها كانت منيعة. لقد سعت طيلة حياتها أن تجعل نفسها منيعة لا يمكن مهاجمتها، خارج متناول الأحكام الدنيوية.

ومع هذا كانت روحها معذبة، مكشوفة للأذى. حتى عندما كانت تقطع الممر المؤدي إلى الكنيسة - وهي الواثقة بأن مقامها يعلو على كل حكم مبتذل من جميع النواحي، والعالمة جيداً بأن مظهرها كامل لا غبار عليه بموجب أعلى المستويات - كانت تكابد مع ذلك عذاباً طيّ ثقتها وكبريائها، وتشعر بأنها عرضة للتجريح والاستهزاء والكيد. كانت تحس دائماً بأنها عرضة تماماً للتهجم وأن ثمة شرخاً مجهولاً في درعها، لم تكن نفسها تعرف ما هو. لقد كان نقصاً في قوة الذات.. لم يكن لديها اكتفاء طبيعي. كان ثمة فراغ مريع، نقص، قصور في الكينونة، في قراءة نفسها.

ولقد كانت تريد شخصاً ما يسدّ هذا النقص، يسده إلى الأبد. لقد اشتاقت إلى «روبرت بركن». وحين كان حاضراً هناك كانت تشعر بأنها كاملة، بأنها مكتفية، مكتملة. أما في باقي الأوقات فإنها كانت قائمة على الرمل، مُشادة فوق هوة، لكنْ، على الرغم من كل زهوها وضماناتها، كان في وسع أية خادمة عادية، قوية الروح، عنيفة المزاج، طرحها بأبسط حركة ساخرة أو محتقرة أسفلَ حفرةِ النقص هذه التي لا قرار لها. وفي أثناء ذلك كانت الامرأة المفكرة المعذبة تجمع دفاعاتها الشخصية من المعرفة الجمالية والثقافية والرؤية تجاه العالم والإيثار النزيه. ومع هذا لم يكن في وسعها قط ملء فراغ النقص الفظيع.

لقد تمنت لو أن «بركن» أقام علاقة حميمة مقيمة بها، إذاً لشعرت بالأمان خلال رحلة الحياة النكدة هذه ولتمكن من جعلها سليمة، منتصرة، منتصرة حتى على ملائكة السماء. آه لو استطاع أن يفعل ذلك! بيد أن الخوف والشك كانا يعذبانها؟ لقد جمّلت نفسها، وكافحت كثيراً لبلوغ تلك الدرجة من الجمال والمزية التي كانت لابد أن تؤدي إلى إقناعه. لكنّ، كان هناك قصور دوماً.

لقد كان هو ضالاً كذلك. كان يكافح دوماً لإبعادها. وكلما جاهدت أكثر في تقريبه نحوها، زاد من منازلته لصدها. وكان متحابين منذ سنين. آه، لكم كان ذلك

مرهقاً، مؤلماً، لقد تعبت حقاً. ومع ذلك كانت لا تزال تؤمن بنفسها. كانت تعرف أنه كان يحاول تركها. كانت تعلم أنّه كان يحاول أن ينفصل عنها نهائياً ليتحرر. ومع ذلك كانت لا تزال تؤمن بقدرتها على الاحتفاظ به، وبمعرفتها الأسمى، لقد كانت معرفته هو سامية. أما هي فكانت محك الحقيقة ولم تكن في حاجة إلى الارتباط به.

وهذا الارتباط بها، الذي كان أسمى عمل أنجزه هو الآخر، أراد أن ينكره بضلال الطفل المتعنت. وبتعنّت الطفل العنيد أراد أن يفصم عرى العلاقة المقدسة التي كانت قائمة بينهما.

كان سيحضر هذا العرس، وكان مقرراً أن يكون إشبين العريس. وسيكون في الكنيسة، منتظراً، عارفاً متى ستأتي. لقد ارتعدت من خشية ورغبة عصبيتين عندما عبرت باب الكنيسة. سيكون هناك. ومن المؤكد أنه سيرى جمال ثوبها. ومن المؤكد أنه سيلاحظ كيف أنها قد تجملت من أجله. وسيدرك وسيتمكن من أن يرى كيف أنها قد خلقت من أجله، أنها الأولى، كيف أنها الأرقى بالنسبة إليه. ومن المؤكد أنه سيتمكن أخيراً من أن يقبل بمصيره الأسمى، وأنه لن ينكرها.

دخلت الكنيسة مرتعشة قليلاً من شوق متعب للغاية، وألقت نظرة بطيئة خفية بحثاً عنه وقد ارتعش جسمها النحيف اضطراباً. وبصفته إشبيناً فإنه كان سيقف إزاء مذبح الكنيسة. نظرت ببطء وهي تتعثر في يقينها.

وبعد. فإنه لم يكن هناك. داهمتها عاصفة رهيبة وكأنها كانت تغرق، واستولى عليها يأس مدمّر. تقدمت على نحو آلي إلى المذبح، لم تكن قد عرفت قط مثل هذا الألم ـ ألم اليأس الشامل النهائي. لقد تجاوز حدَّ الموت، كان خاوياً خواء كاملاً. كان صحراء.

لم يصل العريس والإشبين بعد. فازداد الاستياء في الخارج. أما «أرسيولا» فإنها شعرت كأنها مسؤولة عن ذلك. لم تستطع أن تتحمل وصول العروس دون العريس. يجب ألا يؤول العرس إلى فشل تام. يجب ألا يحدث ذلك.

لكن ها هي ذي عربة العروس، وقد زُيِّنت بالأشرطة وورود الحرير. وثبت الجياد الرمادية جذلةً نحو مقصدها عند باب الكنيسة. وكانت ثمة ضحكة في كامل الحركة. هوذا جوهر كل ضحك ومسرة. فتحت باب العربة لتتيح خروج زهرة اليوم ذاتها. فهمهم الناس الواقفون على الطريق همهمة خافتة، همهمة الرهط البرم.

برز الأب أولاً في هواء الصباح، كأنه ظل.. كان رجلاً نحيفاً طويلاً هدّته الهموم، ذا لحية خفيفة سوداء وخطها الشيب. انتظر عند باب العربة صابراً، ناكراً ذاته. وفي فتحة الباب كان ثمة نثار من الوريقات والزهيرات، وبياض من حرير ومطرزات، وصوت مرح يقول:

ـ (كيف أخرج؟)

سرت موجة من الرضا في الجمع المنتظر، وتدافع الناس متقرّبين ليستقبلوها وهم ينظرون بحماسة إلى الرأس الأشقر المنحني، ببراعم أزاهيره، وإلى القدم الرقيقة البيضاء المترددة التي كانت تبغي بلوغ درجة العربة. ثم فجأة، اندفعت فورة راغية، وإذا العروس مثل فورة زبد الشواطئ الفجائية عائمة، كلها بياض، بجانب أبيها في ظلال الشجر الصباحية وبرقعها ينساب جذلاً.

ـ (انتهينا). قالتها ووضعت يدها على ذراع أبيها الشاحب المضنى بالهموم ومضت قدماً فوق السجادة الحمراء الخالدة وهي تهفهف رقيق ثيابها. وارتقى أبوها، الصامت المصفر الذي جعلته لحيته السوداء يبدو أكثر ضنى، الدرجات متصلباً كأنه بلا روح. بيد أن سيماء العروس الضاحك ظل يصاحبه دون أن يمسه شيء منه.

ولم يصل أي عريس بعد! كان ذلك لا يطاق بالنسبة إلى «أرسيولا». لقد كانت تراقب التل البعيد، وقد أجهد القلق قلبها: الطريق الأبيض النازل الذي كان يفترض أن يريها منظره. هي ذي عربة. إنها سائرة.

لقد بدت للناظر، تواً. أجل إنه هو. التفتت «أرسيولا» نحو العروس والناس. ومن موقعها الممتاز أطلقت صرخة مجمجمة. لقد أرادت أن تنبههم بأنه كان آتياً. لكن صرختها كانت مجمجمةً ولا تُسْمَع، واحتقن وجهها كثيراً، بين شوقها وارتباكها الجافل.

أقبلت العربة مقعقعة نحو أسفل التل واقتربت. فانطلق هتاف من الجمع. أما العروس، التي كانت قد بلغت الدرجة العليا تواً، فقد استدارت جذلة لتستطلع الهرج والمرج، فرأت اضطراباً بين الناس ـ عربة تتوقف وحبيبها ينزل إلى المركبة ويشق طريقه بين الجياد إلى حيث الجمع.

صاحت العروس في حماستها المفاجئة الهازلة وهي واقفة عالياً في الممر في ضوء

الشـمس، تلوّح بباقـة الزهور: («تيـبس»! «تيـبس»!). أمـا هو، فكان يشق طريقه، وقبعته بيده، فلم يسمع.

صاحت ثانية: («تيبس»)، ونظرت إليه من علٍ فنظر إلى الأعلى غير واع، فرأى العروس وأباها واقفين في الممر، فوق موقعه. بانت على وجهه نظرة غريبة جافلة. وتردد لحظة ثم جمع قواه ليقفز فيبلغها.

ـ (آهاها!) هكذا انطلقت منها صرخة غريبة، مكتومة في حين جفلت، كفعل انعكاسي، واستدارت ثم هربت صوب الكنيسة، مندفعة بوقع سريع لا يُصَدَّق من قدميها البيضاوين، وخشخشة من ثيابها البيض.

وككلب صيد ، تعقبها الشاب، واثباً فوق الدرجات ومتجاوزاً أباها، ووركاه اللدنان يتحركان كوركي كلب صيد ينقضّ على فريسة.

صاحت الامرأة السوقية من الأسفل: (أجل.. وراءها!) ـ وقد انساقت إلى اللعبة على حين غرة.

أما هي، بزهورها التي تطايرت منها كما يتطاير الزبد، فكانت تتهيأ كي تستدير ناحية الكنيسة. نظرت إلى الخلف، وبصرخة زاعقة ملؤها الضحك والتحدي، استدارت، واستعدت، ثم غابت خلف ركيزة الحجر الرمادي. وفي لحظة أخرى، كان العريس قد قبض على ركن الحجر الصامت بيده، منحنياً إلى الأمام أثناء الجري، واستدار بعيداً عن الأنظار واختفى حقواه القويان اللدنان في المطاردة.

وفي الحال انفجرت من الحشد عند الباب هتافات الحماسة وصرخاتها. ثم عادت «أرسيولا» ولاحظت قامة السيد «كريتش» المعتمة المائلة إلى الانحناء وهو ينتظر متوقفاً في الممر ويراقب المطاردة نحو الكنيسة بوجه يخلو من التعبير. لقد انتهت المطاردة فاستدار ليشاهد ما وراءه، فرأى قامة «روپرت بركن»، الذي أقبل والتحق به على الفور.

قال «بركن»: (سنلتحق بالمؤخرة)... وبدت على وجهه ابتسامة باهتة.

أجاب الوالد بإيجاز: (أجل!) واستدار الرجلان معاً، مرتقيين الممر.

كان «بركن» في مثل نحافة السيد «كريتش».. شاحباً معلول المنظر. وكانت بنيته نحيفة وإنْ حسن تكوينها. وكان متهيباً يمضي مجرجراً إحدى قدميه قليلاً. ومع

أنه كان سليم الملبس بقدر تعلق الأمر به، إلا أنه كان ثمة تنافر خِلْقي في مظهره يدعو إلى الهزء بقدر ضئيل. كان ذكياً وانعزالياً في طبيعته، ولم ينسجم قط في المناسبات التقليدية. ومع هذا كان يخضع نفسه للعادي من الأفكار، متنكّراً للجدّي بلبوس المضحك.

لقد كان يتصنع بأنه جدّ عادي، تماماً، وعلى نحو رائع. وأجاد في ذلك (متطبعاً بمحيطه، مكيفاً نفسه سريعاً مع محدّثه وظرفه) حيث أنه استطاع أن يتوصل إلى حالة أضفى فيها على نفسه سمة العفوية العادية التي كانت في العادة تسترضي مشاهديه في حينها وتجردهم من سلاح الهجوم على فرديته.

والآن شرع يتحدث إلى السيد «كريتش» بكل يسر وسرور، وهما يقطعان الممر مشياً. كان يتلاعب بالمواقف كالماشي على الحبل المشدود:

دائماً على حبل مشدود، متظاهراً بالسهولة ولا شيء غيرها.

قال: (آسف لتأخرنا هكذا. لم نتمكن من العثور على صنارة التزرير ولذلك استغرق تزرير أحذيتنا وقتاً طويلاً! بيد أنك قد حافظت على الموعد).

فقال السيد «كريتش»: (نحن اعتدنا أن نحافظ على المواعيد).

فقال «بركن»: (وأنا أتأخر عنها دائماً. لكنني كنت متهيئاً للموعد تماماً في هذا اليوم. إلا أن ما حدث كان مصادفة وأنا آسف لذلك).

مضى الرجلان، إذ لم يبق ما يستحق المشاهدة في الوقت الحاضر. وبقيت «أرسيولا» تفكر في «بركن». لقد جرحها، استهواها، أزعجها.

كانت تبغي معرفته بصورة أوسع. كانت قد تحدثت إليه مرة أو مرتين، لكن بصفته الرسمية فقط، بوصفه مفتشاً. كانت تظن بأنه يقرّ، على ما يبدو، بوجود علاقة ما بينهما، فهمٍ طبيعي ضمني، استعمالهما اللغة عينها.

بيد أنه لم يكن ثمة وقت كي يتطور الفهم. كما كان هناك شيء ما يبعدها عنه ويجذبها إليه. كانت هناك عداوة معينة، تحفّظٌ خفي نهائي فيه، بارد، بعيد المنال.

ومع ذلك كانت تريد أن تعرفه.

فسألت «غدرون» بشيء من التردد: (ما رأيك في «روپرت بركن»؟). لم تشأ أن تتناوله بالبحث.

فكررت «غدرون» السؤال: (ما رأيي في «روبرت بركن»؟ أظن أنه جذاب.. جذاب بلا شك. ما لا أتحمله بشأنه هو تعامله مع الآخرين.. طريقة تعامله مع أية حمقاء تافهة كما لو كانت موضع اهتمامه الأكبر. إن المرء ليحس معه أنه قد خُدِع).

قالت «أرسيولا»: (لِمَ يفعل ذلك؟).

أجابت «غدرون»: (لأنه لا يملك قابلية حقيقية لانتقاد الناس، أنه يعامل أية حمقاء تافهة كما يعاملني أو يعاملك.. وهذه إهانة ما أشدها).

قالت «أرسيولا»: (أوه، إنها كذلك. لابد للمرء من التمييز).

فكررت «غدرون»: (لابد للمرء من التمييز. لكنه شاب مدهش، في نواح أخرى.. شخصية مدهشة. لكنك لا تستطيعين أن تثقي به).

فقالت «أرسيولا» على نحو غامض: (أجل). لقد كانت مضطرة دوماً إلى الموافقة على أقوال «غدرون»، حتى إذا لم تكن على اتفاق معها إطلاقاً.

جلست الأختان صامتتين، منتظرتين خروج موكب الزفاف. لقد نفد صبر «غدرون» من الأحاديث، وأرادت أن تفكر في «جرالد كريتش».

أرادت أن تتأكد مما إذا كان الشعور القوي الذي كانت تحس به إزاءه حقيقياً. كانت تريد أن تهيّئ نفسها.

في داخل الكنيسة، استمرت مراسيم الزواج. كانت «هرمايني رودس» لا تفكر إلا في «بركن». كان واقفاً جنبها. وكانت تبدو منجذبة إليه انجذاباً جسدياً. كانت تبغي الوقوف وهي على تماس به كانت تكاد لا تستطيع التيقن من أنه قريب منها، ما لم تمسّه. ومع ذلك ظلت واقفة بإذعان طيلة مراسيم الزواج.

كانت قد عانت بمرارة شديدة حين لم يجئ، حتى أنها ظلت دائخة، كأن عصاباً كان ينخر فيها، يعذّبها احتمال غيابه عنها. لقد انتظرته وهي في حالة هذيان خفيف من عذاب عصبي. وفيما كانت تتحامل على نفسها في وقفتها، منشغلة البال، فإن النظرة الذاهلة على وجهها، التي بدت روحانية كنظرة الملائكة وإنْ نجمت عن عذاب، أسبغت عليها سيماء توتر ما مزّق قلبه إشفاقا. لقد رأى رأسها محنيّاً ووجهها مستغرقاً مذهولاً، يكاد يكون وجه متصوف مجذوب. وإذْ أحست بنظرته، رفعت وجهها ناشدة

عينيه، وعيناها الجميلتان الشهباوان تسطعان بإشارة عظيمة إليه. لكنه تجنّب نظرتها، فطأطأت رأسها في عذاب وخجل. واستمر النخر يأكل قلبها. ولقد تعذب هو الآخر من الخجل، والكره المطلق، والإشفاق الشديد إزاءها، لأنه لم يرد أن تلتقي عيناه بعينيها، لأنه لم يرد أن يتلقى منها وهج التشخيص.

تم عقد قران العروسين ومضى الحفل إلى قاعة الصلاة. أما «هرمايني» فقد زاحمت دون إرادتها «بركن» لتلمسه، فتحمّلها.

في الخارج، كانت «غدرون» و«أرسيولا» تستمعان إلى عزف والدها على الأرغن. كان يهوى عزف (مارش) الزواج. هاهما الزوجان قادمان! كانت الأجراس تدق، هازّة الهواء هزاً. وتساءلت «أرسيولا» هل استطاعت الأشجار والأزهار أن تحس بالاهتزاز، وماذا تظن به، بهذه الحركة الغريبة في الهواء؟ كانت العروس جدّ محتشمة على ذراع العريس، الذي كان يحملق في السماء أمامه، مغلقاً وفاتحاً عينيه دون وعي، كما لو أنه لم يكن هنا ولا هناك. لقد بدا مضحكاً تقريباً، وهو يرمش ويحاول أن يكون جزءاً من الصورة، في حين كان منفعلاً، مضنى من جرّاء انكشافه أمام الجمع. كان منظره منظر ضابط بحرية نموذجي، ذي رجولة، ومتحمّلٍ مسؤولياته الرسمية تماماً.

قَدِمَ «بركن» بصحبة «هرمايني». كانت تبدو منتشيةً منتصرة، كملائكة أُعيد اعتبارهم بعد سقوط. ومع ذلك كانت لا تزال كمن امتلكها الشيطان امتلاكاً ماكراً، وهي ممسكة الآن بذراع «بركن». أما هو فكان عديم التعبير، قد جرى تحييده، وقد استحوذت هي عليه، دون مساءلة كأن ذلك كان قدره.

ثم أقبل «جرالد كريتش»، أشقرَ، حسن الطلعة، متعافياً، ذا احتياطي ضخم من الطاقة. كان منتصباً، كاملاً. وكان ثمة إيحاء بالاستراق الغريب يتلألأ على مظهره المحبوب، القريب من السعادة. نهضت «غدرون» فجأة ومضت. لم تستطع أن تتحمل ذلك. لقد أرادت أن تكون وحدها كي تعرف ماهية هذا الاقتحام الذهني الغريب الحاد الذي غيّر مزاج دمها كلياً.



الفصل الثاني

شورتلاندز

مضى آل «برانغوين» إلى دارهم في (بلدوفر). والتأم حفل الزواج في (شورتلاندز)، مسكن آل «كريتش». كان بيتاً طويلاً، واطئاً وعتيقاً، أشبه بالضيعة، يمتد على طول منحدر إلى ما وراء بحيرة (ويلي ووتر) الصغيرة الضيقة. كان (شورتلاندز) يطل على مرج منحدر يمكن أن يكون متنزهاً بسبب الأشجار الباسقة المتفرقة هنا وهناك، وراء مياه البحيرة الضيقة، عند التل المشجّر الذي كان يخفي وادي مناجم الفحم الكائن ثمة إخفاءً جيداً، وإنْ لم يخف الدخان المتصاعد تماماً. ومع ذلك كان المنظر ريفياً جميلاً وهادئاً جداً، وكان للبيت سحره الخاص.

غدا البيت الآن مزدحماً بالعائلة وضيوف العرس. أما الأب، الذي لم يكن متعافياً، فقد انسحب ليستريح. وكان المضيف هو «جرالد» الذي وقف في قاعة المدخل البسيطة، ودوداً، مرتاحاً، قائماً على خدمة الرجال. لقد بدا مستمتعاً بأدائه وظائفه الاجتماعية، فظل مبتسماً، مضيافاً، مغدقاً.

تجولّت النساء في أرجاء الدار بشيء من الفوضى، تتعقبهن بنات الدار الثلاث المتزوجات هنا وهناك. وفي أثناء ذلك، كان في الوسع سماع صوت إحدى نساء آل «كريتش» المميز، المتغطرس ينادي: (يا «هيلين» تعالي لحظة هنا)، أو (يا «مارجوري»، أريدك هنا)، أو (أقول يا سيدة «وذم»..). كما كان ثمة الكثير من حفيف التنانير، ومناظر خاطفة لنساء أنيقات الملبس. وثمة طفل يرقص عبر القاعة، جيئة وذهاباً، وخادمة تقبل وتدبر على عجل.

في أثناء ذلك، وقف الرجال جماعات صغيرة هادئة، يثرثرون ويدخنون ويتظاهرون بأنهم لا يلقون بالاً إلى الحفيف النشيط لعالم النساء. بيد أنه لم يكن في مقدورهم

التحدث، وذلك من جرّاء التسلل الجارح لضحكات النساء المنفعلة الباردة، وأصواتهن التي لا تنقطع، وانتظروا، على مضض، مقاطعين، وقد كاد أن يصيبهم الملل. لكن «جرالد» ظل كالمبتهج السعيد، غير مدرك بأنه في حالة انتظار وعدم انشغال، وعارفاً بأنه كان محور المناسبة.

وعلى حين غرة قَدِمَت السيدة «كريتش» إلى الغرفة دون ضجة، ترمق ما حولها بوجهها الصافي الصارم. كانت لا تزال مرتدية قبعتها ومعطفها الحرير الأزرق الفضفاض.

قال «جرالد»: (ما بك يا أماه؟).

فأجابت على نحو غامض: (لا شيء، لا شيء!). ثم مضت قدماً صوب «بركن» الذي كان يتحدث إلى أحد أصهار آل «كريتش»، وحيّته بصوت خفيض، بدا غير آبه بضيوفها: (كيف الحال؟) ومدت يدها إليه.

أجاب «بركن»: (أوه يا سيدة «كريتش») بصوت آنيٍّ التبدّل، مردفاً: (لم أستطع المجيء إليك قبلاً).

فقالت بصوتها الواطئ: (إنني لا أعرف نصف الناس هنا). عندها ابتعد صهرها، غير مرتاح.

ضحك «بركن» قائلاً: (وأنت لا تستلطفين الغرباء..؟ أنا شخصياً لا أستطيع قط أن أفهم لمَ يتعين على المرء أن يأخذ الآخرين بنظر الاعتبار لمجرد مصادفة وجودهم في الغرفة معه. لِمَ يتعين عليّ أن أشعر بوجودهم هناك؟).

فقالت السيدة «كريتش» بصوتها الخفيض المتوتر: (لِمَ ذلك حقاً، لم حقاً؟). وأضافت: (أجد أناساً في الدار لا أعرف عنهم، سوى أنهم موجودون فيها. يقدمهم الأولاد لي: «والدتي، هوذا السيد فلان..» ولاشيء أكثر. ما علاقة السيد فلان باسمه؟ وما علاقتي به أو باسمه؟).

ثم رفعت رأسها ناظرة إلى «بركن» فأجفلته. كما أنه شعر أن مجيئها إليه للتحدث معه إطراء له. ذلك أنها ما كانت لتهتم بأي شخص إلا نادراً. ألقى «بركن» نظرة على وجهها الصافي المتوتر، بملامحه الثقيلة، لكنه خشي أن يحدق إلى عينيها الزرقاوين ثقيلتي النظرات. وبدلاً من ذلك لاحظ كيف التف شعرها في جدائل متهدلة،

مهملة، على أذنيها الجميلتين إلى حد ما، اللتين لم تكونا نظيفتين كل النظافة. كما أن رقبتها لم تكن نظيفة جداً. وعلى الرغم من ذلك كان يبدو أنه ذو صلة بها أكثر من علاقته ببقية الجماعة، على الرغم من أنه كان، كما فكر في نفسه، نظيفاً يغتسل جيداً على الدوام، عند الرقبة والأذنين في الأقل.

ابتسم «بركن» ابتسامة فاترة عند تفكيره بهذه الأشياء. ومع ذلك كان متوتراً، شاعراً بأنه والامرأة المسنة المغتربة كانا يتبادلان الحديث كالخونة، كالأعداء داخل معسكر الآخرين. فكأنه غزال يردّ إحدى أذنيه إلى الوراء مرهفاً السمع والأخرى إلى الأمام ليعرف ما هو مقبل.

قال وهو أقرب ما يكون إلى العزوف عن مواصلة الحديث: (لا يهمني الناس، في الواقع).

نظرت الأم إليه باستفهام مفاجئ مكفهر، وكأنها تشك في صدقه. ثم تساءلت بحدّة: (ماذا تعني بالاهتمام؟).

أجاب وهو مرغم على التعمق أكثر مما رغب: (قليلون هم من يهمون فعلاً. فهم يجلجلون ويقهقهون. وسيكون من الأفضل جداً محوهم كلياً. إنهم غير موجودين من حيث الجوهر. إنهم ليسوا هناك).

كانت ترمقه بنظرة ثابتة أثناء تكلمه. ثم قالت بحدة: (لكننا لا نتخيلهم).

- (ليس ثمة شيء يتعين تخيله. ومن أجل ذلك هم غير موجودين).

فأجابت: (حسن. إنني أكاد ألا أشتط إلى هذا الحد. ها هم أولاء هناك، سواء كانوا موجودين أم لا. إن مسألة وجودهم ليست موكولة بي. كل ما أعرف هو أنه لا يتوقع مني أن أدخلهم في الحسبان جميعاً. أنت لا تتوقع مني أن أعرفهم لمجرد وجودهم هناك مصادفةً. فبقدر ما يتعلق الأمر بي، سيان وجودهم أو عدمه).

أجاب: (تماماً).

فسألت ثانية: (أليس أمرهم كذلك؟).

عاد فكرر: (نعم، سيان). تلا ذلك توقفٌ قصير.

ثم أردفت: (سوى أنهم هناك فعلاً. وذلك إزعاج). ثم مضت تتحدث بما يشبه الحديث إلى الذات: (هناك أصهاري، وها هي ذي «لورا» قد تزوجت، فحلَّ صهرٌ آخر.

وفي الحقيقة أنني لا أميز بين «جون» و«جيمز» بعد. فهما يقبلان عليّ ويناديانني «يا والدة». إني أعرف ماذا سيقولان «كيف حالك يا أماه؟» يجب علي أن أقول: «لست أمكما، من أية ناحية من النواحي». ولكن ما الفائدة؟ ها هم ثمة، لقد سبق أن رزقت بأطفال يخصونني. وأظن أنني أميزهم من أطفال امرأة غيري).

فقال: (إن المرء قمين بالظن كذلك).

فنظرت إليه، كمن فوجئت نوعاً ما. ولعلها كانت قد نسيت أنها كانت تتحدث إليه. وانقطع حبل أفكارها.

ألقت على أرجاء الغرفة نظرة مبهمة. ولم يكن في مستطاع «بركن» أن يخمن عمّاذا كانت تبحث وبماذا كانت تفكر وأخيراً لاحظت أبناءها.

فسألته على غير توقع: (هل كل أولادي موجودون؟).

فضحك جفلاً، أو ربما خائفاً. وأجاب: (أكاد لا أعرفهم باستثناء «جرالد»).

فهتفت قائلة: («جرالد»! إنه أكثرهم قصوراً. لن يخالجك مثل هذا الظن إذا نظرت إليه الآن، أليس كذلك؟).

فقال «بركن»: (كلا).

نظرت الوالدة إلى أكبر أبنائها، وحدقت فيه ملياً بعض الوقت.

ـ (صحيح)، قالتها في مقطع واحد مبهم، ونبرة بدت مرتابة متهكمة.

وشعر «بركن» بالخشية كأنه لم يكن يجرؤ على الإدراك. ومضت السيدة «كريتش» بعيداً، ناسية إياه. لكنها عادت على أعقابها، قائلة: (بودي أن يكون لديه صديق. إذْ لم يكن لديه صديق قط).

فنظر «بركن» إلى داخل عينيها الزرقاوين اللتين كانتا تراقبان بإمعان. لم يستطع أن يفهمها. ثم قال لنفسه بما يشبه الوقاحة: (هل أنا وصي على أخي؟).

ثم تذكر، مختضاً قليلاً، إن ذلك كان ما هتف به «قابيل». لم يكن «جرالد» سوى «قابيل»، هذا إذا كان يمثل أي شخص على الإطلاق.

وليس ذلك لأنه كان «قابيل»، وإنْ كان قد ذبح أخاه. ذلك أنه كان ثمة شيء ما اسمه المصادفة الصرف، التي لا يرتبط المرء بعواقبها، حتى لو كان المرء قد قتل أخاه هكذا. لقد كان «جرالد»، وهو صبي، قد قتل أخاه مصادفة. ثم ماذا؟ لِمَ السعي لترك

وصمة ولعنة على حياة الشخص الذي كان قد تسبب في الحادث؟ في وسع المرء أن يعيش مصادفة ويموت مصادفة أم أن ذلك ليس في وسعه؟ هل إن حياة كل فرد عرضة للمصادفة الخالصة، وهل أن العرق والجنس والنوع فقط لها دلالة كليّة؟

أم أن ذلك ليس صحيحاً؟ وهل لا يوجد شيء اسمه المصادفة الخالصة؟

وهل أن لكل شيء يحدث مغزى كلياً؟ هل الأمر كذلك؟ لقد نسي «بركن» السيدة «كريتش» أثناء تقليبه الأفكار وهو واقف هناك، مثلما كانت هي قد نسيته.

لم يكن يؤمن بأن هناك أي شيء اسمه المصادفة. فالكل متعلق بعضه ببعض بكل ما في المعنى من عمق.

وفي لحظة وصوله إلى هذا القرار أقبلت إحدى بنات «كريتش» قائلة: (هلاّ قَدمْتِ يا أمي العزيزة وخلعتِ قبعتك؟ إننا سنجلس لتناول الطعام بعد قليل، وهذه مناسبة رسمية يا عزيزتي، أليس كذلك؟). قالت ذلك وشبكت ذراعها بذراع أمها ومضتا. أما «بركن» فمضى على الفور إلى أقرب رجل ليتحدث إليه.

قُرِعَ الجرس للغداء. رفع الرجال أبصارهم لكنْ لم يتحرك أحد باتجاه غرفة الطعام. أما نساء الدار فلم يظهر عليهن الشعور بأن لصوت الجرس معنى عندهن. مرت خمس دقائق وظهر «كروثر»، الخادم الكهل، عند مدخل الباب، مغتاظاً. ونظر إلى «جرالد» مترجّياً، فأخذ هذا صَدَفَةً بحريةً كبيرة مكورة موضوعة على رف، ونفخ فيها نفخة مدوية، دون الرجوع إلى أحد. كان صوتاً غريباً عجيباً يخفق القلب جراءه خفقاناً. كان للنداء أثر السحر تقريباً. إذ أقبل الجميع راكضين، كمن أُعطيت له إشارة. ثم تحرك الجمع مرة واحدة إلى غرفة الطعام.

انتظر «جرالد» أخته كي تقوم بدور المضيفة. كان يعرف أن أمه لا تبالي بواجباتها قط. بيد أن أخته لم تفعل أكثر من التزاحم للوصول إلى مقعدها. ولهذا قام الشاب بتوجيه الضيوف إلى أماكنهم بأسلوب استبدادي أكثر مما ينبغي له قليلاً.

مرت لحظة هدوء حين كان كل فرد ينظر إلى صحون المقبلات التي كانت تمر عليهم. وفي فترة الهدوء تلك انبرت صبية في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ذات شعر طويل يتدلى على ظهرها، تقول في صوت هادئ، وبرباطة جأش:

(يا «جرالد»، إنك تنسى أبانا حين تحدث ذلك الضجيج الخارق للطبيعة).

فأجاب: (هل أفعل ذلك حقاً؟) ثم أردف، موجهاً كلامه إلى الجماعة:
(إن والدنا راقد في فراشه، متوعك الصحة).

فهتفت إحدى البنات المتزوجات: (كيف حاله، حقاً؟) وهي ترمق كعكة العرس الضخمة الشامخة وسط المائدة، تنثر أزهارها الاصطناعية.

أجابت «وينيفرد» البنت ذات الشعر المتهدل على ظهرها، قائلة: (إنه لا يشعر بألم. لكنه متعب).

ملئت الكؤوس بالنبيذ وطفق الجميع يتحدثون بصخب. أما الوالدة فقد جلست عند طرف المائدة الأبعد، وشعرها معقود بارتخاء. كان «بركن» جارها. وفي بعض الأحيان، كانت ترمق صفوف الوجوه بضراوة، منحنية إلى أمام ومحملقة دون مجاملة. ثم تقول لـ«بركن» في صوت خفيض: (من هو ذلك الشاب؟)، فيجيب محتاطاً: (لا أعرف).

- (وهل رأيته أنا من قبل؟).

يأتي الجواب: (لا أظن ذلك. أنا شخصياً لم أره من قبل). اقتنعت السيدة وأغمضت عينيها المكدودتين، وظهر الهدوء على وجهها فبدت كملكة في استراحة. ثم فزّت، وعلت وجهها ابتسامة خفيفة اجتماعية، وبدت لحظة مضيّفةً سارة. وبرهة من الوقت انحنت انحناءةً مهيبة كأن الجميع كانوا موضع ترحاب ومصدر انشراح. ثم عاد الظل فجأة، وبانت على وجهها نظرة عقابية عبوس، وراحت تنظر من تحت حاجبيها كوحش قاتم محاصر، يكره الجميع.

هتفت «دايانا» الصغيرة المليحة، الأكبر سناً قليلاً من «وينيفريد» قائلة: (في إمكاني تناول النبيذ يا أماه، أليس كذلك؟).

- (نعم، في إمكانك تناول النبيذ). جاء جواب الأم تلقائياً، لأنها لم تأبه بالسؤال إطلاقاً.

أشارت «دايانا» إلى الخادم ليملأ قدحها. وقالت بهدوء موجهة كلامها إلى الحضور عموماً: (لا ينبغي لـ «جرالد» أن يمنعني).

فقال أخوها بلطف: (حسن يا «داي»)، فرمقته بنظرة تحدٍ وهي تشرب من قدحها.

كانت ثمة حرية غريبة في الدار، تكاد تبلغ حد الفوضى. كانت أقرب إلى كونها مقاومة ضد السلطة من كونها حرية. وكان لـ «جرالد» بعض السيطرة من خلال قوة

الشخصية حسب، وليس بسبب أي مركز ممنوح. وكانت ثمة نبرة في صوته، ودودةٌ لكنْ مسيطرة، تخيف الآخرين الذين كانوا كلهم أصغر منه سناً.

كانت «هرمايني» تتناقش مع العريس حول القومية قائلة: (كلا، أظن أن التوسّل بالوطنية خطأ. إنه كمنافسة مؤسسةٍ تجارية مؤسسةً أخرى).

هتف «جرالد» وهو الشغوف بالمناقشة شغفاً حقيقياً: (حسن، يكاد يستحيل أن تستطيعي قول هذا، أليس كذلك؟ في وسعك أن تسمي عِرْقاً بشرياً مؤسسة تجارية، أليس كذلك؟ والقومية معادلة للعرق تقريباً، كما أظن. أظن أن ذلك هو المقصود).

تلت ذلك لحظة توقف. كان «جرالد» و«هرمايني» دوماً متخاصمين على نحو غريب، لكنه أديب ومتعادل.

تساءلت متأملةً، في تردد خال من التعبير: (هل تظن أن القومية معادلة للعرق؟).

كان «بركن» يعلم أنها كانت تنتظر مشاركته، فتكلم ممتثلاً: (أظن أن «جرالد» على صواب.. فالعرق عنصر جوهري في القومية، في أوروبا على الأقل).

توقفت «هرمايني» ثانية، كأنها تمهل هذا القول فترة ليبرد. ثم قالت متسلمة زمام الأمر على نحو غريب: (أجل. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، أليست الدعوة الوطنية دعوة إلى الغريزة العرقية؟ أليست أقرب إلى الدعوة التملكية، الغريزة التجارية؟ أليس هذا هو ما نعنيه بالقومية؟).

- (ربما)، قالها «بركن» الذي شعر بأن مثل هذا النقاش لم يكن في وقته ولا في مكانه.

لكن «جرالد» غدا الآن يقتفي أثر المناقشة، فقال: (قد يكون للعرق جانبه التجاري. لابد من ذلك في الواقع. إنه كالعائلة، لابد من أن تتمون. ولكي تتمون وترتزق لابد من الكفاح ضد عائلات أخرى، قوميات أخرى، إنني لا أرى لِمَ لا يجب عليك أن تفعل ذلك).

عادت «هرمايني» إلى التوقف، متسلطة، باردة، قبل أن تجيب: (أجل، أظن أن من الخطأ دائماً إثارة روح المنافسة. إن ذلك يفسد الدم. والدم الفاسد يتراكم).

فقال «جرالد»: (لكن من غير الممكن التخلي عن روح المنافسة كلياً. إنها أحد حوافز الإنتاج والتقدم الضرورية).

وجاء جواب «هرمايني» المتلكئ: (أجل، أظن أن في وسعك التخلي عنها).

فقال «بركن»: (يستوجب عليَّ القول إنني أمقت روح المنافسة).

كانت «هرمايني» تقضم قطعة من الخبز، تسحبها من بين أسنانها بأصابعها، بحركة بطيئة يشوبها شيء من الهزء. استدارت صوب «بركن» وقالت بلهجة صميمية راضية: (إنك تكرهها حقاً، أجل).

فكرر القول: (أمقتها).

فتمتمت: (أجل)، وهي تحس بالاطمئنان والرضا.

أما «جرالد» فقال مصراً: (لكنك لا تسمحين لأحد ما أن يسلب عيش جاره. إذاً، لِمَ يتعين عليك السماح لشعب ما أن يسلب الرزق من شعب آخر؟).

فانبعثت من «هرمايني» تمتمة، طويلة، بطيئة، قبل أن تنطق قائلة بلا مبالاة مقتضبة:

- (إنها ليست دائماً قضية ملكيات، أليس كذلك؟ إنها ليست كلها قضية سلع وبضائع؟).

اغتاظ «جرالد» من هذا التلميح بالمادية المبتذلة. فرد بقوله: (أجل، إلى هذا الحد أو ذاك. إذا قمت وأخذت قبعة رجل من على رأسه، فإن تلك القبعة ستغدو رمزاً لحرية ذلك الرجل. وحين ينازلني من أجل قبعته، فإنه ينازلني من أجل حريته).

اختلط الأمر على «هرمايني» وقالت مغتاظة: (نعم، لكن تلك الطريقة في المحاججة بأمثلة خيالية ليست صحيحة على ما يفترض، أليس كذلك؟ إذ ليس في العادة أن يتقدم رجل ويأخذ قبعتي من على رأسي، أليس كذلك؟).

فقال «جرالد»: (لأن القانون يمنعه، ليس إلا).

فقال «بركن»: (ليس هذا فقط. فتسعة وتسعون بالمائة من الرجال لا يريدون قبعتي).

فقال «جرالد»: (هذه مسألة رأي).

فضحك العريس وأضاف: (أو مسألة قبعة).

قال «بركن»: (وإذا ما أراد قبعتي فعلاً كما هي فمن المؤكد أن المجال مفتوح أمامي لأقرر أيهما يعني خسارة أكبر لي: قبعتي، أم حريتي كرجل حر لا يبالي. وإذا

اضطررت إلى المنازلة. فسأخسر الأخيرة. إنها قضية أيهما أثمن عندي: قبعتي أم حريتي البهيجة في التصرف).

فقالت «هرمايني»: (أجل، أجل)، وهي تراقب «بركن» على نحو غريب. وسألت العروس «هرمايني»: (ولكن هل تسمحين لشخص ما بالتقدم وخطف قبعتك من على رأسك؟).

فاستدار وجه المرأة الطويلة المنتصبة، ببطء، كأنها تخدّرت تجاه المتحدثة الجديدة. وأجابت بنبرة خفيضة قاسية، بدت كأنها تنطوي على شبه ضحكة:

(كلا يجب علي ألا أسمح لأي شخص أن يأخذ قبعتي من على رأسي).

فتساءل «جرالد»: (وكيف تمنعين ذلك؟).

أجابت «هرمايني» ببطء: (لا أعلم، ربما يتعين علي أن أقتله).

كانت هناك شبه ضحكة غريبة في نبرة صوتها، ودعابة خطرة ومقنعة في منحاها.

قال «جرالد»: (طبيعي. أستطيع أن أتبين وجهة نظر «روپرت». إن القضية بالنسبة إليه هي ما إذا كانت قبعته أو راحة باله هي الأهم)، فقال «بركن»: (راحة البدن).

فأجاب «جرالد»: (حسن، كما تحب في هذه النقطة. لكن كيف ستقرر هذا بالنسبة إلى شعب؟).

ضحك «بركن» وقال: (لتحفظني السماء).

فألحّ «جرالد» متسائلاً: (صحيح، ولكن لنفترض أنك مضطر إلى ذلك؟).

- (عند ذاك سيكون الأمر مشابهاً. فإذا كانت قطعة التاج الوطني قبعة عتيقة، فليأخذها السارق)).

فعاد «جرالد» يسأل بإصرار: (وهل يمكن للقبعة الوطنية أو العرقية أن تكون عتيقة؟).

فقال «بركن»: (أظن أنها لابد أن تكون كذلك إلى حد كبير).

فقال «جرالد»: (لست متأكداً إلى هذه الدرجة).

فقالت «هرمايني»: لا أوافق يا «روپرت»...).

فقال «بركن»: (حسن).

ضحك «جرالد» قائلاً: (كلي رغبة في القبعة الوطنية العتيقة)

فهتفت «دايانا»، أخته السليطة التي بلغت سن المراهقة تواً: (وستبدو كالأحمق وأنت ترتديها).

فصاحت «لورا كريتش»: (أوه، لقد أغلقت على فهمنا تماماً هذه القبعات العتيقة. أفرغ كأسك الآن يا «جرالد»، فنحن مقبلون على شرب الأنخاب. لنشرب الأنخاب. الأنخاب ـ الأقداح، الأقداح ـ والآن، إلى الأنخاب! خطاب! خطاب!).

راقب «بركن» قدحه يُملأ بالشمبانيا وهو يفكر بالموت العرقي أو القومي. لقد تفجرت الفقاعات عند الحافة، وانسحب الرجل، وإذ شعر بعطش مفاجئ إزاء منظر النبيذ الطازج، أفرغ «بركن» كل ما في قدحه في جوفه. لقد أثاره توتر غريب طفيف في الغرفة. فشعر بضيق حاد.

سأل نفسه: (هل فعلتها مصادفة أو عن عمد؟) فقرر أنه على وفق العبارة المبتذلة فإنه قد فعلها «مصادفة عن عمد». ثم أدار بصره صوب الخادم المأجور. فأقبل الخادم المأجور بالخطوة الصامتة التي تميّز استهجان الخدم الجامد. قرر «بركن» أنه يمقت الأنخاب، والخدم، والاجتماعات، والجنس البشري برمته، في أكثر جوانبه. ثم نهض ليلقي خطاباً. بيد أنه كان مشمئزاً نوعاً ما.

أخيراً انتهت الوجبة. وتمشى بعض الرجال خارجين إلى الحديقة.

كانت هناك مرجة ثيّل، وأحواض زهور، وسياج حديد عند الحافة، يحجز الحقل أو المتنزه الصغير. كان المنظر يبعث على الانشراح ـ طريق رئيس ينعطف حول حافة بحيرة واطئة، تحت الأشجار. وفي هواء الربيع كان الماء يتلألأ واصطبغت الغابات القابلة بأرجوان الحياة الجديدة.

وجاءت أبقار (الجيرزي) الجميلة إلى السياج، تتنفس تنفساً أجشّ خلل خطمها. المخملية في وجه الكائنات البشرية، متوقعة كسرة خبز في الأرجح.

اتكأ «بركن» على السياج. كانت ثمة بقرة تنفث رطوبة حارة من أنفاسها على يده.

قال «مارشال»، أحد الأصهار: (إنها أبقار لطيفة، لطيفة جداً. إنها تعطي أفضل حليب يمكنك الحصول عليه).

قال «بركن»: (أجل).

ـ (إيه يا جميلتي الصغيرة.. إيه يا جميلتي) ـ قالها «مارشال» بصوت عال نشاز غريب جعل معدة الرجل الآخر تتشنج ضحكاً. ثم هتف بالعريس، كي يخفي ضحكه: (مَنْ كَسَبَ السباق يا «ليتن»؟).

فأخرج العريس سيكارة من فمه وهتف باستغراب. (السباق؟). ثم ظهرت على وجهه ابتسامة خفيفة نوعاً ما. لم يرد أن يقول أي شيء عن الركضة نحو باب الكنيسة.

ـ (وصلنا هناك معاً. هي التي لمست أولاً، في الأقل. لكنني كنت واضعاً يدي على كتفها).

فتساءل «جرالد»: (ما هذا؟) فأخبره «بركن» عن تسابق العروسين، فقال «جرالد»: (إحم) إشارة إلى عدم الرضا.. (ما الذي جعلك تتأخر إذاً؟).

فقال «بركن»: (كان «ليتن» يود التكلم عن خلود الروح، ثم افتقد صنارة التزرير).

فصاح «مارشال»: (يا إلهي! خلود الروح في يوم عسرك! ألم يكن لديك أي شيء أفضل تشغل به دماغك؟).

فتساءل العريس، رجل البحرية الحليق، وقد احتقن وجهه حساسية: (ما ضرر ذلك؟).

فقال الصهر: (يبدو كأنك كنت ذاهباً إلى المشنقة لا إلى زواجك)، وكرر العبارة في تأكيد لا أقتل منه: (خلود الروح!) لكنه أخفق تماماً في إحداث أي أثر.

سأل «جرالد»: (وماذا قررت؟)، مرهفاً أذنيه في الحال إزاء فكرة نشوء مناقشة موضوع يتعلق بما وراء الطبيعة.

قال «مارشال»: (أنت لا تنشد الروح اليوم، يا ولدي. إنها ستكون حجر عثرة في طريقك).

فصاح «جرالد» وقد نفد صبره على حين غرة: (يا عيسى المسيح! انطلق يا «مارشال» وتحدث إلى شخص ما، آخر).

فقال «مارشال»: مهتاجاً: (إني في ذلك راغب، والله. فما أكثر الكلام هنا عن

الروح وما إليها). قال ذلك وانسحب حانقاً، في حين كان «جرالد» يحدق إليه بعينين غاضبتين، غدتا هادئتين ودودتين تدريجياً بابتعاد قامة الرجل قوية البناء، أكثر فأكثر.

قال «جرالد» مستديراً على حين غرة إلى العريس: (ثمة شيء واحد، يا «لپتن». ما كانت «لورا» لتأتي بمثل هذا الأحمق إلى العائلة كما فعلتْ «لوتي»).

ضحك «بركن» وقال: (أرحْ نفسك بذلك).

فضحك العريس قائلاً: (إنني لا أبالي بهم).

فتساءل «جرالد»: (ماذا عن ذلك السباق إذاً؟ ـ مَنْ بدأه؟).

ـ (كنا متأخرين. وكانت «لورا» في أعلى درجات فناء الكنيسة حين وصلت عربتنا. رأت «لپتن» يمرق نحوها. فَعَدَتْ هاربة. لكن لماذا تبدو عابساً هكذا؟ هل إن هذا يمس شعورك بكرامة العائلة؟).

فقال «جرالد»: (أجل، إلى حد ما. إذا فعلتَ شيئاً، فافعله على نحو صحيح. وإذا أنت لست بفاعله على نحو صحيح، فاتركه وشأنه).

فقال «بركن» (قول مأثور لطيف جداً).

فتساءل «جرالد»: (ألا توافق؟).

فقال «بركن»: (تماماً. كل ما هناك أنني أحس بالضجر نوعاً ما حين تطلق أقوالاً مأثورة).

فقال «جرالد»: (عليك اللعنة يا «روپرت». إنك تريد كل المأثورات على هواك).

ـ (كلا. بل أريدها بعيدة عن طريقي. وأنت تلقيها على الدوام).

ابتسم «جرالد» ابتسامة كالحة لهذه المزحة. ثم أشار إشارة رفض صغيرة بحاجبيه. وتحدى «بركن» لائماً: (إنك لا تؤمن بقواعد السلوك قط. أليس كذلك؟).

ـ (قواعد؟ كلا. إني أكره المعايير. لكنها لازمة لعامة الناس في وسع أي شخص ذي أهمية ما إن يفعل ما يشاء ويكون على سجيته).

فقال «جرالد»: (لكن ماذا تعني بأن يكون المرء على سجيته؟ هل أن ذلك قول مأثور. أم مكرر؟).

ـ (أعني أن تفعل ما تريده تماماً. أظن أنه كان تصرفاً جيداً على نحو كامل من جانب «لورا» أن تندفع إلى باب الكنيسة نائية عن «لپتن». بل يكاد يكون تحفة في

التصرف الجيد. إنه لمن أصعب الأمور في العالم أن يتصرف المرء على وفق نوازعه تلقائياً.. وأنه الشيء المهذب حقاً الواجب عمله دون غيره شرط أن تكون لائقاً لفعله).

فتساءل «جرالد»: (أنت لا تتوقع مني أن أعدّك جاداً. أليس كذلك؟).

- (بلى يا «جرالد» إنك واحد من القلة القليلة من الناس الذين أتوقع منهم ذلك).

- (أخشى، بعد ذلك، ألا أستطيع تحقيق توقعاتك في هذا المقام بأية حال. إنك تعتقد أن على الناس أن يفعلوا ما يحلو لهم تماماً).

- (أنا أعتقد لأنهم يفعلون ذلك دوماً. لكنني أود لو أنهم أحبوا ذلك الشيء الفردي الخالص الموجود في دواخلهم، والذي يجعلهم يتصرفون متفردين.. إنهم يحبون العمل الجماعي فقط).

فقال «جرالد» متجهماً: (أما أنا فلا أحب أن أكون في عالم يتصرف الناس فيه على نحو فردي وتلقائي، كما تسميه. سيكون لدينا جمع يذبح بعضهم بعضاً في خمس دقائق).

وقال «بركن»: (يعني ذلك أنك نفسك ستحب ذبح الآخرين جميعاً).

فسأل «جرالد» عابساً: (كيف توصلتَ إلى ذلك؟).

فقال «بركن»: (لا يذبح أحد شخصاً آخر إلا إذا أراد ذلك، وإلا إذا أراد الشخص الآخر ذلك. هذه حقيقة كاملة. فالقتل يحتاج إلى اثنين: قاتل ومقتول والمقتول شخص قابل للقتل. والشخص القابل للقتل هو الشخص الذي يشتهي في قرارة نفسه أنْ يُقْتَل وإن خفي ذلك).

فقال «جرالد» لـ «بركن»: (أنت تتكلم أحياناً كلاماً فارغاً تماماً. في الواقع لا أحد منا يريد أن يذبح وأغلب الناس الآخرين يودون أن يذبحونا بالنيابة عنا.. في وقت ما أو في آخر..).

قال «بركن»: (إنها نظرة كريهة إلى الأشياء، يا «جرالد».. لا عجب أنك خائف من نفسك ومن بؤسك).

فقال «جرالد»: (كيف أخاف من نفسي؟ ثم إنني لست بائساً).

فقال «بركن»: (يلوح لي أن فيك رغبة خفية في أن تبقر بطنك، متصوراً أن كل فرد قد أخفى لك مدية في أعلى كمه).

فقال «جرالد»: (كيف خرجتَ بهذه النتيجة؟).

فقال «بركن»: (منك).

كانت ثمة وقفة خصام غريبة بين الرجلين، أقرب ما تكون إلى المحبة.

هكذا كان الأمر بينهما دائماً. كان حديثهما يجرهما دوماً إلى تماسٍ قَتّالِ القُرْبِ، ألفةٍ غريبة خطرة، كانت إما كرهاً أو حباً، أو الإثنين معاً.

كانا يفترقان، دون اكتراث ظاهر كما لو كان فراقهما حدثاً تافهاً. وفي الواقع، كانا يبقيان عند مستوى الحدث التافه. ومع ذلك كان قلب كل واحد منهما يتحرق شوقاً إلى الآخر.. يتحرقان في الصميم دون أن يقرا بذلك قط. كانا ينويان إبقاء علاقتهما صداقةً عرضيةً، يسيرة حرة. ولم يقصدا أنْ يكونا من الشذوذ والميوعة بحيث يسمحان لفؤاديهما أن يكتويا قط. ثم إنهما لم يكونا يعتقدان أدنى اعتقاد في العلاقة الوطيدة بين رجل ورجل، وعدم إيمانهما ذاك منع أي تطور في صداقتهما القوية المكبوتة.

الفصل الثالث

الصف

اقترب اليوم الدراسي من نهايته. وكان الدرس الأخير مستمراً في الصف، بهدوء وسكينة. كان علمَ النبات الابتدائي. أما المناضد فقد انتشرت عليها نباتات الصفصاف والبندق والنورات الهرّية(*) التي كان الأطفال يرسمونها تخطيطاً. لكنْ، باقتراب نهاية العصر، ادلهمت السماء، ولم يعد ثمة أي بصيص من الضوء تقريباً للمزيد من الرسم.

وكانت «أرسيولا» منتصبة أمام الصف، توجه الأطفال بالأسئلة كي يفهموا تركيب النورات الهرّية ومعنّاها.

دخلت حزمة ضوء نحاسية اللون من ناحية الشباك الغربي، مضيفةً على حافات رؤوس الأطفال لوناً ذهبياً أحمر، وساقطةً على الجدار المقابل بسطوع ثَّرٍ محمّرٍ. بيد أن «أرسيولا» لم تكد تعي ذلك.

كانت منشغلة، فقد اقترب «النهار» من نهايته، واستمر العمل كمدٍّ هادئ علا ثم استكان ليعود القهقرى.

لقد انصرم هذا اليوم، شأنه شأن الكثير من الأيام، في نشاط يشبه النشوة. وفي الختام كان هناك بعض التعجّل لإنهاء ما في اليد. كانت تلح على الأطفال في الأسئلة كي يتعلموا كل ما يتوقع منهم أن يتعلموه قبل أن يدق الجرس. كانت تقف في الظل قبالة الصف وبيدها النورات، وهي مائلة باتجاه الأطفال، وقد استغرقها شغف التدريس.

سمعت «أرسيولا» طَقّةً على الباب لكنها لم تعها. وفجأة جفلتْ. لقد شاهدت، في حزمة الضوء المحمّر النحاسي بالقرب منها، وجه رجلٍ كان يتألق كالنار، وهو

---

* أزهار الصفصاف المغلفة بما يشبه الفرو . (المترجم)

يراقبها وينتظر منها أن تحس به. لقد أفزعها على نحو فظيع، وظنت أنها على وشك الإغماء. لقد انتفضت كل مخاوفها المكبوتة اللاواعية إلى الوجود في معاناة.

قال «بركن» مصافحاً: (هل أفزعتك؟ ظننتُ أنك قد سمعتِني وأنا داخل).

فتلعثمت قائلة: (كلا)، وهي لا تكاد تستطيع التكلم. فضحك قائلاً أنه آسف. فتساءلت في نفسها لِمَ سَرّه ذلك.

قال: (ما أشد الظلام. هلاّ فتحنا الضوء؟).

ثم انتحى جانباً وفتح الأضواء الكهربائية القوية. توضحت غرفة الصف وتصلبت، وغدت مكاناً غريباً بعد الغبش الهادئ المعتم الذي كان يلفها قبل أن يجيء. استدار «بركن» بفضول كي يرى «أرسيولا»، كانت عيناها مستديرتين، متسائلتين، مستغربتين وفمها مرتعشاً قليلاً.

كانت تبدو كمن أُوقظ على حين غرة. كان ثمة جمال حيّ رقيق، كضوء الفجر الرقيق، يشع من وجهها. فنظر «بركن» إليها بسرور متجدد، وهو يشعر بالابتهاج في قلبه، وبعدم المسؤولية.

سألها: (هل تتناولون موضوع النورات الهرّية؟) والتقط قطعة من غصين البندق من منضدةِ طالبٍ أمامه. وسأل: (هل بلغت النباتات مثل هذا المبلغ؟ إنني لم ألاحظها هذه السنة).

ثم نظر إلى شرابة البندق التي في يده، مستغرقاً، وقال: (والحمراء كذلك!) وهو ينظر إلى الومضات القرمزية الصادرة عن البرعم الأنثوي.

ثم دلف إلى ما بين المناضد ليشاهد دفاتر الطلاب. أما «أرسيولا» فكانت تراقب حركته العزوم. كان ثمة هدوء في تحركه أسكت نشاط قلبها. كانت تبدو واقفة على حدة، في صمت محاصر، ترقبه يتحرك في عالم آخر مكثف. لقد كان حضوره هادئاً جداً، كأنه فراغ في الجو المشترك، أو يكاد.

رفع «بركن» وجهه فجأة نحوها، فخفق قلبها على وميض صوته وهو يقول: (هلاّ أعطيتهم بعض الأقلام الملونة ليتسنى لهم جعل الأزهار الأنثوية حمراء والخنثى صفراء. إني أرسمها ببساطة، بالأحمر والأصفر دون غيرهما، إن التخطيط الخارجي نادراً ما يهم في هذه الحالة. هناك حقيقة واحدة يجب التشديد عليها).

قالت «أرسيولا»: (لا توجد عندي أية أقلام ملونة).

ـ (هناك بعض منها في مكان ما حتماً. الأحمر والأصفر هما كل ما تحتاجين إليه).

أرسلت «أرسيولا» أحد الأولاد خارج الصف للاستفسار.

وقالت لـ «بركن» وقد احتقنت وجنتاها احتقاناً شديداً: (سوف يجعل ذلك الدفاتر غير نظيفة).

قال: (ليس كثيراً. ولابد من تأشير هذه الأشياء بوضوح. إن الحقيقة هي ما تبغين التأكيد عليها وليس تسجيل الانطباع الذاتي. وما هي الحقيقة؟... المياسم الصغيرة الشائكة الحمراء للزهرة الأنثوية والنورة الهريّة الذكرية الصفراء المدلاة واللقاح الأصفر المتطاير من واحد إلى آخر. سجلي الحقيقة صورياً كما يفعل الطفل حين يرسم وجهاً، عينين، أنفاً واحداً، فماً بأسنان.. هكذا). قالها ورسم صورة على السبورة. في تلك اللحظة ظهر خيال آخر عبر الألواح الزجاجية للباب. كانت «هرمايني رودس» فمضى «بركن» وفتح الباب لها.

قالت له: (رأيت سيارتك. هل لديك مانع من قدومي لمقابلتك؟ لقد أردت أن أراك وأنت في الواجب).

نظرت إليه طويلاً نظرة حميمة متغنجة، ثم أطلقت ضحكة قصيرة صغيرة. وعند ذلك فقط استدارت نحو «أرسيولا» التي كانت تراقب، وكل صفها معها، مشهد العاشقين الصغير.

ـ (كيف حالك يا آنسة «برانغوين»؟) أنشدت ذلك «هرمايني» بنبرتها الواطئة الغريبة الطروب، التي بدت بها كالمازحة الهازئة تقريباً، وأضافت: (هل ثمة مانع من دخولي؟).

كانت عيناها الرماديتان، الساخرتان تقريباً، مسمَّرتين طيلة الوقت في «أرسيولا» كأنها تريد أن تلخّصها تلخيصاً.

قالت «أرسيولا»: (أوه، كلا).

ـ (هل أنت متأكدة؟). كررت «هرمايني» ذلك بكل برود وبوقاحة غريبة شبه متنمّرة.

فضحكت «أرسيولا» قائلة: (كلا، أحب ذلك جيداً)، وهي تشعر بشيء من الاستثارة والاستغراب. ذلك أن «هرمايني» بدت كأنها ترغمها وهي تدنو منها كل الدنو كما لو كانت بينهما علاقة حميمة. ولكن، كيف يمكن أن تكون بينهما علاقة حميمةً؟

كان ذلك هو الجواب الذي ابتغته «هرمايني». فاستدارت هذه صوب «بركن» راضية.

- (ماذا أنت فاعل؟). أنشدت «هرمايني» ذلك بطريقتها الفضولية العرضية.

أجاب: (نورات هرّية!).

فقالت: (حقاً! وماذا تتعلم عنها؟). كانت تتكلم طيلة الوقت على نحو ساخر، تكاد تستهدف الإغاظة كما لو كانت تتلاعب بالأمر كله. ثم التقطت غصيناً من الزهيرات وقد لسعها اهتمام «بركن» به.

لقد كوّنت صورة غريبة في الصف، وهي في معطفها الفضفاض القديم المصنوع من قماش مخضوضر يعلوه نقش بارز ذو لون ذهبي كاب. كانت الياقة العالية وباطن المعطف مبَطّنين بالفرو الأسود. وتحت ذلك كانت مرتدية ثوباً رقيقاً ذا لون أزرق فاتح، مزيناً بالفرو. أما قبعتها فكانت ضيقة، مصنوعة من الفرو والقماش الكابي المنقش باللونين الأخضر والذهبي. كانت طويلة القامة، غريب. وكانت تبدو وكأنها قد خرجت من صورة ما، حديثة، غريبة عجيبة.

سألها: (هل تعرفين زهيرات المبيض الحمر التي تنتج البندق؟ ألم تلاحظيها قط؟).

ودنا منها وأشار إلى الزهيرات في الغصين الذي كان في يدها.

أجابت: (كلا، ما هي؟).

- (تلك هي الأزهار الصغيرة المنتجة للبذور، والنورات الطويلة تنتج اللقاح فقط لإخصابها).

- (صحيح! صحيح!)، كررتها «هرمايني» وهي تحدق عن كثب.

- (يجيء البندق من تلك القطع الصغيرة الحمر، إنْ تلقت اللقاح من المدلّيات الطويلة).

فتمتمت «هرمايني» لنفسها: (ألسنة لهب حمر صغيرة. ألسنة لهب حمر

صغيرة!)..

وظلت بضع لحظات لا تنظر إلا إلى البريعمات التي كانت تخرج منها ومضات الميسم الحمر.

ثم قالت: (أليست جميلة؟ أظن أنها جميلة غاية الجمال)، ودنت من «بركن»، مؤشرة إلى الخويطات الحمر بأصبعها الأبيض الطويل.

فسأل: (ألم تلاحظيها من قبل أبداً؟).

فأجابت: (كلا، أبداً).

قال: (أما الآن فسترينها دوماً).

فكررت: (سأراها دوماً من الآن فصاعداً. أشكرك جزيل الشكر لأنك أتحت لي مشاهدتها. أظن أنها جميلة غاية الجمال. ألسنة اللهب الصغيرة الحمراء).

كان استغراقها غريباً، يكاد يكون نشوان. لقد توقف كلٌّ من «بركن» و«أرسيولا»، كانت لزهيرات المدقة الحمر جاذبيةٌ ما غريبة بالنسبة إليها تكاد تكون مشبوبة شبوباً صوفياً.

انتهى الدرس، ونُحِّيَت الدفاتر وانصرف الصف أخيراً. ومع ذلك ظلت «هرمايني» جالسة إلى المنضدة، مسندة ذقنها إلى يدها، ومرفقها على المنضدة ووجهها الطويل الأبيض إلى الأعلى، غير مهتمة بأي شيء.

أما «بركن» فقد ذهب إلى النافذة، ينظر من الغرفة المتألقة الضوء إلى الخارج المعتم، عديم اللون، حيث كان المطر يهطل دون ضجة. أما «أرسيولا» فإنها نحّت أشياءها ووضعتها في الدولاب.

أخيراً قامت «هرمايني» واقتربت من «أرسيولا» قائلة: (هل قَدِمَتْ أختك إلى الدار؟).

فقالت «أرسيولا»: (أجل).

- (وهل تحب عودتها إلى «بلدوفر»؟).

فأجابت «أرسيولا»: (كلا).

- (كلا، إني لأعجب من تحمّلها ذلك. إن تحمّل قبح هذه المنطقة حين أمكث فيها يستنزف كل قوتي. هلاّ أتيتِ لزيارتي؟ هلاّ جئتِ وأختك إلى (بريدالبي) لتمكثا بضعة أيام؟.. افعلا ذلك..).

فقالت «أرسيولا»: (أشكرك جداً).

فقالت «هرمايني»: (سأكتب إليك إذاً. أوتظنين أن أختك ستأتي؟ سأكون جد مسرورة. أظنها مدهشة. كما أظن أن بعض أعمالها مدهشة حقاً. عندي منها صورتان مائيتان لطيور الذعرة(*) محفورتان في الخشب وملونتان.. ربما تكونين قد شاهدتهما من قبل؟).

فقالت «أرسيولا»: (كلا).

ـ (أعتقد أنها رائعة تماماً.. كومضة الغريزة..).

فقالت «أرسيولا»: (إن منحوتاتها الصغيرة غريبة حقاً).

ـ (جميلة تماماً.. مليئة بعاطفة مشبوبة، بدائية..).

ـ (أليس من الغريب أنها تحب الأشياء الصغيرة دائماً؟.. لابد لها أن تنجز أعمالاً صغيرة دائماً، مما يمكّن المرء أن يضعها بين يديه: طيور وحيوانات صغار. إنها تحب أن تنظر خلال منظار الأوبرا من الطرف الخطأ فترى العالم على تلك الهيئة.. لِمَ ذلك، في اعتقادك أنت؟).

رمقت «هرمايني» «أرسيولا» بتلك النظرة المديدة، المستقلة، الفاحصة التي أثارت الامرأة الأصغر سناً.

قالت «هرمايني» بعد لأي: (نعم. إنه لأمر غريب أن تبدو لها الأشياء الصغيرة أكثر رقةً..).

ـ (لكنها ليست هكذا، أليس كذلك؟ فالفأرة ليست أرق من الأسد، أليس كذلك؟).

عادت «هرمايني» فرمقت «أرسيولا» بتلك النظرة المديدة الفاحصة.

كأنها كانت تعقّب سلسلة من أفكارها هي، تكاد لا تأبه لكلام الأخرى. وأجابت: (لا أعرف).

ثم أنشدت برقة: (يا «روبرت»، يا «روبرت»)، تدعوه إليها فاقترب منها في صمت.

---

* الذُعَرَة : طائر صغير ذو ذنب طويل جداً يرفعه ويخفضه كأنه مذعور . (المترجم)

سألته: (هل إن الأشياء الصغيرة أرق من الكبيرة؟). قالت ذلك، بصوتها المشوب بالضحكة العميقة الغريبة. كأنها كانت تتلاعب به في سؤالها ذاك.

قال: (لا أعرف).

قالت «أرسيولا»: (إنني أكره الأشياء الرقيقة).

فنظرت «هرمايني» إليها ببطء وقالت: (صحيح؟).

فقالت «أرسيولا» رافعة ذراعيها كأن هيبتها قد تهدّدت: (إنني أعتقد على الدوام أنها علامة ضعف).

لم تلاحظ «هرمايني» أي شيء. وفجأة تغضّن وجهها وتعقّدت جبهتها مفكرةً، وبدت وكأن مشكلة تلفّها... وإنها تبذل جهداً ما لكي تنطق.

ثم تساءلت، وكأن «أرسيولا» لم تكن موجودة: (هل تظن يا «روبرت» حقاً، هل تظن بأن الأمر يستحق الاهتمام؟ هل تتصور فعلاً أن الأطفال أفضل حالاً حين يوقظون لكي يعوا الأشياء؟).

مرت على وجهه ومضة داكنة، غضبة صامتة. كان غائر الخدين شاحباً، كأنه من غير هذه الدنيا. لقد آلمته المرأة في الصميم بسؤالها الجدي الذي يرهق الضمير.

قال: (إنهم لا يوقَظون كي يعوا فالوعي يأتيهم، شاءوا أم أبوا).

- (لكن هل تظنهم سيكونون أحسن حالاً إذا حُفِّز الوعي عندهم أو عُجِّل؟ أليس من الأفضل أن يظلوا غير واعين بالبندق؟ أليس من الأفضل أن يروا الأشياء كاملة، دون كل هذا التفكيك، كل هذه المعرفة؟).

فسألها بخشونة: (وهل ترجّحين لذاتك أنت أن تعلمي أم ألا تعلمي بأن الزهيرات الحمر موجودة هناك، منشورة من أجل اللقاح؟) كان صوته موجعاً، مزدرياً قاسياً.

ظلت «هرمايني» مرفوعة الرأس، شاردة الذهن. أما هو، فإنه لبث صامتاً مغتاظاً.

أجابت وهي تتوازن برقة: (لا أعرف، لا أعرف).

بيد أنه تفجّر قائلاً: (لكن المعرفة هي كل شيء بالنسبة إلى المرء. إنها كل حياته). فنظرت إليه ببطء وقالت: (صحيح؟).

فهتف قائلاً: (أن تعلمي، هذا هو أنت كلك، هذا هو حياتك.. إنك لا تملكين سوى هذا، سوى هذه المعرفة. هناك شجرة واحدة فقط، ثمة ثمرة واحدة فقط، في فمك).

عـادت «هرمـايني» إلى الصـمت، بعض الوقت. ثم قـالت أخـيـراً، بالهـدوء غـيـر المهـزوز نفـسـه: (صـحـيح؟). ثم سـألت بنبـرة الاسـتـفـسـار المزاجي: (أية ثـمـرة يا «روبرت»؟).

فأجاب مغتاظاً كارهاً استعاراته ذاتها: (التفاحة الخالدة)(*).

فـقـالت: (أجل). لقـد بدا عليـهـا مظهـر الإرهاق. سـاد الصـمت بضع لحظات ثم استـجـمـعت «هرمـايني» قـواها بـحـركـة تشنجيـة وواصـلت بصـوت رتيب غـيـر متكلف: (دعني جـانبـاً يا «روبرت» وقل لي: هل تعـتـقـد أن الأطفـال سـيكونـون أفـضـل حـالاً وأغنى وأسعد بفضل كل هذه المعارف؟ هل تظن حقاً أنهم سيكونون كذلك؟ أم أن من الأحسن تركهم على سجيتهم، تلقائيين. أليس من الأفضل لهم أن يكونوا حيـوانات، حيوانات بسيطة فجة عنيفة، أيَّ شيء بدل هذا الوعي بالذات، هذا العجز عن أن يكون المرء تلقائياً؟).

لقد ظنا أنها انتهت. بيد أنها واصلت كلامها وفي حنجرتها دمدمة غريبة: (أليس من الأفضل أن يكونوا أي شيء بدل أن يكبروا مقعدين، مقعدين في أرواحهم، مقعدين في مشـاعـرهم.. متـخلفين جداً.. مـسـتـديريـن على أعـقـابهم.. عـاجزين)، وهنا شدّت «هرمـايني» قـبـضـتـهـا كمن في نوبة: (عـاجزين عن أي عـمل تلقـائي، دائـمـاً متـروّين، دائماً مثقلين بالاختيار، غير منساقين لأهوائهم قط).

وهنا ظنا ثـانيـة أنها قد انتـهت، ولكن في اللحظة التي كـان فـيـهـا على وشك أن يجيب، واصلت كلامها المنفعل الغريب: (غير منساقين لأهوائهم قط، أبداً ليسوا خارج ذواتهم. هم دائمـاً واعـون، واعـون ذواتهم، دائمـاً يحـسـون بـأنفـسـهم. ألـيس أي شيء أفضل من هذا؟ من الخير أن يكونوا حيوانات، مجرد حيوانات بلا عقل مطلقاً، خير من هذا، هذا اللاشيء..).

فـسـأل مـحـتـداً: (ولـكن هل تظنين أن المعـرفـة هي التي تجـعلنا واعين ذواتنا وغـيـر عائشين؟).

فـفـتـحت عـينيـها ونـظرت إليـه على مـهل وقـالت: (نعم). ثم توقفت، تراقبـه طيلة

---

* تفاحة شجرة المعرفة، حسبما ورد ذكرها في الإنجيل (سفر التكوين. ٣: ٢٢). (المترجم)

الوقت بعينين يلفّهما الغموض. ثم مسحت جبينها بأناملها، في إرهاق غامض. لقد اغتاظ بمرارة. وقالت: (إنه العقل، وهذا هو الموت)، ورفعت عينيها إليه على مهل وقالت وقد تشنجت حركة جسمها: (أليس هو العقل. أليس هو موتنا؟ ألا يدمر كامل عفويتنا، جميع غرائزنا؟ أليس شبابنا ينمون اليوم أمواتاً فعلاً قبل أن تواتيهم الفرصة ليعيشوا؟).

فقال بقساوة: (ليس لأن لهم عقولاً أكبر مما ينبغي لها، بل أصغر مما يلزم).

فهتفت: (أمتيقن أنت؟ يبدو الأمر لي على النقيض. إنهم واعون أكثر مما ينبغي لهم، مثقلون بالوعي حد الموت).

فهتف قائلاً: (حبيسو مجموعة محدودة وزائفة من المفاهيم). بيد أنها لم تلق بالاً إلى ذلك، بل اكتفت بمواصلة استجوابها المنفعل الخاص بها. فساءلت بنبرة أسيانة: (حين نملك المعرفة، ألا نخسر كل شيء عدا المعرفة؟ إذا اكتسبت معرفة عن الزهرة، ألا أفقد الزهرة وأحوز المعرفة فقط؟ ألسنا نستبدل الكل بالجوهر؟ ألسنا خاسرين الحياة من أجل هذه السمة الميتة: المعرفة؟ وما معناها بالنسبة إلي بعد كل ذلك؟ ماذا يعني كل هذا العلم لي؟ إنه يعني لا شيء).

فقال: (إنك تصطنعين كلمات، حسب. فالمعرفة تعني كل شيء بالنسبة إليك. حتى بهيميتك، أنت تبغينها في رأسك. إنك لا تريدين أن تكوني بهيمة بل تريدين ملاحظة وظائفك البهيمية الخاصة بغية الحصول على نشوة ذهنية منها. إنها شيء ثانوي.. وأشد فساداً من أضيق المذاهب التعقلية أفقاً. ما هو، إن لم يكن أسوأ وأدنى صيغة من المذهب التعقلي، عشقك هذا للعواطف المشبوبة والغرائز الحيوانية؟ العواطف المشبوبة والغرائز.. إنك تريدينها بالشدة الكافية، لكن من خلال رأسك، في وعيك. كل ذلك يحدث في رأسك، داخل جمجمتك. سوى أنك لا تعين ما هو واقع فعلاً: إنك تريدين الاستلقاء الذي سيناسب بقية أثاثك).

أمسى وجه «هرمايني» متحجّراً وساماً إزاء هذا الهجوم. أما «أرسيولا» فقد لبثت واقفة يغمرها العجب والخجل. لقد أخافها أن ترى كم يكره أحدهما الآخر. قال بصوته القوي الشارد: (إن المسألة برمتها نسخة مكررة لطبيعة الليدي «شالوت»

تلك)(*). وبدا كأنه كان يحمل عليها أمام الهواء غير الرائي. (لديك تلك المرآة، إرادتك الثابتة، إدراكك الأبدي، عالمك الواعي الضيق الخاص بك، ثم لاشيء أبعد من ذلك.

هناك، في المرآة، لابد أن يكون لديك كل شيء. بيد أنك توصلت الآن إلى كل استنتاجاتك، تريدين أن تعودي وتصيري كالمتوحش. دون معرفة. تريدين حياة ليس فيها سوى الحس و«العاطفة المشبوبة» الصرف).

نطق عبارة «العاطفة المشبوبة» في لهجة هاجية لها. أما هي فلبثت جالسة متشنجة من غضب وانتهاك، لا تنبس ببنت شفة، وكأنها عرّافة مصعوقة في مهبط الوحي الأغريقي(**).

واصل كلامه بضراوة: (لكن عاطفتك المشبوبة كذبة. إنها ليست عاطفة إطلاقاً، إنها إرادتك. إنها إرادتك المشاكسة. إنك تريدين أن تقبضي على الأشياء وتسيطري عليها. تريدين أن تسيطري على الأشياء. ولماذا؟ لأنك لا تملكين أي جسد حقيقي، أي جسد، عائش، شهواني. ليست فيك شهوانية. إنك لا تملكين غير إرادتك، ووهمك إزاء الوعي، وشهوتك للسلطان، للمعرفة).

نظر إليها بمزيج من الاحتقار والكره، وبتألم كذلك، لأنها كانت تعاني وتكابد، وبخجل لأنه كان يعرف أنه قد سبّب لها العذاب. كان يشعر بنزوع يدفعه ليركع ويتوسل طالباً المغفرة. لكنّ حنقاً أحمرَ أشدّ مرارةً احتدم فيه فصار غضباً ضارياً. ولم يعد دارياً بها، بل كان مجرد صوت متهدج يتكلم فهتف: (عفوية!... أنت وعفويتك! أنت أكثر الخلق الذي مشى أو زحف تأنّياً! إنك تصلحين أن تكوني عفوية على نحو متقصد حقاً!.. هي ذي أنت إنك تريدين أن تنالي كل شيء بمشيئتك الخاصة. بوعيك المتأني العفوي. تريدين كل شيء في جمجتك الصغيرة الكريهة تلك، التي يجب أن

---

* «الليدي شالوت» شخصية وردت في قصيدة للشاعر الإنكليزي «تنيسون» (١٨٠٩ - ١٨٩٢) تحمل العنوان نفسه، وهي امرأة حبيسة برج عاجي. غير قادرة على الاتصال بالبشر لأن ذلك سيؤدي إلى موتها. ويعدها الباحثون صورة رمزية للفنان المغترب عن واقعه في العصر الفيكتوري. (المترجم)

** كاهنة أو قسيسة كانت تترجم كلمات وحي الآلهة إلى لغة مفهومة. (المترجم)

تكسر كما تكسر الجوزة. ذلك لأنك باقية كما أنت، حتى تكسر، مثل حشرة تسحق بجلدها. وإذا ما كسر امرؤ جمجمتك فقد يحصل منك على امرأة مشبوبة العاطفة، عفوية، فيها شهوانية حقيقية. أما والحال كما هو، فإن ما تبغينه هو الخلاعة.. النظر إلى نفسك في المرآة، مراقبة أفعالك الحيوانية العارية في المرآة، وذلك بغية حيازة كل شيء في وعيك، وجعله كله مسألة عقلية).

كان ثمة إحساس بالانتهاك في الجو، كأن الكثير قد قيل، ما لا يمكن غفرانه، ومع ذلك، فإن «أرسيولا» غدت الآن مهتمة بحل مشكلاتها الخاصة حسب. في ضوء كلماته كانت شاحبة وشاردة.

تساءلت وهي متحيّرة: (لكن هل إنك تبغي الشهوانية حقاً؟).

فنظر إليها «بركن» وغدا متعمداً التوضيح.

قال: (أجل، تلك ولا شيء غيرها في هذه المرحلة. إنها الإنجاز... المعرفة المعتمة العظيمة التي لا تستطيعين احتواءها في رأسك... الكائن اللا إرادي المعتم... إنه الموت لذات المرء... لكنه بدء الكينونة لذات أخرى).

سألته، وهي عاجزة تماماً عن تفسير عباراته: (ولكن كيف؟ كيف تكون لديك معرفة في غير رأسك؟).

أجاب: (في الدم، حين يلف الظلام العقلَ والعالمَ المعروف.. فعلى جميع الأشياء أن تمضي.. يجب أن يأتي الطوفان. حينذاك، تجدين نفسك في جسم محسوس من الظلام.. شيطان).

سألته: (ولكنْ، لِمَ يجب عليّ أن أكون شيطاناً؟).

فأورد الاقتباس التالي: («امرأة تولول من أجل عشيقها الإبليسي»(*)... لماذا؟ لا أعرف).

أيقظت «هرمايني» نفسها من موت... من فناء.

- (يا له من إبليسيّ فظيع، أليس كذلك؟) نطقت «هرمايني» ذلك موجهة كلامها إلى «أرسيولا»، وهي تمطّ الكلمات مطّاً، في صوت غريب رنان انتهى بضحكة صغيرة

* الاقتباس من قصيدة «كوبلاخان» للشاعر الإنكليزي «كولرج» (١٧٧٢ - ١٨٣٥). (المترجم)

مجلجلة تنم عن استخفاف خالص. كانت الامرأتان تسخران منه، تسخران منه ليصير عدماً. لقد صدرت ضحكة الأنثى المنتصرة المجلجلة من «هرمايني»، وهي تسخر منه كما لو كان مخصياً.

قال: (كلا. أنت الشيطان الحقيقي الذي لا يسمح للحياة بالوجود).

فنظرت إليه نظرة طويلة، بطيئة، لئيمة، متكبرة. وأجابت بسخرية باردة، متمهلة، ماكرة: (أنت تعرف كل شيء عن الموضوع، أليس كذلك؟).

فأجاب: (كفى)، وقد تثبت وجهه صافياً دقيقاً كالفولاذ. أما «هرمايني» فانتابها يأس رهيب، وفي الوقت نفسه شعور بالانطلاق والتحرر. واستدارت صوب «أرسيولا» في ألفة بهيجة وقالت تستحثها: (من المؤكد أنك ستأتين إلى «بريدالبي»؟).

فأجابت «أرسيولا» (نعم، أرغب في ذلك كثيراً).

نظرت «هرمايني» إليها، راضية، مفكرة وشاردة على نحو غريب، كأنها ممسوسة، كأنها غير موجودة ثمة كلَّ الوجود.

قالت وهي تستجمع رباطة جأشها: (لكم أنا سعيدة. في أي وقت في غضون أسبوعين تقريباً. أملائم؟ سأكتب إليك إلى هنا، إلى المدرسة، هل أفعل ذلك؟ نعم. وأنت من المؤكد ستبجيئين؟ نعم، سأكون جد مسرورة. إلى اللقاء! إلى اللقاء!).

مدت «هرمايني» يدها وحدقت إلى عيني المرأة الأخرى. كانت تعرف «أرسيولا» باعتبارها منافسة مباشرة. وقد أبهجتها هذه المعرفة على نحو غريب.

ثم إنها كانت تستأذن لكي تنصرف. كانت المغادَرةُ وتركُ الأخرى وراءها مدعاةً لشعورها بالقوة والامتياز دوماً. وبالإضافة إلى ذلك، كانت آخذةً الرجل معها، ولو في غمرة الكراهية.

وقف «بركن» منتحياً جانباً مسمَّراً، غير حقيقي. أما الآن وقد جاء دوره ليحيي مودعاً، فإنه شرع يتكلم ثانية:

- (هناك كل فروق العالم بين الكائن الشهواني الفعلي والخلاعة الفكرية الشريرة المتعمدة التي يولع بها رهطنا. ففي أوقات الليل نفتح أضواء الكهرباء ونراقب أنفسنا، وتمتلئ رؤوسنا بها كلها، فعلاً. على المرء أن يغط قبل أن يعرف ما هي الحقيقة

الشهوانية، أن يغط في اللامعرفة ويتخلى عن مشيئته. لابد من أن يفعل المرء ذلك. لابد أن يتعلم ألا يكون قبل أن يستطيع أن يكون. بيد أننا مغترون بأنفسنا إلى درجة كبيرة.. هي ذي العلة. إننا مغرورون جداً وعديمو الكبرياء جداً. ليست لدينا كبرياء. كلنا غرور، مغرورون بذواتنا المتحققة كالورق المعجَّن(*). نفضل الموت على التخلي عن عنادنا، الذاتي الصغير، البار من وجهة نظره، المغرور بذاته).

ساد الصمت في الغرفة. كانت كلتا الامرأتين حانقة وعدائية. أما هو فكانت نبرته كمن يلقي خطاباً في اجتماع. و«هرمايني» اكتفت بعدم الانتباه، ولبثت واقفة وكتفاها مشدودان في وضع الاستهجان الكاره.

كانت «أرسيولا» تراقبه كمختلس النظر، غير مدركة في الحقيقة ماذا كانت ترى. كانت فيه جاذبية بدنية قوية.. ثراء مخفي يثير الفضول، يترشح خلال نحوله وشحوبه. كصوت آخر ينقل معرفة أخرى عنه. كان ذلك في انحناءة حاجبيه وذقنه، وهي انحناءات ثرية، دقيقة فاتنة، بمثابة الجمال العارم للحياة نفسها. لم يكن في وسعها أن تقول ما هو. لكنْ كان هناك شعور بالثراء وبالحرية.

سألت: (لكننا شهوانيون بما فيه الكفاية، بدون أن نجعل أنفسنا هكذا، أليس كذلك؟) واستدارت إليه مطلقةً ضحكة ذهبية معينة كانت تومض تحت عينيها المخضوضرتين كأنها تحد. وفي الحال، علت الابتسامة الغريبة اللامبالية والجذابة جداً عينيه وحاجبيه، وإن لم يرتخ فمه.

قال: (كلا، لسنا كذلك. نحن منشغلون بأنفسنا أكثر مما يجب).

فهتفت: (من المؤكد أن الأمر ليس غروراً).

- (هو ذاك، وليس غيره).

فالتبس عليها الأمر على نحو جلي، وسألت:

- (ألا تظن أن الناس أكثر ما يكونون غروراً بقواهم الشهوانية؟).

- (لذلك هم ليسوا شهوانيين.. إنهم حسّيون فقط، وهذا أمر آخر.

---

* قالها «بركن» بالفرنسية، وهي مادة صلبة مصنوعة من عجينة الورق ممزوجة بالغراء وغيره من المواد الدبقة. (المترجم)

إنهم يعون ذواتهم دوماً.. ومغرورون إلى درجة أنهم بدلاً من أن يطلقوا العنان لأنفسهم ويعيشوا في عالم آخر، من مركز آخر فإنهم..).

قالت «هرمايني» وهي تستدير نحو «أرسيولا» بنبرة ودود، رقيق: (أنت تريدين شايك، أليس كذلك؟ لقد اشتغلت طيلة اليوم).

توقف «بركن» وقد قوطع. وسرت في «أرسيولا» رعشة غضب وغمّ. وتصلب وجهه وألقى تحية الوداع كما لو كان قد توقف عن ملاحظتها.

لقد انصرفا. وظلت «أرسيولا» واقفة تنظر إلى الباب بضع لحظات.

ثم أطفأت الأنوار. وإذ فعلت ذلك، قعدت على كرسيها ثانية، مستغرقة، تائهة. ثم شرعت تبكي بحرارة وتنوح بمرارة. لكنها لم تعرف قط إذا كان مردّ ذلك الفرح أم الترح.

الفصل الرابع

الغَطّاس

انقضى أسبوع. في يوم السبت أمطرت السماء رذاذاً ناعماً كان يتوقف بين آن وآخر. وفي إحدى فترات توقفه خرجت «غدرون» و«أرسيولا» تتمشيان منطلقتين نحو (ويلي ووتر). كان الجّو ملبداً بالغيوم، معتماً وكانت الطيور تغرد تغريداً حاداً على الأغصان الصغيرة، والأرض سوف تسرع وتستعجل في النماء. سارت الفتاتان مسرعتين جذلتين بفضل الاندفاع الليّن والرقيق للصباح الذي حلَّ على الضباب النديّ. وإزاء الطريق كانت أشجار البرقوق قد أزهرت، بيضاء، ندية، وحبيباتها العنبرية تتألق تألقاً خافتاً في ضباب التزهير الأبيض. وكانت الغصينات الأرجوانية ترسل نوراً قاتماً في الهواء الأغبش، وأسيجة الشجيرات العالية تلتمع مثل أشباح حية تحوم وتدنو مقتربة من صيرورتها مخلوقات. لقد كان الصباح مليئاً بخلق جديد.

حين أقبلت الأختان على (ويلي ووتر) كانت البحيرة كلها رمادية شبحية تمتد إلى الأفق الندي شبه الشفاف للأشجار والمرج. ومن الأعمدة أسفل الطريق كانت تصدر أصوات عن نشاط كهربائي رقيق.

وكانت الطيور تتصافر فيما بينها، وصوت الماء يترشش على نحو غامض، آتياً من البحيرة.

انساقت الأختان قدماً. وكان أمامهما عند زاوية البحيرة، قرب الطريق، بيت عائم تكسوه الطحالب، قابع تحت شجرة جوز، ومرسى صغير أرسي فيه زورق، كان يتمايل كالشبح في الماء، الداكن، الساكن، تحت الأعمدة الخضر المتفسخة. كان كل شيء شبحياً مع مقدم الصيف.

وعلى حين غرة، جرى من البيت العائم جسم أبيض مخيف في نقلته السريعة

الحادة عبر المرسى العتيق. مرق هذا الجسم في الهواء على شكل قوس أبيض وتفرقع الماء، ومن بين المويجات الناعمات كان هناك سابح ينشد الهواء، وسط حركة جَيَشان خفيف. لقد كان كل العالم الآخر، الندي والنائي، ملكه هو وحده. كان في استطاعته التحرك داخل الشفافية الخالصة للماء الرمادي لعالم آخر غير مسكون بعد.

وقفت «غدرون» إزاء الحائط الحجري، تراقب.

قالت في نبرات خفيضة تواقة: (كم أحسده).

فقالت «أرسيولا» وهي ترتجف: (آخ! ما أبرد الجو!).

وقفت الأختان ترقبان السابح وهو ينأى باتجاه حيز الماء الداكن المخضل الكامل وينبض بحركته الصغيرة الغازية الخاصة وقد علاه قوس من الضباب ومعتم الشجر.

تساءلت «غدرون» وهي تنظر إلى «أرسيولا»: (أجل. لكني لست متأكدة.. الجو رطب جداً).

فقالت «غدرون» مترددة: (كلا). لبثت واقفة تراقب الحركة على صدر الماء، كالمفتونة. أما هو، فبعد أنْ سبح مسافةً ما، استدار وطفق يسبح على ظهره، وهو ينظر عبر الماء إلى الفتاتين الواقفتين قرب الحائط لقد كانتا تستطيعان رؤية وجهه المتورد، وتحسّان مراقبته إياهما في مُضطَرَب الحركة الخفيف.

قالت «أرسيولا»: (إنه «جرالد كريتش»).

فأجابت «غدرون»: (أعرف ذلك).

ثم لبثت، بلا حراك، تحدق عبر سطح الماء إلى الوجه الذي كان يغسله فيض الماء صعوداً وهبوطاً فيما كان يواصل سباحته. لقد رآهما من نقطته المستقلة تلك وابتهج بسبب ميزته الخاصة... حيازته عالماً يخصّه وحده. لقد كان منيعاً ومتكاملاً، أحبَّ حركته القوية المخترقة هو والوقع الشديد للماء البارد جداً على أطرافه وتعويمه إياه. كان في مستطاعه رؤية الفتاتين وهما ترقبانه من بعيد، في الخارج، مما أبهجه.

فرفع ذراعه من الماء، مشيراً لهما.

قالت «أرسيولا»: (إنه يلوّح).

فأجابت «غدرون»: (نعم). وظلتا تراقبانه فلوّح ثانية بحركة غريبة رداً للتحية، عبر البون.

فضحكت «أرسيولا» وقالت: (كأنه «نيبلونغ»)(*).

لم تقل «غدرون» شيئاً، بل ظلت واقفة دون حراك، وهي تشرف على الماء.

استدار «جرالد» فجأة، وشرع يسبح مبتعداً مسرعاً بضربة جانبية، لقد غدا وحيداً ومنيعاً وسط المياه التي كانت كلها تخصه دون غيره. لقد فرح بعزلته في البيئة الجديدة، غير منازع وغير مقيد.

كان سعيداً وهو يندفع بساقيه وكامل جسمه، دون قيد أو علاقة ما، بل بشخصه هو فقط في العالم المائي.

لقد حسدته «غدرون» حداً يقرب من الألم. وبدا لها حتى هذا الامتلاك الوقتي للعزلة الخالصة والسيولة مبتغى لدرجة أنها أحست بنفسها كالملعونة، وهي في الخارج، على الطريق الرئيس. فصاحت: (يا إلهي، ما أعظم أن يكون المرء رجلاً!).

فهتفت «أرسيولا» متعجبة: (ماذا؟).

فصاحت «غدرون»: (الحرية، التحرر، إمكانية التحرك!)، وقد تورد وجهها، والتمع على نحو غريب. وأضافت: (أن يكون المرء رجلاً، يريد أن يفعل شيئاً فيفعله، وليس لديك آلاف الموانع التي تواجه المرأة).

تساءلت «أرسيولا» عما كان يدور في خلد «غدرون» مما تسبب في هذا الانفجار. لم تستطع أن تفهم. فسألت:

- (وماذا تريدين أن تفعلي؟).

فهتفت «غدرون» في إنكار سريع: (لا شيء.. لكن افترضي أنني أريد أن أفعل شيئاً. افترضي أنني أبغي السباحة في تلك المياه. إنها مستحيلة، إنها أحد مستحيلات الحياة، بالنسبة إليّ، أن أخلع ثيابي الآن وأقفز فيها. ولكن أليس ذلك سخيفاً؟ ألا يحول ذلك ببساطة دون عيشنا؟).

لقد اهتاجت واحتقن وجهها واغتاظت إلى درجة حيرت «أرسيولا».

مضت الأختان قدماً في طريقهما، مارتين بين الأشجار الكائنة أسفل (شورتلاندز) مباشرة. نظرتا إلى المسكن الطويل، المنخفض، الذي غدا جذاباً وغير جلي في الصباح النديّ، وأشجار أرزه مائلة قبالة النوافذ.

---

* نيبلونغ: أحد الأقزام في الأساطير الألمانية، كان يتولى، مع آخرين، شأن المحافظة على خزينة الذهب والأحجار الكريمة الأخرى. (المترجم)

وبدت «غدرون» تتفحصه عن كثب.

تساءلت «غدرون»: (أترينه جذاباً يا «أرسيولا»؟).

فقالت «أرسيولا»: (جداً. جد هادئ وساحر).

- (له شكل كذلك.. وله طابع فترة تأريخية).

- (أية فترة تاريخية؟).

- (أوه، القرن الثامن عشر، على وجه التأكيد. فترة «دوروثي وردزورث» و«جين أوستن»(*). ألا تظنين ذلك؟).

ضحكت «أرسيولا».

فعاودت «غدرون» السؤال: (ألا تظنين ذلك؟).

- (ربما. لكنني لا أظن أن آل «كريتش» يلائمون تلك الفترة. أعرف أن «جرالد» قائم بنصب محطة كهربائية خاصة، لغرض إنارة الدار وأنه مُدخِلٌ أحدث أنواع التحسينات جميعاً).

فهزت «غدرون» كتفيها على عجل وقالت: (طبيعي هذا لابد منه تماماً).

فضحكت «أرسيولا» وقالت: (تماماً، إنه أصغر بأجيال عدة، مرة واحدة. إنهم يكرهونه لذلك. إنه يمسك بهم جميعاً من مؤخرة العنق ويقذف بهم قذفاً. ولابد أنه سيموت قريباً، حين يكون قد أدخل كل التحسينات الممكنة ولم يعد ثمة مزيد يتطلب التحسين. إنه يمتلك حماسةً، على أية حال).

فقالت «غدرون»: (إنه يمتلك الحماسة على نحو مؤكد. في الواقع أنا لم أر قط رجلاً أظهر مثل ذلك القدر منها. المؤسف هو: إلى أين ستفضي حماسته؟ ماذا سيحل بها؟).

فقالت «أرسيولا»: (أوه، أنا أعلم. أنها ستفضي إلى إدخال أحدث العُدَدَ!).

فقالت «غدرون»: (تماماً).

فقالت «أرسيولا»: (أتعلمين أنه أطلق النار على أخيه؟).

فصاحت «غدرون» عابسة الوجه، كما لو كانت مستهجنة: (أطلق النار على أخيه؟).

---

* عاشت كلتاهما في مناطق ريفية في إنكلترة . «دوروثي وردزورث» (١٧٧١ ـ ١٨٥٥) أخت الشاعر «ويليم وردزورث» ورفيقته في الفكر ، و«جين أوستن» (١٧٧٥ـ١٨١٧) الروائية المشهورة . (المترجم)

ـ (ألا تعلمين؟ اي نعم!.. ظننت أنك كنت تعلمين. كانا، هو وأخوه، يعبثان ببندقية، فطلب من أخيه أن ينظر داخلها، وكانت محشوة فنسفت قمة رأسه من مكانها. أليست قصة فظيعة؟).

فصاحت «غدرون»: (ما أفظعها! لكنها حدثت منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟).

فقالت «أرسيولا»: (بلى، كانا مجرد صبيين. أظن أنها واحدة من أفظع القصص التي أعرف).

ـ (طبيعي أنه لم يكن يعرف بأن البندقية كانت محشوة؟).

ـ (بلى. لقد كانت، كما ترين، سلاحاً عتيقاً ملقى في الإصطبل منذ سنين. ولم يكن أحد يحلم أنه قد ينطلق يوماً ما، ولم يتصور أحد، حتماً، أنه كان محشواً. ولكن أليس رهيباً أن يحدث ذلك؟).

فهتفت «غدرون»: (مريع! كذلك، أليس من الفظاعة تصور حدوث شيء مثل هذا لشخص في طفولته واضطراره لتحمل مسؤولية ذلك طيلة حياته؟ تصوري ذلك: طفلين يلعبان معاً ـ ثم ينزل هذا عليهما فجأة، دون أي سبب كان ـ نازلة من السماء. إنه مريع جداً يا «أرسيولا»! أوه إنه أحد الأشياء التي لا أطيق. جريمة قتل ـ ذلك شيء يمكن تصوره لأن وراءه إرادة. لكنْ أن يحدث مصادفةً مثلُ هذا الشيء لشخص ما..).

فقالت «أرسيولا»: (ربما كانت هناك إرادة لا واعية وراء ذلك. إن في لعبة القتل هذه رغبة ما بدائية في القتل، ألا تظنين ذلك؟).

فقالت «غدرون» ببرود وقد تصلبت قليلاً: (رغبة! إنني لا أستطيع تصورهما يمارسان حتى لعبة القتل كلعبة. أحسب أن أحد الصبيين قال للآخر: «انظر داخل الماسورة بينما أسحب أنا الزناد، ولنرَ ما يحدث»... إنها تبدو لي من أشد أشكال المصادفات نقاءً).

فقالت «أرسيولا»: (كلا، لن أستطيع سحبَ زنادِ أفْرَغَ بندقيةٍ في العالم. ليس عندما يكون أحدهم ناظراً داخل الماسورة. إن المرء، غريزياً، لا يفعل ذلك ـ إنه لا يستطيع إتيان ذلك).

صمتت «غدرون» بضع دقائق، صمتاً ينمّ عن عدم موافقة حادة.

ثم قالت ببرود: (من الطبيعي لو حدث ذلك لامرأة، امرأة بالغة، فالغريزة تمنعها. لكنني لا أستطيع أن أرى كيف ينطبق ذلك على صبيين يلعبان معاً).

كان صوتها بارداً وغاضباً.

أصرت «أرسيولا» قائلة: (نعم). وفي تلك اللحظة سمعتا صوت امرأة تقول بصوت عالٍ على بعد بضع ياردات: (اللعنة على هذا الشيء!).

تقدمت الأختان وشاهدتا «لورا كريتش» و«هرمايني رودس» في الحقل على الجانب الآخر من سياج الشجيرات، وكانت «لورا كريتش» تصارع البوابة بغية الخروج. فهرعت «أرسيولا» حالاً وساعدتها في رفع البوابة.

فقالت «لورا»: (شكراً جزيلاً) وبدت، وهي ترفع نظرها، محتقنة الوجه، شبه أمازونية(*) لكنها مرتبكة بعض الشيء.. (هناك خلل في المفصل).

فقالت «أرسيولا»: (هو كذلك. كما أنها ثقيلة جداً).

فهتفت «لورا»: (شيء عجيب!).

ـ (كيف الحال؟)... جاء صوت «هرمايني» كالغناء من خارج الحقل، في اللحظة التي استطاعت فيها أن تُسْمِعَ صوتَها. وواصلت:

ـ (الجو لطيف الآن. أنتما تتمشيان؟ نعم. أليست الخضرة الجديدة جميلة؟ جميلة جداً. نضرة جداً. طاب صباحكما.. طاب صباحكما! ستأتيان لزيارتي؟ شكراً جزيلاً.. الأسبوع القادم.. أجل.. إلى اللقاء.. إلى ألل ـ قـ ـ ا ـ ء).

وقفت «غدرون» و«أرسيولا» تراقبانها وهي تهز رأسها إلى الأعلى وإلى الأسفل على مهل وتلوح بيدها ببطء منصرفة، وتبتسم ابتسامة غريبة مصطنعة، وتكوّن قامة طويلة غريبة مخيفة، وشعرها الأشقر، الكثيف يتهدل فوق عينيها. ثم مضيتا كما لو كانتا قد صُرِفَتا لأنهما أدنى مرتبة. فتفرقت النسوة الأربع.

وحينما ابتعدتا بمسافة كافية، قالت «أرسيولا» وقد اشتعلت وجنتاها:

ـ (أعتقد جازمة بأنها وقحة).

فتساءلت «غدرون»: (مَنْ؟ «هرمايني» رودس؟ لماذا ؟).

ـ (الطريقة التي تعامل بها المرءَ.. وقاحة!).

فتساءلت «غدرون» بشيء من الفتور: (لماذا، يا «أرسيولا»، ماذا لاحظتِ من وقاحة إلى هذه الدرجة؟).

* الأمازونيات: محاربات، في الأساطير الإغريقية. (المترجم)

ـ (سلوكها كله. أوه، إنه لا يطاق، النحو الذي تحاول فيه أن تتنمّر على الآخرين. تَنَمُّر محض. إنها امرأة وقحة. «ستأتيان لزيارتي»، كما لو يتعين علينا أن نركع من أجل الحصول على هذا الامتياز).

فقالت «غدرون» مغتاظة بعض الشيء: (لا أفهم يا «أرسيولا»، علام تكدّرك إلى هذا الحد. معروف أن النسوة وقحات.. تلك النسوة المتحررات اللواتي حررن أنفسهن من الأرستقراطية).

فهتفت «أرسيولا»: (لكن ذلك لا لزوم له البتة.. إنه مبتذل جداً).

ـ (كلا، لست من هذا الرأي. وحتى لو ارتأيت ذلك.. فإنها غير موجودة بالنسبة إلي(*). إنني لا أمنحها صلاحية أن تكون وقحةً حيالي).

فسألت «أرسيولا»: (أوتظنين أنها تحبك؟).

ـ (حسن كلا، لن أميل إلى الظن بأنها تحبني).

ـ (إذاً لماذا تسألك أن تذهبي إلى (بريدالبي) وتمكثي معها؟).

رفعت «غدرون» كتفيها في هزة خفيضة تنم عن لا مبالاة وقالت: (لديها ـ على أية حال ـ من الإدراك لكي تعلم أننا لسنا من الرهط العادي. ومهما كانت فهي ليست حمقاء. وإني لأفضّل صحبة من أمقت على صحبة المرأة التي تظل حبيسة رهطها. إن «هرمايني رودس» تخاطر بنفسها فعلاً في بعض النواحي).

فكرت «أرسيولا» ملياً في هذا بعض الوقت، ثم أجابت:

ـ (أشك في ذلك. في الحقيقة إنها لا تخاطر بأي شيء، أظن أنه يجب علينا أن نعجب بها لأنها تعلم أنها تستطيع أن تدعونا ـ نحن معلمات المدارس ـ دون أن تخاطر بأي شيء).

فقالت «غدرون» (تماماً! فكّري بعشرات آلاف النساء اللواتي لا يجرؤن على فعل ذلك. إنها تستفيد من امتيازاتها إلى أقصى حد.. وهذا. شيء ما. أظن أن علينا في الواقع أن نفعل الشيء نفسه، لو كنا مكانها).

فقالت «أرسيولا»: (كلا، كلا، إن ذلك سيضجرني. إنني لا أستطيع أن أنفق وقتي في ممارسة ألعابها. إنه يمس الكرامة).

---

* قالت أرسيولا الجملة الأخيرة بالفرنسية. (المترجم)

كانت الأختان كشفرتي المقص تقصصان كل شيء يقع بينهما، أو مثل السكين وحجر المسن، تغدو حادةً به.

هتفت «أرسيولا» على حين غرة: (طبيعي. يجب عليها أن تشكر السماء أن ذهبنا وقابلناها. إنك جميلة تماماً. أجمل منها ألف مرة في أي وقت كانت أو ستكون، وحسب رأيي أجمل منها ملبساً ألف مرة لأنها لا تبدو نضرة وطبيعية كالزهرة، أبداً. فهي مسنّة ومدروسة دوماً. كما أننا أذكى من معظم الناس).

فقالت «غدرون»: (دون ريب!).

فقالت «أرسيولا»: (وذلك ما يجب الاعتراف به، بالبساطة كلها).

فقالت «غدرون»: (مؤكد. لكنك ستجدين أن الأناقة الحقة هي في أن يكون المرء اعتيادياً بصورة مطلقة جداً، ومألوفاً بصورة كاملة وشبيهاً برجل الشارع، إلى درجة يكون فيها حقاً تحفة الإنسانية. ليس رجلَ الشارع فعلاً، بل الخلق الفني).

فصاحت «أرسيولا»: (ما أفظع ذلك!).

- (أجل يا «أرسيولا» إنه فظيع، في أغلب النواحي. إنك لا تملكين أن تكوني أي شيء غير أن تكوني دنيوية(*) حدّ الإذهال، دنيوية إلى درجة يصبح فيها ذلك الشيءُ الخلقَ الفني للاعتيادية).

فضحكت «أرسيولا» قائلة: (من البلادة الكبيرة أن يخلق المرء ذاته على ما ليس هو أفضل).

فردت «غدرون»: (بلادة كبيرة! حقاً يا «أرسيولا» إنه من البلادة: هذه هي الكلمة الصحيحة. إن المرء يتوق إلى أن يعلو، ويلقي الخطب مثل «كورنيه»(**)، بعد ذلك).

كانت «غدرون» تغدو أشد توردًا وحماسة حيال ذكائها.

قالت «أرسيولا»: (التبختر! يريد المرء أن يتبختر.. أن يكون كالبجعة بين الوز).

فهتفت «غدرون»: (تماماً. كالبجعة بين الوز).

فصاحت «أرسيولا» ضاحكة ضحكة استهزاء: (كلهم مشغولون في تمثيل دور فرخ

---

* قالت «غدرون» كلمة (دنيوية) باللغة الفرنسية. (المترجم)

** بيركورنيه (١٦٠٤ - ١٦٨٤) كاتب مسرحي فرنسي تميزت مسرحياته باحتوائها على الخطابة. (المترجم)

البط القبيح المتواضع(*) المسكين. بل يشعر هكذا. وأنا لا أبالي بما يظنون هم بي، ولا أهتم)(**).

نظرت «غدرون» إلى «أرسيولا» بكراهية وحسد غريبين، غير مؤكدين. وقالت: (بلا شك الشيء الوحيد الذي يجب عمله هو احتقارهم جميعاً.. أجل جميعاً).

عادت الأختان إلى البيت ثانية، لتقرآ وتتحدثا، وتشتغلا، في انتظار يوم الإثنين، في انتظار المدرسة. ولطالما تساءلت «أرسيولا» ماذا كانت تنتظر غير ذلك عدا بداية الأسبوع المدرسي ونهايته، وبداية العطلات ونهايتها. كانت تلك الحياة بكاملها! أحياناً، كانت تمر بفترات رعب خانق حين كان يبدو لها أن حياتها سوف تمر وتنقضي دون ما يزيد عن ذلك. بيد أنها في الحقيقة لم تقبل بذلك قط. كانت روحها مفعمة بالنشاط، وحياتها كنبتة في تنامٍ ثابت، لكنها لم تبرز بعد فوق التربة.

---

* الإشارة هنا إلى إحدى حكايات القاص الهولندي «هانز كريستيان اندرسن» (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥)، حيث يتبين أن «فرخ البط القبيح» كان بجعة. (المترجم)

** قالت «لا أهتم» بالفرنسية. (المترجم)

الفصل الخامس

في القطار

في يوم من أيام تلك الفترة، استدعي «بركن» إلى (لندن). كان لا يستقر على حال. فله غرف في (نونتنغام) لأن عمله الرئيسي كان هناك.

بيد أنه غالباً ما كان يوجد في (لندن) أو (أكسفورد). كان يتنقل كثيراً.

وبدت حياته غير مستقرة، خالية من أي إيقاع محدد، من أي معنى عضوي.

على رصيف محطة القطار شاهد «جرالد كريتش» يطالع إحدى الصحف منتظراً القطار كما هو واضح. فوقف بركن على مسافة ما، بين الناس، فالتقرب من أي شخص كان يناقض غريزته.

كان «جرالد» يرفع رأسه بين حين وآخر وينظر إلى ما حوله وهي عادة تميّزة. ومع أنه كان يطالع الجريدة بإمعان وكان عليه أن يراقب محيطه الخارجي، كان ثمة في قرارة نفسه وعيان، على ما يلوح. فقد كان يفكر ملياً في شيء ما قرأه في الصحيفة وفي الوقت عينه كانت عيناه تحومان على أوجه الحياة حوله، ولم يفته أي شيء. أما «بركن»، الذي كان يراقبه، فقد أغاظته تلك الازدواجية. كما لاحظ أن «جرالد» كان دوماً يبدو كمن وضع في زاوية في مواجهة كل الناس، على الرغم من سلوكه اللامألوف، الأنيس والاجتماعي حين يصحو.

في هذه اللحظة فزّ «بركن» بعنف عند مشاهدة هذه النظرة الأنيسة تومض على وجه «جرالد» وعند مشاهدة «جرالد» يدنو ماداً يده.

- (مرحباً، «روپرت» إلى أين أنت ذاهب؟).

- (إلى «لندن». كذلك أنت، على ما أظن).

- (نعم)..

جالت عينا «جرالد» في وجه «بركن» بفضول.

قال: (سنسافر معاً إن أحببت).

فسأله «بركن»: (أما اعتدت السفر في الدرجة الأولى؟).

أجاب «جرالد»: (لا أطيق الازدحام لكن الثالثة لابأس بها. هناك عربة مطعم حيث يمكننا تناول شيء من الشاي).

نظر الرجلان إلى ساعة المحطة، إذ لم يبق ما يتحدثان فيه.

سأل: «بركن» (ماذا كنت تقرأ في الصحيفة؟).

فنظر «جرالد» إليه سريعاً وقال: (أليس مضحكاً هذا الشيء الذي ينشرونه فعلاً في الصحف؟) ومدَّ نسخته من «الديلي تلغراف»، أجال نظرة سريعة في الأعمدة، نزولاً، وأضاف: (ثم هناك هذا الذي لا أعرف ماذا تسميه.. هذه المقالة الصغيرة.. أو ما يقرب من المقالة، المنشورة مع الافتتاحيتين، والقائلة بوجوب قيام رجل سيعطي الأشياء قيماً جديدة، ويعطينا حقائق جديدة، وموقفاً جديداً إزاء الحياة، وإلا فسنكون في بضع سنوات مجرد عدمٍ، حطاماً، بلداً خراباً..).

فقال «بركن»: (أظن أن ذلك جزء من اللغو الصحفي هو الآخر).

فقال «جرالد»: (يبدو كأن الرجل عنى ما قال، وبصدق نية تام).

فقال «بركن»: (أعطنيها) ماداً يده ليتناول الجريدة.

قَدِمَ القطار فركباه، وجلسا إلى إحدى الموائد متقابلين، بجانب النافذة، في عربة المطعم. نظر «بركن» إلى صحيفته ثم إلى «جرالد» الذي كان ينتظر.

- (أعتقد أن الرجل يعني ذلك، إنْ كان يعني أي شيء).

فسأل «جرالد»: (أوتظن أن ذلك صحيح؟ هل تظن أننا نحتاج حقاً إلى إنجيل جديد؟).

فهز «بركن» كتفيه.

- (أظن أن الأشخاص الذين يقولون أنهم يريدون ديناً جديداً هم آخر من يقبل بأي جديد. إنهم في حقيقة الأمر يبتغون الجدة. ولكن، أن نحدق مباشرة إلى هذه الحياة التي صنعناها لأنفسنا ثم رفضناها، وأن نحطم أوثاننا القديمة تحطيماً مطلقاً، فذلك ما لن نفعله أبداً. لابد أن نمتلك الشعور بالحاجة الماسة إلى التخلص من القديم قبل أن يظهر أي جديد.. حتى في الذات).

لبث «جرالد» يراقبه عن كثب. وتساءل:

ـ (أوتعتقد أنه يجب علينا أن نحطم هذه الحياة؟ أليس علينا إلا أن نبدأ ونضرب؟).

ـ (بالنسبة إلى هذه الحياة، بلى. علينا أن نهشمها كلياً، أو نذوي في داخلها، كما في قربة محكمة الشد. ذلك أنها لن تتمدد أكثر).

بانت في عيني «جرالد» ابتسامة صغيرة غريبة، نظرة استمتاع هادئة وفضولية.

تساءل: (وكيف يكون البدء على ما تقترح. أفترض أنك تقصد إصلاح نظام المجتمع كلياً؟).

فانعقد حاجباً «بركن» قليلاً وعلى نحو متوتر. لقد ضاق ذرعاً بالمحادثة، هو الآخر.

أجاب:

ـ (أنا لا أقترح أي شيء على الإطلاق. حين نبغي شيئاً أفضل، حقاً، نهشم القديم. وإلى أن يحين ذلك الوقت، فكل ضرب من ضروب الاقتراح أو التقدم بالمقترحات، ما هو إلا لعبة متعبة لأناس معتدّين بأنفسهم).

شرعت الابتسامة الصغيرة تموت في عيني «جرالد»، فقال وهو يتفرس في «بركن» بنظرة فاترة:

ـ (أوَتظن أنت، إذاً، أن الأمور في غاية السوء فعلاً؟).

ـ (سيئة على نحو كامل).

فبانت الابتسامة ثانية.

ـ (من أية ناحية؟).

فقال «بركن»: (من جميع النواحي. لكم نحن كذابون مثيرون للغم. إن فكرتنا الوحيدة هي أن نكذب على أنفسنا. لدينا مثل أعلى في عالم كامل نظيف مستقيم ووافٍ. ولذلك نغمر الأرض قذارة: الحياة عبارة عن لطخة من عمل، كأننا حشرات تتراكض في الوساخة، كي يمتلك عامل منجمك آلة البيانوفورتي(*) في صالته. ويكون

---

* استعمل «بركن» الاسم الإيطالي القديم لآلة البيانو . (المترجم)

لديك ساقٍ وسيارة في دارك العصرية، ولكي نستطيع كشعب أن نتلهى في الـ (رتز) والامبراطورية و(غابي دزلز)(*) وبصحف يوم الأحد. إنه لأمر مثير للغم جداً).

أما «جرالد» فقد استغرق بعض الوقت ليعيد تكييف نفسه بعد هذا الخطاب الشديد، ثم سأل:

ـ (أترجح أن نعيش بدون بيوت.. ونعود إلى الطبيعة؟).

ـ (إنني لا أرجح أي شيء البتة. فالناس لا يفعلون إلا ما يريدون أن يفعلوه.. إلا ما هم قادرون على فعله. ولو كانوا قادرين على فعل أي شيء آخر لكان لهم شأن آخر).

عاد «جرالد» يفكر ملياً. لقد انتوى ألا يستاء من «بركن».

ـ (ألا تظن أن البيانوفورتي ـ كما تسميه ـ الذي يملكه عامل المنجم، هو رمز لشيء ما حقيقي جداً، رغبة حقيقية في شيء أسمى في حياة عامل المنجم؟).

فصاح «بركن»: (أسمى! أجل، سموّ مدهش لعظمة منتصبة. إنه يجعله أسمى بكثير في عيون جيرانه من عمال المناجم. يرى نفسه منعكساً في رأي الجيران، كالضباب في جبل (بروكن)(**)، أطول قامة ببضعة أقدام بفضل البيانوفورتي، فيرضى. أنه يعيش من أجل طيف (بروكن) ذاك: من أجل منعَكَس ذاته في عيون البشر. أنت تفعل الشيء عينه، فإن كنت ذا أهمية كبيرة بالنسبة إلى البشرية، فأنت كبير الأهمية بالنسبةإلى ذاتك. ومن أجل ذلك تكدّ وتشقى في المناجم. فإن استطعت استخراج فحم لطبخ خمسة آلاف وجبة عشاء في اليوم، فأنت خمسة آلاف مرة أكثر أهمية مما لو طهوت عشاءك الخاص فقط).

ضحك «جرالد» وقال: (أظن أنني كذلك).

فقال «بركن»: (ألا ترى أن مساعدة جاري ليأكل لا تزيد عن كونها حالة أكلي أنا. «أنا آكل، أنت تأكل، هو يأكل، نحن نأكل، أنتم تأكلون، هم يأكلون». ثم ماذا؟ لِمَ يجب على كل واحد أن يصرِّف الفعل بكامله. إن ضمير المتكلم المفرد يكفيني).

---

* (رتز) اسم فندق فخم جداً في لندن. والمقصود بالإمبراطورية الإمبراطورية البريطانية. أما (غابي دزلز) فكانت مغنية فرنسية (١٨٨٤ـ ١٩٢٠)، اعتادت تقديم حفلات لها في لندن آنذاك. (المترجم)

** جبل عال في ألمانيا حيث قيل أن ظلالاً مضخمة للواقفين هناك كانت تظهر منعكسة على الضباب المعتلي الجبل المقابل. (المترجم)

فقال «جرالد»: (إن عليك أن تبدأ بالأشياء المادية). بيد أن «بركن» تجاهل جملة «جرالد».

فقال هذا: (ولابد من أن نعيش من أجل شيء ما. فلسنا مجرد بهائم، تستطيع أن ترعى، وينتهي الأمر).

فقال «بركن»: (قل لي: من أجل أي شيء تعيش أنت؟).

فبدت على وجه «جرالد» الحيرة، وكرّر السؤال:

ـ (من أجل أي شيء أعيش؟! أحسب أنني أعيش لأعمل، لأنتج شيئاً ما، ما دمت كائناً ذا هدف. وما عدا ذلك فإنني أعيش لأنني عائش).

ـ (وما هو عملك؟ الحصول على كذا ألف طن أكثر من الفحم من باطن الأرض كل يوم. وحين نحصل على كل الفحم الذي نريد، وكل الأثاث الفخم، والبيانوفورتات، وحين تُطهى كلّ الأرانب وتؤكل، ونتدفأ ونملأ بطوننا وننصت إلى السيدة الشابة وهي تعزف على البيانوفورتي... ثم ماذا؟ ثم ماذا حين تكون قد بدأت بداية طيبة حقاً في مادياتك؟).

لبث «جرالد» جالساً وهو يضحك من كلمات الرجل الآخر ومزاجه الساخر. لكنه كان يمعن التفكير هو الآخر. ثم أجاب:

ـ (لم نصل إلى هذا الحد بعد. ثمة كثيرون لا يزالون ينتظرون الأرنب والنار التي تنضجه).

فقال «بركن» وهو يسخر من «جرالد»: (يجب عليّ، إذاً، أن أطارد الأرنب فيما تحصل أنت على الفحم).

فقال «جرالد»: (شيء من هذا القبيل).

لبث «بركن» يراقبه، بعينين خوصاوين. كان يرى في «جرالد» كامل التحجر البشوش، بل اللؤم الغريب الملتمع، الملتمع من خلال أخلاقيات الإنتاج المقبولة. قال:

ـ (يا «جرالد»، أكاد أن أكرهك).

فقال «جرالد» (أعرف ذلك. لماذا؟).

فاستغرق «بركن» في تفكير غامض بضع دقائق. وأخيراً قال:

ـ (أود أن أعرف ما إن كنت واعياً بكرهك إياي. هل تكرهني قط. وأنت واع.. تكرهني كرهاً مبهماً؟ ثمة لحظات شاذة أكرهك فيها كرهاً بسعة الفلك).

جفل «جرالد» إلى حد ما. بل تبلبلت أفكاره قليلاً ولم يدر تماماً ماذا عليه أن يقول ثم أجاب:

- (قد أكرهك أحياناً. طبيعي. لكنني لست دارياً بذلك... أي أنني لا أعي ذلك وعياً حاداً أبداً).

فقال «بركن»: (ذلك أسوأ).

فراقبه «جرالد» بعينين مستطلعتين. لم يستطع أن يتيقن من كنهه تماماً.

وكرر: (أسوأ. هكذا؟).

صمت الرجلان بعض الوقت فيما كان القطار يمضي. كان في وجه «بركن» شيء من التوتر القابل للاهتياج وانعقاد شديد للحاجبين، حاد وقاس. ظل «جرالد» يراقبه بحرص. باهتمام. بل بشيء من التحسب. ذلك أنه لم يستطع أن يتوصل إلى ما كان يرمي إليه.

وعلى حين غرة. ألقت عينا «بركن» نظرة مستقيمة وقاهرة داخل عيني الرجل الآخر. وسأل:

- (ماهو في نظرك الهدف والغاية من حياتك. يا «جرالد»؟).

جفل «جرالد» ثانية. لم يستطع أن يستنتج ما قصده صديقه. هل كان يستثير المزاح أم لا؟

فأجاب بمزاح تكاد سخريته لا تظهر: (في هذه اللحظة. لا أتمكن من الإجابة مباشرة).

فتساءل «بركن» بجدية واعية ومباشرة: (هل تظن أن العيش هو هدف الحياة الأوحد؟).

فقال «جرالد»: (حياتي أنا؟).

- (نعم)

فحدث توقف محير حقاً.

ثم قال «جرالد»: (لا أستطيع القول إنه لم يكن كذلك حتى الآن؟).

-(وما الذي كانته حياتك، حتى الآن؟).

-(أوه، اكتشاف الأشياء بنفسي، والحصول على الخبرات وتمشية الأشياء).

فعقد «بركن» حاجبيه كالفولاذ المقولب بشدة. وقال:

-(أرى أن المرء في حاجة إلى ضرب مفرد من النشاط. نقي حقاً.. فأنا مثلاً أسميّ الحب نشاطاً مفرداً نقياً. بيد أنني لا أحب أحداً في الحقيقة.. ليس الآن).

فسأله «جرالد»: (هل أحببت أحداً حقاً في يوم من الأيام؟).

فأجاب «بركن»: (نعم ولا).

قال «جرالد»: (ليس حباً نهائياً؟).

قال «بركن»: (نهائياً .. نهائياً.. كلا).

قال «جرالد» : (ولا أنا).

قال «بركن» : (وهل تريد ذلك؟).

فنظر «جرالد» في عيني الرجل الآخر نظرة طويلة متلألئة، تكاد أن تكون ساخرة وقال:

-(لا أعرف).

فقال «بركن»: (أما أنا فأعرف .. أنا أريد أن أحب).

-(حقاً؟).

- (أجل أريد نهائية الحب).

فكرر «جرالد»: (نهائية الحب). وانتظر لحظة. ثم أضاف:

(امرأة واحدة فقط؟).

أنار ضوء المساء، الذي كان يغمر الحقول باللون الأصفر، وجه «بركن» بسيماء من الصمود المتوتر المجرد. وظل «جرالد» غير مدرك المقصود.

قال «بركن»: (أجل، امرأة واحدة).

لكنه بدا بالنسبة إلى «جرالد» وكأنه كان مصراً أكثر منه واثقاً.

قال «جرالد»: (لا أظن أن امرأة واحدة، ولا شيء غير امرأة واحدة، سوف تكون حياتي أبداً).

فتساءل «بركن»: (لا مركز حياتك ولا جوهرها؟.. الحب الذي بينك وبين امرأة؟).

ضاقت عينا «جرالد» بابتسامة غريبة، خطرة، فيما كان يراقب الشخص الآخر، وقال:

ـ (لا أشعر قط بذلك على هذا النحو).

ـ (ألا تشعر؟ إذاً أين تتمركز الحياة بالنسبة إليك؟).

ـ (لا أدري.. ذلك هو ما أريد أن يخبرني به أحد. وبقدر ما أستطيع أن أفقهها، فإنها لا تتمركز أبداً. إنها متماسكة على نحو مصطنع بواسطة الآلية الاجتماعية).

تأمل «بركن» كما لو كان مهيِّئاً مفاجأة وقال:

ـ (أعرف أنها لا تتمركز قط. ذلك أن المثل العليا القديمة ميتةٌ ميتَة المسامير.. لا شيء ثمة. يلوح لي أنه لم يبق سوى هذا الاتحاد الكامل مع المرأة.. شيء ما من مثل الزواج النهائي.. وليس هناك أي شيء آخر).

فقال «جرالد»: (تعني: إنْ لم توجد المرأة، فلا يوجد أي شيء؟).

ـ (هو ذاك تقريباً.. ما دام ليس هناك رب).

فقال «جرالد»: (نحن مبتلون إذاً بذلك). ثم استدار لينظر عبر النافذة إلى المنظر الخلوي الذهبي، المارق.

لم يستطع «بركن» إلا أن يتملّى جمال وجهه وبسالته بشيء من شجاعة اللامبالي ثم قال:

ـ (أوتظن أن الرياح تجري ضدنا تماماً؟).

فقال «جرالد»: (إن كان علينا تشكيل حياتنا من امرأة، من امرأة واحدة، واحدة لا غير، فالجواب نعم، أنا أظن ذلك. أنا لا أعتقد أنني سوف أشكّل حياتي أنا على هذا النحو أبداً).

راقبه «بركن» بما يشبه الغضب، وقال:

ـ (إنك كافر بالولادة).

فقال «جرالد»: (أنا لا أحسّ بغير ما أشعر). ثم عاد ونظر إلى «بركن» بما يشبه الهزء بعينيه الزرقاوين، الرجوليتين، الجادتين.

في تلك اللحظة كانت عينا «بركن» تزخران بالغضب. لكنهما سرعان ما أصبحتا متكدرتين، مرتابتين، ثم زخرتا بالود الدافئ، الثر، وبالضحك.

قال «جرالد» مغضناً جبينه: (يزعجني ذلك كثيراً).

فقال «بركن»: (أستطيع أن ألاحظ ذلك)، وفتح فاه في ضحكة رجولية، سريعة كما يفعل الجنود.

كان «جرالد» قد تملكه الرجل الآخر، دون وعي. كان يريد الدنو منه وكان يريد أن يكون داخل دائرة نفوذه. كان في «بركن» شيء ما يلائمه كثيراً. ولكن، عدا ذلك، لم

يكن ثمة ما يجذب النظر. كان يحس أنه، نفسه، «جرالد»، كان يملك حقائق أثبت وأقوى على الزمن مما يعرف أي رجل آخر. كان يشعر أنه كان أكبر سناً وأغزر علماً. لقد كان الدفء السريع التغيّر، والحيوية، والكلام الدافئ الذكي، هو ما أحبه في صديقه. وكان التلاعب الثرّ بالكلمات، وسرعة تبادل المشاعر، ما استمتع به. أما مضمون الكلمات الحقيقي فلم يأخذه مأخذ الجد قط: ذلك أنه كان نفسه على علم أفضل.

كان «بركن» يعرف ذلك. كان يعرف أن «جرالد» يريد أن يكون مولعاً به دون أن يأخذه مأخذ الجد. وهذا ما جعله يغدو صلداً وبارداً. وفيما كان القطار يغذ السير، لبث هو جالساً ينظر إلى الأرض في حين نأى «جرالد» بعيداً، وأمسى لا شيء بالنسبة إليه.

كان «بركن» ينظر إلى الأرض، إلى المساء، وكان يفكر: (حسن، إذا دُمِّرت البشرية، إذا دُمِّر جنسنا كما دُمِّرت (سدوم)(*)، وظل هذا المساء الجميل بأرضه وأشجاره النضرة، فسأرضى أنا. إن ما ينبئ عن كل ذلك موجود ثمة، ولا يمكن فقدانه أبداً. وعلى كل حال، ما الإنسانية سوى تعبير مفرد لما هو عصيّ على الفهم. وإذا ما هلكت البشرية فلن يعني ذلك غير اكتمال هذا التعبير وانتهائه. إن ما يُعَبَّر عنه، وما يجب التعبير عنه، لا يمكن اختزاله. فهو هناك، في المساء المتألق. فلتهلك البشرية.. لقد أزفت الساعة لذلك. إن الأقوال الخلاقة لن تتوقف. لن تكون إلا ثمة. إن البشرية لم تعد تجسّد قول ما هو عصيّ على الإدراك. إن البشرية رسالة ميتة. سيكون هناك تجسيد جديد، على نحو جديد. لتختف البشرية بأسرع ما يمكن).

قاطعه «جرالد» إذ سأل:

ـ (أين ستمكث في «لندن»؟).

فرفع «بركن» بصره، وقال:

ـ (مع رجل في «سوهو»(*). إني أدفع جزءاً من بدل إيجار أحد البيوت، وأعرّج هناك حين أشاء).

---

* سدوم ، المدينة الفلسطينية القديمة التي دمرها الله لانغماسها في الرذيلة . (المترجم)

* «سوهو» هي في وسط لندن شهير بطابعه الكوزموبوليتي ومطاعمه الأجنبية سابقاً ، واستعراضاته الجنسية حالياً . (المترجم)

فقال «جرالد»: (فكرة صائبة.. أن يكون لديك مقام خاص بك إلى حد ما).

- (أجل، لكنني لا أبالي به كثيراً. إني أضجر من الأشخاص الذين لابد من لقياهم هناك).

- (ما نوع هؤلاء الناس؟).

- (فن.. موسيقى.. بوهيمية (لندن).. أخسّ وأمر (بوهيميا) احتسبت دريهماتها. بيد أن هناك قلة من الناس المحترمين، محترفين في بعض النواحي. إنهم في الواقع رافضون العالم رفضاً كلياً.. ربما عيشهم مقتصر على حركة الرفض والسلبية.. لكنهم شيء ما على نحو سلبي، في الأقل).

- (ما هم.. رسامون، موسيقيون؟).

- (رسامون، موسيقيون، كتاب.. طفيليون، «موديلات»، شبان متقدمون. أي شخص خارج على التقاليد، وغير منتم لأيما موضع على وجه التحديد. إنهم في الغالب شبان جامعيون، وشابات ممن يعشن حياتهن الخاصة كما يقولون).

فقال «جرالد»: (منفلتون من جميع الأوجه؟).

كان في وسع «بركن» ملاحظة الفضول الذي أثير عند صاحبه.

- (من ناحية، وملتزمون جداً، من ناحية أخرى. كلهم على نغمة واحدة باختلاف درجة الصدمة التي يسببونها).

نظر إلى «جرالد» ورأى كيف التمعت عيناه الزرقاوان بومضة صغيرة من الرغبة الفضولية. كما رأى كم كان جميلاً. كان «جرالد» جذاباً. وبدا دمه سلساً وكهربائياً. أما عيناه فكانتا تتقدان بنور حاد، لكنه بارد. كان ثمة جمال معين، سلبية جميلة في كل جسمه، في قالبه.

قال «جرالد»: (قد نلتقي.. إذ أني باقٍ في لندن يومين أو ثلاثة).

فقال «بركن»: (أجل. إنني لا أريد الذهاب إلى المسرح، أو مسرح المنوعات.. الأفضل أن تأتي لمشاهدة ما يمكن أن تستخلصه من «هاليدي» وزمرته).

ضحك «جرالد» وقال: (شكراً.. سيكون ذلك من دواعي سروري.. ماذا أنت فاعل هذه الليلة؟).

ـ (وعدتُ «هاليدي» باللقاء في الـ (پومبپادور)(*) إنه مكان رديء، لكن ليس هناك مكان آخر).

فسأل «جرالد»: (أين يقع؟).

ـ (في ساحة پيكاد للي)(**).

ـ (أي، فعلاً.. حسن هل يمكنني المجيء إلى هناك؟).

ـ (من المؤكد، فقد تتسلى).

كان المساء على وشك أن يحل. لقد تجاوزا (بدفورد)(***). كان «بركن» يراقب الريف، وقد امتلأ بضرب من ضروب اليأس. كان يحس بذلك دائماً كلما اقترب من (لندن). وكان كرهه للبشرية، لجمهرة البشرية، يكاد أن يمسي مرضاً.

«حيث منتهى المساء الهادئ الملون، يبتسم،

أميالاً وأميالاً»(****).

هكذا كان يدمدم لنفسه، كالمحكوم عليه بالموت.

أما «جرالد» الذي كان يقظاً على نحو دقيق، حذراً في جميع حواسه، فمال إلى أمام وسأل مبتسما:

ـ (ماذا كنت تقول؟).

فنظر «بركن» إليه، ثم ضحك وأعاد:

«حيث منتهى المساء الهادئ الملون يبتسم،

أميالاً وأميالاً،

فوق المراعي، حيث بعض الأغنام تغفو نصف غفوة».

جعل «جرالد» ينظر الآن إلى الريف، هو الآخر. أما «بركن» الذي غدا الآن متعباً، مكتئباً لسبب ما، فقال له: (كلما يشرع القطار بدخول لندن، أشعر دائماً بأنني هالك. أشعر بقنوط ويأس شديدين وكأن العالم قد أزفت نهايته).

---

* اسم مقهى . (المترجم)

** في وسط لندن تماماً . (المترجم)

*** بلدة شمال لندن . (المترجم)

**** مقطع من قصيدة لـ (روبرت براوننغ) ، الشاعر الإنكليزي (١٨١٢ ـ ١٨٨٩) ، بعنوان (الحب بين الخرائب) . (المترجم)

فقال «جرالد»:

ـ (صحيح! وهل تخيفك نهاية العالم؟).

فرفع «بركن» كتفيه في هزة بطيئة، وقال:

ـ (لا أعلم. إنها تخيفني حين تظل عالقة، ماثلة، ولا تحل. بيد أن الناس يثيرون فيّ شعوراً سيئاً... جدّ سيء).

كانت ثمة ابتسامة جذلة، مثارة، في عيني «جرالد».

وقال: (هل يفعلون ذلك حقاً؟). ثم أخذ يراقب الرجل الآخر مراقبة ناقدة.

بعد بضع دقائق، كان القطار يخترق فظاعات ضواحي لندن.

تأهب جميع من كانوا في العربة، في انتظار الهروب. واخيراً غدوا تحت قوس المحطة الهائل، في ظل المدينة الكبير.

استجمع «بركن» ذاته.. لقد بلغ (المعمعة) الآن.

مضى الاثنان معاً في سيارة أجرة.

سأل «بركن» وهما جالسان في محبس صغير سريع الحركة، يراقبان الشارع الرئيسي القبيح:

ـ (ألا تشعر بأنك أحد الملعونين؟).

فضحك «جرالد» وقال:

ـ (كلا).

فقال «بركن»: (إنه الموت الحقيقي).

الفصل السادس

شراب النعناع

التقى الرجلان في المقهى بعد بضع ساعات. ومضى «جرالد» من خلال الأبواب الدفعية إلى داخل الغرفة الواسعة العالية حيث بانت وجوه الشاربين ورؤوسهم معتمة خلال غمامة الدخان، وانعكست بعتمة أشد وتكررت إلى ما لانهاية(*) في المرايا الضخمة المثبتة على الجدران، بحيث بدا كأن المرء والجٌ عالماً غامضاً، معتماً، لشاربين أشبه بالأطياف يدمدمون في جو من دخان التبوغ الأزرق. بيد أن قطيفة المقاعد الحمراء كانت تسبغ عنصراً مادياً ضمن فقاعة اللهو.

مضى «جرالد» في حركته البطيئة، المراقبة، المنتبهة في تألق، قدماً بين الموائد والناس الذين ارتفعت وجوههم الطيفية لتنظر إليه أثناء مروره.

لقد كان، على ما يبدو، والجاً وسطاً ما غريباً، ماراً بمنطقة جديدة مضاءة بين جمع من الأرواح الفاسقة. لقد سُرّ واستمتع، وتفحص جميع الوجوه العتماء، الزائلة، المضادة على نحو غريب، والمنكبة على الموائد.

ثم شاهد «بركن» ينهض ويومئ إليه.

وإلى مائدة «بركن» كانت تجلس فتاة ذات شعر أشقر قصير قُصَّ على طريقة أهل الفن، يتدلى باستقامة ويلتف قليلاً إلى الداخل صوب الأذنين. كانت ضئيلة، رقيقة البنية، شقراء التلوين، ذات عينين واسعتين بريئتين زرقاوين. كانت ثمة رقة، تكاد تبلغ حد الجمال في شكلها كله، وفي الوقت نفسه، شيء من بدائية الروح الجذابة جعلت شرارة صغيرة تثب في ألق آنيّ من عيني «جرالد».

* وردت عبارة «إلى ما لا نهاية» باللاتينية. (المترجم)

قام «بركن» الذي بدا مخرساً، غير واقعي، ذا وجود مهجور، بتقديمها على أنها الآنسة «دارنغتن»، فمدت يدها بحركة مباغتة، كارهة، وهي تنظر إلى «جرالد» طيلة الوقت، في تحديقة مكشوفة قائمة. فسرى فيه توهج فيما كان يجلس. ظهر الساقي، فنظر «جرالد» إلى كأسي الآخرين. كان «بركن» يشرب شيئاً أخضر. وكان لدى الآنسة «دارنغتن» كأس شراب صغير، فارغ إلاّ من قطرة صغيرة.

- (ألا ترغبين في بعض المزيد؟).

فقالت: (براندي)، وهي ترتشف قطرتها الأخيرة، معيدة الكأس إلى المائدة واختفى الساقي.

قالت لـ «بركن»: (كلا إنه لا يعلم أنني قد عدت. سيعتويه الوعب حين يواني هنا)(*).

كانت تنطق راءها واواً، تلثغ بتلفظ طفولي إلى حد ما وكان مصطنعاً وصادقاً حيال شخصيتها في الوقت نفسه. أما صوتها فكان عديم النغمة كامداً.

سأل «بركن»: (أين هو إذاً) فقالت الفتاة:

- (إن لديه معرضاً خاصاً في (ليدي سنيلغروف). وكذلك «ورنز»).

تلا. ذلك صمت. ثم قال «بركن» على نحو رزين، حامٍ:

- (حسن، ماذا تنوين أن تفعلي، في هذه الحالة؟).

توقفت الفتاة عابسة، كارهة السؤال. ثم أجابت:

- (ليس في نيتي أن أفعل أي شيء. سوف أبحث عن بعض الجلسات غداً).

فسأل «بركن» (إلى من ستذهبين؟).

- (سأذهب إلى محل «بنتلي» أولاً. لكنني أظن أنه غاضب مني لغراري)(**).

- (أي من (المادونا)؟).

- (نعم. فإن لم يردني، فإنني أعرف أن باستطاعتي الحصول على عمل عند «كارمارذين»).

- («كارمارذين»).

---

* أي : سيعتريه الرعب حين يراني . (المترجم)

** أي : لفراري . (المترجم)

- («فريدريك كارمارذين».. يعمل مصوراً).
- (الشيفون والأكتاف..).
- (أجل لكنه مؤدب جداً) وتلا ذلك صمت.
- (وماذا أنت فاعلة بشأن «جوليوس»)، فأجابت:
- (لا شيء سأتجاهله، حسب).
- (هل انتهيت منه كلياً؟). لكنها أشاحت وجهها عابسةً، ولم تجب.
أقبل شاب آخر صوب المائدة، على عجل وقال مشتاقاً:
- (مرحباً «بركن»! مرحباً «مينيت» متى عدتِ؟).
- (اليوم).
- (هل يعلم «هاليدي»؟).
- (لا أعرف. ولا أبالي، كذلك).
- (هاها! لا تزال الريح ساكنة في ذلك الحي، أليس كذلك؟ أتمانعين إنْ تحولتُ إلى هذه المائدة؟).
- (إني أتحدث إلى «ووبوت»(*) هل لديك مانع؟) هكذا أجابت بفتور، لكن بتوسل كأنها طفلة. فقال الشاب:
- (اعتراف صريح.. جيد للروح، هه؟ طيب، إلى لقاء).
وبعد أن ألقى نظرة حادة على «بركن» وعلى «جرالد» ولّى الشاب، تصاحب حركَتَه أرجحةٌ في ذيلي سترته.
طيلة هذا الوقت، كان «جرالد» قد تجوهل كلياً. ومع ذلك فقد كان يشعر بأن الفتاة كانت تحس بقربه بدنياً. فانتظر، وأنصت، وحاول أن يستجمع شتات الحديث.
سألت الفتاة «بركن»: (هل أنت مقيم في الدار؟).
أجاب «بركن»: (لثلاثة أيام. وأنت؟).
- (لا أعرف بعد. أستطيع دائماً أن أقيم عند «برتا»).
كان ثمة صمت.

---

* أي: إلى «روبرت». (المترجم)

فجأة استدارت الفتاة نحو «جرالد» وقالت، بصوت مؤدب، رسمي نوعاً ما، وعلى النحو النائي الذي تنحوه امرأة ترضى بموقعها الأدنى اجتماعياً وتنتحل فيه على الرغم من ذلك رفقةً حميمة(*) مع الرجل الذي تخاطبه:

ـ (هل تعرف «لندن» جيداً؟).

فضحك قائلاً:

ـ (لا أكاد أستطيع قول ذلك. لقد قدمت إليها عدداً لا يستهان به من المرات. لكنني لم أجئ إلى هذا المكان قط).

ـ فقالت بنبرة وضعته في موضع الدخيل:

ـ (لستَ فناناً، إذاً؟).

فأجاب: (كلا).

فقال «بركن»: (إنه جندي، ومستكشف، و«نابليون» الصناعة)، وبذلك قدم «بركن» أوراق اعتماد «جرالد» إلى (بوهيميا) نيابة عنه.

تساءلت الفتاة بفضول بارد، إنما حيوي: (هل إنك جندي؟).

قال «جرالد»: (كلا، لقد استقلتُ من منصبي قبل بضع سنوات).

وقال «بركن»: (كان مشتركاً في الحرب الأخيرة).

فقالت الفتاة: (هل كنتَ حقاً؟).

قال «بركن»: (ثم استكشف (الأمازون) والآن يحكم مناجم الفحم).

رمقت الفتاة «جرالد» بنظرة فضول هادئ ثابت. فضحك هذا لسماع وصفه، وشعر بالزهو، كذلك، وبقوة الرجولة تملؤها. وتألقت عيناه الزرقاوان الحادتان بالضحك. أما وجهه المتورد، بشعره الأشقر المدبب، فقد زخر بالرضا وتوهج بالحيوية. لقد أثارها.

سألته: (كم ستمكث؟).

فأجاب: (يوماً أو يومين. لكنني لست مستعجلاً على وجه الخصوص).

استمرت الفتاة تحملق إلى وجهه بتلك النظرة البطيئة الشاملة التي حركت فيه الكثير من الفضول والإثارة. لقد كان واعياً بشخصه وجاذبيته على نحو شديد وبهيج.

---

* ورد التعبير بالفرنسية. (المترجم)

وشعر أنه ممتلئ قوةً، وقادر على منح ما يشبه القوة الكهربائية. كما كان شاعراً بعينيها الزرقاوين الناظرتين إليه بانكشاف. كانت لها عينان جميلتان، كالورد، مفتحتان كلياً، عاريتان عند النظر إليه، وعليهما بدتْ عائمةً قزحيةُ ألوانٍ غريبة، أشبه بغشاوة من التحلل، وعبوسٌ مثل الزيت فوق الماء. لم تكن ترتدي قبعة في المشرب الخانق. وكان قميصها البسيط، الفضفاض، معقوداً بخيط حول عنقها، لكنه كان مصنوعاً من قماش (الكريب دشين) الأصفر الثر، الذي تهدّل طرياً ثقيلاً من موضع حنجرتها الفتية ومن رسغيها الرقيقتين. كان مظهرها بسيطاً وكاملاً، وجميلاً حقاً، بسبب تناسقها وشكلها، وشعرها الأصفر اللامع المتهدل بصورة معقوفة ومستوية على كلا جانبي الرأس، وملامحها المستقيمة، الدقيقة، الناعمة المستفزة بالامتلاء الطفيف لمنحنياتها، وعنقها الرقيق وقميصها البسيط زاهي الألوان، المتهدل من كتفيها الرقيقين. كانت ساكنة جداً في مسلكها، كأنها لم تكن، مستقلة، ويقظة.

لقد استهوت «جرالد» بقوة وشعر بسلطان فظيع ممتع عليها وبمعزة غريزية تكاد أن تكون قسوة، ذلك أنها كانت الضحية. وكان يشعر أنها في قبضته، وأنه كريم إزاءها. لقد زادت كهربائية أطرافه وازدادت شهوة. كان قادراً على تدميرها كلياً بقوة تفريغه للشحنة. بيد أنها كانت تنتظر وسط انعزالها، مُقَدَمةً. تجاذبا أطراف أحاديث عادية مدةً من الزمن، ثم قال «بركن» فجأة:

- (هاهو ذا «جوليوس»!). ثم نهض نصف نهوض على قدميه، وهو يومئ إلى القادم الجديد. أما الفتاة فقد استدارت بحركة غريبة، تكاد تكون شريرة، وهي تنظر من فوق كتفها دون أن تحرك جسمها. راقب «جرالد» شعرها الأشقر المكتظ وهو يتهدّل فوق أذنيها. لقد أحس بأنها كانت تراقب الرجل القادم عن كثب. لذلك طفق ينظر هو الآخر. فشاهد شاباً نحيفاً أسمر ذا شعر أسود جامد يميل إلى الطول، يتهدل من أسفل قبعته السوداء، يُقْبِل بغير رشاقة عبر الغرفة، تنير وجهه بسمةٌ دافئة وساذجة، وتافهة كذلك، في الوقت نفسه.. دنا من «بركن» متعجلاً الترحيب.

لم يلاحظ الفتاة إلا عند اقترابه تماماً. فارتد واخضَرّ وجهه وقال بصوت زاعق عال:

- («مينيت». ماذا تفعلين أنت هنا؟).

رفع زبائن المقهى أنظارهم مثل حيوانات سمعت صرخة. توقف «هاليدي» دون حراك، وابتسامة، بليدة تقريباً، تومض باهتةً على وجهه. أما الفتاة فاكتفت بالتحديق إليه بنظرة باردة كالجليد، وقد احتدم فيها جحيم لا قرار له من المعرفة، وشيء من العجز. كانت مقيدة به.

كرر «هاليدي» بالصوت العالي المهروع نفسه:

- (لم رجعتِ؟ لقد أخبرتك ألا ترجعي).

لم تجب الفتاة، واكتفت بالتحديق إليه مباشرة، بالصورة الجامدة جمود الجليد، الثقيلة نفسها، وهو مرتد في وقفته إزاء المائدة المجاورة، كما لو كان ينشد الأمان هناك.

قال له «بركن»: (أنت تعلم أنك كنت تريد عودتها.. تعال واقعد).

- (كلا، لم أرد عودتها، لقد أخبرتها ألا تعود.. ماذا تبغين من مجيئك، يا «مينيت»؟).

فقالت في صوت ثقيل بالغيظ:

- (من أجل لا شيء منك).

فصاح «هاليدي»، مصعداً صوته إلى ما يقرب الزعيق:

- (إذاً، لم عدتِ أصلاً؟).

فقال «بركن»: (تجيء متى تشاء. هل أنت قاعد أم لا؟).

فهتف «هاليدي»: (كلا، لن أقعد مع «مينيت»). فقالت هذه باقتضاب شديد، وإن بدت في صوتها نبرة فيها شيء من الحماية بالنسبة إليه:

- (لن أؤذيك. لا حاجة بك لأن تخاف).

قدم «هاليدي» وجلس إلى المائدة صائحاً، ويده على قلبه:

- (أوه، لقد سبب لي الأمر دواراً هائلاً! يا «مينيت»، حبذا امتناعك عن القيام بمثل هذه الأعمال. لِمَ رجعتِ؟).

فكررت: (لا لشيء منك).

فصرخ عالياً: (لقد قلتِ ذلك قبلاً).

أشاحت برأسها عنه تماماً ملتفتة صوب «جرالد كريتش» الذي التمعت عيناه بغبطة ماكرة.

تساءلت بصوتها الهادئ الطفولي الكامد: (هل تصادف أنْ خفتَ من المتوحشين كثيراً؟).

ـ (كلا.. لم أخف كثيراً جداً قط. على العموم، إنهم ليسوا مؤذين.. إنهم لم يولدوا بعد. لا يمكنك أن تشعري بأنك تخافينهم حقاً. أنت تعرفين أن في إمكانك أن تتدبري الأمر معهم).

ـ (أصحيح ذلك؟ أليسوا كائنات ضارية جداً؟).

ـ (ليس كثيراً. ليس هناك الكثير من الضواري، في الواقع ليس هناك الكثير من الأشياء. سواءً كانوا بشراً أم حيوانات، تتأصل فيها الخطورة الفعلية).

فقاطعه «بركن» قائلاً: (إلا في القطعان).

فقالت الفتاة: (ألا يوجد ذلك، حقاً؟ أوه، كنت أظن أن المتوحشين كلهم خطرون جداً بحيث يزهقون روحك قبل أن تستطيع أن تتلفت).

ضحك وقال: (هل كنت تظنين ذلك؟ إنهم متوحشون بولغ في صورتهم.

إنهم يشبهون الأناس الآخرين كثيراً جداً. لا شيء مثير، بعد التعارف الأولي).

ـ (إذاً، كونك مستكشفاً لا ينطوي على قدر مدهش جداً من الشجاعة).

ـ (كلا، إنها قضية مصاعب أكثر منها قضية أهوال).

ـ (أوه! أولم تخف قط؟).

ـ (في حياتي؟ لا أدري. نعم، أخاف من بعض الأشياء.. أنْ أُحْجَز، أن يُقْفَل عليّ في أي مكان.. أو أن يُشَدّ وثاقي. أخاف أن أوثق، يداً ورجلاً).

نظرت إليه بثبات بعينيها الساذجتين اللتين تسمرتا فيه، وأثارتاه من الأعماق إلى درجة جعلت ذاته العليا في منتهى الهدوء. كان لذيذاً، إلى حد، الشعور بأنها كانت تستخلص البوح الذاتي منه، وكأنها تستخلصه من أعمق نخاع مبهم في جسده. كانت تنشد المعرفة. وبدت عيناها تستقصيان بنيته العارية. فشعر بأنها كانت مجْبَرَة حياله، وقد كُتِبَ عليها أن تتماس معه، وأن لابد لها من أن تراه وتعرفه. وهذا ما أثار فيه ابتهاجاً غريباً. كذلك شعر بأنها يجب أن تستسلم بين يديه، أو تخضع له. لكم كانت وثنية شبيهة بعبدة، وهي ترقبه، مستغرقة فيه. لم يكن ذلك لأنها كانت معنية بما قال، بل استغرقها بوجه الذاتي، ولأنه يأتي منه هو، كانت تبغي السر فيه، خبرة الرجولة فيه.

أشرق وجه «جرالد» بابتسامة غامضة، ملؤها نور واستثارة، لكنها غير واعية. كان جالساً وذراعاه إلى المائدة. أما يداه المسمرتان من أثر الشمس، الشريرتان تقريباً واللتان كانتا حيوانيتين على الرغم من كونهما دقيقتين وجذابتين كثيراً، فاندفعتا قدماً نحوها، ففتنتاها وكانت تدرك ذلك، كانت تراقب افتتانها هي.

أقبل آخرون إلى المائدة ليتحدثوا إلى «بركن» و«هاليدي». قال «جرالد» لـ «مينيت» على حدة وبصوت واطئ:

- (من أين رجعتِ؟).

فأجابت «مينيت» بصوت خفيض جداً، لكنه رنّان تماماً: (من الريف).

وانغلقت أسارير وجهها. واستمرت تنظر إلى «هاليدي» نظرات سريعة، ثم توهجت عيناها. كان الشاب الأشقر الثقيل قد تجاهلها تماماً. كان يخشاها فعلاً.

ولبضع لحظات، بدت غير واعية بوجود «جرالد»، لم يكن قد قهرها بعد.

سألها «جرالد» بصوت لا يزال خفيضاً: (ما علاقة «هاليدي» بذلك؟).

لم تشأ أن تجيب بضع ثوان. ثم قالت كارهة:

- (لقد جعلني أذهب وأعيش معه. ويريد الآن أن يرميني. ومع ذلك فإنه لن يدعني أذهب إلى أي شخص آخر. يريد مني أن أعيش في الريف مختفية. ثم يقول إنني أضطهده، وأنه لا يستطيع التخلص مني).

فقال: «جرالد»: (إنه لا يعرف ماذا يريد عقله).

فقالت: (ليس عنده أي عقل، ولذلك فهو لا يستطيع أن يعرف أنه ينتظر ما يخبره أحد ما أن يفعل. إنه لا يفعل أي شيء يريد هو أن يفعله.. ذلك لأنه لا يعرف ماذا يريد. إنه طفل تماماً).

نظر «جرالد» إلى «هاليدي» بضع لحظات، يراقب وجه الشاب الناعم، والمنحل إلى حد ما. كانت نعومة وجهه نفسها مصدر جذب:

كانت ثمة طبيعة دافئة ناعمة فيه، من شأن المرء أن يغوص فيها راضياً.

سأل «جرالد»: (لكنه لا يملك حقاً عليك، أليس كذلك؟).

أجابت: (لاحظ أنه أكرهني على الذهاب والعيش معه حين لم أشأ ذلك. جاء إليّ باكياً بدموع لم تر أغزر منها قط، وقال أنه لم يستطع أن يصبر، ما لم أعد إليه. ولم

يشأ أن يرتحل، وكان سيبقى أبد الدهر. لقد جعلني أرجع إليه. ثم يعود كل مرة فيتصرف على هذا النحو. إنني حامل الآن، وهو يريد أن يعطيني مائة باون ويرسلني إلى الريف، كي لا يراني ولا يسمع عني ثانية أبداً. لكنني لن أفعل ذلك، بعد..).

رانت على وجه «جرالد» نظرة غريبة. وسألها غير مصدق:

ـ (هل سيكون لك طفل؟). بدا ذلك مستحيلاً عند النظر إليها. لقد كانت جدّ صغيرة، وبعيدة روحياً عن أي حمل.

نظرت إلى وجهه نظرة شاملة. كانت في عينيها الزرقاوين الحالمتين، الآن، نظرة زائغة، ونظرةُ معرفةٍ بالشر، كئيبة، لا تقهر. سرت شعلة، سراً، إلى قلبه.

قالت: (نعم أليس ذلك كريهاً؟).

فسألها: (ألا تريدينه؟).

فأجابت بنبرة تشديد: (كلا).

قال: (لكن.. منذ متى وأنت تعلمين؟).

قالت: (عشرة أسابيع).

كانت، طيلة الوقت، مسمرةً عينيها به على اتساعهما.

ظل صامتاً، يفكر. ثم حول مجرى الحديث وغدا بارداً، وتساءل في صوت ملؤه العطف المراعي:

ـ (هل ثمة شيء نستطيع أن نأكله هنا؟ هل هناك شيء ما ترغبين فيه؟).

قالت: (أجل أنا أهيم بشيء من المحار).

فقال: (حسن. سنتناول المحار). ثم أومأ إلى النادل.

لم ينتبه «هاليدي» إلا حين وُضِعَ الطبق الصغير أمامها. عند ذاك صاح:

(يا «مينيت».. لا يمكنك أن تأكلي المحار حين تتناولين البراندي).

فسألته: (وما شأنك أنت به؟).

فهتف قائلاً: (لا شيء، لا شيء. لكن لا يمكنك أكل المحار وأنت تشربين البراندي).

أجابت: (إني لا أشرب البراندي)، ورشت القطرات الأخيرة من شرابها في وجهه. فندت عنه زعقة غريبة. لبثت جالسةً تنظر إليه، بما يشبه اللامبالاة.

صرخ فزعاً: (لِمَ تفعلين ذلك يا «مينيت»؟). فأعطى لـ «جرالد» انطباعاً بأنه كان يرتعب منها، وأنه كان يحب رعبه ذاك. لقد بدا وكأنه يتلذذ بارتياعه، وكرهه إياها، ويقلب ذلك على جوانبه ويستخلص كل نكهة منه، في فزع حقيقي. أما «جرالد» فقد عدّه أحمق غريباً، إنما مثير للفضول.

قال رجل آخر بصوت (إيتوني)(*) خافت سريع جداً: (لكن يا «مينيت» لقد وعدتِ ألا تؤذيه).

أَجابت: (أنا لم أؤذه).

فسألها الشاب: (ماذا ستشربين؟). لقد كان أسمر، ناعم الجلد، مليئاً بنشاط مستتر.

أجابت: (لا أحب (البورتر)(**) يا «مكسيم»).

فجاء الصوت المهذب الهامس للرجل الآخر:

- (عليك أن تطلبي الشمبانيا).

أدرك «جرالد» فجأة أن هذه كانت إشارة إليه، فقال ضاحكاً:

- (هل سنتناول الشمبانيا؟).

فلثغت كالأطفال: (نعم، من فضلك، شمبانيا غيو حلوة)(***).

راقبها «جرالد» وهي تأكل المحار. كانت رقيقة ونقةً في أكلها، وأصابعها دقيقة، وبدت حساسة جداً عند الأطراف، ولذلك كانت تقطع طعامها بحركات صغيرة، دقيقة. كانت تأكل باعتناء، ورقة. وكانت مشاهدتها تسره كثيراً جداً، وتغيظ «بركن». كان الجميع يشربون الشمبانيا.. أما «مكسيم»، الشاب الروسي الأنيق، ذو الوجه الناعم والدافئ اللون، والشعر الأسود المزيت، فقد كان الوحيد الذي بدا هادئاً وصاحياً تماماً. أما «بركن» فكان شاحباً، مستغرقاً، وغير طبيعي، وكان «جرالد» يبتسم وفي عينيه ضوء دائم، مشرق، مستمتع، بارد، وهو يميل قليلاً، من باب الحماية، نحو «مينيت» التي كانت جدّ وسيمة وناعمة، ومتفتحة كزهرة ثلجيّة جميلة في عريٍ ازدهاري فظيع،

* (إيتوني) : نسبة إلى (إيتون) إحدى أقدم وأشهر الكليات في إنكلترة. (المترجم)

** (البورتر) : نوع من البيرة الثقيلة الداكنة. (المترجم)

*** أي : غير حلوة. (المترجم)

غدا خيلاءً باطلاً الآن، وقد احتقنت وجنتاها بالخمر وإثارة الرجال. أما «هاليدي» فبدا كالأحمق. كان قدحُ خمرٍ واحد كافياً ليسكره ويجعله يقهقه، ومع ذلك كانت فيه دوماً سذاجة يهيجة دافئة تجعله جذاباً.

قالت «مينيت»: (إنني لا أوتعب(*) من أي شيء عدا الخنافس السود)، وهي ترفع وجهها فجأة وتحدق في «جرالد» بكامل عينيها المدورتين اللتين بدت عليهماغشاوة لهب لا ترى. ضحك هذا من الأعماق على نحو خطر. فكلامها الطفولي دغدغ أعصابه، وعيناها الملتهبتان المغشيتان، وقد استدارتا الآن كلياً باتجاهه، غافلتين عن كل ما مضى عليها، منحتاه إذناً من نوع ما.

احتجت قائلة: (حقيقةً إنني لا أخاف. أنا لا أخاف من الأشياء الأخرى. لكن الخنافس السود.. اف!). وارتعدت متشنجة كأن التفكير ذاته كان أكثر مما يطاق.

قال «جرالد» بالدقة التي يتصف بها رجل مضى عليه بعض الوقت يشرب: (هل تقصدين أنك تخافين منظر الخنفساء السوداء، أو تخافين عضة الخنفساء السوداء أو إيذاءها إياك نوعاً ما؟).

فصاحت الفتاة: (وهل هي تعضّ؟).

فهتف «هاليدي»: (ما أكره ذلك!).

فأجاب «جرالد» وهو يجيل بصره في أرجاء المائدة: (لا أعلم. هل تعض الخنافس السود؟ لكن ليس هذا هو المراد. هل تخافين عضتها أم أنه نفور غيبي؟).

كات الفتاة، طيلة الوقت، مسمرةً نظرها فيه بعينين بدائيتين.

صاحت: (أوه، أنا أعتقد أنها بشعة، إنها فظيعة. وإذا ما رأيت واحدة فسترتعد فرائصي كلياً. وإذا ما زحفت واحدة عليّ فلسوف أموت حتماً.. إني متأكدة من ذلك).

همس الشاب الروسي: (آمل ألا يحدث ذلك).

فأكدت: (إني متأكدة يا «مكسيم»).

فقال «جرالد» متبسماً، عارفاً: (لن تزحف، إذاً، إحداهن عليك). كان يتفهمها على نحو غريب ما.

---

* أي: لا أرتعب. (المترجم)

صرّح «بركن»: (إنها مسألة غيبية، كما يقول «جرالد»).
تلا ذلك صمت قصير غير مريح.
سأل الشاب الروسي بأسلوبه السريع، الأنيق، المكتوم:
- (ألا تخافين أي شيء آخر، يا «مينيت»؟).
فقالت: (كلا في واقع الأمو. إني أوتعب من بعض الأشياء، لكن ليس من الشيء نفسه، في واقع الأمو، فأنا لا أوتعب من الدم)(*).
- (ألا توتعبين من الدم؟). قالها هاتفاً شاب ذو وجه شاحب، ثقيل، ساخر، كان قد جاء إلى المائدة تواً وهو يشرب الويسكي.
استدارت «مينيت» نحوه بنظرة كرهٍ عابسة، واطئة، قبيحة.
ألح الآخر والسخرية ملء وجهه: (ألا تخشين الدم حقاً؟).
فردت: (كلا، لا أخشاه).
استهزأ الشاب قائلاً: (هل سبق أن رأيتِ دماً، في غير مبصقة طبيب الأسنان؟).
فأجابت بشيء من الشموخ: (لم أكن أتحدث إليك).
فقال: (يمكنك أن تجيبيني، أليس كذلك؟).
وكانت إجابتها أن استلت مدية فجأة وحزت بها مستعرض يده الغليظة الشاحبة.
فجفل وقام، وهو يطلق شتيمة مبتذلة.
قال «مينيت» في احتقار: (هذا يبيّن ما أنت).
فقال الشاب وهو واقف عند المائدة ينظر إليها بحنق لاسع: (عليك اللعنة).
فقال «جرالد» بنبرة الأمر السريع، الغريزي: (أوقفوا هذا).
وقف الشاب وهو ينظر إليها باحتقار ساخر، وعلى وجهه الشاحب، المكتنز أمارات الخوف والخجل. وبدأ الدم ينزف من يده. فزعق «هاليدي» وقد اخضّر وأشاح بوجهه: (أوه ما أفظع هذا. أبعدوه!).
فسأله الشاب المتهكم، بشيء من الاهتمام: (هل تشعر بالغثيان، تشعر بالغثيان يا «جوليوس»؟ اللعنة، إنه لاشيء. لا تمنحها متعة الاعتقاد بأنها قد أنجزت مأثرة.. لا تمنحها الشعور بالرضا، يا رجل.. إذ أن هذا هو ما تريده هي تماماً).

* واقع الأمو: «واقع الأمر»، واوتعب «أرتعب». (المترجم)

فزعق «هاليدي»: (أوه!).

قالت «مينيت» محذرةً: (إنه على وشك أن يتقيّأ، يا «مكسيم»).

نهض الشاب الروسي الرقيق ومسك ذراع «هاليدي» ومضى به إلى الخارج. أما «بركن»، وقد أمسى شاحباً متضائلاً، فقد أطال النظر كمن كان ممتعضاً. أما الشاب الجريح، الساخر، فإنه مضى متجاهلاً يده النازفة تجاهلاً واضحاً جداً.

قالت «مينيت» لـ «جرالد»: (أنه في الواقع جبان رعديد. وله تأثير كبير على «جوليوس»).

سأل «جرالد»: (من هو؟).

- (إنه في الواقع يهودي. وأنا لا أطيقه).

- (حسن. إنه غير مهم البتة. لكن ما خطب «هاليدي»؟).

فهتفت: (إن «جوليوس» هو أفظع جبان شاهدته في حياتك. إذا رفعت مدية أغمي عليه دوماً.. إنه موتاع مني)(*).

فقال «جرالد»: (احم!).

قالت: (كلهم يخافون مني. اليهودي وحده يظن أنه سوف يبدي شجاعته. لكنه أجبنهم جميعاً في الواقع. ذلك أنه يخشى ما سيظن الناس به.. ولا يأبه «جوليوس» بذلك).

فقال «جرالد» متلطفاً: (إنهما يملكان الكثير من الشجاعة، فيما بينهما).

نظرت «مينيت» إليه، نظرة بطيئة، بطيئة. كانت مليحة جداً، متوردة الوجنتين، واثقة بما تملك من معرفة فظيعة. التمعت نقطتا ضوء صغيرتان في عيني «جرالد».

سألها: (لِمَ يسمّونك «مينيت»؟ هل بسبب شبهك بالقطة؟)(**).

قالت: (أتوقع ذلك).

اتسعت الابتسامة على وجهه.

- (إنك لكذلك تقريباً.. أو أنكِ نمرة صغيرة).

فقال «بركن» مشمئزاً بعض الشيء: (أوه يا إلهي، كفى يا «جرالد»).

---

* «موتاع» : «مرتاع». (المترجم)

** (مينيت) بالفرنسية تعني: قطة منزلية. (المترجم)

رمق كلاهما «بركن» بنظرة عدم ارتياح.

قالت له، بقليل من الوقاحة، لشعورها بالامتنان مع الرجل الآخر:

ـ (أنت صامت الليلة يا ووبرت(*)).

كان «هاليدي» عائداً، وقد بدا مخذولاً، مريضاً.

قال: (أتمنى يا «مينيت» أن تكفّي عن هذه الأفعال.. آه!). ثم غاص في كرسيه متأوهاً.

قالت له: (من الأفضل أن تذهب إلى البيت).

قال: (لسوف أذهب إلى البيت. لكن هلا رافقتموني جميعاً؟) وقال لـ "جرالد". (هلا جئت إلى الشقة؟ سأكون مسروراً لو فعلت ذلك. أرجوك.. سيكون ذلك رائعاً). ثم نظر إلى ما حوله باحثاًعن نادل. (حصّل لي سيارة أجرة). ثم أنّ ثانية: (آه يا"مينيت" أني أشعر.. بأنني فظيع تماماً. "مينيت". أترين ما تفعلين بي؟).

فقالت بهدوء عابس: (إذاً لم أنت على هذه الدرجة من الغباء؟).

ـ (لكنني لست غبياً! أوه، يا للفظاعة! تعالوا رجاء، جميعاً. سيكون ذلك رائعاً جداً. «مينيت» أنت قادمة. ماذا؟ أوه، لكن لابد من مجيئك، نعم لابد. ماذا؟ أوه، يا فتاتي العزيزة، لا تثيري ضجة الآن، فأنا أشعر بكمال.. أوه، ما أفظعه.. هو!.. امم! أوه).

قالت له ببرود: (أنت تعلم بأنك لا تستطيع الشرب).

ـ (أقول لك أنه ليس الشرب.. إنه تصرفك المنفر، يا «مينيت»، وليس شيئاً آخر. أوه، يا للفظاعة! يا «ليبدنكوف»، هيا ننصرف).

فجاء صوت الشاب الروسي السريع، الخفيض: (لم يشرب غير قدح واحد.. قدح واحد).

مضى الجميع نحو الباب. ظلت الفتاة قريبة من «جرالد»، وقد بدت متوافقة معه في الحركة. كان شاعراً بذلك وكله رضا إبليسيٌّ من موافقة حركته للاثنين معاً. لقد أمسك بها داخل تجويف إرادته، وكانت هي ناعمة، سرية، غير مرئية في تحركها هناك.

---

* «ووبوت» : روبرت . (المترجم)

تزاحم خمستهم في سيارة الأجرة. دخل «هاليدي» مترنحاً، أولاً، وألقى بنفسه في مقعده إزاء النافذة الأخرى. ثم اتخذت «مينيت» مكانها، وجلس «جرالد» بجانبها. وسمعوا الشاب الروسي يعطي التوجيه إلى السائق. ثم قعد الجميع في الظلمة، متزاحمين جنباً إلى جنب، وكان «هاليدي» يئن ورأسه مائلة إلى خارج النافذة. لقد كانوا يشعرون بحركة السيارة السريعة المخمودة.

جلست «مينيت» بالقرب من «جرالد»، وبدا أنها صارت تغدو ناعمة، تتغلغل في عظامه تغلغلاً ماكراً، كأنها تلج فيه كتيار كهربائي أسود.

كان كيانها ينبت في عروقه كظلمة مغناطيسية، ويتمركز عند قاعدة عموده الفقري كنبع قوة مخيف. وفي أثناء ذلك كان صوتها يبدو مزمارياً غير مبال وهي تكلم «بركن» و«مكسيم» دون اكتراث. في حين كان بينها وبين «جرالد» ذلك الصمت، وذلك الفهم الكهربائي السري في الظلام. ثم وجدت يده، فأمسكت بها بقبضتها الصغيرة الحازمة.

كان الظلام حالكاً ومع ذلك كانت ثمة صراحة عارية إلى درجة أن ذبذبات مسرعة سرت في دمه وفي عقله، فلم يعد يشعر بالمسؤولية. ومع هذا ظل صوتها يرن كالجرس، تشوبه نغمة ساخرة. وعندما كانت تدير رأسها، كان شعر عنقها الرقيق يلامس وجهه، فتحتدم كل أعصابه مشتعلة كما لو كان ذلك بسبب احتكاك كهربائي غامض. بيد أن مركز قوته العظيم ظل ثابتاً، مفخرة رائعة له، عند قاعدة عموده الفقري.

بلغوا شارعاً يضم بيوتاً هادئة، ودلفوا في ممر حديقة، وإذا بباب يفتحه لهم خادم قاتم السحنة. نظر «جرالد» متفاجئاً، متسائلاً ما إذا كان هذا من السادة المهذبين، ربما أحد الهنود من (أكسفورد).

لكن لا، كان هو الخادم.

قال «هاليدي»: (أعدّ الشاي، يا «حسن»).

قال «بركن»: (هل توجد غرفة لي؟)؟

رداً على السؤالين معاً، ابتسم الرجل وتمتم. لقد جعل «جرالد» غير متيقن، وذلك لأنه بدا مثل سيد مهذب بسبب طوله ونحافته وقلة كلامه. فسأل «جرالد» «هاليدي»:

ـ (من هو خادمك؟ يبدو ذا منزلة رفيعة).

- (أوه أجل.. ذلك لأنه يرتدي ملابس رجل آخر. إنه أبعد ما يكون عن المنزلة الرفيعة، في الواقع، لقد وجدناه في الطريق يتضوّر جوعاً. ولذلك جئت به إلى هنا. وقام رجل آخر بإعطائه ملابس. إنه أبعد عما يبدو في المظهر.. ميزته الوحيدة أنه لا يتكلم الإنكليزية ولا يفهمها. ولذلك فهو مأمون تماماً).

قال الشاب الروسي، سريعاً وهامساً: (إنه قذر جداً).

حالاً، ظهر الرجل عند مدخل الباب.

قال «هاليدي»: (ماذا تريد؟).

ابتسم الرجل وتمتم خجلاً: (أريد التكلم مع السيد).

راقبه «جرالد» بفضول. كان الرجل الواقف عند مدخل الباب وسيماً، رشيق القوام، هادئ التأثير، ذا مظهر أنيق وأرستقراطي. ومع ذلك كان شبه متوحش، يكشر كالأحمق. خرج «هاليدي» إلى الممر ليتحدث إليه.

سمع الآخرون صوته: (ماذا؟.. ماذا؟ ماذا تقول؟ أعد القول. ماذا؟ أي نقود؟ تريد مزيداً من النقود؟ لكن لماذا تريد نقوداً؟). تلا ذلك الصوتُ المشوش للرجل الهندي يتحدث. ثم ظهر «هاليدي» في الغرفة، يقول، وهو يبتسم ابتسامة الأحمق هو الآخر:

- (يقول إنه يريد نقوداً كي يشتري ملابس داخلية. هل يستطيع أحد أن يقرضني شلناً؟ شكراً. يكفي شلن لابتياع جميع الملابس الداخلية التي يحتاج). أخذ المال من «جرالد» وخرج إلى الممر ثانية حيث سمعوه يقول: (لا يمكن أن تحتاج إلى مزيد من المال. لقد أخذت ثلاثة شلنات وستة بنسات البارحة. يجب ألا تطلب المزيد. اجلب الشاي سريعاً).

نظر «جرالد» في أرجاء الغرفة. كانت عبارة عن غرفة جلوس لندنية عادية في دار استؤجرت، مؤثثة كما هو ظاهر، تكاد أن تكون قاصرة من حيث الترتيب، غير أنها بهيجة.

لكن كان ثمة عدد من التماثيل، والمنحوتات من غربي المحيط الهادئ، غريبة ومقلقة، حيث بدا السكان الأصليون المنحوتون كأجنة الكائنات البشرية، تقريباً. واحدة منها كانت امرأة جالسة وهي عارية في وضع غريب، تبدو معذبة وبطنها بارز. أوضح

الروسي الشاب أنها كانت في جلسة الوضع، تقبض نهايتي الرباط المعلّق من رقبتها، كلاً في يد، كي تضغط إلى الأسفل وتساعد نفسها على المخاض.

وذكّر وجه المرأة الغريب، الجامد، البدائي، «جرالد» ثانية بالجنين. كما كان الوجه مدهشاً إلى حد، إذ كان يعكس للرائي ما هو أقصى إحساس بدني، وينقله إلى ما يتجاوز الوعي الذهني.

تساءل مستهجناً: (أليست بذيئة نوعاً ما؟).

تمتم الآخر على عجل: (لا أعلم، فلم أعرف البذيء بعد، قط. أظن أنها جيدة جداً). استدار «جرالد»، مبتعداً. لم تكن في الغرفة سوى صورة أو صورتين جديدتين مرسومتين بالأسلوب المستقبلي، وبيانو كبير، وبهذا، مع بعض أثاث المنزل اللندني العادي، الأفضل نوعاً، اكتملت الصورة.

خلعت «مينيت» قبعتها ومعطفها، واقتعدت الأريكة. كانت على ألفة بينة مع المسكن لكنها كانت مترددة، منفصلة. لم تكن تعرف موقعها تماماً. ففي الوقت الراهن، كان ارتباطها بـ«جرالد»، ولم تدر إلى أي حد كان ذلك مسموحاً به من طرف أيٍّ من الرجال. كانت تفكر في كيفية مسايرة الموقف وحسمه. لقد حزمت أمرها أن تخوض تجربتها، الآن، في هذه اللحظة الأخيرة، وكانت لا تريد أن يوقفها أحد عند حدها. كان وجهها متورداً كمن يخوض معركة، وعينها تمعن النظر، ولكن في شيء لا رجعة فيه.

دخل الرجل ومعه الشاي وقنينة من الـ (كومل)(*). ووضع الصينية على مائدة صغيرة قبالة الأريكة.

قال «هاليدي»: (صبّي الشاي يا «مينيت»).

لم تتحرك الفتاة.

كرر «هاليدي» وهو في حالة من التخوف العصبي: (هلاّ فعلتِ ذلك؟).

- (لم أرجع إلى هنا بصفتي السابقة. لم أجيء إلا بسبب رغبة الآخرين، وليس من أجلك).

---

* شراب ألماني مسكر. (المترجم)

ـ (يا عـزيزتي «مـينيت»، أنت تعـرفين بأنك سـيدة نفـسك. أنا لا أريد منك أن تفعلي أي شيء سوى استخدام الشقة لتأمين راحتك... أنت تعرفين ذلك، ولقد أخبرتك بذلك مراراً وتكراراً).

لم تجب، بل مدت يديها بصمت وتحفظ لتتناول إبريق الشاي.

جلس الجميع متحلقين وشربوا الشاي. كان في وسع «جرالد» أن يستشعر الصلة الكهربائية بينهما بدرجة من القوة، وهي جالسة هناك بهدوء واحتباس، بحيث ظهرت مجموعة أخرى من الظروف الطارئ.

لقد أربكه صمتها وسكونها. كيف سيتسنى له أن يُقْبِل عليها؟ ومع ذلك شعر أن ذلك كان أمراً محتماً تماماً. ووضع كامل ثقته في التيار الذي كان يضمهما معاً. كانت حيرته سطحية لا غير. ذلك أن ظروفاً جديدة قد سادت، وأن القديمة قد تم تجاوزها. فهنا، يفعل المرء أمراً كمن به مسٌّ يستحثه لأن يفعل ذلك، مهما يكن من أمر.

نهض «بركن». فقد قاربت الساعة الواحدة.

قال: (أنا ذاهب للنوم. سأتصل بك يا «جرالد» هاتفياً في محلك صباحاً.. أو تتصل بي هنا).

فقال «جرالد»: (حسن). وخرج «بركن».

وحين ابتعد مسافة كافية، قال «هاليدي» لـ «جرالد» بصوت منبّه:

ـ (أقول: هلا مكثت هنا؟.. ابقَ رجاءً!).

فقال «جرالد»: (أنت لا تستطيع أن تبيّت الجميع).

ـ (لكنني أستطيع تماماً.. هناك ثلاثة أسرّة أخرى إضافة إلى سريري..

هلا مكثت رجاءً؟ كل شيء جاهز تماماً.. يوجد شخص ما هنا دائماً..

أنا أبيّت الناس دائماً.. أحب المسكن مزدحماً).

فقالت «مينيت» بصوت بارد، عدائي: (لكنْ هناك غرفتان فقط. و «روبرت» موجود الآن).

فقال «هاليدي» بطريقة كلامه العالية، الغريبة: (اعرف أن هناك غرفتين فقط. ولكن ماذا يهم؟ هناك المرسم...).

كان يبتسم ابتسامة حمقاء نوعاً ما، ويتكلم بتلهف ينطوي على حزم لماح.

قال الروسي بصوته الكتوم، الدقيق: (سنتقاسم أنا و«جوليوس» غرفة واحدة).
لقد كان و«هاليدي» صديقين منذ أيام (إيتون).
قال «جرالد»: (إنه لأمر بسيط جداً). ونهض، ماداً ذراعيه إلى الوراء ليتمطّى.
ثم عاد إلى إحدى الصور يتملاها. كان كل طرف من أطرافه يزخر بالقوة الكهربائية، وكان ظهره متوتراً كظهر نمر ينطوي على نار غافية.
نهضت «مينيت». ورمقت «هاليدي» بنظرة سوداء، ضارية، مميتة أعادت البسمة المغتبطة، الحمقاء نوعاً ما، إلى وجه الشاب. ثم خرجت من الغرفة، قائلة «تصبحون على خير» باردةً للجميع.
كانت ثمة فاصلة وجيزة ثم سمعوا صوت باب ينغلق. بعدها قال «مكسيم» بصوته المهذب: (ذلك أمر سليم).
نظر إلى «جرالد» نظرة ذات معنى وكرر القول وهو يومئ إيماءة صامتة: (ذلك سليم.. أنتَ سليم).
نظر «جرالد» إلى الوجه الناعم، الأحمر، الوسيم وإلى العينين الغريبتين، المنطويتين على شأن. وبدا صوت الروسي الشاب، الصغير، الكامل، مُنْبَثّاً في الدم بدل الهواء.
قال «جرالد»: (إذاً، أنا سليم).
قال الروسي: (أجل! أجل! إنك سليم).
استمر «هاليدي» في الابتسام دون أن ينبس ببنت شفة.
على حين غرة ظهرت «مينيت» ثانية عند الباب، وقد بدا وجهها الصغير، الطفولي، عابساً يبغي الانتقام. وقالت بصوتها البارد، الرنان نوعاً ما:
- (اعرف أنك تريد أن توقعني في فخ. لكنني لا أبالي، لا أبالي بالمدى الذي تذهب إليه في ذلك).
استدارت ومضت ثانية. كانت ترتدي (روباً) فضفاضاً من الحرير الأرجواني معقوداً حول خصرها. لقد بدت جد صغيرة، طفولية، ومكشوفة، تكاد تثير الشفقة. ومع ذلك فإن نظرات عينيها جعلت «جرالد» يغرق في عتمة جبارة كادت أن تخيفه.
أشعل الرجال سكائر أخرى وتحدثوا أحاديث عارضة.

الفصل السابع

الطوطم(*)

استيقظ «جرالد» في الصباح متأخراً. كان قد نام نوماً ثقيلاً. أما «مينيت» فكانت لا تزال نائمة نوماً طفولياً أسيانَ، لقد أثارت هيئتها المتكورة الصغيرة، المستضعفة، نار عاطفة مشبوبة غير مشبعة في دم الشاب ورأفةً طامعة مفترسة. أعاد النظر إليها. لكنَّ في إيقاظها إفراطاً في القساوة. لذلك أجبر نفسه وارتحل.

وإذ سمع أصواتاً من غرفة الجلوس ـ كلاماً من «هاليدي» إلى «ليبيدنكوف» ـ مضى إلى الباب وألقى نظرة إلى الداخل. كان مرتدياً دثاراً حريراً ذا لون مزرق لطيف وحاشية بنفسجية.

فوجئ حين رأى الشابين، قرب النار، عاريين تماماً. رفع «هاليدي» رأسه في ما يقرب من الاغتباط.

قال: (صباح الخير ـ هل أردتَ مناشف؟). ثم انطلق إلى الردهة عارياً كل العري موسعاً الخطى، كائناً غريباً أبيض، بين الأثاث عديمة الحياة. ثم عاد مع المناشف واتخذ موضعه السابق، جاثماً قبالة النار عند حاجز المصطلى.

قال: (ألا تحب أن تحس بالنار على جلدك؟).

فقال «جرالد»: (شيء لطيف نوعاً ما).

قال «هاليدي»: (لابد أن يكون رائعاً تماماً وجودُ المرء في مناخ يتمكن فيه من الاستغناء عن الملابس كلياً).

فقال «جرالد»: (أجل لو لم يكن ثمة الكثير مما يلسع ويعض).

---

* الطوطم : كلمة معربة ، وتعني هنا الوثن المتخذ رمزاً لأسرة أو عشيرة في مجتمع بدائي عموماً . (المترجم)

فغمغم «مكسيم»: (ذلك عائق).

نظر «جرالد» إليه فشاهد بشيء من الاشمئزاز الحيوان البشري، عارياً، ذهبي الجلد، مهيناً بعض الشيء. أما «هاليدي» فكان مختلفاً.

كان ذا جمال مسترخ، متكسر، ثقيل نوعاً ما، غامض وثابت. كان كمسيح في إحدى صور (المنتحبة)(*). لم يكن الحيوان ثمة البتة بل الجمال الثقيل، المتكسر حسب. لقد أدرك «جرالد» كم كانت عينا «هاليدي» جميلتين أيضاً بصفارهما البندقي ودفئهما وحيرتهما، وهما منكسرتان في التعبير. كذلك سقط ألق النار على كتفيه الثقيلتين المنحنيتين بعض الشيء وهو جاثم باسترخاء عند حاجز المصطلى. وكان وجهه مرفوعاً ضعيفاً وربما منحلاً بعض الشيء، وإن كان نفسه ذا جمال محرك.

قال «مكسيم»: (طبيعي، لقد كنتَ في بلدان حارة يتجول الناس فيها عراة).

فهتف «هاليدي»: (أوه، صحيح؟ أين؟).

فقال «جرالد»: (أمريكا الجنوبية... الأمازون).

- (أوه، ولكن ما أروع ذلك تماماً! إنه من الأشياء التي تقف في القمة مما أتوق إلى فعله. أن أعيش يوماً بعد آخر دون أن أرتدي أي نوع من الملابس أبداً. لو استطعت أن أفعل ذلك لشعرت بأنني قد عشت حقاً).

قال «جرالد»: (لكن، لماذا؟ أنا لا أستطيع أن أحس بكل هذا الفرق).

- (أوه. أحسب أن ذلك سيكون في منتهى الروعة. إني متأكد من أن الحياة ستكون شيئاً آخر تماماً.. مختلفاً كلياً ومدهشاً تماماً).

فتساءل «جرالد»: (لكن لِمَ؟ لِمَ تكون كذلك؟).

- (أوه. لسوف يشعر المرء بالأشياء بدلاً من مجرد مشاهدتها.

لسوف أحس بالهواء يتحرك عليّ، وأحس بالأشياء التي أمسّها بدل الاكتفاء بمشاهدتها. إنني متيقن من أن الحياة كلها على خطأ لأنها غدت منظورة جداً.. نحن لا نستطيع أن نسمع، أو نحس، أو نفهم، نحن نستطيع أن نرى فقط. إنني متأكد من خطأ ذلك كله).

---

* (المنتحبة) : واحدة من صور كثيرة موضوعها السيدة العذراء تنتحب فوق جثمان المسيح . (المترجم)

قال الروسي: (نعم، ذلك صحيح، ذلك صحيح).

ألقى «جرالد» نظرة عجلى عليه، فرآه بجسمه المصقول ذهبي اللون، وبشعره الأسود النامي رقيقاً وسائباً، كمحاليق النبات، وأطرافه الشبيهة بسيقان نبات ناعمة. كان جدّ متعاف، حسن التكوين، ففكر «جرالد»: «لِمَ كان يجعل المرء يشعر بالخجل؟ لِمَ كان المرء يشعر بالصد؟ لم يتعين على «جرالد» حتى أن يكره ذلك؟ لِمَ بدا له أن ذلك يمس كرامته؟ هل كان ذلك كل ما آل إليه الكائن البشري؟ أن يمسي خالياً من الإلهام إلى هذا الحد!».

ظهر «بركن» في الباب فجأة ببجامة بيضاء وشعر مبلل ومنشفة على ذراعه. كان نائياً، أبيض شبه مضمحل.

ـ (هو ذا الحمام. إن احتجتم إليه الآن).. قالها معمماً، وكان على وشك الذهاب ثانية، فناداه «جرالد»: (اسمع يا «روبرت»).

ـ (ماذا؟) ثم ظهرت القامة البيضاء المنفردة ثانية في الغرفة.

سأله «جرالد»: (ما رأيك بذلك الشكل هناك؟ أريد أن أعرف).

مضى «بركن»، أبيض وشبحياً على نحو غريب، إلى منحوتة الامرأة المتوحشة في المخاض. كان جسمها العاري الناتئ جاثماً في وضع متشبث غريب ويداها قابضتان نهايتي الشريط فوق صدرها.

قال «بركن»: (إنه فن).

وقال الروسي: (جميل جداً، إنه جميل جداً).

اقترب الجميع للمشاهدة. ونظر «جرالد» إلى جميع الرجال: الروسي، ذهبياً وشبيهاً بنبات مائي، و«هاليدي» طويلاً جميلاً جمالاً متكسراً وثقيلاً، و«بركن» شديد البياض، غير محدد المعالم، غير مخصص، وهو ينظر إلى المرأة المنحوتة متملياً. وإذ غمر «جرالد» اهتمامٌ غريب، رفع عينيه هو الآخر إلى وجه المنحوتة الخشبية، فتقلص قلبه.

لقد رأى بروحه بكل وضوح، وجه الامرأة المتوحشة، الرمادي، الممتد إلى أمام، معتماً ومتوتراً، مستغرقاً في عناء بدني شديد. كان وجهاً فظيعاً خاوياً هزيلاً يكاد ثقل الإحساس الداخلي يفرغه من كل معنى. لقد رأى «مينيت» فيه. وكما يحدث في حلم. فإنه عرفها.

تساءل «جرالد» وقد اختضّ وامتعض: (لِمَ هو فن؟).

فقال «بركن»: (لأنه يعطي صورة صادقة كل الصدق. إنه يحوي كامل الحقيقة عن تلك الحالة، بصرف النظر عما تحس به أنت حيالها).

فقال «جرالد»: (لكنك لا تستطيع أن تسميه فناً رفيعاً).

ـ (رفيع! هناك قرون ومئات القرون من التطور في خط مستقيم، وراء تلك المنحوتة. إنها ذروة رهيبة من الثقافة من ضرب معين).

فتساءل «جرالد» معترضاً: (أية ثقافة؟) لقد كان يكره ذلك الشيء البربري المحصَّن.

ـ (ثقافة خالصة في الإحساس، ثقافة في الوعي الجسدي، الوعي الجسدي النهائي حقاً، لا علاقة لها بالعقل، حسية على نحو متطرف. إنها حسية إلى درجة تكون معها نهائية سامية).

بيد أن «جرالد» استنكر ذلك.. كان يريد استبقاء بعض الأوهام، بعض الأفكار، كالملابس.

قال: (أنت تحب الأشياء الخاطئة يا «روپرت».. أشياء ضد ذاتك).

أجاب «بركن» وهو يبتعد: (أوه، أعرف. ليس هذا كل شيء).

حين عاد «جرالد» إلى غرفته من الحمام كان هو الآخر يحمل معه ملابسه. لقد كان على درجة من التمسك بالتقاليد في البيت بحيث حين يكون خارج البيت فعلاً، ومتحرراً طليقاً، كما هو الآن، فإنه لم يكن يستمتع بأي شيء مثل تمتعه بإتيان ما هو فاضح تماماً. وهكذا أوسع الخطى ودثاره الحرير، الأزرق على ذراعه، وأحس بأنه كان يتحدى.

كانت «مينيت» راقدة في فراشها دون حراك وعيناها المدورتان الزرقاوان كبركتين بائستين. لم يكن في مستطاعه سوى رؤية بركتي عينيها الميتتين اللتين لا قرار لهما. ربما كانت تعاني. لقد أثار الإحساس بمعاناتها البدائية الشعلة القديمة الحادة، شفقة حارقة، عاطفة مشبوبة تكاد تقرب من القسوة.

قال لها: (أنت صاحية الآن).

فجاء صوتها المكتوم: (كم هي الساعة؟).

كانت تبدو وكأنها تتراجع إزاء تقدمه نحوها، مثلما ينساب سائل تقريباً، فتغوص نائية عنه، دون معين. وكان المنظر البدائي لعبوديتها المنتهكة، التي يقتضي إتمامُها المزيدَ فالمزيد من الانتهاك، قد جعل أعصابه تهتز بشعور مستحب جداً على أية حال، كانت إرادته هي الإرادة الوحيدة، وكانت هي الموضوعَ السلبي لإرادته. لقد تدغدغ بالشعور المتغلغل اللاسع. ثم إنه كان يدرك أنه لابد من ابتعاده عنها، لابد من فراق خالص بينهما.

كان الفطور هادئاً وعادياً، وبدا جميع الرجال الأربعة مستحمين، نظيفين جداً. كان كل من «جرالد» والروسي سليمين في المظهر والسلوك، كما ينبغي(*).

أما «بركن» فكان نحيلاً عليلاً، وبدا فاشلاً في محاولته أن يكون رجلاً سليم الهندام مثل «جرالد» و«مكسيم». أما «هاليدي» فكان يرتدي بدلة من قماش الـ (تويدز) وقميصاً من الفانيلة الخضراء، ورباطاً كالخرقة، كان يليق به تماماً. جاء الرجل الهندي بكمية كبيرة من الخبز المحمص الناعم، وبدا مطابقاً تماماً لمظهره في الليلة السابقة، مطابقاً على نحو جامد.

وعند الانتهاء من الفطور ظهرت «مينيت»، في دثار حرير أرجواني ووشاح متلألئ. لقد استعادت وعيها إلى حد ما، لكنها كانت لا تزال صامتة لا حياة فيها. كانت تتعذب حين يكلمها أحد. وكاد وجهها أشبه بقناع صغير رقيق ومنحوس كذلك، قناع معاناة كارهة. كان الوقت يقرب من منتصف النهار. نهض «جرالد» ومضى إلى عمله، فرحاً لخروجه. لكنه لم يكن قد انتهى من كل شيء. إنه عائد في المساء. كان الجميع سيتناولون العشاء معاً. وكان قد حجز مقاعد للجماعة، عدا «بركن»، في مسرح للمنوعات.

ليلاً، عادت الجماعة إلى البيت متأخرةً جداً من جديد، ومن جديد احمرت الوجوه بالخمر. وعاد الرجل الهندي ـ الذي كان لابد أن يتغيب بين الساعة العاشرة والثانية عشرة ليلاً ـ ثانية صامتاً، غامضاً، حاملاً الشاي، وهو ينحني على نحو بطيء، غريب، أشبه بالفهد، ليضع الصينية على المائدة بهدوء. كان وجهه جامداً لا يتغير، أرستقراطي المظهر، يشوبه قليلاً لون رمادي تحت البشرة. كان شاباً وحسن الطلعة بيد أن «بركن»

* وردت عبارة (كما ينبغي) بالفرنسية . (المترجم)

شعر بشيء من الغثيان عند النظر إليه وأحس بأن اللون الرمادي الخفيف كان كالرماد أو العفونة، وأن في غموض التعبير الأرستقراطي كانت بلادةٌ بهيمية تسبب الغثيان.

ومن جديد طفق الجميع يتحدثون ودياً متحمسين. بيد أن بعض الهشاشة كانت قد شرعت تسود الجمع. فـ «بركن» ساخط حد الجنون، و«هاليدي» كاره «جرالد» حد العته و«مينيت» أمست باردة صلبة كمدية صوان و«هاليدي» ينشر نفسه لها. أما هي فنيتها كانت أن تأسر «هاليدي» في آخر المطاف وأن تبسط كامل سلطانها عليه.

في الصباح، عاد الجميع يمضون الوقت تخطياً وتسكعاً. لكن «جرالد» كان يستشعر خصومة غريبة حياله في الجو. فاستثارت تلك عناده وهبّ مقاوماً. فلبث مدة يومين آخرين وكانت النتيجة مشادة كريهة ومجنونة مع «هاليدي» في الأمسية الرابعة. فقد صب «هاليدي» جام عداوة سخيفة على «جرالد» في المقهى، فكانت مشادة. وكان «جرالد» على وشك أن يلكم «هاليدي» في وجهه فإذا به يمتلئ نفوراً ولا مبالاة على حين غرة ومضى مدبراً تاركاً «هاليدي» في حالة خرقاء من النصر المزهو، و«مينيت» جامدة مستقرة و«مكسيم» واقفاً على بعد أمين. وكان «بركن» غائباً إذ كان قد غادر المدينة ثانية.

استاء «جرالد» لأنه غادر دون أن يعطي «مينيت» مالاً. صحيح أنه لم يكن يعرف ما إذا كانت تريد مالاً أم لا. لكن كان يمكن أن تسرها عشرة باونات وكان سيسره جداً إعطاؤها لها. لقد أحس الآن بأنه كان في موقف خاطئ. وارتحل وهو يقضم شفتيه كي يبلغ نهايتي شاربه المقصوص القصير. كان يعلم أن «مينيت» كانت مسرورة بكل بساطة، بتخلصها منه. فلديها «هاليدي» الذي كانت تريد. كانت تريده تحت سيطرتها كلياً وعند ذلك ستتزوجه. كانت تريد أن تتزوجه. فأعملت إرادتها صوب الاقتران به. ولم تشأ أن تسمع عن «جرالد» ثانية قط، اللهم إلا إذا وقعت في مشكلة. ذلك لأن «جرالد» كان، على الرغم من كل شيء، مَنْ تسميه رجلاً. أما هؤلاء الآخرون، «هاليدي» و«ليبيدنكوف» و«بركن» ورهط البوهيميين جميعاً، فلم يكونوا إلا أنصاف رجال. بيد أنها لم تكن لتستطيع التعامل إلا مع أنصاف الرجال. إذ كانت تشعر بالثقة بالنفس حيالهم. أما الرجال الحقيقيون، من أمثال «جرالد»، فكانوا يغالون في وضعها في موقعها الحقيقي.

مع هذا، كانت تحترم «جرالد». كانت تحترمه حقاً. لقد دبرت الحصول على عنوانه كي تستطيع أن تلجأ إليه وقت المحنة. كانت تعرف أنه كان يبغي إعطاءها مالاً. ولعلها ستكتب إليه في ذلك اليوم الأسود القادم لا محالة.

الفصل الثامن

بريدالبي

كان (بريدالبي) بيتا (جورجيا) ذا أعمدة (كورنثية)(*)، قائماً بين التلال الأكثر خضرة ونعومة في مقاطعة (جربي شير) غير بعيد عن (كرومفورد). وكان يطل من الأمام على مرجة خضراء، وعلى بضع أشجار، فبرك سمك عدة في غور المتنزه الصامت. أما في الخلف، فثمة أشجار توجد بينها الاصطبلات وحديقة الخضراوات الكبيرة تليها غابة.

كان مكاناً هادئاً جداً، يقع على بعد بضعة أميال من الطريق الرئيس، خلف وادي (دورنت) وخارج مناظر الريف الجميل، وكان ملاط النشر الذهبي يبين على الجدران خلل الأشجار صامتاً ومهجوراً، في حين أطلت واجهة الدار على المتنزه، باقية على حالها لم تتغير، ولا تتغير.

كانت «هرمايني» قد عاشت في الدار فترة لا يستهان بها في الآونة الأخيرة. لقد أدارت ظهرها لـ (لندن) و(أكسفورد) وتوجهت نحو سكون الريف. وكان أبوها يغيب في أغلب الأحيان خارج البلاد، فتبقى إما وحيدة في الدار، مع زوارها الذين كانوا كثيرين على الدوام، أو مع أخيها الأعزب عضو حزب الأحرار في البرلمان. كان هذا دائم المجيء في عطلة المجلس، ويبدو دائماً حاضراً في (بريدالبي) على الرغم من كونه ملتزماً جداً في أدائه الواجب.

كان الصيف قد حلّ تواً حين ذهبت «أرسولا» و«غدرون» للمكوث مع

---

* جورجي : نسبة إلى العهد الجورجي في بريطانيا، وهو عهد الملوك الأربعة الأول الحاملين اسم (جورج). و(كورنثي) : نسبة إلى مدينة (كورنث) الإغريقية، والأعمدة (الكورنثية) متميزة بتيجانها المزدانة بزخارف شبيهة بنبات (الاقنثا) الشوكي. (المترجم)

«هرمايني» للمرة الثانية. لقد دخلتا المتنزه بعد قدومهما بالسيارة، وألقتا نظرة عبر الغور، حيث تقع برك السمك في صمت، إزاء واجهة الدار ذات الأعمدة، مشمّسة، صغيرة، وشبيهة برسم إنكليزي من المدرسة القديمة، على جبهة التل الأخضر، مقابل الأشجار. كانت ثمة أجسام صغيرة على ساحة الثيل الأخضر، ونساء بالأصفر والأزرق الفاتح، يتحركن صوب ظل شجرة الأرز الضخمة، والمتوازنة على نحو جميل.

قالت «غدرون»: (أليس هذا منظراً كاملاً! إنه نهائي مثل محفورة «أكواتنتية»(*) قديمة). كانت تتحدث وشيء من الامتعاض في صوتها، كأنها قد وقعت في الأسر دون رضاها، كأنها ملزمة على الإعجاب ضد إرادتها.

سألت «أرسيولا»: (هل تحبين ذلك).

- (لا أحبه. لكنني أظن أنه كامل تماماً، على طريقته الخاصة).

سارت السيارة نزولاً من التل ثم صعوداً دون توقف، ثم انعطفت إلى الباب الجانبي. ظهرت خادمة ضيوف، ثم «هرمايني»، وجهها الشاحب مرفوع، ويداها ممدودتان وهي تتقدم مباشرة نحو القادمتين الجديدتين. وجاء صوتها منشداً: (ها أنتما هنا.. أنا مسرورة جداً للقياكما..) وقبّلت «غدرون» (كم أنا مسرورة بلقياك..) ثم قبلّت «أرسيولا» (كم أنا مسرورة بلقياك..) وأبقت ذراعها محيطة بها. (هل أنتما متعبتان جداً؟).

فقالت «أرسيولا»: (لست متعبة البتة).

- و(أنت يا «غدرون»، هل تعبت؟).

فقالت «غدرون»: (قطعاً لا، شكراً).

فقالت «هرمايني» وهي تمطّ الكلام: (كلا). ثم وقفت تنظر إليهما. تحرّجت البنتان لأنها لم تتحرك لتدخل الدار، إذ لابد من تأدية مشهدها الترحيبي الصغير هناك في الممر. وانتظر الخدم.

وأخيراً قالت «هرمايني»: (تفضلا)، بعد أن أكملت استيعاب الفتاتين بصرياً، وكررت لنفسها استنتاجاً سابقاً بأن «غدرون» هي الأكثر جاذبية وجمالاً وبان

---

* طريقة الحفر المائي في النقش على النحاس. (المترجم)

«أرسيولا» هي الأفضل بدنياً وأنوثة. لقد أعجبها ثوب «غدرون» أكثر حيث كان من (البوبلين) الأخضر يعلوه معطف فضفاض ذو خطوط عريضة باللونين الأخضر والبني الغامقين. وكانت القبعة من قش ذي لون مخضر فاتح، كلون الدريس الجديد، وبها شريط مجدول، أسود وبرتقالي. أما الجوارب فكانت خضراء غامقة، والحذاء أسود. كان هنداماً حسناً، شخصياً وعصرياً في الوقت نفسه.

أما «أرسيولا» فكانت عادية أكثر بالأزرق الغامق وإن كان مظهرها حسناً هو الآخر.

أما «هرمايني» ذاتها فكانت ترتدي ثوباً حريراً إجاصي اللون، مع عقد مرجاني وجوارب مرجانية اللون. لكن ثوبها كان رثاً ومتسخاً معاً. بل كان قذراً تقريباً.

ـ (أنتما تودان مشاهدة غرفتيكما الآن، أليس كذلك؟ أجل. سوف نصعد الآن، نصعد).

سُرَّت «أرسيولا» حين استطاعت أن تخلو بنفسها في غرفتها. فقد أطالت «هرمايني» المكوث طويلاً وأتعبتهما كثيراً. كانت تدنو من المرء كثيراً جداً، فارضة نفسها عليه على نحو محرج وخانق جداً. كانت تبدو وكأنها تعيق عمل الآخرين.

جيء بطعام الغداء إلى المرجة، تحت الشجرة الضخمة، التي تدلت أغصانها الغليظة المسوّدة دانية من العشب. كان الحضور يتألف من امرأة إيطالية شابة، نحيفة ومتنوقة، وآنسة اسمها «برادلي»، صغيرة ورياضية المظهر، و(بارونيت)(*) في الخمسين، جاف، متعلم، كان يلقي النكات دون انقطاع ويضحك منها من الصميم ضحكاً فظاً كالجياد.

ثم هناك «روبرت بركن»، وسكرتيرة صغيرة السن، هيفاء، مليحة اسمها (الفراولاين)(**) «ميرتس».

كان الطعام جيداً جداً، وتلك كانت نقطة إيجابية. فقد منحته «غدرون» التي كانت تنتقد كل الأشياء استحسانها التام. أما «أرسيولا» فقد أحبت الوضع: المائدة البيضاء إزاء شجرة الأرز، عبق إشراقة الشمس الجديدة، المرأى الصغير للمتنزه المورق

* (البارونيت) مرتبة وراثية بين (البارون) و(الفارس). (المترجم)

** (الفراولاين): بالألمانية معناها: الآنسة. (المترجم)

بغزلانه النائية وهي تكلأ في أمان. فكانت هناك دائرة سحرية تحيط بالمكان، وتبعد الحاضر، وتنغلق على الماضي البهيج، الغالي، أشجاراً وغزلاناً، وسكوناً، كأنه حلم.

بيد أنها لم تكن سعيدة نفسياً. استمر الحديث مثل إطلاقات المدافع الصغيرة، مطعَّماً على الدوام تطعيماً خفيفاً بالحكم والمواعظ، وهو تطعيم لم يكن يؤكده إلا استمرار المناوشة بالنكات، وتواصل ثرثرة الدعابات الشفهية الذي كان يُقْصَد به إسباغ جو من اللوذعية على مجرى من الكلام كان كله عاماً وانتقادياً، وهو الذي كان، بالأحرى، قناةً، لا جدولاً، من الكلام.

كان الموقف فكرياً وجدّ متعب. ولم يبدُ سعيداً تماماً سوى عالِم الاجتماع المسن، وهو الذي كان نسيجه العقلي من الغلظة بحيث غدا عديم الإحساس. وكان «بركن» محزوناً. وبدت «هرمايني» راغبة، وبإصرار مدهش، في الاستهزاء به وإظهاره بمظهر مشين في عيون الجميع. وكان من العجيب أن تبدو فالحة هكذا، ويبدو هو بهذا العجز حيالها. كان يبدو تافهاً كلياً. أما «أرسيولا» و«غدرون» اللتان لم تتعودا كلتاهما ذلك البتة، فصمتتا معظم الوقت، وهما تستمعان إلى إنشاد «هرمايني» الرتيب، البطيء المتقطع أو إلى نكات السير «جوشوا» الكلامية أو إلى ثرثرة (الفراولاين) أو إجابات الامرأتين الأخريين.

انتهى الغداء، وجيء بالقهوة فوق العشب، وترك المدعوون المائدة ليقعدوا على كراسي الاستلقاء في الظل أو في ضوء الشمس كما شاءوا.

وذهبت (الفراولاين) إلى داخل البيت وتناولت «هرمايني» مطرّزها وأخذت الكونتيسة الصغيرة كتاباً، وطفقت الآنسة «برادلي» تنسج سلة من العشب الرقيق، وهكذا كان الجميع في المرجة، في عصر الصيف المبكر، يعملون متمهلين ويثرثرون بكلام نصف مثقف، متكلف.

وعلى حين غرة سمع صوت مكابح سيارة وإطفاء محركها.

أنشدت «هرمايني» بتغريدتها الرتيبة البطيئة المسلية: (هو ذا «سالزي»!).

ووضعت شغلها جانباً، ونهضت ببطء، وببطء اجتازت المرجة، حول الشجيرات، ثم غابت عن الأنظار.

تساءلت «غدرون»: (من هو؟).

فقال السير «جوشوا»: (إنه السيد «رودس» شقيق الآنسة «رودس»، إنه هو على ما أظن في الأقل).

وقالت الكونتيسة الصغيرة وهي ترفع رأسها لحظة من كتابها: («سالزي»، نعم، إنه أخوها). وتكلمت كما لو كانت تبغي إعطاء معلومات بإنكليزيتها الحلقية العميقة نوعاً ما.

انتظر الجميع، ثم ظهر من حول الشجيرات «الكزاندر رودس» بطوله الفارع، موسع الخطى على نحو رومانسي، كأنه أحد أبطال «ميريديث» إذ يتذكر «ديزاريلي»(*). كان ودوداً مع الجميع وقام بدور المضيف على الفور، بكرم ضيافة يسيرة عفوية كان قد تعلمها من أجل أصدقاء «هرمايني». لقد جاء تواً من (لندن) من دار البرلمان. وفي الحال ساد جوُّ مجلس العموم في وسط الحديقة: فوزير الداخلية كان قد قال كيتَ وكيتَ و«رودس»، من ناحية أخرى، قد اعتقد كيتَ وكيتَ، وقال هو كذا وكذا لرئيس الوزراء.

أقبلت «هرمايني» الآن من وراء الشجيرات ومعها «جرالد كريتش»، الذي كان قد قدم مع «الكزاندر». جرى تقديم «جرالد» إلى الجميع واستَبْقَتْهُ «هرمايني» بضع لحظات أمام الآخرين ثم قادته إلى الخارج.

كان من الواضح أنه ضيفها في تلك الآونة.

كان هناك خلاف في مجلس الوزراء وقد استقال وزير التعليم بسبب الانتقاد المناوئ. وكان من شأن هذا أن بدأ الحديث عن التعليم.

قالت «هرمايني» وقد رفعت وجهها كراوية شعرٍ جوّال: (من الطبيعي لا يمكن أن يكون ثمة أي سبب، ولا أية حجة للتعليم، سوى بهجة وجمال المعرفة في ذاتها)، ثم بدت كأنها تدمدم وتتأمل في أفكار مخفيّة مدة دقيقة، ثم واصلت: (التعليم المهني ليس تعليماً، إنه ختام التعليم).

ولما كان «جرالد» على وشك الدخول في نقاش. فإنه تنشق الهواء منشرحاً، واستعد للعمل.

---

* «جورج ميريديث» (١٨٢٨-١٩٠٩) شاعر وروائي إنكليزي و«بنجامين ديزرايلي» (١٨٠٤-١٨٨١) سياسي ومؤلف بريطاني ، شغل منصب رئيس الوزراء في ١٨٦٨ و ١٨٧٤-١٨٨٠ . (المترجم)

قال: (ليس من الضروري. ولكن، أليس التعليم في الحقيقة مثل رياضة الجمباز؟ أليست غاية التعليم خلق عقل ناشط، حسن التدريب، ذي عزم وحيوية؟).

فهتفت الآنسة «برادلي» في تأييد صميمي: (تماماً، كما تخلق الرياضة جسماً سليماً، جاهزاً لكل شيء).

نظرت «غدرون» إليها باشمئزاز صامت.

ودمدمت «هرمايني»: (حسن... أنا لا أعرف. فبالنسبة إليّ، إن متعة المعرفة جدّ عظيمة، جدّ مدهشة... ما من شيء قدّرته طيلة حياتي قدر المعرفة الأكيدة.. كلا.. أنا متأكدة.. ما من شيء).

سأل «الكزاندر»: (أية معرفة مثلاً يا «هرمايني»؟).

فرفعت «هرمايني» وجهها وتمتمت: (ام.. م.. م.. لا أعرف.. ولكن أحد الأشياء كان النجوم، حين فهمتُ شيئاً ما عن النجوم حقاً. إن المرء ليشعر متسامياً جداً، متحرراً من القيود جداً.).

نظر «بركن» إليها في حنق هائج، وسألها ساخراً:

- (من أجل ماذا تريدين أن تشعري بأنك متحررة من القيود؟ أنت لا تريدين أن تكوني بلا قيود).

ارتدت «هرمايني» مستاءة.

قال «جرالد»: (نعم، لكن المرء يملك فعلاً ذلك الإحساس اللامتناهي. إنه كارتقاء قمة الجبل ومشاهدة المحيط الهادئ).

فتمتمت الإيطالية، وهي ترفع وجهها عن كتابها لحظة: (صامتاً فوق ذروة في «دارياين»)(*).

فقال «جرالد»: (ليس في (دارين)(**) بالضرورة). فيما شرعت «أرسيولا» تضحك.

انتظرت «هرمايني» انجلاء الغبار، ثم قالت، غير متأثرة:

---

* مقتبس من قصيدة الشاعر الإنكليزي «جون كيتس» (١٧٩٥-١٨٢١) يصف فيها شعور الغازي الإسباني «كوريتز» لدى رؤيته المحيط الهادئ أول مرة في المكسيك. (المترجم)

** Darien مستوطنة إسبانية في المكسيك، وقد جاء لفظ الامرأة الإيطالية للكلمة محرفاً. (المترجم)

ـ (أجل.. أن تعـرف.. هو أعظم شيء فـي الحـيـاة. إنه السـعـادة والحـرية، في الواقع).

قال «ماتيسون»: (المعرفة هي الحرية، بلا ريب).

فقال «بركن»: (بأقراص مضغوطة)، وهو ينظر إلى جسم (البارونيت) الضئيل، المتصلب الجاف. وفي الحال تصورت «غدرون» عالِم الاجتماع الشهير كقنينة مسطحة تحوي أقراصاً من الحرية المضغوطة، فسرّها ذلك. لقد عُلِّم (السير جوشوا) بعلامة ووضع في باطن عقلها إلى الأبد.

أنشدت «هرمايني» في زَجْر هادئ: (ما يعني ذلك يا «روبرت»؟).

فأجاب: (لن تكون لديك معرفة، على وجه الدقة، إلا عن أشيـاء اختتمت، في الماضي. مثل ذلك مثل تعبئة حرية الصيف الماضي في الكشمش المعبأ في قنان)(*).

تساءل (البارونيت)، تخصيصاً: (هل يمكن للمرء أن يحصل على معرفة الماضي فقط؟ هل يسعنا تسمية معرفتنا بقوانين الجاذبية، مثلاً، معرفة من الماضي؟).

فقال «بركن»: (أجل).

وفجأة نطقت المرأة الصغيرة الإيطالية بما يشبه التزمير: (يوجد أجمل شيء في كتابي. يقول: جاء الرجل إلى الباب وألقى بعينيه في الشارع).

ضحكت الجماعة عموماً وأقبلت الآنسة «برادلي» على الكونتيسة ونظرت من فوق كتفها.

قالت الكونتيسة: (انظري!) وقرأت: (قدم «بازاروف» إلى الباب وألقى بعينيه في الشارع، على جناح السرعة).

ومن جديد، كانت هناك ضحكات عالية. وكان أكثرها إجفالاً ضحكة (البارونيت) التي قعقعت عالية كطقطقة أحجار تتساقط.

تساءل «الكزاندر»، على الفور: (ماهو الكتاب؟).

فقالت الأجنبية الصغيرة وهي تتلفظ كل مقطع على حدة: («آباء وأبناء» من تأليف «تورغينيف») ثم نظرت إلى الغلاف للتحقق.

---

* هكذا ورد الكلام على هذا النحو السوريالي في النص الأصلي. (المترجم)

قال «بركن»: (طبعة أمريكية قديمة).

وقال «الكزاندر» بصوت رقيق محتج: (ها!.. شيء طبيعي.. مترجمة عن الفرنسية، (Bazarov ouvra la porte et jeta les yeux dans la rue) وأدار على الجماعة نظرة في إشراق.

فقالت «أرسيولا»: (ترى ماذا كانت الكلمة المقابلة لعبارة «على جناح السرعة؟»)(*).

طفق الجميع يخمنون.

ثم أقبلت الخادمة على عجل حاملة صينية شاي كبيرة مما دعا إلى اندهاش الكل. ها قد مضى العصر سريعاً. تجمّع الجميع ليتمشوا بعد الشاي.

قالت «هرمايني» لكل واحد منهم، فرد بعد فرد: (هل تود أن تأتي للتمشي؟).

فقال الجميع: نعم، وهم يشعرون كأنهم، بطريقة ما، مساجين قد صُفّوا للتمرين. ولم يرفض سوى «بركن».

- (أتأتي للتمشي يا «روپرت»؟).

- (كلا يا «هرمايني»).

- (ولكن، هل أنت متأكد؟).

- (كلّ التأكد)، كان ثمة تردد لثانية من الزمن.

فأنشدت «هرمايني» متسائلة: (ولم لا؟). إن إحباطها، حتى في أمر تافه مثل ذلك، جعل دمها يندفع بشدة، فقد كانت قد عقدت النية على أن يقوم الجميع بالتجوال معها في المتنزه.

قال: (لأنني لا أحب السير العسكري ضمن رهط).

فدمدم صوتها داخل حلقها لحظة، ثم قالت في هدوء شارد، غريب:

- (سنترك، إذاً، وراءنا صبياً صغيراً، طالما كان عبوساً). ولقد بدت منشرحة، فعلاً، أثناء إهانتها إياه. لكن ذلك جعله منقبضاً حسب.

اقتفت «هرمايني» أثر الجماعة، ولم تلتفت إلى الخلف إلا لكي تلوّح بمنديلها له وتقهقه متضاحكةً، وهي تنشد له:

---

* لم ترد في النص الفرنسي عبارة «على جناح السرعة» . (المترجم)

ـ (إلى اللقاء إلى اللقاء، يا أيها الصبي الصغير).

فردّ في سره: (إلى اللقاء أيتها الشمطاء الوقحة).

مضى الجميع عبر المتنزه. كانت «هرمايني» تبغي أن تريهم زهور النرجس البرية في المنحدر الصغير، وكانت تغرّد بين آن وآخر قائلة بصوتها المتمهل: (من هنا، من هنا). وكان على الجميع أن يسيروا من هنا. كانت زهور النرجس جميلة، ولكن من كان يستطيع رؤيتها؟ لقد غدت «أرسيولا» آنذاك منقبضةً استياءً من الجو كله، أما «غدرون» فكانت تراقب وتسجل كل شيء، في سخرية وموضوعية.

نظروا إلى الغزال الجفول. وتحدثت «هرمايني» إلى الأيل كأنه، هو الآخر، صبي تريد أن تتملقه وتدلله. كان ذكراً، ولذلك وجب عليها أن تمارس نوعاً من السلطة عليه. ثم عادوا إلى البيت عن طريق برك الأسماك، وحدثتهم «هرمايني» عن العراك الذي نشب بين اثنين من طيور البجع تصارعاً ليخطبا ود البجعة الوحيدة. وقهقهت وضحكت فيما كانت تخبرهم كيف قبع العاشق المنحّى دافناً رأسه تحت جناحه فوق الحصى.

حين عادوا إلى البيت وقفت «هرمايني» في المرجة وأنشدت بصوت صغير، غريب، وعالٍ تناهى إلى مسافة بعيدة جداً:

ـ («روپرت»! «روپرت»!). كان المقطع الصوتي الأول عالياً وبطيئاً، والثاني منخفضاً: («روو ـ و ـ پرت»).

لكن ما من جواب. وظهرت خادمة.

فانطلق صوت «هرمايني» الناعم السارح، بالسؤال: (أين السيد «بركن»؟) ولكن وراء الصوت السارح، أية إرادة ملحاحة، مجنونة تقريباً، كانت هناك!

ـ (أظن أنه في غرفته يا سيدتي).

ـ (حقاً؟).

مضت «هرمايني» ترتقي الدرجات بتمهل وسارت في الممر، تنشد بندائها الصغير الجهير:

ـ («روو ـ و ـ پرت»! روو ـ و ـ پرت»!).

بلغت بابه، فنقرت عليه وهي لا تزال تصيح: («روو ـ و ـ پرت»!)

فجاء صوته أخيراً: (نعم).

ـ (ماذا أنت فاعل؟).

كان السؤال ناعماً وفضولياً. لم يكن هناك جواب. ثم فَتَحَ الباب.

قالت «هرمايني»: (لقد عدنا. ما أجمل زهور النرجس!)

قال: (نعم، لقد سبق أن شاهدتها).

نظرت إليه نظرتها الطويلة، البطيئة، الجامدة، من جانب الخدين ورددت: (حقاً؟). وظلت تنظر إليه. لقد كان يستثيرها أكثر من أي شيء آخر، هذا الصراع معه، حين يكون مثل صبي عابس عديم الحيلة، فتبقيه في حرزها الأمين في «بريدالبي». بيد أنها كانت تعلم، في داخلها، بأن الخلاف قادم، وأن كرهها إياه كان مستقراً في اللاوعي وشديداً.

كررت بنبرتها الناعمة غير المبالية: (ماذا كنت تفعل؟). لم يجب، فولجت غرفته بلا وعي تقريباً. كان قد أخذ رسماً صينياً عن الوز من المخدع، وكان يستنسخه بكثير من المهارة والحيوية.

قالت وهي واقفة قرب المنضدة، تتفحص عمله: (أنت عاكف على استنساخ الرسم. نعم، ما أجمل عملك! أنت تحبه كثيراً، أليس كذلك؟).

قال: (إنه رسم مدهش).

ـ (هل هو كذلك؟ أنا جد مغتبطة لأنك تحبه. فلقد كنت أنا مولعة به دائماً. لقد أعطانيه السفير الصيني).

فقال: (أعلم).

وتساءلت بنبرة عرضية، رتيبة: (لِمَ تستنسخه؟ لِمَ لا تعمل شيئاً ما أصيلاً؟).

أجاب: (أريد أن أعرفه. يتعلم المرء عن الصين باستنساخه هذه الصورة، أكثر مما يتعلمه من قراءة جميع الكتب).

ـ (وماذا تتعلم؟).

لقد أثيرت في الحال فوضعت ـ إذا جاز التعبير ـ يديها الشديدتين عليه لتستخلص أسراره منه. إذ كان لابد من أن تعرف. كان طغياناً فظيعاً، هاجساً فيها، أن تعلم كل ما كان يعلم. سكت بعض الوقت، كارهاً الإجابة. ثم شرع يقول مضطراً.

ـ (أعرف في أية بيئة هم عائشون.. ماذا يشعرون ويدركون.. بيئة الوز الحارة،

اللاذعة في دفق الماء البارد والطين.. الحرارة اللاسعة، المُرّة الغريبة لدم وزة. إذ تسري في دمائهم ذاتها كأنها تطعيم من نار مفسدة... نار الطين الباردة الاشتعال.. سرّ زهرة اللوتس الغامض).

نظرت «هرمايني» إليه، عبر خديها الشاحبين، الضيقين. كانت عيناها غريبتين مخدَّرتين ثقيلتين تحت أجفانهما الثقيلة المتدلية. أما صدرها الهزيل فكان يرتج تشنجاً. ردَّ هو على نظرتها بأن حملق إليها حملقة شيطانية ثابتة. وإذ تشنجت مرة أخرى تشنجاً عليلاً غريباً انصرفت عنه كما لو كانت مريضة، وغدت تستشعر انحلالاً يسري في جسدها.

ذلك لأنها لم تستطع، بمقدرتها العقلية، أن تصغي إلى كلماته. لقد أمسك بها - إن صح التعبير - من تحت دفاعاتها جميعاً، ودمّرها بقوة سحرية غدّارة.

قالت: (أجل) كما لو كانت غير دارية بما كانت تقول. (أجل)، وابتلعت ريقها، وحاولت أن تلم أشتات تفكيرها. لكنها لم تستطع، كانت مخبولة، مفككة: لم تستطع أن تستعيد رشدها، على الرغم من أنها حكّمت كامل إرادتها بقدر ما استطاعت. لقد عانت فظاعة الانحلال، منكسرة، آيلة إلى تفسخ مرعب.

أما هو فإنه لبث ينظر إليها غير متأثر. فمضت إلى الخارج، شاردة شاحبة منهكة، كأنها شبح، كشخص داهمته هواجس القبر التي تتعقبنا. ومضت مثل جثة ليس لها حضور أو ارتباط: أما هو فقد ظل متحجراً انتقامياً.

نزلت «هرمايني» إلى حيث العشاء، غريبة، لحدية، وعيناها ثقيلتان ملؤهما ظلام اللحود، والقوة. كانت قد ارتدت ثوباً من قماش موشى قديم، مخضوضر متيبس، التصق بجسمها بإحكام، وجعلها تبدو طويلة، تكاد تكون فظيعة ومروعة. كانت في ضوء غرفة الاستقبال البهيج تبدو خارقة للطبيعة، ثقيلة الوطأة على النفس. لكن، حين جلست في غرفة الطعام نصف المضاءة، مشدودةً قبالة الشموع المظللة الموضوعة فوق المائدة ظهرت في مظهر القوة والحضور. ومضت تستمع وتصغي بانتباه مخدَّر.

كانت الحفلة بهيجة باذخة المظهر. وكان الجميع قد ارتدوا ملابس السهرة عدا «بركن» و«جوشوا ماتيسون». أما الكونتيسة الإيطالية الصغيرة فكانت ترتدي ثوباً من نسيج رقيق، من قطيفة برتقالية وذهبية وسوداء ذات خطوط عريضة ناعمة. في

حين كان ثوب «غدرون» أخضر زمردياً ذا تقاطعات غريبة. وكانت «أرسيولا» في ثوب أصفر وخمار ذي لون فضي كامد، والآنسة «برادلي» في ثوب رمادي، قرمزي كهرمائي، بينما ارتدت (الفراولاين) «ميرتس» ثوباً أزرق كامداً. كان منظر تلك الألوان الزاهية في ضوء الشموع مثار شعور مفاجئ متشنج من السرور في نفس «هرمايني». كانت هذه شاعرة بالأحاديث التي لا تنقطع، والتي كان صوت «جوشوا» هو الطاغي عليها، وبقهقهات الضحك الخفيف المتواصلة الصادرة من النساء والجواب عليها، وبالألوان الصارخة والمائدة البيضاء والظلال من فوق ومن تحت ما جعلها تبدو في نشوة من الرضا الذي يستثيره السرور، وإنْ شابتها علة كأنها شبح ميت. ولم تشترك في الحديث إلا قليلاً وإنْ كانت تسمعه كاملاً، لأنه كان، كله، ملكاً لها.

دخل الجميع غرفة الاستقبال كعائلة واحدة، بيسر ودون أي اهتمام بالرسميات. قدمت (الفراولاين) القهوة، ودخن الجميع سكائر، أو غلايين طويلة مصنوعة من الصلصال الأبيض كان قد جيء بحزمة منها.

سالت (الفراولاين) بطريقة لطيفة: (أتحبون أن تدخنوا؟.. سكائر أم غليوناً؟) كانت ثمة حلقة من الناس: السر «جوشوا» بمظهره المنتمي إلى القرن الثامن عشر، و«جرالد» الشاب الإنكليزي الوسيم المغتبط، و«الكزاندر» السياسي الطويل الوسيم، ديمقراطياً ورائقاً، و«هرمايني» غريبة مثل «كساندرا»(*) مديدة، والنساء متوهجات بألوانهن وكلهن يدخنّ غلايينهن الطويلة البيض، جالسات على شكل هلال في غرفة الاستقبال المريحة خافتة الإنارة، متحلقات حول قطع الخشب الوامضة في المصطلى الرخامي.

كان الحديث في الغالب سياسياً أو اجتماعياً، ممتعاً، وفوضوياً حد الغرابة. كان ثمة في الغرفة تراكم لقوة عظيمة شديدة، مدمرة. وبدا أن كل شيء كان يُلْقى في البوتقة. وبالنسبة إلى «أرسيولا» بدا الجميع كأنهم ساحرات يساعدن في تسخين البوتقة حد تكوُّن الفقاعات(**). كان هناك رضا وابتهاج ضمن ذلك كله، لكن هذا الضغط الذهني الذي لا يلين، هذه التذاهنية القوية، المضنية، المدمرة، الصادرة عن

* «كساندرا» في الأساطير اليونانية. ابنة بريام ملك طروادة، كانت تمتلك المقدرة على التنبؤ بالكوارث، دون أن يصدقها أحد. (المترجم)

** الإشارة إلى الساحرات الثلاث في مسرحية «وليم شكسبير» (١٥٦٤-١٦١٦) «ماكبث». (المترجم)

«جوشوا» و«هرمايني» و«بركن» التي هيمنت على البقية أنهكت القادمين الجدد إنهاكاً ضارياً.

بيد أن «هرمايني» تملّكها غشيان مريع، ثم حدث توقف في الكلام، كما لو كان مردّه إرادتها اللاواعية لكنْ الجبارة.

قطعت «هرمايني» السكون قطعاً تاماً إذ قالت: (هلا عزفت شيئاً ما يا «سالزي»؟ هل سيرقص أحد؟ «غدرون» سترقصين أنت، أليس كذلك؟ أتمنى لو رقصتِ. وأنت أيضاً يا «ياليسترا»، سترقصين؟ - نعم، بكل سرور. وكذلك أنت يا «أرسيولا»(*)).

نهضت «هرمايني» وسحبت شريط استدعاء الخدم الموشى بالذهب المعلق عند رف المصطلى، متمهلة، ولبثت ممسكة به لحظة، ثم تركته فجأة. كان مظهرها كأنها كاهنة، غير واعية، مستغرقة في نصف غيبوبة ثقيلة.

أقبل الخادم، ثم سرعان ما ظهر ثانية حاملاً ملء ذراعيه أرواباً حريراً وشالات وأوشحة معظمها شرقي، وهي أشياء كانت «هرمايني» قد جمعتها تدريجياً، لشَغَفِها بالملابس الجميلة الباذخة.

قالت: (سترقص النساء الثلاث معاً).

قام «الكزاندر» بخفة وسأل: (وماذا ستكون؟).

قالت الكونتيسة على الفور: («ڤرجيني دلا روشتي»).

فقالت «أرسيولا»: (إنها بطيئة جداً).

اقترحت (الفراولاين) اقتراحاً نافعاً: (ساحرات «ماكبث» الثلاث).

وأخيراً تقررت رقصة «نعومي» و«روث» و«اورپاه»(**)، فكانت «أرسيولا» «نعومي» و«غدرون» «روث» والكونتيسة «اورپاه». وكانت الفكرة أداء رقصة باليه صغيرة، على نمط باليه «باڤلوڤا» و«نجنسكي»(***) الروسية.

---

* خاطبت «ياليسترا» بالإيطالية. (المترجم)

** في (العهد القديم)، «نعومي» أم زوج كل من «روث» و«اورپاه». (المترجم)

*** «آنا باڤلوڤا» (١٨٨٥-١٩٣١) و«ڤاتسلاف نجنسكي» (١٨٩٠-١٩٥٠)، راقصا باليه روسيان شهيران. (المترجم)

استعدت الكونتيسة أولاً. ومضى «الكزاندر» إلى البيانو، وأفسح مجال.

شرعت «اورپاه» ترقص متمهلةً رقصة موت بعلها، وهي مرتدية ملابس شرقية جميلة. ثم جاءت «روث»، وبكتا معاً وانتحبتا. ثم أقبلت «نعومي» لمواساتهما. كان الأداء كله عرضاً صامتاً، وأدّت النساء رقصاتهن العاطفية بالإيماء والحركة. واستمرت الدراما الصغيرة ربع ساعة.

كانت «أرسيولا» جميلة بدور «نعومي». فقد مات رجالها جميعاً، ولم يبق لها إلا أن تقف وحيدة في إصرار لا يقهر لا تطلب شيئاً. أما «روث» عاشقة النساء فقد أغرمت بها. أما «اورپاه» وهي أرملة ممتلئة حياة، حسية، حاذقة، فكان عليها أن تعود إلى الحياة الماضية، أن تعيد الكرة.

كان الأداء النسوي المتبادل حقيقياً، يكاد أن يخيف. كانت غريبةً مشاهدة الكيفية التي تعلقت بها «غدرون» بـ «أرسيولا» بعاطفة يائسة ثقيلة، ومع ذلك كانت تبتسم بحقد ماكر ضدها، وكيف استكانت «أرسيولا» بصمت، وهي عاجزة أن تدبّر أي شيء سواءً لها أو للأخرى، وإن كانت خطيرة لا تقهر، داحضةً حزنها وأساها.

أحبت «هرمايني» المشاهدة. كانت تستطيع أن ترى حسية الكونتيسة المتعجلة كابن عرس، وتعلق «غدرون» النهائي، الغدار، بالمرأة في شخص أختها، وعجز «أرسيولا» الخطر، كأنها أثقلت عجزاً ولم تحرر.

صاح الجميع بصوت واحد: (كان ذلك جميلاً جداً). لكن «هرمايني»، تلوّث داخل روحها وهي تعرف مالم تكن تستطيع معرفته.

وهتفت من أجل المزيد من الرقص، وكانت إرادتها هي التي حركت الكونتيسة و«بركن» ليؤديا رقصة الـ (مالبروك)(*) على نحو ساخر.

تحمس «جرالد» لتعلق «غدرون» اليائس بـ «نعومي». فقد تغلغل جوهر ذلك الطيش والهزء الأنثويين الخفيين في دمه. ولم يستطع أن ينسى سلطان «غدرون» المرفوع إلى أعلى المعروض للأخذ، المتعلق الطائش والساخر على الرغم من ذلك. أما «بركن» فقد شاهد روعة إحباط وعجز «أرسيولا» وهو يراقبها مثلما يفعل حيوان

---

* رقصة فرنسية قديمة. (المترجم)

السرطان من جحره. كانت ثَرَّةً، تزخر بقوة خطرة، كانت مثل برعمٍ أنوثة طاغية غريب، لا يعي. لقد انجذب إليها دون وعي. كانت مستقبلَه.

عزف «الكزاندر» بعض المعزوفات الهنغارية ورقص الجميع وقد تملكتهم روح المرح. أما «جرالد» فقد انتشى على نحو عجيب عندما ألفى نفسه يتحرك، فمضى صوب «غدرون» ليرقص بقدمين لم تستطيعا أن تتخلصا بعد من رقصتي (الڤالز) و(الخطوتين)، وإنْ شعر بجيشان قوته في جسمه وأطرافه وهي تنطلق من أسارها. لم يكن يعرف بعد كيف يرقص ذلك الضرب من رقصهن الإيقاعي، الرتيب، المتشنج. لكنه كان يعرف كيف يبدأ. أما «بركن» فحينما استطاع أن يحرر نفسه من ثقل الناس الحاضرين الذين كان يكرههم، فإنه شرع يرقص رقصاً سريعاً وبابتهاج حقيقي. ولكم كرهته «هرمايني» بسبب هذا الابتهاج اللامسؤول.

هتفت الكونتيسة بانفعال وهي تراقب تحركّه الجذل المنطلق والذي اختص به دون غيره: (الآن اكتشفت. أن السيد «بركن» قُلَّبٌ).

نظرت «هرمايني» إليها ببطء وارتعدت لمعرفتها بأن الأجنبي فقط في وسعه أن يلاحظ ذلك ويقوله. فتساءلت بالنغم الرتيب:

- (ما معنى ذلك يا «پاليسترا»(*)؟).

فقالت الكونتيسة بالإيطالية: (اسمعي! إنه ليس رجلاً، إنه حرباء، كائن متلون).

تكرّر القول في وعي «هرمايني»: (إنه ليس رجلاً. إنه ماكر ليس منا).

وتلوّت روحها في الخضوع الأسود له، جرّاء قوته في التملّص والحضور، على النقيض منها، ولأنه لم يكن ثابتاً، ولا رجلاً بل أقل من رجل. لقد كرهته في يأسٍ حطّمها تحطيماً، بحيث عانت من الانحلال الصرف كأنها جثة، ولم تشعر بأي شيء خلا علّة الانحلال الفظيعة التي كانت تتشكل في داخلها جسماً وروحاً.

نظراً لازدحام الدار، فقد خُصِّصت لـ «جرالد» الغرفة الأصغر، هي غرفة الملبس، في الواقع، المتصلة بغرفة نوم «بركن». وحين أخذ الجميع شموعهم وارتقوا السلم حيث كانت القناديل ترسل لهباً خافتاً، ظفرت «هرمايني» بـ«أرسيولا» وجاءت بها إلى داخل مخدعها للتحدث إليها.

---

* نطقت السؤال بالإيطالية . (المترجم)

فسرى في «أرسيولا» شعور يشبه الاحتباس، في المخدع الواسع الغريب. وبدت «هرمايني» مندفعة تجاهها، فظيعة وبدائية، ومستهوية إياها بعض الشيء. كانتا تنظران إلى بعضٍ من قمصان الحرير الهندية، خارقة الجمال وحسية في ذاتها، في شكلها، في روعتها التي تكاد تكون مفسدة. دنت «هرمايني» أكثر، وتلوى صدرها وغدت «أرسيولا» للحظة شاحبة من فزع. وللحظة، شاهدت عينا «هرمايني» الزائغتان الخوفَ على وجه الأخرى، وهنا أيضاً حدث ما يشبه التحطم، التحطم التام.

والتقطت «أرسيولا» قميصاً من حرير أحمر وأزرق ثر، صنع من أجل أميرة شابة في الرابعة عشرة، وطفقت تصيح بنغمة آلية: (أليس هذا مدهشاً؟... من يجرؤ على الجمع بين هذين اللونين الصارخين؟).

ثم دخلت خادمة «هرمايني» بصمت، فأفلتت «أرسيولا» وقد تملكها الرعب، منساقةً بدافع قوي.

مضى «بركن» إلى الفراش رأساً. كان يشعر بالنعاس والسعادة. كان سعيداً منذ أن رقص. لكن «جرالد» كان يود أن يكلمه، جلس «جرالد» وهو بملابس السهرة، على فراش «بركن» حين كان هذا مستلقياً، وتكلم إذ كان لابد له من الكلام.

سأل «جرالد»: (من هما ابنتا «برانغوين» هاتان؟).

- (تسكنان في «بلدوڤر»).

- (في «بلدوڤر»..)! من هما إذاً؟).

- (معلمتان في المدرسة الثانوية).

تلت ذلك فترة صمت.

صرح «جرالد» بعد لأي: (إذاً، هما كذلك! ظننت أنني قد رأيتهما من قبل).

قال «بركن»: (وهل يخيب ذلك ظنك؟).

- (يخيب ظني؟ كلا.. لكن كيف جاءت «هرمايني» بهما إلى هنا؟).

- (كانت تعرف «غدرون» في لندن.. وهي الصغرى ذات الشعر الأغمق. إنها فنانة.. تعمل في النحت وصنع الموديلات).

- (إنها، إذاً، ليست معلمة في المدرسة الثانوية... الأخرى فقط؟).

- (كلتاهما: «غدرون» معلمة فنون، و«أرسيولا» معلمة صف).

ـ (والأب؟).

ـ (مدرس صناعات يدوية في المدارس).

ـ (صحيح!).

ـ (إن الحواجز الطبقية آخذة في التحطّم).

كان «جرالد» لا يرتاح على الدوام إلى نبرة صاحبه المستهزئة نوعاً ما.

ـ (أنْ يكون أبوهما مدرس صناعات يدوية في مدرسة! ماذا يهمني ذلك؟).

فضحك «بركن». فنظر «جرالد» إلى وجه الرجل الآخر المستلقي على الوسادة ضاحكاً، لاذعاً، ولا مبالياً، فلم يستطع أن يبتعد.

قال «بركن»: (لا أظن أنك سترى المزيد من «غدرون» في الأقل. إنها طائر لا يستقر على حال وستغادر خلال أسبوع أو أسبوعين).

ـ (أين ستذهب؟).

ـ (لندن، باريس، روما... الله يعلم: أتوقع منها دائماً أن تقلع إلى دمشق أو سان فرانسيسكو. إنها عصفور الجنة. لا يعلم إلا الله ما علاقتها بـ (بلدوفر). المسألة مسألة متناقضات، كالأحلام).

تفكر «جرالد» ملياً بضع لحظات، ثم سأل:

ـ (كيف عرفتها جيداً، هكذا؟).

أجاب: (عرفتها في لندن، ضمن رهط «الغرنون الغريب»... إنها تعرف عن «مينيت» و«ليبيدنيكوف» وسواهما.. حتى لو لم تكن تعرفهم شخصياً. لم تكن هي من ذلك الرهط تماماً قط.. بل هي أكثر تقليدية على نحو ما. أظن أنني أعرفها منذ سنتين).

سأل «جرالد»: (وهل تكسب مالاً من مصدر آخر غير التعليم؟).

ـ (قليلاً.. وعلى نحو غير منتظم. في وسعها بيع موديلاتها. إن لها شهرة ما)(*).

ـ (بكم؟).

ـ (جنيه واحد، عشرة جنيهات).

---

* أورد كلمة «الشهرة» بالفرنسية. (المترجم)

ـ (وهل هي جيدة؟ ما هي موضوعاتها؟).

ـ (أظن أنها في بعض الأحيان جيدة حد الإدهاش. ثمة أحد أعمالها (طائرا الذُعَرَة) في مخدع «هرمايني».. لقد رأيتهما أنت.. إنهما منحوتان في الخشب، وملونان).

ـ (ظننت أنه نحت بدائي آخر).

ـ (كلا. إنه لها. تلك هي أعمالها: حيوانات وطيور، وأحياناً أناس صغار عجيبون، في ثياب يومية عادية، أعمال تكاد تكون مدهشة في الواقع عند إكمالها. إن فيها شيئاً من الغرابة الماكرة، واللاواعية تماماً).

فقال «جرالد» متفكراً: (قد تصبح فنانة مشهورة في يوم من الأيام).

ـ (يجوز ذلك. لكنني أظن أنها لن تكون كذلك. ذلك لأن من طبعها أن تتخلى عن فنها إذا ما استحوذ على تفكيرها شيء آخر. إن تناقضها يحول دون أخذها الأمر مأخذ الجد، تشعر أن عليها ألا تغالي في الجدّية أبداً، فهي تظن أنها بذلك قد تفرّط في نفسها.. وهي لن تفرط في نفسها أبداً..

إنها دائماً في موقف المدافع. وهذا هو مالا أطيقه في نمطها من النساء.

وبالمناسبة، كيف سارت الأمور بالنسبة إلى «مينيت» بعد أن تركتكم أنا؟ إذ لم أسمع أي شيء).

ـ (أوه، شيء مثير للاشمئزاز، نوعاً ما. فقد أمسى «هاليدي» كريهاً. ولم أستطع أن أنقذ نفسي من التلاحم وإياه إلا بشق الأنفس، وذلك في مشادة حقيقية من الطراز القديم).

سكت «بركن».

ثم قال: (طبيعي. إن «جوليوس» به شيء من الاختلال. فمن جهة، به مسّ من التديّن، ومن جهة أخرى يفتنه الفحش. فإما هو خادم متفان يغسل قدمي المسيح، أو يرسم صوراً بذيئة ليسوع.. فعل ورد فعل.. ولاشيء بينهما. إنه معتوه حقاً. فمن ناحية ينشد زنبقة طاهرة، فتاة أخرى، لها وجه من وجوه «بوتيتشيلي»(*)، ومن ناحية أخرى لابد من أن يستحوذ على «مينيت» لمجرد أن يدنّس ذاته معها).

---

* ساندروبوتيتشيلي (١٤٤٤ ـ ١٥١٠) رسام إيطالي. (المترجم)

ـ (هذا ما لا أستطيع أن أفقهه. هل يحبها، يحب «مينيت»، أم لا؟).

ـ (إنه ليس بالذي يحبها ولا بالذي لا يحبها. فهي المومس، مومس الزنا الفعلية، بالنسبة إليه. ويتملّكه توق إلى أن يلقي بنفسه في قذارتها. ثم ينهض وينادي اسم زنبقة الطهر، الفتاة ذات الوجه الطفولي، وبهذا يمتع نفسه تماماً. إنها القصة القديمة.. فعل ورد فعل. ولاشيء بينهما).

قال «جرالد» بعد توقّف: (لا أدري. إنه يهين «مينيت» فعلاً إهانةً جسيمة. لدي انطباع عنها أنها قذرة نوعاً ما).

فهتف «بركن»: (لكنني ظننت أنك تميل إليها، أنا كنت مشغوفاً بها دائماً. لم تكن لي أية علاقة بها شخصية، قط. صحيح).

قال «جرالد»: (صحيح إنني كنت ميالاً إليها ليومين. لكنّ أسبوعاً معها كان سيسبب لي الغثيان. ثمة رائحة معينة، في بشرة هؤلاء النسوة، تسقمك إلى حد يتجاوز الوصف في خاتمة المطاف، حتى وإنْ أحببتها أول الأمر).

فقال «بركن»: (أعرف)، ثم أضاف، متبرماً بعض الشيء: (لكنْ، يستحسن أن تذهب إلى الفراش يا «جرالد». الله يعلم كم الساعة الآن).

نظر «جرالد» إلى ساعته، وبعد لأي قام من السرير، ومضى إلى غرفته.

لكنه عاد بعد بضع دقائق، وهو بالقميص.

قال وهو يقتعد السرير ثانية: (ثمة شيء آخر. لقد انتهينا في ما يشبه العاصفة، ولم يتسن لي الوقت لإعطائها أي شيء قط).

فقال «بركن»: (المال؟ ستحصل على ما تريد من «هاليدي» أو من أحد معارفها).

قال «جرالد»: (لكن كنتُ أُفضّل أن أعطيها مستحقاتها وأسوّي الحساب).

ـ (لا تأبه هي لذلك).

ـ (كلا، ربما لا. لكن المرء يشعر بأن الحساب قد تُرِك مفتوحاً، ويحبذ لو أنه كان قد أغلق).

ـ (هل تحبذ ذلك؟) قال «بركن» ذلك وهو ينظر إلى ساقي «جرالد» البيضاوين، حين كان الأخير جالساً على جانب السرير وهو في قميصه.

كانتا ساقين ذواتي جلد أبيض، ممتلئتين، عضليتين، لطيفتين، ثابتتين.

ومع ذلك أثارتا في «بركن» شيئاً من العاطفة والرقة، كأنهما كانتا تخصّان طفلاً.

قال «جرالد» مكرراً نفسه بإبهام: (أظن أنني أرجح غلق الحساب).

قال «بركن»: (لا يهمك ذلك، إنْ أغلقتَ أو فتحتَ).

فقال «جرالد» وهو محتار قليلاً، ناظراً إلى وجه الرجل الآخر نظرة ود: (أنت تقول «لا يهم» دائماً).

فقال «بركن»: (وهو كذلك فعلاً).

ـ (لكنها كانتَ من النوع المحترم حقيقة...).

فقال «بركن» مديراً وجهه: (أعطِ للقيصرة ما للقيصرة). وبدا له أن «جرالد» كان يتكلم من أجل الكلام، فقال: (امضِ، فقد تعبتُ.. إننا في ساعة متأخرة جداً من الليل).

فقال «جرالد» وهو يحدق إلى أسفل طوال الوقت في وجه الرجل الآخر، منتظراً شيئاً ما: (أتمنّى أن تخبرني عن شيء يهم فعلاً). لكن «بركن» أدار وجهه جانباً.

فقال «جرالد»: (حسن إذاً، نَمْ). ووضع يده في حنو على كتف الرجل الآخر، ثم خرج.

في الصباح، حين استيقظ «جرالد» وسمع «بركن» يتحرك، هتف قائلاً: (لا أزال أظن أنه يجب عليّ أن أعطي «مينيت» بعض المال).

فقال «بركن»: (يا إلهي! لا تكن عملياً إلى هذا الحد. أغلق الحساب في روحك، إن شئت. إنك غير قادر على غلقه هناك).

ـ (كيف تعلم بأنني لا أستطيع ذلك؟).

ـ (لأني أعرفك).

تفكّر «جرالد» بضع لحظات. ثم قال:

ـ (يبدو لي، كما تعلم، إن الشيء الصحيح بالنسبة إلى «مينيت» وأمثالها، هو أن تدفع لهن).

فقال «بركن»: (والشيء الصحيح بالنسبة إلى الخليلات: أن تستبقيهن. والشيء

الصحيح بالنسبة إلى الزوجات: أن تعيش معهن تحت سقف واحد. رجل ذو حياة مستقيمة وخال من الذنوب..)(*).

قال «جرالد»: (لا حاجة لأن تكون كريهاً بالنسبة إلى ذلك).

- (إنه يضجرني. إنني غير معني بزلاّتك).

- (ولا يهمني أن تكون معنياً أم لا.. أجل، أنا كذلك).

كان الصباح مشمساً مرة أخرى. وكانت الخادمة قد دخلت حاملة الماء، وسحبت الستائر. جلس «بركن» في الفراش وألقى نظرة كسلى وجذلة عبر النافذة على المتنزه الشديد الاخضرار، الخالي، الشاعري والذي كان يعود إلى الماضي.

كان يفكر في مدى لطافة جميع الأشياء الماضية وضمانها، وتشكلها ونهائيتها.. الماضي البديع المتكامل.. هذه الدار، الهادئة جداً والذهبية جداً، والمتنزه يغفو على قرون من سلام. وبعد ذلك، أي فخ ووهم هو جمال هذه الأشياء الساكنة.. وأي سجن فظيع ميت كان (بريدالبي) هذا في واقع الحال، أي محتجز لا يطاق كان هذا السلام! ومع ذلك كان أفضل من الصراع، القذر، المتدافع للحاضر. آه لو تمكن المرء من خلق المستقبل على وفق هواه.. من أجل حقيقة صغيرة، ناصعة، وممارسة صغيرة جسور للحقيقة البسيطة في الحياة. هكذا كان القلب يطلق النداء دون انقطاع.

جاء صوت «جرالد» من الغرفة السفلى: (لا أرى ما الذي ستبقيه لي أصلاً لأهتم به. لا «مينيت» وأضرابها، ولا المناجم، ولا أي شيء آخر).

فقال «بركن»: (اهتمَّ بما تقدر عليه يا «جرالد». أما أنا فغير معنيٍّ).

فجاء صوت «جرالد»: (ما أنا فاعل إذاً؟).

- (ما تحب. وما أنا فاعل شخصياً؟).

كان في مقدور «بركن» أن يحسّ بأن «جرالد» كان عاكفاً في فترة الصمت على تبصّر هذه الحقيقة.

وجاء الجواب البهيج: (ستحل عليّ البركة لو عرفت أنا).

فقال «بركن»: (المسألة هي أن جزءاً منك يريد «مينيت» ولاشيء غير «مينيت»

---

* قال العبارة الأخيرة باللاتينية، وهي مقتبسة من (أوديس) للشاعر الروماني «هوراس» (٦٥-٨ق.م). (المترجم)

وجـزءاً آخـر يريـد المناجم والـتـجـارة ولا شيء غـيـر ذلك... فـهـا أنت ذا، مـقطّع كلك أجزاء..).

قال «جرالد» بصوت غريب، هادئ، حقيقي:

- (وجزء مني يريد شيئاً آخر).

فقال «بركن» وقد فوجئ بعض الشيء: (ما هو؟).

فقال «جرالد»: (هذا ما كنت آمل أن تخبرني به).

حلّ صمت بعض الوقت.

ثم أجاب «بركن»:

- (لا أسـتطيع أن أخـبرك.. لا أسـتطيع أن أتبين طريقي أنا، ناهيك عـن سبـيلك. يمكنك أن تتزوج).

فتساءل «جرالد»: (ممَّن.. «مينيت»؟).

فقال «بركن»: (ربما). ثم قام وتوجه نحو النافذة.

فـقـال «جرالـد»: (هذا هو دواؤك الشـافي. لكنك لـم تجربه بعـد حتى على نفسك. وأنت مريض بما فيه الكفاية).

قال «بركن»: (نعم، أنا كذلك. إلا أنني سأتعافى).

- (بالزواج؟).

فأجاب «بركن» معانداً: (نعم).

وأضاف «جرالد»: (ولا.. لا، لا، لا، يا ولدي).

حلّ صمت بينهما، وتوتر غريب من العداء. كـانا يـسـتـبـقـيان بينـهـمـا دائماً فجوةً، مسافة. كانا يريدان أن يتحرر كل منهما من الآخر دوماً.

ومع ذلك كانت هناك مجاهدة قلبية غريبة، من كل منهما تجاه الآخر.

قال «جرالد» ساخراً: (الخلاص من خلال المرأة)(*).

فقال «بركن»: (لم لا؟).

قال «جرالد»: (ليس هناك أي مانع إطلاقاً، إذا كان ذلك سينجح حقاً.

* نطق العبارة باللاتينية. (المترجم)

ولكن مَنْ ستتزوج؟).
فقال «بركن»: (امرأة).
فقال «جرالد»: (جيد).

كان «بركن» و«جرالد» آخر من نزل لتناول الفطور. كانت «هرمايني»، تود أن يبكر الجميع. كانت تتألم حين كانت تشعر بأن يومها قد اختُزِل، وتحس بأنها افتقدت حياتها. كانت تبدو ممسكة بخناق الساعات، وتستخلص حياتها منها قسراً. كانت شاحبة كالأشباح تقريباً، كمن خُذِلَت، في الصباح. ومع هذا، كانت لديها قوتها، وكانت إرادتها غامرة على نحو غريب. وعند دخول الشابين حدث توتر مفاجئ.

رفعت وجهها. وقالت بنبرتها الرتيبة المستمتعة:

- (صباح الخير! هل نمتما نوماً هنيئاً؟ إني مسرورة جداً). ثم أشاحت وجهها تجاهلاً. لقد رأى «بركن»، الذي كان يعرفها جيداً، إنها قصدت أن تسقط وجوده من الحساب.

قال «الكزاندر» بصوت ينبئ قليلاً عن الاستهجان: (هلا تناولتما ما تريدان من على الخوان؟ آمل أن لا تكون الأشياء باردة. أوه، لا! هلا تفضلتَ بإطفاء اللهبة تحت إناء الأحماء يا «روپرت»؟ شكراً).

حتى «الكزاندر» كان سلطوياً بعض الشيء كلما كانت «هرمايني» هادئة الأعصاب. ولابد أنه أخذ نبرته عنها. جلس «بركن» ونظر إلى المائدة. لقد اعتاد هذا البيت وهذه الغرفة وهذا الجو كثيراً عبر سنوات من الإلفة. أما الآن فقد شعر بأنه يجافي كل ذلك تماماً، وأن لا صلة تربطه به. كما كان يعرف «هرمايني» جيداً، تلك الجالسة هناك، منتصبةً وصامتة وساهمة بعض الشيء، ومع ذلك قوية جداً، وذات بأس شديد! كان يعرفها معرفة شاملة ونهائية إلى درجة تكاد تكون كالجنون. كان من الصعب الاعتقاد بأن المرء لم يكن مجنوناً، وبأنه لم يكن رسماً في قاعة الملوك في أحد القبور المصرية، حيث يقبع الأموات كلهم خالدين، عظاماً. كم كان يعرف «جوشوا ماتيسون» حق المعرفة، وهو يتكلم بصوته الأجش، لكن المتصنّع اللفظ بعض الشيء، على نحو متواصل، ومتواصل وبعقلية قوية على الدوام، وعلى نحو ممتع، لكن معروف دائماً، كل شيء يقوله معروف مقدماً، مهما كانت جدته وألمعيته. و«الكزاندر»، المضيف العصري، المتحرر والمتساهل جداً دون حيوية.

و(الفـراولاين) إذْ تسـهم في الكلام، بأسلوبهـا اللطيف الرتيب، في الوقت الذي ينبغي لها أن تتكلم فيه تماماً. و(الكونتيسة) الإيطالية الصغيرة، التي تراقب كل فرد، وتكتفي بلعبتـهـا الصغيـرة على نحو موضـوعي وبارد، كابن عـرس يرقب كل شيء، وتستخلص تسليتها لذاتها، دون أن تهب نفسها البتة حتى في أدنى الحدود. ثم هناك الآنسة «برادلي» الثقيلة والذليلة نوعاً ما، والتي تعاملها «هرمايني» بازدراء فاتر يكاد يكون جذلاً، فيزدريها الجميع... لكم كان كل شيء معروفاً كلعبة وزعت أحجارها، الأحجار ذاتها، (ملك) الشطرنج والفرسان، والبيادق، الشيء نفسه الآن كما كان قبل مئات السنين، الأحجار نفسها تتحرك بالتتابع في إحدى النقلات اللامتناهية التي تتألف منها اللعبة. لكن اللعبة معروفة، وتواصُلُها كالجنون، وقد استُنْفِدَتْ أيما استنفاد.

هوَذا «جرالد» تعلو وجهه نظرة استمتاع. فقد سُرَّ باللعبة. وهناك «غدرون»، تراقب بعينين ثابتتين واسعتين عدائيتين: لقد سُحِرَت باللعبة، وهي تمقتها. وتلك ذي «أرسيولا»، وعلى وجهها نظرة مروعة قليلاً، كما لو كان قد لحق بها أذى، وكأن الألم خارج وعيها، تماماً.

على حين غرة، نهض «بركن» وخرج، قائلاً لنفسه دونما إرادة: (هذا يكفي). أدركت «هرمايني» حركته وإنْ لم يكن ذلك في وعيها. رفعت عينيها الثقيلتين وشاهدته يمرق خارجاً على حين غرة، على موجة مدٍ مجهولة مفاجئة، فتكسرت الأمواج عليها.

ولم يبق غير إرادتها التي لا تقهر، ساكنةً آلية، فلبثت جالسة إلى المائدة، تطلق ملاحظاتها الشاردة، المشتتة. بيد أن العتمة كانت قد لفّتها، فأمست مثل سفينة غرقت. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليها هي الأخرى، فقد تحطمت في العتمة. ومع ذلك، واصلت آلية إرادتها، التي لا تعطل، العمل، فقد كانت تمتلك تلك الفعالية.

وفجأة قالت وهي تنظر إلى الجميع:

- (هل سنستحم هذا الصباح؟).

فقال «جوشو»: (عظيم. إنه صباح مكتمل).

وقالت (الفراولاين): (أوه، إنه جميل).

وقالت الإيطالية: (أجل، لنستحم).

وقال «جرالد»: (ليست لدينا ألبسة سباحة).

فقال «الكزاندر»: (خذ لباس استحمامي. إذ يجب علي أن أذهب إلى الكنيسة وأقرأ الدروس. إنهم ينتظرونني).

فسألت (الكونتيسة) الإيطالية باهتمام مفاجئ: (هل أنت مسيحي؟).

فقال «الكزاندر»: (كلا لست مسيحياً. لكنني أؤمن بالحفاظ على المؤسسات القديمة).

فقالت «الفراولاين» برقة: (إنها جد جميلة).

هتفت الآنسة «برادلي»: (أوه، إنها لكذلك).

تقاطر الجميع نحو مرجة الثيل. كان صباحاً مشمساً، رقيقاً، في بواكير الصيف، حين تسري الحياة في العالم متسللة كأنها ذكرى.

وكانت أجراس الكنيسة تدق غير بعيد، والسماء خالية من أية غيمة.

والبجعات كزهور الزنبق على الماء عند المنحدر، والطواويس تسير بخطى طويلة متبخترة عبر الظلال، ومنها إلى داخل نور شمس العشب. فكان المرء يتوق إلى إغماءة في الكمال الغارب لذلك كله.

هتف «الكزاندر» وهو يلوح بقفازيه بانشراح: (إلى اللقاء)، واختفى وراء الشجيرات، في طريقه إلى الكنيسة.

قالت «هرمايني»: (والآن، هل سنسبح؟).

فقالت «أرسيولا»: (لن أفعل ذلك).

فقالت «هرمايني»: وهي تنظر إليها متمهلة: (ألا تريدين؟).

فقالت «أرسيولا»: (كلا، لا أريد ذلك).

وقالت «غدرون»: (ولا أنا).

وتساءل «جرالد»: (ماذا عن لباس سباحتي؟).

فضحكت «هرمايني» بتنغيم غريب مستمتع وقالت: (لا أعرف. هل يفي منديل بالغرض.. منديل كبير؟).

أجاب «جرالد»: (نعم إنه واف بالمرام).

فانشدت «هرمايني»: (هيا، إذاً).

كانت أول من جرى عبر المرجة الإيطالية الصغيرة. جرت صغيرةً، ومثلما تجري قطة، تلتمع ساقاها البيضاوان وهي تمضي محنية رأسها قليلاً، وقد ربطته بمنديل حرير ذهبي. تقافزت عبر البوابة، فنزولاً إلى العشب، ثم وقفت عند حافة الماء كتمثال صغير من عاج وبرونز، بعد أن نضت عنها منشفتها، وهي تراقب طيور البجع التي أقبلت مندهشة. بعد ذلك جرت الآنسة «برادلي»، كإجاصة ضخمة طرية في لباسها الأزرق الغامق. ثم جاء «جرالد» وقد لف منديلَ حريرٍ قرمزياً حول حقويه وحمل مناشفه فوق ذراعه. لقد بدا مستعرضاً نفسه قليلاً في ضوء الشمس، وهو يتلكأ ويضحك ويتمشى بيسرٍ. وكان مظهره أبيض، لكنْ طبيعياً في عريه. ثم جاء السير «جوشوا» مرتدياً معطفاً. وأخيراً «هرمايني» وهي توسع الخطى، في كياسة متيبسة، خارجة من دثار ضخم من حرير أرجواني، ورأسها مربوط بالأرجواني والذهبي، كان جسمها الطويل المشدود لطيفاً، وساقاها البيضاوان جميلتين بخطوهما المستقيم. كانت توحي بروعة ساكنة وهي تدع الدثار يتماوج بتراخ خلف خطواتها. عبرت المرجة كأنها إحدى الذكريات الغريبة، ومضت إلى الماء متمهلةً جليلة.

كانت هناك ثلاث برك، على مستويات متدرجة من الوادي، واسعة هادئة جميلة، راقدة في أشعة الشمس. وكان الماء ينحدر من فوق جدار صخري صغير فوق صخور صغيرة، ويطرطش من بركة إلى المستوى الأدنى. وكانت طيور البجع قد مضت إلى الضفة المقابلة، والقصب قد طابت رائحته، وثمة نسيم هادئ، يمسّ البشرة مسّاً.

كان «جرالد» قد قفز غاطساً، بعد السير «جوشوا»، وسبح إلى طرف البركة. وهناك ارتقى الجرف وجلس على الجدار. كانت هناك غطسة، فإذا بالكونتيسة الصغيرة تسبح كالفأرة، لتلحق به. جلس الاثنان في أشعة الشمس يتضاحكان، وقد ضما أيديهما على صدريهما. أقبل السير «جوشوا» صوبهما سبحاً، ووقف إزاءهما وهو غاطس في الماء حتى إبطيه. ثم سبحت نحوهما كل من «هرمايني» والآنسة «برادلي» وجلسوا في صف واحد على السنّاة.

قالت «غدرون»: (أليسوا مرعبين؟ أليس مرعبين؟ أليسوا مرعبين حقاً؟ ألا

يشبهون العظائيات(*)؟ إنهم كالضباب(**) الضخام تماماً. هل رأيت شيئاً ما مثل السير «جوشوا» في يوم من الأيام؟ حقاً، يا «أرسيولا» إنه ينتمي إلى العالم البدائي حين كانت الضباب الضخمة تتجول زاحفة).

نظرت «غدرون» إلى السير «جوشوا» الذي انتصب في الماء حتى الصدر وتهدل شعره الطويل، الضارب إلى الرمادي، المبلل، إلى داخل عينيه، واستقام عنقه على كتفين ثخينتين، غير مصقولتين. كان يتحدث إلى الآنسة «برادلي» التي بدت، وهي جالسة على الجرف العالي، ممتلئة ضخمة، مبللة، كأنها معرضة لأن تتدحرج وتنزلق إلى الماء، أشبه تقريباً بأحد سباع الماء المنزلقة، في حديقة الحيوانات.

لبثت «أرسيولا» تراقب في صمت. وكان «جرالد» يضحك مبتهجاً بين «هرمايني» والإيطالية. لقد ذكرها بـ «ديونيسس»(***) فقد كان شعره أصفر حقاً، وشكله ممتلئاً ضاحكا. أما «هرمايني» فمالت صوبه، بطلعتها المشدودة الكالحة الواسعة، على نحو مخيف حتى لكأنها غير مسؤولة عما قد تفعل. كان يعلم أن فيها خطراً معيناً، جنوناً متشنجاً.

لكنه زاد من ضحكه، ملتفتاً في معظم الأحيان إلى (الكونتيسة) الصغيرة التي كانت توهِّج وجهَها قبالته.

نزل الجميع إلى الماء وسبحوا معاً كسرب من الفقمات. كانت «هرمايني» قوية لا تعي في الماء، كبيرة وبطيئة وقوية. أما «پالسترا» فكانت سريعة وصامتة كفأرة الماء، في حين كان «جرالد» يتخافق ويرفرف، وكأنه طيف طبيعي أبيض. ثم خاض الواحد بعد الآخر خارجين، ومضوا إلى البيت. بيد أن «جرالد» تلكأ لحظة ليتحدث إلى «غدرون».

قال: (أنت لا تحبين الماء؟).

نظرت إليه نظرة متمهلة، طويلة، غامضة، وهو واقف قبالتها غير مكترث وحبات الماء تغطي جلده.

---

* العظائيات: مفردها عظائي، وهي طائفة من الزواحف تشمل العظاء، وفي التصنيفات القديمة، التماسيح والديناصورات. (المترجم)

** الضباب مفردها ضب أو سحلية. (المترجم)

*** «ديونيسس»: إله الخمر عند الإغريق.

أجابت: (أحبه كثيراً جداً).
صمت متوقعاً نوعاً من التعليل.
ـ (وتسبحين؟).
ـ (أجل، أنا أسبح).
ومع ذلك لم يشأ أن يسألها لِمَ لم تشأ أن تنزل إلى الماء، إذاً. كان يشعر بأنها كانت تنطوي على شيء من السخرية. فمشى مبتعداً، مجروح الإحساس أول مرة.
كرر «جرالد» السؤال عليها بعد فترة، حين عاد بعد أن أصبح الشابَ الإنكليزيَ اللائقَ الهندام: (لِمَ لا ترغبين بالسبح؟).
ترددت لحظة قبل الإجابة، مقاومةً إلحاحه. ردت بقولها:
ـ (لأنني لم أحب الرّبع)(*).
ضحك لأن عبارتها بدت وكأنها تتصادى في وعيه. وكانت نكهة لهجتها الدارجة مثيرة بالنسبة إليه. وسواءً شاء أم أبى، فقد دلّته على العالم الحقيقي. لقد كان يبغي بلوغ مستواها، يحقق توقعاتها. كان يعلم أن معيارها هو الوحيد الذي يهم. أما الآخرون فكانوا كلهم دخلاء غريزياً، مهما كانوا اجتماعياً. لم تكن بيده حيلة، فلابد له من الكفاح كي يبلغ مستواها، ويحقق فكرتها عن الرجل وعن الكائن البشري.
حين انسحب الجميع بعد الغداء، تلكأ «جرالد» و«هرمايني» و«بركن» لينهوا حديثهم. لقد حصل بعض النقاش المصطنع والذهني جداً على نحوٍ عامٍ حول دولة جديدة، عالم جديد للإنسان. فعلى فرض أن هذه الدولة الاجتماعية، القديمة تحطمت وتدمرت، فما الذي سينبثق بعد الخراب؟
قال السير «جوشوا»: (إن الفكرة الاجتماعية العظيمة هي مساواة البشر الاجتماعية). قال «جرالد»: (كلا، بل إن الفكرة هي أن يكون كل رجل مناسباً لنصيبه الصغير من الواجب.. ليفعل ذلك، ثم يمتّع نفسه. المبدأ الموحِّد هو الشغل الموجود في متناول اليد. فالعمل وحده، مهمة الإنتاج، هو الذي جمع بين الناس، كان آلياً، لكن المجتمع كان عبارة عن آلية، فإن نُحِّيَ العملُ جانباً، انعزل الناس وانطلقوا يفعلون ما يشاؤون).

* الرَبْع: بمعنى الرهط، الجماعة. وسبب اختيارنا لهذه الكلمة يفسره السطران التاليان. (المترجم)

هتفت «غدرون»: (أوه! إذاً لن تكون لنا أسماءُ بعد الآن.. سنكون مثل الألماني، لاشيء غير «الهر» السيد و«الهر» المسود(*). أستطيع أن أتخيل ذلك ـ أنا (السيد مدير ـ المنجم ـ كريتش)... أنا (السيدة عضو ـ البرلمان ـ رودس). أنا (الآنسة معلمة ـ الفنون ـ برانغوين). لطيف جداً ذلك).

فقال «جرالد»: (ستسير الأمور على نحو أفضل بكثير، يا «آنسة معلمة ـ الفنون ـ برانغوين»).

ـ (أية أمور يا سيد «مدير ـ المنجم ـ كريتش»؟ العلاقة بينك وبيني مثلاً؟)(**).

فصاحت الإيطالية: (أجل، مثلاً، فالعلاقة ما بين الرجال والنساء...!).

فقال «بركن» ساخراً: (هذا لا إجتماعي).

فقال «جرالد»: (تماماً. فما بيني وبين إحدى النساء لا يخص المسألة الاجتماعية. إنه من شأني الخاص).

قال «بركن»: (أراهن بورقة من فئة عشر پاونات على ذلك).

وسألت «أرسيولا» «جرالد»: (أنت لا تقرّ بأن المرأة كائن اجتماعي؟).

فقال «جرالد»: (إنها الاثنان معاً. فهي كائن اجتماعي بقدر ما يتعلق الأمر بالمجتمع. لكن، بالنسبة لذاتها الخاصة، هي عنصر حر، وما تفعله هو من شأنها الخاص).

فتساءلت «أرسيولا»: (ولكن، ألن يكون من الصعوبة، إلى حد ما، ترتيب النصفين؟).

أجاب «جرالد»: (كلا إنهما يرتبان نفسيهما على نحو طبيعي ـ كما نرى الآن، في كل مكان).

قال «بركن»: (لا تضحك بهذه الدرجة من الغبطة، إلى أن تكون قد خرجت من دائرة الخطر).

فقطب «جرالد» حاجبيه في انزعاج عابر، وقال:

ـ (وهل كنتُ أضحك؟).

---

* ذكرت اللقبين باللغة الألمانية. (المترجم)

** قالت (مثلاً) باللغة الفرنسية. (المترجم)

تكلمت «هرمايني» أخيراً: (لو استطعنا فقط أن ندرك بأننا كلنا واحد، في الروح، كلنا متساوون في الروح، كلنا إخوان فلن يهم الباقي، لن يكون ثمة مزيد من التنديد والحسد وهذا الصراع من أجل القوة، والذي يدمر، يدمر فقط).

استُقْبِل هذا الخطاب بالصمت، وسرعان ما نهض الجميع من المائدة. لكنَّ، بعد أن مضى الآخرون، استدار «بركن» في تفنيدٍ مرّ قائلاً:

- (إنه العكس، تماماً، إنه النقيض تماماً يا «هرمايني». كلنا مختلفون وغير متساوين في الروح - الفروق الاجتماعية حسب هي التي يرتكن أساسها على ظروف مادية طارئة. جميعنا متساوون على نحو مجرد أو حسابي، إنْ شئت. كل شخص يجوع ويعطش، وله عينان وأنف واحد وساقان. كلنا سواء من الناحية العددية. لكن، روحياً، هناك اختلاف صرف.. لا المساواة ولا غير المساواة تهم. وعلى أساس هاتين المعلومتين يجب تأسيس الدولة. إن دمقراطيتك كذبة بحتة - وأخوّة بني البشر بهتان خالص، إذا تجاوزت في تطبيقها حد التجريد الرياضي. جميعنا شربنا الحليب أولاً، كلنا نأكل الخبز واللحم، وكلنا نريد ركوب السيارات - هنا تبدأ أخوة بني البشر وتنتهي. لكن من غير مساواة. لكنْ، أنا نفسي الذي هو أنا نفسي، ما علاقتيّ بالمساواة مع أي رجل آخر أو امرأة؟ فبالروح، أنا منفصل انفصالَ نجمٍ عن آخر، ومختلفٌ كماً ونوعاً. أسسوا دولة على ذلك. ليس الفرد بأحسن من الآخر، ليس لأنهما متساويان بل لأنهما مختلفان، من حيث الجوهر، ولعدم وجود أي وجه للمقارنة. وفي اللحظة التي تشرعين فيها بالمقارنة سترين شخصاً ما أحسن من غيره كثيراً وأن هناك طبيعياً كلَّ اللامساواة التي يمكن تصورها. أريد أن ينال كل فرد حصته من متاع الدنيا، لأتخلص من لجاجته، ولكنْ أقول له: «أما وقد نلتَ الآن ما تريد - قد حصلت على حصتك العادلة من متاع الدنيا، فعليك بنفسك ولا تقف حجر عثرة في طريقي، أيها الأحمق اللجوج»).

كانت «هرمايني» تنظر إليه شزراً، من طرف خفي. كان يحسّ بأمواج عاتية من المقت والاشمئزاز من كل ما قاله، آتية منها. كانا مقتاً واشمئزازاً شديدين، ينبثقان قويين، أسودين من اللاوعي. لقد سمعت كلماته في ذاتها غير الواعية، أما في وعيها، فكانت كمن أصيب بالصمم، ولم تلق بالاً إليها.

قال «جرالد» ملاطفاً: (كأنه الجنون المطبق يا «روبرت»).

صدر عن «هرمايني» صوت غريب ونافر. أما «بركن» فقد ارتد، وقال فجأة وقد اختفت عن صوته كل تلك النبرة الملحاحة جداً التي ناء الجميع تحت وطأتها: (أجل، فليكن). ومضى.

بيد أنه شعر بشيء من الندم، بعد ذاك. لقد كان قاسياً وعنيفاً حيال «هرمايني» المسكينة. أراد أن يعوضّها، أن يسوّي الأمور. لقد أذاها، ولقد كان ثأرياً. أراد أن يكون على علاقة طيبة بها ثانية.

مضى إلى مخدعها، وهو مكان ناء ووثاري جداً. كانت جالسة إلى منضدتها تكتب رسائلها. رفعت وجهها في شرود حين دخل وراقبته وهو يتوجه إلى الأريكة ويجلس، ثم عادت تنظر إلى ورقتها.

تناول مجلداً كبيراً كان قد قرأ فيه من قبل، وركز اهتمامه على مؤلفه.

كان مديراً ظهره إلى «هرمايني». لم تستطيع هذه مواصلة الكتابة فقد غمرت عقلها فوضى شاملة ولفه الظلام، فجاهدت لاستعادة السيطرة على نفسها، من خلال إرادتها كسابح يكافح المياه الدوّامة. لكنها، على الرغم من جميع محاولاتها هزمت، وبدا الظلام يستولي عليها، وأحسست كأن قلبها يتفجر وغدا التوتر المريع يقوى أكثر فأكثر، فكان أفظع عذاب كعذاب مَنْ حوصر بين جدران.

ثم أدركت أن وجوده كان هو الجدار، أن وجوده كان يدمّرها تدميراً. وما لم تتمكن من اختراق الجدار فستموت حتماً أفظع ميتة، محجورة في ارتياع. وكان هو الجدار. لابد أن تحطم الجدار - لابد أن تحطم «بركن» أمامها، ذلك الحائل الفظيع الذي كان يعوق عيشها إلى الأخير، يجب أن يتم ذلك، وإلا هلكت أفظع هلاك.

سرت في جسمها رجّات مريعة، مثل رجّات الكهرباء، كأن الكثير من ڤولتات الكهرباء قد صعقتها فجأة. كانت شاعرة به، جالساً هناك في صمت، عائقاً شريراً لا يمكن تصوره. هذا فقط هو الذي محا عقلها وكتم نفسها ذاته - قفاه الصامت، المنحني، قفا رأسه.

سرت رعشة شهوانية فظيعة حدر ذراعيها - كانت مقبلة على معرفة منجزها الشهواني. ارتعش ذراعاها، وصارا قويين، قويين بما لا يقاس ولا يقاوم. أي ابتهاج، أي ابتهاج بالقوة، أي اهتياج في اللذة! أخيراً، كانت ستبلغ منجزها من النشوة

الشهوانية، كان المنجز مقبلاً: لقد عرفت، وهي في غاية الرعب والعذاب، إنه مطبق عليها الآن، في منتهى السعادة.

انطبقت يدها على كرة جميلة زرقاء من حجر اللازورد موضوعة على منضدتها كثقالة ورق. أدارَتْها في يدها فيما نهضت صامتة. كان قلبها شعلة خالصة في صدرها. كانت في نشوة لا تعي إطلاقاً. تحركت باتجاهه ثم وقفت خلفه لحظةً، منتشية. أما هو فقد ظلّ دون حراك ولا وعي، منغلقاً في دائرة السحر.

ثم، وبسرعة، وفي اضطرامٍ بلّل جسمها كبرق سائل، ومنحها منجزاً كاملاً يفوق الوصف، ورضا يفوق الوصف، هوت بكرة الجوهرة باتجاه رأسه بكل قوتها. لكن أصابعها كانت حائلاً خفّف الضربة. ومع ذلك، سقط رأسه على المنضدة التي كان عليها كتابه، وانزلق الحجر جانباً فوق أذنه. كانت تلك نوبة واحدة من سعادة خالصة بالنسبة إليها أوقدها الألم المنسحق لأصابعها. لكنها لم تكن كاملة، على نحوٍ ما.

فرفعت ذراعها عالياً لتهدف مرة ثانية ومباشرة على الرأس الراقد على المنضدة مذهولاً. لابد أن تحطّمه. لابدّ أن يتحطّم، قبل أن تبلغ نشوتُها الذروة، وتكمل إلى الأبد. ألف حياة، ألف ممات، لا أهمية لها الآن البتة.. تحقيق هذه النشوة الكاملة، حسب.

لم تكن سريعة. فما استطاعت إلاّ التحرك ببطء. لقد أيقظته روح قوية فيه وجعلته يرفع رأسه ويستدير كي يراها. كان ذراعها مرفوعاً ويدها قابضة على كرة اللازورد. كانت اليدَ اليسرى، فأدرك مرتاعاً من جديد أنها كانت عسراء، فأسرع بحركة اختباء يغطي رأسه تحت مجلد «ثوسيديدس»(*) الضخم، ونزلت الضربة تكاد تدق عنقه، وتحطم قلبه.

لقد تحطم لكنه لم يخف. استدار ليواجهها، ودفع المنضدة فقلبها وتخلص منها. كان مثل قارورة تهشمت نثاراً، وتصور نفسه قِطَعاً محطمة تحطيماً شاملاً. ومع هذا كانت حركاته متناسقة وواضحة على نحو كامل، وكانت روحه سالمة غير مفاجأة.

قال بصوت خفيض: (كلا يا «هرمايني»، لن أدعك).

* ثوسيديدس (٤٦٠ ؟ - ٤٠٠ ؟ ق م) مؤرخ اثيني يعد أعظم المؤرخين الإغريق على الإطلاق. (المترجم)

رآها وهي تقف، طويلةً، مزرقّة منتبهة، ويدها متمسكة بالحجر بشدة، اقترب منها قائلاً: (تنحي جانباً ودعيني أمر).

فتنحت، كأن يداً ما قد دفعتها إلى الخلف، وهي ترقبه طول الوقت دون تغيير كملاك مُحَيَّد في مواجهته.

قال بعد أن تجاوزها: (إن ذلك لا يجدي. لست أنا الذي سيموت. هل تسمعين؟).

ظل مواجهاً إياها وهو في طريقه إلى الخارج، لئلا تضرب ثانية.. لم تتجرأ على الحركة طالما كان متيقظاً. وقد كان متيقظاً وكانت بلا قوة. وهكذا مضى وتركها واقفة.

ظلت متصلبة تماماً، وهي لابثة في وقفتها فترة طويلة. ثم توسلت طريقها إلى الأريكة مترنحة، واستلقت وراحت في سبات عميق. وحين استيقظت تذكرت ما كانت قد فعلته. لكن بدا لها أنها لم تضربه إلا كما قد تفعل أية امرأة، لأنه عذبها. كانت على حق، تماماً. كانت تعلم ذلك روحياً. كانت على حق، وحسب طهارتها المعصومة، فإنها قد فعلت ما يجب فعله. كانت على حق. كانت طاهرة، وهكذا اتخذ تعبيرٌ ديني متخدر، يكاد يكون شريراً، سمة الديمومة على وجهها.

خرج «بركن» من الدار وهو لا يكاد يعي. ومع ذلك كان تحركّه مباشراً تماماً. فعبر المتنزه مباشرةً إلى حيث الريف المنفتح، إلى التلال. لقد أمسى اليومُ المشرقُ ملبداً بالغيوم، وأخذ بعض المطر يتساقط، فتجول قدماً حتى بلغ جنبات وادٍ قَفْرٍ، حيث أدغالٌ من البندق، والكثير من الازدهار وباقات الخلنج ومجاميع صغيرة من شجيرات الشربين المتفتحة براعمَ ذوات مخالب طرية. كان الجو رطباً في كل مكان، إلى حد ما، وثمة في الأسفل جدول يتدفق في قعر الوادي الذي كان كئيباً، أو بدا كئيباً.

لقد أحسّ بأنه غير مستطيع استعادة وعيه، وأنه ماض في ما يشبه الظلام.

مع ذلك كان يبغي شيئاً ما. كان مغتبطاً بوجوده في جنبات التل التي غطتها وعتّمتها الشجيرات والأزهار. لقد أراد أن يلمسها كلها، أن يشبع نفسه بلمسها كلها. فخلع ثيابه وقعد عارياً بين أزهار الربيع وهو يحرك قدميه فيها برقة، وساقيه وركبتيه وذراعيه حتى الإبطين، ويستلقي جاعلاً إياها تمسّ بطنه، وثدييه. كان ملمساً لطيفاً بارداً رقيقاً تماماً، يمسّ جلده جميعاً، وبدا أنه كان يشبع ذاته بمسّ تلك الزهور.

بيد أنها كانت ناعمة أكثر مما ينبغي لها. فمضى خلال العشب الطويل حتى بلغ أجمه من شجيرات الشربين لا يتجاوز ارتفاعها قامة رجل.

كانت الأغصان الرقيقة، المسننة، تتضارب عليه أثناء مروره بوخزات حادة وتنثر على بطنه رذاذاً بارداً من الماء، وتضرب حقويه بحُزَمِ إبرها الدقيقة المسننة. وكانت هناك شوكة وخزته بإيلام، وإنْ لم يكن إيلاماً بالغاً، لأن كل حركاته كانت جدّ متبصرة ورقيقة. كان الاستلقاء والتدحرج بين السنابل البرية، الصغيرة، الباردة، الدبقة، والاضطجاع على البطن وغطية الظهر بحفنات من العشب الرقيق الندي، الرقيق كالأنفاس، الرقيق والأرهف والأجمل من لمس أية امرأة. ثم إن وخز الفخذ بأشواك أغصان الشربين الحية الغامقة، ثم الشعور بسياط البندق الخفية على الأكتاف وهي تلسع، ثم ضم جذع البتولا الفضي إلى الصدر، بنعومته، بصلابته، بعُقَدِه وحافاته الناشطة - كان ذاك لطيفاً، كان ذاك كله لطيفاً جداً.. مرضياً جداً. ما كان لغير ذلك أن يجدي، ما كان لغير ذلك أن يمنح الرضا، سوى هذا الأبراد وطراوة النبات وهي تسري في دم المرء. كم كان محظوظاً بوجود هذا النبات الجميل الرقيق المستجيب، في انتظاره، مثلما كان هو في انتظاره. ما أكمله! ما أسعده!

فكر «بركن» في «هرمايني» وفي الضربة وهو يتنشف قليلاً بمنديله.

كان في وسعه أن يشعر بالألم في جانب رأسه. لكنْ، على أية حال، ماذا يهم؟ ماذا تهمني «هرمايني»؟ ماذا يهمني الناس جميعاً؟ كان هناك ذلك الانفراد المعتدل البرودة، الكامل، لطيفاً، طرياً، وغيرَ مستكشف.

ياللخطأ الذي كان في الواقع قد ارتكبه. إذ فكر بأنه يحتاج إلى الناس، يحتاج إلى امرأة. لم يرد امرأة - قط. أوراق الأشجار وأزهار الربيع والأشجار، كانت حقاً لطيفة، باردة، مبتغاة. لقد سرت في دمه حقاً وأضيفت إليه. لقد اغتنى الآن بما يفوق الحصر، وغدا سعيداً جداً.

كان حقاً على «هرمايني» أن تنشد قتله. فما شأنه بها؟ لِمَ يتعين عليه أن يتظاهر بأن له أي شأن بالكائنات البشريّة أصلاً؟ هنا كان عالمه: وهو لا يريد أحداً أو شيئاً ما سوى النبات اللطيف، الدقيق، المستجيب، وذاته، نفسه، الحيّة ذاتها.

كان ضرورياً الرجوع إلى العالم. ذلك حق. لكن ذلك ما كان يهم، فقد عرف المرء انتماءه. كان يعرف هو الآن إلى أين ينتمي. هذا هو مستقره، موقع زواجه. أما العالم فكان دخيلاً، طارئاً.

ارتقى الوادي إلى خارجه متسائلاً ما إذا كان مجنوناً. لكنْ إذا كان الأمر كذلك، فهو يفضل جنونه الشخصي على الرشاد المعتاد. لقد طرب لجنونه. كان طليقاً. لم يرد الرشاد القديم للعالم ذاك، فقد غدا مثيراً للاشمئزاز الكبير. لقد سعد بعالم جنونه المكتشف حديثاً. فقد كان طرياً، رقيقاً، مرضياً جداً.

أما بشأن ذلك الحزن الذي كان يحس به في الوقت نفسه، في روحه، فذلك بقايا أخلاقيات غابرة حسب، كانت تقضي بتمسك الكائن البشري بإنسانيته. لكنه قد ملّ من الأخلاقيات الغابرة، ومن الكائن البشري ومن الإنسانية. إنه الآن يحب النبات الناعم الرقيق، الذي كان لطيف البرودة جداً وكاملاً جداً. ولسوف يتغاضى عن الحزن القديم، وينحّي الأخلاقيات الغابرة جانباً ويكون حراً في حالته الجديدة.

لقد شعر بأن ألم رأسه أخذ يزداد أكثر فأكثر مع كل دقيقة تمر.

كان ماشياً الآن في الطريق المؤدي إلى أقرب محطة. وكانت السماء تمطر ولم تكن لديه قبعة. لكن كثيراً من المهووسين كانوا يخرجون دون قبعات في المطر في هذه الأيام.

تساءل ثانية كم مِنْ غمٍّ قلبه، وبعض الكرب، كان مردُّه الخشية - خشية أن يكون أحدٌ ما قد رآه عارياً، مستلقياً على النبات. ما أشد تخوّفه من البشرية، من الناس الآخرين! لقد كاد أن يبلغ مبلغ الهلع، أشبه بهلع الرؤى - هلعه من أن يلاحظه بعض الناس الآخرين. لو كان في جزيرة، مثل «الكزاندر سلكيرك»(*)، مع المخلوقات والأشجار فقط، لغدا مبتهجاً، ولما كان ثمة أي شيء من هذا الغم وهذا التشكك، ولاستطاع أن يعشق النبات ويكون سعيداً جداً وغير مسؤول تجاه أحد، مختلياً بنفسه.

كان من الأجدى أن يرسل رسالة إلى «هرمايني»، فقد تقلق بشأنه، وما كان يريد هذا العبء. ولذلك كتب في المحطة قائلاً:

«سأذهب إلى المدينة - لا أريد العودة إلى (بريدالبي) في الوقت الحاضر. لكن لا بأس. لا أريد أن تهتمي لضربك إياي البتة. قولي للآخرين إنها إحدى نزواتي. لقد كنتِ على صواب في ضربي - لأنني أعرف بأنك كنتِ تريدين ذلك. وهكذا ينتهي الأمر».

---

* «الكزاندر سلكيرك» كان شخصاً حقيقياً منفرداً مع الأشجار والحيوانات بعيداً عن البشر، وعلى أساس تجربته بنيت قصة «روبنسون كروزو» الشهيرة. (المترجم)

بيد أنه أحس بالسقم وهو في القطار. فكانت كل حركة بمثابة ألم لا يطاق وكان مريضاً. جرجر نفسه من المحطة إلى سيارة أجرة وهو يتحسس سبيله خطوة، خطوة، كالأعمى، مستنداً إلى إرادة كليلة حسب.

ظل مريضاً مدة أسبوع أو أسبوعين. لكنه لم يدع «هرمايني» تعلم بذلك. وظنت أنه قد زعل. كان هناك تناءٍ كاملٌ بينهما. لقد غدت مستغرقة، ساهمة في إيمانها بالاستقامة الحصرية، وعاشت ضمن احترامها لذاتها، وإيمانها باستقامتها الروحية، وبهما.

الفصل التاسع

غبار الفحم

نزلت بنتا «برانغوين» من التل، بين أكواخ (ويلي غرين) الجميلة، في طريقهما عصراً من المدرسة إلى البيت، حتى بلغتا معبر السكة الحديد. وهناك وجدتا البوابة مغلقة لأن قطار المناجم كان يدنو مقعقعاً. كان في وسعهما سماع القاطرة الصغيرة تلهث مبحوحة أثناء تقدمها الحذر بين السدتين. وكان الرجل وحيد الساق في عشة الإشارات الصغيرة، على الطريق، يحملق إلى الخارج من مأمنه، كسرطان من محارة.

في فترة انتظار الفتاتين، أقبل «جرالد كريتش» خبباً على متن فرس عربية حمراء، كان يمتطيها امتطاءً جيداً ورقيقاً، وقد سرّه ارتجاف الدابة الرقيق بين ركبتيه. كان منظره لطيفاً جداً، في الأقل في عيني «غدرون»، وهو في جلسته الرقيقة واللصيقة على الفرس الحمراء النحيلة التي كان ذيلها الطويل ينساب انسياباً في الهواء. حيّا «جرالد» الفتاتين واقترب من المعبر في انتظار فتح البوابة، وهو يلقي على امتداد السكة الحديد نظرة باحثة عن القطار القادم. كانت «غدرون»، على الرغم من ابتسامتها الساخرة من منظريِّته، تحب أن تنظر إليه. كان محكم الجلسة، مرتاحاً، وكان وجهه بسمرته الدافئة يشهّر بشاربه الخشن المبيض، وعيناه تزخران بألق ساطع وهو يرقب المسافة.

تهادت القاطرة ببطء، ومخيفةً بين السدتين، ولم يعجب الفرس ذلك وشرعت تنتفض مبتعدة، كما لو كان الضجيج المجهول قد آذاها. لكن «جرالد» سحبها إلى الوراء مستبقياً رأسها باتجاه البوابة. ازداد العصف الحاد للقاطرة الماخرة ضغطاً عليها. لقد تغلغلت فيها الضربات المتكررة الحادة للضجيج المروع والمجهول، ما جعلها تختض من الهلع. وارتدت كنابض أُطْلِق. لكنّ نظرةً متلامعة نصف باسمة ظهرت على وجه «جرالد»، أعاد الرشد إليها من جديد، على نحو جازم.

انطلقت الضجة وظهرت القاطرة الصغيرة بذراع توصيلها الفولاذي المقعقع وهي تطقطق على الطريق الرئيس بشدة. وثبت الفرس كقطرة ماء مرتدة من حديد حار. وتدافعت «أرسيولا» و«غدرون»، خوفاً، إلى الوراء، دخولاً في سياج الشجيرات. لكن «جرالد» أثقل على الفرس وأرغمها على الثبات. لقد بدا كأنه قد غاص فيها على نحو مغناطيسي وأن في مقدوره أن يكرهها على ما لا تريد.

صرخت «أرسيولا» عالياً: (ياللأحمق! لِمَ لا يبتعد بفرسه حتى يكون القطار قد مرّ؟).

كانت «غدرون» تنظر إليه بعينين مشدوهتين، توسع سوادهما. بيد أنه لبث جالساً، متلامعاً ومتعنتاً، وهو يقسر الفرس التي كانت تدور وتدوم وتنعطف كالريح، ومع ذلك لم تستطع أن تتخلص من قبضة إرادته أو تنجو من ضجة الهلع المجنونة التي كانت تدوّي في كيانها فيما كانت العربات تمر محدثة صوتاً مكتوماً، بطيئة، ثقيلة، مروعة، الواحدة بعد الأخرى، الواحدة معقبةً الأخرى، فوق سكك التعابر.

كُبِحَت القاطرة بالموقفات كأن المراد رؤية ما يمكن فعله، فارتدّت العربات على المصدات الحديد، تتلاطم كصنوج مريعة، وتتراطم مقتربة أكثر فأكثر في خبطات صرارة مخيفة. فتحت الفرس فاها وقامت ببطء، كما لو كانت قد رُفِعَتْ على ريح من هلع، وفجأة اندفعت قائمتا الفرس الأماميتان إلى الوراء، فيما كان جسمها كله ينتفض للابتعاد عن الفظاعة. ارتدّت، فتشبّثت الفتاتان الواحدة بالأخرى وهما تشعران بأن الفرس لابد منقلبة إلى الوراء عليه. لكنه مال إلى الأمام ووجهه مشرق باستمتاع لا يتزعزع. وأخيراً أنزلها إلى الأسفل، عَطَّسَها، وطفق يوجه متنها نحو الجهة المبتغاة. لكنْ، بقدر ما كان ضغط فعله اللاإرادي قوياً، كان صدها النابع عن فزع كلي، مما قذفها إلى الخلف بعيداً عن السكة بحيث دارت ودارت على قائمتين كأنها في وسط دوّامة ما. وهذا ما جعل «غدرون» يغشى عليها في دوار شديد متغلغل إلى قلبها.

صرخت «أرسيولا» بأعلى صوتها وقد فقدت رشدها تماماً: (لا..! لا..! دعها! دعها أيها الأحمق.. يا أحمق!). أما «غدرون» فقد كرهتها بمرارة لفقدانها الرشد. كان شيئاً لا يطاق أنْ يكون صوت «أرسيولا» بهذه القوة وهذه الصراحة.

بانت على وجه «جرالد» نظرة مستدقة. ألصق نفسه على ظهر الفرس كآلة جارحة تقطّع الأوصال وأجبرها على الاستدارة فجعلت تجر أنفاساً صائتة، وقد اتسع منخراها،

كأنهما ثقبان ينفثان الحرارة. وانفرج فمها وجُنَّت عيناها. كان منظراً تعافه النفس. لكنه تشبث بها بلا هوادة، بصرامة تكاد أن تكون آلية، شديداً كسيف ينغرز فيها. كان الرجل والحصان كلاهما يتصبب عرقاً جراء العنف. ومع ذلك بدا هو هادئاً كشعاع من أشعة شمس باردة.

في غضون ذلك، كانت العربات الأبدية تمضي مطقطقة ببطء شديد، تتتابع الواحدة بعد الأخرى، الواحدة بعد الأخرى، كحلم كريه لا ينتهي. كانت سلاسل الربط تجرش وتصر مع اختلاف الشدّ، والفرس تنبش الأرض بحوافرها وتكافح للابتعاد بصورة آلية الآن، وقد اكتمل الهلع فيها، فقد حاصرها الرجل الآن. كانت حوافرها عمياء تثير الشجن كلما ضربت الهواء، فيطبق عليها الرجل، وينزلها كما لو كانت جزءاً من جسده تقريباً.

صاحت «أرسيولا»، وقد جُنَّت، اعتراضاً على «جرالد» وكرهاً له: (وهي تنزف! هي تنزف!). كانت وحدها تفهمه كل الفهم، في تضاد بحت.

نظرت «غدرون»، فألفت قطرات من الدم على جنبي الفرس، شحب لونها وامتقع حتى غدا أبيض. ثم هوى المهمازان اللامعان على الجرح ذاته، وضغطا دون هوادة. فدارت الدنيا وأمّحت بالنسبة إلى «غدرون» التي لم تعد تدرك شيئاً.

حين استعادت وعيها، كانت نفسها هادئة وباردة، دونما إحساس. وكانت العربات لا تزال تطقطق سائرة، والرجل والفرس لا يزالان يتصارعان. لكنها، نفسها، كانت باردة منعزلة، ولم تعد تشعر بأي إحساس حيالهما. كانت صلبة وباردة وغير مكترثة تماماً.

كان في الإمكان رؤية قمة عربة الحارس ذات الغطاء وهي تقترب، وكان صوت العربات يتلاشى، وثمة أمل في حلول راحة من الضجة التي لا تطاق. كان اللهاث الثقيل للفرس شبه المشدوهة ذا إيقاع ذاتي الحركة، وبدا الرجل مسترخياً على نحو واثق، وإرادته متألقة لا شائبة فيها. ثم أقبلت عربة الحارس، ومرّت متمهلة، والحارس يحدق إلى المشهد القائم على الطريق، أثناء مروره. استطاعت «غدرون»، عبر الرجل الموجود في العربة المغلقة أن تشاهد كامل المشهد معبَّراً عنه على نحو مثير، منعزلاً وآنياً، كرؤيا منعزلة في الخلود.

ثمة صمت لطيف، مستحب، بدأ يقتفي أثر القطار المتباعد. ما أحلى السكون! نظرت «أرسيولا» بكره، مصدات العربة المتنائية. ووقف البواب في حالة استعداد عند باب كوخه، كي يباشر بفتح البوابة. لكن «غدرون» وثبت إلى الأمام فجأة، قبالة الحصان المكافح، وألقت بالمزلاج جانباً وفتحت البوابة على مصراعيها، دافعة نصفاً إلى حيث البواب والنصف الآخر معها، إلى أمام. أطلق «جرالد» عنان الفرس فجأة، ووثب إلى الأمام، يكاد يحط فوق «غدرون». لكنها لم تخف. وإذ سحب رأسَ الفرس جانباً، أطلقت «غدرون» صرخة عالية غريبة كأنها طائر نورس، أو كأنها ساحرة تنادي صائحة من جانب الطريق:

ـ (أظن أنك فخور).

كانت الكلمات واضحة فصيحة. نظر إليها الرجل في شيء من العجب، شيء من الاهتمام المتسائل، وهو يلوي جانباً فرسه المتراقصة. وبعد أن رقصت حوافر الفرس ثلاث مرات على عارضات المعبر الشبيهة بالطبل، وثب الرجل والحصان صوب الطريق في حركة ناشطة وعلى نحو متفاوت.

راقبت الفتاتان الاثنين يرحلان. أما البواب فقد حجل وهو يخبط فوق عارضات المعبر الخشب، بساقه الخشب. كان قد أغلق البوابة، ثم استدار هو الآخر، ونادى الفتاتين قائلاً:

ـ (إنه (جوكي) شاب مقتدر، يختار السبيل الذي يشاء، إن كان هناك مثل ذلك الشخص أبداً).

صاحب «أرسيولا» بصوتها الغاضب المتسيِّد: (نعم.. لِمَ لم يتمكن من إبعاد الحصان لحين ذهاب العربات؟ إنه أحمق، ومشاكس. هل يظن أن من الرجولة تعذيب حصان؟ إنه شيء حي ـ لم يتعين عليه أن يستبدّ به ويعذبه؟).

تلا ذلك صمت، ثم هز البواب رأسه وأجاب:

ـ (نعم، إنها من ألطف الأفراس الصغيرة التي يمكن أن تقع عيناك عليها ـ شيء صغير جميل ـ جميل. لكنْ، لا يمكنك أن تجدي أباه يعامل أي حيوان على هذه الصورة ـ لا يمكن. إنهما مختلفان أشد اختلاف ممكن، فـ«جرالد كريتش» ووالده ـ رجلان مختلفان ـ مختلفا التكوين).

ثم ران صمت.

صرخت «أرسيولا»: (لكنْ، لماذا يفعل ذلك؟ لِمَ؟ هل يظن أنه عظيم إنْ قسا على مخلوق حساس، أكثر حساسية منه بعشرة أمثال؟).

من جديد ران صمت حذر. ومن جديد هز الرجل رأسه، كأنه لم يرد أن يقول أي شيء، بل ليفكر أكثر.

أجاب: (أتوقع وجوب زيادة تدريبه للفرس كي تتحمل وتقاوم أي شيء... هذه العربية الأصيلة... وليست من السلالة المألوفة في هذه الأصقاع... شيء مختلف عن سلالتنا كلياً... يقال إنه حصل عليها من القسطنطينية).

فقالت «أرسيولا»: (إنه قمين بفعل ذلك. كان من الأفضل له تركها للأتراك. أنا متيقنَه من أنهم كانوا سيعاملونها بمزيد من الحسنى).

دخل الرجل ليشرب طاس شايه المعدني، ومضت الفتاتان قدما في الدرب المغمور بالغبار الأسود، الناعم. كانت «غدرون» كالخَدِرة في عقلها بسبب الشعور بالثقل الناعم الذي لا يقهر للرجل وهو لصيق بجسم الفرس الحي: فخذي الرجل الأشقر القويتين اللتين لا تقهران ممسكتين بجسم الفرس النابض، بإحكام لا خلاص منه، بنوع من التسلط الناعم، الأبيض، المغناطيسي، من الحقوين والفخذين وسمانتي الساقين، يحيق بالفرس ثقيلاً فتؤول إلى خضوع يفوق الوصف، خضوع ناعم الدم، مريع.

فيما كانت الفتاتان تسيران في صمت، كان منجم الفحم الكائن في ناحية الشمال قد رفع إلى سطح الأرض أكوامه الضخمة، ومحامل مكائنه المزينة بالنقوش. وبدت سكة الحديد السوداء بعرباتها المتوقفة كميناءٍ واقع إلى الأسفل مباشرة، خليجٍ واسعٍ من خطوط السكك الحديد ترسو فيه الشاحنات.

قرب ممر التعابر الثاني حيث عدد كبير من السكك اللامعة، كان ثمة حقل يعود إلى مناجم الفحم، وكرة ضخمة من حديد، هو مرجل مستهلك، ضخم، صدئ، كامل التكور، قائم بصمت في حظيرة بجانب الطريق. كانت الدجاجات تنقر في ما حوله، بعض الدجاج يتوازن على منهل الشرب، وطيور الذُعَرَة تتطاير بين العربات، قادمة من صوب الماء.

على الجانب الآخر من ممر التعابر الواسع، على جانب الطريق، كانت هناك كومة من أحجار ذوات لون رمادي فاتح تستخدم لإصلاح الطرق، وعربة واقفة، ورجل

متوسط العمر ذو لحية تحيط بالوجه، يتكئ على مجرفته ويتحدث إلى شاب يحتذي جزمة واقف إزاء رأس الحصان. كان كلا الرجلين يواجه التقاطع.

شاهدا الفتاتين تظهران، قامتين صغيرتين، متألقتين على مسافة قريبة، في الضوء القوي لأواخر العصر. وكانت كلتاهما ترتديان ثياباً صيفية خفيفة، بهيجة. كان معطف «أرسيولا» محاكاً برتقالي اللون. أما «غدرون» فكانت ترتدي معطفاً أصفر فاتحاً. وكان جوربا «أرسيولا» بلون الكناري الأصفر، وجوربا «غدرون» بلون ورديّ لمّاع. لقد بدت هيئتا الامرأتين تأتلقان وهما ماضيتان قدما على الفسحة الواسعة لمر التعابر، ألقاً أبيض وأصفرَ، وبرتقالياً، وورديأ، تتألق كل هذه الألوان وهي تمضي عبر عالم ساخن، مفروش بغبار الفحم.

وقف الرجلان دون أيّ حراك في غمرة الحرّ يراقبان. كان الأكبر سناً رجلاً متوسط العمر، قصيراً، ناشطاً، ذا وجه جامد، أما الأصغر فعامل ابن الثالثة والعشرين، أو نحو ذلك. وقفا صامتين يراقبان مقدم الأختين. ظلا يراقبان، والفتاتان تقتربان، وتمرّان، وتنأيان في الطريق المغبر الذي كانت تقع على جانب منه مساكن، وعلى الجانب الآخر زرعٌ جديد من الذرة، مغبر.

ثم قال الأكبر سناً، ذو اللحية المحيطة بالوجه، للشاب، ملتاعاً:

- (ما سعر تلك، ها؟ إنها تؤدي المطلوب، أليس كذلك؟)،

فقال الشاب متسائلاً، متشوقاً، وهو يضحك: (أيهما؟).

- (تلك، ذات الجوارب الحمر. ما رأيك؟ أنا مستعد أن أعطي أجر أسبوع من مرتبي من أجل خمس دقائق. ها؟ - من أجل خمس دقائق فقط).

ضحك الشاب ثانية. وأجاب:

- (سيكون لزوجتك ما تقوله لك).

استدارت «غدرون» ونظرت إلى الرجلين. كانا بالنسبة إليها، مخلوقين شريرين، وهما في وقفتهما تلك يترصدانها قرب كومة الأحجار الرمادية الكامدة. لقد مقتت الرجل ذا اللحية المحيطة بوجهه.

وجه الرجل كلامه إليها، وإلى الفضاء: (أنتِ درجة أولى. أي نعم).

فقال الأصغر سناً، متأملاً: (هل تظن أن الأمر يستحق أجور أسبوع؟).

ـ (هل أظن ؟ إنني مستعد كل الاستعداد أن أحط المبلغ في هذه اللحظة...).

تابع الشاب «غدرون» و«أرسيولا» بنظرة موضوعية، كمن يود أن يحتسب ما إذا كان هناك ما قد يستحق دفع أجر أسبوع. ثم هز رأسه بارتياب قتّال، وقال: (كلا. لا يستحق الأمر ذلك، بالنسبة إلي).

فقال الرجل المسن: (ألا يستحق؟ يلعنني الله إذا كان لا يستحق بالنسبة إلي). ثم استمر يجرف أحجاره.

هبطت الفتاتان سائرتين بين المنازل ذوات السقوف المصنوعة من حجر الأردواز وجدران الآجر المسودّ. كان السحر الذهبي الثقيل للغروب المقبل يلف منطقة مناجم الفحم كلها، وكان يمازج القبح بالجمال كالمخدّر للأحاسيس. لقد سقط الضوء الثر بدفء أكثر وثقل أكثر على الدروب المفروشة بغبار الفحم. وعلى كل القذارة عديمة الشكل هبط ضربٌ من السحر من مختتم النهار المتوهج.

قالت «غدرون» وهي تعاني من الافتتان، كما هو ظاهر: (لهذا المكان نوع من الجمال قذر. ألا تستطيعين أن تشعري، على نحوٍ ما، بوجود جاذبية ساخنة، غليظة فيه؟ أنا أستطيع. وهو يذهلني تماماً).

كانت الفتاتان تمران بين مجاميع من مساكن عمال المناجم. وكان من الممكن رؤية أحد عمال المناجم، في الفناءات الخلفية لمساكن عدة، وهو يغتسل في الخلاء في ذلك المساء الحار، متعرياً حتى الحقوين، وبنطلونه الضخم المصنوع من فرو الخلد يكاد ينفلت. كان عمال المناجم الذي سبق أن اغتسلوا جالسين على كعوبهم، وظهورهم قرب الجدران، يتحدثون ويسكتون في سعادة بدنية خالصة، متعبين، آخذين قسطاً من الراحة البدنية. بدت أصواتهم جهيرة شديدة التنغيم، كانت لهجتهم الطليقة تدغدغ الدم على نحو غريب، وبدت كأنها تطوق «غدرون» بملاطفات عمّالية، وساد الجوَّ كله صدى لرجال جسدانيين، وحشدٌ فتان من العمل والفحولة، يزخر بهما الهواء. لكن ذلك كان يشمل المنطقة كلها، ولهذا لم يكن السكان يلاحظونه.

أما بالنسبة إلى «غدرون» فكان قوياً، شبه منفر. لم تكن تستطيع قط أن تقول لِمَ كانت (بلدوفر) على هذه الدرجة من الاختلاف الكلي عن (لندن) والجنوب، لم كانت كل أحاسيس المرء مختلفة، لم كان المرء يبدو وكأنه يعيش في صقع آخر. لقد أدركت الآن أن هذه هي دنيا رجال أشداء من عالم سفلي، يقضون أغلب وقتهم في الظلام.

كان في وسعها أن تتسمع في أصواتهم أصداء الظلام الشبقة، العالم السفلي القوي، الخطر، عالم بليد، لا إنساني. كانوا يبدون كذلك كآلات غريبة ثقيلة مزيتّة. أما الشبق فكان كشبق المكائن، حديدياً وبارداً.

كان الشيء ذاته يتكرر كل مساء حين تعود إلى البيت. لقد بدت كأنها تتحرك عبر أمواج قوة مشتتة، صادرة عن وجود ألوف من عمال مناجم العالم السفلي الأشداء نصف المؤتمتين* وسارية في داخل العقل والقلب، مثيرة رغبة مشؤومة، وقساوة مشؤومة.

لقد غشيها الحنين إلى المكان. كانت تكرهه، كانت تعلم كم هو منعزل تماماً، كم هو قبيح، كم هو بليد إلى حد إثارة الاشمئزاز. كانت في بعض الأحيان ترفرف بجناحيها مثل «دافني»** لا لتتحول إلى شجرة بل إلى آلة. ومع ذلك سيطر عليها الحنين، وجاهدت لكي تغدو منسجمة مع جو المكان أكثر فأكثر وتاقت إلى الحصول على إشباعها منه.

كانت تشعر بانجذاب إلى شارع المدينة الرئيس مساءً، ذلك الشارع القبيح غير المتكون والذي كان مع ذلك زاخراً بذلك الجو الفعال، جو القساوة الشديدة السوداء. كان ثمة عمال مناجم على الدوام. كانوا يتنقلون بجلالهم الغريب، المشوه بجمال معين وسكون غير طبيعي في طريقة سيرهم ووقوفهم، ونظرة شرود وشبه اذعان في وجوههم الشاحبة والنحيلة في الغالب. كانوا ينتمون إلى عالم آخر، وكان فيهم سحر غريب، وكانت أصواتهم تعج بأصداء عميقة لا تطاق، مثل ضجة الآلة، أو موسيقى تبعث الجنون أكثر من (سيرانات)*** العهود الغابرة.

كانت تجد نفسها مع بقية نساء العامة منجذبة في أماسي أيام الجمع إلى السوق الصغير. كانت الجمعة يوم دفع أجور عمال المناجم وكان ليل الجمعة ليل التَسَوّق: كل امرأة تخرج فيها، كل رجل يخرج يتبضع مع زوجته أو يجتمع بأصحابه. كانت الأرصفة تسودّ على امتداد أميالٍ بالناس القادمين. وكان السوق الصغير الواقع على ذروة التل، وكذلك شارع (بلدوفر) الرئيس، يسودّان من ازدحام الرجال والنساء الشديد.

---

* المؤتمتين : من (الأتمتة) ، أي جعل الشيء أوتوماتيكياً . (المترجم)

** "دافني" : حورية طاردها "ابولو" فلم تنج منه إلا بتحولها إلى شجرة غار . (المترجم)

*** السيرانات : مفردها السيرانة وهي كائنات أسطورية عند الاغريق . لها رؤوس نسوة وأجساد طيور . كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك . (المترجم)

ساد الظلام، واستعر السوق من حرارة المشاعل النفطية التي كانت تلقي ضوءاً محمراً على الوجوه الصارمة للزوجات المتبضعات، وعلى وجوه الرجال الشاحبة الشاردة. كان الجو يضجّ بأصوات المنادين وكلام المتحدثين. وكانت ثمة جموع غفيرة من الناس تتدفق على الأرصفة باتجاه ازدحام السوق الشديد. وكانت الدكاكين وهاجة وزاخرة بالنسوة، أما الشوارع فكان فيها الرجال، وهم في الأغلب من عمال المناجم، من جميع الأعمار. كان المال ينفق بحرية تكاد تكون مسرفة.

لم يكن في مقدور العربات القادمة أن تجتاز المكان. فكانت تضطر إلى الانتظار. وكان السواق ينادون ويصيحون حتى تفسح الجموع الكثيفة لها السبيل. وفي كل مكان كان فتية الضواحي يتجاذبون أطراف الحديث مع الصبايا، وهم واقفون في الطريق أو في الزوايا. وكانت أبواب المشارب العامة مفتوحة ومضاءة كلياً، والرجال يمرون داخلين، خارجين، في سيل لا ينقطع.. في كل مكان، كان الرجال ينادي بعضهم بعضاً. أو يعبرون ليلقى بعضهم بعضاً. أو يقفون في مجموعات وحلقات صغيرة وهم يتجادلون، ويتجادلون إلى ما لا نهاية. كان الإحساس بالأحاديث وهي تطنّ، وتصرّ، شبه سرية، والتعدين الذي لا ينتهي والمشاحنات السياسية، كل ذلك يتذبذب في الهواء مثل نشاز صادر عن مجموعة مكائن. كانت أصوات أولئك هي التي أثرّت في «غدرون» فكاد أن يغمى عليها. لقد أثارت لوعة حنينٍ غريبة، شيئاً ما يكاد يكون شيطانياً، ما كان له أن يتحقق قط.

كأية فتاة أخرى من العامة تمشت «غدرون» جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً على طول المئتي خطوة المضاءة من الرصيف الأقرب إلى السوق. كانت تعلم أنه عمل مبتذل، ما كان لأبيها وأمها أن يطيقاه. لكن الحنين كان يغشاها ولابد لها أن تكون بين الناس. كانت تجلس أحياناً بين الأجلاف في السينما: أجلاف ذوي منظر داعر، لا وسامة فيه.

ومثل أية صبية أخرى من العامة، عثرت «غدرون» على «فتاها».. كان كهربائياً، أحد الكهربائيين الذين استُخْدموا أول مرة بموجب خطة «جرالد» الجديدة. كان رجلاً جدياً، حاذقاً، وعالماً مشغوفاً بعلم الاجتماع، يسكن وحده كوخاً في (ويلي غرين). كان سيداً مهذباً موسراً حد الكفاية. وكانت صاحبة النزل تتولى نشرَ التقارير عنه: لقد اتخذ برميل خشب كبيراً له في غرفة نومه، وكلما جاء من العمل، كان يطلب دلاءً ودلاءً من الماء تصعَّد إليه ليغتسل بها، ثم يرتدي قميصاً نظيفاً وملابس داخلية

كل يوم، وكـذلك جـوارب حـريراً نظيفـة. كـان شـديد التـأنق، كـثيـر المطالب من هذه النواحي، ولكنه كان متواضعاً عادياً جداً من جميع النواحي الأخرى.

كـانت «غـدرون» تعرف هذه الأشـيـاء كلهـا. فـقـد كـان بيت آل «برانغـوين» أحـد المساكن التي كان القيل والقال يأتيها طبيعياً، وحتمياً. ففي المقام الأول، كان «بالمر» أحد أصدقـاء «أرسيـولا». لكن كـان يبين على وجهه الشـاحب، الجدي، اللطيف، الحنينُ نفسه الذي كـانت «غـدرون» تشعر به. إذ لا بد لـه، هو الآخر، من التخطّي في الشـارع جيئـة وذهاباً في أمـاسي الجـمعة. ولذلك كـان يتـمشى مع «غـدرون»، فنشـأت صداقـة بينهـمـا. لكنه لـم يكن مـغـرمـاً بـ «غـدرون» فـهـو يريد «أرسيـولا» في الواقع لكن لم يحدث أن حصل أي شيء بينهـمـا لسبب مـا غـريب. كـان يحب رفـقـة «غـدرون» زمـيلةَ فكرٍ ـ ولا شيء غـيـر ذلك. ولم تكنّ هي أي شـعـور حقـيـقي إزاءه. كان عـالماً وكـان يجب أن تكون لديه امرأة تسنده. بيـد إنه كان في الواقع غـيـر شخصي. كان يملك دقـة الماكنة الرشيقـة. كان بارداً جداً ومدمراً جداً إلى درجة لا تمكنّه من الاهتمام بالنسـاء فعـلاً، كما كـان أنـانيـاً أكـثـر مما ينبغي، يسـتـقطبـه الرجال: أفـراداً كـان يكـرههم ويحـتـقـرهم، أمـا مـجـمـوعـاتٍ فـكـانـوا يفـتنونه، مـثلمـا كـانت المكائن تفـتنه. كـان الرجـال نوعـاً جديداً من المكائن بالنسبة إليه.. لكنْ لا يمكن التنبؤ بهم، لا يمكن التنبؤ بهم.

وهكذا كـانت «غـدرون» تطوف الشـوارع مع «بالمر»، أو تذهب إلى السـينمـا معـه. وكـان وجهـه الطويل النحيل الوسيم تقـريبـاً يرفّ عند إبدائه مـلاحظاته السـاخرة. هاهمـا الاثنان: مـتأنقان من جهة ومن جـهـة أخرى فردان مـتعلقـان بالناس كلّ التعلق، ينـتظمان مع رهط عمـال المناجم المشوَّهين. كـان يبدو أن السر نفسه يعمل عـمله في نفوس الجـميع على السـواء: «غـدرون» و«بالمر»، وسـلالة الشـبـان الفـاسـقين والرجـال الضـامـرين المتوسطي العمر. كـان لدى الجميع شعـور غامض بالقوة، وبقابليـة على التدمير لا يمكن التعبير عنها، وفتور همة مشؤومة، نوع من تعفن الإرادة.

كانت «غـدرون» تنتـحي جـانبـاً فـتـرى كل شيء. ترى كيف أنهـا كـانت تغـرق. ثم تمتلئ بجـيـشـان من الحنق والازدراء، شـاعـرة بأنهـا كـانت تغـوص مع البقـيـة في كـتلة واحدة.. الكل مـتـلاحـمـون، مـتـخـالطون، لاهثـون. كـان ذلك مريعـاً. أحـست بـالاختناق واستعدت للفرار، وفـرت إلى عملهـا مـحمومة. لكن سرعان مـا فلتت. انطلقت إلى داخل الريف.. الريف المائل إلى العتمة، السـاحر. لقد بدأ السحر يعمل عمله من جديد.

الفصل العاشر

دفتر التخطيطات

كانت الشقيقتان، ذات صباح، تخططان بجانب (ويلي ووتر) عند طرف البحيرة القصي. وكانت «غدرون» قد خاضت في الماء حتى بلغت بقعة منخفضة حصبائية، وجلست مثلما يجلس (بوذي)*، وهي تحملق بنظرات ثابتة إلى النباتات المائية القائمة، ريّانة، من وحل الشواطئ المنخفضة. ما كانت تراه، متمكنةً، كان وحلاً.. وحلاً، نضّاحاً، سائلاً، برزت من برودته المتقيحة نباتات مائية، غليظة ولطيفة البرودة ومكتنزة، مستقيمة ومنتفخة جداً تنشر أوراقها بزوايا قائمة وبألوان غامقة، كالحة... أخضر غامق وبقع من أرجواني أسود وبرونزي. بيد أنها كانت تستطيع أن تحس بِنْيَتَها المكتنزة، المتنفخة، كما في رؤية حسية. كانت تعرف كيف أنها قامت من الوحل، كانت تعرف كيف أنها انبثقت عن ذواتها، كيف كانت تقف قوية وريانة ضد الريح.

كانت «أرسيولا» تراقب الفراشات، حيث كانت عشرات منها قرب الماء. منها، زرقاوات صغيرات تخرج خطفاً على حين غرة من لا شيء إلى حياة لؤلؤية، وواحدة كبيرة سوداء وحمراء تحطّ على زهرة وهي تستنشق بأجنحتها الناعمة، ثملةً، أشعة الشمس النقية، الأثيرية، اثنتان بيضاوان تتصارعان في الهواء السفلي. كان ثمة هالة حولهما. آه، حين اقبلتا تتقلبان، كانتا برتقاليتي الحواشي، وكان اللون البرتقالي هو الذي صنع الهالة. نهضت «أرسيولا» وانسابت بعيداً غير واعية، كالفراشات.

جلست «غدرون»، مستغرقةً في نشوةِ استيعابِ النباتات المائية الناهضة، قابعةً في البقعة المنخفضة ترسم، دون أن ترفع نظرها، مدةً طويلة، ثم حملقت شاردة، دون

* المقصود : مثلما يجلس كاهن بوذي ، بلا حراك في حالة تأمل . (المترجم)

وعي، في السويقات المتصلبة، العارية، الريانة. كانت قدماها عاريتين، وقبعتها على الجرف المقابل.

استيقظت من نشوتها، جافلةً، على صوت تجذيف. نظرت إلى ما حولها. كان ثمة قارب فيه مظلة يابانية مزوقة ورجل يجذف، مرتدياً ملابس بيضاً. كانت المرأة «هرمايني» والرجل «جرالد». ولقد عرفت ذلك في الحال. وفي الحال، هلكت في قشعريرة* التوقع الحادة، في ذبذبة كهربائية في أوردتها، حادة، أكثر حدةً بكثير من تلك التي كانت تطنّ دائماً طنيناً خافتاً في جو (بلدوفر).

كان «جرالد» منجاتها من الحمأة الثقيلة، حمأة عمال مناجم العالم السفلي، الشاحبين ذاتيي الحركة. لقد برز من الوحل، وكان هو السيد. شاهدت ظهره وحركة حقويه الأبيضين. لكن ذلك لم يكن ذا شأن.. إنه البياض الذي بدا إنه كان يحتويه أثناء انحنائه إلى أمام، وهو يجذف. كان يبدو منحنياً نحو شيء ما. لقد بدا شعره اللماع الضارب إلى البياض كأنه كهرباء السماء.

انطلق صوت «هرمايني» يطوف واضحاً فوق المياه: (هي ذي «غدرون». سنذهب ونتحدث إليها. هل لديك مانع؟).

نظر «جرالد» باحثاً فشاهد الفتاة واقفة عند حافة الماء وهي تنظر إليه. سحب القارب صوبها، مغناطيسياً، دون أن يفكر بها. ففي عالمه، عالمه الواعي، لم تزل هي لاشيء. كان يعرف أن من دواعي سرور «هرمايني» الغريب أن تدوس على جميع الفروق الاجتماعية، ظاهرياً في الأقل، فترك الأمر لها.

أنشدت «هرمايني»، مستخدمة الاسم الشخصي على نحو ما كان دارجاً أيامئذ: (كيف حالك يا «غدرون»؟ ماذا تفعلين؟).

- (كيف الحال يا «هرمايني»؟ كنت أرسم تخطيطاً).

- (صحيح؟).

انساب القارب مقترباً أكثر، حتى جنحت قاعدته إلى الجرف.

- (هل لنا أن نرى؟ أود ذلك كثيراً).

---

* وردت كلمة (قشعريرة) بالفرنسية. (المترجم)

كانت مقاومة نية «هرمايني» المقصودة لا تجدي.

فقالت «غدرون» على مضض، إذ أنها كانت تكره دوماً عرض أعمالها الناقصة: (حسن.. ليس ثمة أي شيء مثير للاهتمام إطلاقاً).

ـ (حقا؟ لكن دعيني أرى من فضلك).

مدت «غدرون» يدها لتناول دفتر التخطيطات، ومال «جرالد» من القارب لأخذه. وعند ذاك، تذكّر آخر كلمات «غدرون» إليه، ووجهها المرفوع نحوه، وهو على ظهر الفرس الجموح. فسرت كبرياء كثيفة في أعصابه، لأنه شعر بأنها كانت خاضعة له، على نحو ما. كان تبادل الشعور بينهما قوياً وغير ذي صلة بوعييهما.

شعرت «غدرون»، كالمسحورة، بجسمه يمتد ويصطخب كنار المستنقعات، يمتد تجاهها ويده تمتد مباشرة إلى أمام مثل سويق. لقد جعل إدراكها الشديد، الشهواني، إياه دمها يغيب عن الوعي في عروقها، وأظلمّ عقلها ولم يع. أما هو فإنه كان يتأرجح فوق الماء تأرجحاً مكتملاً كوميض نور فسفوري. نظر إلى القارب مستطلعاً. كان هذا يبتعد بعض الشيء فرفع المجذاف ليعيده. كانت المتعة الرائعة لإيقاف القارب ببطء في الماء الثقيل الناعم كاملة كأنها حالة انتشاء.

قالت «هرمايني» وهي تتفحص بنظرها النباتات القائمة على الجرف لمقارنتها مع رسم «غدرون»: (ذاك ما فعلتِ). فنظرت «غدرون» إلى ما حولها باتجاه أصبع «هرمايني» الطويل المؤشر. وكررت «هرمايني» كالمحتاجة للتأكيد:

ـ (هوذا. أليس كذلك؟).

ـ (بلى)، قالتها «غدرون» تلقائياً، دون أن تبالي مبالاة حقيقية.

قال «جرالد» مادّاً يده إلى الدفتر: (دعوني أنظر). لكن «هرمايني» تجاهلته، إذ كان عليه أن لا يتجاوز قبل انتهائها. لكنه، بإرادته التي لا تحبط ولا تلين كإرادتها تطاول إلى أمام حتى لمس الدفتر. فاهتزت «هرمايني» دون وعي، برعدة صغيرة، وفي نفسها عاصفة مقت تجاهه. ففكت يدها عن الدفتر قبل أن يكون قد أمسك به بعد على نحو سليم فانقلب على جانب الزورق وسقط في الماء.

فأنشدت «هرمايني» بنبرة غريبة من انتصار حقود: (أوه! أنا متأسفة جداً، متأسفة جداً جداً. ألا تستطيع أن تسترجعه، يا «جرالد»؟).

قالت كلامها الأخير بنبرة تهكم قلق جعلت عروق «جرالد» تتوخز بكراهية رقيقة حيالها. مال إلى خارج القارب كثيراً، ماداً يده في الماء كان يستطيع أن يحس بأن وضعه كان سخيفاً، بانكشاف حقويه من الخلف.

قالت «غدرون» بصوت قوي، رنان: (إنه ليس بذي أهمية). وبدت كأنها ملامسة إياه. لكنه تطاول مسافة أبعد، وتمايل الزورق بشدة. بيد أن «هرمايني» ظلت هادئة. أما هو فقد أمسك بالدفتر تحت الماء ورفعه والماء يتقاطر منه.

كررت «هرمايني»: (ما أشد أسفي.. أنا آسفة جداً. أخشى أن يكون الذنب ذنبي كلياً).

فقالت «غدرون» بصوت عال، ومع التشديد، وقد احتقن وجهها حتى غدا قرمزياً: (إنه ليس بذي أهمية.. فعلاً، أؤكد لك ذلك.. لا يهم البتة). ومدت يدها لتتناول الدفتر المبلل، ونفد صبرها، ابتغاء إنهاء الفصل. فناولها «جرالد» الدفتر. لم يكن طبيعياً تماماً.

عادت «هرمايني» تقول: (إنني آسفة أشد الأسف)، حتى برم كلٌّ من «جرالد» و«غدرون». وأضافت «هرمايني»:

- (ألا يوجد أي شيء يمكن عمله؟).

فتساءلت «غدرون» بسخرية فاترة: (من أية ناحية؟).

- (ألا نستطيع إنقاذ الرسوم؟).

كان ثمة صمت لحظةً أوضحت «غدرون» خلالها كل ما يدحض إلحاح «هرمايني».

قالت «غدرون» بحزمٍ بتّار: (أؤكد لك أن الرسوم ظلت على حالتها نفسها من الجودة، بقدر تعلق الأمر بي. إذ إنني أريدها كمرجع فقط).

- (لكن هلا أستطيع أن أعطيك دفتراً جديداً؟ أتمنى لو سمحت لي بذلك. أشعر بأصدق الندم. أشعر بأنها كانت غلطتي تماماً).

فقالت «غدرون»: (بقدر ما رأيتُ، لم تكن غلطتَكِ أبداً. وإذا كانت ثمة أية غلطة، فالذنب ذنب السيد «كريتش». بيد أن الأمر كله تافه تماماً، ومن السخف فعلاً إعارته أية أهمية).

راقب «جرالد» «غدرون» عن كثب، وهي تدحض «هرمايني». لقد كانت تمتلك

كياناً من القوة الباردة. راقبها متفرساً، بالغاً مبلغ الاستبصار. شاهد فيها روحاً خطرة عدائية تستطيع أن تقاوم دون تهاون أو هوادة. ولقد كانت، فوق هذا وذاك، متكاملة وذات إيحاء تام.

قال:

ـ (يسرني الحال جداً إذا كان لا أهمية له، وإذا لم يكن ثمة ضرر حقيقي).

عادت فنظرت إليه بعينيها اللطيفتين الزرقاوين، بإشارة ولجت روحه كاملةً فيما قالت بصوتٍ يرن إلفة تكاد تبلغ حد الملاطفة، مخاطبة إياه:

(طبيعي، لا يهم ذلك قطعاً).

تثبتت الصلة بينهما بتلك النظرة، بنبرتها. فبنبرتها جعلت التفاهم واضحاً.. كانا من الصنف نفسه، هو وهي، فقد قام بينهما نوع من المشاركة الوجدانية الشيطانية. لقد عرفت بأنها، من الآن فصاعداً، غدت ذات سطوة عليه، وحيثما يلتقيان سيكونان مرتبطين في السر وسيكون لا حول له في ذلك الارتباط بها، فطابت هي نفساً لذلك وانتشت.

ـ (إلى اللقاء! ما أشد سروري لأنك غفرتِ لي. إلى اللقاااااء!).

أنشدت «هرمايني» وداعها ولوحت بيدها. وتناول «جرالد» المجذاف بحركة آلية واندفع. لكنه كان ينظر طيلة الوقت نظرة إعجاب متألق خفي الابتسام إلى «غدرون» التي كانت تقف عند البقعة المنخفضة تهز الدفتر المبلل بيدها. استدارت وتجاهلت الزورق المتنائي. لكن «جرالد» التفت ناظراً أثناء تجذيفه، ممعناً النظر إليها، غافلاً عما كان فاعلاً.

أنشدت «هرمايني» وهي تقعد متجاهلة تحت مظلتها الملونة: (ألسنا متجهين إلى اليسار أكثر مما ينبغي؟).

نظر «جرالد» إلى ما حوله دون إجابة، والمجذافان متوازنان ويومضان تحت أشعة الشمس.

فقال بلهجة ودية: (أظن أن الوضع جيد)، وشرع يجذف ثانية دون أن يفكر بما هو فاعل. فكرهته «هرمايني» غاية الكره لشروده الودي. لقد أُبْطِلَتْ، ولم تستطع استعادة السطوة.

الفصل الحادي عشر

جزيرة

في غضون تلك الفترة كانت «أرسيولا» قد تجولت من (ويلي ووتر) قدماً في محاذاة مجرى الجدول الصغير الملتمع. كان العصر يصطخب بتغريد القُبَّرات. وعلى جنبات التلال الساطعة، كان دخان خفيف يتصاعد من نبات الجولق. وإزاء الماء أزهرت قلة من أزهار (لا تنسني)*. كان ثمة استيقاظٌ ومضٌ في كل مكان.

استمرت «أرسيولا» تسرح في شرود عند الغدران. كانت تريد أن تذهب إلى بركة الطاحونة في الأعالي. وكان مبنى الطاحونة الكبير مهجوراً إلا من عامل وزوجته كانا يسكنان في المطبخ. ولذلك عبرت حوش المزرعة الخالي، ومرّت خلال قفر الحديقة، ثم ارتقت الجرف عند فتحة التصريف. وحين بلغت القمة لتلقي نظرة إلى سطح البركة القديم المخملي أمامها، لاحظت رجلاً عند الجرف، يرمم زورقاً مسطَّح القعر.

كان «بركن» يعمل بمنشار ومطرقة.

وقفت عند رأس فتحة التصريف تنظر إليه. لم يكن شاعراً بوجود أحد. كان يبدو منهمكاً كحيوان بري، ناشط ومكبّ. شعرت أنه كان ينبغي لها أن ترحل، فلن يريدها. لقد بدا منشغلاً جداً. بيد أنها لم ترد أن ترحل. ولذلك مضت على امتداد الجرف حتى يراها.

وكان هذا ما فعل بعد برهة قصيرة. وفي اللحظة التي رآها فيها أسقط أدواته وأقبل قائلاً:

ـ (كيف حالك؟ إنني أرمم الزورق كي لا ينفذ الماء فيه. أخبريني إن كنتِ تظنين بأنني أعمل الصواب).

* ويطلق عليها البعض اسم (أذن الفار) اللاشاعري!.. (المترجم)

ذهبت معه.

قال:

ـ (أنتِ ابنة أبيك، ولذلك في مقدورك أن تخبريني إنْ كان ذلك يفي بالغرض).

انحنت لتنظر إلى الزورق المرقّع.

قالت وهي تخشى أن تضطر إلى الفصل: (إنني متأكدة من كوني ابنة أبي. لكنني لا أعرف أي شيء عن النجارة. يبدو أن العمل صحيح. ألا تظن ذلك؟).

ـ (بلى، أظن ذلك. آمل ألا يودي بي إلى القاع، هذا كل ما في الأمر. وحتى لو كان الأمر كذلك، فهو ليس ذا شأن عظيم، إذ سأصعد ثانيةً. ساعديني في وضعه في الماء، من فضلك).

وبجهد مشترك قَلَبا الزورق الثقيل وعوّماه.

قال: (الآن سأجربه ويمكنك مراقبة ما سيحصل. فإذا ما حملني فسآخذك إلى الجزيرة).

صاحت وهي ترقبه متشوقة: (جَرِّبْ).

كانت البحيرة واسعة، فيها ذلك الهدوء الكامل والرونق الغامض للمياه العميقة جداً. كانت ثمة جزيرتان صغيرتان تغطيهما شجيرات وقليل من الأشجار، في اتجاه الوسط. دفع «بركن» القارب، ثم انحرف به على نحو غير متيقن على سطح البركة. ومن حسن الحظ أن الزورق انساب بحيث استطاع «بركن» أن يمسك بغصن صفصاف ويسحبه إلى الجزيرة.

قال وهو ينظر إلى داخل الجزيرة: (مغطاة بالدغل نوعاً ما، لكنها لطيفة جداً. سأجيء وآتي بك. القارب ينزّ قليلاً).

وفي لحظة، كان معها ثانية، فخطَتْ إلى داخل الزورق المبلل.

قال: (سيطفو بنا بسلام). وقام بمناورة ثانية ليبلغ الجزيرة.

نزل الاثنان إلى البر تحت شجرة صفصاف. انكمشت «أرسيولا» من الغابة الصغيرة للنباتات العفنة قبالتها: الشوكران والخنازيرية كريهة الرائحة. لكنه مضى يستكشف داخلها.

قال: (سأقصها، وعندها سيكون المكان رومانسياً.. مثل «بول» و«فرجيني»).

هتـفت «أرسـيـولا» بحـمـاسـة: (أجل، يمكن للمـرء أن يأتي إلى هنا في نزهات «واتوية» لطيفة)*.

تجهّم وجه «بركن» وقال:

ـ (لا أريد نزهات «واتو» هنا).

ضحكت قائلة: («فرجيني» صاحبتك، فقط).

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: («فرجيني» كافية... كلا، لا أريدها هي الأخرى).

نظرت «أرسـيـولا» إليـه عن كـثب. لم تكن قد رأته منذ زيارة (بريد ألبي). كـان نحيفاً جداً وغائراً ومنظر وجهه شاحباً.

سألته، مخيّبة نوعاً ما: (كنتَ مريضاً، أليس كذلك؟).

أجاب ببرود: (بلى).

كانا قد قعدا تحت شجرة الصفصاف ينظران إلى البحيرة من معتزلهما في الجزيرة.

سألته: (هل أخافك؟).

سأل، مـديراً عـينيـه لينظر إليـهـا: (الخوف ممَّ؟) لقد أقلقها شيء ما فـيـه غـيـر إنساني، غير ملطَّف، وهزّها هزاً أخرجها عن إطار ذاتها الاعتيادي.

قالت: (إنه لأمر مخيف، أن تكون مريضاً جداً، أليس كذلك؟).

قـال: (إنـه ليس مـسلياً. لم أقـرر قط ما إذا كـان المرء يخـشى الموت حـقـاً، أم لا. ففي حالة ذهنية ما يكون الجواب: لا، أبداً، وفي الأخرى: أجل، جداً).

ـ (لكن ألا يجعلك تشعر بالخجل؟ أظن أنه يجعل المرء خجلاً جداً.. المرض مُذلّ على نحو فظيع جداً. ألا تظن ذلك؟).

تأمل بضع دقائق وقال:

ـ (ربما. ولو أن المرء يعـرف طيلة الوقت بأن حـيـاته ليست صـواباً في الحـقـيـقـة من الأصل. هنا الإذلال. بعد ذلك، لا أرى أن المرض يهم إلى هذه الدرجة. يمرض الفرد لأنه لا يحـيـا بصـورة صحـيـحـة.. لا يـتـمكن من ذلك. إن العـجز عن العـيش هو الذي يسـقم المرء ويذلّه).

---

* «بول وفرجيني» قصة غرام شهيرة للكاتب الفرنسي «برناردين ده سان بيير» (١٧٣٧ ـ ١٨١٤). و«واتو» هو الرسام الفرنسي «جان انتوان واتو» (١٦٨٤ ـ ١٧٢١). (المترجم)

سألته على نحو يقرب من السخرية: (لكن، هل أنت عاجز عن العيش؟).

ـ (نعم.. أنا لا أصيب نجاحاً كبيراً في أيامي. يبدو أن الواحد منا يصدم أنفه دائماً بالجدار المصمت أمامه).

ضحكت «أرسيولا». كانت خائفة وكانت حين تخاف تضحك دوماً وتزعم بأنها مسرورة.

قالت: (يا لأنفك المسكين!)، وهي تنظر إلى ذلك الجزء من قسمات وجهه.

أجاب: (لا عجب في قبحه).

صمتت بضع دقائق وهي تصارع وهمها الذاتي. كان إيهام نفسها غريزة فيها.

قالت: (لكنني سعيدة فعلاً.. أظن أن الحياة بهيجة جداً).

فقال مجيباً بشيء من اللامبالاة الفاترة: (جيد).

مدت يدها لتتناول وريقة كانت تغلف قطعة من الشوكولاتة وجدتها في جيبها، وطفقت تصنع زورقاً منها. راقبها دون مبالاة. كان ثمة شيء ما مثير للشجن، رقيق في أطراف أناملها المتحركة، غير الواعية، والتي كانت موجودة، مثارة، في واقع الأمر.

سألته: (إنني، فعلاً، أستمتع بالأشياء.. ألست أنت كذلك؟).

ـ (أوه، بلى إلا أن ما يثير حنقي أن أعجز عن السير في طريق الصواب في ذلك الجزء مني النامي حقاً. أشعر بأنني في أحبولة وفي فوضى شاملة وأنني لا أستطيع أن أستقيم وأستقر، على أية حال. لا أعرف ماذا يجب عليّ فعله حقاً. فلابد أن يفعل المرء شيئاً ما في مكان ما).

ردت: (لماذا يجب عليك دائماً أن تفعل؟ إن ذلك عاميٌّ جداً، أظن أن من الأفضل جداً أن تكون أرستقراطياً فعلاً، وأن لا تفعل أي شيء سوى أن تكون على سجيتك، كزهرة نامية).

قال: (أوافق تماماً إنْ كان المرء قد أزهر. لكني لست بمستطيع أن أحمل وردتي على الأزهار. فهي إما أن تصاب بآفة في البرعم، أو بحشرة فتاكة، أو بسوء التغذية. اللعنة! حتى أنها ليست برعماً. أنها عقدة معقدة).

ضحكت ثانية، فاغتاظ وسخط كثيراً. لكنها كانت محتارة تواقة. كيف الخلاص؟ كان لابد من مخرج في مكان ما.

ساد الصمت، وأرادت أن تبكي أثناء ذلك. ثم امتدت يدها إلى قطعة أخرى من ورق الشوكولاتة وطفقت تطويها لصنع زورق آخر.

تساءلت بعد لأي: (وما السبب في عدم الإزهار وعدم وجود كرامة للحياة البشرية الآن؟).

- (الفكرة كلها ميتة. البشرية ذاتها تعفنت وتيبست في الواقع. هناك عدد لا يحصى من الكائنات البشرية المتشبثة بالشجيرات... مظهرهم وردي، لطيف جداً، شُبّانك الأصحاء وشاباتك. لكنهم تفاح (سدوم) في واقع الأمر، (فاكهة البحر الميت)*، تفاح متعفن. ليس صحيحاً أنهم ذوو شأن.. فباطنهم مليء برماد مرّ فاسد).

احتجت «أرسيولا»: (لكنّ هناك أناساً طيبين).

- (طيبون بما يكفي لحياة اليوم. لكن البشرية شجرة ميتة، مغطاة بعَصْفات** من البشر رقيقة لامعة).

لم تستطيع «أرسيولا» إلاّ أن تتشدد ضد هذا، فقد كان ذلك نهائياً ومنظرانياً أكثر مما ينبغي. لكنها، أيضاً، لم تستطيع إلا أن تجعله يستمر.

سألت بنبرة عدوانية: (وإذا كان الأمر كذلك، فما السبب؟). كانا يثيران احتداماً رقيقاً من التعارض بينهما.

- (لماذا يكون الناس جميعاً كرات من غبار مُرّ؟ لأنهم لا يسقطون من الشجرة حين ينضجون. يتشبثون بمواضعهم القديمة حين يكون قد عفا عليهم الدهر حتى يصابوا بديدان صغيرة، ويتعفنوا ويتيبسوا). حدث توقف طويل. لقد غدا صوته حاراً وساخراً جداً. اضطربت «أرسيولا» وتحيّرت. لقد نسي كلاهما كل شيء عدا استغراقهما. هتفت متسائلة: (حتى لو كان الجميع على خطأ... أين أنت من الصواب؟ في أي موقع أنت أفضل؟).

فرد صائحاً: (أنا؟.. أنا لست مصيباً. في الأقل، أن صوابي الوحيد يكمن في حقيقة كوني أعرف ذلك. أني أمقت ما أنا عليه، في المظهر. أمقت نفسي لكوني كائناً

---

* فاكهة أسطورية لأشجار قيل أنها تنبت على سواحل البحر الميت تتسم بلطافة منظرها، إنما بامتلائها بالرماد. (المترجم).

** العَصْفَة: تضخّم في النسيج النباتي ناشئ عن بعض الفطور أو الطفيليات. (المترجم).

بشرياً. البشرية كذبة مكورة ضخمة، والكذبة الضخمة هي دون الحقيقة الصغيرة. البشرية أدنى، أدنى بكثير من الفرد، لأن الفرد قد يكون أحياناً قادراً على الصدق، والبشرية شجرة أكاذيب. ويقولون أن الحب أعظم شيء ويثابرون في قول ذلك.. أولاء الكذابون القذرون. حسبك أن تنظري إلى ما يفعلون! انظري إلى ملايين الناس الذين يكررون في كل دقيقة أن الحب هو الأعظم، وأن الإحسان هو الأعظم.. ثم انظري إلى ما يفعلون طيلة الوقت. بأفعالهم ستعرفين أنهم كذابون قذرون وجبناء لا يجرأون على الركون إلى أفعالهم، ناهيك عن أقوالهم).

قالت «أرسيولا» بحزن: (لكن ذلك لا يغير واقع أن الحب هو الأعظم، أليس كذلك؟ أن يفعلونه لا يغير حقيقة ما يقولونه، أليس كذلك؟).

ـ (تماماً. إذْ لو كان ما يقولونه صحيحاً، فإنهم لن يستطيعوا إلا أن يحققوه. لكنهم على الكذب محافظون، ولهذا تثور ثائرتهم في آخر المطاف. إن القول بأن الحب هو الأعظم بهتان. إن بإمكانك، أيضاً، القول بأن الكره هو الأعظم، لأن نقيض الشيء يوازنه. ما يريده الناس هو الكره.. ولا شيء غير الكره. وهم، باسم الاستقامة والحب، يحصلون عليه. أنهم يستقطرون أنفسهم بـ(النترو غليسرين)*، جميعاً، خروجاً من ذات الحب. إن الكذب هو الذي يقتل.. إذا كنا نريد الكره، فليكن لنا ما نريد: الموت، القتل، التعذيب، الدمار الشديد.. فليكن لنا.. لكن ليس باسم الحب. بيد أنني أمقت البشرية أشد المقت، وأتمنى لو تنزاح. في وسعها أن ترحل. ولن تكون هناك أية خسارة مطلقة، إذا ما هلك كل كائن بشري غداً. أما الحقيقة فلن تمس بل ستكون أفضل. عند ذاك تكون شجرة الحياة الحقيقية قد تخلّصت من أفظع غلة ثقيلة من (فاكهة البحر الميت)، عبء الآلاف من صور الناس الذين لا يطاقون، عبء ثقيل لا ينتهي من الأكاذيب القاتلة).

قالت «أرسيولا»: (إذاً، أنت تود تدمير جميع من في العالم؟).

ـ (أجل، فعلاً).

ـ (ويخلو العالم من الناس؟).

---

* سائل عديم اللون شديد التفجير. (المترجم).

ـ (نعم، في الحقيقة. أنت نفسك، ألا تجدينها فكرة نظيفة، لطيفة: عالماً خالياً من الناس، لا شيء سوى عشب غير معوق النمو وأرنب منتصب؟).

لقد جعل الإخلاص البهيج في صوته «أرسيولا» تتوقف لتتدبر مقترحها هي. وفي الحق، كان ذلك فعلاً جذاباً: عالم نظيف، لطيف، خال من الأنسان، هو ذا العالم المستحب حقاً. اضطرب قلبها، ثم طرب. ومع ذلك كانت غير راضية عنه، فاعترضت:

ـ (لكنك ستكون ميتاً، أنت، فما فائدة ذلك بالنسبة إليك؟).

ـ (سأموت بسرور حين أعرف أن الأرض ستنظف من جميع الناس فعلاً. إنها أجمل فكرة وأكثرها تحريراً. عند ذاك لن تخلق بشرية قذرة أخرى أبداً لتدنيس العالم).

قالت «أرسيولا»: (ولكن لن يكون هناك أي شيء).

ـ (ماذا! لاشيء؟ ألمجرد أن البشرية قد محيت؟ أنت تداهنين نفسك. سيكون هناك كل شيء).

ـ (لكن كيف، إن لم يكن هناك ناس؟).

ـ (هل تظنين أن الخلق يعتمد على الإنسان! كلا، ثم كلا. هناك الأشجار والعشب والأطيار. أنا أفضل كثيراً أن أفكر في القُبّرة، تقوم صباحاً على عالم خالٍ من البشر. الإنسان غلطة، ولابد أن يرحل. توجد الأعشاب والأرانب والأفاعي، والأرواح غير المرئية، هؤلاء هم ملائكة حقيقيون يطوفون بحرية حين لا تعترض سبيلهم بشريةٌ قذرة.. وكذلك عفاريت طيبون أطهار: لطيف ذلك جداً).

لقد سر «أرسيولا» ما قاله، سرها كثيراً جداً، كرؤية خيالية. طبيعي كان ذلك خيالاً بهيجاً حسب. فهي نفسها تعرف واقع البشرية جيداً، واقعها البشع. كانت تعرف أنها لا يمكن أن تختفي بمثل تلك الملاءمة والسهولة. فلا يزال أمامها طريق طويل، طريق طويل وبشع. لقد عرفت روحُها الأنثوية البارعة الابليسية ذلك حق المعرفة.

ـ (لو أزيل الإنسان من على وجه البسيطة، فقط، لواصل الخلق مسيرته على نحو مدهش جداً، ببداية جديدة، من دون بشر. الإنسان أحد أخطاء الخليقة ـ مثل (الأكصور)*. آه، لو أرتحل ثانية، فقط، تصوري الأشياء اللطيفة التي ستنبثق من الأيام المحررة.. أشياء منبثقة من النار رأساً).

---

* (الأكصور) : زحافة بحرية منقرضة سمكية الشكل . (المترجم) .

قالت وهي عالمة بفظائع الإلحاح علماً شيطانياً مكاراً: (لكن الإنسان لن يرتحل أبداً. لأن العالم سيغيب معه).

أجاب: (كلا. ليس الأمر كذلك. إنني أؤمن بالملائكة الأباة وبالعفاريت الذين هم أسلافنا. سوف يدمروننا لأننا لسنا أباةً بما فيه الكفاية. كانت (الأكصورات) غير أبية كانت تزحف وتتسكع كما نفعل نحن. ثم انظري إلى زهور البيلسان والورد الأزرق - هي آلاءُ خَلْقٍ طاهر يتم - حتى الفراشة. لكن البشرية لن تتجاوز مرحلة اليرقة - بل تبلى في مرحلة الخادرة، ولن تكون لها أجنحة أبداً. إنها ضد الخلق، كالقردة والسعادين).

راقبته «أرسيولا» وهو يتحدث. لقد بدا فيه غضبٌ ما، نافد الصبر، طيلة الوقت، وفي الوقت نفسه، استمتاعٌ عظيم بكل شيء، وتسامحٌ ناجز. وكان هذا التسامح هو الذي لا تثق فيه. وليس الغضب. لقد رأت أنه، على الرغم من ذاته، كان عليه طيلة الوقت أن يحاول إنقاذ العالم. ومع أن هذه المعرفة أراحت قلبها، في مقام ما، بشيء يسير من الإستقرار، والرضا عن الذات، فقد ملأتها بشيء من الإزدراء الشديد به والكره له. كانت تريده لنفسها، كارهة لمسة (مخلِّص العالم) فيه*. كانت شيئاً معمَّماً، مشاعاً فيه، لا تستطيع أن تتحمله. فهو يتصرف بالطريقة نفسها، يقول الأشياء نفسها، يهب نفسه كاملاً لكل قادم، لأي شخصٍ، وكل شخص أحب أن يتودد إليه. كانت تلك السمة شيئاً حقيراً، ضرباً من الدعارة المخاتلة جداً.

قالت «أرسيولا»: (لكنك تؤمن بالحب الفردي، وإن كنت لا تؤمن بحب البشرية..؟).

- (أنا لا أؤمن بالحب مطلقاً.. أي، ليس أكثر من إيماني بالكره، أو الحزن. فالحب إحدى العواطف، شأنه شأن جميع العواطف الأخرى.. ولذلك، لا بأس به مادمت تحسّين به. لكنني لا أستطيع أن أتصور كيف يغدو مطلقاً. أنه مجرد جزء من العلاقات البشرية لا أكثر. وهو جزء فقط من أية علاقة بشرية. لماذا إذاً يتعين على المرء أن يحس به على الدوام أكثر من شعوره بالحزن أو البهجة النائية؟ ذلك مالا أستطيع أن أفقه. ليس الحب أمنية. أنه عاطفة تحسينها أو لا تحسينها، على وفق الظروف).

---

* وردت عبارة (مخلِّص العالم) باللاتينية. (المترجم).

سألت: (لِمَ، إذاً، تُعْنَى بالناس أصلاً؟ إذا كنتَ لا تؤمن بالحب، لِمَ تهتم بالإنسانية؟).

ـ (ما السبب؟ لأنّ لإخلاص لي منها).

فأصّرت: (لأنك تحبها). أغاظه كلامها.

قال:

ـ (إنْ كنت أحبها، فتلك هي علتي).

فقالت بشيء من السخرية الباردة: (لكنها علة لا تريد منها شفاءً).

صمت الآن، وهو يحس بأنها كانت تريد أن تهينه.

سألت مستهزئة: (وإن كنتَ لا تؤمن بالحب، فبأي شيء أنت مؤمن؟ بنهاية العالم، وبالعشب، حسب؟).

أخذ يشعر بأنه كان أحمق.

قال: (أؤمن بالأرواح غير المرئية).

ـ (ولا شيء غير ذلك؟ أنت لا تؤمن بأي شيء مرئي، سوى العشب والطير؟ أن عالمك استعراض سقيم).

ـ (لعله كذلك). قالها متعاظماً، فاتراً، بعد أن أساءت إليه، وقد اتخذ له مسحة من التعاظم المتنائي الذي لا يطاق، وانسحب إلى داخل تحفظه.

لقد كرهته «أرسيولا» بيد أنها شعرت، كذلك، بأنها قد فقدت شيئاً ما. نظرت إليه وهو جالس القرفصاء على الجرف. كان فيه شيء من اليبوسة المتزمّتة التي تميز (مدرسة الأحد)*، متزمّتة وكريهة. ومع ذلك كان قالبه على درجة من السرعة والجاذبية في الوقت نفسه بحيث أسبغ شعوراً هائلاً بالحرية: القالب الذي صُبَّ به حاجباه وذقنه، وبنيته البدنية كلها، شيء زاخر بالحياة جداً على الرغم من منظر السقام.

وكانت تلك الازدواجية في الإحساس التي أوجدها فيها، هي التي عجّلت في إثارة رقيق الكره له في أحشائها. كانت هناك سرعته في الحياة، الرائعة، الشهية، تلك الصفة النادرة لرجل شهيّ كلياً، ثم هناك، في الوقت نفسه، هذا الانمحاء السخيف، الوضيع إلى مرتبة (مخلّص العالم) ومعلم (مدرسة أحد) ـ متزمت من الطراز الأيبس.

---

* مدرسة الأحد : مدرسة التربية الدينية تفتح أبوابها يوم الأحد . (المترجم)

رفع نظره إليـها. رأى وجهها متقداً على نحو غريب، كأن ناراً لطيـفة قوية قد اندلعت من الباطن. تسمّرت روحه من اندهاش. كانت «أرسيـولا» قد اتقّدت بنارها الحيـة. وإذ تسـمر من اندهاش ومن انجذاب صاف كـامل، تحرك نحوها. كانت جالسة كمَلكَة غريبة، وتكاد أن تكون خارقة للطبيعة في ثرائها الباسم، المتقد.

قال وقد تكيف وعيه سريعاً: (النقطة المهمة حول الحب هي أننا نكره الكلمة لأننا جعلناها مبتذلة. يجب أن تُصادَر، ويُحَرَّم النطقُ بها، سنوات كثيرة حتى نجد فكرة جديدة أفضل).

حلّ شعاع من التفاهم بينهما.

قالت: (لكنها تعني الشيء نفسه دائماً).

هتف: (يا إلهي! كلاّ! فلتتـوقف عن أن تعني ذاك بعد الآن. ولترحل المعاني العتيقة إلى غير رجعة).

أصرت: (لكنه يبقى حياً). وسطع ضوء أصفر غريب مؤذٍ من عينيها. تردد، محتاراً، منسحباً. ثم قال:

ـ (كلا، لا يبقى كذلك. لا يُنْطَق هكذا في العالم أبداً، ليس من شأنك أن تنطقي الكلمة).

فقالت ساخرة: (لا بد لي أن أترك الأمر لك، تخرجيها أنت من (تابوت العهد)* في اللحظة المناسبة).

تبادلا النظرات ثانية، ثم وثبت قائمة فجأة، وأدارت ظهرها له، وأدبرت. قام هو الآخر، ببطء ومضى إلى حافة الماء حيث جلس القرفصاء وطفق يسلي نفسه دون وعي. قطف زهرة أقحوان وأسقطها في البركة بحيث صار السويق بمثابة رافدة القص في السفينة، وطافت الزهرة كزنبقة ماء صغيرة تحدق في السماء بوجهها المتفتح إلى الأعلى. استدارت على مهل، في رقصة دراويش بطيئة، بطيئة، فيما انحرفت مبتعدة.

راقبها، ثم أسقط أقحوانة أخرى في الماء، ثم أخرى بعد ذلك، وجلس يراقبها بعينين براقتين مستغرقتين وهو رابض قرب الجرف. استدارت «أرسيولا» لتنظر،

---

* (تابوت العهد) : صندوق كان اليهود يحفظون فيه شرائعهم ، ويحملونه معهم في حِلّهم وترحالهم . (المترجم) .

فاستبد بها شعور غريب، كأنّ شيئاً ما كان يحدث. لكن ذلك كله كان غير ملموس. كان ثمة شيء من السيطرة تُسَرْبَل به. لم تستطع أن تعرف. لم تستطع سوى مراقبة أقراص الأقحوان المشرقة، الصغيرة، وهي تنحو، بطيئة، منحى السفر على سطح الماء الغامق الصقيل. كان الأسطول الصغير ينساب نحو الضوء جَمْعاً من نقاط بيض نحو البعيد.

قالت، وهي تخشى بقاءها حبيسةَ الجزيرةِ مدةً أطول:

ـ (لنذهب إلى الساحل، لنتبعها). ثم ابتعد في الزورق.

سُرَّت لكونها غدت على اليابسة الطليقة ثانية. سارت بمحاذاة الساحل نحو فتحة التصريف. كانت زهرات الأقحوان منتشرة على سطح البحيرة، نواعم مشعة، كأنها قوة مفخمة، كأنها نقاط تفخيم هنا وهناك. لِمَ أثّرت هذه الزهور فيها هذا التأثير الشديد والصوفي؟ قال: (انظري، إن قاربك الورقي الأرجواني يرافقها. والجميع عبارة عن قافلة من أطواف).

أقبلت بعض الأقحوانات نحوها، بطيئة مترددة وهي تؤدي رقصة جماعية صغيرة ساطعة، على حياء، على سطح الماء الغامق الصافي. لقد أثّر صدقها البهيج، الساطع، في «أرسيولا» إلى درجة جعلتها تكاد تبكي، حين اقتربت منها. هتفت: (لماذا هي بهذا الجمال؟ لماذا أرى فيها كل هذه اللطافة؟).

قال وقد قيّدته نبراتها المنفعلة: (إنها أزهار لطيفة. أنت تعرفين أن الأقحوانة جمع من الزهيرات، حَشْدٌ صار فرداً. ألا يضعها علماء النبات في المقام الأول في خط التطور؟ أعتقد ذلك).

ـ (المركبّات، نعم، أظن ذلك). قالت «أرسيولا» ذلك وهي لم تكن متأكدة من أي شيء قط. فالأشياء التي كانت تعرفها حق المعرفة في أحدى اللحظات تبدو غير مؤكدة في لحظة تالية.

قال: (علّليها إذاً، هكذا. الأقحوانة عبارة عن ديمقراطية كاملة صغيرة. ولذلك فهي أرقى الأزهار، ومن هنا تأتّى سحرها).

هتفت: (كلا، كلا.. أبداً. ليست ديمقراطية).

فأقر: (كلا. إنها الجماهير الذهبية لطبقة (البروليتاريا) محاطة بسياج أبيض مزوق من الأثرياء الكسالى).

صاحت: (ما أكرهها!.. أنظمتك الاجتماعية الكريهة!).

- (صحيح! أنها زهرة أقحوان.. وسنتركها على ما هي عليه).

قالت: (اتركها، ولتكن جواداً أسود* ولمرة واحدة). وأضافت ساخرة: (هذا إنْ كان أي شيء جواداً أسود بالنسبة إليك).

وقف أحدهما جنب الآخر، غافلَين. كان الاثنان دون حراك، لا يكاد أن يعيا، كأنهما مصعوقان قليلاً.. لقد مزقت المعركة الصغيرة التي نشبت بينهما وعيهما وتركتهما كقوتين غير شخصيتين، في تماس هناك.

أصبح واعياً بانقطاع الكلام بينهما. أراد أن يقول شيئاً ما كي يصل إلى مقام جديد أكثر اعتيادية.

قال: (أنت تعلمين بأن لدي غرفاً هنا في الطاحونة.، ألا ترين أن في إمكاننا قضاء بعض الأوقات اللطيفة؟).

فقالت متجاهلة جميع تلميحاته بالألفة المعترف بها: (أوه، هل حقاً لديك ذلك؟). كيّف نفسه فوراً، وغدا نائياً كالمعتاد.

واصل كلامه: (إذا وجدتُ أنني أستطيع العيش وحدي بما يكفي فسأتخلى عن عملي كلياً. فقد أمسى ميتاً بالنسبة إلي. أنا لا أؤمن بالبشرية التي أدّعي بأنني جزء منها، ولا أبالي قيد قشة بالمثل العليا التي أعيش ممتثلاً لها، أنني أكره الشكل العضوي المُحْتَضِر للإنسان الاجتماعي... ولهذا فإن العمل في التعليم ما هو إلا بهرج كاذب. سأتخلى عنه حالما أصفّي أموري بما فيه الكفاية - ربما غداً - وأغدو وحدي).

تساءلت «أرسيولا»: (وهل لديك ما يكفي لتعتاش به؟).

- (أجل.. لدي زهاء أربعمئة سنوياً. وهذا يجعل الأمر سهلاً بالنسبة إليّ). ثم حدث توقف.

سألت «أرسيولا»: (وماذا عن «هرمايني»؟).

- (ذلك الأمر انتهى، نهائياً.. عبارة عن فشلٍ بحت، وما كان ليكون أي شيء آخر قط).

* تعبير مجازي يعني شخصاً ذا قابلية مجهولة. (المترجم).

ـ (لكنكما لا تزالان يعرف أحدهما الآخر؟).
ـ (يشقّ علينا أن ندعي بأننا غريبان، أليس كذلك؟).
حدث توقف عنيد.
أخيراً تساءلت «أرسيولا»: (لكن أليس ذلك نصفَ إجراء؟).
قال: (لا أظن ذلك. وإذا كان الأمر كذلك ففي وسعك أن تعلميني).
تكرر التوقف بضع دقائق. كان يفكر.
قال: (على المرء أن يقذف بكل شيء، كل شيء.. أن يتخلى عن كل شيء ليحصل على الشيء الأخير الوحيد الذي يبتغيه).
فسألته في تحد: (أي شيء؟).
قال: (لا أعرف.. الحرية، بمجموعها).
كانت تريد منه أن يقول «الحب».
سُمع عواء كلاب عال صادر من الأسفل. وبدا أن ذلك أزعجه. أما هي فلم تلاحظ ذلك. لم تحسب إلا أنه كان بادي الانزعاج. قال بصوت ضئيل نوعاً ما: (اعتقد أن تلك هي «هرمايني» مقبلة، الآن بصحبة «جرالد كريتش». كانت تريد أن ترى الغرف قبل تأثيثها).
قال «أرسيولا»: (أعرف. ستشرف على التأثيث نيابة عنك).
ـ (ربما. هل يهم ذلك؟).
فقالت «أرسيولا»: (أوه، كلا. لا أظن ذلك. مع أنني شخصياً، لا أطيقها. أظن أنها عبارة عن كذبة إن شئت، أنت الذي تتحدث عن الأكاذيب على الدوام). ثم تأملت «أرسيولا» لحظة قبل أن تنفجر قائلة: (نعم أنا لا أحب على نحو مؤكد قيامها بتأثيث غرفك. لا أحب ذلك على نحو مؤكد. كما يكدّرني إبقاؤها متشبثة أصلاً).
صمت الآن، وعبس ثم قال:
ـ (ربما. أنا لا أريد منها أن تؤثث الغرف هنا.. كما أنني لا أستبقيها متشبثة. كل ما في الأمر، لا حاجة لأن أكون فظاً حيالها، أليس كذلك؟ على أية حال، عليّ أن أنزل وأقابلهما الآن. ستأتين، أليس كذلك؟).
فقالت ببرود وتردد: (لا أظن ذلك).
ـ (ألا تأتين؟ أرجو ذلك كل الرجاء. تعالي وشاهدي الغرف أيضاً. تعالي رجاءً).



الفصل الثاني عشر

فرش السجاد

مضى «بركن» نزولاً من الجرف، فصاحبته بلا رغبة. ومع ذلك، لم تكن في الوقت نفسه لتحجم عن مرافقته.

قال: (يعرف أحدنا الآخر، أنا وأنت، جيداً، الآن). فلم تجب.

كانت زوجة العامل في مطبخ الطاحونة الواسع المائل إلى العتمة تتحدث بصوت مجلجل إلى «هرمايني» و«جرالد» اللذين كانا واقفين، هو بلباس أبيض وهي بوشاح مزرق، لماع، يتألقان على نحو غريب في غبش الغرفة، في حين كان ثمة اثنا عشر طيراً أو أكثر من طيور الكناري تغرد بأعلى أصواتها في الأقفاص المثبتة على الجدران. كانت جميع الأقفاص موضوعة حول نافذة صغيرة، مربعة، في الخلف، حيث كانت أشعة الشمس تدخل على هيئة حزمة جميلة تترشح بين أوراق شجرة خضر. كان صوت السيدة «سالمون» يجلجل إزاء ضجة الطيور التي ظلت تزداد ضراوة وانتصاراً، وارتفع صوت المرأة أكثر فأكثر في المقابل، فأجابت الطيور بحيوية جامحة. صاح «جرالد» وسط الجلبة: (هوذا روبرت!). كان يعاني كثيراً بسبب شدة حساسية أذنه. لعلعت زوجة العامل في اشمئزاز: (آه ـ ه ـ ه من هذه الطيور. إنها لن تدعك تتكلم...! سوف أغطّيها). ثم مرقت هنا وهناك، وهي تقذف بمسّاحة ومئزر ومنشفة وغطاء مائدة فوق أقفاص الطيور.

قالت، بصوت ظل أعلى مما ينبغي له: (الآن، هلا أوقفتم هذه الضجة وسمحتم لإنسان بالكلام بدلاً من جلبتكم).

راقبها الجمع. وسرعان ما غطت الأقفاص التي أمسى منظرها جنائزياً غريباً. لكنّ أغاريدَ وبقبقات غريبةً، متحدية، واصلت ترديداتها من تحت المناشف. قالت السيدة «سالمون» مُطَمْئِنةً: (أوه، إنها لن تستمر. ستنام الآن).

قالت «هرمايني» بأدب: (حقاً؟). فقال «جرالد»: (أجل، ستنام تلقائياً، مادام لديها انطباع بحلول المساء).

فهتفت «أرسيولا»: (هل تُغَش بمثل هذه السهولة؟). أجاب «جرالد»: (نعم. ألا تعرفين قصة «فابر»* الذي وضع رأس دجاجة، وهو صبي، تحت جناحها، فنامت مباشرة؟ إنها قصة حقيقية فعلاً).

فتساءل «بركن»: (وهل جعله ذلك من علماء الطبيعة؟).

فقال «جرالد»: (جائز).

في أثناء ذلك كانت «أرسيولا» تسترق النظر من تحت إحدى قطع الأقمشة. كان الكناري قابعاً في زاوية، مكوَّراً، منتفشاً استعداداً للنوم. هتفت: (يا للسخافة! إنه فعلاً يظن أن الليل قد حل! ما أسخف ذلك! كيف يقدر أحد، في الواقع، أن يكنّ أي احترام لمخلوق ينخدع بهذه البساطة؟).

فأنشدت «هرمايني»: (نعم) وهي مقبلة للتفرج هي الأخرى. وضعت يدها على ذراع «أرسيولا» وندّت عنها قهقهة خافتة، ثم قالت مقوقية:

(نعم، ألا يبدو مضحكاً؟ إنه مثل بعلٍ بليد!).

ثم سحبت «أرسيولا» بعيداً، ويدها لا تزال على ذراع الأخرى، قائلة بترنيمتها الهادئة:

ـ (كيف جئت إلى هنا؟ لقد شاهدنا «غدرون» كذلك).

فقالت «أرسيولا»: (جئت لمشاهدة البركة. فوجدت السيد «بركن» هناك).

ـ (صحيح؟ هذه فعلاً أرض تابعة لآل «برانغوين»، أليس كذلك؟).

فقالت «أرسيولا»: (أخشى أنني كنت آمل ذلك. لقد عدوت إلى هنا أنشد ملاذاً، حين رأيتك عند البحيرة، شارعةً للتو في خلع ملابسك).

ـ (صحيح! والآن أنزلناكِ إلى الأرض).

إرتفع جفنا «هرمايني» بحركة غريبة، مستمتعَيْن لكنْ منهوكَيْن. لقد كانت لها دائماً نظرتها الغريبة، الذاهلة، نظرتها غير الطبيعية، غير المسؤولة. قالت «أرسيولا»:

---

* جان انري فابر (١٨٢٣ ـ ١٩١٥) عالم حشرات فرنسي. (المترجم).

(كنت مرتحلة. بيد أن السيد «بركن» أراد مني مشاهدة الغرف. أليس العيش هنا بهيجاً؟ إنها عيشة مكتملة).

ـ (أجل). قالتها «هرمايني» شاردة. ثم سارت مبتعدة عن «أرسيولا» تماماً، منكرة وجودها. ثم أنشدت بنبرة جديدة، ودود لـ«بركن»:

ـ (كيف تشعر يا «روبرت»؟).

أجاب: (جيد جداً).

ـ (هل كنت مرتاحاً تماماً؟).

وبدت على وجه «هرمايني» تلك النظرة الغريبة، الذاهلة، المشؤومة، واختضّ صدرها في حركة متشنجة، وبدت كشخص شبه مغمى عليه.

أجاب: (غاية الارتياح).

تلا ذلك صمت طويل، فيما كانت «هرمايني» تنظر إليه فترة طويلة من تحت جفونها الثقيلة المخدَّرة.

قالت أخيراً: (وهل تظن أنك ستسعد هنا؟).

ـ (أنا متأكد من ذلك).

قالت زوجة العامل: (من المؤكد أنني سأفعل أي شيء أقدر عليه من أجله، وسيفعل سيدي ذلك هو الآخر حتماً. ولهذا آمل أن يجد نفسه مرتاحاً هنا).

إلتفتت «هرمايني» ونظرت إليها ببطء.

ـ (شكراً جزيلاً)، قالت ذلك ثم استدارت عنها استدارة كاملة، ثانية. استعادت موقعها، ورفعت رأسها متوجهة إليه، ومتحدثة إليه دون غيره:

ـ (هل قِسْتَ الغرف؟).

قال: (كلا. كنت أرمم الزورق).

فقالت متمهلة، متزنة، هادئة:

ـ (هل ستقوم بذلك الآن؟).

فقال متوجهاً إلى الامرأة: (هل لديك شريط قياس، يا سيدة «سالمون»؟).

ـ (نعم يا سيدي. أظن أنني أستطيع أن أجد واحداً). قالت ذلك وضجت متجهة فوراً نحو سلة.

ـ (هذا هو الوحيد الذي أملك.. إنْ كان يفي بالغرض).

أخذته «هرمايني»، وإن كان قد قُدِّمَ إليه، وقالت:

ـ (شكراً جزيلاً. إنه وافٍ بالغرض على نحو بديع. شكراً جزيلاً). ثم استدارت نحو «بركن» قائلة بحركة صغيرة مرحة:

ـ (هل سنقوم بذلك الآن يا «روبرت»؟).

فقال ممتعضاً: (وماذا عن الآخرين؟ سيصيبهم الملل).

فاستدارت «هرمايني» نحو «أرسيولا» و«جرالد» على نحو مبهم قائلة:

(هل من مانع لديكما؟).

أجابا: (كلا، مطلقاً).

ـ (أية غرفة سنبدأ بها؟)، قالتها وهي تستدير نحو «بركن» ثانية، بالمرح نفسه، مادامت على وشك أن تقوم بعملٍ ما معه.

قال: (سنتولاها بالتتالي).

وقالت زوجة العامل، مرحةً هي الأخرى لأن لديها هي شيئاً ما تفعله:

ـ (هل أعدّ الشاي لكم أثناء عملكم ذاك؟).

ـ (هل ستفعلين ذلك؟).

قالتها «هرمايني» وهي تتحول إليها بحركة الألفة الغريبة تلك التي بدت وكأنها تحتضن الامرأة، وتكاد تسحبها إلى صدر «هرمايني»، مما ترك الآخرين واقفين في انعزال.

ـ (سيسعدني ذلك كثيراً. أين سنتناوله؟).

ـ (أين تحبون ذلك؟ هنا؟ أم في الخارج على العشب؟).

فأنشدت «هرمايني» سائلة الموجودين عموماً: (أين سنتناول الشاي؟). قال «بركن»: (على شاطئ البركة. وسنحمل نحن العدة معنا بمجرد أن تهيئيها لنا يا سيدة «سالمون»).

فقالت المرأة المسرورة: (حسن).

إنتقل الجمع إلى الغرفة الأمامية عبر الممر. كانت فارغة، لكنها نظيفة ومشمسة. كان ثمة شباك يشرف على الحديقة الأمامية المتشابكة.

قالت «هرمايني»: (هذه غرفة الطعام. سوف نقيسها بهذه الطريقة، يا روبرت... إمض أنت إلى هناك).

فقال «جرالد»: (ألا أستطيع أن أعمل ذلك نيابةً عنك؟) وهو يقبل ليتناول نهاية الشريط.

فهتفت «هرمايني» وهي تنحني نحو الأرض مع وشاحها المزرق اللامع: (كلا، أشكرك). كان من دواعي سرورها العظيم أن تفعل الأشياء مع «بركن» وتصدر أوامر العمل. وكان يطيعها خانعا. أما «أرسيولا» و«جرالد» فلبثا يتفرجان. كان من خصائص «هرمايني» أن يكون لها في أية لحظة أليفٌ حميم واحد، وأن تحيل سائر الحاضرين إلى متفرجين. وكان ذلك يرفعها إلى حالة من الانتصار.

عكفا على القياس والمناقشة في غرفة الطعام. وقررت «هرمايني» نوع الأغطية الأرضية اللازمة. كان الاعتراض عليها يثير فيها غضباً غريباً، متشنجاً. وكان «بركن» يسايرها دائماً، مؤقتاً.

بعد ذلك توجها عبر القاعة إلى الغرفة الأمامية الأخرى، التي كانت أصغر بقليل من الأولى.

قالت «هرمايني»: «(هذه هي غرفة المطالعة، يا «روبرت»، عندي بساط أريد أن تأخذه إلى هذا المكان. هل تسمح لي بإعطائك إياه؟ أرجوك... أريد أن أعطيك إياه).

فسألها غير متلطف: (ما شكله؟).

ـ (لم يسبق لك أن رأيته. إنه أحمر وردي، في الأغلب، ثم أزرق، أزرق متوسط، معدني، فأزرق غامق رقيق جداً. أظن أنك ستحبه. هل تظن ذلك؟).

أجاب: (يبدو أنه لطيف جداً. ما هو؟ شرقي؟ ذو وبر؟).

ـ (نعم. فارسي! مصنوع من وبر البعير، حريري الملمس. أظن أنه يسمى «برغاموس»... اثنا عشر قدماً في سبعة... أتظن أنه سيفي بالغرض؟).

فقال: (نعم، سوف يفي بالمرام. لكنْ لِمَ يتعين عليك أن تعطيني بساطاً غالياً؟ أستطيع أن أدبر أموري جيداً ببساطي القديم التركي الأكسفوردي).

ـ (لكن هل تسمح لي بإعطائك إياه؟ أرجوك).

ـ (كم كلفك؟).

فنظرت إليه، وقالت: (لا أتذكر. كان رخيصاً تماماً).

فنظر إليها بوجه جامد. وقال: (لا أريد أن آخذه، يا «هرمايني»).

ـ (أرجو أن تسمح لي بتخصيصه للغرف). قالت ذلك وأقبلت عليه ووضعت يدها على ذراعه خفيفةً، وهي تترجاه:

(لسوف أشعر بالكثير من الخيبة).

فكرر في عجز: (أنت تعلمين بأنني لا أريد أن تعطيني أشياء).

فقالت مكايدة: (لا أريد أن أعطيك أشياء. لكن هلا أخذت هذا؟).

ـ (حسن). قالها. مدحوراً، فانتصرت هي.

صعدا إلى الطابق الأعلى. كانت ثمة غرفتا نوم تتطابقان مع غرفتي الطابق الأسفل. كانت أحداهما نصف مؤثثة، وكان واضحاً أن «بركن» قد نام فيها. جالت «هرمايني» في أنحاء الغرفة باهتمام، مستوعبة كل تفصيل، كأنها كانت تستوعب شواهد حضوره في كل الأشياء الجامدة. تحسست الفراش، وتفحصت الأغطية.

قالت وهي تضغط على الوسادة: (أمتأكد أنك كنت مرتاحاً تماماً؟).

أجاب ببرود: (كل الارتياح).

ـ (وهل كنت مدفأً؟ ليس هناك لحاف وبر. إنني متأكدة من حاجتك إليه. يجب أن لا تثقل في اللبس كثيراً).

قال: (عندي واحد. أنه في الطريق).

قاسا الغرفتين، وتمهلا عند كل اعتبار. أما «أرسيولا» فقد وقفت عند النافذة وراقبت الامرأة وهي تحمل الشاي مرتقية الجرف إلى البركة. لقد كرهت الضجة التي افتعلتها «هرمايني» وهي الآن تريد أن تشرب الشاي. تريد أي شيء عدا هذا الضجيج وتلك المشغلة.

أخيراً ارتقى الجميع الجرف العشيب، إلى موقع النزهة. صبت «هرمايني» الشاي. وكانت أثناء تلك الفترة قد تجاهلت وجود «أرسيولا». أما هذه فقد استدارت صوب «جرالد» بعد أن أفاقت من مزاجها العكر، قائلة:

ـ (أوه، لكم كرهتك في ذلك اليوم، يا سيد «كريتش»).

فقال «جرالد» مرتداً قليلاً: (لِمَ ذلك؟).

ـ (لمعاملة فرسك تلك المعاملة السيئة. أوه. لشد ما كرهتك!).

فأنشدت «هرمايني»: (ماذا فعل؟).

ـ (جعل فرسه العربية اللطيفة، الحساسة، تقف معه عند معبر القطار أثناء مرور مجموعة فظيعة من العربات، فجنت المسكينة تماماً، وعانت عذاباً شاملاً. كان أفظع مشهد يمكنك تصوره).

تساءلت «هرمايني» هادئة، مستفهمة: (لِمَ فعلتها، يا «جرالد»؟).

ـ (يجب أن تتعلم التحمل.. ما فائدتها لي في هذا الصقع إذا كانت تنفر وتشرد كلما صفرت ماكنة؟).

قالت «أرسيولا»: (لكن لِمَ تُلْحِق بها تعذيباً لالزوم له؟ لِمَ توقفها عند المعبر طيلة ذلك الوقت؟ كان من السهل عليك أن ترجع بها في الطريق، وتتّقي كل تلك الفظاعة. كان جنباها ينزفان حيث نَخَسْتَها. كان ذلك في غاية الفظاعة..!).

تصلب سيماء «جرالد» وأجاب:

ـ (عليَّ أن أستخدمها. وإذا كنت مزمعاً الوثوق بها، أصلاً، عليها أن تتعلم الصبر على الضجيج).

فصرخت «أرسيولا» في انفعال محتدم: (لِمَ يتعين عليها ذلك؟ إنها كائنة حيّة. لماذا يجب عليها أن تتحمل أي شيء، لمجرد أنك تود أن تقسرها على ذلك؟ إن لها قدراً من الحق في كينونتها الذاتية، يساوي حقك).

فقال «جرالد»: (في هذه النقطة، أنا غير موافق. إني أعتبر أن تلك الفرس موجودة كي أستخدمها. ليس لأنني قد اشتريتها، بل لأن ذلك هو النظام الطبيعي. إنه لمن الطبيعي بصورة أشد أن يأخذ رجل حصاناً ويستخدمه كما يحب بدل أن يركع له متوسلاً به أن يفعل ما يشاء ويحقق طبيعته الخاصة المدهشة).

كانت «أرسيولا» على وشك أن تنفجر حين رفعت «هرمايني» رأسها وبدأت إنشادها المتأمل:

ـ (أظن فعلاً.. أظن في الواقع أنه يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنسخر الحياة البهيمية الدنيا لاحتياجاتنا. أظن، متأكدة، أن ثمة خطأً حين ننظر إلى كل كائن حي وكأنه أنفسنا. أشعر فعلاً بأن من الغلط أن نسقط أحاسيسنا على كل كائن حي. إنه قصور في التمييز، قصور في النقد).

فقال «بركن» بلهجة قاطعة: (تماماً. ليس ثمة ما هو أدعى إلى الاشمئزاز من حماقة إلحاق الأحاسيس البشرية والوعي الإنساني بالحيوان).

وقالت «هرمايني» بتعب: (نعم. لا بد لنا أن نتخذ موقفاً. إما أن نسخر الحيوان أو يسخرنا).

وقال «جرالد»: (تلك حقيقة. للحصان إرادة مثل الإنسان، وإن لم يكن له عقل، تماماً. فإن لم تسد إرادتك، ساد الحصان عليك. هذا شيء لا مناص منه. لا مناص لي من أكون سيد الحصان).

قالت «هرمايني»: (أتمنى فقط لو استطعنا أن نتعلم كيف نسخر إرادتنا، إذاً لاستطعنا أن نفعل أي شيء. فالإرادة تشفي أي شيء، وتصحح أي شيء. هذه هي قناعتي.. أتمنى فقط لو استخدمنا الإرادة على نحو صائب، ذكي).

فقال «بركن»: (ماذا تعنين باستخدام الإرادة على نحو صائب؟).

فقالت موجهة كلامها إلى «أرسيولا» و«جرالد» على نحو مبهم:

ـ (علّمني طبيب عظيم جداً. أخبرني، مثلاً، أنه بغية الشفاء من عادة سيئة، على المرء أن يقسر نفسه على ممارستها، حين لا يريد أن يمارسها.. يجبر نفسه على ذلك.. وعند ذاك تزول العادة).

فقال «جرالد»: (ماذا تعنين؟).

ـ (إن كنت تقضم أظافرك، مثلاً، عند ذاك، حين لا تريد أن تقضم أظافرك، اقضمها، أجبر نفسك على ذلك، تجد أن العادة قد قضي عليها).

فقال «جرالد»: (هل الأمر كذلك؟).

ـ (أجل، وفي أشياء ما أكثرها! لقد عالجت نفسي وشفيت. كنت فتاة عصبية، غريبة جداً. وبتعلمي استخدام إرادتي، بمجرد استخدام إرادتي، صححت نفسي).

كانت «أرسيولا» تنظر إلى «هرمايني» طيلة الوقت، تتحدث بصوتها المتمهل، الهادئ، وإن كان متوتراً على نحو غريب. سرت في الامرأة الأصغر سناً رعشة غريبة. كان في «هرمايني» نوع من القوة الغريبة، المعتمة، المتشنجة، قوة فاتنة ومنفرة.

هتف «بركن» بخشونة: (من الشؤم تسخير الإرادة على هذا النحو.. مثير للاشمئزاز. مثل هذه الإرادة فحش).

نظرت «هرمايني» إليه طويلاً بعينيها المظلّلمتين، المتثاقلتين. كان وجهها ناعماً، شاحباً، نحيلاً، يكاد يومض. أما فكها فكان ضعيفاً.

قالت بعد لأي: (إني متأكدة أنها ليست كذلك). كانت هناك دائماً فاصلة على ما يبدو، فاصلة غريبة بين ما كانت تحسه وتكابده في الظاهر وما كانت تقوله وتفكر به عقلياً. كانت تمسك بأفكارها، على ما يبدو، على مبعدة من سطح زوبعة هوجاء قوامها عواطف وردود أفعال سود مشوشة، وكان «بركن» على الدوام ممتلئاً نفوراً. كانت تمسك بها دون أن تخطئ، وما كانت إرادتها لتخونها أبداً. كان صوتها رزيناً، مشدوداً واثقاً كل الثقة، على الدوام. ومع هذا كان يهزها شعور من الغثيان، بشكل من أشكال دوار البحر، كان يهدد بقهر عقلها دائماً. لكن عقلها ظل متماسكاً وإرادتها كاملة. وهذا ما كاد أن يجنن «بركن». ولكنه ما كان ليتجرأ قط أن يقهر إرادتها ويطلق زوبعة عقلها الباطن من أسارها ويراها في أوج جنونها. ومع هذا كان دائم الطَرْقِ عليها.

قال لـ«جرالد»: (طبيعي، ليس عند الجياد إرادة كاملة، مثل الكائنات البشرية. فالحصان ليست لديه إرادة واحدة، فلكل حصان إرادتان. فهو يريد بأحدى الإرادتين أن يضع نفسه تحت سلطة الإنسان كلياً.. وبالأخرى يريد أن يكون حراً طليقاً. وفي بعض الأحايين تتشابك الإرادتان.. أنت تعرف ذلك، إنْ صادف أن شعرتَ بالجواد يجمح وأنت تسوسه).

قال «جرالد»: (لقد شعرت بالجواد يجمح وأنا أسوسه. لكن ذلك لم يجعلني أعرف أن له إرادتين. كل ما عرفته أنه كان خائفاً).

كانت «هرمايني» قد توقفت عن الاستماع. فقد سهت، بكل بساطة، حين أثيرت تلك الموضوعات.

تساءلت «أرسيولا»: (لِمَ يريد الحصان أن يضع نفسه تحت سلطة الإنسان؟ ذلك عصيٌّ على فهمي تماماً. لا أعتقد أنه أراد ذلك قط).

فقال «بركن»: (نعم، أراد. إنه وازع الحب الأخير، وربما الأسمى: أنْ تخضع إرادتك إلى الكائن الأرقى).

فسخرت «أرسيولا»: قائلة: (ما أغرب أفكارك عن الحب).

- (والمرأة مثل الجياد. فثمة إرادتان تتعارضان داخلها. فهي بإحدى الإرادتين تبغي إخضاع نفسها كلياً، وبالأخرى تريد أن تجمح وتقذف براكبها إلى الهلاك).

فقالت «أرسيولا» وقد انفجرت ضاحكة: (أنا جموح، إذاً).

فقال «بركن»: (من الخطر تدجين حتى الجياد، ناهيك عن النساء. فالمبدأ الرئيس له بعض العوامل المضادة النادرة).

فقالت «أرسيولا»: (شيء جيد، هو الآخر).

فقال «جرالد» بابتسامة خفيفة: (تماماً. هناك المزيد من المتعة).

لم تعد «هرمايني» تصبر على المزيد. فنهضت قائلة بترنيمها اليسير:

- (أليس المساء جميلاً! أحياناً أجدني قد امتلأت بإحساس بالجمال عظيم إلى درجة أشعر أنني لا أكاد أتحمله).

نهضت «أرسيولا»، التي كان النداء موجها إليها، بصحبتها، وقد تأثرت في أعمق الأعماق اللاشخصية. وبدا «بركن» لها وكأنه وحش قوامه الاستكبار الكريه. مضت مع «هرمايني» على امتداد جرف البركة، وهما تتحدثان عن أشياء جميلة، مهدِّئة، وتقطفان زهور الحقل العطرية اللطيفة.

قالت «أرسيولا» لـ«هرمايني»: (ألا تحبين ثوباً بمثل هذا الصفار منقطاً باللون البرتقالي.. ثوباً قطنياً؟).

فقالت «هرمايني»: (بلى)، وقفت تنظر إلى الزهرة، مفسحة المجال للفكرة لكي تتشرب فيها وتهدئها، وأردفت: (ألن يكون جميلاً؟ لابد أنني سأحبه).

ثم التفتت نحو «أرسيولا» مبتسمة، في شعور بالود الحقيقي.

بيد أن «جرالد» بقي مع «بركن»، يريد أن يسبر غوره حتى الأعماق، كي يعرف ماذا قصد بالإرادة المزدوجة في الجياد. وتراقصت ومضةُ حماسةٍ على وجه «جرالد».

جالت «هرمايني» و«أرسيولا» معاً، متَّحدتين بآصرة مفاجئة من الود العميق والقرب.

قالت «هرمايني» بعد أن توقفت أمام «أرسيولا»، والتفتتْ نحوها بقبضتين مطبقتين موجهتين نحو الأسفل: (في الواقع أنا لا أريد أن أقْسَر على الخوض في كل هذا النقد والتحليل للحياة. أريد فعلاً أن أرى الأشياء بكليتها، بجمالها غير المنقوص، بكاملها بقدسيتها الطبيعية. ألا تحسين بذلك؟ ألا تشعرين بأنك لا تستطيعين تحمّل عذاب انتهاك المزيد من المعرفة؟).

فقالت «أرسيولا»: (نعم، هو كذلك. يسقمني كل هذا النبش والتنقيب).

فقالت «هرمايني»، متوقفة ثانية في سيرها وملتفتة إلى «أرسيولا»:

(يسرني أنك كذلك. أتساءل أحياناً ما إذا كان يجب عليّ أن أستسلم لكل هذا الإدراك، وما إذا لم أكن ضعيفة في رفضه. لكنني أشعر بأنني لا أستطيع ذلك.. لا أستطيع. إذ يبدو أنه يهدم كل شيء، كل الجمال، و.. والقدسية الحقة تتهدم.. وأشعر بأنني لا أستطيع العيش بدونها).

هتفت «أرسيولا»: (وسيكون من الخطأ العيش بدونها بكل بساطة. كلا، إن التفكير بأن كل شيء يجب أن يتحقق في الرأس إنما هو أمر لا يتسم بالتوقير تماماً. في الواقع، لابد من ترك شيء ما للرب، ذلك موجود دائماً وسيظل موجوداً دائماً).

فقالت «هرمايني» وقد أطمأنت كالطفل: (أجل، لابد من ذلك، أليس كذلك؟ أما «روبرت»..) ورفعت وجهها إلى السماء في تأمل (فإنه قادر على تمزيق الأشياء إرباً، لا غير.. إنه فعلاً كالولد الذي لا بد من أن يفكك الأشياء قطعاً قطعاً، ليرى كيف صنعت. ولا أظن أن ذلك صحيح.. إنه يبدو أمراً لا يتسم بالتوقير تماماً، كما تقولين).

فقالت «أرسيولا»: (مثل تمزيق برعم وفتحه لرؤية ما ستكون الزهرة عليه).

- (أجل، وهذا سيقتل كل شيء، أليس كذلك؟ إذ لن تبق أية إمكانية للتزهير).

فقالت «أرسيولا»: (من الطبيعي لا. إنه تدميريٌ صرف).

- (فعلاً، أليس كذلك؟).

نظرت «هرمايني» إلى «أرسيولا» نظرة مديدة ومتمهلة، وهي تبدو موافقة على التأييد من لدنها. ثم سكتت الامرأتان. وما إن اتفقتا، حتى شرعت إحداهما بالارتياب من الأخرى. لقد شعرت «أرسيولا» بأنها، وعلى الرغم منها، أخذت ترتد عن «هرمايني» وكان ذلك كل ما استطاعت أن تفعله لكبح جماح نفورها.

عادتا إلى الرجلين، كمتآمرتين اختلتا للوصول إلى اتفاق. نظر «بركن» إليهما، فكرهته «أرسيولا» لترصّده البارد. لكنه لم يقل شيئاً.

قالت «هرمايني»: (هل سنرحل؟ يا «روبرت»، أنت قادم إلى «شورتدلاندز» للعشاء؟ هل ستأتي فوراً، هل ستأتي الآن، معنا؟).

أجاب «بركن»: (لست مرتدياً ما يليق. وأنت تعرفين كيف يماحك «جرالد» بشأن التقاليد).

فقال «جرالد»: (لست مماحكاً بشأن ذلك لكن لو كنت قد نفرت، مثلي، من غياب الهندام، ومن الظهور وفق المزاج في البيت، لفضّلت أن يكون الناس هادئين، تقليديين، في المآدب في الأقل).

فقال «بركن»: (حسن).

لكن «هرمايني» أصرت: (لكن، ألا نستطيع إنتظارك حتى تلبس؟).

- (إن شئتم).

نهض ليدخل. وقالت «أرسيولا» أنها تستأذن. ثم التفتت إلى «جرالد» وقالت: (فقط يجب عليّ أن أقول إنه مهما ساد الإنسان على الحيوان والطير، فلا زلت أعتقد أنه لا يملك أي حق في انتهاك مشاعر المخلوقات الأدنى. ولا أزال أعتقد بأنه كان من الألطف والأرشد بكثير من جانبك لو كنت قد خببتَ بفرسك راجعاً في الطريق فيما مرّ القطار، ولكنتَ مراعياً للمشاعر).

فقال «جرالد» مبتسماً، لكنْ مع شيء من الانزعاج: (مفهوم. لابد أن أتذكر ذلك في مرة قادمة).

حدّثت «أرسيولا» نفسها وهي تخرج: (كلهم يظنون أنني أنثى فضولية). لكنها كانت ضدهم ثائرة.

أسرعت إلى البيت مستغرقة التفكير. لقد أثّرت فيها «هرمايني»، ولقد غدت على تماس فعلي بها، بحيث تحقق نوع من الارتباط بين الأمرأتين. ومع ذلك لم تكن لتطيقها. لكنها نحّت الفكرة جانباً، وقالت لنفسها: (أنها طيبة في الحقيقة. إنها تسعى للصواب فعلاً)، وحاولت أن تحس بأنها على وفاق مع «هرمايني»، وأن تنعزل عن «بركن»، الذي شعرت بالعداء إزاءه، تماماً. لكنها كانت مقيدة به بآصرة ما، بمبدأ ما، عميق، وهذا سرعان ما أسخطها وأنقذها.

ومع ذلك، فإن رعدات صغيرة عنيفة كانت تنتابها بين الحين والآخر، تأتيها من عقلها الباطن، وكانت تعرف حقيقة كونها قد أبانت تحديها لـ«بركن» وأنه قد قبل التحدي واعياً أم غير واع. كان قتالاً بينهما حتى الموت.. أو حتى حياة جديدة، وإن لم يستطع أحد أن يقول علام الصراع.

الفصل الثالث عشر

«مينو»

مـرت الأيام، ولم تـتلق «أرسـيـولا» أية إشـارة. هل كـان سـينكرها؟ هل كـان سيتجاهل سرها بعد الآن؟ استقر في ذاتها عبء كئيب من القلق والمرارة الشديدة. ومع هذا، كانت تعرف أنها توهم نفسها حسب، وأنه كان حتماً سيتقدم بالمبادرة. لم تقل أي شيء، لأي كان.

ثم تأكـد الأمـر، إذ وردت رسـالـة منه يدعـوها فـيـهـا لتناول الشـاي في مـسكنه بالمدينة، مستصحبة «غدرون».

سألت نفسـها على الفور: (لِمَ يدعو «غـدرون» كذلك؟ هل يبغي حماية نفسه، أم أنه يظن بأنني لن أذهب وحدي؟).

لقد عذبها الظن بأنه أراد أن يحمي نفسه. ولكنها، في خاتمة المطاف، اكتفت بأن قـالت لنفسـهـا: (لا أريد أن تكون «غـدرون» هناك، لأنني أريـد منه أن يقول المزيد لي. وعليـه، لن أحدّث «غـدرون» عـن أي شيء حول الموضـوع، وسأذهب وحـدي، عند ذاك سوف أعرف).

وجدت نفسـهـا جالسـة في عربة (التـرام) وهي ترتقي التل، خروجا من المدينة، إلى المكان الذي يقع فيـه نزله. بدت وكـأنها تلج ما يشـبـه عـالم الأحلام، في حلٍّ من ظروف الواقع. راقبت شوارع المدينة القذرة تمر من تحـتـهـا، كـأنهـا روح انفصـمت صلتـهـا بالكون المادي. ما علاقة كل ذلك بها؟ كانت ترتجف، غير ذات قوام، ضمن دفق حياة الأشباح. لم تعـد تسـتـطـيع أن تتدبر ما يقوله عنها، أو يظنه فيـها، أيٌّ كان. لقد تجاوز مداها الناس، وكانت في حِلٍّ منهم. لقد سقطت غـريبةً، غـامضة، خارج غلاف الحياة المادية، كما تسقط ثمرة العلّيق من العالم الوحيد الذي كانت تعرفه، سقوطاً من الغلاف إلى المجهول الفعلي.

كان «بركن» واقفاً في وسط الغرفة، حين اصطحبتها صاحبة النزل إلى الداخل. كان هو الآخر قد حُرِّكَ إلى خارج ذاته. لقد رأته قلقا، مهزوزاً. كان جسماً رقيقاً، واهناً، صامتاً كعقدة مركزية لقوة شديدة خرجت منه، فهزّتها حتى كادت أن يغمى عليها.

قال: (أنتِ وحدك؟).

- (أجل.. لم تستطع «غدرون» القدوم).

خمنَّ السبب فوراً.

وجلس كلاهما صامتين، في جو الغرفة المتوتر، الفظيع. كانت تدرك أنها كانت غرفة بهيجة، مليئة بالضوء، ذات شكل مريح جداً.. وشاعرة كذلك بوجود شجيرة «فوشية» تتدلى منها أزهار قرمزية وأرجوانية.

تكلمت، لتكسر طوق الصمت، قائلة: (ما الطف شجيرات «الفوشية»!).

- (أليست كذلك! هل تصورتِ أنني قد نسيتُ ما قلتُ؟).

غشي خدارٌ عقلَ «أرسيولا».

جاهدت لتتكلم من خلال الضبابة المعتمة التي ظللتها.

- (لا أريدك أن تتذكره.. إنْ لم تَرِدْ ذلك).

كان ثمة سكوت لبضع لحظات.

قال: (كلا. ليس الأمر كذلك. فقط إذا كنا مقبلين على تعرف أحدنا الآخر، فلا بد أن نتعاهد إلى الأبد. إذا كنا مقبلين على إقامة علاقة، حتى لو كانت علاقة صداقة، فيجب أن يكون ثمة شيء ما نهائي لا يُنْقَض بشأنها).

كانت في صوته رنة ارتياب، وما يكاد أن يكون غضباً. لم تجب. لقد انكمش قلبها جداً، فلم تستطع الإجابة.

حين رأى أنها لن تجيب، واصل كلامه بما يشبه المرارة، فاضحاً نفسه:

- (لا أستطيع القول بأنه حب، هذا الذي أعرضه.. وليس حباً هذا الذي أبغي. إنه شيء أكثر صعوبة ولا شخصية بدرجة أكبر.. وهو أندر).

ران صمت، قالت بعده:

- (تعني أنك لا تحبني)، قالت ذلك وهي تعاني حنقاً.

ـ (أجل، إنْ شئتِ التعبير بهذه الصورة. وإنْ كان من المحتمل أن لا يكون ذلك صحيحاً. لا أعرف. على كل حال، أنا لا أشعر بعاطفة الحب نحوك.. كلا، ولا أريد ذلك. إذ أنه زائل في خاتمة المطاف).

تساءلت، وهي تشعر بالخدر حتى الشفتين: (الحب زائل في خاتمة المطاف؟).

ـ (نعم، هو كذلك في آخر المطاف تماماً، يكون المرء وحيداً، خارج تأثير الحب. توجد (أنا) غير شخصية حقيقية، تتجاوز الحب، تتجاوز أية علاقة عاطفية. كذلك الأمر معك. لكننا نريد أن نوهم أنفسنا أن الحب هو الجذر. ليس الأمر كذلك. إنه الفروع فقط، فالجذر يتجاوز الحب، إنه نوع من الانعزال العاري، (أنا) منعزلة، لا تُلاقي ولا تختلط، ولن تستطيع ذلك أبداً).

راقبته بعينين واسعتين، مضطربتين. كان وجهه متألقاً بجديته المتجردة. سألت فَزِعَة: (وتعني أنك غير قادر على الحب؟).

ـ (أجل، إن شئتِ. لقد أحببتُ. لكن هناك مدى أبعد، حيث لا يوجد الحب).

لم تستطيع أن تستسلم أمام هذا. وشعرت بالأمر يسبِّب فيها خداراً. ومع ذلك لم تستطع أن تستسلم أمامه.

سألت: (لكن كيف تعلم.. إنْ لم تكن قد أحببتَ حقاً، قط؟).

ـ (ما أقول هو الحق. هناك مدى أبعد، فيَّ وفيكِ، يتجاوز الحب، يتجاوز الحد، شأنه شأن الكواكب التي تتجاوز مدى الرؤية، شأن بعضها).

صرخت «أرسيولا»: (إذاً، لا حب هناك).

ـ (في النهاية، لا، هناك شيء آخر. لكن، في النهاية. لا يوجد حب).

ركزت «أرسيولا» على هذا القول بضع لحظات. ثم هبّت نصف ناهضة من كرسيها، قائلة بصوت نهائي، رافض:

ـ (إذاً، دعني أذهب إلى البيت.. ماذا أنا فاعلة هنا؟).

فقال: (ذلك هو الباب. أنت حرة في ما تفعلين).

توقف عند لحظة الشدة هذه على نحو رائع وكامل. أما هي فقد تسمرّت دون حراك، بضع ثوان، ثم قعدت ثانية.

هتفت بما يشبه الاستهزاء: (إن لم يكن هناك حب، فما الذي هناك؟).

قال وهو ينظر إليها متصارعاً مع روحه بكل قوته: (شيء ما).

ـ (ماذا؟).

صمت مدة طويلة، غير مستطيع أن يتواصل وإياها وهي في تلك الحال من المعارضة. قال بصوت ينم عن تجرد محض: (هناك (أناي) النهائية، التي هي مطلقة، غير شخصية، تتجاوز المسؤولية. وهكذا، لديك (أنت) نهائية. وهناك أريد أن ألقاك.. ليس على المستوى العاطفي، الغرامي.. بل ما وراء ذلك، حيث لا كلام، ولا شروط اتفاق. هناك، حيث نكون كائنين مطلقين، مجهولين، مخلوقين غريبين كلياً. ولسوف أود أن أقترب منك، وأنت مني. ولن يكون ثمة التزام، لأنه لا وجود لمعيار سلوك هناك، ولأنه لم يتم التوصل إلى أي تفاهم من ذلك المستوى. إنه غير بشري كلياً.. ولذلك لا يمكن أن يكون هناك حساب، بأي شكل كان.. لأن المرء يكون خارج حظيرة كل ما هو مقبول، ولا ينطبق أي شيء معروف. فالمرء يكتفي باتباع الوازع، متقبِّلاً ما هو مطروح أمامه، غير مسؤول عن أي شيء، ولا يُسْأل عن أي شيء، ولا يعطي أي شيء، بل يأخذ كلٌّ على وفق الرغبة البدائية).

أنصتت «أرسيولا» لهذا الخطاب، وعقلها خدرٌ يكاد يخلو من الشعور. فما قاله كان جد مفاجئ، جد معاكس.

قالت: (إنه مجرد أنانية خالصة).

ـ (نعم، إنْ كان خالصاً. لكنه ليس أنانياً قطعاً. ذلك أني لا أعلم ما أريد منك. فبإقبالي عليك، أسلِّم نفسي للمجهول، دون تحفظات أو دفاعات، متجرداً كلياً، نحو داخل المجهول. هناك، فقط، الحاجة إلى العهد بيننا، بأننا سنتخلى كلانا عن كل شيء، نتخلى حتى عن نفسينا، ونتوقف عن الكينونة، كي يحدث فينا ما هو مجرد ذاتينا).

فكّرتْ ملياً على وفق نهج التفكير الخاص بها.

ثم قالت بإصرار: (ولكنك تريدني، لأنك تحبني؟).

ـ (كلا، ليس كذلك. بل لأني أؤمن بك... هذا إذا كنتُ مؤمناً بك حقاً).

ضحكت، متألمة على حين غرة: (ألست متأكداً؟).

كان ينظر إليها بثبات، وهو يكاد لا يعي ما قالت.

أجاب: (بلى، يجب أن أؤمن بك، وإلا لما كنتُ هنا أقول هذا الكلام. لكن ذلك هو كل ما أملك من برهان. إنني لا أشعر بأي أيمان عميق في هذه اللحظة بالذات).

كرهته لهذا الارتداد المفاجئ نحو السأم واللا إيمان. ثم قالت بإصرار، وبصوت هازئ.

(لكن، ألا تظن أنني وسيمة؟).

نظر إليها ليرى إن كان يشعر بأنها وسيمة.

ثم قال: (لا أشعر بأنك وسيمة).

فقالت في استهزاء لاسع: (ولا حتى جذابة؟).

فعقد حاجبيه في حنق مفاجئ. ثم هتف قائلاً:

ـ (ألا ترين أن القضية ليست قضية تقدير بصري البتة. أنا لا أريد أن أنظر إليك. لقد رأيت الكثير من النساء. لقد سئمت وسقمت من مشاهدتهن. أريد امرأة لا أراها).

ضحكت: (آسفة لعدم استطاعتي أن أمنَّ عليك بالغياب عن البصر).

فقال: (نعم، أنك غير مرئية بالنسبة إلي، إن لم تقسريني على أن أكون واعياً بك بصرياً. لكنني لا أريد أن أراك أو أسمعك).

سخرت: (لِمَ دعوتني للشاي، إذاً؟).

لكنه لم يأبه بها. كان يتحدث إلى نفسه.

ـ (أريد أن أجدك حيث لا تعرفين وجودك أنت، الـ(أنتِ) التي تنكرها نفسك العادية كلياً. بيد أنني لا أريد حسن منظرك، ولا أريد مشاعرك الأنثوية، ولا أريد أفكارك ولا آراءك ولا خواطرك.. كلها توافه بالنسبة إليّ).

استهزأت: (أنت مغرور جداً، يا، «مسيو»*. كيف تعرف ما هي مشاعري الأنثوية، أو أفكاري أو خواطري؟ أنت لا تعرف حتى رأيي فيك الآن).

ـ (ولا يهمني ذلك نهائياً).

ـ (أظن أنك سخيف جداً. أظن أنك تريد أن تخبرني بأنك تحبني، فتدور وتدور لكي تفعل ذلك).

فقال، رافعاً وجهه بسخط فجائي: (حسن، اغربي عني، إذاً واتركيني وحدي. لا أريد المزيد من سخريتك المبهرجة).

* استخدمت «أرسيولا» لقب المخاطبة الفرنسي «مسيو» على ما يبدو، لأن كلمة «توافه» التي استخدمها «بركن» فرنسية الأصل. (المترجم).

فاستخفت قائلة: (هل هي سخرية حقاً؟)، واسترخى وجهها فعلاً إلى ضحك، لقد فسرّته على أنه اعتراف صميمي منه بحبها لكن ما كان أسخفه في كلماته، كذلك.

سكتا دقائق عدة. كانت مسرورة، جذلة كطفل. ثم تحطم تركيزه، وطفق ينظر إليها نظرة بسيطة وطبيعية.

قال بهدوء: (ما أريد هو ارتباط غريب بك. ليس لقاءً واختلاطاً: أنت على صواب تماماً.. بل توازناً، توازناً خالصاً بين كائنين منفردين.. كما توازن النجوم بعضها بعضاً).

نظرت إليه. كان مخلصاً جداً، والإخلاص كان دائماً بالنسبة إليها أقرب إلى السخف والتفاهة. كان يجعلها تشعر بأنها ليست طليقة ولا مرتاحة. نعم كانت تودّه كثيراً. لكن لِمَ استحضار الكواكب؟

سخرت قائلة: (أليس هذا مفاجئاً، نوعاً ما؟).

فشرع يضحك، وقال:

- (من الأحسن قراءة شروط المقاولة، قبل التوقيع عليها).

وثب قط رمادي فتي كان نائماً على الأريكة، نازلاً، وتمطّى، مرتفعاً على أطرافه الطويلة، مقوساً ظهره النحيل. ثم جلس يفكر لحظة، منتصباً، ملكياً. ثم مرق كالسهم، مندفعاً إلى خارج الغرفة عبر أحد أبواب النافذة الكبيرة المفتوحة متجهاً إلى الحديقة.

نهض «بركن» قائلاً: (ما الذي يسعى إليه؟).

مضى القط الفتي، متعالياً، خبباً في الممر، وهو يهز ذيله. كان قطاً عادياً أرقط، ذا مخالب بيض، سيداً مهذباً رشيقاً. كانت ثمة قطة قابعة، مزغبة، لونها رمادي يضرب إلى البني، أخذت تتسلل متقدمة بحذاء السياج.

أقبل عليها الهر «مينو» متبختراً، برصانة الفحول. جثمت قبالته وألصقت جسمها بالأرض في مذلة، قطةً ناعمةً، مزغبةً، منبوذةً، تطالعه بعينين متوحشتين، خضراوين، لطيفتين، كأنهما جوهرتان كبيرتان. نظر إليها عرضياً من علٍ. ولذلك زحفت بعيداً مسافة بضع بوصات، متجهة في طريقها إلى الباب الخلفية، وهي تربض على نحو مدهش، ناعم، ناكر للذات، ومتحركة كالطيف.

أما الهر فمضى بجلال على أطرافه النحيلة يتعقبها، ثم فاجأها، لمجرد المغالاة،

بلطمة خفيفة من مخلبه على جانب وجهها. أسرعت مدبرة بضع خطوات، كورقة في مهب الريح، على الأرض، ثم جثمت متواضعة، في صبر متوحش، صاغر. تظاهر «مينو» بأنه غير مبال بها. رمش عينيه متعالياً نحو منظر البرية. وفي خلال دقيقة استجمعت نفسها وتحركت بنعومة، كطيف وبري، رمادي ـ بنّي، بضع خطوات إلى أمام. ثم شرعت تسرع الخطى. كانت، في غضون لحظة، ستكون قد ولّت، كحلم، عندما وثب صاحب المقام الرفيع الفتيُّ الرمادي قبالتها، وناولها لطمة خفيفة، طريفة. وفي الحال اذعنت في خضوع.

قال «بركن»: (أنها قطة برية. لقد جاءت من الغابات).

ومضت عينا القطة الضالة تنظران في ما حولها برهةً قصيرة، كشعلتين خضراوين كبيرتين، تحملقان في «بركن». ثم انطلقت انطلاقة سريعة، ناعمة، إلى منتصف مسافة الحديقة. ثم توقفت لتنظر إلى ما حولها. أدار «مينو» وجهه نحو سيده في تعالٍ محض، وأغمض عينيه ببطء، منتصباً في كمال، تمثاليٍّ، يافع. كانت عينا القطة البرية المستديرتان، الخضراوان، المتسائلتان، تحملقان طيلة الوقت كشعلتين خارقتين، ثم تسللت ثانية نحو المطبخ كالطيف.

وبوثبة لطيفة منطلقة، كالريح، وثب «مينو» عليها، مسدداً لها لكمتين، في تصويب مباشر جداً، بمخلب أبيض رقيق. فانحنت وانسلت إلى الخلف، دون سؤال. فسار متعقباً إياها، ولطمها مرة أو مرتين، على مهل، بضربات صغيرة مفاجئة من مخالبه البيض السحرية.

صاحت «أرسيولا» في غضب: (والآن، لِمَ يفعل ذلك؟).

فقال «بركن»: (تجمعهما علاقة حميمة).

ـ (لهذا يضربها؟).

ضحك «بركن»: (نعم، أظن أنه يريد أن يجعل الأمور واضحة جداً بالنسبة إليها).

صاحت: (أليس ذلك فظيعاً، منه!). ثم خرجت إلى الحديقة ونادت على «مينو»: (توقف. لا تتنمر. توقف عن ضربها).

أختفت القطة الضالة كطيف سريع، غير مرئي. نظر «مينو» إلى «أرسيولا»، ثم منها إلى سيده، مستنكفاً.

سأل «بركن»: (هل أنت متنمر، يا «مينو»؟).

نظر القط الفتي النحيل إليه، وضيّق عينيه ببطء. ثم حوّل نظره نحو المنظر الطبيعي في الخارج، يتملى المسافات، كما لو كان غافلاً عن الكائنين البشريين، كلياً.

قالت: «أرسيولا»: (لا أحبك، يا «مينو». أنت متنمر ككل الذكور).

فقال «بركن»: (كلا، إن له مبرراته. إنه ليس متنمراً. إنه يلح فقط على الضالة أن تقرّ بأنه شكل من أشكال المصير، مصيرها: ففي إمكانك أن تري بأنها مزغبة قُلّبٌ كالريح. أنا أتفق معه كلياً. إنه يبغي استقراراً خارق الدقة).

فصاحت «أرسيولا»: (نعم، أعرف ذلك! يريد أن تسير الأمور على هواه.. أعرف ما تعني كلماتك الرقيقة في النتيجة: التسيّد، أنا أسميه التسيّد).

نظر القط الفتي إلى «بركن» ثانية، معبراً عن ترفُّعه عن المرأة الصاخبة.

قال «بركن» للقط: (أنا متفق معك تماماً يا «ميتشيوتو». حافظ على كرامة الذكور فيك، وعلى إدراكك الأسمى).

عاد «مينو» فضيّق عينيه كأنه ينظر إلى الشمس. وعلى حين غرة، تظاهر بعدم وجود أية علاقة بينه وبين الشخصين، ومضى خبباً، ومتظاهراً بالعفوية والأنشراح، ذيله منتصب، وأقدامه البيض يستخفها الطرب.

ضحك «بركن» قائلاً: (الآن سيجد المتوحشة الحسناء* ثانية، وسوف يسليها بحكمته السامية).

نظرت «أرسيولا» إلى الذكر الواقف في الحديقة، وشعره يتطاير وعيناه تبتسمان باستهزاء، وهتفت:

ـ (أوه. إن فرضية سيادة الذكورة تورثني الغضب الشديد! يا لها من كذبة! ما كان أحد ليهتم لو كان ثمة أي تبرير لها).

فقال «بركن»: (لا يهم القطة الوحشية ذلك. أنها تدرك بأن لها ما يبررها).

فصاحت «أرسيولا»: (صحيح؟ قل ذلك للبحرية الخيالة)**.

ـ (لهم كذلك).

---

* قال «بركن» عبارة (المتوحشة الحسناء) بالفرنسية. (المترجم).

** (قل ذلك للبحرية الخيالة) يستعمل هذا التعبير للدلالة على الارتياب. (المترجم).

ـ (الوضع مـثل «جـرالد كـريتش» وفـرسـه، بالضـبـط.. شـهـوة تنمّـر.. إرادة قـوة حقيقية.. ما أتفهها،، ما أشد وضاعتها)*.

ـ (اتفق بأن إرادة القوة شيء تافه ووضيع. لكن بالنسبة إلى «مينو» إنها الرغبة في وضع هذه القطة في حالة من التوازن المستقر الصرف، علاقة سامية، باقية مع الذكر الفرد. في حين أنها بدونه، كما ترين، مجرد ضالة: قطعة مزغبة،مشتتة من الفوضى. إنها الرغبة في التمكّن إن شئت، مع اعتبار كلمة (التمكن) بمثابة فعل)**.

ـ (آه..! مغالطات! إنه آدم القديم).

ـ (أي نعم، لقد أبقى آدم حواء في الجنة الأزلية، حين أبقاها منفردة معه، ككوكب في فلكه).

فهتفت «أرسيولا»: (أجل.. أجل..) وهي تشير إليه بأصبعها، (اتضح الأمر.. ككوكب في فلكه! كتابع... أحد توابع المريخ... هوذا ما يجب أن تكون هي عليه! ها أنك قد فضحت نفسك! تريد تابعاً. المريخ وتابعه! لقد قلتها... لقد قلتها... لقد كشفت عن دخيلتك!).

ظل واقفاً يبتسم، في إحباط، واستمتاع، واغتياظ، وإعجاب، وحب. كانت سريعة جداً، رشيقة التعبير جداً، كنار محسوسة، انتقامية جداً وَتِرّة جداً في حساسيتها الخطرة، اللاهبة.

أجاب: (لم أقل ذلك أبداً. أرجو أن تعطيني فرصة لأتكلم).

فصرخت: (كلا، كلا! لن أدعك تتكلم. لقد قلتها، قلت «تابع»، لن تتملص منها. لقد قلتها).

أجاب:

ـ (لن تصدقي الآن أبداً بأنني لم أقلها. فلا أنا أضمرتُ، ولا نوّهتُ، ولا ذكرتُ كلمة تابع، ولا قصدتُها، قط).

فصرخت في غضب حقيقي: (يا مراوغ!).

قالت صاحبة النزل من الباب: (الشاي جاهز، يا سيدي).

نظر كلاهما إليها، نظرة شبيهة جداً بنظرة القطط إليهما قبل برهة.

---

* قالت «أرسيولا» عبارة (إرادة قوة) بالألمانية. (المترجم).

** نطق «بركن» بعبارة (الرغبة في التمكن) بالفرنسية. (المترجم).

- (شكراً يا سيدة «دايكن»).
ساد الاثنين صمتٌ مقطوع، لحظة انقطاع.
قال: (تعالي واشربي الشاي).
أجابت مستجمعة شتاتها: (نعم، بودي ذلك).
جلسا متقابلين عبر مائدة الشاي.
- (لم أقل تابعاً، ولا أضمرتُ ذلك. لقد عنيت كوكبين منفردين متكافئين، ومتوازنين في ارتباطهما...).
فقالت صائحة:
- (لقد كشفتَ عما تبطن، لقد كشفت عن لعبتك الصغيرة تماماً). ثم شرعت تأكل على الفور. لقد رأى أنها لن تبالي بعتابه، ولذلك بدأ يصب الشاي.
هتفت: (ما أطيب هذه المأكولات!).
قال: (تناولي سكرك أنت).
ناولها قدحها. كانت كل مقتنياته لطيفة جداً، أكواب وصحون جميلة جداً، مصبوغة بالبنفسجي الزاهي والأخضر، وكذلك الطوس الجميلة والصحون الزجاجية، والملاعق القديمة، موضوعة على قماش منسوج، ذي لون رمادي فاتح، وأسود وأرجواني، كان فاخراً وجميلاً جداً. لكن «أرسيولا» استطاعت أن تشاهد تأثير «هرمايني».
قالت بما يشبه الغضب: (ما أجمل أشيائك).
- (أنا أحبها. من دواعي سروري حقاً أن أستعمل الأشياء التي فيها جاذبية. أشياء مبهجة. والسيدة «دايكن» جيدة، وتظن أن كل شيء رائع، من أجلي).
قالت «أرسيولا»: (في الحقيقة، إن صاحبات النزل خير من الزوجات، في أيامنا هذه. فهن من المؤكد أكثر اهتماماً منهن. فمكانك أجمل وأكمل كثيراً مما لو كنت متزوجاً).
فقال ضاحكاً:
- (لكن، فكّري في الفراغ الموجود في الداخل).
قالت: (كلا. إني أغار من أن يكون لدى الرجال صاحبات نزل كاملات كهذه، ومثل هذه المساكن الجميلة. فما بقي شيء يرغبون فيه).
- (في أمور تدبير النزل، نأمل أن لا يكون ذلك. إنه لشيء يثير الاشمئزاز أن يتزوج الرجال من أجل المنزل).

قالت «أرسيولا»: (مع ذلك، لم يعد الرجل يحتاج إلى المرأة إلا في القليل، القليل، في الوقت الحاضر. أليس كذلك؟).

- (في الأشياء الخارجية، ربما... ما عدا مشاركته فراشه، وحمل الأطفال. لكن في الجوهر، تبقى الحاجة نفسها كما كانت أبداً. لكن، كل ما في الأمر، لا أحد يتجشم عناء أن يكون جوهرياً).

قالت: (ما مدى الضرورة الجوهرية؟).

قال: (أعتقد جازماً إن العالم لا يتماسك إلا بالتواصل الصوفي، بالاتحاد النهائي بين الناس - بآصرة. والآصرة المباشرة هي تلك التي تكون بين الرجل والمرأة).

قالت «أرسيولا»: (لكن هذه «موضة» قديمة. لِمَ يجب أن يكون الحب آصرة؟ كلا، لن أؤمن بأي من هذا).

قال: (إذا مشيت غرباً، فستتخلين عن الاتجاهات الشمالية والشرقية والجنوبية. وإذا أقررت بفكرة الاتحاد، فستتخلين عن جميع إمكانات الفوضى).

صرحت: (لكن الحب حرية).

أجاب: (لا تحرِّفي معي! الحب اتجاه يستبعد كل الاتجاهات الأخرى. إنه الحرية متواصلة، إن شئت).

قالت: (كلا. الحب يشمل كل شيء).

أجاب: (تحريف عاطفي. تريدين حالة الفوضى، هذا كل ما في الأمر. إنها عدمية مطلقة، مشغلة (الحرية - في - الحب) هذه، هذه الحرية التي هي الحب، والحب الذي هو الحرية. في واقع الأمر، أنت إذا ما بلغت مرحلة الاتحاد الخالص، فسيكون ذلك اتحاداً لا رجوع عنه، ولا يكون خالصاً أبداً حتى يكون غير قابل للرجوع عنه. وحتى يكون غير قابل للرجوع عنه، يكون طريقاً ذا اتجاه واحد، مثل مسار نجمة من النجوم).

صاحت بمرارة: (ها! إنها الأخلاقيات القديمة الميتة).

قال: (كلا. إنها شريعة الخلق. فالمرء ملتزم. يجب على المرء أن يلزم نفسه بارتباط بالآخر.. إلى الأبد. إنه ليس إيثاراً... إنه إبقاء الذات في توازن وكمال صوفيين... كنجمة توازن نجمةً أخرى).

قالت: (لا أثق فيك حين تُدْخِل النجوم في الموضوع. لو كنت صادقاً تماماً، لما لزم النأي إلى هذا الحد).

قال غاضباً: (لا تثقي بي، إذاً كافٍ أنْ أثق بنفسي).

أجابت: (وهنا ترتكب خطأ آخر. إنك لا تثق بنفسك. أنت لا تؤمن نفسك بما تقوله، كل الإيمان. إنك لا تريد هذا الارتباط في الواقع، وإلا لما تكلمت بهذه الكثرة حوله، بل حصلتَ عليه).

توقف لحظة، مطوَّقاً، ثم قال:

- (كيف؟).

فردت في تحدّ: (بمجرد الحب).

كان لا يزال حانقاً لحظة، ثم قال:

- (أقول لك: أنا لا أؤمن بالحب بهذه الصورة. أقول لك: أنت تريدين الحب ليلائم أنانيتك، لتخضعيه لمشيئتك. الحب عندك عملية إخضاع، وكذلك عند الجميع. إني أكرهه).

فصاحت: (كلا)، وهي ترد رأسها كأفعى (الكوبرا)، وعيناها تبرقان:

- (إنها عملية إباء... أريد أن أكون أبيّة...).

ردَّ بنبرة جافة: (أبية وخاضعة، أبية وخاضعة، أنا أعرفك. أبية وخاضعة، ثم خاضعة للأباء... أعرفك وأعرف حبك. إنها تك - تاك، تك - تاك، رقصة الأضداد).

سخرت بلآمة: (أمتأكد أنت؟... من ماهية حبي؟).

رد: (نعم، أنا متأكد).

قال: (يا لثقة الديَكة المفرطة! كيف يمكن لأي فرد أن يكون على صواب أبداً، وهو على هذه الدرجة من الوثوق؟ هذا يدل على أنك على خطأ). فصمت في شجن.

لقد تكلما وتصاولا حتى كَلاّ.

قال: (أخبريني عن نفسك وعن أهلك).

فأخبرته عن آل «برانغوين»، وعن أمها، وعن «سكربنسكي»*، حبها الأول، وعن تجاربها التالية. كان جالساً دون حراك وهو يراقبها تتكلم. وبدا يستمع بإجلال. كان وجهها جميلاً، ملؤه إشراق مضني، وهي تنبئه عن كل الأشياء التي آلمتها أو حيرتها حتى الأعماق. وبدا الدفء والراحة يشيعان في روحه بضياء طبيعتها الجميل.

- (أتمنى لو استطاعت فعلاً أن توثق نفسها بالعهد). هكذا حدث نفسه، بالحاح

---

* «انتون سكربنسكي» حبيب «أرسيولا» في رواية «د .هـ . لورنس» الأسبق ، (قوس قزح) . (المترجم) .

مشبوه العاطفة، لكن بدون أمل، تقريباً. ومع ذلك بانت في فؤاده ضحكة صغيرة، مستغربة، لا مسؤولة.

سخر هازئاً: (لقد عانينا كثيراً، جميعنا).

فتطلعت إليه، وبانت على وجهها ومضة جذل صاخب. وانبعثت في عينيها ومضة ضوء أصفر غريبة.

صاحت صيحةً عاليةً، طائشة: (أليس كذلك! إنه أقرب إلى السخف. أليس كذلك؟).

فقال: (سخيف جداً. المعاناة تورثني السأم، إن استمرت).

- (وتضجرني أنا كذلك).

لقد كاد أن يخشى الطيشَ الساخرَ لوجهها الرائع: هي ذي امرأة مستعدة لبذل كل ما في وسعها لبلوغ الجنة أو الجحيم، أيهما تعين عليها أن تقصد. وكان غير واثق بها، كان يخشى امرأة قادرة على مثل هذه الحماسة، مثل هذه التدميرية الشاملة، الخطرة. ومع هذا. قهقهه في نفسه، كذلك.

أقبلت عليه ووضعت يدها على كتفه، ونظرت إليه بعينين غريبتين ذاتي إشراقة ذهبية، عينين رقيقتين جداً، لكنهما تخفيان نظرة غريبة شيطانية.

رجته قائلة: (قل إنك تحبني، قل لي «حبيبتي»).

نظر إلى عينيها بالمقابل، وشاهد. فتألق وجهه بفهم ساخر.

قال متجهماً: (أحبك بما يكفي، حسب. لكنني أريده أن يكون شيئاً آخر).

فقالت بإصرار، وهي تحني وجهها المدهش، المتألق نحوه: (ولكن لماذا؟ لماذا؟ لماذا لا يكفي؟).

قال وهو يضع ذراعيه حولها: (لأن في استطاعتنا أن نبلغ حباً أفضل).

فقالت بصوت قوي، شهواني، يدل على الخضوع: (كلا، لا نستطيع. لا نستطيع إلا أن يحبّ كل منا الآخر. قال لي «يا حبيبتي»، قلها، قلها).

ووضعت ذراعيها حول عنقه، فأحتضنها وقبّلها قبلة رقيقة وهو يغمغم بصوت رقيق قوامه الحب، والسخرية، والاستسلام.

- (أجل... يا حبيبتي، أجل... يا حبيبتي. فليكن الحب كافياً إذاً. أحبك إذاً... أحبك فأنا ضجر من البقية).

فغمغمت مستكنّة إليه بكثير من الحلاوة، والالتصاق به: (أجل).

الفصل الرابع عشر

حفلة مائية

كان المستر «كريتش» يقيم، في كل سنة، حفلة مائية في البحيرة، تكون عامة إلى حد ما. وكان ثمة زورق بخاري صغير للترويح في (ويلي ووتر) وكذلك زوارق تجذيف عدة. وكان في وسع الضيوف تناول الشاي إما في السرادق المنصوب في أرض الدار، أو التنزه في ظل شجرة الجوز الضخمة قرب البيت العائم عند البحيرة. في هذه السنة دُعِيَ منتسبو المدرسة الثانوية مع كبار موظفي الشركة. ولم يكن «جرالد» وآل «كريتش» الأصغر سناً ليهتموا بهذا الحفل، لكنه أصبح الآن تقليدياً. وكان ذلك يسرّ الأب، بصفته المناسبة الوحيدة التي يستطيع فيها أن يجمع بعض أهالي المنطقة معاً ليشاركوه الأفراح. ذلك أنه كان يحب أن يدخل البهجة في قلوب مَنْ كان يعيلهم، ومن هم أفقر منه. بيد أن أولاده كانوا يفضلون صحبة أندادهم في الثراء، ويكرهون مذلةَ من هم أدنى منهم، أو امتنانهم أو سماجتهم.

ومع ذلك، كانوا راغبين في حضور هذا الاحتفال، مثلما كانوا يفعلون منذ طفولتهم تقريباً، ولاسيما أنهم كانوا جميعاً يشعرون الآن بشيء من الذنب، ولا يريدون أن يزيدوا من خيبة أبيهم، بالنظر لاعتلال صحته. وعلى هذا استعدت «لورا»، وهي جد مسرورة، لتقوم مقام والدتها بصفة مضيفة، وتولى «جرالد» مسؤولية وسائل التسلية على سطح الماء.

كان «بركن» قد كتب إلى «أرسيولا» قائلاً إنه يتوقع مشاهدتها في الحفلة. أما «غدرون» فستصاحب أمها وأباها إن راق الجو، وإن كانت تزدري رعاية آل «كريتش».

حل النهار، أزرق السماء، حافلاً بسطوع الشمس، مع هبات صغيرة من الريح. ارتدت كلّ من الأختين ثوباً من «الكريب» الأبيض وقبعة بلون العشب الرقيق. لكن

«غـدرون» لفت خصـرها بحـزام عـريض أسـود ووردي وأصفـر لماع وكـانت جواربهـا من الحرير الوردي. أما قبعتها فإنها وضعت على حاشيتها زينةً بالأسود والوردي والأصفر، ما خفّضتها قليلاً. كما وضعت معطفاً حريراً أصفر على ذراعـها، بحيث بدت باهرة، وكأنها لوحة في معرض (باريسي). كان مظهرها تجربة موجعة بالنسبة إلى أبيـها، الذي قال غاضباً:

ـ (ألا تظنين أنه لم يبق إلا أن تحصلي على مفرقعة عيد الميلاد، ويكتمل الأمر؟).

بيد أن «غدرون» بدت وسيمة، متـألقة، مرتدية ملابسها بتحد خالص. وحين كان الناس يحدقون إليها، ويقهقون من ورائها، كانت تتقصد أن تقول لـ«أرسيولا» بصوت عال:

ـ (انظري.. انظري إلى هؤلاء الناس! أليسـوا بومـاً لا تصـدق؟)* ثم تلفـتت إلى الوراء ناظرة إلى الجموع المقهقهة، والكلمات الفرنسية في فمها.

ثم تجيب «أرسيـولا» بوضـوح: (كلا هذا أمر مـستحيل فعلاً!). وهكذا أطفأت الفتاتان نار غضبهما من عدوهما الكلي. لكن أباهما ازداد حنقاً أكثر فأكثر.

كانت «أرسيولا» في بياض الثلج تماماً من حيث الملبس، عدا أن قبعتها كانت وردية اللون، دون أي زركش، وكان حذاؤها أحمر غـامقاً، وكـانت تحمل معطفاً برتقالي اللون. وبهذا الزي، كانتا تقطعان المسافة مشياً حتى (شورتلاندز)، يتقدمهما أبوهما وأمهما.

كانتـا تضحكان من أمهـما ـ وهي مرتـدية لباساً من قـماش صيـفي ذي خطوط سود وأرجوانـية، وقبعـة قش أرجوانيـة ـ فيـما كـانت تمضي قدماً في حيـاء وتخوف صبيـانيين يفـوقان مـا شعـرت به ابنتـاها في أي وقت مضى، وهي تسير محتشـمة بجانـب زوجها الذي بدا، كالمعتاد، متغضنا في أحسن بدلاته، كأنه كان الأبَ في عائلة شابة وقد حمل الطفل أثناء ارتداء زوجته ملابسها.

قالت «غدرون» بهدوء: (انظري إلى الثنائي الشاب أمامك).

فنظرت «أرسيـولا» إلى أمـهـا وأبيـهـا، فـاستـبـد بهـا، فـجأة، ضـحك لا يقـاوم.

---

* نطقت الجملة بالفرنسية. (المترجم).

وتوقفت الأختان في الطريق، وضحكتا حتى سالت الدموع على وجهيهما حين عادتا فألقتا نظرة على ثنائي الوالدين الخجولين، الساذجين، وهما يحثان السير قدماً.

نادت «أرسيولا» وهي تتعقب والديها عاجزة: (إننا نضج بالضحك منك يا أماه).

التفتت السيدة (برانغوين) وهي تنظر نظرة غيظ، واندهاش طفيف، وقالت: (أوه، حقاً! ما هو الشيء المضحك جداً بهذه الدرجة فيّ؟ أريد أن أعرف).

لم تقدر أن تدرك أنه كان من الممكن أن يكون ثمة شيء ما غير مناسب في مظهرها. كانت ذات اكتفاء هادئ كامل، وفيها لا مبالاة عفوية حيال أي انتقاد مهما كان، كأنها كانت في منأى عنه. كانت ملابسها غريبة نوعاً ما، على الدوام، ورثةً، على العموم. ومع ذلك، كانت ترتديها بيسر ورضا كاملين. ومهما كانت ترتدي، فإنها كانت على صواب، في منأى عن أية ملاحظة، ما دامت مهندمة، أو تكاد. فلقد كانت ارستقراطية، غريزيا.

قالت «أرسيولا» وهي تضحك، بشيء من الرقة، من مظهر أمها الساذج، المحيَّر: (أنت تبدين كبارونة ريفية في جلالك هذا).

اشتركت «غدرون» بنبرة رنانة: (مثل بارونة ريفية، تماماً).

أضحى استعلاء الوالدة الطبيعي الآن هيوباً، فزعقت الفتاتان ثانية بالضحك.

فصرخ الأب وقد احتدم غيظاً: (اذهبا إلى البيت، يا ثنائي الحماقة، أيتها الحمقاوان الكبيرتان، المقهقهتان!).

فأنّت «أرسيولا» مستهجنةً وقد تجهم وجهها جراء غضبه: (م م - م - م).

تراقصت الأضواء الصفر في عينيه، ومال إلى أمام في غضب حقيقي.

قالت السيدة «برانغوين»: (لا تكن من السخف بحيث تأبه بالمغفلتين الكبيرتين). ثم استدارت ومضت في سبيلها.

فصرخ صرخةً ثأرية قائلاً: (سوف أرى إن كان سيتبعني زوج من القردة المقهقهة، الزاعقة).

توقفت الفتاتان دون حراك، عند الممر المجاور للسياج، وهما تضحكان بلا إرادة من فورة غضبه.

قالت السيدة «برانغوين» وقد غدت غاضبة هي الأخرى بعد أن اشتد حنقه: (سوف تكون سخيفاً مثلهما إن إكترثت ولو قليلاً).

فهتفت «أرسيولا» محذرة باستهزاء: (هناك بعض الناس قادمون يا أبي). فتطلع إلى ما حوله بسرعة، ومضى ليلتحق بزوجته، وهو يسير بتوتر غاضب. وتبعتهما الفتاتان، وقد هدّهما الضحك.

وحين مر الناس، صاح «برانغوين» بصوت عال، أخرق:

(سأعود إلى البيت إذا كان هناك المزيد من هذا. أكون ملعوناً إذا ما جُعِلْتُ موضع هزء على هذا النحو، في الطريق العام).

لقد احتّد فعلاً. وإذ سمعت الفتاتان صوته الثأري، الطائش، توقفتا عن الضحك وانكمش قلباهما امتعاضاً. لقد كرهتا عبارته (في الطريق العام). بماذا كان يهمهما الطريق العام؟ بيد أن «غدرون» كانت توفيقية.

فهتفت برقة خرقاء ضايقت والديها: (لم نكن نضحك لإيلامكما. كنا نضحك لأننا نحبكما).

وقالت «أرسيولا» غاضبة: (سنمشي في المقدمة، إذا كانا حساسين إلى هذا الحد). وعلى هذا النحو وصلوا إلى (ويلي ووتر). كانت البحيرة زرقاء، صافية، والمروج منحدرة على إحدى الجهتين في ضوء الشمس، في حين انحدرت الغابات الكثيفة، المعتمة في الناحية الأخرى. وكان زورق الترويح الصغير يضج بأنغام الموسيقى، مبتعداً عن الشاطئ، مزدحماً بالناس، مصطفقة مجاذيفه. بالقرب من المنزل العائم، كان رهط من الأشخاص المرتدين ملابس زاهية، يبدون صغاراً جراء المسافة. وفي الطريق الرئيس كان يقف بعض العامة، بمحاذاة السياج، ينظرون إلى الحفل بحسد، كأرواح لم يسمح لها بدخول الفردوس.

قالت «غدرون» همساً*: (ياعيني!) وهي تنظر إلى مزيج الضيوف المتنافر.

(هوذا جمع لطيف، إن شئت! تصوري نفسك في وسط هذا الخضم، يا عزيزتي!).

---

* ورد تعبير «همساً» بالإيطالية. (المترجم).

كان فزع «غدرون» الهلوع من جموع الناس يؤثر في أعصاب «أرسيولا» التي قالت قلقة: (يبدو المنظر فظيعاً، نوعاً ما).

فقالت «غدرون» وصوتها لا يزال خفيض النبرة مثيراً للأعصاب: (وتصوري ماذا سيكون شأنهم.. تصوري!). ومع ذلك، تقدمت بعزم.

قالت «أرسيولا» في قلق: (أظن أن في استطاعتنا الإفلات منهم).

فقالت «غدرون»: (إن لم نستطع، نكون في ورطة لطيفة!). كان مقتها الشديد، الساخر، وخشيتها مصدر إرهاق شديد «لأرسيولا».

فقالت: (لا داعي لأن نبقى).

فقالت «غدرون»: (من المؤكد أنني لن أبقى خمس دقائق بين ذلك الرهط التافه). ثم تقدمتا أكثر حتى شاهدتا رجال شرطة عند البوابة.

قالت «غدرون»: (هناك أيضاً شرطة يستبقونك في الداخل! لعمري، إنها مسألة لطيفة حقاً).

فقالت «أرسيولا» في قلق: (خير لنا أن نرعى أبانا وأمنا).

فقالت «غدرون» بشيء من الاستهزاء: (الوالدة قادرة تماماً على معايشة هذا الاحتفال الصغير حتى النهاية).

بيد أن «أرسيولا» كانت تعلم أن أباها كان يشعر بأنه غير متأقلم وأنه غاضب وبائس، ولهذا كانت أبعد ما تكون عن الارتياح. انتظرتا خارج البوابة حتى لحق بهما والداهما. كان الرجل النحيل، الطويل، ذو الملابس المتغضنة، مستثار الأعصاب، سريع التهيج كأنه صبي، وهو يجد نفسه على حافة هذا الحفل الاجتماعي. لم يشعر بأنه (جنتلمان)، ولم يشعر بأي شيء سوى السخط الخالص.

احتلت «أرسيولا» مكانها بجانبه، وسلموا بطاقاتهم إلى الشرطي، ومرّوا قاصدين العشب، الأربعة جنباً لجنب: الرجل الطويل، المحتدم، المسمر ـ المحمر، ذو الجبهة الضيقة، الصبيانية، المستطيلة جراء الغيظ، والأمرأة المرتاحة ذات الوجه النضر الرابطة الجأش تماماً، وإن تهدل شعرها جانباً، ثم «غدرون» بعينيها المدورتين، الغامقتين، المحدقتين، ووجهها الناعم، الممتلئ، قليل التأثر، والعابس تقريباً، بحيث بدت وكأنها

ترتد مبتعدة من خصومة، وإن كانت ماضية قدماً، ثم «أرسيولا» وعلى وجهها تلك النظرة الغريبة، المتألقة، المحتارة، التي كانت تظهر دائماً حين تكون في موقف ما ناشز.

أما «بركن» فكان الملاكَ الطيب. أقبل مبتسماً لهم بكياسته الاجتماعية المفتعلة التي لم تكن صائبة تمام الصواب قط ـ لسبب أو لآخر. لكنه خلع قبعته وابتسم لهم ابتسامة حقيقية، بعينيه، بحيث هتف «برانغوين» من الصميم في ارتياح:

ـ (كيف الحال؟ إنك أحسن، أليس كذلك؟).

ـ (نعم أنا أحسن. كيف حالك يا سيدة «برانغوين»؟ إني أعرف «غدرون» و«أرسيولا» جيداً).

ابتسمت عيناه كامل الابتسام، من دفء طبيعي. كانت له طريقة ناعمة في إطراء النساء، لا سيما غير الشابات.

قالت السيدة «برانغوين» بنبرة فاترة، لكنْ راضية: (نعم، لقد سمعتهما تتحدثان عنك بما يكفي).

فضحك ونظرت «غدرون» جانباً، وهي تشعر بأنها لم تكن موضع اهتمام. كان الناس يقفون جماعات، وقعدت بعض النساء في ظل شجرة الجوز وفي أيديهن أكواب الشاي. وكان هناك نادل بملابس السهرة، يجري هنا وهناك، وبعض الفتيات يتكلفن الابتسام وهي يحملن المظلات، وثمة عدد من الشبان الذين جاؤوا تواً من رياضة التجذيف، كانوا يجلسون القرفصاء على العشب، خالعين سترهم، لافّين أكمام قمصانهم إلى الأعلى على نحو رجولي، ومريحين أيديهم على سراويلهم (الفانيلية) البيض، وأربطة أعناقهم المزوقة تتطاير، وهم يتضاحكون ويحاولون التنكيت مع الصبايا الصغار.

فكرت «غدرون» متجهمة: (عجباً، أليست لديهم قواعد سلوك تجعلهم يرتدون سترهم، ولا يتخلون عن الرسميات في مظهرهم؟).

كانت تمقت الشاب العادي، بشعره المزيَّت المردود، وتودّده المتسيب.

أقبلت «هرمايني رودس» بثوب أنيق من (الدانتيلا) البيضاء، وهي تجرجر شالاً واسعاً من الحرير المطرز بورود كبيرة، وتوازن على رأسها قبعة خالية من الزخرف،

واسعة. كانت تبدو أخّاذة، مدهشة، تكاد تكون رهيبة، بطولها الفارع، وحاشية شالها الواسع، الملون بلون القشدة، المبقع بزاهي الألوان، المتجرجر خلفها على الأرض، وشعرها الكثيف المتهدل على عينيها، ووجهها الغريب، الطويل، الباهت، وبقع الألوان الزاهية تحيط بها.

سمعت «غدرون» بعض البنات يتضاحكن ضحكاً حبيساً وراءها: (ألا تبدو شاذة؟). كان باستطاعة «غدرون» أن تقتلهن.

أنشدت «هرمايني» متساءلة: (كيف الحال؟) وهي تقبل متلطفة جداً، وتتطلع ببطء إلى والد «غدرون» ووالدتها. كانت لحظة ممضّة ومضنية بالنسبة إلى «غدرون». لقد كانت «هرمايني»، فعلاً، على درجة متوطدة من الاستقرار في استعلائها الطبقي بحيث أنها كانت تقدر أن تقبل على الناس وتتعرف عليهم لمجرد حب الاستطلاع، كما لو كانوا مخلوقات معروضة للتفرج عليها. كان في وسع «غدرون» نفسها أن تفعل الشيء نفسه لكنْ ساءها أن تكون في الوضع الذي قد يفعل فيه أحدهم ذلك لها.

قامت «هرمايني» وهي في تميّزها الباهر، وتشخيصها الدقيق لآل «برانغوين»، بقيادتهم إلى حيث كانت «لورا كريتش» واقفة تستقبل الضيوف.

أنشدت «هرمايني»: (هذه هي السيدة «برانغوين»)، فصافحتها «لورا» التي كانت ترتدي ثوباً من الكتان المطرز الخشن، وقالت إنها مسرورة بلقياها. ثم أقبل «جرالد» مرتدياً البياض، مع سترة رياضية سوداء ـ بنية، وبدا أنيقاً. وقُدِّم إلى الوالدين «برانغوين» هو الآخر، وفي الحال أخذ يتحدث إلى السيدة «برانغوين» وكأنها «ليدي» وإلى السيد «برانغوين» وكأنه لم يكن «جنتلماناً». كان «جرالد» على درجة كبيرة من الوضوح في سلوكه. وكان عليه أن يصافح بيده اليسرى، لأنه كان قد أصاب اليمنى فوضعها، مضمَّدة، في جيب سترته. وكانت «غدرون» ممتنة جداً لأن أياً من جماعتها لم يسأله عما حدث ليده.

كان الزورق البخاري يضجّ مقترباً، وموسيقاه تجلجل كلها، والناس يتصايحون على متنه متحمسين. ذهب «جرالد» ليدبّر نزول النازلين، وكان «بركن» يعدّ الشاي للسيدة «برانغوين»، وكان السيد «برانغوين» قد انضم إلى جماعة إحدى المدارس الثانوية. أما «هرمايني» فجلست قرب والدتهما، في حين توجهت البنتان إلى معبر النزول لمشاهدة الزورق البخاري وهو يدنو.

صفّر الزورق وزمّر في حبور ثم صمتت دواليبه، وقُذفت الحبال إلى الساحل، فانساب نحو الشاطئ بخبطة خفيفة. وفي الحال تزاحم الركاب متحمسين للنزول إلى الشاطئ.

صرخ «جرالد» آمراً جازماً: (انتظروا دقيقة واحدة.. انتظروا دقيقة واحدة).

كان من الضروري انتظارهم حتى تُشَدّ الحبال بالزورق، وتوضع سقالة العبور الصغيرة. وبعد ذلك تدفقوا كالسيل إلى الشاطئ، وقد رفعوا عقائرهم بالصراخ، كأنهم قادمون من أمريكا.

كانت الصبايا تتصايح قائلة: (أوه، ما ألطفها! إنها لطيفة حقاً).

جرى الندل من على متن الزورق إلى البيت العائم حاملين سلالاً. أما القبطان فاسترخى عند البرج الصغير. وبعد أن تأكد «جرالد» من سلامة الجميع، توجه إلى «غدرون» و«أرسيولا» وسأل:

- (ألا تودان ركوب الزورق في السفرة التالية، وتناول الشاي هناك؟).

فقالت «غدرون» بفتور: (كلا، شكراً).

- (ألا تحبين الماء؟).

- (الماء؟ بلى، أحبه كثيراً).

نظر إليها، وعيناه تتفحصان.

- (أنت، إذاً، لا تحبين التنزه في زورق بخاري؟).

أبطأت الإجابة، ثم تكلمت متمهلة:

قالت: (كلا، لا أستطيع أن أقول إني أحب ذلك). احتدمت ملامحها، وبدت غاضبة من شيء ما.

وقال «أرسيولا» موضحة: (ازدحام شديد نوعاً ما)*.

- (إيه؟ ازدحام شديد!)، قالها وضحك ضحكة قصيرة، واردف: (أجل هناك عدد لا بأس به منهم).

التفتت إليه «غدرون» بالتماع وهتفت:

---

* نطقت «أرسيولا» العبارة بالفرنسية، وكررها «جرالد» بالفرنسية أيضاً. (المترجم).

ـ (هل صادف أن تنزهت من جسر (وستمنستر) إلى (رتشموند) على ظهر إحدى بواخر (التيمس)؟).

فقال: (كلا. لا أستطيع القول بأنني قد فعلت ذلك).

ـ (حسن، إنها واحدة من أكره التجارب التي مررت بها في حياتي).

تكلمت بسرعة وحماسة، واحتقنت وجنتاها وهي تواصل:

ـ (لم يكن ثمة أي موضع للجلوس مطلقاً في أي مكان. وقد استمر أحد الرجال يغني، من فوقنا، أغنية «مهزوز في مهد البحر»* على طول الطريق. كان ضريراً يملك «ارغن» صغيراً، واحداً من تلك التي يمكن نقلها، وكان يأمل في هِبات نقدية. ولهذا يمكنك تصور كيف كان ذلك الوضع. ثم كانت هناك رائحة الغداء تفوح من الأسفل بلا انقطاع، وهبّات من الماكنة الحارة المزيتة. لقد استغرقت الرحلة ساعات وساعات. ولأميال، وأميال، فعلاً، كان ثمة صبيان فظيعون يجرون معنا على الشاطئ، يخوضون أوحال نهر (التيمس) الفظيعة، يخوضون حتى الخصور. كانت سراويلهم قد لَفّت لفّاً إلى أعلى، وكانوا يخوضون في أوحال (التيمس) العصية على الوصف، حتى الأرداف، وأوجههم متجهة نحونا على الدوام، وهم يصرخون، تماماً. أما أرباب العوائل على متن الزورق فكانوا يضحكون حين كان الصبيان يغوصون في ذلك الوحل الشنيع، ويقذفون بالقروش إليهم بين الحين والآخر، ولو كنت قد رأيت النظرة المركزة على وجوه أولئك الصبيان، والطريقة التي كانوا ينطلقون بها داخل القذارة عند رمي قطعة نقود.. حقاً ما من نسر أو ثعلب يخطر بباله أن يقترب منهم، لقذارتهم. إني لن أركب أيَّ قاربِ نزهةٍ ثانيةً ـ أبداً).

كان «جرالد» يراقبها طوال الوقت الذي كانت تتكلم فيه، وعيناه ملتمعتان من إثارة طفيفة. لم يكن ما قالته هو الذي أثاره بقدر ما أثارته هي نفسها، أثارته بوخز صغير نشيط.

قال: (من الطبيعي أن تكون في كل هيئة متحضرة آفتها، اضطراراً).

فصاحت «أرسيولا»: (لماذا؟ أنا خالية من الآفات).

---

* أغنية عاطفية اشتهرت في القرن التاسع عشر. (المترجم).

أجابت «غدرون»: (ليس هذا المهم.. بل صفة المسألة برمتها.. رب العائلة يتضاحك حاسباً ذلك من باب التسلية، ويقذف بالقروش، وربة العائلة تفرد ركبتيها الصغيرتين السمينتين وتأكل، وتستمر في الأكل).

قالت «أرسيولا»: (أجل، ليس الصبيان وحدهم هم الآفة. إنهم الناس أنفسهم، كل الدولة، كما تسميها).

ضحك «جرالد»، ثم قال: (لا بأس عليكما. لن تركبا الزورق البخاري).

احتقنت وجنتا «غدرون» بسرعة جراء زجره.

ران الصمت بضع دقائق. وكان «جرالد» كالحارس، يراقب الناس يرتقون الزورق. كان جميل الطلعة جداً ومستقلاً بذاته، بيد أن منظر استعداده العسكري كان مثيراً للأعصاب إلى حد ما.

تساءل: (هل تريدان تناول الشاي هنا، أم تذهبان إلى الدار حيث توجد خيمة في مرجة الثيل؟).

فتساءلت «أرسيولا» التي كانت مندفعة أكثر مما يجب دائماً:

(ألا نستطيع أن نأخذ قارب تجذيف ونخرج؟).

ابتسم «جرالد»: (نخرج؟).

وقالت «غدرون» وقد احمرّ وجهها من سماجة «أرسيولا» الفاضحة:

- (المسألة هي أننا لا نعرف الناس، وأننا نكاد أن نكون غرباء تماماً هنا).

فقال بيسر: (أوه، أستطيع أن أدبّر لكما بضع معارف في الحال).

نظرت «غدرون» إليه لترى إن كان قصده سيئاً. ثم ابتسمت له، وقالت: (آه، أنت تعرف ما نقصد. ألا نستطيع أن نمضي إلى هناك ونستكشف ذلك الساحل؟). وأشارت إلى بستان في الأكمة القائمة إلى جانب المروج قرب الساحل، في منتصف الطريق إلى البحيرة. (فذلك يبدو لطيفاً جداً. حتى إننا قد نسبح. أليس جميلاً في هذا الضوء! حقاً. أنه أشبه بأحد مقتربات نهر النيل - كما يتصور المرء النيل).

ابتسم «جرالد» لتحمسها المتكلف للبقعة النائية، وسأل هازئاً: (أمتأكدة أنت أنه بعيد بما فيه الكفاية؟)، ثم أضاف على الفور: (أجل، يمكنكما أن تذهبا إلى هناك، إذا استطعنا الحصول على قارب. الظاهر أنها قد أُخِذَتْ كلها).

ألقى نظره في أرجاء البحيرة وعدّ قوارب التجذيف التي على سطحها.

صاحت «أرسيولا» توّاقة: (ما ألطف ذلك، لو تم!).

قال: (ألا تريدان الشاي؟).

قالت: «غدرون»: (أوه. يمكن أن نكتفي بشرب قدح واحد ثم نرحل).

جعل يحوّل نظره من إحداهما إلى الأخرى، وهو يبتسم. كان قد استاء قليلاً، لكنه كان لاهياً.

تساءل: (هل تستطيعان تدبير أمر الزورق على نحو جيد؟).

أجابت «غدرون» ببرود: (نعم، على نحو جيد).

وصاحت «أرسيولا»: (نعم نستطيع كلتانا التجذيف كعناكب الماء).

ـ (أتستطيعان ذلك؟ يوجد زورق (كانو) صغير، خفيف، عائد لي، لم أخرجه خشية غرق البعض. هل تظنان أنكما ستكونان في مأمن فيه؟).

فقالت «غدرون»: (كلياً).

وصاحت «أرسيولا»: (يا لك من ملاك!).

ـ (لا تتسببا في وقوع حادث ـ إكراماً لي ـ نظراً لأنني مسؤول عن الفعاليات المائية).

فتعهدت «غدرون» قائلة: (من المؤكد).

وقالت «أرسيولا»: (أضف إلى ذلك أننا كلتانا نستطيع السباحة على نحو جيد تماماً).

ـ (حسن.. سأوعز، إذاً، لكي يهيئوا سلة شاي لكما، وسيكون في وسعكما التنزه وحدكما ـ تلك هي الفكرة، أليس كذلك؟).

فهتفت «غدرون» بحرارة، وقد زاد لونها توردا ً ثانية: (جيد على نحو رهيب! بديع على نحو مخيف، لو استطعت!). لقد جعلت، بتلك الطريقة الماكرة التي توجهت بهاإليه وشربّت جسمه بعرفانها وامتنانها، الدم يفور في عروقه.

تساءل وعيناه تلتمعان: (أين «بركن»؟ قد يساعدني في إنزاله).

فتساءلت «غدرون» بصوت مكتوم تقريباً، كما لو كانت تتجنب الألفة: (لكن ماذا عن يدك؟ أليست مصابة؟). كانت هذه أول مرة تُذكر فيها الإصابة. لقد بعثت

الطريقة الغريبة التي دارت فيها حول الموضوع دغدغةً ماكرة في عروقه. فأخرج يده من جيبه. كانت مضمدة. نظر إليها ثم أعادها إلى جيبه. فارتجفت «غدرون» لمرأى الكف الملفوفة بالضماد.

قال: (أوه.. أستطيع أن أدبر الأمر بيد واحدة. إن زورق (الكانو) خفيف خفة الريشة... هاهو ذا «روبرت»! يا «روبرت»!).

ترك «بركن» واجباته الاجتماعية وأقبل عليهم.

سألت «أرسيولا» التي كانت تتشوّق تشوقاً موجعاً خلال نصف الساعة الأخيرة كي توجه السؤال: (ماذا فعلتَ بها؟).

فقال «جرالد»: (بيدي؟ حصرتها في آلة ما).

فقالت «أرسيولا»: (آخ! وهل آلمتك كثيراً؟).

قال: (أجل. لقد آلمتني في حينه. إنها في تحسّن الآن. هشمت الأصابع).

فصرخت «أرسيولا»، كما لو كانت تتألم: (أوه. أنا أكره الناس الذين يؤذون أنفسهم. أستطيع أن أشعر بذلك). وهزت يدها.

قال «بركن»: (ماذا تريد؟).

حمل الرجلان الزورق البني اللون الرشيق وأنزلاه في الماء.

تساءل «جرالد»: (أنتما متأكدتان من كونكما في مأمن فيه تماماً؟).

قال «غدرون»: (كل التأكد. لن أكون لئيمة إلى درجة أخذه لو كان ثمة أقل شك. لقد كان عندي زورق (كانو). في (آرنديل)*، وأؤكد لك بأني في أمان تام).

بعد أن قالت ذلك، وتعهدت كالرجال، ركبت الزورق الرقيق مع أختها، واندفعت مقلعة بتأن. وقف الرجلان يراقبانهما. كانت «غدرون» تجذف، وكانت تعرف أن الرجلين يراقبانها، فجعلها ذلك بطيئة، متخبطة. ورفرف اللون في وجهها كما يرفرف العلم.

صاحت متوجهة إليه وهي في الزورق الذي كان ينساب مبتعداً: (شكراً جزيلاً. إنه لطيف - كالجلوس على ورقة شجر).

ضحك إزاء سعة خيالها. كان صوتها حاداً وغريباً، وهي تنادي من بعيد. لبث

---

* بلدة في (سَسِكْس الغربية) تقع على نهر (آرن). (المترجم).

يراقبها وهي تجذف مبتعدة. كان ثمة شيء ما طفولي فيها، واثق وصاغر، كطفل. راقبها طيلة الوقت أثناء ما كانت تجذف. لقد كان بمثابة متعة حقيقية، بالنسبة إلى «غدرون»، ذلك التظاهر كأمرأة شبيهة بالأطفال، متعلقة بالرجل الواقف هناك على الرصيف، رجل جد لطيف ومقتدر، في ثيابه البيض، بل أهم رجل عرفته في ذلك الوقت. لم تلتفت صوب «بركن» المترنح، الهفاف، غير واضح المعالم، الذي كان واقفاً بجانبه. كان يشغل مجالَ اهتمامها شخصٌ واحد في الوقت الواحد.

كان الزورق يحف حفيفاً وهو يمضي في الماء. مرتا بالسابحين الذين أقيمت خيامهم المخططة بين صفصافات حافة المرج، ثم انسابتا بمحاذاة الشاطئ المفتوح، متجاوزتين المروج المنحدرة التي اكتسبت لوناً ذهبياً في أشعة العصر المتأخر. كانت زوارق أخرى تتسلل تحت أشجار الساحل المقابل وكان في وسعهما سماع ضحكات الناس وأصواتهم. لكن غدرون واصلت التجذيف باتجاه أجمة الأشجار التي تساوقت تساوقاً كاملاً وهي على تلك المبعدة، في غمرة الضياء الذهبي.

وجدت الأختان بقعة صغيرة تجري فيها ساقية صغيرة تصب في البحيرة، حيث القصب، وامتدادٌ نضير من نبات أرجواني الزهر وشاطئ حصبائي على الجانب. هنا انسابتا برقة نحو الساحل بزورقهما الرقيق ثم خلعتا أحذيتهما وجواربهما ومضتا عبر حافة الماء إلى العشب. كانت مويجات البحيرة دافئة، صافية. رفعت البنتان زورقهما ووضعتاه على الشاطئ، ونظرتا إلى ما حولهما بابتهاج. كانتا وحدهما تماماً عند مصب ساقية صغيرة مهجورة، وهناك على الرابية في الخلف، مباشرة، كانت أجمة الأشجار.

قالت «أرسيولا»: (سوف نستحم هنيهةً فقط، ثم نتناول الشاي).

تلفتتا حولهما، ما كان لأحد أن يلاحظهما أو يقترب في الوقت المناسب ليراهما. وفي خلال أقل من دقيقة، كانت «أرسيولا» قد نضت ثيابها عنها وانسلت عارية إلى داخل الماء، وشرعت تسبح مبتعدة. وفي عجالة، انضمت «غدرون» إليها. فسبحتا صامتتين منتشيتين بضع دقائق، وهما تدوران حائمتين حول مصب الساقية. بعدها تسللتا إلى الشاطئ، وجرتا إلى داخل الأجمة، مثل حوريتي بحر.

قالت «أرسيولا» وهي تجري سريعاً هنا وهناك بين جذوع الأشجار، عارية تماماً،

وشعرها يتطاير طليقاً: (ما أجمل أن يكون المرء حراً). كانت الأجمة من أشجار الزان، ضخمة ورائعة، كسقالة بلون الفولاذ الرمادي قوامها جذوع وأغصان ونثار مستوٍ من الخضرة الشديدة هنا وهناك، في حين أشرقت الرقعة المنبسطة من الأرض من جهة الشمال، مفتوحة، كأنها كوّة شباك.

بعد أن جرتا ورقصتا حتى نشفتا، ارتدت الفتاتان ملابسهما سريعاً وقعدتا لتناول الشاي المعطر. جلستا في الناحية الشمالية من الأجمة، تحت أشعة الشمس الصفراء في مواجهة منحدر التل العشيب، وحيدتين في عالم صغير، على الفطرة، خاصٍ بهما. كان الشاي ساخناً ذا نكهة لطيفة وكانت ثمة شطائر صغيرة، لذيذة، من الخيار والكافيار، وكعك ذو نكهة نبيذية.

هتفت «أرسيولا» مبتهجة وهي تنظر إلى أختها: (هل أنت سعيدة يا «خوخة»!).

أجابت «غدرون» بوقار، وهي تنظر إلى الشمس الغاربة:

- (أنا جد سعيدة، يا «أرسيولا»).

- (وكذلك أنا).

حينما كانت الأختان تجتمعان معاً، وتقومان بالأشياء التي كانتا تستمتعان بها، كانتا تغدوان متكاملتين كلياً، في عالم كامل يخصهما، وكانت تلك واحدة من اللحظات الكاملة للتحرر والاغتباط، كما يعرفها الأطفال دون غيرهم، حين يبدو كل شيء مغامرة كاملة، زاخرة بالنعيم.

وحين انتهت الفتاتان من تناول الشاي، لبثتا جالستين طويلاً، صامتتين، هادئتين. ثم شرعت «أرسيولا»، ذات الصوت الجميل، القوي، تغني لنفسها، بهدوء: (آنخن فون تاراو)*. أنصتت «غدرون» وهي جالسة تحت الأشجار، فسرى التشوق في قلبها. وبدت «أرسيولا» جد هادئة ومكتفية بذاتها، وهي جالسة هناك تنشد أغنيتها دون وعي، قوية، غير قابلة للتفنيد، والجةً صميم عالمها الخاص. أما «غدرون» فشعرت بأنها في اغتراب. كان هذا الشعور الأسيان والمعذب، الشعور بأنها خارج نطاق الحياة، بكونها متفرجة، في حين كانت «أرسيولا» مشاركة، يتسبب في معاناة «غدرون» من

---

* الأغنية باللغة الألمانية. (المترجم).

شعـور بسلبيـتـهـا هي، ويجـعلهـا مـضطرة إلى أن تطلب من الآخر، دائمـاً، أن يعي وجودها، وأن يكون متواصلاً وإياها.

قالت «غدرون» بنبرة مكتومة، غريبة، وهي لا تكاد تحرك شفتيها: (هل تمانعين إذا ما أديت «الدالكروز»* على إيقاع هذا النغم، يا صداحة؟).

تساءلت «أرسيولا» متطلعة في دهشة هادئة:

ـ (ماذا قلتِ؟).

فقالت «غدرون» وهي تعاني من اضطرارها للتكرار:

ـ (هلا غنيت أثناء تأديتي «الدالكروز؟»).

فكرت «أرسيولا» لحظة، مستجمعةً شاردَ أفكارِها، وسألت على نحو مبهم: (أثناء تأديتك ماذا؟).

فقالت «غدرون» وهي تعاني من عذابات التهيب حتى من أختها:

ـ (حركات «دالكروز»).

فهتفت «أرسيولا» بنباهة طفولية مستغربة:

ـ (أوه، «دالكروز»! لم أستطع اقتناص الاسم. أدّيها.. أحب أن أشاهدك.. ماذا سأغني؟).

ـ غنّي أي شيء تحبينه، وسأتبع إيقاعه).

لكن «أرسيولا» عجزت تماماً عن التفكير في ما تغنّيه. بيد أنها شرعت على حين غرة، ترفع عقيرتها في صوت ضاحك، مكايد:

ـ (حبيبتي ـ سيدة نبيلة الأصل..).

أما «غدرون» التي بدت كأن سلسلةً غير مرئية قد أثقلت يديها وقدميها، لقد شرعت ترقص ببطء، رقصاً إيقاعياً، وهي تنبض وترفرف على الإيقاع، وقدماها تؤديان حركات إيمائية منتظمة أبطأ، مع يديها وذراعيها، باسطةً ذراعيها كثيراً، آناً، رافعةً إياهما فوق رأسها، آناً آخر، مفردتهما متباعدتين برقة حيناً آخر، ورافعة رأسها، وقدماها تجريان وتضربان وفق إيقاع الأغنية، كما لو كانت هذه تعويذة غريبة ما،

---

* رقصة إيقاعية. (المترجم).

وقامتها البيضاء المنتشية تنساب هنا وهناك في لحن (رابسودي)* غريب، جيّاش، وكأنها تبدو مرفوعة على نسيم من التعويذ، وهي ترتعد في دفقات صغيرة عجيبة.

كانت «أرسيولا» جالسة على العشب، وفمها مفتوح عند الغناء، وعيناها تضحكان كأنها حسبت الأمر نكتة كبيرة، بيد أن وميضاً أصفر كان يلتمع فيهما حين كانتا تلتقطان بعضاً من الإيحاء الطقسي غير الواعي في معقّد الارتعاد، والتموّج، والانسياب في بدن أختها الأبيض، الذي كان أسير إيقاع هزّاز، خالص، غافل، ورغبة اشتدت قوتها تحت تأثير نوع من التنويم المغناطيسي.

ـ (حبيبتي سيدة نبيلة الأصل.. إنها أقرب إلى القتامة منها إلى ظلال الريبة)..

هكذا تعالت أغنية «أرسيولا» الساخرة، الضاحكة، فغدت «غدرون» في رقصها أسرع وأعنف، وهي تضرب الأرض بقدميها كأنها تحاول التخلص من قيد ما، باسطةً يديها فجأة، وضاربةً الأرض ثانية، ثم تندفع مرفوعة الوجه، جميلة الرقبة مليئتها، مغلقة العينين في نصف إغماضة، دون إبصار. كانت الشمس واطئة صفراء تغور، وكان يطوف في السماء قمر نحيل عديم الجدوى.

كانت «أرسيولا» مستغرقة بأغنيتها كل الاستغراق حين توقفت «غدرون» فجأة، وقالت بهدوء وسخرية:

ـ («أرسيولا!»).

فقالت «أرسيولا» فاتحة عينيها من الغيبوبة: (نعم؟).

كانت «غدرون» واقفة دون حراك تؤشر إلى جانب، وعلى وجهها ابتسامة ساخرة.

فصرخت «أرسيولا»: (آخ!) من هلع مفاجئ، وانتصبت على قدميها جازعة.

فجلجل صوت «غدرون» الساخر: (لا عليك منها أبداً).

كانت ثمة على اليسار مجموعة صغيرة من أبقار الـ(هايلاندز)**، زاهية اللون وبرية في ضوء المساء، وقد تفرعت قرونها شاخصة نحو السماء، وهي تدفع خطومها إلى الأمام فضولاً، لتعرف ما الأمر. كانت عيونها تلتمع من خلال الشعر المتشابك، ومناخيرها العارية مليئة بالظلال.

---

* بالغ الحماسة. (المترجم).

** الـ(هايلاندز) اسم يطلق على اسكتلندة عادة. (المترجم).

صاحت «أرسيولا» في هلع: (ألا تفعل أي شيء؟).

هزت «غدرون»، التي كانت تخشى الماشية في العادة، رأسها في حركة غريبة، نصف مرتابة، نصف ساخرة، وعلى فمها ابتسامة خفيفة ثم هتفت بصوت صارٍ، عالٍ بما يشبه صرخة النورس:

- (أليست لطافاً، يا «أرسيولا»؟).

- (لطاف!) صاحت «أرسيولا» في خوف.. (لكن، ألن تفعل أي شيء بنا؟).

عادت «غدرون» تنظر إلى أختها بابتسامة غامضة، وهزت رأسها وقالت: (أنا متأكدة من ذلك) كأنها كانت ملزمة بأن تقنع نفسها كذلك. ومع هذا، وكما لو كانت واثقة من وجود قوة غامضة في ذاتها كان عليها أن تضعها على المحك، فإنها هتفت بصوتها الصادح العالي ثانيةً: (اقعدي وغني ثانية).

فصاحت «أرسيولا»: (أنا خائفة) بصوت مثير للشجن وهي ترقب مجموعة الأبقار القصيرة، القوية، التي كانت واقفة ثابتة الركب وهي تترصد بعيونها السود، اللئيمة، من خلال حواشي شعرها الكابي. ومع هذا تهاوت «أرسيولا» ثانية إلى وضعها السابق.

وجاءت صيحة «غدرون»: (إنها مأمونة الجانب تماماً.. غني شيئاً ما. ما عليك إلا أن تغني شيئاً ما).

كان من البيّن أن بها تشوقاً مشبوباً غريباً للرقص أمام الأبقار اللطيفة، القوية، فشرعت «أرسيولا» تغني، بنبرة نشاز مرتعدة:

- (هناك بعيداً في «تنسي»..).

بدا صوتها قلقاً جداً. ومع ذلك مضت «غدرون» بذراعين مبسوطتين ووجه مرفوع، نحو الماشية في رقصة خفاقة، غريبة، وهي ترفع جسمها صوبها كما لو كانت مسحورة، وقدماها تنبضان كأنهما في نوبة ما صغيرة من شعور غير واعٍ، وذراعاها ورسغاها ويداها ممدودة في صعود وهبوط، متطاولة، متطاولة، ثم هابطة، ونهداها مرفوعان، مهتزان صوب الماشية، ورقبتها مكشوفة كأنها في نشوة شهوانية في اتجاه القطيع، فيما كانت تنساب مقتربة نحوه أكثر فأكثر على نحو غير ملحوظ، جسماً أبيضَ خارقاً، مسوقةً في نشوتها الجذلى، منحسرة في تقلبات عجيبة إزاء الماشية التي كانت

تنتظر، وتحني رؤوسها قليلاً في انكماش غريب منها، وهي تراقب طيلة الوقت كالمنومين مغناطيسياً، وقرونها العارية تتطاول في الضوء الرائق حين ينداح عليها قوام المرأة الأبيض، في ارتعاشات الرقص البطيئة، المنوّمة مغناطيسياً. كان في وسعها أن تتحسس الأبقار قبالتها تماماً، كما لو كانت تتلقى نبضاً كهربائياً من ضروعها يسري في يديها. ولسوف تلمسها قريباً، تلمسها فعلاً. وسرت في الفتاة رعشة فظيعة من الخوف واللذة.

وفي أثناء ذلك كله كانت «أرسيولا» المأخوذة تواصل غناءها الواهن، العالي المقام، غير المتساوق، الذي كان يخرق المساء المنحسر، كأنه تعويذة.

كان في مقدور «غدرون» أن تسمع الأبقار وهي تتنفس تنفساً ثقيلاً، في خوف عاجز، وافتتان. أوه، كانت حيوانات صغيرة، شجاعة، تلك العجول الاسكتلندية البرية، مزغبةً، وبرية. وعلى حين غرة، نخر أحدها، وأحنى رأسه، وارتد.

- (هيوو! هايي!) دوّت صرخة عالية، مفاجئة من ناحية تخوم الأجمة، فتفرقت الماشية وارتدت بصورة عفوية جداً، وهي تجري صعداً على التل وزغبها يتماوج كاللهب مع حركتها. تسمرت «غدرون» وهي في وقفتها ثمة على العشب. أما «أرسيولا» فانتصبت على قدميها.

كان القادمان «جرالد» و«بركن». جاءا يبحثان عنهما، وكان «جرالد» قد أطلق صوتاً عالياً ليخيف الماشية ويبعدها.

صاح الآن بنبرة عالية، متعجبة، مغتاظة: (ماذا تظنان أنكما فاعلتان؟).

فردّت «غدرون» في صيحة غضب مدوية: (لِمَ جئتما؟).

فكرر «جرالد» تلقائياً: (ماذا تظنان أنكما كنتما تفعلان؟).

ضحكت «أرسيولا» بصوت مهزوز وقالت: (كنا نؤدي رقصاً إيقاعياً).

وقفت «غدرون» وقفةً نائيةً وهي تنظر إليهما بعينين واسعتين، مكفهرتين، من الامتعاض، وقد تسمرت بضع لحظات. ثم ابتعدت صاعدة التل وراء الماشية التي كانت قد تجمعت على هيئة عنقود صغير مأخوذ في موضع أعلى.

نادى «جرالد» وراءها: (إلى أين أنت ذاهبة؟) ثم تبعها مرتقياً سفح التل. كانت الشمس قد أمست خلف التل، وتشبثت الظلال بالأرض، وامتلأت السماء من فوق بالضياء الساري.

قال «بركن» لـ«أرسيولا» وهو واقف أمامها وعلى وجهه ضحكة مرفوعة ساخرة: (أغنية لا تصلح للرقص). وفي لحظة، أنشأ يغني بلطف لنفسه، ويرقص رقصةَ خطوٍ مضحكة قبالتها، وجسمه وأطرافه تختض بارتخاء، ووجهه يترجرج شاحباً، كشيء لا يتغير، في حين كانت قدماه تضربان إيقاعاً سريعاً ساخراً، وبدا جسمه متعلقاً بارتخاء واختضاض كليّين، وكأنه ظل.

قالت ضاحكة أكثر منها خائفة: (أظن أننا قد جُننّا جميعاً).

فأجاب وهو لما يزل يؤدي رقصة الخضّ اللابثة: (من المؤسف أن لا نكون أكثر جنوناً). ثم مال عليها فجأة وقبّل أناملها تقبيلاً خفيفاً، ملامساً وجهها بوجهه، وناظراً في عينيها في ابتسام شاحب. فخطت إلى الوراء، مهانة.

سألها ساخراً، وقد عاد وقوراً، هادئاً تماماً: (هل أسأتُ إليك؟ كنتُ أظن أنك تحبين الخيال الخفيف)*.

فقالت مرتبكة محتارة، تكاد أن تكون مهانة: (ليس هكذا!). ومع ذلك كانت، في مكان ما من قرارة نفسها، مفتونة بمنظر جسمه السائب المهتز، الذي تركه على سجيته كلياً ليهبط ويتمايل كما يشاء، وكذلك بوجهه الشاحب، الساخر المبتسم من فوقها. ومع هذا تصلبت تلقائياً، وهي ترتد وتستنكر. لقد بدا ذلك كأنه عمل فاحش، من رجل اعتاد أن يتكلم بمثل تلك الجدية.

قال هازئاً: (لماذا «ليس هكذا»؟). وفي الحال نزل ثانية ليؤدي رقصة الهزّ المتهدل، السريعة إلى درجة لا تصدق، وهو يراقبها بلؤم. ثم تقدم مقترباً قليلاً، وهو يتحرك في رقصه الراسخ السريع، وتقرّب قدماً، وعلى وجهه ومضة هازئة، ساخرة إلى درجة لا تصدق، وكان على وشك أن يقبلها ثانية، لولا ارتدادها فزعةً.

صرخت وهي خائفة فعلاً: (كلا! لا تفعل ذلك!).

فقال ساخراً: («كورديليا»**، أولاً وأخيراً). أحست بألم حاد كما لو كان قد وجه إهانة لها. كانت تعرف أنه كان يعنيها، فأورثها الذهول.

---

* الخيال الخفيف: نوع من الرقص ورد ذكره هكذا في قصيدة «جون ملتون» (١٦٠٩ - ١٦٧٤) التي تحمل العنوان (لالّيغرو). (المترجم).

** «كورديليا» هي إحدى بنات الملك «لير» في مسرحية شكسبير التي تحمل هذا الاسم، وتتميز «كورديليا» عن أختيها بتعففها. (المترجم).

صرخت ترد: (وأنت، لِمَ تضع دخيلتك في فمك دائماً، بمثل هذا الامتلاء الرهيب؟).

فقال مسروراً برده المفحم: (لكي أكون أسرعَ في بصقها).

تبع «جرالد كريتش» «غدرون» مباشرة، صاعداً التل بخطوات واسعة سريعة، وقد تضيق وجهه حتى غدا ومضة عزوماً. كانت الماشية واقفة في أعلى المنحدر، متقاربة المناخير، وهي ترقب المشهد الذي كان يجري في الأسفل، حيث كان الرجلان المرتديان البياض يحومان حول الهيئتين البيضاوين للمرأتين وتراقب على الخصوص «غدرون» التي كانت تتقدم نحوها ببطء. وقفت لحظة، لتنظر خلفاً إلى «جرالد»، ثم إلى الماشية.

ثم، وبحركة مفاجئة رفعت ذراعيها، واندفعت مباشرة نحو العجول الطويلة القرون، في ركضات مرتعدة، غير منتظمة، وهي تتوقف لحظة، وتنظر إليها، ثم ترفع يديها وتجري إلى أمام كالبرق، حتى توقفت العجول عن نبش الأرض، وتراجعت، وهي تنخر في هلع، وترفع رؤوسها من الأرض، مندفعة بعيداً، تخبّ خبباً لتلفها عتمة المساء، حتى غدت صغيرة جداً من بُعْد المسافة، وما توقفت.

ظلت «غدرون» تحملق إلى أعقابها، بوجه متحدٍ، كقناع.

سألها «جرالد» بعد أن بلغها: (لماذا تريدين أن تجننيها؟).

لم تكترث به، واكتفت بإشاحة وجهها عنه.

ألح قائلاً: (إن ذلك غير مأمون، كما تعلمين. إنها مؤذية إن استدارت فعلاً).

استهزأت قائلة بصوت عال: (تستدير إلى أين؟ تستدير هرباً؟).

قال: (كلا، تستدير لمهاجمتك).

سخرت: (تستدير لمهاجمتي أنا؟).

لم يستطع أن يفقه هذا القول.

قال: (على أية حال، لقد نطحت إحدى بقرات الفلاح حتى الموت، قبل أيام).

فقالت: (ماذا يهمني؟).

أجاب: (أنا الذي اهتممت على كل حال، فهي ماشيتي).

قالت، وهي تمد يدها: (كيف هي ماشيتك! هل ابتلعتها؟ أعطني إحداها الآن).

فقال مؤشراً إلى أعلى التل: (أنت تعرفين أين هي الآن. يمكنك أن تأخذي واحدة إن رغبت في إرسالها لك بعدئذ).

نظرت إليه نظرة غامضة، وسألت:

- (تظن أنني أخاف منك ومن قطيعك، أليس كذلك؟).

ضاقت عيناه على نحو خطر، وظهرت على وجهه ابتسامة باهتة غلابة.

وقال: (لِمَ يجب عليَّ أن أظن ذلك؟).

كانت تراقبه طيلة الوقت بعينيها المكفهرتين، المتوسعتين، البدائيتين.

مالت إلى أمام وصوبت ذراعها بحركة دائرية فأصابته بلطمة خفيفة على الوجه بظهر يدها.

- (هو ذا الجواب!) قالتها مستهزئة، وشعرت في دخيلتها برغبة عارمة في ممارسة العنف الشديد ضده. أوصدت الباب على الخوف والكمد اللذين ملآ عقلها الواعي، وأرادت أن تفعل مثلما فعلت. لن تكون خائفة بعد الآن.

ارتد من اللطمة الخفيفة على وجهه، وغدا شاحباً كالأموات، وغام في عينيه لهيب خَطِر. مرّت بضع ثوان دون أن يستطيع الكلام، وكانت رئتاه قد احتقنتا بالدم أيما احتقان، وقلبه قد تمدد حد الانفجار تقريباً بدفق شديد لعاطفة عارمة، كأن خزاناً من عاطفة سوداء قد انفجر في داخله، وغمره.

- (لقد ضربتِ الضربة الأولى)، قال أخيراً وهو يقسر الكلمات قسراً من رئتيه، بصوت بلغ من النعومة والانخفاض حداً بدا معه كحلم، داخلها، وليس كلاماً قيل في الهواء الخارجي.

ردت لا إرادياً، وبيقين واثق: (وسأضرب الضربة الأخيرة). سكت ولم يخالفها.

وقفت دون اكتراث، تحدق بعيداً عنه، في رقعة الأرض المنبسطة أمامها. كان ثمة سؤال يلح ذاتياً، على حافة وعيها: (لماذا تتصرفين، أنت، على هذا النحو المستحيل، السخيف؟). لكنها كانت حروناً، وكادت أن تلقي بالسؤال خارج ذاتها. لم تستطع أن تنحّيه عنها تماماً، ولذلك شعرت بالخجل.

كان «جرالد» يراقبها عن كثب، وهو شاحب جداً. كانت عيناه تشعان نوراً مركزاً، مشدوهاً وامضاً. وعلى حين غرة، التفتت نحوه وقالت بما يشبه الإيحاء:

- (أنت الذي تحملني على التصرف بهذه الصورة، كما تعلم).

قال: (أنا؟ كيف؟).

بيد أنها أشاحت بوجهها ومضت صوب البحيرة. وهناك في الأسفل، على سطح الماء كانت ثمة فوانيس تُنار، أطياف باهتة من لهب دافئ تطفو في شحوب الشفق المبكر. وكانت الأرض مفروشة بالظلام، كصبغة ألْك* وفوق الرؤوس كانت ثمة سماء شاحبة، كلها اصفرار، وكانت البحيرة في مثل شحوب اللَّبَن، في أحد الأجزاء. وفي الناحية البعيدة عند معبر النزول، كانت نقاط، ما أصغرها، من أشعة ملونة، تترابط كالقلادة في الغسق. وكان الزورق البخاري يضاء في تلك اللحظة. وفي كل مكان كانت الظلال تلتمّ من صوب الأشجار.

أما «جرالد»، الأبيض في ثيابه الصيفية مثل كائن إلهي، فقد سار في أعقابها نازلاً المنحدر المعشوشب، المفتوح. انتظرته «غدرون» ليلحق بها. ثم مدت يدها برقة ومسته، قائلة بنعومة: (لا تغضب مني).

سرت شعلة فيه، وغام وعيه. ومع ذلك قال متلعثماً:

ـ (أنا لست غاضباً منك. أنا متيم بك).

تاه عقله، وتشبث بقدر كاف من السيطرة الآلية، إنقاذاً لنفسه. أما هي فأطلقت ضحكة هزء صغيرة فضية، لكنها ضحكة ملاطفة لا تقاوم.

قالت: (هي ذي إحدى وسائل التعبير).

كان عبء الخدار الفظيع على عقله، الخدار المريع، وفقدان كامل سيطرته، أكثر مما يطيق. فمسك ذراعها بيد واحدة، يدٍ كأنها من حديد. ثم قال، ممسكاً بها وهي مطوقة: (لا بأس إذاً، أليس كذلك؟).

نظرت إلى الوجه ذي العينين المسمرتين، الماثل أمامها، فجرى دمها بارداً. وقالت بنعومة، وكأنها مُخَدَّرة، وصوتها مغرد كالمسحور:

ـ (نعم، لا بأس).

ظل يسير بجانبها بجسمٍ ساهٍ وخطى واسعة. لكنه جعل يستعيد وعيه قليلاً كلما غَذَّ في السير. كان يعاني كثيراً. كان قد قتل أخاه حين كان صبياً، فكان أن عُزِلَ مثل «قابيل».

* نوع من الوارنيش. (المترجم).

وجد «بركن» و«أرسيولا» جالسين معاً بالقرب من القوارب، يتحدثان ويضحكان. وكان «بركن» يغيظ «أرسيولا».

قال وهو يتنشق الهواء: (هل تشمين رائحة هذا المستنقع الصغير؟). كان حساساً جداً للروائح وسريعاً في تمييزها.

فقالت: (إنها لطيفة نوعاً ما).

أجاب: (كلا. إنها مروّعة).

ضحكت: (لماذا مروعة؟).

قال: (إنها تفور وتفور.. نهر من ظلام يُخْرِجِ الزئبق والأفاعي ونار المستنقعات الخدّاعة*، ويتدفق طيلة الوقت إلى الأمام. ذلك ما لا نأخذه في الحسبان أبداً.. تدفقه إلى الأمام).

ـ (ما الذي يتدفق؟).

ـ (النهر الآخر، النهر الأسود. نحن ننظر دائماً إلى نهر الحياة الفضي وهو يتدفق قدماً ويعجل العالم كله نحو ألق... قدماً، قدماً إلى السماء، جارياً نحو بحر خالد منير، نحو سماء محتشدة بالملائكة. لكن الآخر هو واقعنا الحق..).

قالت «أرسيولا»: (لكن ما هو الآخر؟ أنا لا أرى أي شيء آخر).

قال: (إنه واقعك، على الرغم من كل شيء. ذلك النهر الأسود، نهر الانحلال. لاحظي أنه يتدفق فينا كما يفعل الآخر.. نهر الفساد الأسود. ومن هذا تجيء أزهارنا.. و«افروديتنا»** المولودة في البحر، وكل أورادنا البيض المتوجهة، أوراد الكمال الحسي، كامل واقعنا في هذه الأيام).

سألت «أرسيولا»: (أتعني أن «أفروديت» هي في الواقع كالموت؟).

أجاب: (أقصد أنها السر المزدهر لعملية الموت. حين ينحسر جدول الخلق التكويني، نجد أنفسنا جزءاً من العملية المعاكسة: سلالة الخلق التدميري. تولد «أفروديت» في المخاض الأول من الانحلال الكوني.. تليها الأفاعي والبجع وزهر اللوتس.. زهور المستنقعات.. و«غدرون» و«جرالد».. يولدون، جميعاً، في عملية الخلق التدميري).

---

* قال «نار المستنقعات الخداعة» باللاتينية. (المترجم).

** «أفروديت» إلهة الحب والجمال عند الإغريق. (المترجم).

سألته: (وأنت وأنا؟).

فأجاب: (جائز. وأكيد جزئياً. لا أعرف حتى الآن إن كنا كذلك كلياً).

اعترضت: (تقصد أننا زهور الأغلال.. أزهار الشر*. أنا لا أحس كأنني كذلك).

صمت لحظة. ثم أجاب:

ـ (أنا لا أحس كأننا كذلك، كلياً. بعض الناس عبارة عن أزهار خالصة من الفساد الأسود.. زنبق. لكن يجب أن يكون هناك بعض الورد، دافئاً وناريّاً. تعرفين أن «هراكليتوس»** يقول «إن النفس الجافة هي الأحسن». أنا أعرف جيداً ما يعني ذلك. هل تعرفين أنت؟).

فأجابت: «أرسيولا»: (لست متيقنة. لكن ماذا لو أن الناس كلهم فعلاً أزهار انحلال.. هذا حين يكونون أزهاراً أصلاً.. ما الفرق؟).

قال: (لا فرق... وكل الفرق. يمضي الانحلال كما يتواصل الإنتاج. إنما عملية مستمرة.. وتنتهي بلا شيئية كونية.. نهاية العالم، إن شئتِ. لكنْ لم لا تكون نهاية العالم في مثل جودة البداية؟).

قالت «أرسيولا»، غاضبة نوعاً ما: (أظن أنها ليست كذلك).

قال: (بل نعم، في خاتمة المطاف إنها تعني دورةَ خَلْقٍ جديدة بعد ذلك.. لكن ليس بالنسبة إلينا. فإن كانت النهاية، فنحن جزء من النهاية، «أزهار الشر»، إن شئتِ. فإن كنا «أزهار شر»، فلسنا أوراد سعادة. هذه هي النتيجة).

قالت «أرسيولا»: (لكنْ أظن أنني كذلك. أظن أنني وردة سعادة).

فسأل ساخراً: (اصطناعية؟).

فقالت، متألمة: (كلا.. حقيقية).

قال: (إن كنا النهاية، فلسنا البداية).

قالت: (بل نحن كذلك، تأتي البداية من النهاية).

ـ (بعدها، وليس منها. بعدنا، وليس منا).

قالت: (أتعلم أنك إبليس، حقاً. أنت تريد أن تحطم أملنا. تريد منا أن نكون كالأموات).

---

* قالتها بالفرنسية، وهي عنوان مجموعة شعرية للشاعر الفرنسي «شارل بودلير» (١٨٢١ ـ ١٨٦٧). (المترجم).

** «هراكليتوس»: فيلسوف إغريقي متشائم عاش في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. (المترجم).

فقال: (كلا، أريد فقط أن نعرف ما نحن).

فصاحت غاضبة: (ها! أنت تريد منا أن نعرف الموت، حسب).

فجاء صوت «جرالد» الرقيق، من خلال الغبش وراءه: (أنت مصيبة تماماً).

نهض «بركن». أقبل «جرالد» و«غدرون» وشرع الجميع يدخنون في لحظات الصمت. أشعل «بركن» سكائرهم، الواحد بعد الآخر، ورفّ عود الثقاب في الشفق، وطفق الجميع يدخنون بهدوء عند الشاطئ. كانت البحيرة معتمة، والضياء يحتضر مبتعداً عنها، في قلب الأرض المظلمة. وكان الهواء في كل مكان لا يُحَسّ به، لا هنا ولا هناك، وكان ثمة ضجيج غير حقيقي لآلات البزق، أو موسيقى مشابهة.

فيما كان الشعاع الذهبي يحتضر فوق الرؤوس، كان القمر يزداد ألقاً، وبدا كأنه كان يرسم صعوده في السماء على هيئة ابتسامة يرسلها. وذابت الغابات المظلمة على الشاطئ المقابل، مستحيلةً إلى عتمة شاملة. وفي وسط بواكير هذه العتمة الشاملة، كان ثمة تسلل منتشر من الأضواء. وفي الجهة البعيدة من البحيرة، كانت هناك خيوط شاحبة، خيالية، من الألوان، كمسبحة من لهب ممتقع، أخضر وأحمر وأصفر. وكانت الموسيقى تنبعث في هبّات صغار، أثناء استدارة الزورق البخاري، المنار كلياً، نحو الظل الأكبر، وهو يرجّ حوافه التي قوامها أضواء نصف عائشة، وينفخ موسيقاه في نفخات صغار.

كانت هناك إضاءة في كل مكان: هنا وهناك، بالقرب من سطح الماء الشاحب، وعلى الجهة البعيدة من البحيرة، حيث كان الماء بلون اللبن في آخر بياض للسماء، ولم يكن ثمة ظل، بل طفت شعلات وحيدة رقيقة من فوانيس الزوارق غير المرئية. كان هناك صوت مجاذيف، ومرّ زورق مجتازاً العتمة إلى الظلام القائم تحت الغابة، حيث بدت فوانيسه تضيء كالنار وهي مدلاة في هيئة كرات حمر، لطيفة. ومرة ثانية رفرفت ومضات حمر ظليلة منعكسة في البحيرة حول الزورق. كانت تلك الكائنات الحمر الصامتة من النار تنساب في كل مكان قرب سطح الماء، حيث تتصل بها أندر الانعكاسات التي تكاد لا ترى.

جاء «بركن» بالفوانيس من القارب الأكبر واجتمعت هامات الأشخاص البيض الأربعة، متحلّقين كظلال، ليشعلوها. أمسكت «أرسيولا» بالفانوس الأول، وأنزل

«بركن» الشعلة من مكتور يديه الورديتين، المتألقتين، إلى أعماق الفانوس. فاشتعل، فارتد الجميع كي ينظروا إلى القمر الأزرق، العظيم، قمر النور المتدلي من يد «أرسيولا»، والمرسل شعاعاً غريباً على وجهها. ارتجف الشعاع، فمضى «بركن» إلى مصدر النور وانحنى ثمة. شعَّ وجهه كطيف، غائم الوعي جداً، وفي الوقت نفسه كأنه شيء ما إبليسي. كانت «أرسيولا» متبرقعة، لا تبين من عتمة، وهي تحوم فوقه.

جاء صوته رقيقاً: (ذلك جيد).

رفعت الفانوس. كانت فيه مجموعة من اللقالق تنساب في سماء فيروزية من نور، فوق أرض داكنة.

قالت: (هذا جميل).

ورددت «غدرون»: (لطيف)، وودت لو تمسك واحداً، هي الأخرى، وترفعه، مليئاً بالجمال.

قالت: (أشعل واحداً لي). كان «جرالد» واقفاً بجانبها، مسلوب الحول. أشعل «بركن» الفانوس الذي كانت قد رفعته. خفق قلبها من ترقّبٍ لتعرف مدى الجمال الذي سيكون عليه. كان أصفر فاقعاً، به أزهار منتصبة، طويلة نامية في عتمة، من بين أوراقها المعتمة، ورافعة رؤوسها نحو ربيع الزمن، في حين حامت الفراشات حولها في الضوء الصافي الجليّ.

ندّت عن «غدرون» صيحة انفعال صغيرة، كأن الغبطة قد نفذت فيها نفاذاً.

وقالت: (ما أجمله! أوه، ما أجمله!).

كان الجمال قد نفذ في روحها فعلاً، فقد تجاوزت ذاتها في تحولها.

مال «جرالد» مقترباً نحوها، في منطقة ضوئها، كما لو كان يسعى لأن يرى جيداً، دنا منها ووقف ملامساً إياها، وهما يتطلعان إلى الكرة المشعة بالأصفر الفاقع. أدارت وجهها صوب وجهه الذي كان منوراً قليلاً بضوء الفانوس. وقفا معاً في اتحاد متفرِّد، مشرق، متقاربَيْن، يتحلقهما النور، وكل ما عداهما مستبعَد.

تطلع «بركن» جانباً، ومضى ليشعل فانوس «أرسيولا» الثاني. كان فيه قاع بحر ذو لون أحمر باهت، فيه سرطانات سود وأعشاب بحرية تتحرك متموجة في بحر شفاف يتحول لونه إلى أحمر ناري في الأعلى.

قال «بركن» لها: (عندك السماوات في الأعلى، والأمواه تحت الأرض).

ـ (كل شيء خلا الأرض بعينها)، قالتها ضاحكة وهي ترقب يديه الناشطتين وهما تحومان لإشعال الضياء.

صاحت «غدرون» بصوت مرنان، بل صارّ، صوت بدا مُنَفِّراً الآخرين منها: (أموت شوقاً لمشاهدة ما في فانوسي الثاني).

مضى «بركن» وأشعله. كان ذا لو أزرق، غامق، لطيف، وقاع أحمر، فيه سمكة حبار ضخمة بيضاء تنساب في جداول بيض رقيقة في كل اتجاه. كان لسمكةَ الحبار وجه، يحدق مباشرة من مركز الضوء على نحو جد ثابت وذي تركيز بارد.

هتفت «غدرون» بصوت مرتعب: (ما أرعبها حقاً!).

فضحك «جرالد» وهو بجانبها، ضحكة خفيضة.

صاحت في كمد: (لكن، أليست تلك مفزعة فعلاً؟).

ضحك ثانية وقال:

ـ (أبدليها بالسرطانات مع «أرسيولا»).

سكتت «غدرون» لحظة، ثم قالت:

ـ (هل تتمكنين من تحمل هذا الشيء الفظيع يا «أرسيولا»؟).

فقالت «أرسيولا»: (أظن أن الألوان بديعة).

فقالت «غدرون»: (وأنا كذلك. ولكن هل يمكنك أن تتحملي وجودها وهي تتأرجح في زورقك؟ ألا تودين تدميرها في الحال؟).

فقالت «أرسيولا»: (أوه، كلا. لا أريد أن أدمرها).

ـ (طيب. هل لديك مانع في أخذها بدل السرطانات؟ أمتأكدة من عدم وجود مانع لديك؟).

أقبلت «غدرون» لتبادل الفانوسين.

قالت «أرسيولا»: (كلا) وتخلت عن السرطانات وتسلمت سمكة الحبّار.

ومع ذلك لم تستطع إلا أن تشعر بشيء من الاستياء من الطريقة التي مارس فيها كل من «غدرون» و«جرالد» عليها حقاً منتحلاً، أو أسبقية.

قال «بركن»: (تعالا إذاً. سوف أضعها في الزوارق).

مضى هو و«أرسيولا» نحو القارب الكبير.

جاء صوت «جرالد» من عتمة الماء الشاحبة: (أحسب أنك سترجعني تجذيفاً يا «روبرت»).

فقال «بركن»: (ألن تذهب مع «غدرون» في زورق الـ«كانو»؟ سيكون ذلك أمتع).

تلا ذلك صمت وجيز. وقف «بركن» و«أرسيولا» في العتمة، عند حافة الماء بفوانيسهما المتأرجحة.. كان العالم وهمياً كله.

قالت «غدرون» له: (هل سيلائمك ذلك؟).

قال: (سيناسبني على نحو جيد جداً. ولكن ماذا عنك، والتجذيف؟ أنا لا أرى داعياً يوجب عليك أن تسحبيني).

قالت: (لم لا؟ أستطيع أن أسحبك جيداً مثلما أستطيع أن أسحب «أرسيولا»).

استطاع أن يدرك من نبرتها أنها كانت تريده لنفسها في القارب، وأنها كانت مغتبطة على نحو ماكر من تمكنها من السيطرة على كليهما، فاستسلم في خنوع متكهرب غريب.

ناولته الفوانيس، ثم ذهبت لتثبّت العصا في طرف زورق الـ(كانو).

مشى وراءها، ثم توقف والفوانيس تتدلى وترتطم بفخذيه الملتفعين بقماش الفانيلة الأبيض، مؤكدين العتمة من حولهما.

جاء صوته رقيقاً خارجاً من العتمة من فوق: (قبِّليني قبل أن نمضي).

توقفت عن عملها في اندهاش آني، حقيقي، وهتفت مستغربة حق الاستغراب:

- (ولكن لماذا؟).

فردد هازئاً: (لماذا؟).

وتطلعت إليه بنظرة ثابتة بضع لحظات. ثم مالت إلى الأمام وقبلته قبلة متمهلة، ترفة، متلبثة في الفم. ثم أخذت الفوانيس منه. في حين كان يقف منتشياً بالنار الكاملة التي كانت تضطرم في جميع مفاصله.

رفعا الزورق وأنزلاه في الماء، واتخذت «غدرون» موضعها، في حين دفعه «جرالد» مبتعداً عن الساحل.

سألته مضطربة البال: (هل أنت متأكد من أنك لا تؤذي يدك وأنت تفعل ذلك؟ إذ إنني كنت أستطيع أن أقوم بذلك على نحو جيد جداً).

فقال بصوت رقيق، خفيض دغدغ أحاسيسها بلطافة لا توصف: (لست مؤذياً نفسي).

وراقبته وهو جالس قربها، قريباً جداً منها، في مؤخرة الزورق، وساقاه متجهتان نحوها، وقدماه تمسان قدميها. ومضت تجذف بتؤدة، متلبثة، تتوق إلى أن يقول لها شيئاً ما، ذا معنى، لكنه ظل ساكتاً.

قالت بصوت رقيق، متلهف: (أنت تحب هذا، أليس كذلك؟).

فأطلق ضحكة قصيرة.

وقال بالصوت الواطئ، غير الواعي، نفسه، كأن شيئاً ما كان ينطق من باطنه: (توجد مسافة بيننا). أما هي فكانت كالدارية على نحو سحري بأنهما كانا متوازنين في الانعزال، في الزورق. ثم انقضت عليه بإدراك وتلذذ شديدين، قائلة بتلاطف ومرح:

- (لكنني قريبة جداً).

قال: (ومع ذلك، نائية، نائية).

صمتت ثانية، ملتذة، قبل أن تجيب بصوت مستثار مزماريّ النبرة.

- (ومع ذلك لا نستطيع التغيّر تغيّراً كبيراً، ما دمنا على سطح الماء).

داعبته على نحو غريب، ماكر، فغدا تحت رحمتها كلياً.

كان ثمة اثنا عشر زورقاً، أو أكثر، تؤرجح فوانيسها الوردية اللون الشبيهة بالأقمار، واطئة قرب سطح الماء، كأنها انعكاس شعلة نار. ومن بعيد، كانت الباخرة تصطفق وتطنّ، وتنساب بعجلتها المجذافية التي تطرطش الماء بخفوت، تاركة وراءها خيوطاً من أضواء ملونة، منيرة المكان كله بين آن وآخر على نحو جذاب، في دفق من الألعاب النارية، وشموع رومانية، وحزم من نجوم ومؤثرات بسيطة أخرى تنير سطح الماء وتظهر الزوارق وهي تتزاحف من حولها وعلى مبعدة منها. ثم يهبط الظلام الجميل ثانية، وتلوح الفوانيس والأضواء الصغيرة المترابطة بالخيوط منبلجة، ناعمة. كان ثمة اصطفاق مكتوم للمجاذيف وتماوج في أنغام الموسيقى.

جذفت «غدرون» على نحو يكاد لا يلحظ. وكان في استطاعة «جرالد» أن

يشاهد، غير بعيد أمامهما، فوانيس «أرسيولا» الوردية والزرقاء الزاهية تتدلى متأرجحة بنعومة، خداً لخد، أثناء تجذيف «بركن» وكذلك الومضات المتلألئة الزائلة المقتفية إثر المخور. كما كان واعياً لأضوائه هو، الملونة تلويناً رقيقاً وهي تلقي برقتها خلفه.

أراحت «غدرون» مجذافها وتطلعت في ما حولها. كان الزورق يرتفع مع أدنى انحسار للماء. وكانت ركبتا «جرالد» البيضاوان قريبتين جداً منها.

قالت برقة تكاد تبلغ حد التبجيل: (أليس هذا جميلاً؟).

نظرت إليه وهو متكئ إزاء بلورة الفانوس الخافتة. كان في إمكانها أن ترى وجهه، وإن كان ظلاً محصناً. لكنه كان قطعة من شفق. وكان صدرها محتدماً بالعاطفة المشبوبة نحوه، فقد كان جد جميل في سكونه وغموضه الرجوليين. كان فيه فيضٌ خالص، محدد من الرجولة ينبعث كالشذا من ملامحه المصاغة برقة وثبات، وكمالٌ محدد ثرّ في وجوده، مسّاها في نشوة، في رعدة من انتشاء ممضّ، فعشقت النظر إليه.

لم تشأ أن تلمسه في ذلك الوقت، لتعرف الماهية الأنأى والمشبعة لجسمه النابض بالحياة. كان لا يُدْرَك باللمس قطعاً، ومع ذلك كان ما أقربه! كانت يداها ممدودتين على المجذاف كالرقاد. ما كانت تبغي إلا مشاهدته، كظلّ بلّوري، لتتحسّس وجوده الجوهري.

قال بغموض: (أجل، إنه جميل جداً).

كان مصغياً إلى الأصوات الخافتة، القريبة: سقوط قطرات الماء من المجاذيف، الطقطقة الخفيفة المنبعثة من الفوانيس، خلفه، عند احتكاك بعضها ببعض، حفيف تنورة «غدرون» بين حين وآخر، وضجيج ناءٍ من جهة اليابسة. كان فكره غارقاً تقريباً، وكان هو غيره هو تقريباً، متشرباً لأول مرة في حياته في الأشياء الموجودة حوله. ذلك أنه كان دائماً في يقظة متحسسة إزاء نفسه، يقظة مركَّزة، لا تذعن. أما الآن فقد أفلت العنان، كان ينصهر انصهاراً غير محسوس فيتحد مع الكل. كان ذلك، كالرقاد الكامل المحض، رقاده الأول، الكبير في الحياة. لقد كان من قبل شديد الإصرار، شديد التحفظ، طيلة حياته. لكن ها هنا الآن رقادٌ وسلام وتراخٍ تام.

سألته «غدرون» ملتاعة: (هل أجذف باتجاه معبر النزول؟).

أجاب: (لا يهم المكان. لينجرف الزورق).

ردت: (أخبرني، إذاً، إن كنا بالغين أي موقع)، وكان صوتها ذلك الصوت الهادئ جداً، عديم النبرة، صوت الألفة الخالصة.

قال: (ستبيّن الأضواء ذلك).

وهكذا انجرفا صامتَيْن، بدون حراك تقريباً. كان ينشد الصمت، خالصاً، كاملاً. بيد أنها ظلت مبلبلة الفكر، من أجل كلمة ما، من أجل تطمين ما.

تساءلت، وهي تواقة لبعض التواصل: (هل سيفتقدك أحد؟).

فردد وراءها: (يفتقدني؟.. كلا! لماذا؟).

ـ (كنت أتساءل ما إن كان أحد ما سيبحث عنك).

ـ (لِمَ يبحثون عني؟) قالها، ثم تذكر آداب السلوك، فقال في صوت قد تغير: (لكنْ، لعلك تريدين الرجوع؟).

أجابت: (كلا، لا أريد الرجوع.. كلا، أؤكد لك).

ـ (أمتأكدة أنت تماماً أن كل شيء على ما يرام بالنسبة إليك؟).

ـ (كلياً).

عادا إلى الصمت. كان القارب البخاري يصطفق ويزمر، وأحدهم يغني. وعلى حين غرة، كأن الليل قد انشق، ندّت صرخة قوية، خليط من صراخ مضطرب، تصارعُ على سطح الماء. ثم ضجة مريعة لمجاذيف مرتدة، مرتجة بشدة.

نهض «جرالد» فتطلعت «غدرون» إليه خائفة.

قال غاضباً، وقلقاً للغاية، وهو يستقصي النظر خلال غبش الغسق: (شخص ما في الماء. أتستطيعين التجذيف إليهم؟).

فسألت «غدرون» في هلع عصبي: (إلى أين؟ أللزورق البخاري؟).

ـ (نعم).

فقالت في خشية عصبية: (ستخبرني إن لم أتجه الاتجاه الصحيح).

قال: (ظلّي على ما يقرب من الاستقامة). ومضى الزورق على عجل قدماً. استمر الصراخ والضجيج، وبدا ذلك مروعاً يخرق الغسق، فوق سطح الماء.

قالت «غدرون» بسخرية كارهة ثقيلة: (ألم يكن هذا لا مفر من حدوثه؟). لكن

شقّ عليه السماع، فنظرت إلى الوراء من فوق كتفها لترى طريقها. كانت في المياه شبه المعتمة فقاعات لطيفة منتشرة من الأضواء المتماوجة. ولم يبد الزورق البخاري بعيداً حيث كانت أنواره تتأرجح في بواكير الليل. جذفت «غدرون» بأشد ما تستطيع. لكنها بدت مترددة، خرقاء في ضربتها بعد أن جدّ الأمر، وشقّ عليها التجذيف بسرعة. تطلعت إلى وجهه. كان يتفرس في العتمة، جدٌّ يقظ وواع، ومنفرداً بنفسه، وعملياً. غاص قلبها وبدت كالميتة، وقالت لنفسها: (من الطبيعي أن لا يغرق أحد. طبيعي أن لا يغرقوا إذ سيكون ذلك ثمناً جد باهظ، جد فاضح). لكن قلبها كان بارداً بسبب وجهه الصارم، اللاشخصي. كان كأنه منتسب إلى الهلع والكارثة، انتساباً طبيعياً، كأنه عاد كما كان من جديد.

ثم جاء صوت طفل، صرخة بنت عالية تمزق المسامع:

- («داي»... «داي»... «داي»... «داي»... يا «داي»... يا «داي»... يا «داي»).

برد الدم في عروق «غدرون».

تمتم «جرالد»: (إنها «دايانا» أليس كذلك؟ القردة الصغيرة. لابد أنها تمارس إحدى حيلها).

وألقى نظرة على المجذاف ثانية. كان الزورق لا يمخر بما يكفي من السرعة بالنسبة إليه. لقد جعل هذا الضغط العصبي «غدرون» عاجزة عن التجذيف تقريباً. فاستمرت بكل قوتها. كانت الأصوات لا تزال تنادي وتجيب.

- (أين، أين؟ ها هنا - نعم - أي؟ كلا - كلا آ - آه. اللعنة على كل شيء - هنا - هنا). كانت الزوارق تسرع من كل حدب وصوب نحو الموقع. وكان من الممكن مشاهدة الفوانيس وهي تتأرجح قرب سطح البحيرة، والانعكاسات تتلوح خلفها في سرعة غير سوية. صوتت الباخرة ثانية، لسبب ما غير معروف. أما قارب «غدرون» فكان يمضي على عجل وفوانيسه تتأرجح خلف «جرالد».

عاد صوت الطفلة عالياً، صارخاً، وفيه نبرة بكاء ونفاد صبر، هذه المرة: (داي - يا داي - يا داي - داي!).

كان صوتاً فظيعاً، آتياً من جو المساء المعتم.

غمغم «جرالد» مخاطباً نفسه: (كان من الأفضل لو كنت في الفراش يا «ويني») انثنى يفك رباطي زوج حذائه ويدفعهما بعيداً بالقدم. ثم ألقى بقبعته الخفيفة في قاع الزورق.

قالت «غدرون» وهي تلهث في صوت هلوع:

- (أنت لا تستطيع أن تنزل إلى الماء بيدك المصابة).

- (ماذا؟ إنها لا تؤذي).

خلع سترته بعد جهد جهيد وألقى بها بين قدميه، وجلس حاسر الرأس، في بياض تام. ثم تحسس الحزام عند خصره. كانا يقتربان من القارب البخاري، الذي كان لا يزال متوقفاً قبالتهما بضخامته، بأضوائه الكثيرة وهي ترسم انطلاقات لطيفة وألسنة ملتوية جارية من الضوء الأحمر القبيح والأخضر والأصفر على صفحة الماء المدلهم، الملتمع، تحت العتمة.

ناح صوت الطفلة في شرود: (أوه أخرجوها! أوه يا «داي» يا حبيبتي! أوه أخرجوها! أوه يا بابا، أوه يا بابا!).

كان ثمة شخص ما في الماء ومعه حزام إنقاذ. اقترب زورقان وفوانيسهما تتأرجح دون جدوى، وحاما حول المكان.

- (مرحباً يا من هناك - يا «روكلي»! مرحباً يا من هناك!).

هتف صوت القبطان مرتعباً: (يا سيد «جرالد»! الآنسة «دايانا» في الماء).

سأل «جرالد» بصوت حاد: (هل نزل أحد إلى الماء وراءها؟).

- (الطبيب الشاب «برندل»، سيدي).

- (أين؟).

- (لا أستطيع أن أرى أثراً لهما، سيدي. الجميع يترصدون، لكن لا شيء لحد الآن).

كان ثمة صمت نحس دام لحظةً.

- (أين سقطت؟).

جاء الجواب غير المؤكد: (حيث يوجد ذلك القارب تقريباً.. كما أظن... ذلك القارب ذو الأضواء الحمر والخضر).

فقال «جرالد» لـ«غدرون» بهدوء: (جذفي إلى هناك).

وجاء صوت الطفلة يصرخ جزعاً: (أخرجها يا «جرالد»، أوه، أخرجها). لكنه لم يبال.

قال «جرالد» لـ«غدرون» وهو واقف في الزورق الرقيق:

- (ميلي إلى الخلف بهذا الاتجاه. لن ينقلب الزورق).

وفي لحظة أخرى، كان قد ألقى بنفسه في الماء رأساً، على نحو هيّن، مباشر. تمايلت «غدرون» تمايلاً شديداً في زورقها، فاضطرب الماء بأضوائه العابرة، وأدركت خفوت ضوء القمر، وذهاب «جرالد». إذاً، كان الذهاب أمراً ممكناً. كان شعور فظيع بالجبرية قد سلبها كل حس وفكر. كانت تعرف أنه خرج من العالم. لم يكن هناك سوى العالم نفسه، والغياب: غيابه. لقد بدا الليل طويلاً، خاوياً. وكانت الفوانيس تتأرجح هنا وهناك، والناس يتحدثون بنبرة واطئة على متن الزورق البخاري وفي القوارب الأخرى.

كانت تستطيع سماع «وينيفرد» تولول: (أوه، جِدْها يا «جرالد»، أرجوك جدها)، وشخص آخر يحاول أن يطمئنها. ظلت «غدرون» تجذف في شرود هنا وهناك. لقد أرعبها سطح الماء الفظيع، الشاسع، البارد، الذي لا حدود له، رعباً يفوق الوصف. هل إنه غير عائد أبداً؟ أحست بأن عليها أن تقفز في الماء هي الأخرى، كي تدرك الفظاعة هي كذلك.

جفلت عند سماعها أحدهم يقول: (هوذا). شاهدت حركة سبحه، كجرذي الماء. فجذفت نحوه بصورة لا إرادية. لكنه كان قريباً من زورق آخر، زورق أكبر. ومع ذلك مضت تجذف صوبه. لابد أن تكون قريبة جداً منه. رأته.. كان منظره كالفقمة. لقد بدا كالفقمة وهو يتشبث بجانب الزورق. كان شعره الأشقر مبلولاً نازلاً من فوق رأسه المدوّر؟ وبدا وجهه ملتمعاً التماعاً رقيقاً. كانت تستطيع أن تسمعه يلهث.

ثم صعد إلى الزورق. أوه، إن جمال انكشاف حقويه الأبيضين المنوَّرين بنور خافت أثناء تسلقه جانب الزورق جعلها تتوق إلى الموت، إلى الموت.

كان جمال حقويه النيرين، دون وضوح، أثناء صعوده إلى الزورق، وظهره المكوّر، الرقيق.. آه، لقد كان هذا ما لا تتحمله، كان منظراً نهائياً بما لا يطاق. لقد عرفت ذلك، وكان ذلك مميتاً. اليأس الفظيع للقدر، وللجمال، مثل هذا الجمال!

لم يكن كالرجال بالنسبة إليها، كان تجسيداً، مرحلة من الحياة عظيمة. رأته يزيح الماء عن وجهه. وينظر إلى ضماد يده. وأدركت ألا مناص البتة، وأنها لن تتجاوزه أبداً: كان هو التقريب الأخير للحياة بالنسبة إليها.

ـ (أطفئوا الأضواء، نَرَ على نحو أفضل) جاء صوته مفاجئاً، آلياً، منتمياً إلى عالم الرجال. كان يشق عليها أن تصدق أن هناك عالماً للرجال. استدارت منحنية ونفخت لتطفئ فوانيسها. كان من الصعب إطفاؤها. انطفأت الأضواء في كل مكان عدا النقاط الملونة على جانبي الزورق البخاري. حلت بداية الليل الرمادية المائلة إلى الزرقة في الأرجاء كافة، وكان القمر عالياً فوق الرؤوس، وكانت هناك أشباح زوارق هنا وهناك.

انبعثت طرطشة ثانية، وغطس «جرالد» تحت سطح الماء. أما «غدرون» فلبثت جالسة، عليلة الفؤاد، خائفة من سطح الماء المستوي الشاسع، الثقيل جداً والقتّال. كانت جد وحيدة إزاء رقعة الماء المستوية، الهامدة، الممتدة، شاسعةً تحتها. لم يكن انعزالاً جيداً، كان انفصالَ ترقّبٍ مرعباً، بارداً، كانت معلقة فوق سطح الواقع الغدّار، إلى أن يحين وقت اختفائها هي الأخرى تحته.

ثم علمت، من اضطراب الأصوات، أنه قد خرج ثانية وصعد إلى أحد الزوارق. جلست وهي تنشد الاتصال به. وظلت تسعى، سعياً شاقاً، لتحقيق التواصل معه عبر فسحة الماء غير المرئية. لكنْ، حول قلبها، كانت ثمة عزلة لا تطاق، لا يخترقها أي شيء.

ـ (خذوا الزورق البخاري إلى الداخل، فلا فائدة من إبقائه هناك. وجيئوا بحبال للسحب)، هكذا جاء الصوت الجازم، العملي، المفعم بجرس الدنيا.

شرع الزورق البخاري يصطفق بالماء تدريجياً.

ـ («جرالد»! «جرالد»!)، جاء صوت «وينيفرد» الباكي. لم يجب. وببطء انسل الزورق البخاري مستديراً في دائرة خرقاء مثيرة للشجن، منساقاً نحو اليابسة، متراجعاً إلى داخل العتمة. وغدا اصطفاق عجلته المجذافية أثقل. أما «غدرون» فكانت تهتز في زورقها الخفيف. فغمرت مجذافها في الماء تلقائياً لتثبّت نفسها.

جاء صوت «أرسيولا» منادياً: («غدرون»؟).

- («أرسيولا»!).

اقترب زورقا الشقيقتين من بعضهما.

قالت «غدرون»: (أين «جرالد»؟).

فقالت «أرسيولا» شاكية: (لقد غاص ثانية.. أنا أعرف أنه لا ينبغي له أن يفعل ذلك بسبب يده المصابة وما إليها).

قال «بركن»: (سآخذه إلى داخل البيت هذه المرة).

تمايلت القوارب ثانية جراء مخور الباخرة. ظلت «غدرون» و«أرسيولا» تترصدان «جرالد».

صاحت «أرسيولا» ذات العينين الأكثر حدة: (هاهو ذا!).

لم يكن قد مكث طويلاً تحت سطح الماء. انطلق «بركن» صوبه، تتبعه «غدرون». سبح متمهلاً، وأمسك بالقارب بيده المجروحة، فانزلقت، فغاص ثانية.

صاحت «أرسيولا» بحدة: (لِمَ لا تساعده؟).

ظهر ثانية، فمال «بركن» ليعينه في ركوب القارب. عادت «غدرون» فراقبت «جرالد» وهو يخرج من الماء، ببطء وتثاقل هذه المرة في مثل الحركات العمياء لحيوان برمائي يتسلق في جهد جهيد ومحاولات خرقاء. ومرةً ثانية شعّ القمر بألق خاقت على بدنه الأبيض المبلل وعلى الظهر المحنيّ وعلى حقويه المكورين. لكنّ بدنه بدا مدحوراً الآن، فقد حاول التسلق لكنه سقط سقوطاً أخرق بطيئاً. كان يتنفس مبحوحاً، كذلك، كحيوان متعذب. جلس في القارب بارتخاء، دون حراك، ورأسه أعمى، كليل، كرأس فقمة، وكل مظهره لا بشري، غير مدرك. ارتعدت «غدرون» وهي تتبع قاربه تتبعاً آلياً. أما «بركن» فقد جذف نحو معبر النزول دون أن ينبس ببنت شفة.

سأل «جرالد» بغتة كأنه قد استيقظ تواً: (أين أنت ذاهب؟).

فقال «بركن»: (إلى البيت).

فقال «جرالد» مكابراً: (كلا! لا نستطيع الذهاب إلى البيت ما داما في الماء، ارجع ثانيةً. سوف أجدهما).

خافت الأمرأتان. فقد كان صوته سلطوياً، خطراً، حد الجنون تقريباً، لا تجب مقاومته.

قال «بركن»: (كلا. أنت لا تستطيع ذلك). كان في صوته قسر لزج غريب. صمت «جرالد» في معركة الإرادات. كان كمن كان بوده قتل الرجل الآخر. لكن «بركن» مضى يجذف رصيناً، غير منحرف، في حتمية غير بشرية.

قال «جرالد» كارها: (لِمَ يتعين عليك أن تتدخل؟).

لم يجب «بركن» واستمر يجذف صوب اليابسة. فجلس «جرالد» صامتاً، كدابة خرساء، يلهث، وأسنانه تصطك، وذراعاه هامدتان، ورأسه كرأس فقمة.

بلغوا معبر النزول، ارتقى «جرالد» الدرجات القليلة، وهو مبلل، عاري المظهر. وهناك كان أبوه واقفاً في عتمة الليل.

قال: (أبي!).

- (نعم يا ولدي؟ اذهب إلى البيت وأخلع هذه الملابس).

قال «جرالد»: (لن ننقذهما، يا أبي).

- (لا زال هناك أمل، يا ولدي).

- (أخشى عكس ذلك. لا أحد يعرف أين هما. لا تستطيع أن تجدهما. ثم هناك تيار، بارد كجهنم).

قال الوالد: (سوف نصرّف الماء. أما أنت فأذهب إلى البيت وأعتن بنفسك). ثم أضاف بنبرة محايدة: (تكفّل به، يا «روبرت»).

- (حسن، يا والدي. أنا آسف. أنا آسف. أخشى أن الغلطة غلطتي. لكن لا مفر من ذلك. لقد فعلت ما استطعت في الوقت الحاضر. طبيعي أنني أستطيع أن أواصل الغطس.. ليس كثيراً، وبلا شك دون كبير فائدة).

مضى حافي القدمين على ألواح المنصة. ثم داس على شيء حاد.

قال «بركن»: (بلا شك، أنت بدون حذائك).

فصاحت «غدرون» من الأسفل: (حذاؤه هنا). كانت آنذاك تربط زورقها ربطاً محكماً.

انتظر «جرالد» أن يأتوه بزوج الأحذية. جاءت «غدرون» بهما فلبسهما سحباً.

قال: (إن متَّ مرةً، انتهى الأمر وانقضى. لِمَ العودة إلى الحياة ثانية؟ هناك مجال تحت الماء لآلاف).

فقالت مغمغمة: (يكفي اثنان).

لبس حذاءه الثاني جَرّاً. كان يرتجف بشدة، كان فكه يرتعش وهو يقول:

- (هذا صحيح.. ربما. لكن من العجيب أن يكون هناك مجال بهذه السعة، عالم بأكمله ثمة، وبارد كجهنم، حيث يكون المرء عاجزاً، كأنه مقطوع الرأس). كان لا يكاد يستطيع أن يتكلم، وهو يرتجف بمثل تلك الشدة. ثم واصل قائلاً: (تعلمون بأن هناك شيئاً واحداً يخص عائلتنا. فمجرد أن يسوء أمر ما، لا يمكن إصلاحه ثانية أبداً.. ليس عندنا. لقد لاحظت ذلك طيلة حياتي.. لا تستطيع أن تصوّب الخطأ متى ما وقع).

كانوا يسيرون عبر الطريق الرئيس نحو البيت.

- (وهل تعرفون بأنكم حينما تكونون هناك، في الأسفل، فإن المكان بارد جداً، فعلاً، لا نهائي جداً، ومختلف جداً في الواقع عما في الأعلى، لا نهائي جداً.. لسوف تتساءل كيف أن الكثيرين الكثيرين أحياء ولماذا نحن هنا فوق. هل أنتم ذاهبون؟ سأراكم ثانية، أليس كذلك؟ ليلتكم سعيدة.. وشكراً. أشكركم جزيل الشكر).

انتظرت الفتاتان فترة لتريا إن ثمة أمل. كان القمر يضيء واضحاً في كبد السماء بألق يكاد يكون وقحاً، وتجمعت القوارب الصغيرة المعتمة على سطح الماء، وكانت هناك أصوات، وصرخات مكتومة. لكنّ كل ذلك كان دون جدوى. أما «غدرون» فقد ذهبت إلى البيت حينما قفل «بركن» راجعاً.

لقد خوّلوه رفع فتحة التصريف ليصرف المياه من البحيرة، التي كانت قد جُعِلَتْ لها فتحة في إحدى نهاياتها قرب الطريق الرئيس، وبهذا أمكن استخدامها خزاناً لتجهز المناجم النائية بالماء عند الضرورة.

قال لـ«أرسيولا»: (تعالي معي، وبعدها سأصحبك إلى البيت مشياً، حين أفرغ من هذا).

عرَج على كوخ حارس المياه وأخذ مفتاح فتحة التصريف. ثم مرّا عبر بوابة صغيرة من الطريق الرئيس إلى صدر الماء حيث يوجد حوض حجري ضخم يتلقى الفيض الزائد، وسلّمٌ حجري الدرجات ينزل إلى أعماق المياه نفسها. وفي أعلى السلم كانت بوابة التصريف.

كان الليل رائعاً ذا لون رمادي فضي، لا تعكره سوى الأصوات المتناثرة القلقة.

وكان بهاء ضوء القمر يسود فسحة الماء، والزوارق المعتمة يصطفق الماء عليها، وتتحرك، لكن عقل «أرسيولا» توقف عن التلقي.. كان كل شيء غير مهم، وغير حقيقي.

ثبت «بركن» قبضة التصريف الحديدية وأدارها بالملوى. فشرعت الأسنان ترتفع ببطء. ظل يدير ويدير، كأنه عبد، وغدا شكله الأبيض واضحاً. أن "أرسيولا" بوجهها لم تستطع أن تتحمل مرآه وهو يدير، مثقلاً ومنهكاً، وينثني ويقوم آلياً، مثل عبد، لإدارة القبضة.

ثم طرقت سمعهما طرطشة ما عالية، خَضَّتْها فعلاً. أتت من خارج الغور المظلم المليء بالأشجار، الواقع وراء الطريق، طرطشة زادت حدتها سرعة حتى غدت هديراً صارخاً، ثم صارت ضجة مدوّية ثقيلة لمقدار ضخم من الماء يسقط صلداً بلا انقطاع. لقد استغرق الليل كله.. هذا الدويّ العظيم المتواصل، حتى غرق كل شيء في خضمه، غرق وضاع، أما «أرسيولا» فبدت كأن عليها أن تكافح من أجل حياتها، ووضعت يدها فوق أذنيها، وأخذت تنظر إلى القمر الأنيس العالي.

صرخت في وجه «بركن»: (ألا نستطيع أن نرحل الآن؟). وكان هو يراقب الماء على الدرجات ليرى إن كان سينخفض منسوبه، بمقدار ما. وبدا أن المشهد قد فتنه، ثم نظر إليها وأومأ برأسه.

كانت القوارب الصغيرة المعتمة قد دنت أكثر، وتزاحم الناس فضولاً على طول السياج النباتي للطريق، ليشاهدوا ما تجب مشاهدته. أما «بركن» و«أرسيولا» فمضيا إلى الكوخ ومعهما المفتاح، ثم أدارا ظهريهما إلى البحيرة. لقد كانت مستعجلة جداً. لم تستطع أن تتحمل الدوي المريع الهادر للمياه المنفلتة.

صاحت بصوت عال كي يسمعها:

- (هل تظن أنهما ماتا؟).

أجاب: (نعم). فردت: (أليس ذلك فظيعاً؟).

لم يكترث. وسارا صعداً فوق التل، مبتعدين عن الضجة أكثر فأكثر.

سألته: (هل تهتم كثيراً؟).

قال: (لا يهمني أمر الموتى بعد أن يكونوا قد قضوا نحبهم. أسوأ ما في الأمر أنهم يتشبثون بالأحياء ولا يتركونهم وشأنهم).

فكرت ملياً فترة من الوقت. وقالت:

ـ (أجل. إن حقيقة الموت لا تبدو هامةً جداً في واقع الأمر. أليس كذلك؟).

قال: (كلا. ماذا يهم إن كانت «دايانا كريتش» عائشة أم ميتة؟).

فقالت وقد صدمت: (صحيح؟).

ـ (كلا. ماذا يهم؟ من الأفضل أن تموت.. ستكون حقيقية أكثر بكثير. ستكون إيجابية في الموت. كانت، في الحياة، شيئاً نكرة، نكدة).

فغمغمت «أرسيولا»: (تكاد تكون فظيعاً).

ـ (كلا! أفضّل أن تكون «دايانا كريتش» قد قضت نحبها. كانت حياتها خطأ كبيراً على نحو ما. أما بشأن الشاب المسكين فلسوف يجد سبيله للخلاص، سريعاً، بدل الأبطاء. الموت حسن.. لاشيء أحسن منه).

فتحدّته قائلة: (ومع هذا فإنك لا تريد أن تموت).

صمت بعض الوقت، ثم قال بصوت أفزعها التغير فيه:

ـ (أود أن أفرغ منه.. أود أن أفرغ من عملية الموت).

فسألته «أرسيولا» بعصبية: (أولم تفعل ذلك؟).

سارا بعض المسافة صامتين تحت الأشجار. ثم قال متأنياً كأنه خائف:

ـ (توجد حياة تخص الموت، وتوجد حياة ليست موتاً. يمل المرء من الحياة التي تخص الموت.. نوع الحياة التي نعيش. لكن هل تنتهي؟ الله أعلم. أنا أنشد حباً شبيهاً بالرقاد، شبيهاً بميلاد ثان، واهناً كطفل يجيء إلى الحياة تواً).

أنصتت «أرسيولا» نصف متنبهة، نصف معرضة عما قال. لقد بدت أنها أدركت مقصد أقواله، ثم انسحبت عنه. كانت تبغي السماع، لكنها لم تشأ أن تتورط. كانت تكره أن تستسلم في تلك النقطة، حيث أرادها أن تستسلم، أن تتخلى عن هويتها وخصوصيتها.

تساءلت حزينة: (لِمَ يجب أن يكون الحب كالرقاد؟).

ـ (لا أعرف. كي يكون مثل الموت.. أنا أريد أن أموت وأغادر هذه الحياة.. ومع هذا فإنه أكبر من الحياة ذاتها. فالفرد يتم تسلمّه طفلاً عارياً آتياً من الرحم، وقد تلاشت كل الدفاعات القديمة والجسد القديم. وأحاط به هواء جديد لم يتنفسه أحد قط).

أنصتت، لتستوعب ما قال. كانت تعلم، كما كان يعلم، أن الكلمات نفسها لا تنقل المعنى، وأنها ليست سوى إيماءة نومئ نحن بها. أو عَرْض أخرس مثل أي عرض آخر غيره. وبدت أنها كانت تشعر بهذه الأيماءة تتخلل دمها، فارتدت، وإنْ دفعتها رغبتها قُدُماً.

قالت بجد: (لكن، ألم تقل أنك تريد شيئاً غير الحب. شيئاً يتجاوز الحب؟).

التفت مرتبكاً. كان ثمة على الدوام ارتباك في الكلام. ومع هذا لابد من الكلام. فحيثما اتجه المرء، لا بد له أن يشقّ له سبيلاً، إن وجب عليه التحرك إلى أمام. إن المعرفة، إن النطق، إنما هو شقّ لسبيل عبر جدران السجن، كما يكافح جنين المخاض خَلَلَ جدار الرحم. وليست هناك حركة جديدة الآن، دون قيام الجسد القديم بشق سبيل. عن عَمْدٍ ومن خلال المعرفة، من خلال الكفاح من أجل الخروج.

قال: (لا أريد الحب. لا أريد أن أعرفك. أريد أن أخرج من ذاتي. وأن تضيعي أنت من ذاتك، وهكذا نوجد مختلفَيْن. لا يتعين على المرء أن يتكلم حين يكون متعباً وبائساً. «يتهملت»*المرء، فيطفح الكذب. لا تصدقيني إلا عندما أريك شيئاً من الغرور المعافى وقلة الاكتراث. أنا أكره نفسي عند الجد).

قالت: (لم لا تكون جدياً؟).

فكر هنيهة، ثم قال عابساً: (لا أدري).

ثم واصلا السير في صمت، على غير اتفاق. كان غامضاً وضائعاً.

قالت وقد وضعت يدها على ذراعه فجأة، في نزوة محبة: (أليس غريباً أننا نتحدث دائماً هكذاا!. أحسب أننا نحب بعضنا على نحو ما، من المؤكد).

قال: (طبيعي، أكثر مما ينبغي).

فضحكت جذلة تقريباً، ثم قالت في مكايدة رقيقة:

ـ (لا بد أن تسير الأمور على هواك، أليس كذلك؟ لن تستطيع أن تأخذها مأخذ الائتمان أبداً).

تغيّر، وأطلق ضحكة ناعمة، واستدار ليحضنها بين ذراعيه في وسط الطريق.

---

* «يتهملت» : يتشبه بـ «هاملت» بطل مسرحية شكسبير الشهيرة . والإشارة هنا ، على ما يبدو ، إلى المشاهد التي يتحدث فيها «هاملت» إلى نفسه . (المترجم) .

قال بنبرة ناعمة: (نعم). ولثم وجهها وجبينها، متمهلاً، مترفقاً، بنوع من الغبطة الرقيقة أدهشتها غاية الدهشة، ولم تستطيع أن تستجيب لها. كانت قبلاتٍ ناعمةً، مغمضة، في غاية الهدوء. ومع ذلك صدّتها.

كانت أشبه بفراشات غريبة، صامتة وناعمة جداً، استقرت عليها من عتمة روحها. كانت غير مرتاحة. فانسحبت مبتعدة، قائلة: (أليس هناك شخص قادم؟).

عند ذلك تطلعا إلى الطريق المظلم، ثم انطلقا ثانية سيراً صوب (بلدوفر). وعلى حين غرة، ولكي تريه أنها ليست متكلفة الحياء الفارغ، توقفت وأمسكت به بشدة، محتضنة إياه بقوة، وغمرت وجهه بقبلات مشبوبة، قوية، شديدة، فاصطخب الدم القديم، على الرغم من طبيعته المغايرة.

ـ (ليس هذا.. ليس هذا)، قالها لنفسه ناشجاً، عند انحسار أول نشوة كاملة من النعومة واللطافة الرقادية، من دفق العاطفة التي بلغت أطرافه وغطت وجهه حين أدنته منها. وسرعان ما غدا شعلة صلدة كاملة من الاشتياق المشبوب إليها. ومع هذا، كان في لب الشعلة الصغير عذابٌ لا يذعن، من شيء آخر. لكن هذا قد غاب هو الآخر، لقد أرادها حسب، وبشوق متناهٍ بدا محتماً كالموت، وبلا نقاش.

أخيراً مضى إلى البيت بعيداً عنها، وهو راض ومحطم، محقق المرام ومدمَّر. سار منجرفاً على نحو غامض خلال العتمة، مرتداً إلى الشعلة القديمة المتأججة. وفي البعيد، البعيد، بدا أنه كانت ثمة لوعة صغيرة في الظلام. لكن ما همَّ؟ ما همَّ؟ ما أهمية أي شيء خلا هذه التجربة، المنتصرة، النهائية، تجربة العاطفة الجسدية المشبوبة التي تأججت ثانية كمرحلة جديدة من الحياة. قال منتصراً، ساخراً من ذاته الأخرى: (كنت على وشك أن أغدو حياً ـ ميتاً، تماماً.. لا شيء سوى جعبة كلام). ومع ذلك، كانت الذات الأخرى تحوم في مكان ما بعيدة، صغيرة.

كان الرجال لا يزالون يصرفون مياه البحيرة حين عاد. وقف على الشاطئ وسمع صوت «جرالد». كانت المياه لا تزال تهدر في هدأة الليل، وكان القمر لطيفاً، والتلال البعيدة خدّاعة. وكان منسوب البحيرة في انخفاض، وانتشرت رائحة الشواطئ الفجة في هواء الليل.

في (شورتلاندز)، فوق، كانت أضواء في النوافذ، كأنْ لم يهجع أحد. وعلى معبر

النزول كان الطبيب المسنّ، والد الشاب الذي فُقِدَ، يقف صامتاً تماماً وهو ينتظر. فوقف «بركن» أيضاً يرقب. ثم أقبل «جرالد» في زورق.

قال: (ألا زلت هنا يا «روبرت»؟ نحن عاجزون عن إيجادهما. أنت تعرف أن القاع منحدر كثيراً، والماء موجود بين منحدرين شديدين جداً، مع أودية فرعية صغيرة والله يعلم أين يأخذك المجرى، كأن القاع لم يكن مستوياً. أنت لا تعرف أين موقعك أبداً في عملية سحب المياه).

فقال «بركن»: (هل هناك أي داع لأن تعمل؟ أليس من الخير أن تذهب إلى الفراش؟).

- (إلى الفراش! يا إلهي! هل تظن أنني يجب أن أنام؟ سوف نجدهما قبل أن أرحل من هنا).

- (لكن الرجال سيجدونهما كذلك من دونك.. لم يجب عليك أن تصر؟).

فتطلع «جرالد» إليه، ثم وضع يده على كتف «بركن» في تحنان، وقال:

- (لا تنشغل بي يا «روبرت». إذا كان ثمة شخص ينبغي لك التفكير في صحته، فهو أنت وليس أنا. كيف تشعر أنت؟).

- (جيد جداً. لكن أنت.. أنت تفسد فرصتك في الحياة. أنت تضيع ذاتك الأحسن).

سكت «جرالد» برهةً، ثم قال:

- (أفسدها؟ أي شيء آخر يتعين أن أفعله بها؟).

- (لكن عليك أن تترك هذا، هلا فعلت؟ أنت تقسر نفسك على مكابدة الفظائع، وتثقل كاهلك بعبء جسيم من ذكريات بغيضة. هيا امض الآن).

فكرر «جرالد»: (عبء جسيم من ذكريات بغيضة). ثم عاد ووضع يده على كتف «بركن» في تحنان: (يا إلهي! إن لك طريقة جد مؤثرة في بسط الأمور يا «روبرت». نعم).

غاص قلب «بركن».. لقد أغتاظ وملّ من طريقته المؤثرة جداً في بسط الأمور:

- (هلا تركت هذا؟ تعال إلى مسكني)، هكذا ألحّ عليه كما يلح المرء على سكير، فقال «جرالد» ملاطفاً، وذراعه فوق كتف الرجل الآخر:

ـ (كلا. أشكر لك كثير الشكر يا «روبرت».. سيكون من دواعي غبطتي أن أجيء غداً، إذا كان ذلك وافياً بالمرام. أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟ أريد أن أرى نهاية هذا العمل تماماً. لكنني سوف آتي غداً، من المؤكد، تقريباً. أوه أفضِّل أن أجيء وأثرثر معك، عن أي شيء آخر. أؤمن بذلك حقاً. نعم. أود ذلك. إنك تعني الكثير بالنسبة إلي يا «روبرت». أكثر مما تعلم).

فتساءل «بركن» بعصبية: (ماذا أعني أنا أكثر مما أعلم؟). كان شاعراً بيد «جرالد» على كتفه كل الشعور، ولم ينشد هذه المهاترة. أراد إخراج الرجل الآخر من البؤس القبيح.

قال «جرالد» ملاطفاً: (سأخبرك في مناسبة أخرى).

قال «بركن»: (تعال معي الآن.. أريد منك أن تأتي).

كان هناك صمت، حقيقي ومتوتر. وتساءل «بركن» لِمَ كان قلبه يخفق بمثل هذه الشدة. ثم أمسكت أصابع «جرالد» بكتف «بركن» بقوة وتواصل، وهو يقول:

ـ (كلا يا «روبرت» أريد أن أرى نهاية هذا العمل. شكراً.. أعرف ما تقصد. إننا في وضع حسن، كما تعلم، أنا وأنت).

فقال «بركن»: (قد يكون حالي حسناً. لكنني متأكد أنك لست كذلك، وأنت تخوض في هذه القذارة). قال ذلك ومضى.

لم تُنْتَشَل جثتا الميتين إلا عند انبلاج الفجر تقريباً. كانت ذراعا «دايانا» قد طوقتا رقبة الشاب بشدة، خانقتيه.

قال «جرالد»: (لقد قَتَلَتْهُ).

انحدر القمر إلى أسفل السماء، ثم غاب في آخر المطاف. كانت البحيرة قد جرى تصريفها حتى الربع، وكانت شواطيها فجة، فظيعة من طين تفوح منه رائحة الماء المتعفن الفج. كان الفجر يلوح باهتاً وراء التل الشرقي، وكان الماء لا يزال يهدر من فتحة التصريف.

وبينما كانت الطيور تشدو في بواكير الصباح، والتلال القائمة خلف البحيرة الموحشة تتألق بمجيء أوائل الضباب، كان ثمة موكب متعثر متجه نحو (شورتدلاندز).. رجال يحملون الجثمانين على نقالة، و«جرالد» بجانبهم، والوالدان ذوا

اللحيتين اللتين وخطهما المشيب يسيران صامتين في الخلف. وفي الداخل، كانت العائلة كلها ساهرة، في الانتظار. كان لا بد من أن يخبر أحدهم الوالدة، في غرفتها. أما الطبيب فقد جاهد سيراً كي يستعيد ولده حتى كلٌّ هو الآخر منهوكاً.

وفي المنطقة المجاورة كلها ساد صمت من تأثر مريع في صباح ذلك الأحد. لقد شعر سكان المناجم كأن تلك النكبة قد أصابتهم هم، مباشرة بل إنهم قد فزعوا وصدموا أكثر مما لو كان رجالهم أنفسهم قد قتلوا. أن تحدث مثل هذه المأساة في (شورتلاندز)، مقام المنطقة السامي!. أن تغرق إحدى السيدات الصغيرات، التي لجّت في الرقص فوق سقف قمارة القارب البخاري، تلك (المدام)* الشابة العنود.. أن تغرق في وسط الحفلة البهيجة، ومعها الطبيب الشاب! ظل عمال المناجم هائمين في كل مكان صباح الأحد، وهم يتناقشون بشأن النكبة. وفي كل مآدب عشاء الأحد التي أقامها الناس بدا هناك حضور غريب. كأن ملاك الموت كان قريباً جداً. كان في الجو شعور بما هو فوق الطبيعة. فوجوه الرجال منفعلة، فزعة، وبدت النسوة وقورات، وقد بكى بعضهن. أما الأطفال فقد أمتعهم الاهتياج أول الأمر. كان ثمة توتر في الجو، يكاد أن يكون سحرياً. هل استمتع الكل بذلك؟ هل استمتعوا بالاهتياج جميعاً؟

راودت «غدرون» أفكار طائشة لأن تهرع لتسري عن «جرالد». كانت تفكر طيلة الوقت في الأشياء المريحة، المطمئنة، الكاملة التي يتعين عليها أن تقولها له. لقد رُوِّعَت وصدمت، لكنها نحت ذلك جانباً، مفكرة في كيفية تصرفها مع «جرالد»: كيف تؤدي دورها. تلك كانت الإثارة الحقة: كيف يجب عليها أن تلعب دورها.

أما «أرسيولا» فقد احبت «بركن» حباً مشبوباً عميقاً، وكانت عاجزة عن أي شيء آخر. كانت متحجرة العاطفة تماماً إزاء أحاديث الحادث كلها. لكن مظهرها المغترب بدا مختلاً. فقد اكتفت بالجلوس وحيدة كلما استطاعت، وهي تتوق لرؤيته ثانية. كانت تريده أن يأتي إلى الدار.. ولن تقبل بغير ذلك، لا بد أن يجيء في الحال. كانت في انتظاره. ظلت حبيسة الدار طيلة اليوم، في انتظار أن يطرق الباب. وكانت تتطلع إلى النافذة تلقائياً في كل دقيقة. لابد أنه آت.

---

* أثرنا الابقاء على كلمة (مدام)، التي تعني السيدة، ودون ترجمة لأنها الكلمة التي كان يستخدمها أبناء الطبقة العاملة في الإشارة إلى إحدى بنات الطبقة الغنية، على الرغم من أن المعنية هنا طفلة وليست سيدة. (المترجم).

الفصل الخامس عشر

مساء الأحد

بينما كانت ساعات النهار تمر بتثاقل، بدا دم الحياة في «أرسيولا» في انحسار، وتجمّع في الفراغ يأسٌ ثقيل. وبدت عاطفتها المشبوبة تنزف نزفاً مميتاً، ولم يبق أي شيء، فجلست معلقة في حالة من اللاشيئية المطلقة، أشقّ على التحمل من الموت.

خاطبت نفسها في الوضوح الكامل للمعاناة النهائية، قائلة: (إن لم يحدث شيء ما، فسوف أموت. لقد بلغت نهاية خط حياتي).

جلست متحطمة، مندرسة، في ظلام يتاخم الموت. لقد أدركت كيف أنها كانت تدنو من هذه الحافة، أكثر فأكثر، طيلة حياتها، حيث لا شيء وراءها، وحيث كان يتعين على المرء أن يثب منه نحو المجهول، كما فعلت «سايفو»*. كان العلم بقرب حدوث الموت كالمخدر، وكانت تعلم، في العتمة وبدون أي تفكير، أنها كانت قريبة من الموت. كانت رحلتها طيلةَ حياتها في مسار الاكتمال، وكاد هذا أن يتم. كانت تعرف كل ما يجب عليها أن تعرف، وقد خبرت كل ما كان عليها أن تجرب، واكتملت على نحو من النضوج المُرّ، ولم يبق إلا أن تسقط من الشجرة نحو الموت. ولا بد للمرء أن يستكمل نماءه حتى النهاية ويمضي بالمغامرة حتى الختام. وكانت الخطوة التالية: فوق الحافة، نحو الموت. كان هناك شيء من راحة البال في هذه المعرفة.

إن المرء على أي حال يكون أسعد ما يكون بعد اكتماله، حينما يسقط نحو الموت، كما تسقط الثمرة المرة إلى الأسفل عند نضوجها. الموت مخْتَتَم عظيم، تجربة خاتمة. إنه تطور من الحياة. ذلك أن نعرف ما دمنا على قيد الحياة. ما هي، إذاً، الحاجة إلى أن

* «سايفو» (٦٥٠ق . م .) شاعرة أغريقية قيل إنها قفزت إلى البحر لأن حبيبها لم يبادلها حبها . (المترجم) .

نفكر أبعد من ذلك؟ ليس في مقدور أحد أن يرى ما هو أبعد من الختام أبداً. يكفي أن الموت تجربة عظيمة ختامية. لِمَ يتعين علينا أن نسأل ماذا يلي التجربة حين لا تزال التجربة مجهولة بالنسبة إلينا؟ لِنَمُتْ، ما دامت التجربة الكبرى هي التي تلي الحاضر دون سائر الأشياء، الموت الذي هو الأزمة الكبرى التالية التي وصلنا قبالتها. فإذا انتظرنا، إذا أعقنا مسار العاقبة، سنكتفي بالتلبث عند الأبواب في تضايق مهين. هوذا، أمامنا، المجال اللا محدود، كما كان أمام «سايفو»، ففي داخل ذلك تمضي الرحلة. أليست لدينا الشجاعة للمضي في رحلتنا؟ هل يجب علينا أن نصرخ «أننا لا نجرؤ؟». سنمضي قدماً نحو الموت، مهما قد يعني الموت. إذا كان في وسع الإنسان أن يرى الخطوة التالية التي عليه أن يخطوها، فلِم يجب عليه أن يخشى التي قبلها؟ لِمَ يسأل عن الخطوة قبل التالية؟ نحن متأكدون من الخطوة التالية، إنها خطوة الولوج نحو الموت.

تحدثت «أرسيولا» إلى نفسها قائلة: (أنا سوف أموت.. سوف أموت عاجلاً)، وذلك بصوت صاف كأنها في غَشْية.. صاف، هادئ، متيقن بدرجة تتجاوز يقين البشر. لكن، في الخلف، في الشفق، كان هناك بكاء مرّ ويأس. وهذا ما لا يجب الاهتمام به. يجب أن يمضي المرء حيث تذهب الروح العزوم. يجب أن لا تكون هناك إعاقة لمسار القضية بسبب الخوف. لا إعاقة لمسار القضية، لا استماع إلى الأصوات الأقل جهارة. إذا كانت أعمق رغبة لولوج مجهول الموت موجودة الآن، فهل يتخلى الإنسان عن الحقيقة الأعمق مرجّحاً حقيقة أضحل؟

تحدثت إلى نفسها قائلة: (لتنته، إذاً). كان قراراً. لم تكن المسألة مسألة إنهاء المرء حياته - فهي لن تنتحر أبداً، فذلك فعل عنيف، منفر. كانت قضيَة معرفة الخطوة التالية. والخطوة التالية كانت تؤدي إلى فضاء الموت. أليس كذلك؟.. أم كان هناك...؟

انسابت أفكارها في اللاوعي، وجلست كالنائمة بجانب النار. ثم عادت الفكرة. فضاء الموت! هل في استطاعتها أن تهب نفسها له؟ آه، نعم - إنه رقاد. كانت قد نالت ما فيه الكفاية. وإلى الآن كانت قد تصدّت وقاومت. والآن، آن أوان التخلي، عدم إبداء المزيد من المقاومة.

استسلمت في ما يشبه الغيبوبة الروحية، وأذعنت، وأسودّ كل شيء. كان في استطاعتها أن تتحسس في الظلام التوكيد الفظيع لجسدها، عذاب التحلل الذي لا يوصف، العذاب الوحيد الزائد عن حده، الغثيان النائي، الفظيع، للتحلل الذي أكتَنَهَ الجسد.

تساءلت: (هل يتجاوب الجسد مع الروح بمثل هذه الفورية؟). كانت تعلم، بصفاء المعرفة النهائية، بأن الجسد ليس سوى أحد مظاهر الروح، وأن استحالة الروح المتنامة هي استحالة الجسد المادي كذلك. إلا إذا وطّدتُ العزم، إلا إذا تخليتُ عن إيقاع الحياة، وثَبَّتُ نفسي وظللت جامدة، منعزلة عن الحياة، متحللة ضمن إرادتي ذاتها. لكنْ، من الخير الموت بدل العيش حياةً آليةً، حياةً هي تكرار للمُكرَّرات. الموت هو مواصلة الحركة مع اللامرئي. الموت هو الفرحة كذلك، فرحة الخضوع إلى ما هو أعظم من المعروف. أي: المجهول الخالص. تلك هي فرحة. بيد أن العيش آلياً ومنقطعاً ضمن حركة الإرادة، العيش ككيان في حِلٍ من المجهول، فهذا شيء مخز، شائن. لا عيب في الموت، بل العيب كل العيب في حياة آلية، مبتسرة. بل أن الحياة قد تكون شائنة، مخزية للروح. لكنّ الموت ليس عيباً أبداً. إنه يتجاوز التلويث الذي نمارسه، شأنه شأن الفضاء الذي لا حدود له.

كان اليوم التالي يوم اثنين. الاثنين بداية أسبوع مدرسي آخر! أسبوع مدرسي قاحل مُخْزٍ آخر، مجرد نشاط مكرور آلي. ألم تكن مغامرة الموت أفضل على الإطلاق؟ ألم يكن الموت ألطف وأنبل على الإطلاق من مثل هذه الحياة؟ حياة كلها تكرار قاحل، دون معنى باطني، دون أية دلالة حقة. ألا ما أقذر الحياة، وما أخزاها للروح، هذه الحياة الحالية! كم هو أنقى وأجَلّ بكثير، أن تكون ميتاً! لن يتحمل المرء المزيد من هذا الخزي، خزي التكرار القذر، واللاشيئية الآلية. قد يؤتي المرء ثماره في الموت. لقد نالت ما فيه الكفاية. فأين توجد الحياة؟ لا زهور تنمو على المكائن المتصلة الحركة، لا سماء في الأعمال المكرورة، لا فضاء في الحركة الدوّارة. والحياة كلها كانت حركة دوارة، مُمَكْنَنَة، منقطعة عن الواقع. لم يكن هناك شيء ما يرتجى من الحياة.. كانت الشيء ذاته في كل الأقطار ولدى جميع الشعوب. النافذة الوحيدة هي الموت. يستطيع المرء أن يتطلع إلى سماء الموت المعتمة، العظيمة، بانفعال، كمن كان قد استطلع من نافذة

الصف، وهو طفل، فرأى الحرية الكاملة في الخارج. أما الآن، فليس الواحد منا طفلاً، وهو يعرف أن الروح سجينة داخل صرح الحياة الشاسع القذر هذا، وأن لا مفر إلاّ بالموت.

لكن يا للفرحة! يا لبهجة التفكير بأنه مهما فعلت الإنسانية، فإنها لم تستطع أن تمسك بزمام مملكة الموت، لتلغيها. البحر قلبوه إلى زقاقٍ قَتّال ودربٍ ملوث للتجارة، يتنازعون عليه مثلما يتنازعون على الأرض القذرة لمدينة ما، بوصةً، بوصة، والهواء ادّعوا ملكيته كذلك، تقاسموه، جزّأوه أجزاء لمالكين معينين، وتجاوزوا في الجو ليتقاتلوا من أجله. لقد ذهب كل شيء، وتسوّر، وثُبِّتَت المسامير الضخام في الأسوار مما يقسر المرء على التسلل الشائن بين الأسوار المرززة عبر متاهة الحياة.

لكن في مملكة الموت المعتمة، العظيمة، اللا محدودة، وضِعَت الإنسانية موضع إزدراء. ما أكثر ما استطاعوا أن يفعلوه على الأرض، أولئك الآلهة الصغار المتنوعون. بيد أن مملكة الموت سخرت منهم جميعاً، فتضاءلوا قبالتها إلى حقيقة سخافاتهم المبتذلة.

ما أجملَ الموت وأعظمه، وما أكمله، وما أطيبَ التطلع إليه. هناك، لسوف يغتسل الإنسان من كل ما علق به هنا من أكاذيب وقذارة وخزي، في اغتسال تام كله نظافة وانتعاش بهيج، ويرحل غير معروف، غير مسؤول، غير مهان. فالمرء، على الرغم من كل شيء، غني، ولو بوعد موت كامل حسب. لقد كانت بهجةً قبل كل شيء، أنْ قد بقيت تلك الآخرية غير الإنسانية، الخالصة، آخرية الموت، مطمحاً يُتَطَلَع إليه.

مهما جاز أن تكون حال الحياة، فلن تستطيع هذه إبعاد الموت، الموت السامي غير الإنساني. أوه، لنكفَّ عن أي تساؤل، ما هو وما ليس هو. أن تعرف هو شيء بشري، وفي الموت نحن لا نعرف، فلسنا بشراً. وبهجة هذا تعوض عن كل مرارة المعرفة وقذارة انسانيتنا. في الموت، لن نكون بشراً، ولن نعلم. إن هذا الوعد إنما هو إرثنا، ونحن نتطلع إلى سن الرشد كما يتطلع الورثة.

جلست «أرسيولا» ساكنة جداً، منسية جداً، وحيدة قرب نار المصطلى في غرفة الاستقبال. كان الطفلان يلعبان في المطبخ. وكان الآخرون جميعاً قد ذهبوا إلى الكنيسة. أما هي فقد غاصت في ظلام نفسها المطلق.

جفلت عند سماعها رنين الجرس، البعيد في المطبخ، وجاء الطفلان متدافعين في الممر، ليكونا بمثابة منبّه لذيذ.

- («أرسيولا»، هناك شخص ما).

أجابت: (أعرف. لا تكونا سخيفين). كانت هي الأخرى قد جفلت، بل اعتراها ما يشبه الخوف، ولم تتجرأ أن تذهب إلى الباب إلا بشق الأنفس.

كان «بركن» واقفاً عند عتبة الباب، وقد رفع معطفه المطري إلى أذنيه. لقد جاء الآن، وكانت قد أضحت بعيدة، بعيدة. كانت عالمة بالليلة التعيسة التي خلّفها وراءه.

قالت: (أوه، أهو أنت؟).

قال بصوت خفيض وهو يدخل الدار: (يسرني أن تكوني في البيت).

- (ذهب الجميع إلى الكنيسة).

خلع معطفه وعلّقه. كان الطفلان يختلسان النظر إليه من وراء الركن.

قالت «أرسيولا»: (اذهبا واخلعا ثيابكما يا «بيلي» ويا «دورا». ستعود الوالدة قريباً، وسيسوؤها عدم ذهابكما إلى الفراش).

آوى الطفلان إلى سريرهما، في مزاج ملائكي مفاجئ، دون أن ينبسا ببنت شفة. أما «بركن» و«أرسيولا» فمضيا إلى غرفة الاستقبال. كانت النار تشتعل خافتة. نظر إليها، وتعجب من رقة جمالها الوضاء وسعة إشراقة عينيها. كان يراقبها عن بعد، والعجب في قلبه. كانت تبدو كمن تحوّل شكله بتأثير الضوء.

سألها: (ماذا كنت تفعلين طيلة النهار؟).

قالت: (أكتفي بالجلوس هنا وهناك). نظر إليها. كان ثمة تغيّر فيها.

لكنها كانت منعزلة عنه. ظلت على حدة، في نوع من الإشراق. جلس أمامها صامتاً في ضوء المصباح الرقيق. ثم شعر أنه كان يجب عليه أن يرحل ثانية، وكان يجب عليه ألا يأتي. مع هذا لم يستجمع ما يكفي من العزم للرحيل، لكنه كان فائضاً عن الحاجة*، في حين كان مزاجها غائباً ومنعزلاً.

ثم جاء صوتا الطفلين، وهما يناديان باستحياء ونعومة من وراء الباب، وقد انفعلا من خجل:

* ورد تعبير (فائض عن الحاجة) بالفرنسية. (المترجم).

- («أرسيولا »! «أرسيولا »!).

نهضت وفتحت الباب. كان الطفلان واقفين على عتبة الباب في ردائي النوم الطويلين وقد اتسعت عيونهما في وجهيهما الملائكيين. كانا، في تلك اللحظة، ممتازَيّ السلوك، وهما يؤديان دور الطفلين المطيعين خير أداء.

قال «بيلي» في همس عال: (هل ستأخذيننا إلى الفراش؟).

فقالت برقة: (أجل، أنتما ملاكان هذه الليلة. هلاّ أتيتما وقلتما ليلة سعيدة للسيد «بركن»؟).

ظهر الطفلان في الغرفة على حياء، حافيي الأقدام. كان وجه «بيلي» عريضاً ومكشراً، لكن في عينيه المدورتين الزرقاوين كان هناك الوقار الكبير الذي يميز حسن التصرف. أما «دورا» فكانت تسترق النظر من خلال نواعم شعرها الأشقر المتهدل، مثل إحدى حوريات الغابات الصغيرات، التي لا روح فيها.

سأل «بركن»، بصوت جاء ناعماً ورقيقاً على نحو غريب: (هلا قلت لي: تصبح على خير؟). فانسلت «دورا» في الحال، كورقة علت في مهب الريح. لكن «بيلي» مضى قدماً، بنعومة وبطء ورغبة، معلياً فمه المكوّر إبتغاء التقبيل، ضمناً. راقبت «أرسيولا» شفتي الرجل الممتلئتين، الململومتين وهما تمسّان شفتي الصبي برقة، أية رقة. ثم رفع «بركن» أنامله ولمس خد الولد المكتنز، الواثق، لمسةَ ودٍ رقيقة. لم يتكلم أي منهما. بدا «بيلي» ملائكياً، كطفل ملائكي، أو كسادن، أما «بركن» فكان ملاكاً طويلاً وقوراً يتطلع إليه من علٍ.

تدخلت «أرسيولا» مخاطبة الفتاة الصغيرة: (هل ستتلقين قبلة؟).

لكن «دورا» تنحّت بعيداً مثل حورية غابات صغيرة لا تريد أن تُمَسّ.

فقالت «أرسيولا»: (هلاّ قلت «تصبح على خير» للسيد «بركن»؟. امضي، إنه ينتظرك). لكن الفتاة الطفلة لم تشأ إلا التحرك قليلاً، مبتعدة عنه.

فقالت «أرسيولا»: («دورا» السخيفة، «دورا» السخيفة!).

شعر «بركن» بوجود شيء من العداء وقلة الثقة لدى الطفلة الصغيرة، ولم يستطيع أن يفهم ذلك.

قالت «أرسيولا»: (تعالا، إذاً. لنذهب قبل مجيء الوالدة).

سأل «بيلي» قلقاً: (من سيسمعُنا ونحن نتلو صلواتنا؟).
ـ (مَنْ تحب؟).
ـ (هلا تكرمت؟).
ـ (نعم، سأفعلَ ذلك).
ـ («أرسيولا»؟).
ـ (طيب، يا «بيلي»).
ـ (هل أن العبارة الصحيحة هي «مَنْ» تحب؟).
ـ (أجل).
ـ (طيب، ما هي «مَنْ»؟).
ـ (اسم استفهام في حالة الذي يقع عليه الفعل).
كان ثمة صمت متأمل لحظة، تلاه الاستفسار الواثق:
ـ (صحيح؟).
فابتسم «بركن» لنفسه وهو يقعد قرب النار. وحين قَدمَت «أرسيولا» كان جالساً دون حراك، وذراعاه على ركبتيه. شاهدته، كيف كان دون حراك، لا يستبان عمره، مثل صنم جالس القرفصاء، صورة من إحدى ديانات الموت. استدار، ناظراً إليها، وبدا وجهه، الشاحب وغير الحقيقي جداً، يتألق ببياض يقرب من بياض الضوء الفوسفوري.
سألت في نفور لا يمكن تحديده: (هل تشعر بوعكة؟).
ـ (لم أفكر بذلك).
ـ (لكن ألا تعرف بدون أن تفكر بذلك؟).
نظر إليها، بعينين قاتمتين، متعجلتين، ولاحظ نفورها ولم يجب عن سؤالها.
ألحّت: (ألا تعرف إن كنت عليلاً أم لا، دون أن تفكر بذلك؟).
قال ببرود: (ليس دائماً).
ـ (لكن ألا تظن أن ذلك شيء شرير جداً؟).
ـ (شرير؟).
ـ (نعم. أظن أن من الإجرام أن يهون عليك بدنك بحيث لا تعرف حتى متى تكون عليلاً).
نظر إليها مكفهراً.

قال: (نعم).

- (لم لا تبقى في الفراش حين تعتل صحتك؟ تبدو في غاية الشحوب).

سأل ساخراً: (إلى درجة مسيئة؟).

- (أجل، مسيئة جداً. منفرة جداً).

- (آه! حسن.. هذا من سوء الطالع).

- (ثم إن المطر يهطل، والليلة فظيعة. يجب، في الواقع، عدم مسامحتك لمعاملتك بدنك هكذا.. عليك أن تعاني، لأنك رجل لا يهتم ببدنه إلا قليلاً، على هذا النحو).

ردد آلياً: (لا يهتم ببدنه إلا قليلاً، على هذا النحو).

قطع هذا حديثها، فران صمت.

أقبل الآخرون من الكنيسة، وواجه الاثنان الفتيات، ثم الوالدة و«غدرون»، ثم الوالد والصبي.

قال «برانغوين»، مندهشاً قليلاً: (مساء الخير. جئتَ لتراني، أليس كذلك؟).

فقال «بركن»: (كلا. ليس من أجل أي شيء على وجه التحديد، في الواقع. كان اليوم كئيباً، ففكرت أنكم قد لا تمانعون لو زرتكم).

فقالت السيدة «برانغوين» متعاطفة: (لقد كان يوماً كئيباً فعلاً). وفي تلك اللحظة سمعت أصوات الطفلين وهما يناديان من الطابق الأعلى: (أماه! أماه!). رفعت رأسها وأجابت بنبرة رقيقة عبر المسافة: (إني قادمة خلال دقيقة يا «دويسي»). ثم توجهت بالحديث إلى «بركن»: (لا جديد في «شورتلاندز»، على ما أظن؟). ثم تأوهت: (آه، أظن أن لا شيء هناك، يا للمساكين).

سأل الوالد: (أحسب أنك قد ذهبت إلى هناك، هذا اليوم؟).

- (رافقني «جرالد» لتناول الشاي عندي. ورجعت معه مشياً. إن البيت مضطرب بالانفعال والخلل، كما أظن).

قالت «غدرون»: (إنهم، في تصوري، أناس يعوزهم الكثير من ضبط النفس).

أجاب «بركن»: (أو أن لديهم أكثر مما ينبغي).

فقالت «غدرون» وكأنها تثأر: (نعم، أنا متأكدة. على هذا النحو أو ذاك).

قال «بركن»: (كلهم يشعرون بأن عليهم أن يتصرفوا على نحو غير طبيعي نوعاً ما حين يحزن الناس، فالأفضل لهم أن يغطوا وجوههم ويعتكفوا، كما في الأيام الخوالي).

فهتفت «غدرون» وقد احتدمت واحتقن وجهها: (من المؤكد! ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من هذا الحزن العام؟ ما هو أفظع وأشد زيفاً؟ إذا لم يكن الحزن خاصاً، ومخفياً، فما الذي يكون كذلك؟).

فقال: (تماماً. لقد شعرت بالخزي حين كنت هناك وكان الجميع يروحون ويجيئون على نحو مزيف، كئيب، وهم يشعرون بأن عليهم ألا يكونوا طبيين أو عاديين).

قالت السيدة «برانغوين» وقد استاءت من هذا النقد: (على أية حال، ليس من السهولة أن تحمل كدراً كهذا)، ثم مضت إلى الطفلين في الطابق الأعلى.

بقي «بركن» بضع دقائق أخرى، ثم استأذن. وحين ذهب، شعرت «أرسيولا» بكره إزاءه بلغ من الشدة بحيث أن دماغها كله بدا كأنه قد تحول إلى بلورة حادة من مقت دقيق. لقد بدت طبيعتها كأنها قد أرهفت وشددت متحولة إلى سهم من الكره الخالص. لم تستطع أن تتصور ما دهاها. لقد أمسكت بزمامها حسب: أشد الكراهية إيلاماً ونهائية خالصة صافية، تجاوز حدود التفكير. لم يكن في مقدورها أن تفكر به إطلاقاً. لقد تحولت إلى ما تجاوز ذاتها. كان كالمسّ. لقد أحست أنها كانت ممسوسة. ظلت أياماً عدة تروح وتغدو وقد تملكتها هذه القوة الفائقة من الكره نحوه. لقد فاقت هذه الكراهية كل شيء كانت قد عرفته أبداً، وبدت كأنها كانت تلقيها خارج العالم إلى أحد الاصقاع المروعّة حيث لم يستقم أي شيء من حياتها السالفة. لقد ضاعت وداخت تماماً، وماتت حقاً بالنسبة إلى حياتها الشخصية.

كان ذلك غير مفهوم وغير معقول تماماً. لم تعرف لماذا كانت تكرهه. كان كرهها مجرداً جداً. لقد أدركت فقط، في صدمة أذهلتها، بأن هذه النقلة الخالصة قد قهرتها. كان هو العدو، بدقة الماسة وصلابتها وكرم حجرها. كان خلاصةً لكلّ ما هو عدائي مكروه.

فكرت في وجهه، الأبيض والمصنوع على نقاء، وفي عينيه اللتين تملكان مثل هذه الإرادة التأكيدية، المظلمة، الثابتة، ثم مسّت جبينها لتتحسس ما إن كانت هي قد جُنّت... لقد تحولت إلى لهب أبيض من الكره الصميمي.

لم يكن كرهها وقتياً. لم تكرهه لهذا السبب أو ذاك. لم ترد أن تفعل أي شيء إزاءه أو تكون لها أية صلة به. كانت صلتها مطلقة تتجاوز الكلمات كلياً، وكان الكره جّد نقي، كجوهرة. وكان هو كأنه شعاع من عداوة جوهرية، شعاع ضوء لم يدمّرها حسب، بل أنكرها كل الإنكار، وألغى عالمها كله. كانت تنظر إليه كضرب بَيِّن من أقصى ضروب التناقض، كائنٍ غريب كالجوهرة، كان وجوده قد حَدَّدَ عدمَ وجودها هي. وحين سمعت أنه قد تمرض ثانية، أشتد كرهها وزاد بضع درجات، إن كان ذلك ممكناً. لقد أذهلها ذلك وأفناها، لكنها لم تستطع الإفلات منه. لم تستطيع الإفلات من تجلّي المقت الذي تملّكها، ذاك.

الفصل السادس عشر

رجل مقابل رجل

رقد عليلاً لا يحركه شيء، في تعارض خالص مع كل شيء. كان يعلم كيف أوشك الوعاء الذي ضم حياته على التحطّم. كما كان يعرف مدى قوته ومتانته. لم يهمّه ذلك. خير ألف مرة أن يخوض المرء غمار مغامرة مع الموت من قبول حياة لا يريدها. لكنّ الأحسن طراً هو الثبات، والثبات أبداً حتى يرضى المرء عن الحياة.

كان يعرف أن «أرسيولا» راجعة إليه، وأن حياته مرهونة بحياتها. بيد أنه كان يرجح الموت على قبول الحب الذي عَرَضَتْ. لقد بدا الأسلوب القديم للحب قيداً فظيعاً، وكان ضرباً من الإلزامية. كان لا يعرف ما به. بيد أن فكرة الحب، والزواج، والأطفال، والمعايشة في إطار الخصوصية الفظيعة للرضا الزيجي والمنزلي، كانت فكرة منفرة. كان ينشد شيئاً أصفى، وأكثر انفتاحاً، وأبرد، إن صح التعبير. إن الألفية الحارة، الضيقة، بين الرجل وزوجته كريهة. والطريقة التي يغلق بها الأبواب، هؤلاء الأزواج، وينغلقون على تواصلهم الخصوصي، الشخصي مع بعضهم، حتى في الحب، كانت تقززه. إنهم جماعة كاملة من الأزواج الشكوكين قد انعزلت في بيوت خاصة، أو غرف خاصة، اثنان دائماً، دون أية حياة أخرى، ولا حياة مباشرة أخرى، ولا علاقات غير مصلحية: إنه مزوّق من الأزواج، كيانات زوجية، مقترنة بزواج، انعزالية، انفصالية، عديمة المعنى. صحيح أنه كان يكره التهتك الجنسي على نحو أفظع من كراهيته للزواج، فالاتصال لم يكن سوى ضرب آخر من الاقتران.. ارتجاع من القران الشرعي. إن رد الفعل مَضْجَرَةٌ أسوأ من الفعل.

وعلى العموم، كان يكره الجنس.. كان قيداً ثقيلاً. كان الجنس هو الذي أحال الرجل إلى نصفٍ مكسور من ثنائي، والمرأة إلى النصف المكسور الآخر. وما أراده كان

انفراداً بنفسه، وانفراد المرأة بنفسها. أراد أن يعود الجنس إلى مستوى الشهيّات الأخرى، وأن ينظر إليه بوصفه عملية وظيفية، وليس إنجازاً. لقد آمن بالزواج الجنسي. لكنه نشد اتصالاً أبعد يتجاوز هذا، حيث يكون للرجل كيان وللمرأة كيان.. كيانان خالصان، كل منهما يكوّن حريةَ الآخر، ويوازن كل منهما الآخر، كقطبي قوة واحدة، كملاكين، أو كشيطانين.

لقد شاء كثيراً أن يكون حراً، ليس تحت ضغط أية حاجة للاتحاد ولا معذباً جراء اشتهاء لم ينله. إن الاشتهاء والتطلع لا بد أن يبلغا مبتغاهما من دون كل هذا العذاب، كما هو حاصل في الوقت الحاضر، ففي عالم الماء الوفير يكون العطش البسيط غير ذي شأن، يُرَوّى بصورة لا واعية تقريباً. أراد أن يكون مع «أرسيولا» حراً حريته مع ذاته، منفرداً، واضحاً، وبارداً، إلا أنه متوازن، مستقطب معها.. لقد غدا الاندماج، والتماسك، والتمازج الذي يصاحب الحب، ممقوتاً حد الجنون بالنسبة إليه.

لقد بدا له أن المرأة كانت على الدوام جد متشبثة وفظيعة، تشتهي الاستحواذ كثيراً، وتطمع في أهمية الذات في الحب إلى درجة الجشع. إنها تريد أن تمتلك وتستحوذ، وتسيطر، وتسود، كل شيء يجب الرجوع به إليها، إلى (المرأة)، إلى (الأم الكبرى)* لكل شيء، التي انبثق منها كل شيء يجب أن يعود إليها كل شيء في خاتمة المطاف.

إن افتراض (الأم الكبرى) الهادئ هذا، المرأة التي تمتلك الجميع لأنها حملتهم، ملأه بغضب يكاد يكون جنونياً. الرجل تملكه، لأنها حملته. (الأم الحزينة)** قد حملته، و(الأم الكبرى) تطالب به الآن ثانية، روحاً، وجسداً، وجنساً، ومعنى، وكل شيء. لقد استفظع (الأم الكبرى) ومقتها.

لقد عادت وطلبت المعالي، هذه المرأة، هذه (الأم الكبرى). هل تعرَّفَ عليها في «هرمايني»؟ «هرمايني» المتذللة، الصاغرة، ماذا كانت طيلة الوقت غير (الأم الحزينة)، في خنوعها، وهي تطالب بغطرسة ماكرة فظيعة، واستبداد أنثوي، مطلبها

---

* (الأم الكبرى Magna Mater) الاسم العام الذي يطلق على الكائن الأمومي، على المرأة التي قيل بأنها أم جميع الآلهة الأخرى، رمز الخصوبة. (المترجم).

** (الأم الحزينة Mate Dolorosa) اسم أطلق على العذراء مريم وهي تندب موت المسيح. (المترجم).

الخاص ثانية، تطالب باستعادة الرجل الذي كانت قد حَمَلَتْهُ في معاناة. لقد قيدت ابنها بالسلاسل من خلال معاناتها ومذلتها نفسيهما، وأبقته أسيرها الأبدي.

أما «أرسيولا»، «أرسيولا» كانت الشيء نفسه.. أو العكس. كانت هي الأخرى ملكة الحياة المتعجرفة، الفظيعة، كأنها كانت ملكة النحل التي يعتمد عليها الجميع. لقد شاهد الألق الأصفر في عينيها، وكان يعرف افتراض الأعلوية عندها، الافتراض المزهو الذي لا يخطر على بال. لم تكن هي شاعرة بهذا الافتراض لديها. كانت على أتم الاستعداد لأن تطأطئ رأسها أمام الرجل. لكن ذلك لم يكن إلا حين تكون متيقنة جداً من رجلها، ومن استطاعتها أن تعبده كما تعبد المرأة طفلها هي، عبادةَ الاستحواذ الكامل.

كان لا يطاق.. ذلك الاستحواذ على يدي إمرأة: فالرجل يجب أن يُعَدّ دائماً الجزء المنثلم من المرأة، والجنسُ ندبةَ التمزق التي لا تزال تؤلم. يجب أن يُضاف الرجل إلى المرأة قبل أن يكون له أي موقع حقيقي، أو كيان.

ولماذا؟ لماذ يجب علينا، نحن الرجال والنساء، إن نَعُدّ أنفسنا أجزاء منثلمة من كل واحد؟ ليس هذا صحيحاً. لسنا أجزاء مثلومة من كل واحد. بل نحن منتقى الطهارة والكينونة النقية، من أشياء كانت مختلطة. والأرجح، كذلك، إن الجنس هو ما تبقى عندنا من الخليط، مما لم يتقرر ويحسم. والعاطفة هي الإيغال في فصل هذا المزيج، فما هو رجالي يؤخذ إلى كيان الرجل، وما هو نسوي يذهب إلى المرأة، حتى يغدو الاثنان نقيين، مكتملين كالملائكة، ويتم تجاوز خليط الجنس في أسمى المعاني، ليبقى ثمة كائنان منفردان يتعنقدان كما يتعنقد كوكبان.

في العصر القديم، قبل وجود الجنس، كنا مختلطين، كل واحد كان خليطاً. وقد أدت عملية العزل نحو الفردية إلى الاستقطاب الكبير للجنس فانجذب النسائي إلى جانب، والرجالي إلى جانب آخر. لكن العزل لم يكن تاماً حتى آنذاك. وهكذا تتم دورة العالم. ولسوف يجيء اليوم الجديد حين يكون كل منا كائناً مكتملاً على نحو مختلف: الرجل رجل خالص، والمرأة مرأة خالصة، وهما في كمال الاستقطاب. لكن لن يكون هناك بعد ذلك وجود لإنكار الذات والدمج والمزج الفظيعين، الذين يميزون الحب. لن تبقى سوى الأزدواجية النقية للاستقطاب. كلٌّ قد خلا من أي تلوث من الآخر، وفي

كلٍّ، الفرد هو في المقام الأعلى، والجنس في المقام الأدنى، مع كمال الاستقطاب. كلّ له كينونة منفردة، منعزلة، لها شرائعها الخاصة. للرجل حريته الخالصة، وكذلك للمرأة. كلّ يقرّ باكتمال وكمال دورة الجنس المستقطبة، كلّ يعترف باختلاف الطبيعة لدى الآخر.

هكذا كان «بركن» يتأمل أثناء مرضه. كان يود أحياناً أن يمرض إلى حد يستوجب منه أن يأوي إلى الفراش. إذ عند ذاك تتحسن حالته سريعاً جداً وتأتيه الأفكار صافية أكيدة.

جاء «جرالد» ليعوده حين كان طريح الفراش. كان كل من الرجلين يكنّ شعوراً عميقاً، قلقاً تجاه الآخر. كانت عينا «جرالد» عجولتين، لا تستقران على حال، وكل سلوكه يشي بالتوتر ونفاد الصبر.. لقد بدا مشدوداً بنشاط ما. كان يرتدي ملابس سوداً على وفق التقاليد. كان رسمي المظهر، مهندماً، كما ينبغي*. وكان شعره أشقر حد البياض تقريباً، منسدراً كخُصَلٍ من نور، وكان وجهه محمراً، متلهفاً، وبدا جسمه زاخراً بطاقة أهل الشمال.

كان «جرالد» يحب «بركن» فعلاً، وإن لم يؤمن به قط. أما «بركن» فكان غير واقعي حد الإفراط: ذكياً، نزوائياً، مدهشاً، لكنه غير عملي بدرجة كافية. وقد شعر «جرالد» بأن إدراكه هو أكثر سداداً وصواباً بكثير.

كان «بركن» مرحاً، ذا روح رائعة، لكنه مع ذلك يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد، أو يُعَدّ رجلاً بين الرجال، تماماً.

سأله «جرالد»، حانياً، وقد أمسك بيد الرجل المريض: (لم أنت طريح الفراش ثانية؟). كان هو الحامي، على الدوام، عارضاً قوته البدنية ملاذاً دافئاً.

قال «بركن» وهو يبتسم بشيء من السخرية: (بسبب خطاياي، على ما أظن).

- (بسبب خطاياك؟ نعم هو كذلك، على الأرجح. يجب عليك أن تقلل من خطاياك. وتحسّن صحتك).

- (من الخير أن تعلّمني).

---

* وردت عبارة (كما ينبغي) بالفرنسية. (المترجم).

ونظر إلى «جرالد» بعينين ساخرتين، ثم سأل:

ـ (كيف الحال بالنسبة إلى أمورك؟).

ـ (أموري؟). ونظر «جرالد» إلى «بركن»، وتبين أنه كان جاداً فالتمعت عيناه ببريق دافئ، وقال:

ـ (لا أعرف إن كانت قد تغيرت بأي شكل من الأشكال. لا أدري كيف يمكن لها أن تختلف. ليس هناك ما يتغير).

ـ (أظن أنك تدير أعمالك التجارية بالنجاح المعهود دوماً، ناكراً مطالب الروح).

فقال «جرالد»: (هو كذلك. في الأقل، بقدر ما يتعلق الأمر بالأعمال التجارية. لا أستطيع التحدث عن الروح. أنا متأكد من ذلك).

ـ (كلا).

فضحك «جرالد» قائلاً: (من المؤكد أنك لا تتوقع مني ذلك؟).

ـ (كلا. كيف تسير بقية شؤونك عدا الأعمال التجارية؟).

ـ (بقية شؤوني؟ ما هي هذه؟ لا أستطيع القول، لا أدري إلى أي شيء تشير).

فقال «بركن»: (نعم، أنت تعرف. هل أنت مكتئب أم مبتهج؟ وماذا عن «غدرون برانغوين»؟).

ـ (ماذا عنها؟). وبدا الارتباك على «جرالد»، وأضاف: (حسن. لا أعرف. أستطيع أخبارك فقط بأنها ضربتني على وجهي في المرة الأخيرة التي شاهدتها فيها).

ـ (ضربتك على وجهك! ما السبب؟).

ـ (هذا ما لا معرفة لي به لكي أخبرك عنه، هو الآخر).

ـ (صحيح! لكن متى؟).

ـ (ليلة الحفلة.. حين غرقت «دايانا». كانت تطارد الماشية صعوداً على التل، فتبعتها.. أنت تذكر ذلك؟).

ـ (نعم، أذكر. لكن ما الذي حملها على أن تفعل ذلك؟ أنت لم تطلب منها ذلك من المؤكد، على ما أظن؟).

ـ (أنا؟ كلا، على ما أعرف. لم أقل لها سوى أنه من الخطورة مطاردة عجول «هايلاندز» الصغيرة تلك ـ كما هو الواقع. فاستدارت استدارة حادة وقالت: (أتصور أنك تظن أنني أخاف منك ومن ما شيتك، أليس كذلك؟).

فسألتها عن السبب، فكان جوابها أن لطمتني بقفا يدها على وجهي).

ضحك «بركن» في الحال كأن ذلك قد سرّه، فنظر «جرالد» إليه متسائلاً، ثم طفق يضحك هو الآخر، قائلاً:

- (لم أضحك في حينه، أؤكد لك. لم أذهل، كما ذهلت، طيلة حياتي).

- (ألم تتميّز غيظاً؟).

- (غيظاً؟ أظن أنني لابد أن أغتظت. كنت سأقتلها لقاء دبّوسين)*.

فنبس «بركن»: (إحّم! مسكينة «غدرون». ألم تكن لتعاني بعد ذلك جراء ما فضحت نفسها به!). كان مبتهجاً جداً.

فتساءل «جرالد» وقد داخله السرور الآن هو الآخر: (وهل كانت ستعاني؟).

ابتسم كلا الرجلين بخبث وابتهاج.

- (كثيراً، على ما أظن، نظراً لحيائها الشديد).

- (هي خجول، أليس كذلك؟ إذاً ما الذي حملها على أن تفعل ذلك؟ إذ أنني أتصور على وجه اليقين بأن عملها ما كان له من داعٍ ولا من مبرر أبداً).

- (أظن أنه كان نزوة مفاجئة).

- (أجل. ولكن كيف تعلل اندفاعها ذاك؟ أنا لم أؤذها).

فهز «بركن» رأسه، وقال:

- (داهمتها «الأمازونية» على حين غفلة، على ما أظن).

فأجاب «جرالد»: (كنت أفضل «الأورينوكو»** على «الأمازون»).

ضحك الاثنان من النكتة السقيمة. كان «جرالد» يفكر كيف قالت «غدرون» أنها ستضرب الضربة الأخيرة، كذلك، لكن بعض التحفظ جعله يضمر هذا عن «بركن».

سأل «بركن»: (وأنت مستاء من ذلك؟).

---

* لقاء دبّوسين = بلا تردد. (المترجم).

** «الأورينوكو» نهر في أمريكا الجنوبية يصب في المحيط الأطلسي، أي في القارة نفسها التي يوجد فيها نهر «الأمازون» المذكور سابقاً. علماً بأن «الأمازونية» هي امرأة من عرق خرافي من المحاربات زعمت الأساطير الأغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود. و«الأمازونية» هي الامرأة الطويلة المسترجلة كذلك. وفي هذا السياق يتلاعب «بركن» بالألفاظ من باب التورية. (المترجم).

ـ (لست مستاءً من ذلك! ولا أهتم به البتة).

سكت لحظة، ثم أضاف ضاحكاً: (كلا: سوف أتناساه. لقد أسِفَتْ هي بعد ذلك، على ما يبدو).

ـ (صحيح؟ إنكما لم تلتقيا منذ تلك الليلة؟).

أغتمّ وجه «جرالد». ثم قال:

ـ (كلا. لقد غدونا... تستطيع أن تتصور كيف آلت الأمور منذ الواقعة).

ـ (أجل. وهل بدأ الوضع يهدأ؟).

ـ (لا أدري. من الطبيعي إنها صدمة. لكنني لا أعتقد أن الوالدة تبالي. في الحقيقة أني لا أعتقد أن الوالدة مهتمة. والمضحك أنها أعتادت أن تحرص على الأطفال كل الحرص... لم يكن يهمها أي شيء، أي شيء مهما كان، عدا الأطفال. أما الآن فلا يزيد اهتمامها بهم عن اهتمامها في حالة كون الأمر يتعلق بأحد الخدم).

ـ (صحيح؟ وهل كدّرك أنت ذلك كثيراً جداً؟).

ـ (إنها صدمة. لكنني لا أحس بها كثيراً جداً، في واقع الأمر. لا أشعر بأي فرق. لابد أن نموت جميعاً، والظاهر أنه لا يوجد أي فرق كبير، على أية حال، سواءً مُتُّ أم لا. أنت تعلم، أنني لا أستطيع الإحساس بأي حزن. إنه يخلّف فيَّ اللامبالاة. لا أستطيع أن أعلل ذلك تماماً).

سأل «بركن»: (ألا يهمك أن تموتَ أم تحيا؟).

فنظر «جرالد» إليه بعينين زرقاوين زرقة فولاذ السلاح. شعر بأنه أخرق، لكنه مختلف. لقد كان، في واقع الأمر، يهتم بدرجة فظيعة، هذا مؤكد، ويخاف كثيراً.

قال: (أوه، أنا لا أريد أن أموت، ولم يجب عليَّ ذلك؟ لكنني لا أقلق أبداً. فالقضية لا تبدو مطروحة إطلاقاً، بالنسبة إلي. إنها لا تثير اهتمامي، كما تعلم).

فاستشهد «بركن» قائلاً: (يشيع الفزعُ من الموتِ الاضطرابَ فيّ)*...

ثم أضاف قائلاً: (لا. في الواقع لم يعد الموت هو القضية، على ما يبدو. إنه لا يهمني، مع ما في ذلك من غرابة، إنه مثل غَدٍ، عادي).

* ورد الاستشهاد على لسان «بركن» باللاتينية، وهو من قصيدة للشاعر الاسكتلندي «ويليم دوبنار» (١٤٦٠ ـ ١٥٢٠ تقريباً). (المترجم).

نظر «جرالد» إلى صديقه عن كثب، وتلاقت أعين الرجلين، وتبادلا تفاهماً غير منطوق.

ضيّق «جرالد» عينيه، وكان وجهه بارداً لا يؤنبه وازع، وهو ينظر إلى «بركن» على نحو غير شخصي، نظرةً تنتهي في نقطة في الفضاء. كان حاد البصر على نحو غريب، ومع ذلك كان أعمى.

قال بصوت فاتر، رقيق، شارد على نحو غريب: (إذا لم يكن الموت هو القضية، فأي شيء هو كذلك؟)، قالها وبدا كأنه قد انكشف.

فردد «بركن»: (أي شيء هو؟). وتلا ذلك صمت ساخر.

قال «بركن»: (ثمة طريق طويل يجب قطعه، بعد نقطة الموت الذاتي، قبل أن نختفي).

قال «جرالد»: (نعم، يوجد. لكن ما نوع الطريق؟). بدا أنه يضغط على الرجل الآخر نشداناً لمعرفة يعرفها هو على نحو أفضل بكثير من «بركن».

ـ (في أسفل منحدرات التحلل مباشرة ـ التحلل الكوني، المبهم. هناك مراحل كثيرة للتحلل الخالص يتعين المرور بها، على مدار العمر. إننا نستمر في العيش مدة طويلة بعد الموت، على نحو متدرج، في تحول متدرج نحو التحلل).

أنصت «جرالد» طيلة الوقت، وعلى وجهه ابتسامة لطيفة، باهتة كما لو كان يعرف، في مكان ما، خيراً مما عرفه «بركن» بكثير، عن هذا الموضوع برمته. كأن معرفته الخاصة كانت مباشرة وشخصية، في حين كانت معرفةُ «بركن» عبارة عن ملاحظة واستدلال، لا تضرب المسمار على الرأس تماماً*، وإن كان التصويب قريباً منه بما فيه الكفاية. لكنه لن يكشف عن خبيئة ذاته. إذا كان في مقدور «بركن» إستكناه الأسرار، فليفعل. فلن يعينه «جرالد» أبداً. ولسوف يظل «جرالد» حتى النهاية حصاناً أسود**.

قال، مغيراً موضوع الحديث بغتة: (طبيعي أن يكون الوالد هو الذي يحس بذلك حقاً. وستقضي عليه. إن العالم ينهار بالنسبة إليه. كل اهتمامه منصب الآن على

---

* أثرنا الأبقاء على المثل، ومعناه: دون التعامل المباشر مع لب القضية. (المترجم).

** الحصان الأسود، حصان الحلبة: الحصان الذي يشكل فوزه في سباق الخيل مفاجأة غير متوقعة. (المترجم).

«ويني» لابد أن ينقذ «ويني». يقول إنه لابد من إرسالها إلى المدرسة، لكنها لن تصغي إليه، وهو لن يفعل ذلك أبداً. إنها بلا شك في وضع غريب نوعاً ما: إننا جميعاً نقضي الآن حياة سيئة على نحو غريب. نستطيع أن نقوم بالأعمال... لكننا لا نستطيع مسايرة الحياة إطلاقاً. إنه أمر مستغرب.. قصور عائلي).

قال «بركن» وهو يفكر في مقترح آخر: (لا يجب إرسالها إلى المدرسة).

- (لا يجب؟ لماذا؟).

- (إنها طفلة غريبة.. طفلة خاصة.. أكثر خصوصية حتى منك. وفي رأيي أن الأطفال الخاصّيّن يتعين عدم إرسالهم إلى المدرسة أبداً. الأطفال العاديون بدرجة متوسطة فقط هم الذين يجب إرسالهم إلى المدرسة - كما يبدو لي).

- (أميل إلى الاعتقاد بالعكس تماماً. أظن أن ذهابها واختلاطها بالأطفال الآخرين سيجعلانها في الأرجح أكثر طبيعيةً).

- (المسألة هي أنها لن تختلط. أنت نفسك لم تكن تختلط فعلاً، أليس كذلك؟ إنها لا تود حتى التظاهر بذلك. وهي أبيّة، متوحدة، وانعزالية الطبع. إذا كان طبعها التفرد، فلم تريد أن تجعلها اجتماعية؟).

- (كلا، أنا لا أريد أن أجعلها أي شيء بيد أنني أظن أن المدرسة قد تفيدها).

- (هل أفادتك؟).

ضاقت عينا «جرالد» على نحو قبيح. لقد كانت المدرسة عذاباً له. ومع ذلك لم يكن قد تساءل ما إذا كان يجب على المرء أن يكابد هذا العذاب حتى نهايته. كان يبدو مؤمنا بالتربية عبر الخضوع والمعاناة.

قال: (لقد كرهتها آنذاك. لكن في وسعي أن أرى أنها كانت لازمةً. فقد جعلتني أتكيف، إلى حد.. وأنت لا تستطيع العيش دون أن تتكيف في مرحلة ما).

قال «بركن»: (حسن، لقد بدأت أفكر بأنك لا تستطيع العيش إلى إلا إذا زغت عن السبيل تماماً. لن تجدي محاولة الخضوع للنظام، حين يكون هاجسك الوحيد تحطيم المسلك. «ويني» ذات طبيعة خاصة، وعليك أن تعطي ذوي الطبائع الخاصة عالماً خاصاً).

قال «جرالد»: (نعم، ولكن أين عالمك الخاص؟)..

ـ (اصنَعْه. فبدلاً من أن تقطّع أوصالك لتناسب العالم، قطّع العالم ليناسبك. في واقع الأمـر، يمكن أن يصنع اثنان ممتازان عالماً آخر. أنت وأنا نصنع عالماً آخر، منفصلاً.. إنك لا تنشد عالماً مثل عالم أصهارك. إنك تثمّن صفة الجودة الخاصة فقط. هل تريد أن تكون عادياً، نمطياً؟ إنها كذبة. إنك تريد أن تكون حراً ومتميزاً، في عالم متميز من الحرية).

نظر «جرالد» إلى «بركن» بعيني العارف الماكرتين. لكن لم يشأ أن يقرّ صراحةً بما أحس به قط. كان أعْلَمَ من «بركن» بكثير جداً ـ باتجاه واحد. وهذا ما أكسبه حبَّه الرقيق للرجل الآخر، كأن «بركن»كان غراً، بريئاً، صبيانياً من بعض النواحي، مدهش الذكاء لكنه بريء براءة لا يمكن شفاؤه منها.

قال «بركن» بصراحة: (ومع ذلك فأنت على درجة من السطحية بحيث تعدّني مخلوقاً غريباً، في المقام الأول).

فهتف «جرالد» حافلاً: (مخلوقات غريبة!). وتفتّح وجهه فجأة كأنه قد تنوّر بالبساطة، كما تتفتّح الزهرة من برعم جميل. (كلا. إني لا أعدك مخلوقاً غريباً أبداً)، قال ذلك وراقب الرجل الآخر بعينين غريبتين لم يستطع «بركن» فهمهما. واصل «جرالد» حديثه قائلاً: (أشعر أن هناك دائماً عنصراً من اللايقين بشأنك ـ لعلك غير متأكد من نفسك. لكنني لستُ متأكداً منك أبداً. في وسعك أن تمضي وتتبدل، بسهولة كأنك بلا روح).

نظر إلى «بركن» بعينين ثاقبتين، فدهش هذا. كان يظن أن فيه روحاً تسع العالم كله. فحملق مستغرباً. أما «جرالد» الذي كان يراقبه، فرأى طيبة عينيه الساحرة، المدهشة، وكانت طيبةً غرَّةً، تلقائية، فتنت الرجل الآخر غاية الفتنة، ومع ذلك ملأته أسى مُرّاً لعدم وثوقه بها إلى حد كبير. كان يعرف أن «بركن» كان يستطيع الاستغناء عنه.. يستطيع النسيان دون معاناة. كان ذلك دائم الحضور في وعي «جرالد» فأغرقه في يمٍّ من عدم التصديق المرّ: ذلك الإدراك لتلقائية التجرد الصبيانية، البهيمية.

كان يبدو كالنفاق والكذب، أحياناً، اواه، بل غالباً، حينما كان «بركن» يتحدث بمثل هذا العمق وهذه الأهمية.

كانت أشياء أخرى غير هذه تدور في ذهن «بركن» فقد رأى نفسه على حين غرة

في مواجهة مشكلة أخرى ـ مشكلة الحب والتواصل الأبدي بين رجلين. كان ذلك من الطبيعي لازماً ـ فقد كان ضرورياً في داخل ذاته طيلة حياته ـ أن يعشق رجلاً عشقاً خالصاً، تماماً. يقيناً كان يحب «جرالد» طيلة الوقت، وينكر ذلك طيلة الوقت.

اضطجع في الفراش والتساؤلات تدور في ذهنه، في حين جلس صديقه بجانبه مستغرقاً في التأمل. لقد سرح كل منهما في أفكاره الخاصة.

قال لـ«جرالد» وقد عاود عينيه نشاطٌ بهيج، جديد: (أنت تعلم كيف أعتاد الفرسان الألمان، القدماء، أن يؤدوا قسم «أخوّة الدم»)*.

قال «جرالد»:

ـ (فَتْحُ جرح صغير في الأذرع، ودعك الجرح بدم الآخر).

ـ (أجل، ويُقْسِمون على الأخلاص لبعضهم طيلة الحياة، جراء تمازج الدم. هذا ما ينبغي لنا أن نفعله: دون جراح، فهذا تقليد عتيق. لكن ينبغي علينا أن نقسم على أن يحب كل منا الآخر، أنا وأنت ضمنياً، وكلياً، ونهائياً، دون أي احتمال للنكوص).

نظر إلى «جرالد» بعينين صافيتين أسعدهما الاكتشاف. وتطلع «جرالد» إليه منجذباً، وقد قيّده الانجذاب المفتون إلى درجة جعلته مرتاباً، كارهاً القيد والانجذاب.

قال «بركن» مترجياً: (سيقسم كل منا للآخر، في يوم ما، أليس كذلك؟ سنقسم أن يعضد كل منا الآخر.. ويخلص له، نهائياً، دون إخلال، وأن نكون مكرَّسَيْن أحدنا للآخر، عضوياً ـ دون أي احتمال للأرتداد).

جاهد «بركن» ليعبر عن نفسه. لكن «جرالد» كاد أن لا يسمع. فقد شعّ وجهه بسرور مشرق معين. لقد سُرَّ. بيد أنه ظل على تحفّظه، وكبح جماح نفسه.

قال «بركن» ماداً يده نحو «جرالد»: (هل سيقسم كل منا للآخر، في يوم ما؟).

اكتفى «جرالد» بلمس اليد اللطيفة، النابضة بالحياة، الممدودة، كما لو كان متمنّعاً، خائفاً، وقال بصوت اعتذاري: (سنؤجله حتى أفهمه على نحو أفضل).

راقبه «بركن»، وقد أصاب قلبَهُ شيءٌ من الخيبة الحادة، وربما مسحة إزدراء. وقال: (نعم، لابد أن تخبرني برأيك، في وقت لاحق. أنت تعرف ما أعني؟ إنها ليست عاطفية مبتذلة. إنه اتحاد لا شخصي يترك الإنسان حراً).

---

* قال «أخوة الدم» بالألمانية. (المترجم).

عاد الاثنان إلى الصمت. كان «بركن» ينظر إلى «جرالد» طيلة الوقت. لقد بدا الآن وكأنه كان يرى، ليس الرجلَ الحيوان، الجسدي، الذي كان يراه في «جرالد» عادة، والذي كان يحبه كثيراً، كما هو معتاد، لكن الرجل ذاته، الكامل، كأنه قدر محكوم عليه، متحدد. هذا الشعور الغريب بالمصيرية في «جرالد»، كأنه مقصور على ضرب واحد من الوجود، معرفة واحدة، نشاط واحد، نوع من النصفية المحتومة، التي كانت تبدو له تماماً متكاملاً، هذا الشعور كان يتسلط على «بركن» دائماً، بعد لحظات تقرّبهما العاطفي، ويملؤه بضرب من الازدراء أو الملل. كأن الإلحاح على التحديد هو الذي أضجر «بركن» كثيراً في «جرالد». لم يكن «جرالد» يستطيع أن ينأى عن نفسه، قط، في حبور حقيقي غير مبال. كان لديه عائقٌ، نوع من مرض المَسّ الأحادي.

ران صمتٌ حيناً من الوقت. بعدها تحدث «بركن» بنبرة أخف ليسمح لضغط التماس أن يزول.

- (ألا يمكنك أن تظفر بمربية جيدة لـ«وينيفرد»... امرأة ممتازة؟).

- (لقد اقترحت «هرمايني رودس» أن علينا أن نطلب من «غدرون» أن تعلمها الرسم وتشكيل الطين. أنت تعلم أن «ويني» ماهرة بدرجة مدهشة في المواد اللدائنية. تقول «هرمايني» إنها فنانة). تحدث «جرالد» بالأسلوب النشط، الأنيس، الاعتيادي، كأن شيئاً غير عادي لم يكن. بيد أن سلوك «بركن» كان يزخر بالتذكير.

- (صحيح؟ لم أكن أعرف ذلك. أوه حسن، إن كانت «غدرون» لا تمانع في تدريسها، سيكون ذلك ممتازاً، لا شيء يمكن أن يكون أحسن من ذلك - هذا إذا كانت «وينيفرد» فنانة. ذلك أن «غدرون» فنانة، وكل فنان حقيقي هو الخلاص بالنسبة إلى سائر الفنانين).

- (كنت أظن أن العلاقات في ما بينهم سيئة، على العموم).

- (ربما، لكن الفنانين فقط هم الذين يهيء بعضهم لبعض العالم الملائم للعيش فيه. فإن استطعت تدبير ذلك لـ«وينيفرد» فذلك شيء ممتاز).

- (لكنك تتصور أنها لن تأتي؟).

- (لا أدري: إن «غدرون» معتدة برأيها إلى حد. فهي لن تبخس حقها في أي مقام. أو إذا ما فعلت ذلك، فسرعان ما ترتد. ولهذا أنا لا أدري ما إذا كانت ستتنازل

فتعطي دروساً خصوصية، لا سيما هنا في (بلدوفر). لكن ذلك سيكون الأفضل. فلـ«وينيفرد» طبيعة خاصة. فإن استطعت أن تهيء لها الوسيلة لتكون مكتفية بذاتها، فسيكون ذلك أفضل شيء ممكن. فهي لن تجاري الحياة العادية أبداً. فذلك صعب بما فيه الكفاية، كما تجده أنت، في حين أنها أرق منك بكثير جداً. فظيع التفكير في ما ستكون عليه حياتها ما لم تجد، على نحو مؤكد، وسيلة للتعبير، سبيلاً ما للإنجاز. في وسعك أن ترى ما يؤول إليه مجرد ترك الأمور للقدر. يمكنك أن ترى إلى أي حد يمكن الوثوق بالزواج.. انظر إلى أمك).

ـ (هل تظن أن الوالدة ليست طبيعية؟).

ـ (كلا! أظن أنها أرادت المزيد، أو شيئاً غير الحياة اليومية المألوفة وحين لم تظفر به، حادت عن الصواب، ربما).

قال «جرالد» مكتئباً: (بعد أن أنجبت وجبة من الأطفال الصالحين).

أجاب «بركن»: (ليسوا أردأ من أي منا. الناس الأسوياء جداً ينطوون على أسوأ النفوس الخفية إذا نظرت إليهم واحداً، واحداً).

قال «جرالد» وقد داهمه غضب عاجز: (أظن في بعض الأحيان أن كون المرء حياً لعنة).

قال «بركن»: (حسن. لم لا! ليكن كونُ المرء حياً لعنةً أحياناً.. وأحياناً أخرى أي شيء آخر عدا اللعنة. إنك، في الحقيقة، تستلذ كثيراً بها).

قال «جرالد» وهو يكشف عن إملاق غريب في نظرته إلى الرجل الآخر: (أقل مما تتصور).

كان ثمة صمت.. كلٌّ مستغرق في أفكاره الخاصة.

قال «جرالد»: (لا أرى ما الذي تراه مما يميز التعليم في المدرسة الثانوية على المجيء لتدريس «وين»).

ـ (الفرق بين موظف عمومي وآخر خصوصي. النبيل الوحيد في هذه الأيام، الملك والارستقراطي الأوحد، هو الناس، نعم، الناس. أنت تميل كثيراً إلى خدمة الناس.. لكنْ أن تكون مدرساً خصوصياً..).

ـ (أنا لا أريد أن أخدم أياً منهم..).

ـ (صحيح! ولعل «غدرون» ستشعر الشعور عينه).

فكر «جرالد» بضع دقائق، ثم قال:

ـ (على أية حال، لن يجعلها الوالد تحس بأنها مستخدَمة خصوصية. سيكون شَكُوراً ومنشغلاً بتفاصيل الأمور بما يكفي).

ـ (يجب عليه ذلك. وعليكم يجب كذلك. هل تظنون أن في مقدوركم أن تكتروا إمرأة مثل «غدرون برانغوين» بالمال؟ إنها ندّ لكم مثل أي شيء آخر.. ولعلها تفوقكم منزلة).

قال «جرالد»: (هل هي كذلك؟).

ـ (نعم، وإذا لم تكن لديكم الجرأة لمعرفة ذلك، فإنني أتمنى أن تترككم لوسائلكم الخاصة).

قال «جرالد»: (ومع ذلك، كنت أتمنى لو لم تكن معلمة، إن كانت نداً لي. ذلك لأنني اعتدت أن لا أظن أن المعلمين أنداد لي).

ـ (ولا أنا، عليهم اللعنة. لكن هل أنا مدرس لأنني أدرس، أم قسيس واعظ لأنني أعظ؟).

ضحك «جرالد». كان على الدوام لا يرتاح في هذا الشأن. لم يشأ أن يدعي التفوق الاجتماعي، ومع هذا ما كان يود الادعاء بالتفوق الذاتي، الشخصي، لأنه لا يريد أن يقيم معيارَ قيمه على أساسٍ من الكينونة المحض. وهكذا تأرجح على افتراض ضمني للمقام الاجتماعي. أما الآن فإن «بركن» كان يريد منه قبول حقيقة الفروق الجوهرية بين الكائنات البشرية، والتي لم يكن ينوي قبولها، فقد كانت ضدّ شرفه الاجتماعي، ضد مبدئه، فنهض ليرحل.

قال مبتسماً: (لقد أهملتُ أعمالي التجارية طيلة هذه المدة).

أجاب «بركن» ضاحكاً، هازئاً: (كان يجب عليّ تذكيرك من قبل).

ضحك «جرالد» وهو أقرب إلى عدم الارتياح، وقال:

ـ (كنت أعرف أنك كنت ستقول شيئاً من هذا القبيل).

ـ (صحيح؟).

ـ (أجل، «روبرت». لن يجدي أن نكون مثلك جميعاً.. وإلا أمسينا معدمين في فترة وجيزة. حين أكون متفوقاً على العالم، سأهمل كل الأعمال التجارية).

قال «بركن» ساخراً: (طبيعي أننا لسنا معدمين الآن).

- (ليس بالقدر الذي تستطيع أن تعلله. على أية حال، لدينا ما يكفي للأكل والشرب..).

واستكمل «بركن»: (والرضا).

أقبل «جرالد» مقترباً من السرير، ووقف يتطلع إلى «بركن» الذي كان مكشوف العنق، وقد تهدل شعره، ملقى على جبينه الدافئ على نحو جذاب، فوق العينين اللتين لا يتحداهما متحدّ وهما لابثتان في الوجه الساخر. وقف «جرالد»، ممتلئ الأطراف، زاخراً بالطاقة، وهو لا يود أن يرحل، فقد قيّده حضور الرجل الآخر. ما كان ليقوى على الابتعاد.

قال «بركن» وهو يمدّ يده من تحت الشراشف، ويبتسم بنظرة مشرقة:

- (إذاً، إلى اللقاء).

قال «جرالد» ممسكاً بيد صديقه الدافئة مسكةً قوية:

- (إلى اللقاء. سأجيء ثانية. أنا أفتقدك هناك عند الطاحونة).

قال «بركن»: (سأكون هناك في غضون بضعة أيام).

التقت أعين الرجلين ثانية، عينا «جرالد» الحادتان كعيني الصقر وقد غمرهما الآن ألق دافئ وحب غير معترف به، ونظرة «بركن» المقابلة، كأنها خارجة من عتمة، دون أن يُعرَف كنهها أو يُسْبَر غورها، ومع ذلك كان فيها ضرب من الدفء بدا منساباً على دماغ «جرالد» كأنه رقاد خصيب.

- (إلى اللقاء، إذاً. ألا يوجد شيء أستطيع أن أفعله من أجلك؟).

- (كلا، شكراً).

تابع «بركن» الرجل الآخر المتلفع بالسواد وهو يخرج من الباب. لقد رحل الرأس المتوقد، فانكفأ «بركن» لينام.

الفصل السابع عشر

قطب الصناعة

في (بلدوفر)، كانت هناك فترة فاصلة بالنسبة إلى كل من «أرسيولا» و«غدرون». فقد بدا لـ«أرسيولا» كأن «بركن» قد نأى عنها عنها حيناً، قد فَقَدَ أهميته، ولم يعد يهمّها في عالمها إلا فيما ندر. كان لها أصدقاؤها، ونشاطاتها، وحياتها الخاصة. لقد عادت إلى نهجها السابق عودةً مصحوبة باستمتاع شديد، بعيدةً عنه.

أما «غدرون»، فبعد أن كانت تشعر بحضور «جرالد كريتش» كلَّ لحظة، في كل عرق من عروقها، وبعد أن تواصلت معه حتى بالبدن، فقد غدت الآن لا تكاد تكترث بالتفكير به. كانت عاكفة على تطوير مشاريع جديدة للرحيل والابتعاد وتجربة نمط جديد من الحياة. كان ثمة شيء ما فيها يحضها طيلة الوقت على تجنب إقامة علاقة نهائية مع «جرالد». فقد شعرت بأن من الأرشد والأفضل أن تقتصر علاقتهما على مستوى المعرفة العرضية.

كانت لديها خطة للذهاب إلى (سانت بطرسبرغ)* حيث يقيم صديق لهاكان نحّاتاً مثلها، يعيش مع روسي ثري كانت هوايته تصنيع الجواهر. كانت تفتنها حياة الروس العاطفية التي تكاد تخلو من الجذور، ولم تشأ أن تذهب إلى (باريس). كانت (باريس) جافة، تبعث على الضجر أساساً. كان بودها الذهاب إلى (روما) أو (ميونيخ) أو (فينا) أو إلى (سانت بطرسبرغ) أو (موسكو). كان لديها صديق في (سانت بطرسبرغ) وآخر في (ميونيخ)، فكتبت إلى كل منهما تسأله عن إمكانيات السكن.

* التي عرفت باسم (لنينغراد) خلال العهد السوفييتي، ثم استعادت اسمها القديم بعد انهياره. (المترجم).

كان لديها بعض المال. كانت قد عادت إلى بيتها وأحد أهدافها التوفير. لقد باعت الآن جملة من أعمالها وكانت موضع الأطراء في معارض مختلفة. كانت تعرف أن في مقدورها أن تغدو «نجمة» مشهورة لو ذهبت إلى (لندن). لكنها كانت تعرف (لندن) وكانت تريد شيئاً آخر.

كانت تملك سبعين باوناً لم يكن يعلم بها أحد. إنها راحلة قريباً، حالما تتلقى جواباً من صديقيها. كانت بطبيعتها، على الرغم من وداعتها وهدوئها الظاهرين، لا تستقر على حال.

صادف أن ذهبت الأختان إلى كوخ في (ويلي غرين) لشراء عسل. كانت هناك السيدة «كيرك»، وكانت امرأة قوية، شاحبة اللون، مدببة الأنف، مكّارة، معسولة، تخفي شيئاً سليطاً في دخيلة نفسها كالقطط. طلبت من الفتاتين الدخول إلى مطبخها المريح والمرتب أكثر من اللازم. كان ثمة رَغَد القطط ونظافتها في كل مكان.

قالت بصوتها الذي يشوبه شيء من الأنين والتلميح:

- (حسن يا آنسة «برانغوين». وكيف، إذاً، تحبين عودتك إلى المكان القديم؟).

كانت تخاطب «غدرون»، فكرهتها هذه فوراً، وأجابت باقتضاب:

- (لا أميل إليه).

- (هكذا؟ حسن. أحسب أنك وجدت فرقاً عن (لندن). إنك تحبين الحياة، والأماكن الواسعة، الفخمة. لابد للبعض منا أن يقنع بـ(ويلي غرين) و(بلدوفر). ثم ما رأيك في مدرستنا الثانوية، إذ يكثر الحديث عنها؟).

التفتت «غدرون» إليها متمهلة وتساءلت:

- (ما رأيي فيها؟ هل تعنين: هل أعدّها مدرسة جيدة؟).

- (نعم، ما رأيك فيها؟).

- (أعتقد أنها مدرسة جيدة فعلاً).

كانت «غدرون» باردة جداً ونافرة، وهي تعلم أن عامة الناس كانت تكره المدرسة.

- (أنت تعتقدين ذلك، إذاً! لقد سمعت الكثير، من هنا وهناك. من اللطيف معرفة ما يشعر به أولئك الذين هم في داخلها. لكن الآراء تختلف، أليس كذلك؟ فالسيد «كريتش» الموجود في (هاي كلوز) يعضدها قلباً وقالباً. يا للمسكين. أخشى أن أجَلَه قد قرب. فصحته سيئة جداً).

فسألت «أرسيولا»: (وهل تردّت صحته؟).

ـ (أجل، منذ فقدوا الأنسة «دايانا». لقد أمسى شبحاً. مسكين لقد واجه الكثير من المشكلات).

تساءلتْ «غدرون» مستهزئة قليلاً: (صحيح؟).

ـ (لقد واجه، أي نعم، الكثير من المشكلات.. السيد المهذب الذي لن تستطيعي أن تتمني إلا أن تلتقي مثله في الحنان واللطف، أبداً. أما أولاده فليسوا مثله).

قالت «أرسيولا»: (أحسب أنهم يشابهون والدتهم).

فأجابت السيدة «كيرك» وقد خفضت صوتها قليلاً:

ـ (في الكثير من النواحي. لقد كانت سيدةً متكبرة، متغطرسة حين قدمت إلى هذه الديار.. نعم، والله، كانت كذلك! كان يجب الامتناع عن النظر إليها. أما التحدث إليها فكان يساوي حياتك). ورسمت على وجهها تعبيراً للسخرية والخبث.

ـ (هل كنت تعرفينها في بدء زواجها؟).

ـ (نعم، كنت أعرفها. كنتُ مربية لثلاثة من أطفالها. كانوا ثلاثة أهوال صغار تماماً.. أبالسة صغار. وكان «جرالد» ذاك شيطاناً ـ إن كان هناك أي شيطان ـ شيطاناً أصلياً، أي نعم، وهو ما يزال في الشهر السادس من العمر). وشابت صوتَ المرأة نبرةٌ غريبة، لئيمة، ماكرة.

قالت «غدرون»: (صحيح؟).

ـ (ذاك العنيد، المتسيّد.. كان يتسيّد على مربيته وهو لما يزل في الشهر السادس من العمر. يرفس، ويزعق، ويتعارك، كشيطان. لقد قرصتُ وركه الصغير مرات عدة حين كان طفلاً رضيعاً. أي نعم، كان سيتحسن، لو كان قد قُرِصَ مراتٍ أكثر. لكنها ما كانت تريد تقويمهم.. لا ـ آ ـ آ، ما كانت تريد أن تسمع شيئاً عن ذلك. أستطيع أن أتذكر المشادات التي كانت تحصل مع السيد «كريتش» ـ يا إلهي! حين كان يغضب، حين كان يغضب على نحو حقيقي، بحيث لم يعد يتحمل المزيد، كان يقفل غرفة المطالعة ويجلدهم بالسوط. أما هي فكانت تروح جيئة وذهاباً خارج الغرفة طيلة الوقت، كنمرٍ، كأنها نمر، وعلى وجهها امارات جريمة القتل نفسه. كان لها وجه يمكن أن يبدو كالموت.. وحين تُفْتَح الباب، كانت تدخل وهي تقول رافعة اليدين: (ماذا كنت تفعل بأولادي أنا، يا جبان؟). كانت مثل إمرأة مجنونة. أظن أنه كان يخافها. كان

يجب إثارته حد الجنون قبل أن يرفع إصبعاً. أما عن حياة الخدم، فحدّثي ولا حرج! لقد اعتدنا أن نحمد الله حين ينال أحدهم العقاب. كان الأولاد بمثابة العذاب في حياتنا).

قالت «غدرون»: (صحيح!).

- (من كل النواحي الممكنة. فإذا لم تسمح لهم بتحطيم أباريقهم على المائدة، وإذا لم تسمح لهم بجر القطيطة هنا وهناك بخيط لُفَّ حول عنقها، وإذا لم تلب كل ما يطلبون، كل شيء يخطر على البال..، انقلبت الدنيا، وجاءت أمهم تسأل: (ما خطبه؟ ما فعلتم به؟ ما الأمر، يا حبيبي؟). ثم تتحول إليك كأنها تريد أن تدوس عليك بقدميها. لكنها لم تدس عليّ أنا. كنت الوحيدة التي تقدر على فعل أي شيء بأبالستها. ذلك أنها لم تكن لتزعج نفسها هي بشأنهم، كلا، أو تتكلف المشقة من أجلهم. لكن كان لابد أن يفعلوا ما يريدون، دون أن ينبس أحد ببنت شفة. وكان السيد «جرالد» أسوأهم. أنا تركتهم حين بلغ عاماً ونصف العام من العمر، ولم أعد أتحمل المزيد. لكنني كنت قد قرصت وركه الصغير حين كان رضيعاً. أجل، قد فعلت ذلك حين كان زمامه يفلت، ولست آسفة على ما فعلت).

خرجت «غدرون» غاضبة، مستنكرة، كانت عبارة «قرصت وركه الصغير» قد جعلتها في غضب هائج، قاس. لم تستطيع أن تطيق ذلك، وودت إخراج المرأة فوراً، وخَنْقَها. مع ذلك، استقرت العبارة في ذهنها إلى الأبد، دون خلاص. لقد شعرت أن عليها أن تخبره، يوماً ما، لترى وقع ذلك فيه، فكرهت نفسها جراء ذلك التفكير.

لكن، في (شورتلاندز)، كان صراع العمر كله قد قارب على الانتهاء. كان الوالد مريضاً يوشك أن يموت. كان يعاني من آلامٍ باطنية أستلبت كل حياته الواعية، ولم تُبْقِ له سوى أثر من الوعي. وأخذت نوبات الصمت تتوالى عليه أكثر فأكثر، وقلّ لديه الشعور بما يحيط به شيئاً فشيئاً. وعلى ما يبدو، كان الألم يستهلك نشاطه. كان يعرف أن الألم كان موجوداً في داخله، وأنه آتٍ ثانية. كان أشبه بشيء يكمن في الظلام في باطنه. ولم تكن لديه القوة أو الإرادة ليتقصاه، ويخرجه، فيعرفه. مكث هناك في الظلام، ذلك الألم الشديد، يمزقّه أحياناً، ثم يخمد. وحين كان يمزقه، كان يقبع تحت وطأته في خنوع صامت. وحين كان يتركه ثانية، كان يرفض معرفته. كان في الظلام، فليبق مجهولاً. وهكذا لم يعترف به قط، إلا في زاوية غامضة من نفسه حيث

كانت تتراكم كل مخاوفه وأسراره، التي لم يُفْشِها قط. أما بالنسبة إلى الآخرين، فقد كان عنده ألم، يجيء ويروح، لا فرق في ذلك. بل أنه كان يحفزه ويستثيره.

بيد أن الألم استنزف حياته شيئاً فشيئاً، وتدريجياً استلب كل قواه الكامنة، وجعله ينزف والجأ العتمة، وفَطَمَهُ عن الحياة وجرّه إلى الظلام جراً. وفي مغرب حياته هذا، لم يبق إلا القليل مما يرى. التجارة والعمل ذهبا إلى غير رجعة، وتبخرت اهتماماته العامة كأنها لم تكن قط. حتى عائلته غدت غريبة عنه، وما عاد يتمكن من أن يتذكر غير أن فلاناً وعلاناً هو من أطفاله، وذلك في جزء تافه، غير جوهري، من ذاته. بيد أن تلك كانت حقيقة تأريخية، وليست ذات أهمية حيوية بالنسبة إليه. كان عليه. أن يبذل جهداً ليعرف صلة قرابتهم به. حتى زوجته، كاد وجودها ألا يكون. بل أنها في الحقيقة كانت كالظلام، كالألم الذي في داخله. لقد غدا الظلام الذي أحتوى الألم والظلام الذي أحتوى الزوجة متماثلين، في نوع من الترابط الغريب. جميع أفكاره وادراكاته أصبحت مشوشة، منصهرة، ولقد غدت زوجته والألم المهلك الآن القوة الغامضة، السوداء، نفسها التي تعترضه، والتي لم يواجهها قط. لم يطرد الخوف من مكمنه في داخله قط. كان لا يعرف سوى وجود مكان مظلم، وشيء ما يقطن ذلك الظلام، شيء كان يبرز بين الحين والحين ويمزقه تمزيقاً. بيد أنه لم يجرؤ على التوغل لطرد الوحش خارجاً. لقد فضّل أن يتجاهل وجوده. لكن، على طريقته المبهمة، كان الخوفُ هو زوجتَه، المدمرةَ، وكان الألم هو التدمير. كان ظلاماً واحداً وظلامين في آن واحد.

لم يكن يشاهد زوجته إلا نادراً جداً. كانت تلازم غرفتها، وتكتفي بالظهور بين آن وآخر سائلة إياه عن صحته بصوتها الخفيض المسوس وقد مدت رأسها إلى أمام، فيجيبها بحكم العادة التي امتدت أكثر من ثلاثين عاماً: (جيدة. لا أظن أنها أسوأ يا عزيزتي). بيد أنه كان يخشاها، من تحت درع العادة الواقي هذا، يخشاها حدَّ الموت تقريباً.

على أنه كان ملتزماً بمبادئه طيلة حياته، ولم يحد عنها قط. كان قميناً بأن يموت حتى في الوقت الحاضر على أن يحيد، على أن يعرف حقيقة مشاعرها نحوه. كان يقول، طيلة حياته: (مسكينة «كريستينا»، ما أحد مزاجها!). لقد صمد عند هذا

الموقف حيالها بإرادة لا تلين. لقد استعاض بالشفقة عن كامل خصومته، فكانت الشفقة درعه الواقي، وسلاحه الذي لا يخيب. ومع ذلك كان يرثي لها في وعيه! فقد كان طبعها ذا عنف شديد ونفاد صبر شديد.

بيد أن شفقته حيال زوجته أخذت تضمحل، والخوف الذي كاد أن يكون هلعاً أخذ ينهض إلى مرتبة الكينونة. لكنه قبل تحطم درع شفقته فعلاً، كان سيموت، موت الحشرة حين تتكسر صدفتها. كان ذلك ملاذه الأخير. سيواصل الآخرون العيش، ويتعرفون على الموت العائش، العملية التالية، عملية الفوضى اليائسة. أما هو فلا. لقد أنكر على الموت انتصاره.

لقد كان ملتزماً بفلسفته في الحياة كثيراً، ثابتاً في الإحسان وفي حبه الجار. ولعله قد أحب جاره أكثر مما أحب نفسه مما يتجاوز الوصايا*. كانت هذه الشعلة تضيء في قلبه دائماً، تعينه في كل شيء، شعلة عمل الخير للناس. كان ملاّكاً كبيراً للمناجم، يستخدم الكثير من العمال. ولم يفقد من فؤاده قط هاجس (المسيح) في كونه واحداً من العمال. بل كان يشعر بأنه أدنى منهم مرتبة، كأنهم، عبر الفقر والكد، كانوا أقرب إلى الله منه. كان يعتقد دائماً اعتقاداً غير مسلّم به بأن عماله في المناجم كانوا هم الذين يمسكون حبل الخلاص بأيديهم. ولكي يتقرب إلى الله، كان عليه أن يتقرب إلى عمال مناجمه، وأن تنجذب حياته إلى حياتهم. لقد كانوا، دون وعي منه، صَنَمَهُ، ربَّه وقد تجلّى. كان يعبد فيهم ربوبية البشر السامية، العظيمة، المتعاطفة غير الواعية.

وكانت زوجته تعارضه، طيلة الوقت كأنها أحد شياطين الجحيم الكبار. كانت توسع أركان فلسفته ضرباً. كانت غريبة، كطير مفترس، بجمال الصقر الفتان وتجريديته، وكصقر في قفص. كانت تغور في لجة الصمت. وبقوة الظرف، ولأن العالم كله تعاون لجعل القفص قوياً لا يكسر، فقد كان عصيّاً عليها بقوته الأشد، وأبقاها أسيرة. ولكونها أسيرته، فقد بقيت عاطفته حيالها قوية كالموت. لقد كان يحبها دائماً، حباً جارفاً، ولم يبخل عليها بأي شيء وهي في داخل القفص - أباح لها كل شيء.

بيد أنها كادت أن تجن. فبسبب طبيعتها المتغطرسة، المتهورة، كانت لا تطيق

---

* الإشارة إلى (الوصايا العشر) التي منها وصية (أحبِبْ جارك). (المترجم).

مذلة ما يبديه بعلها من شفقة رقيقة، شبه متوسلة، حيال الجميع. لم يكن مغشوشاً بالفقراء. كان يعرف أنهم كانوا يأتون ويتطفلون عليه ويولولون ـ الأراذل منهم. أما الأكثرية فكانت، لحس حظه، أعز من أن تطلب أي شيء، وأكثر استقلالية من أن تجيء وتطرق بابه. لكن في (بلدوفر)، كما في أي مكان آخر، كانت هناك كائنات بشرية معلولة، طفيلية، قذرة، تزحف نشداناً للصداقة وتقتات على أبدان الناس الحيّة، كما يفعل القمل.

وكان دماغ «كريستينا كريتش» يضطرم بما يشبه النار كلما شاهدت امرأتين شاحبتين، زاحفتين، أخريين ترتديان ملابس سوداً كريهة، وتتذللان على نحو مكرب في الممر المفضي إلى الباب. وكانت تحدوها رغبة في أن تطلق الكلاب عليهما: (يا «ريب»!، يا «رينغ»!، «رينجر»!، وراءهما، يا أولاد، أطلقوهم عليهما). لكن «كروثر»، الساقي، شأنه شأن سائر الخدم، كان موالياً للسيد «كريتش». مع ذلك فحينما يكون زوجها غائباً كانت تنقض كالذئب على ذوي الحاجات المتذللين، وتقول: (ماذا تريدون أيها الناس؟ لا يوجد أي شيء لكم هنا. لا شأن لكم في الممر بتاتاً. يا «سميسون»، أبعدهم ولا تسمح لأي واحد آخر منهم بالمرور عبر البوابة).

كان على الخدم أن يطيعوها: أما هي فكانت تراقب واقفة، بعينين كعيني الصقر، في حين يسوق الخادم الأشخاص المبتئسين في ارتباك أخرق حتى نهاية الممر، كما لو كانوا طيوراً عفنة تندفع أمامه.

لكنهم تعلموا أن يستعملوا من البواب عن أوقات غياب السيد «كريتش»، فوقّتوا زياراتهم. كم من مرة، في السنين الأولى، كان يتعين على «كروثر» أن ينقر على الباب نقراً رقيقاً ويقول:

ـ (شخص يريد مقابلتك يا سيدي).

ـ (ما الاسم؟).

ـ («غروكوك»، سيدي).

ـ (ماذا يريدون؟). كان السؤال نصف ضجور، نصف راض. كان يحب سماع رجاءات الإحسان الموجهة إليه.

ـ (بخصوص أحد الأطفال، سيدي).

ـ (أدخلهم إلى غرفة المطالعة وقل لهم إن عليهم ألاّ يأتوا بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً).

فتقول زوجته مقاطعة:

ـ (لماذا تقوم وتترك العشاء؟.. اطردهم).

ـ (أوه، لا أستطيع أن أفعل ذلك. إن مجرد سماع ما لديهم أن يقولوه ليس مشكلة).

ـ (كم شخصاً آخر جاء إلى هنا اليوم؟ لماذا لا تفتح مضيفاً لهم؟ إنهم سيخرجونني والأطفال من الدار عن قريب).

ـ (تعلمين، يا عزيزتي، أنه لا يضيرني أن أسمع ما يجب عليهم قوله. وإذا كانت لديهم مشكلة حقاً، فمن واجبي أن أعينهم على التخلص منها).

ـ (من واجبك أن تدعو جميع جرذان العالم ليقضموا عظامك).

ـ (رويدك، يا «كريستينا»، ليس الأمر كذلك. لا تكوني ضد البرّ والإحسان).

بيد أنها أندفعت خارجة من الغرفة، فجأة، قاصدة غرفة المطالعة. وهناك كان يجلس طلاب الاحسان الضعفاء وهم يبدون وكأنهم في عيادة طبيب.

ـ (لا يستطيع السيد «كريتش» مقابلتكم. لا يستطيع مقابلتكم في هذه الساعة. أو تحسبون أنه ملك لكم، وأن في استطاعتكم أن تأتوا متى تشاؤون؟ يجب عليكم أن ترحلوا. ليس هناك أي شيء لكم هنا).

نهض المساكين في اضطراب. لكن السيد «كريتش» تبعها، شاحب اللون، أسود اللحية، مستغفراً، وقال:

ـ (أجل. أنا لا أحب أن تجيئوا في مثل هذا الوقت المتأخر. سأستمع إلى أي واحد منكم في الجزء الصباحي من النهار. لكنني لا أستطيع فعلاً أن أتعامل معكم بعد ذلك. ما خطبك، إذاً، يا «غيتنز» كيف حال زوجتك؟).

ـ (لقد تردت حالها كثيراً، يا سيد «كريتش». أنها تكاد تحتضر.. أنها..).

كان يبدو للسيدة «كريتش» أحياناً أن زوجها كان أشبه بطير جنائزي غامض يقتات على شقاء الناس. كان يبدو غير مرتاح قط حتى تتلى عليه قصة ما وضيعة، فينهل منها برضا عطوف، رثائي. فلن يكون ثمة مبرر لوجوده إن لم يكن هناك بؤس

وتعاسة في العالم، شأنه شأن متعهد دفن الموتى الذي لن يكون له معنى إذا لم تكن هناك جنازات.

انكفأت السيدة «كريتش» على نفسها، وارتدت بعيداً عن عالم الديمقراطية الزاحفة هذا. لقد ضاقت على قلبها حلقة شديدة، مكربة، من الشعور بالاغتراب، واشتد انعزالها وقسي، وغدت عدائيتها سلبية لكنْ جداً صافية، شأن صقر في قفص. وبمرور السنين وَهَنَ تعاملُها مع العالم أكثر فأكثر، وبدت مستغرقة في شرود متألق وهي تكاد لا تعي، فتطوف في أرجاء البيت والريف المحيط به، تحدق ملياً ولا ترى شيئاً. لم تكن تتحدث إلا نادراً، وانقطعت صلتها بالعالم. حتى أنها لم تعد تفكر. لقد استهلكها توتر شديد المعارضة كالقطب السالب للمغناطيس.

كما أنجبت أطفالاً كثيرين. ذلك أنها، بمرور الوقت، لم تعد تعارض زوجها، لا قولاً ولا فعلاً. لم تكترث به ظاهرياً. لقد خضعت له وأباحت له أن يأخذ ما يريد ويفعل بها ما يشاء. كانت كالصقر الذي يذعن لكل شيء، وهو عابس. كانت العلاقة بينها وبين زوجها صامتة، غامضة لكنها عميقة، فظيعة، علاقة تدمير متبادل شامل. أما هو، الذي فاز بالدنيا، فقد غدا أجوف الحيوية أكثر فأكثر، الحيوية التي كانت تنزف من داخله نَزْفَ الدم. أما هي فكانت حبيسة كصقر في قفص. لكن قلبها كان عنيفاً لم يتلاش، في داخلها، وإن أصاب عقلَها الدمارُ.

وهكذا، تعوَّدَ، حتى النهاية، أن يذهب إليها، ويحتضنها أحياناً، قبل أن تذهب قوته كلها إلى غير رجعة. كان النور الأبيض، الفظيع، المدمر، المتقد في عينيها يهيجه ويثيره حسب ـ حتى قضى نَزْقاً، فخشيها آنئذ أكثر من خشيته أي شيء آخر. بيد أنه كان يحدث نفسه على الدوام كيف كان سعيداً وكيف كان قد أحبها حباً خالصاً مهلكاً منذ أن عرفها. كان يتملاها في فكره نقية، طاهرة. كانت الشعلة البيضاء التي لم يعرفها غيره ـ شعلة الجنس فيها ـ عبارة عن زهرة بيضاء من الثلج، حسب ظنه. كانت زهرةَ ثلجٍ بيضاءَ، مدهشة، كان يشتهيها إلى أبعد حد. أما الآن فكان يحتضر، إلا أن خواطره وتعليلاته ظلت سالمة كاملة، وهذه لن تنهار إلا حين يغادر النَفَسُ بدنَه. وحتى ذلك الحين، ستكون هذه حقائق ناصعة بالنسبة إليه. الموت دون غيره هو الذي سيبين الكذبة الكاملة بتمامها بالنسبة إليه. وإلى أن تحين ساعة الموت، ستظل هي زهرته

الثلجية البيضاء. كان قد أخضعها، وكان خنوعها له أقصى الطهارة فيها، عذريةً لم يستطيع أن يقتحمها قط، عذرية سيطرت عليه سيطرة السحر.

لقد تخلت عن العالم الخارجي لكنها في قرارة نفسها لم تكن كسيرة مثلومة. فكانت تكتفي بالجلوس في غرفتها كصقر كئيب أشعث دون حراك أو تفكير. أما أطفالها الذين قست عليهم كثيراً في شبابها فما عادوا يعنون أي شيء تقريباً بالنسبة إليها. لقد خسرت كل ذلك، وأصبحت وحيدة تماماً. «جرالد» المتألق، فقط، كان له بعض الوجود عندها. بيد أنها قد نسيته هو الآخر في السنوات الأخيرة منذ تولى رئاسة الأعمال التجارية في حين توجَّهَ الأب، وقد دنت ساعته الآن، نحو «جرالد» ينشد التعاطف. لقد كان بينهما خلاف دائم. فقد كان «جرالد» يخشى أباه ويزدريه، وقد تجنبه إلى حد كبير طيلة سنوات الصبا وأوائل مرحلة الرجولة. وغالباً ما كان الوالد يشعر بكره حقيقي لابنه البكر، كره كان يرفض أن يعترف به وهو الذي كان لا يريد أن يكشف عنه أبداً. لقد تجاهل «جرالد» بقدر ما استطاع، تاركاً إياه وحده.

بيد أنه منذ عودة «جرالد» إلى البيت وتسلمه المسؤولية في الشركة ونجاحه المدهش في الإدارة، وضع الوالدُ، المتعب الضجر من كل الاهتمامات الخارجية، كلّ ثقته بشأن هذه الأمور في ولده، ضمنياً، تاركاً كل شيء له، ومعتمداً على عدوه الشاب اعتماداً مؤثراً بعض الشيء. وفي الحال، أثار هذا عطفاً شديداً وولاءً في قلب «جرالد» الذي كان يشوبه دوماً الأزدراءُ والعداوة غير المعلن عنها. ذلك أن «جرالد» كان ضد «الإحسان»، ومع ذلك كان واقعاً تحت سيطرته، فهو صاحب السطوة في الحياة الداخلية، وما كان يستطيع أن ينكره. وهكذا كان خاضعاً لما كان أبوه يؤمن به إلى حد ما، لكنه كان ضده. أما الآن فإنه لم يعد يستطيع إنقاذ نفسه. لقد استبد به شيء من العطف والحزن والرقة حيال أبيه، على الرغم من خصومته الأعمق والأشد.

ظفر الوالد بما يلوذ به من «جرالد»، من خلال التعاطف. أما بالنسبة إلى الحب، فكانت لديه «وينيفرد»، التي كانت أصغر أطفاله، الوحيدة من بينهم التي أحبها حباً حميماً على الدوام. وكانت هي التي أحبها كل الحب العظيم، المفرط، الحامي لرجل يحتضر. كان يريد أن يحميها إلى أقصى حد، إلى أقصى حد، يلفّها بالدفء والحب،

والحماية على نحو كامل. ولو تمكن من حمايتها، لما عرفت أي ألم، أو أي حزن، أو أي ضرر. لقد كان مستقيماً جداً طيلة حياته، جدٌ ثابتٍ على الحنان والطيبة. وتلك كانت آخر أمثولة على الاستقامة المتقدة العاطفة لديه: محبته للطفلة «وينيفرد». ومع ذلك كانت بعض الأشياء ما تزال تشغل باله. لقد نأت عنه الدنيا فيما انحسرت قوته. لم يعد هناك مساكين ومتضررون وفقراء تجب حمايتهم وإنقاذهم: لقد غاب أولئك جميعاً عن أنظاره. لم يعد هناك أبناء وبنات يسببون له المتاعب ويثقلون عليه كمسؤولية غير طبيعية. هؤلاء كذلك قد بهتت صورتهم عن الواقع. كل هذه الأشياء قد سقطت من يديه وتركته طليقاً.

بقي الخوف والهلع الخفيان من زوجته إذ تجلس في غرفتها شاردة غريبة أو تُقْبِل بخطوات بطيئة متسللة، وقد أحنت رأسها إلى أمام. بيد أنه نحّى ذلك جانباً. فحتى استقامته التي امتدت طيلة حياته لم تعد تنقذه تماماً من الهلع الباطني. ومع ذلك استطاع أن يوقفه عند حده بما يكفي، فلم يطف هذا الهلع على السطح جهاراً قط. إن الموت هو الذي سيأتي أولاً.

ثم هناك «وينيفرد»! آه لو استطاع أن يطمئن بشأنها حسب، لو استطاع أن يطمئن. فمنذ أن توفيت «دايانا»، وتطور مرضه، فإن رغبته الجارفة في ضمان الأمان لـ«وينيفرد» بلغ حد الهوس تقريباً. كأنه كان من الواجب عليه، حتى في مرحلة الاحتضار، أن يعاني شيئاً من القلق، شيئاً من تبعات الحب والإحسان في قلبه.

كانت طفلة غريبة، حساسة، سريعة الاهتياج، ورثت عن أبيها الشعر الأسود والمسلك الهادئ، لكنها كانت متجردة عن التأثر تماماً، آنية المزاج. كانت كالطفل المستبدّل بغيره سراً في صغره*، فعلاً، كأن مشاعرها لا تهمها في الحقيقة. كانت تبدو، في الغالب، وهي تتحدث وتلعب كأكثر الأطفال مرحاً وطفولية، تزخر بأدفأ الود وأبهج المحبة لبضعة أشياء ـ لأبيها ولحيواناتها على وجه الخصوص. لكن إذا ما قيل لها أن قطيطتها «ليو» قد دهستها السيارة فإنها ستميل رأسها إلى جانب، ويلوح على وجهها شدٌّ طفيف يشبه الأمتعاض وتقول: (صحيح؟)، ثم تتجاهل الأمر نهائياً. كانت لا تكره إلا الخادم الذي يقحم الأنباء السيئة عليها ويريدها أن تأسف. كانت تريد ألا

* حسب الحكايات الشعبية، حيث تأخذ الحوريات طفلاً بشرياً مسروقاً وتحل محله طفلاً بديلاً. (المترجم).

تعرف، وبدا أن ذلك كان حافزها الرئيس. كانت تتجنب أمها وأغلب أفراد عائلتها. أما «بابا» فكانت تحبه لأنه كان يريد لها أن تكون سعيدة دائماً، ولأنه كان يبدو كأنه قد غدا شاباً ثانية وغير مسؤول في حضورها. كما أنها كانت تود «جرالد» لأنه كان مستقلاً بذاته إلى حد كبير. وأحبت الناس الذين كانوا يودون أن يجعلوا الحياة لعبة بالنسبة إليها. كما أنها كانت ذات مقدرة إنتقادية غريزية مدهشة، وكانت فوضوية خالصة وأرستقراطية خالصة في الوقت نفسه. ذلك أنها كانت تقبل أندادها حيثما وجدتهم وتتجاهل من هم دونها بقلة اكثراث بهيجة، سواء كانوا إخوتها وأخواتها، أم ضيوف الدار الأثرياء، أم كانوا خدماً أو من عامة الناس. كانت منفردة بنفسها تمام الانفراد، لا تقتبس شيئاً من أحد، كأنها كانت منقطعة عن كل غاية واستمرارية، بل عائشة لحظةً بلحظة بكل بساطة.

كان الوالد يشعر كأن مصيره كله يعتمد على ضمان السعادة لـ«وينيفرد»، كأنه واقع في وهم غريب أخير. «وينيفرد» التي لا قِبَلَ لها على المعاناة قط، لأنها لم تعقد صلات حيوية قط، والتي كان يسعها خسران أعز الأشياء في حياتها والبقاء كما هي تماماً في اليوم التالي، وقد أتطمست الذكرى كلها، كأنما عمداً. والتي كانت إرادتها حرة حد الغرابة والتسيب، وفوضوية، تكاد تكون عدمية، والتي كانت تطير على جناح إرادتها نفسها كطير لا روح فيه، دون صلة أو تبعة تتجاوز اللحظة الآنية، والتي كانت، في كل حركة من حركاتها، تقطّع خيوط الأواصر الجادة بيدين طليقتين، جذلتين، والتي كانت عدمية فعلاً لأنها لم تكن تهتم قط.. هذه لابد أن تكون موضع اهتمام أبيها الأخير القلق العاطفي.

حين سمع السيد «كريتش» أن «غدرون برانغوين» قد تأتي لمساعدة «وينيفرد» في الرسم والتشكيل، فإنه تبين سبيلاً للخلاص لطفلته. كان يعتقد بأن «وينيفرد» ذات موهبة، وكان قد رأى «غدرون» فأدرك بأنها كانت شخصاً متميزاً. كان يستطيع أن يسلمها «وينيفرد»، فتتسلمها يدان امينتان لكائن مناسب. ها هنا توجيه وقوة إيجابية سترفد طفلته بهما، فلا داعي لتركها دون دفاع أو توجيه. لو استطاع أن يطعّم الصبيةَ إلى شجرة من الحديث والبيان قبل موته، لأنجز مسؤوليته. وها قد سنحت إمكانية لإنجاز ذلك. وعليه لم يتردد في ترجي «غدرون».

في غضون ذلك، وبينما كان الوالد ينساب نحو منتهى الحياة أكثر فأكثر، كان «جرالد» يعاني المزيد من الشعور بالتعرض والانكشاف. ذلك أن أباه، على الرغم من هذا وذاك، كان بالنسبة إليه يمثل دنيا الحياة. لم يكن «جرالد» مسؤولاً حيال الدنيا ما دام أبوه على قيد الحياة. لكن أباه كان يحتضر الآن، لذلك وجد «جرالد» نفسه مكشوفاً غير مستعد لمواجهة عاصفة الحياة، مثله مثل النائب الأول المتمرد لربان سفينة فقدت قبطانها والذي لا يرى إلا الفوضى أمامه. لم يكن قد ورث نظاماً مقرراً وفكرة حية. لقد بدا أن الفكرة الموحدة عند البشر كانت تحتضر برمتها مع أبيه، وأن قوة التمركز التي جمعت الكل معاً كانت تتحطم مع أبيه، وأن الأجزاء كانت آيلة للانتشار في تفتت فظيع. كان «جرالد» كمن تُرِكَ على متن سفينة تتناثر تحت قدميه.. كان يتولى إدارة مركب تتشظى ألواحه كلها.

كان يعرف أنه كان طيلة حياته يلوي إطار الحياة ليكسره نثاراً. والآن رأى نفسه، بشيء من هلع الطفل المخرب، على وشك استيراث دماره هو. وفي الشهور الأخيرة، وهو تحت تأثير الموت وكلام «بركن» ووجود «غدرون» المؤثر، فَقَدَ اليقين الآلي، الذي كان عنوان نصره، فقداناً كلياً. وفي بعض الأحيان كانت تسري فيه تشنجات من الكراهية ضد «بركن» و«غدرون» وذلك الرهط بأجمعه. فقد ودّ العودة إلى أبلد صور النهج المحافظ، وإلى أغبى الناس التقليديين. أراد الرجوع إلى أشد مبادئ حزب (المحافظين) صرامة. لكن هذه الرغبة لم تدم طويلاً بما يكفي لتَحْمِلَه على تحقيقها بالأفعال.

خلال طفولته وصباه كان ينشد نوعاً من الحياة البدائية. كانت أيام «هوميروس» مثله الأعلى، حين كان أحد الرجال يترأس جيشاً من الأبطال أو يقضي سنوات عمره في «الأوديسة» الرائعة. لقد كره ظروف حياته الخاصة كرهاً جاوز تأنيب الضمير، حتى إنه لم ير (بلدوفر) ووادي المناجم رؤية حقيقية قط. فقد أعرض كلياً عن منطقة المناجم المسودة التي كانت تمتد شاسعة على اليمين من (شورتلاندز)، وتحول كلياً إلى الريف والغابات الممتدة بعد (ويلي ووتر). صحيح أن ضجيج مناجم الفحم وجلبتها كانت تُسْمَع في (شورتلاندز) على الدوام. بيد أن «جرالد» لم يكن يكترث بذلك منذ أوائل طفولته. فقد تجاهل كل خضم الصناعة الذي كان يجيش في موجات من المدّ سوّدها

الفحم، فترتطم بحدود الأرض المحيطة بالدار. كانت الدنيا، في حقيقة الأمر، فلاةً يصطاد المرء فيها ويسبح ويركب الخيل. لقد ثار على كل سلطة وكانت الحياة ظرفاً من ظروف الحرية البدائية.

ثم أرسل إلى الجامعة، فكانت بمثابة موت زؤام بالنسبة إليه. لقد رفض أن يذهب إلى (أكسفورد) واختار جامعة ألمانية. وأمضى بعض الوقت في (بون)، وفي (برلين)، وفي (فرانكفورت). هناك تيقظ حب الاستطلاع في ذهنه. فأراد أن يرى ويعرف على نحو موضوعي، غريب، كما لو كان الأمر تسلية له. بعد ذلك كان لابد له من السفر إلى المناطق المتوحشة التي كانت تجتذبه كثيراً.

كانت النتيجة أنه وجد أن البشر متشابهون جداً في كل مكان، وأن الوحشي، على وفق تفكيره الغريب البارد، كان أدعى إلى الضجر وأقل إثارة من الأوربي. وهكذا أمسك بزمام جميع ضروب الأفكار الاجتماعية وأفكار الإصلاح. لكنها لم تنفذ إلى ما تحت جلده، أبداً، ولم تكن أكثر من تسلية فكرية، وتركزت أهميتها، بصورة رئيسة، في ردة فعل ضد النظام الإيجابي، أي ردة الفعل التدميرية.

وأخيراً أكتشف في مناجم الفحم مغامرة حقيقية. لقد طلب أبوه إليه أن يساعده في الشركة. وكان «جرالد» قد درس علم التعدين، الذي لم يثر اهتمامه قط. والآن، وعلى حين غرة، امسك بزمام الدنيا، بشيء من الابتهاج.

كانت للصناعة العظيمة صورة مطبوعة فوتوغرافياً في وعيه. وفجأة، غدت حقيقية وغدا هو جزءاً منها. في أسفل الوادي كان خط سكك المناجم يمتد رابطاً منجماً بمنجم. وعلى خط السكة كانت القطارات تسير، قطارات قصيرة تتألف من شاحنات ثقيلة الحمل، وقطارات طويلة من شاحنات فارغة، كل واحدة منها تحمل بحروف كبيرة بيض الأحرف الأولى: (سي. بي. وشركاه).

هذه الحروف البيض على جميع الشاحنات كان قد رآها منذ أوائل طفولته، لكنه كان كأنه لم يرها قط. كانت جدّ مألوفة، جدّ متجاهَلة، وأخيراً شاهد الآن اسمه هو مكتوباً على الجدار. الآن، رأت عيناه القوة.

ما أكثر الشاحنات حاملات الحروف الأولى من اسمه التي كانت تنتقل عبر البلد

كله. لقد شاهدها عند دخوله (لندن) في القطار كما شاهدها في (دوفر)*. لقد بلغت سلطته تلك الأبعاد. ألقى نظرة على (بلدوفر) و(سلبي) و(واتمور) و(لثلي بانك)، قرى المناجم العظيمة التي كانت تعتمد على مناجمه كلياً. كانت قرى قبيحة قذرة وكانت أثناء طفولته كالقرحة في وعيه. أما الآن فهو ينظر إليها بافتخار. وتزاحمت تحت كنفه أربع مدن جديدة، فجّة، ومعها جملة من القصبات الصناعية القبيحة. كان يشاهد رتل عمال المناجم وهم يتقاطرون على الممرات من المناجم في نهاية العصر، ألوفاً من الكائنات البشرية المسوّدة، والمشوّهة قليلاً، بأفواهها الحمر، وكلها تتحرك في خضوع لأرادته. كان يقود سيارته على مهل عبر السوق الصغير في ليالي السبت في (بلدوفر)، مخترقاً كتلة متراصة من الكائنات البشرية العاكفة على التبضع والإنفاق الأسبوعي. كانوا يخضعون له جميعاً. كانوا قبيحي الشكل والمظهر، لكنهم كانوا أدواته، وكان هو ربُّ الآلة، يفسحون الطريق لسيارته تلقائياً وعلى مهل.

لم يكن يأبه، سواء أفسحوا له المجال على عجل جذلين، أم على مضض متلكئين. كما لم يأبه برأيهم فيه. لقد تبلورت نظرته على حين غرة. وعلى حين غرة أدرك نفعية البشر الخالصة. لقد كثر الكلام من قبل عن المبادئ الإنسانية، وعن الآلام، وعن الأحاسيس. وكان ذلك سخيفاً. فلا آلام الأفراد ولا أحاسيسهم كانت تهم البتة. ذلك أنها كانت مجرد ظروف، كالجو. ما كان يهم هو نفعية الفرد حسب، والرجل كالسكين: هل تقطع بصورة جيدة؟ لا شيء يهم غير ذلك.

لكل شيء في العالم وظيفته، وهو جيد أو غير جيد بالقدر الذي ينجز فيه هذه الوظيفة على نحو يقرب من الكمال. هل كان عامل المناجم عاملاً جيداً؟ إنْ كانَ فهو كامل. هل كان المدير مديراً جيداً؟ ذلك كاف. و«جرالد» نفسه، وهو المسؤول عن كل هذه الصناعة، هل كان مديراً جيداً؟ إنْ كانَ، فقد حقق مرام حياته. أما الباقي فثانوي.

كانت المناجم هناك مناجم عتيقة آيلة إلى النضوب. لم يكن تشغيل عروقها مجزياً. وكان الحديث يدور حول إغلاق اثنين منها. وقد كان مجيء «جرالد» إلى الساحة في هذه المرحلة نفسها. نظر حوله. ثمة تقع المناجم، عتيقة، أثرية. كانت

* ميناء بحري في جنوب شرق انكلترة. (المترجم).

كالسباع المسنّة: انتهت جدواها. أعاد النظر. عجيب! لم تكن المناجم سوى جهود خرقاء لعقول حمقاء. كانت قابعة هناك، إخفاقات من جانب عقل نصف متدرب، فَلْيُكْسَحَ التفكيرُ فيها. فأبعدها عن دماغه ولم يفكر إلا في الفحم المطمور في الأسافل. كم كان مقداره؟

كان هناك الكثير من الفحم. وكل ما في الأمر أن الأعمال القديمة لم تستطع الوصول إليه. إذاً، فلتُحَطَّم رقبة الأعمال القديمة. كان الفحم موجوداً هناك، في عروقه، وإن كانت هذه عروقاً رقيقة. هناك كان: مادةً هامدةً، كما كان دائماً منذ بدء الزمان، عرضةً لإرادة الإنسان. كانت إرادة الإنسان هي العامل الحاسم. كان الإنسان الربَّ الأول للأرض، وكان عقله مسخراً لخدمة إرادته. كانت إرادة الإنسان هي المطلق، المطلق الوحيد.

وكانت إرادته أن يخضع (المادة) لغاياته الخاصة به. كان المهم الإخضاع نفسه، والصراع هو الكل في الكل، أما ثمرات النصر فكانت مجرد نتائج. لم يكن تسلم «جرالد» مسؤولية المناجم من أجل المال. لم يكن يهتم بالمال، من حيث الأساس. لم يكن محباً للمظاهر أو الترف، ولا أهتم بالمركز الاجتماعي، هدفاً نهائياً. ما كان ينشده هو التحقيق الخالص لإرادته الخاصة في الكفاح ضد الظروف الطبيعية. كانت إرادته الآن أن يستخرج الفحم من باطن الأرض بطريقة مربحة. كان الكسب شرط الانتصار حسب، لكن الانتصار نفسه كان يكمن في العمل الباهر المنجز. لقد اهتزت جوانحه حماسةً حيال التحدي. كان في المناجم يومياً، يتفحص ويجرب، ويستشير الخبراء، فاستجمع كل دقائق الموقف في عقله تدريجياً، شأنه شأن القائد العسكري إذ يستوعب خطة معركته.

ثم قامت الحاجة إلى إحداث تغيير شامل. كانت المناجم تدار بطريقة قديمة، وفكرة بالية. كانت الفكرة الأولية الحصول على أكبر قدر من المال من باطن الأرض ما يجعل المالكين أغنياء بدرجة مريحة، ويتيح للعمال أجوراً كافية وظروفاً جيدة، ويزيد من ثروة البلاد عامة. وكان لوالد «جرالد»، الذي هو من الجيل الثاني، ثروة كافية جعلته يقصر تفكيره على الرجال* حسب. كانت المناجم بالنسبة إليه، أولاً، حقولاً شاسعة لأنتاج الخبز والوفرة لمئات الكائنات البشرية كلها المتجمعة حوله. لقد عاش وكافح مع شركائه

* تستعمل كلمة «الرجال» هنا للإشارة إلى العاملين في المناجم، لا إلى جنس الرجال. (المترجم).

من المالكين كي يستفيد الرجال على الدوام. وقد استفاد أولئك على طريقتهم. فلم تكن هناك سوى قلة من الفقراء وقلة من المحتاجين. كان كل شيء وفيراً بسبب جودة المناجم وسهولة تشغيلها. وقد شعر عمال المناجم في تلكم الأيام بالحبور والانتصار إذ وجدوا أنفسهم أغنى مما كان لهم أن يتوقعوه. لقد عدّوا أحوالهم جيدة، وهنأوا أنفسهم على حظهم الحسن، وتذكروا كيف عانى آباؤهم وتضوروا جوعاً، فشعروا بأن أوقاتاً أفضل قد حلّت. كانوا ممتنّين لأولئك الآخرين، الرواد، الملاك الجدد، الذين كانوا قد حفروا المناجم وأطلقوا دفق الوفرة ذاك من مكمنه.

لكن الإنسان لا يكتفي ويرضى، أبداً. وهكذا تحوّل عمال المناجم من الشعور بالامتنان حيال المالكين إلى التذمر، وقلّت قناعتهم جراء المعرفة، فطالبوا بالمزيد. لماذا يجب أن يكون السيد مفرط الثراء إلى هذا الحد؟

وحين كان «جرالد» طفلاً، حدثت أزمة عندما أغلق (اتحاد المالكين) المناجم بسبب رفض الرجال أجراء تخفيض*. لقد أدى هذا الإغلاق إلى اقتحام الظروف الجديدة حياة «توماس كريتش» في عقر داره. فبسبب انتمائه إلى (الاتحاد) أضطر إلى غلق المناجم في وجه عماله كي لا يحنث في عهده. أجل، اضطر الوالد، رب العائلة الجليل، إلى أن ينكر وسائل العيش على أبنائه، على أناسه. الثري، الذي لا يكاد يُقْبَل في جنات النعيم بسبب أمواله، كان عليه الآن أن ينقلب على الفقراء، على أولئك الذين كانوا أقرب إلى (المسيح) منه، أولئك الذين كانوا أذلاء، محتقرين، وأدنى إلى الكمال، أولئك الذين كانوا ذوي شهامة ونبل في جهودهم.. عليه أن يقول لهم: (لن تعملوا، لن تأكلوا الخبز).

كان هذا الإدراك لحالة الاحتراب هو الذي حطّم قلبه تحطيماً. كان يريد أن تدار صناعته على أساس من الحب. أوه، أراد أن يكون الحب هو القوة المديرة حتى للمناجم. والآن، من داخل عباءة الحب، استُلَّ السيف بسخرية، سيف الضرورة الآلية.

هذا ما حطّم قلبه حقاً. كان لابد أن يكون عنده وهم، والآن قد دمر الوهم. لم يقف الرجال ضده هو نفسه، بل ضد السادة. كانت حرباً. وسواءً شاء أم أبى، فقد وجه نفسه

* تخفيض في الأجور. (المترجم).

في الجانب الخطأ في قرارة ضميره. كانت جموع متفجرة من عمال المناجم تتجمع يومياً منجرفة بحافز ديني جديد. فقد انتشرت فيهم سريعاً فكرة أن «كل البشر سواسية في الأرض» وأرادوا وضع الفكرة موضع التحقيق المادي. أليست هي بعد كل هذا وذاك من تعاليم (المسيح)؟ وما هي الفكرة، إنْ لم تكن بذرة العمل في العالم المادي؟ «كل البشر سواسية في الروح. إنهم أبناء الله جميعاً. فمن أين يا ترى، تأتت هذه اللا مساواة البينة؟». لقد كانت عقيدة دينية دُفِعَتْ إلى خاتمتها المادية. لم يكن «توماس كريتش» يملك الجواب، حتى أي جواب. كان في استطاعته أن يعترف، فقط، بموجب عقائده المخلصة بأن عدم المساواة غلط. لكن لم يكن في وسعه أن يتخلى عن سلعته التي كانت موضع عدم المساواة. وهكذا شاء الرجال أن يقاتلوا من أجل حقوقهم، مستلهمين النوازع الأخيرة من آخر عاطفة مشبوبة دينية بقيت على الأرض، العاطفة المشبوبة من أجل المساواة.

كانت جموع الرجال الثائرة تنتظم في مسيرات هنا وهناك وقد التمعت الوجوه كأن ثمة حرباً مقدسة يشوبها دخان من جشع. لكنْ، كيف السبيل إلى فك التشابك بين العاطفة المشبوبة من أجل المساواة والاندفاع نحو الجشع، حين يبدأ النضال من أجل التساوي بالملكية؟ لكن الآلة كانت هي الرب، وكان كل فرد يطالب بالمساواة في هذه الربوبية، في آلة الإنتاج العظيمة، كما أن كل فرد كان جزءاً من هذه الربوبية. بيد أن «توماس كريتش» كان يعلم على نحو ما بأنّ هذا خطأ. فإذا كانت الآلة هي الرب والإنتاج أو العمل هو العبادة، فإن أكثر العقول آليةً هو أسماها وأنقاها ويمثل الله على الأرض. أما الباقون فهم الأدنون، كلٌ حسب درجته.

اندلعت أعمال شغب، وارتفعت ألسن اللهب من فتحة منجم (واتمور). كان ذلك هو أبعد منجم في الريف، يقع بالقرب من الغابات. وجاء الجنود وكان في المستطاع في ذلك اليوم المشؤوم رؤية شعلة الحريق عالية في السماء على مسافة غير بعيدة، وذلك من شبابيك (شورتلاندز)، وكان قطار المناجم الصغير، بعرباته العمالية التي كانت تستخدم لنقل عمال المناجم إلى (واتمور) القصية، يخترق الوادي الآن مليئاً بالجنود، مليئاً بذوي المعاطف الحمر. ثم ندّ الصوت البعيد لاطلاق النار، ثم الأنباء اللاحقة، عن تفريق جموع المتظاهرين، وعن رجل أُردي قتيلاً بالرصاص، وعن إطفاء الحريق.

امتلأت نفس «جرالد»، وكان صبياً، بأعنف مشاعر الانفعال والحبور، وتاق لمصاحبة الجنود كي يطلق النار على الرجال. لكنْ، لم يكن يُسْمَح له بتجاوز غرفة البواب. كان عند البوابات حراس يحملون البنادق. وكان «جرالد» يقف قربهم فرحاً بينما كانت جموع من عمال المناجم المستهزئين تروح وتجيء في الأزقة وهي تهتف وتسخر:

- (والآن يا توافه الشرطة الثلاثة، لِنَرَ كيف تطلقون النار من بنادقكم). كما كتبت عبارات مهينة بالطباشير على الجدران، وترك الخدم مخدوميهم.

وفي غضون ذلك كان «توماس كريتش» يحطِّم قلبه ويهب مئات الباونات في أعمال البر والإحسان. كان هناك طعام مجاني في كل مكان، تخمةٌ من الطعام المجاني. كان في وسع أي فرد أن يطلب خبزاً ويحصل عليه، ولم يكن الرغيف يكلف غير ثلاثة بنسات ونصف. وفي كل يوم كان هناك شاي مجاني في مكان ما، ولم يحظ الأطفال قط بمثل ذلك القدر من الولائم في حياتهم. وفي عصر يوم الجمعة كانت سلال ضخمة مليئة بالكعك والخبز المحلى تؤخذ إلى المدارس، وكذلك أباريق الحليب، فيتناول أطفال المدارس منها ما يريدون. حتى إنهم مرضوا من كثرة ما تناولوا من كعك وحليب.

ثم انتهى الحدث، وعاد الرجال إلى أعمالهم. لكن الأمور لم تعد كما كانت من قبل. كان ثمة ظرف آخر استجدّ، وفكرة جديدة عمّت. حتى الآلة تعيَّنَ أن تكون فيها مساواة، فلا جزء يتوجب أن يخضع لأي جزء آخر. فكلها يجب أن تكون على قدم المساواة، بعضها مع بعض. لقد دخلت غريزة الفوضى. إن المساواة المبهمة تكمن في التجريد وليس في التملك أو الفعل اللذين هما عبارة عن عمليتين. ففي الوظيفة والعمل، لابد للرجل الواحد والجزء الواحد أن يكونا خاضعين لجهة أخرى بحكم الضرورة. إنه شرط الكينونة.. بيد أن الرغبة في الفوضى قد نشأت، وغدت فكرة المساواة الآلية سلاحاً للتمزّق الذي لابد منه لتحقيق إرادة الرجال، الإرادة المستهدفة للفوضى.

كان «جرالد» صبياً حين وقع الإضراب، لكنه كان يتوق إلى أن يصير رجلاً كي يحارب عمال المناجم. بيد أن الأب كان واقعاً في شرك يتألف من اثنين من أنصاف

الحقائق. فقد أراد أن يكون مسيحياً خالصاً متَّحداً ومتساوياً مع جميع الناس. حتى إنه أراد أن يهب الفقراء كل ما يملك، ومع ذلك كان مروجاً للصناعة كبيراً، ويعلم جيداً أنه كان يجب أن يستبقي أمواله ويستبقي سلطته. كانت تلك ضرورة مقدسة بالنسبة إليه، كضرورة هبة كل ما يملك ـ بل أكثر قدسية، لأنها كانت الضرورة التي عمل بها. لكنْ، لكونه لم يعمل بالمثل الأعلى الآخر، فقد سيطر هذا عليه، وكان يموت كمداً لأن عليه أن يتخلى عنه. كان غرضه أن يكون أباً للحنان المحب والطيبة المضحِّية. أما عمال المناجم فكانوا يصرخون به بشأن آلاف الباونات التي كان يحصل عليها في السنة، وما كانوا لِيُخْدَعوا.

وحين بلغ «جرالد» مبلغ الرجال في أمور الدنيا، تحوّل في موقفه، فلم يهتم بالمساواة، وأمسى الموقف المسيحي في المحبة والتضحية تحديداً زياً بالياً. لقد أدرك أن المكانة والسلطة كانتا الشيء الصحيح في الدنيا، وأن من غير المجدي التدليس بغير ذلك. كانتا الشيء الصحيح، لسبب بسيط هو أنهما لازمتان وظيفياً، ولم تكونا الكلّ بالكل ولا الغاية الكلية. كان الأمر وكأنهما جزء من آلة. فصادف أن كان هو الجزءَ المركزي المسيطر، وكانت جماهير العمال الأجزاءَ المسيطَر عليها على نحو أو آخر. كان ذلك مجرد ما حدث. فلا عجب في إدارة محور مركزي لمائة دولاب خارجي، أو دوران الكون حول الشمس. على أية حال، سيكون مجرد سخف القول بأن القمر والأرض وزحل والمشتري والزهرة يحق لها أن تكون مركز الكون، كلاً منها على حدة، مثل الشمس. مثل هذا الادعاء يقال لمجرد الرغبة في الفوضى.

وبدون أن يكلف «جرالد» نفسه عناء التفكير باستنتاج ما، فإنه قفز إلى الاستنتاج. فنبذ قضية المساواة الديمقراطية برمتها بصفتها قضية سخافة. كان المهم هو الآلة الانتاجية، الاجتماعية، العظيمة. فلتشتغل هذه بكامل الاتقان، ولِتُتَح الكفاية من كل شيء، وليُعْطَ كلُّ شخص نصيباً معقولاً، يزيد أو ينقص وفق درجته الوظيفية أو قدره، وحين يتزود الرجال على هذا النحو، ليتدخل الشيطان وليهتم كل فرد بما يتسلى به وما يشتهي شخصياً مادام لا يتدخل في شؤون أحد.

هكذا عكف «جرالد» على العمل كي يُدْخل النظامَ على الصناعة الضخمة. لقد توصّل في رحلاته، ومطالعاته أثناءها، إلى أن سر الحياة الأساسي هو الانسجام. لم

يحدد لنفسه بوضوح، قط، ماهية هذا الانسجام. فقد سرّته الكلمة وشعر بأنه قد توصل إلى استنتاجاته بنفسه. فمضى يطبق فلسفته بإدخال النظام على العالم الوطيد إدخالاً قسرياً، مترجماً كلمة الانسجام المبهمة إلى كلمة التنظيم العملية.

ما إن نظر إلى الشركة حتى أدرك ما كان يستطيع عمله. كان عليه أن يصاول (المادة): الأرض والفحم الذي احتوته. كانت تلك هي الفكرة الوحيدة: التصدي للمادة الجامدة في باطن الأرض وإخضاعها إلى إرادته. ومن أجل هذه المصاولة مع المادة يتعين على المرء أن يملك أدوات متكاملة، في نظام متكامل، آليةً تبلغ من الدقة والتوافق في عملها مبلغاً يمثّل عقل الإنسان الفرد ويحقق الغرض، على نحو لا إنساني ولا يقاوم، من خلال تكرار حركة معينة تكراراً لا هوادة فيه. كان مبدأ اللا إنسانية هذا في الآلية التي أراد «جرالد» أن يقيمها، هو الذي ألهمه بما يحاكي الغلوَّ الديني. إذ كان في استطاعته، بوصفه رجلاً، أن يدخل وسيطاً متكاملاً ثابتاً ربانياً بينه وبين المادة التي وجب عليه أن يخضعها. كان هناك ضدان: إرادته والمادة الأرضية المقاومة. وبينهما كان يستطيع أن يقيم تعبير إرادته نفسه، تجسيدَ قوته، آلةً عظيمة متكاملة، جهازاً، نشاطاً من نظام خالص، تكراراً آلياً خالصاً، تكراراً إلى ما لا نهاية*. كان «جرالد» رب الآلة، و(الرب الناشئ من آلة)**. وكانت إرادة الإنسان الكاملة المثمرة هي الربوبية.

لقد أصبح لديه الآن عمل العمر، أن ينشر فوق الأرض نظاماً متكاملاً عظيماً تسري فيه إرادة الإنسان بيسر ورفق دون عائق، دون زمن، بمثابة ربوبية قيد التكوين. كان عليه أن يبدأ بالمناجم. كانت الشروط موجودة: أولاً (المادة) المقاومة، في باطن الأرض، ثم أدوات إخضاعها، أدوات بشرية ومعدنية، وأخيراً إرادته الخالصة، الخاصة به، وعقله هو. ولسوف تقوم الحاجة إلى إجراء تعديلات أعجوبية على ألوف الأدوات، البشرية، الحيوانية، المعدنية، الحركية، الناشطة... تشكيل أعجوبي للألوف من الكيانات الصغيرة في كلٍّ متكامل عظيم. وعندها سيكون ثمة، في هذه الحالة، كمال قد تمّ وإرادة الأسمى قد تحققت تماماً، وإرادة البشر قد استُنّت تماماً. ألم يكن البشر قد

---

* ورد تعبير (إلى ما لا نهاية) باللاتينية . (المترجم) .

** ورد تعبير (الرب الناشئ من آلة) باللاتينية ، وهو إله في إحدى المسرحيات يؤتى به إلى المسرح بواسطة جهاز ميكانيكي ، ويشار به إلى أي حل لمشكلة يتصف بالعنف والاصطناع . (المترجم) .

جرى تمييزهم، على نحو غامض، عن (المادة) الجامدة؟ ألم يكن تاريخ البشرية مجرد تأريخ قهر الواحد للآخر؟

لقد فُوّتت الفرصة على عمال المناجم. فبينما كانوا لا يزالون يكافحون من أجل المساواة الربانية للبشر، كان «جرالد» قد تجاوزهم، وعضد قضيتهم من حيث الجوهر، وعكف بصفته كائناً بشرياً على تحقيق إرادة البشر كلياً. كل ما في الأمر أنه مثّل عمال المناجم بالمعنى الأسمى حين أدرك بأن السبيل الوحيد لتحقيق إرادة الإنسان تماماً هو إقامة الآلة الكاملة غير البشرية. بيد أن تمثيله إياهم كان من حيث الجوهر تحديداً، فقد تخلفوا كثيراً، مكاناً وزماناً، وهم يتنازعون من أجل مساواتهم المادية. لقد سبق أن تحولت الرغبة إلى هذه الرغبة الأعظم، من أجل آلية متكاملة وسيطة بين الإنسان و(المادة)، الرغبة في ترجمة الربوبية إلى آلية محضة.

لقدغشيت تشنجات الموت أوصال النظام القديم كله حال دخول «جرالد» إلى الشركة. كان طيلة حياته يعذبه شيطان مدمِّر، هائج، كان يمسه أحياناً مسّ الجنون. والآن، دخل هذا الطبع إلى الشركة دخول الجرثومة، فحدث طفح كثير شديد، لقد تفحص كل التفاصيل على نحو فظيع لا إنساني، ولم يُبْقِ على أية خصوصية، ولا على أية عاطفة قديمة إلا وقَلَبَها. ثم نظر إلى المديرين والكتبة القدماء الذين وخط رؤوسهم الشّيب، وإلى أولئك المسنّين الواهنين ممن بلغ سن التقاعد، فأقصاهم كما يُنْبَذُ سقط المتاع. كانت الشركة تبدو، كلها، كمستشفى للمستخدمين العجزة. لم يشعر بأي تأنيب عاطفي. فقد دبّر الرواتب التقاعدية اللازمة، وتحرّى عن البدائل الأكفاء، وحين وجد هؤلاء أحلهم محل القدماء.

وكان الأب يقول، على سبيل المثال، بنبرة استغفار واسترحام له:

(عندي رسالة من «لدرنغتون» تثير الشفقة. ألا تعتقد أن المسكين يمكن أن يستمر في العمل فترة قصيرة أخرى. كنت أتصور دائماً أنه يشتغل على نحو جيد جداً).

- (عندي شخص يحل محله يا أبي. صدقني أنه سيكون أسعد حالاً وهو خارج الوظيفة. ألا تعتقد بأن مخصصاته كافية؟).

- (المخصصات ليست هي ما يبغي المسكين. إنه يعاني كثيراً من وطأة عدّه بالغاً سن التقاعد، ويقول إنه لا يزال قادراً على العمل مدة عشرين سنة أخرى).

ـ (ليس هذا النوع من العمل هو ما أريد، إنه لا يفهم).

تأوه الأب ولم يرد أن يعرف المزيد. كان يعتقد بأن المناجم يجب ترميمها إنْ أريد لها الاستمرار في العمل. وعلى أية حال، سيكون الوضع على أسوأ ما يكون للجميع على المدى الطويل إذا ما استوجب غلقها. وهكذا عجز عن الاستجابة لالتماسات مستخدميه القدامى الأمناء، ولم يستطع سوى تكرار عبارة: (يقول «جرالد»).

هكذا ابتعد الوالد عن الأضواء أكثر فأكثر. لقد انكسر إطار الحياة الحقيقية برمته بالنسبة إليه. وكان على صواب بالنسبة إلى نواميسه، وتلك كانت نواميس الدين العظيم. ومع ذلك، بدت هذه وكأن الزمن قد عفا عليها وأن إبطالها لابد منه في الدنيا. كان ذلك عصياً على إدراكه. فاكتفى بالانزواء مع نواميسه إلى غرفة داخلية، إلى الصمت. إن شموع الأيمان الجميلة، التي لم تعد تجدي في تنوير العالم، ستستمر في الاشتعال بلطف وكفاية في دخيلة نفسه وفي هدأة مُعْتَزَله.

اندفع «جرالد» في إصلاح الشركة، مبتدئاً بالمكتب. كان التقتير ضرورياً ليمكن استحداث ما يجب استحداثه من تغييرات واسعة.

سأل: (ما معنى فحم الأرامل هذا؟).

ـ (كنا نخصص دائماً لجميع أرامل الرجال الذين كانوا يعملون في الشركة كميات من الفحم تُجْرى لهم كل ثلاثة أشهر).

ـ (لابد أن يدفعن سعر الكلفة من الآن فصاعداً. ليست الشركة مؤسسة خيرية، كما يظن الجميع على ما يبدو).

هؤلاء الأرامل، أصنام الإنسانية العاطفية، كان يشعر بالكره حين يخطرن بباله. بل كن مثيرات للاشمئزاز تقريباً. لِمَ لم يُقَدِّمْنَ قرابينَ على محرقة جثث بعولهن، مثل (ساتي)* الهند؟ ليدفَعْنَ كلفةَ فحمِهِن، في الأقل.

لقد خفّض الانفاق بألف وسيلة، بوسائل بلغت من الدقة بحيث كادت تفوت ملاحظتها على الرجال. فقد استوجب على عمال المناجم أن يدفعوا أجور نقل فحمهم بالعربات، وكانت أجوراً باهظة هي الأخرى. كما كان عليهم أن يدفعوا أثمان عُدَدِهم،

---

* (ساتي) أو (سوتي): الأرملة الهندوسية التي تحرق نفسها في محرقة زوجها المتوفى علامة على إخلاصها له. (المترجم).

وأجور الشحذ، وصيانة المصابيح، والكثير من الأشياء التافهة التي كانت تجعل قائمة مطلوبات الفرد الواحد ترتفع إلى مبلغ شلن واحد تقريباً في الأسبوع. لم يكن العمال ليدركوا معنى ذلك على وجه التحديد، وإن تألموا بما فيه الكفاية. لكن ذلك وفّر الباونات للشركة أسبوعياً.

أمسك «جرالد» بزمام كل شيء تدريجياً، ثم بدأ بالإصلاح الكبير. فجيء بمهندسين متمرسين في كل قسم. وأقيمت محطة توليد كهربائية جبارة لغرض الإنارة والنقل تحت الأرض وتجهيز القوة. وأُوصلت الكهرباء إلى كل منجم، وجيء بمكائن جديدة من أمريكا، مما لم يكن عمال المناجم قد شاهدوها قط من قبل: (رجال ضخام من حديد) كما كانوا يسمّون مكائن القطع، وكذلك معدات غير عادية. كما تغير نمط اشتغال المناجم كلياً. وسحب زمام السيطرة كلها من أيادي عمال المناجم، وألغي النظام القديم*. وغدا كل شيء يدار بأدق وأضبط الطرائق العلمية، وسيطر رجال متمرسون مثقفون على كل شيء، وتحول عمال المناجم إلى مجرد أدوات آلية. وكان يجب عليهم أن يجدّوا ويكدّوا أكثر بكثير مما كانوا يفعلون من قبل. وغدا العمل فظيعاً، محطماً للقلب جراء آليته.

بيد أنهم خنعوا لكل ذلك. وغابت الفرحة عن حياتهم، وبدأ الأمل يتضاءل كلما ازدادت المكننة. ومع ذلك قبلوا بالظروف الجديدة. بل إنهم استخلصوا المزيد من الرضا منها. لقد كرهوا «جرالد كريتش» أول الأمر، وأقسموا أن يفعلوا شيئاً ما حياله، أن يقتلوه. لكنهم بمرور الوقت قبلوا بكل شيء قبولاً قدرياً نوعاً ما. صار «جرالد» كاهنهم الأعلى، يمثل التديّن الذي كانوا يشعرون به حقاً. ونُسِيَ الأب فعلاً. كان ثمة عالم جديد، نظام جديد، صارم، فظيع، غير إنساني، لكنه مُرْضٍ حتى في تدميريته. لقد رضي الرجال بانتمائهم إلى الآلة العظيمة، الرائعة حتى في أثناء تدميرها إياهم. كانت هي ما يريدون، كانت أسمى ما أنتجه الإنسان، والأعجب، والأكثر تفوقاً على البشر. لقد سَمَوْا بانتمائهم إلى هذا النظام العظيم الذي يفوق البشر، النظام الذي تجاوز الحس والعقل، الشيء الرباني فعلاً. كانت قلوبهم تموت في دخائلهم، لكن نفوسهم كانت

* نظام تشغيل العمال بموجب عقود لتأدية عمل ما (بالقطعة)، بدلاً من الاستخدام الدائم. (المترجم).

راضية، مطمئنة. كان ذلك ما يريدون، وإلا ما استطاع «جرالد» قط أن يفعل ما فعله. لم يكن يتقدّمهم إلا في إعطائهم ما أرادوا. هذا الإسهام في نظام عظيم، كامل، يُخْضِع الحياة إلى مبادئ رياضية بحتة. كان ذلك ضرباً من الحرية، الضرب الذي كانوا ينشدون حقاً. كانت الخطوة العظيمة الأولى في عملية التفكيك، والمرحلة العظيمة الأولى للفوضى، إبدال المبدأ العضوي بالآلي، وتدمير القصد العضوي، الوحدة العضوية، وإخضاع كل وحدة عضوية للقصد الآلي العظيم. لقد كان تفكيكاً عضوياً خالصاً، وتنظيماً آلياً خالصاً. هذه هي الحالة الأولى والأحسن للفوضى.

ارتاح «جرالد». كان يعلم أن عمال المناجم كانوا يقولون إنهم يكرهونه. لكنه كفّ عن كرههم منذ أمد بعيد. وحين كانوا يتقاطرون مساء مروراً به يجرجرون جزمهم الثقيلة بكلال فوق الرصيف وأكتافهم معوجة قليلاً، كانوا لا يأبهون به، ولا يحيّونه مطلقاً، وهم يمرّون على هيئة رتل رمادي غامق من القبول اللاعاطفي. لم يكونوا مهمين في نظره إلا بوصفهم أدواتٍ ولا هو في نظرهم إلا بصفته مادة سيطرة عليا. كان لهم كيانهم، كونهم عمال مناجم، وكان له كيانه كونه مديراً. لقد أعجب بسجاياهم. لكن بوصفهم رجالاً وأشخاصاً. كانوا مجرد وقائع، ظواهر صغيرة، تافهة، مشتتة. ولقد قبل الرجال بذلك، ضمناً، ذلك أن «جرالد» نفسه قد قبل بذلك.

لقد أفلح، فقد حول الصنعة إلى نقاء جديد، فظيع. كان ثمة إنتاج أكبر من الفحم لم يسبق له مثيل، وسار النظام الدقيق الأعجوبي بما يقرب من الكمال. وكانت عنده مجموعة من المهندسين المهرة حقاً في حقلي التعدين والكهرباء ما كانوا يكلفونه كثيراً. فلم يكن الرجل ذو الثقافة العالية ليكلف سوى أكثر بقليل من العامل. أما مديرو الأقسام، الذين كانوا ممتازين جميعاً، فلم يكلفوه أكثر من الأغبياء الحمقى العاملين في عهد أبيه، الذين كانوا مجرد عمال مناجم قبل ترقيتهم. أما رئيس مديري الأقسام، الذي كان يتناول ألفاً ومئتي باون في السنة، فقد وفر للشركة ما لا يقل عن خمسة آلاف. لقد بلغ الجهاز كله من الكمال مبلغاً بحيث لم يعد «جرالد» لازماً، تقريباً.

لقد بلغ درجة من الكمال بحيث إن خوفاً غريباً كان يغشى «جرالد» في بعض الأحيان، ولم يكن يعرف ما يجب عمله. تواصل العمل بضع سنوات وهو في حال أشبه بنشوةٍ من نشاط. وبدا ما كان يفعله سامياً، فكأنه أحد الأرباب. كان قطعة من نشاط طاهر متسام.

لكنه قد نجح الآن ـ نجح أخيراً. إلا أنه حدث في إحدى المرات، أو في اثنتين، في الآونة الأخيرة، وكان وحيداً في الأماسي، لا شيء لديه يفعله، أن نهض واقفاً في ارتقاب على حين غرة، وهو لا يعرف ماهية نفسه هو. فاتجه إلى المرآة ونظر ملياً وطويلاً إلى وجهه، وإلى عينيه، وهو يبحث عن شيء ما. كان خائفاً، خوفاً مجدباً مميتاً، لكنه لم يعرف مِمَّ. نظر إلى وجهه. هوذا، لطيف الشكل متعاف، الوجه ذاته كما كان على الدوام، لكنه وعلى نحو ما، لم يكن حقيقياً. بل كان قناعاً. لم يجرؤ على لمسه خشيةَ أنْ يتبين أنه قناع مركّب حسب. كانت عيناه زرقاوين حادتين كما في السابق، وصارمتين في محجريهما كذلك. ومع هذا لم يكن متأكداً من أنهما ليستا فقاعتين زرقاوين زائغتين قد تنفجران في لحظة وتتركان فناءً واضحاً. كان يستطيع مشاهدة الظلام فيهما، كأنهما مجرد فقاعتين من ظلام. كان يخشى تحطّمه في يوم من الأيام، فيمسي فقاعةً لا معنى لها البتة، تُطبطبُ حول عتمة.

بيد أن إرادته بقيت سليمة، إذ كان يستطيع أن يخرج ويقرأ ويفكر بالأشياء. كان يحب أن يقرأ الكتب المتعلقة بموضوع الإنسان البدائي، وكتباً تتناول علم الإنسان، وكذلك أعمالاً في الفلسفة التأملية. كان عقله نشيطاً جداً، لكنه كان مثل فقاعة طافية في عتمة، قد تنفجر في أية لحظة وتتركه في فوضى التشوّش. إنه لن يموت. كان يعرف ذلك. سيستمر في العيش لكن المعنى سيكون قد تولّى عنه متحطماً، وسيزول سببه الرباني. لقد غدا خائفاً على نحو عقيم، غير مكترث على نحو غريب. لكنه لم يستطع أن يبدي ردَّ فعلٍ حتى حيال الخوف.. كأن مراكز الإحساس لديه كانت آخذة بالجفاف. لقد ظل هادئاً، متحسّباً، متعافياً، متأنياً بكامل الحرية، حتى عند شعوره، في هلع عقيم ضئيل، باهت، لكنْ نهائي، بأن رشاده الصوفي أخذ يتحطم ويتخلخل، في هذه الأزمة.

ولقد كان إجهاداً. كان يعرف أنه لم يكن ثمة توازن. كان يجب عليه أن يتوجه إلى اتجاه ما قريباً كي يستريح. لم يكن سوى «بركن» الذي كان يبعد الخوف عنه إبعاداً قطعياً، ويوفّر عليه كفايته العاجلة في الحياة، وذلك من خلال يُسْرِ التحرك وقابلية التبدل الغريبين اللذين كانا يحتويان جوهر الإيمان، على ما بدا. لكن كان لابد لـ«جرالد» أن ينأى عن «بركن»، نأيه عن قدّاس الكنيسة، رجوعاً إلى عالم العمل

والحياة الخارجي الحقيقي. هوذا الواقع.. لم يتغير شيء والكلمات لم تُجْدِ نفعاً. كان عليه أن يتحسب لعالم العمل والحياة المادية. وغدا الوضع أصعب فأصعب. كان ثمة ضغط جدّ ثقيل يجثم على صدره كأنّ وسطه تحديداً كان فراغاً، وخارجه كان توتراً فظيعاً.

لقد وجد في النساء أفضل مفرج للكرب. وبعد فترة من الغواية مع إحدى النساء المستقتلات، واصل العيش بيسر وسلوان. كان من الصعب جداً أن يُبقي على اهتمامه بالنساء في تلك الفترة. فلم يعد يهتم بهن. لقد كان «بوسوم»* واحدة، لابأس بها على طريقتها الخاصة، ولكنها كانت حالة استثنائية، وحتى هي لم تهم إلا قليلاً جداً. كلا، لم يعد للنساء من فائدة له، بهذا المعنى. لقد شعر أن عقله كان في حاجة إلى تحفيز حاد قبل أن يكون في المستطاع إثارته بدنياً.

* في الطبعة الأصلية لرواية (نساء عاشقات) الصادرة في لندن عام ١٩٢١ ، كان (بوسوم) هو الاسم الذي اختاره «د .هـ . لورنس» للفتاة التي وردت في الفصلين السادس والسابع ثم في الفصل الثامن والعشرين باسم «مينيت» ، لكن «لورنس» عمد إلى تغيير الاسم إلى «مينيت» في الطبعة اللاحقة ، وذلك تجنباً لتشابه اسم «بوسوم» مع كنية امرأة حقيقية في ذلك الحين واتقاء لدعوى بالقذف كانت ستقام عليه بسبب ذلك . الغريب أن «لورنس» يعود إلى استعمال «بوسوم» في هذا الفصل و«بوسوم» و«مينيت» معاً في الفصل الثامن والعشرين! إن التفسير الوحيد لذلك هو أن كلمة «بوسوم» تمثل الصيغة الإنكليزية ، دلالياً ، لكلمة «مينيت» الفرنسية . (المترجم) .



الفصل الثامن عشر

أرنب

كانت «غدرون» تعرف أن ذهابها إلى «شورتلاندز» شيء محرج بالنسبة إليها، وتعرف أن ذلك معناه قبول «جرالد كريتش» حبيباً. ومع أنها كانت مترددة، كارهةً الموقف، فإنها كانت تعرف أنها ستمضي قدماً. لقد غالطت حين تحدثت إلى نفسها، في عذاب، مستذكرة اللطمة والقبلة، قائلة: (ما الأمر، على أية حال؟ ما القبلة؟ بل ما اللطمة؟ إنها لحظة، وانقضت في الحال. في وسعي الذهاب إلى «شورتلاندز» بعض الوقت، حسب، قبل أن أرحل، ولو لمجرد مشاهدة الوضع ثمة). ذلك لأنها كانت تمتلك حب استطلاع مفرطاً لمشاهدة ومعرفة كل شيء.

كانت تريد كذلك أن تعرف كيف كان حال «وينيفرد» فعلاً، فقد شعرت بارتباط مبهم بها بعد أن سمعت الطفلة تنادي من الباخرة ليلاً.

تحدثت «غدرون» إلى الوالد في المكتبة، ثم أرسل هذا مَنْ يستدعي ابنته، فجاءت تصاحبها (المدموازيل)*.

قال الوالد: (يا «ويني»، هذه الآنسة «برانغوين» التي سوف تتكرم بمساعدتك في رسومك وعمل نماذج من حيواناتك).

نظرت الطفلة إلى «غدرون» لحظةً، باهتمام، قبل أن تتقدم وتمدّ يدها، متفاديةً المواجهة. لقد انطوى تحفظ «وينيفرد» الطفولي على فتور** وعدم اكتراث تامّين، تبلّدٍ بالشعور، على نحو غير مسؤول.

قالت الطفلة دون أن ترفع رأسها: (كيف الحال؟).

---

* الآنسة الفرنسية، مربية «وينيفرد». (المترجم).

** ورد تعبير (فتور) بالفرنسية. (المترجم).

فقالت «غدرون»: (وكيف حالك؟).

ثم وقفت «وينيفرد» جانباً، وجرى تعريف «غدرون» بـ(المدموازيل).

قالت (المدموازيل) بنبرة مشرقة: (لديك يوم لطيف للتمشي).

فقالت «غدرون»: (لطيف تماماً).

كانت «وينيفرد» تراقب عن بعد، كما لو كانت مستمتعة، لكنها غير متيقنة تماماً لحد الآن من شخصية هذه القادمة الجديدة. لقد رأت الكثير من الأشخاص الجدد. وما أقل من غدا حقيقياً بالنسبة إليها. أما (المدموازيل)، فلم تكن في الحسبان البتة. ذلك أن الطفلة كانت تتحملها حَسْب، بهدوء ويسر، راضية بسلطتها الطفيفة بشيء من الازدراء، منصاعة بسبب غطرسة اللامبالاة الطفولية.

قال الوالد: (طيب، يا «وينيفرد». ألستِ سعيدة بقدوم الآنسة «برانغوين»؟ إنها تصنع حيوانات وطيوراً من خشب ومن طين خزفي، ويكتب عنها الناس في صحف لندن، رافعين إياها إلى السماء إطراءً).

ابتسمت «وينيفرد» ابتسامة خفيفة وسألت:

- (من أخبرك، يا بابا؟).

- (من أخبرني؟. «هرمايني» أخبرتني و«روبرت بركن»).

التفتت «وينيفرد» إلى «غدرون» وسألتها في تحدٍّ طفيف: (هل تعرفينهما؟).

فقالت «غدرون»: (أجل).

عدّلت «وينيفرد» موقفها قليلاً. لقد كانت مستعدة لقبول «غدرون» بصفة خادمة على نحو ما. أما الآن فقد رأت أن المقصود هو تلاقيهما على أساس الصداقة. وقد سرّها ذلك نوعاً ما. فما أكثر أنصاف المرؤوسين لديها الذين كانت تتحملهم بطيب خاطر تام.

كانت «غدرون» هادئة جداً. كما أنها هي الأخرى لم تكن تأخذ هذه الأشياء مأخذ الجد تماماً. وغالباً ما كانت الفرصة الجديدة بمثابة شيء مسلٍّ، بالنسبة إليها. بيد أن «وينيفرد» كانت طفلة ساخرة متجردة لا تود الارتباط بأحد أبداً. لقد مالت إليها «غدرون» وسُحِرَت بها. وانقضت اللقاءات الأولى بشيء من السماجة المهينة. فلا «وينيفرد» ولا معلمتها كانت على أي قدر من اللطف الاجتماعي.

بيد أنهما سرعان ما أخذتا تلتقيان في عالم من التظاهر. لم تكن «وينيفرد» لتلحظ الناس إلا إذا كانوا مثلها، عابثين، ساخرين قليلاً. ولم تكن لتقبل بأي شيء سوى عالم المرح، أما الجادون في حياتها فكانوا حيواناتها الأليفة. وعلى أولئك كانت تغدق محبتها وزمالتها بما يقرب من المفارقة. أما بالنسبة إلى سائر أبناء البشر، فكانت تخضع لهم بعدم اكتراث، باهت، ملول.

كان لديها كلب (بكينيٌّ)* تحبه، اسمه «لولو».

قالت «غدرون»: (هيا نرسم «لولو» ونرى إن كنا قادرين على ضبط (لولته).. هيا بنا).

فهتفت «وينيفرد»: (يا عزيزي!) واندفعت نحو الكلب الذي كان قابعاً إزاء الموقد، حزيناً حزن المتأملين. ثم قبّلت جبينه الناتئ قائلة:

- (يا حبيبي، هل نرسمك؟ هل سترسم ماما صورتك؟). ثم قهقهت جذلة والتفتت نحو «غدرون» قائلة: (أوه، هيا نرسم!).

باشرتا بإحضار أقلام وورق، واستعدتا.

هتفت «وينيفرد» وهي تحتضن الكلب: (يا أجمل الكل. اربضْ ساكناً فيما ترسم ماما صورتك الجميلة). تطلع الكلب إليها في استسلام محزن بعينيه الواسعتين الجاحظتين، فقبّلته بحرارة، وقالت: (ترى، كيف سيكون رسمي. لابد أنه سيكون فظيعاً).

وفيما كانت تخطط الرسم، كانت تقهقه لنفسها وتهتف أحياناً:

- (آه يا حبيبي.. ما أجملك!). ثم تندفع لتحتضن الكلب، وهي تقهقه ثانية، في حركة تنم عن الندم، كأنها قد مكرت فآذته قليلاً. كان رابضاً طيلة الوقت وقد بدا على وجهه المخملي الغامق اللون استسلامٌ وضجرٌ طويلا العهد جداً. كانت ترسم ببطء، وفي عينيها تركيز خبيث ورأسها مائل إلى جانب، وقد غشيها سكون تام، كأنها مأخوذة بتعويذة سحر ما. وعلى حين غرة، انتهت منه، نظرت إلى الكلب ثم إلى الرسم، ثم صاحت، وهي حزينة حقاً من أجل الكلب، وجذلة بخبث، في الوقت عينه.

---

* نسل من الكلاب ذوي جباه ناتئة وعيون بارزة. (المترجم).

ـ (يا جميلي. لِمَ ذلك؟).

ثم أخذت ورقتها إلى الكلب، وأمسكت بها تحت أنفه فأدار رأسه جانباً كأنه في غمّ وشجن، فلثمت جبينه المخملي الناتئ في نزوة طارئة.

ـ (هذا «لولي»، هذا «لوزي» صغير. انظر إلى صورته، يا حبيبي، انظر إلى صورته التي رسمتها أمه). نظرت إلى ورقتها وقهقهت. وبعد أن قبلت الكلب مرة أخرى، نهضت وأقبلت على «غدرون» على نحو جاد، عارضة ورقتها.

كان تخطيطاً بشعاً مضحكاً لحيوان بشع صغير، جد خبيث، وجد مضحك، بحيث علت وجه «غدرون» بسمةٌ متأنية، دون وعي منها، فقهقهت «وينيفرد» جَذَلاً، وهي بجانبها، قائلة:

ـ (إنه لا يشبهه، أليس كذلك؟ فهو ألطف بكثير من هذا. ما أجمله!.. إم م م، «لولو»، حبيبي الحلو). قالت ذلك ثم مرقت لتحتضن الكلب الصغير الحزين. فنظر إليها بعينين لوّامتين، كئيبتين، مدحوراً في كهولة كينونته النهائية، ثم عادت إلى رسمها مندفعة، وقهقهت راضية.

قالت لـ«غدرون»: (إنه لا يشبهه، أليس كذلك؟).

أجابت «غدرون»: (بلى، إنه شبيهه تماماً).

اعتزّت الطفلة برسمها، وجعلت تحمله حيثما ذهبت وتريه إلى الجميع، في حرج صامت.

قالت وهي تدس الورقة في يد أبيها: (انظر).

فهتف: (عجباً، إنه «لولو»). وتطلع إلى الرسم مندهشاً، وهو يسمع الطفلة التي بجانبه تطلق قهقهة تكاد أن تكون غير بشرية.

كان «جرالد» خارج المنطقة حين قدمت «غدرون» إلى (شورتلاندز) أول مرة. لكنه لبث يترقب قدومها في أول صباح بعد رجوعه. كان الصباح مشمساً منعشاً، فتلبّث في ممرات الحديقة يتطلع إلى الأزهار التي كانت قد ظهرت في غيابه. كان نظيفاً، ومتعافياً، كما هو شأنه على الدوام، حليقاً وشعره الأشقر رفيع القصة، وفي عينيه ذلك الألق الحاني الضحوك، الذي كان شديد الخداع. كان مرتدياً بدلة سوداء وكانت ملابسه تناسب بدنه المتعافي جيداً. ومع هذا، وإذ تلبّث أمام أحواض الورود في إشراقة شمس الصباح، كان ثمة انعزال ما، خوف يلفه، كأن شيئاً ما كان ناقصاً.

أقبلت «غدرون» مسرعة، دون أن يراها أحد. كانت مرتدية ثوباً أزرق وجوربين صوفيين أصفرين، كالصِبْية (ذوي المعاطف الزرق)*. تطلع إليها مندهشاً. كانت جواربها تربكه دائماً، الجوارب ذوات اللون الأصفر الفاتح، وكذلك الأحذية السود، الثقيلة، الثقيلة. أقبلت «وينيفرد» مندفعة صوب «غدرون» بعد أن كانت تلعب في الحديقة مع (المدموازيل) والكلاب. كانت الطفلة ترتدي ثوباً مخططاً بالأسود والأبيض وكان شعرها أقرب إلى القصر، وقد قُصِمَتْ نهاياته كلياً وتهدل على جيدها في استواء.

قالت وقد شبكت يدها بذراع «غدرون»: (سوف نرسم «بسمارك»، أليس كذلك؟).

ـ (أجل، سوف نرسم «بسمارك». هل تريدين ذلك؟).

ـ (نعم، نعم.. أوه.. من المؤكد. كلي رغبة في أن نرسم «بسمارك». ما أروع منظره هذا الصباح، وما أشرسه. إنه بحجم الأسد تقريباً).

قهقهت الطفلة ساخرة من مبالغاتها. (إنه ملك، إنه كذلك فعلاً).

قالت المربية الفرنسية الصغيرة وهي تنحني انحناءة خفيفة، من النوع الوقح الذي كانت «غدرون» تمقته:

ـ (صباح الخير، يا آنسة.. إن «وينيفرد» جد راغبة في رسم صورة «بسمارك»! أوه.. كانت تكرر طيلة الصباح: «سنرسم «بسمارك» في هذا الصباح»، «بسمارك»، «بسمارك»، دائماً «بسمارك». إنه أرنب، أليس كذلك يا آنسة؟)**

ـ (نعم إنه أرنب كبير أبيض وأسود. ألم يسبق لك أن شاهدته؟).

قالت «غدرون» ذلك بفرنسيتها الفصيحة، إنما الثقيلة نوعاً ما.

ـ (كلا يا آنسة. لم تشأ «وينيفرد» أن تريني إياه قط. فكم من مرة سألتها: «ما هو هذا الـ«بسمارك» إذاً، يا «وينيفرد»؟ لكنها لم تشأ أن تخبرني. إن «بسماركها» هذا لغز).

---

* الإشارة في الأغلب إلى الزي الموحد الذي يرتديه طلبة المدارس. (المترجم).

** ورد معظم الكلام على لسان المربية باللغة الفرنسية، كما طعمت «غدرون» و«وينيفرد» حوارهما التالي بالفرنسية والألمانية. (المترجم).

هتفت «وينيفرد»: (أجل إنه لغز.. لغز فعلاً يا آنسة «برانغوين»، هلا قلت إن «بسمارك» هو لغز).

فقالت «غدرون» في ترنيم ساخر:

ـ («بسمارك» هو لغز. «بسمارك» هو لغز. إن هذا الـ«بسمارك» أعجوبة).

كررت «وينيفرد»: (إجل، إنه أعجوبة)، وذلك بجدية غريبة انطوت على قهقهة خبيثة.

فجاء الهزء المشوب بالوقاحة من (المدموازيل): (وهل هو أعجوبة أيضاً؟).

فقالت «وينيفرد» باقتضاب وعدم اكتراث: (بحق!).

ـ (إلا أنه والحق ليس ملكاً. «بسمارك» لم يكن ملكاً، يا «وينيفرد»، كما قلت، كان مجرد.. مجرد مستشار)*

قالت «وينيفرد» بلا مبالاة يشوبها الازدراء: (وما معنى المستشار؟).

فقال «جرالد» وهو يتقدم صوب «غدرون» ويصافحها:

ـ (أظن أن المستشار هو أحد أصناف القضاة) ثم أردف: (عما قريب، ستكونين قد ألّفتِ أغنية عن «بسمارك»).

لبثت (المدموازيل) تنتظر، ثم أدَّت الانحناءة والتحية بوقار.

قال: (إذاً، هم لم يتيحوا لك مشاهدة «بسمارك» يا (مدموازيل)؟.

ـ (كلا، يا سيدي).

ـ (أي نعم، إنه اللؤم بعينه من لدنهم. ما الذي ستفعلينه به يا آنسة «برانغوين»؟ أنا أريده أن يُرسَل إلى المطبخ ليُطْبَخ).

فصاحت «وينيفرد»: (أوه.. لا).

قالت «غدرون»: (سنرسمه).

فقال متعمداً عدم الفهم: (ارسموه، وقطّعوه إلى أربع قطع، وقدّموه طعاماً)**.

صاحت «وينيفرد» صيحة مشددة، وهي تقهقه: (أوه.. لا).

---

* واضح أن الحديث تحول من «بسمارك» الأرنب إلى «بسمارك» المستشار والزعيم السياسي القومي الألماني المعروف (١٨١٥ ـ ١٨٩٨). (المترجم).

** هنا يتلاعب «جرالد» لفظياً بكلمة draw التي تعني: (١) ارسم، و(٢) قطّع. (المترجم).

استشعرت «غدرون» نبرة ساخرة فيه، فتطلعت إلى وجهه مبتسمة. فشعر بأن أعصابه قد تدغدغت. والتفتت عيونهما في تفاهم.

سألها: (كم تحبين (شورتلاندز)؟).

فقالت غير مكترثة: (أوه، كثيراً جداً).

- (يسرني ذلك. هل لاحظت هذه الزهور؟).

قادها في الممر، فتبعته بعزم. وصاحبتهما «وينيفرد» فيما تلكأت المربية في الخلف. ثم توقفوا قبالة بعض أزهار لسان المزمار المعرَّقة.

صاحت «غدرون» وهي تنظر إليها في استغراق: (أليست مدهشة؟). غريب، كيف كان إعجابها المُجلّ بالأزهار، والذي يكاد يثير النشوة، يداعب أعصابه ويدغدغها. انحنت ولمست كؤوس الأزهار بأطراف أناملها الدقيقة جداً والرقيقة الملمس. لقد ملأته رؤيتها راحةً ورخاء. وحين نهضت، تطلعت عيناها المتوقدتان بجمال الأزهار إلى عينيه تطلعاً مباشراً.

سألته: (ما هذه؟).

أجاب: (نوع من «التبونيا» على ما أظن.. في الحقيقة، إني لا أعرفها).

قالت: (إنها غريبة عليّ تماماً).

لبثا واقفين معاً، في إلفة كاذبة وتماس هلع. وكان متيماً بها.

كانت واعيةً بوقوف (المدموازيل) بالقرب منها، كخنفساء فرنسية صغيرة، تلاحظ وتحتسب، فابتعدت بصحبة «وينيفرد» قائلة إنهما ذاهبتان للتفتيش عن «بسمارك».

راقبهما «جرالد» وهما تبتعدان، وكان هو ينظر طيلة الوقت إلى جسم «غدرون» اللدن، الممتلئ، الساكن، المتلفع بالكشمير الحريري. لابد أن يكون جسمها ناعماً، حريرياً، وثراً. لقد خلب عقلَه فرطُ التأمل المتفحص. كانت المشتهاة كلياً، الجميلة كلياً. كان لا يبغي سوى التقرب منها أكثر. وهو لم يكن سوى هذا، هذا الكائن الذي عليه أن يتقرب منها، ويوهَب لها.

وفي الوقت نفسه كان دارياً، بدقة وشدة، بكمال صورة (المدموازيل) الرقيقة، الهشة. كانت مثل خنفساء أنيقة، دقيقة الكاحلين اللذين يعلوان كعبين عاليين. أما رداؤها الأسود اللماع فكان لائقاً حد الكمال، وشعرها مصفوفاً إلى أعلى ومثيراً للإعجاب. ما أكره كمالها وتمامها! لقد مقتها.

بيد أنه أعجب بها فعلاً. فقد كانت عنوان الصواب، ولقد ضايقه، إلى حد ما، مجيء «غدرون» مرتدية قماشاً ذا ألوان صارخة، كالببغاء الأمريكي، بينما كانت العائلة في حداد. كالببغاء كانت! لقد لاحظ الأسلوب المتلكئ الذي كانت ترفع به قدميها من الأرض. أما كاحلاها فكانا بلون أصفر فاتح*، ورداؤها أزرق غامقاً. ومع ذلك، سرّه ذلك.. سرّه كثيراً جداً. لقد أحسّ بالتحدي في ملبسها نفسه.. كانت تتحدى العالم برمته. فتبسم كما لو كان قد سمع نفير أحد الأبواق.

مضت «غدرون» و«وينيفرد» عبر الدار إلى الخلف حيث الاصطبلات والمباني الخارجية. كان المكان كله هامداً مهجوراً. فقد خرج السيد «كريتش» في جولة تدريب. ومضت الفتاتان إلى زريبة الأرنب القائمة في إحدى الزوايا، وألقتا نظرة على الأرنب الضخم ذي اللونين الأسود والأبيض.

ضحكت «وينيفرد» ضحكة عجلى وقالت: (أليس جميلاً؟ أوه أرجوك، انظري إليه وهو يصغي! أليس منظره سخيفاً؟). ثم أردفت:

(أوه، أرجوك، لنرسمه وهو مصغ، أرجوك. هيا بنا نرسمه.. إنه يصغي بكل جوارحه.. أليس كذلك يا حبيبي «بسمارك»؟).

قالت «غدرون»: (أنستطيع إخراجه؟).

نظرت إلى «غدرون»، وقد أمالت رأسها إلى جانب في حركة تنم عن ارتياب غريب متحسّب. ثم قالت: (إنه قوي جداً. إنه في غاية القوة فعلاً).

(لكننا سنحاول، أليس كذلك؟).

- (بلى، إن شئت. لكنه رفّاس فظيع!).

أخذتا المفتاح لفتح قفل الباب، فانطلق الأرنب في اندفاعة همجية يدور في أرجاء الزريبة.

هتفت «وينيفرد» منفعلة: (إنه يخدش أحياناً على نحو فظيع جداً.. أوه. أرجوك أن تنظري إليه.. أليس هو مدهشاً؟). اندفع الأرنب دائراً في أرجاء الزريبة في اهتياج. فصاحت الطفلة بانفعال مذهل: («بسمارك»! ما أفظعك! إنك وحشي). ثم

---

* هكذا ورد النص الإنكليزي . . الكاحلان بلون أصفر فاتح! مع العلم أن الكاتب وصف جوربي «غدرون» قبل بضع صفحات، باللون الأصفر الفاقع، فلعله - والحالة هذه - أراد وصف الكاحلين كما يبدوان تحت الجوربين، أو وصف الجوربين كما يغطيان الكاحلين! (المترجم).

تطلعت «وينيفرد» إلى «غدرون» وانفعالها الشديد يشوبه شيء من الارتياب. ابتسمت «غدرون» بفمها ابتسامة تهكمية. وانطلقت من «وينيفرد» صرخة صادحة، غريبة من انفعال لا يمكن تعليله، ثم هتفت عند رؤيتها الأرنب يستقر في زاوية بعيدة من الزريبة: (لقد سكن الآن!). وهمست بانفعال، وغموض، وهي تتطلع إلى «غدرون»، وتحاذيها، مقتربة كل التقرب: (هل سنأخذه الآن؟). ثم قهقهت لنفسها بخبث قائلة: (هل نمسك به الآن؟).

فتحتا قفل باب الزريبة، ثم مدّت «غدرون» ذراعيها سريعاً وأمسكت بالأرنب، الضخم، القوي حيث كان رابضاً، ساكناً، ممسكة بأذنيه الطويلتين. فانتصب على أرجله الأربع التي تسطحت، وارتدّ راجعاً. وتلت ذلك أصوات جرّ مديدة بينما كان الأرنب يسحب إلى الأمام، وما هي إلا لحظة أخرى حتى غدا معلقاً في الهواء، وهو يتقلب بضراوة، وجسمه ينطلق كنابض شُدّ ثم انطلق، وقد هبّ معلقاً من الأذنين. كانت «غدرون» تمسك بالعاصفة السوداء والبيضاء على مدى ذراع وهي تدير وجهها. لكن الأرنب كان قوياً قوةً سحرية. لقد بذلت كل ما في وسعها لتظل ممسكة به. حتى أنها كادت أن تفقد حضور البديهة.

قالت «وينيفرد» بصوت يشوبه شيء من الخوف: (يا «بسمارك»، يا «بسمارك». إن سلوكك الآن لفظيع.. أوه، أرجوك أن تنزليه أرضاً.. فهو كالوحش).

لبثت «غدرون» واقفة لحظة وهي منذهلة إزاء العاصفة الرعدية التي هبّت في قبضتها. ثم احتقن لونها، مثل سحابة، وقد سادها غضب شديد. فلبثت مهتزة كبيت في عاصفة، مغلوبة على أمرها تماماً. لقد توقف قلبها من غضب عارم بسبب اللاعقلانية والسخافة الوحشية لهذا الصراع، وتأذى رسغاها كثيراً بمخالب الحيوان، وتفجّرت في جوانحها قساوة ثقيلة.

أقبل «جرالد» في أثناء محاولتها السيطرة على الأرنب الهائج تحت ذراعها، ولحظ، في إدراك دقيق، انفعال القساوة المتجهم فيها.

قال، متعجلاً: (ينبغي عليك أن تدعي أحد الرجال يفعل ذلك نيابة عنك).

فصاحت «وينيفرد» كأن بها ما يشبه المسّ: (أوه.. ما أفظعه!).

مد يده القوية العصبية وأخذ الأرنب من «غدرون» ماسكاً الأذنين، فصاحت

بصوت عال كصيحة نورس البحر، بصوت غريب ثأري: (إنه قوي لدرجة مخيفة جداً).

كوّر الأرنب جسمه في الهواء ولبط، موتّراً نفسه كالقوس. لقد بدا شيطانياً حقاً. لاحظت «غدرون» جسم «جرالد» يتصلّب، كما لاحظت عمى حاداً يغشى عينيه.

قال: (أنا أعرف هؤلاء المتسولين منذ زمن بعيد).

رفس الحيوان الطويل الشيطاني ثانية وتمدد في الهواء كأنه كان يطير ويحاكي مظهره شكلَ التنين، ثم عاد فتكوّم متفجراً، شديد البأس بدرجة تفوق التصور. اهتز جسم الرجل، وهو مشدود بسبب الجهد. ثم داهمته نوبة غضب حاد ذي نصل كالجمر. وبسرعة البرق رفع يده الطليقة ثم أنزلها كالصقر، على رقبة الأرنب. في اللحظة نفسها دوت الصرخة المقيتة اللادنيوية لأرنب خائف من الموت. لوى بدنه ليّة جبارة واحدة وانتزع رسغيه ومزق ردنيه في تشنج أخير، ومضت بطنه كلها، في دوامة من المخالب. وأخيراً دوّره «جرالد» في الهواء وحصره تحت ذراعه بقوة، فجثم الحيوان وتهالك. فأشرق وجه «جرالد» بابتسامة.

قال ناظراً إلى «غدرون»: (ما كنت لتظنين أن في الأرنب كل تلك القوة). وألفى عينيها سوداوين سواد الليل، في وجهها الشاحب، فبدت كأنها من غير هذه الأرض. لقد بدا أن صراخ الأرنب، عقب الصولة الضارية، قد مزّق برقع وعيها. نظر إليها، فاشتد الوميض الكهربائي المبيض في وجهه.

صدحت «وينيفرد»: (إنني، في الحقيقة، لا أميل إليه. ولا أهتم به اهتمامي بـ«لوزي». إنه مكروه، في الواقع).

تلوّى وجه «غدرون» بابتسامة وهي تستعيد وعيها. فعرفت أنها قد انكشفت. ثم هتفت بنبرة عالية كصرخة نورس البحر:

- (أليس ضجيجهم من أفظع ما يكون، حين يصرخون؟).

قال: (كريه).

قالت «وينيفرد»، وهي تمد يدها محاولة تلمس الأرنب، وهو متهالك تحت ذراع «جرالد» لا حراك فيه، كالميت: (يتعين عليه ألا يكون بمثل هذه السخافة حين يستوجب إخراجه).

ثم سألت: (إنه ليس ميتاً، أليس كذلك يا «جرالد»؟).

قال: (كلا. كان ينبغي أن يموت).

فصاحت الطفلة وقد غمرتها دفقة من الابتهاج على حين غرة: (نعم، كان يجب ذلك!). ثم أخذت تلمس الأرنب بمزيد من الثقة، وقالت:

- (إن قلبه ينبض بسرعة شديدة. أليس هو مضحكاً؟ إنه كذلك فعلاً).

تساءل «جرالد»: (أين تريدينه؟).

قالت: (في الساحة الصغيرة الخضراء).

نظرت «غدرون» إليه بعينين غريبتين، مغتمتين، أجهدتهما معرفة العالم السفلي، تكادان تتوسلان، كعيني مخلوق واقع تحت رحمته، لكنه المنتصر عليه في النهاية، مع ذلك. لم يعرف ماذا يقول لها، وكان شاعراً بالإدراك الجهنمي المتبادل وأن عليه أن يقول شيئاً ما لتغطية الموقف. كان يمتلك قوة البرق في أعصابه وكانت تبدو كمتلقٍ رقيق لناره السحرية الشنيعة البيضاء. لقد أعوزته الثقة وتملكته نوازع الخوف.

سألها: (هل آذاك؟).

قالت: (كلا).

قال مديراً وجهه بعيداً: (إنه حيوان عديم الإحساس).

جاؤوا إلى الساحة الصغيرة التي كانت مسورة بجدران حمر عتيقة نمت في شقوقها أوراد الحيطان. كان العشب ناعماً ورقيقاً وقديماً: أرضية مستوية تغطي الساحة كالسجاد وكانت السماء زرقاء فوق الرؤوس. رمى «جرالد» الأرنب إلى الأرض فجثم ساكناً لا يبغي التحرك. راقبته «غدرون» بهلع طفيف، ثم هتفت: (لماذا لا يتحرك؟).

قال: (إنه منزو خوفاً).

فتطلعت إليه وشدّت وجهها الأبيض بسمةٌ خفيفة، منحوسة، ثم هتفت: (أليس هو أحمق؟ أليس هو أحمق حد الاشمئزاز؟). لقد جعلت السخرية الثأرية في صوتها عقله يرتج. ثم عادت وكشفت عن الإدراك الساخر، القاسي حد الأبيضاض، وهي تتطلع إليه وتحدق في عينيه. كان ثمة صلة بينهما، كريهة لكليهما. كانا متورطين معاً في أسرار غامضة كريهة.

سألها وهو يريها ساعده القوي، أبيض قوياً مجرّحاً بشروخ حمر: (كم خدشاً عندك؟).

هتفت: (يا للوضاعة الحقة!) واحتقن وجهها بتعبير منحوس، وقالت: (خدوشي لا شيء).

رفعت ذراعها وأرته حزاً عميقاً، أحمر، في عمق اللحم الأبيض، الحريري.

فهتف: (يا للشيطان!). بيد أن الحال كان كما لو قد استعلم عنها من الشرخ الطويل الأحمر في ساعدها، ذلك الحريري والناعم جداً. لم يشأ أن يمسها. كان عليه أن يَمْحِل نفسه على لمسها، بتأن. لقد بدا أن الحزّ الطويل الأحمر السطحي قد شرخ عبر دماغه هو، ممزقاً سطح وعيه النهائي مما سمح بخروج الأثير الأحمر غير الواعي، الأبدي، الذي لا يخطر على بال، أثير العالم الآخر، العالم الآخر الفاحش.

تساءل، موسوساً: (إنه لا يؤذيك كثيراً، أليس كذلك؟).

فهتفت: (كلا، البتة).

وعلى حين غرة، دبت الحياة في الأرنب، الذي كان قابعاً كالزهرة، جدَّ ساكن، وناعم. وأخذ يدور حول الساحة ويدور، كمن أطلقت عليه النار من بندقية، يدور ويدور كشهاب ذي فرو، في حلقة صلدة، متوترة، بدت وكأنها تقيد العقول. وقف الجميع في اندهاش، وهم يبتسمون في بله كأن الأرنب كان يأتمر بتعويذة ما مجهولة. كان يدور ويدور منطلقاً فوق العشب، تحت الجدران العتيقة الحمر وكأنه عاصفة.

ثم استقر في مكانه على نحو مفاجئ تماماً، ثم حجل فوق العشب، وجلس يتدبر، وخطمه يختلج كزغبة في مهب الريح. وبعد بضع دقائق من التفكير، أخذت تلك الكومة الناعمة ذات العينين السوداوين المفتوحتين اللتين ربما كانتا تنظران إليهم، ربما لا، تحجل إلى أمام بهدوء وشرعت تقضم الحشيش بتلك الحركة الخبيثة لأرنب يسرع في الأكل.

قالت «غدرون»: (إنه مجنون.. إنه مجنون بأقصى درجات الجنون).

فضحك وقال: (السؤال هو.. ما هو الجنون؟ لا أظن أنه جنون أرانب).

فسألت: (ألا تعتقد ذلك؟).

- (كلا. ذلك هو من طبيعة الأرنب).

علت وجهه ابتسامة غريبة، خفيفة، ماجنة. نظرت إليه فرأته، وعرفت أنه كان مبتدئاً* مثلما كانت هي مبتدئة. فأحبطها ذلك وعارضها آنياً.

---

* المبتدئ: الشخص الذي أدّى، تواً، طقساً دينياً لغرض الانتماء إلى جماعة ما. (المترجم).

قالت بصوت عال، حاد: (الحمد لله أننا لسنا أرانب).

اتسعت البسمة قليلاً على وجهه.

قال وهو ينظر إليها نظرة ثابتة: (لسنا أرانب؟).

ورويداً رويداً ارتخى وجهها ليستحيل إلى ابتسامة إدراك خليع.

قالت بصورة قوية مديدة، تكاد تكون رجولية: (آه «جرالد». كل هذا وأكثر). ثم تطلعت عيناها إليه بعدم اكتراث فظيع.

عاد فشعر كأنها لطمته على الوجه ـ أو كأنها مزّقت صدره تمزيقاً بطيئاً ومميتاً، فاستدار جانباً.

كانت «وينيفرد» تناشد الأرنب بنعومة وتزحف إلى الأمام لتلمسه، قائلة: (كُلْ، كُلْ، يا حبيبي!).

فحجل الأرنب مبتعداً عنها.

ـ (لتُربِّت أمه إذاً، على فروة الحبيب.. ذلك لأنه غامض جداً...).

الفصل التاسع عشر

الذاهل

سافر «بركن» إلى جنوب فرنسا بعد تمرضه حيث أمضى بعض الوقت. لم يتراسل ولم يسمع عنه أحدٌ أيّ شيء، أما «أرسيولا» التي تُركَتْ وحدها فقد شعرت كما لو أن كل شيء كان آيلاً إلى زوال. فقد تلاشى كل أمل لها في العالم، على ما بدا. كان المرء عبارة عن حجارة صغيرة، تافهة، في حين كان مدُّ اللا شيئية في ارتفاع متزايد، متزايد. كانت هي نفسها حقيقية ـ هي دون غيرها ـ مثل حجارة في مُضطَرَب مياه الفيضان تماماً. أما الباقي فلا شيء كلياً. كانت متصلبة لا تبالي، منعزلة في ذاتها.

لم يبق شيء ما الآن سوى اللا مبالاة المزدرية، المقاومة. كانت كل الدنيا آيلة إلى تفاهة مادية من العدم، فلم يعد لها اتصال أو علاقة ما في أي مكان. لقد مقتت واحتقرت الاستعراض كله. ومن صميم فؤادها، من صميم نفسها، احتقرت ومقتت الناس، الناس البالغين، ولم تحب سوى الأطفال والحيوانات: الأطفال أحبتهم حباً جارفاً، لكنْ بارداً.

كانوا يحملونها على الرغبة في احتضانهم وحمايتهم ومدّهم بأسباب الحياة. بيد أن هذا الحب نفسه، المرتكز على الإشفاق واليأس، لم يكن سوى قيد وألم بالنسبة إليها. أما الحيوانات، فمن بينها جميعاً كانت تغدق حبها الأكبر على تلك التي كانت وحيدة، لا اجتماعية مثلها. أحبّت الجياد والأبقار في الحقول، كان كل منها وحيداً فريداً سحرياً لا ينتمي إلى مبدأ ما اجتماعي كريه، إنه لم يكن قادراً على العاطفية والمأساوية اللتين كانت تمقتهما أشد المقت.

كان في وسعها أن تكون أنيسة جداً ومتملقة، بل تكاد أن تكون خانعة، للأشخاص الذين كانت تلتقيهم. لكن ما من أحد خُدِع. كان كلّ فردٍ يتحسس غريزياً

إزدراءها الساخر بالكائن البشري، بنفسه أو بنفسها. كانت تحقد على البشر حقداً عميقاً، فما كانت تمثله كلمة «بشري» كان موضع احتقارها ونفورها.

كان قلبها، في الغالب، منغلقاً على هذا الضنى الخفي غير الواعي، للسخرية المزدرية. كانت تعتقد أنها كانت تحب، كانت تعتقد بأنها كانت تزخر بالحب. تلك كانت فكرتها عن نفسها. لكن إشراقة حضورها الغريبة، ذلك الإشعاع العجيب لحيوية ذاتية، إنما كانت ألقاً نابعاً من رفض متسامٍ، ولا شيء غير الرفض.

بيد أنها كانت تذعن وترق، في بعض اللحظات، ناشدةً الحب الصافي، الحب الصافي حسب، أما هذه الحالة الأخرى، حالة الرفض الثابت، المقيم، فكانت متعِبة، ومعذِّبة كذلك.. لقد استبد بها شوق فظيع للحب الخالص ثانية.

خرجت ذات مساء وقد خدَّرها هذا العذاب الصميمي المقيم. كان لابد أن يموت الآن مَنْ أزفت ساعة فنائه. لقد بلغت معرفة ذلك مبلغ الختام، مبلغ النهاية فيها، فأطلقها ذلك الختام إطلاقاً. فإذا كان القدر سيزيل، بالموت أو بالسقوط، كل أولئك الذين آن أوان رحيلهم، فما الداعي لضرورة الاهتمام والاغتمام؟ علام المزيد من الرفض؟ لقد تحررت من كل ذلك، وأصبح في إمكانها نشدان ارتباطٍ جديد في مكان ما.

انطلقت «أرسيولا» إلى (نيلي غرين) متجهة صوب الطاحونة، بلغت (ويلي ووتر)، لقد امتلأت هذه ثانيةً، تقريباً، بعد تفريغها، بعد ذلك، استدارت نحو داخل الغابات، كان الليل قد أرخى سدوله والظلام قد حلّ. لكنها نسيت أن تخاف، وهي التي كان لديها الكثير مما يثير خشيتها. كان ثمة ضرب من السكينة الساحرة بين الأشجار، بعيداً عن أية كائنات بشرية. فكلما استطاع المرء أن يجد المزيد من العزلة الخالصة، دون أن تشوبها شائبة من بشر، شعر بالمزيد من الارتياح. وفي الحقيقة، كانت ترتعد وترتعب من خشيتها الناس.

جفلت إذ لاحظت شيئاً ما على يمينها، بين جذوع الشجر، كان يشبه وجوداً ضخماً، يراقبها ويتهرب منها. لقد جفلت بشدة. لم يكن سوى القمر، وقد علا من خلال الأشجار النحيلة. لكنه بدا جد غامض، ببسمته البيضاء الفتّاكة. وماكان في الوسع تجنبه، ليلاً أو نهاراً، ولا مفر من الوجه المنحوس، هذا القمر المنتصر المشرق بابتسامته العالية. فاستأنفت سيرها مسرعة وقد انكمشت إتقاء الكوكب الأبيض. إنها ستكتفي

برؤية البركة قرب الطاحونة ثم تقفل عائدة إلى البيت. ولما لم تشأ اجتياز الساحة بسبب الكلاب، فقد استدارت محاذية سفح التل لتنزل إلى البركة من الأعلى. كان القمر يتعالى فوق الفضاء العاري، المفتوح، فتألمت من انكشافها له. كان ثمة وميض ينبعث من أرانب ليلية عبر الأرض. وكان الليل بمثل صفاء البلور وساكناً جداً. حتى إنها سمعت سعلة ندّت من خروف بعيد.

وهكذا استدارت هابطة إلى الجرف العميق المختفي وراء الشجر الذي يعلو البركة حيث تلوّت جذور أشجار الحور. لقد أسعدها أن تنتقل إلى حيث الظل بعيداً عن القمر. هناك وقفت عند قمة الجرف المنثلم ويدها على جذع شجرة خشن تنظر إلى الماء الذي كان ساكناً سكوناً تاماً وقد طاف القمر فوقه. لكنها كرهته لسبب ما. إذ لم يعطها أي شيء. أنصتت إلى الحفيف الأجش لفتحة التصريف، وتمنّت شيئاً آخر من الليل. أرادت ليلة أخرى، غير هذه القساوة اللامعة بضياء القمر. كان في وسعها أن تحس بروحها تصرخ عالياً في دخيلتها، متأسيةً مستوحشة.

لاح لها شبح يتحرك جنب الماء. قد يكون «بركن». لقد عاد إذاً دون سابق إنذار، فقبلت ذلك دون أن تبدي أية ملاحظة، فلا شيء كان يهمها. جلست بين جذور شجرة الحور غير جلية، مبرقعة، تسمع صوت فتحة التصريف كقطرات من الندى تتقاطر بصوت مسموع في هدأة الليل. كانت الجزر ظلماء نصف ظاهرة. كما كانت نباتات القصب معتمة هي الأخرى.. بعضها فقط كان عليه انعكاس ناري قليل، رقيق. وثبت سمكة سراً فأبانت الضوء في البركة. كانت شعلة الليل البارد هذه، التي كانت تنكسر في الظلمة الخالصة دوماً، تسبب النفور لديها، فتمنت لو ساد الظلام تماماً... تماماً. بلا ضجيج ولا حراك، كان «بركن»، وقد بدا ضئيلاً وأغبش هو الآخر، وشعره مخضب بضوء القمر، يجول عن كثب مقترباً. لقد دنا كثيراً، ومع هذا لم يكن موجوداً بالنسبة إليها، لم يكن يعرف أنها كانت هناك. ماذا لو أنه فعل شيئاً لم يرد أن يشاهده أحد وهو يقوم به ظانّاً أنه في خلوة تامة؟ لكنْ هناك، ماذا كان يهم؟ ماذا كانت تهم الخلوات الصغار؟ ماذا يمكن أن يهم ما يصنع؟ كيف يمكن أن تكون هناك أية أسرار؟ فنحن كلنا الكائنات نفسها، كيف يمكن أن تكون ثمة أية سرية إذا كان كل شيء معروفاً لجميعنا؟

كان يتلمس قشور الثمر أثناء مروره دون وعي منه ويخاطب نفسه دون ربط قائلاً:
ـ (لا يمكنك الرحيل... لا يوجد أي مخرج. إنك ترتد على نفسك، حسب).
قال هذا ورمى بقشر في الماء.
ـ (مجاوبة صوتية... إنهم يكذبون، وأنت تجاوبهم غناءً... لن تكون هناك ضرورة لأية حقيقة، إن لم تكن هناك أي أكاذيب.. وعندها لا حاجة للمرء بأن يؤكد على أي شيء..).
لبث واقفاً بسكون، ينظر إلى الماء، ويلقي فيه بالقشور.
ـ («سيبلي»... عليها اللعنة!... هذه الملعونة «سيرياديا»*! هل يحقد المرء عليها من أجل هذا؟ ثم ماذا بعد ذلك..؟).
شعرت «أرسيولا» برغبة في أن تضحك عالياً وباهتياج، وهي تسمع صوته المنعزل يهتف. كان مدعاة للسخرية الشديدة.
ظل واقفاً يحملق في الماء، ثم انحنى والتقط حجارة ألقى بها في البركة بشدة. كانت «أرسيولا» شاعرة بالقمر المنير إذ يتواثب ويتمايل متشوهاً تماماً في عينيها. لقد بدا وكأنه يقذف بأذرع من نار كالحبّار، كمرجان منير، متعدد الأطراف، ينبض بقوة أمامها.
وكان طيفه يراقب الوضع بضع لحظات من حافة البركة. ثم انحنى وتلمس في الأرض. وتلت ذلك فرقعة صوت أخرى، ثم غمرةُ نور وضاء.. لقد تفجر القمر على الماء، وأخذ يتطاير نثاراً في رقائق من نار بيضاء، خطرة. وبسرعة، مثل طيور بيض، ارتفعت النيران التي كانت قد تكسرت جميعاً عبر البركة، فارّةً في اضطراب صاخب، مصاولةً قطيع الأمواج المعتمة التي كانت تريد الدخول قسراً. وكلما بدت أمواج النور الهاربة تصطخب على الجرف ناشدةً الفرار نحو الأبعد، كانت أمواج الظلام تقبل بزخم ثقيل، وتجري من الأسفل باتجاه الوسط. لكنْ في الوسط، حيث قلبُ الجميع، كان لا يزال قمر أبيض مرتجف وضّاء ذو حيوية لم يُجْهَز عليه كلياً، جسمٌ أبيض من نار يتلوى، ويقاوم، ما انكسر وتناثر بعدُ، لم يُنْتَهَك بعد. كان يبدو كأنه يجمع شتاته في

* «سيبلي» و«سيرياديا» (أي إلاهة سوريا). إلاهتان في الأساطير القديمة، تحميان المدن والشعوب، وتقومان بدور الأم المرضعة للإنسان، (الأم الكبرى)، التي سبقت الإشارة إليها في ملاحظة لنا سابقة. (المترجم)

جهد أعمى، تنتابه نوبات ألم عنيفة، غريبة. لقد أخذ يقوى، لقد أعاد تأكيد ذاته، ذلك القمر غير القابل للانتهاك، وأخذت حُزَم الشعاع تتعجل الولوج، في خيوط رقيقة من الضوء، بغية العودة إلى القمر المستعيد قوته، الذي كان يترقرق على سطح الماء في عودة منتصرة.

لبث «بركن» واقفاً يراقب دون حراك حتى هدأت البركة تماماً تقريباً وسكن القمر سكوناً يقرب من التمام، وبعد أن اطمأنت نفسه إلى هذا الحد، أخذ يفتش عن المزيد من الحجارة، أما هي فقد أحست بعناده غير المنظور. وفي لحظة عادت الأضواء المتكسرة فانتثرت متفجرة على وجهها، فبهرتها، وبعد ذلك مباشرة تقريباً، جاءت القذفة الثانية، فوثب القمرُ، أبيضَ، وتفجر في الجو، وانطلقت نبالٌ من ضوء منير هنا وهناك وساد الظلامُ الوسطَ. لم يكن هناك قمر، بل معركة ظلال وأضواء متكسرة حسب، منطلقة في تراصٍ. ظلال سود، ثقال، كانت تتضارب وتتضارب عبر البقعة التي كان قلب القمر قد تموضع فيها، فمحته كلياً. كانت الكِسَرُ البيضاء اللون تنبض صعوداً وهبوطاً، لا تدري أين تذهب، ملتمعةً، متفرقة على سطح الماء كأوراق زهرة قد طيّرتها الريح نحو الأبعد والأوسع.

بيد أنها عادت تتلمس سبيلها إلى الوسط، ومضاً، وتكتشف الطريق كليلةً، حاسدةً، ثم سكن كل شيء ثانية، بينما كان «بركن» و«أرسيولا» يراقبان. كانت المياه صاخبة عند الساحل، شاهد «بركن» القمر يجمع شتات ذاته بدهاء، وشاهد قلب الزهرة ينحبك بقوة وعشوائية وهو ينادي على الكِسَرِ المتناثرة أنْ عودي، فتعود في نبض العودة وجهدها. فيكسبها القلب.

لم يرض «بركن» بما تمَّ. لابد أن يستمر هو كالمجنون، وهكذا التقط أحجاراً كبيرة وألقى بها الواحدة إثر الأخرى على وسط القمر المتقِّد بلهب أبيض، حتى لم يبق أي شيء سوى اهتزازات صخب أجوف، وبركة قد ماجت، ولا قمر.. لا شيء سوى بضع رقائق متكسرة، متشابكة، ملتمعة، انتشرت في الظلام، دون هدف أو معنى، فوضى معتمة، مثل مِشْكال* بالأسود والأبيض ملقى عشوائياً.. كان الليل الأجوف يتهزز

* المِشْكال : أداة تحتوي عادة على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان . (المترجم) .

ويصطخب، ومن فتحة التصريف كانت تجيء ذبذبات الصوت الحادة، المنتظمة، وهنا وهناك كانت رقائق من الضوء تظهر ملتمة، معذبة بين الظلال، ثانيةً، في أماكن غريبة، بين الأفياء المبتلة لشجرة الصفصاف في الجزيرة. لبث «بركن» واقفاً، وتنصّت، فشعر بالرضا.

داخت «أرسيولا» وطاش صوابها كله. لقد شعرت بأنها قد سقطت على الأرض، وانسكبت، كما ينسكب الماء على التراب. وبدون حراك ظلت خامدة في العتمة. ولو أنها كانت حتى الآن على وعي، دون إبصار بأن في الظلمة ضجة صغيرة لرقائق نور آيبة، رهط يرقص سراً متحلقاً يلتف ويتضام بمثابرة بعضه مع بعض. كانت الرقائق تجمع قلباً مرة أخرى، كانت آتية إلى الوجود ثانية. ورويداً رويداً اتحدت الكِسَر معاً وهي تجيش، وتتهزز وتتراقص وتتراجع كأن الذعر قد حل بها لكنها تشق طريق عودتها ثانية بثبات ومثابرة، متظاهرةً بالفرار إذ تتقدم لكنها تقترب دوماً وهي مرفرفة، تدنو من الهدف قليلاً، قليلاً، والجميع يكبر ويزداد لمعاناً أكثر فأكثر على نحو غامض كلما اصطفت حزمة إثر حزمة من المجموع، حتى بانت فوق المياه ثانية وردةٌ متهرئة، قمرٌ مشوه متهرئ، وهو يترجرج ليعيد تأكيد ذاته، متجدداً، محاولاً الشفاء من تشنجاته، والتغلب على التشوّه والاضطراب، كي يكمل ويهدأ في سلام.

مكث «بركن» قرب الماء مكوثاً غامضاً، كانت أرسيولا» تخشى أن يعود فيضرب القمر بالحجارة فانسلت من مقتعدها ومضت إليه قائلة:

ـ (لن ترميه بالمزيد من الأحجار، أليس كذلك؟).

ـ (منذ متى أنت هناك؟)

ـ (طيلة الوقت. لن ترمي المزيد من الأحجار، أليس كذلك؟).

قال: (أردتُ أن أتبين إن كان في مستطاعي إبعاده عن البركة تماماً).

ـ (نعم، كان ذلك فظيعاً، حقاً. لِمَ يتعين عليك أن تكره القمر؟ فهو لم يصبك بأي أذى، أليس كذلك؟).

قال: (وهل مردّ ذلك الكره؟).

ثم صمتا بضع دقائق.

قالت: (متى رجعتَ؟).

- (اليوم).
- (لِمَ لم تكتب قط؟).
- (لم أستطع أن أجد أي شيء أقوله.).
- (لِمَ لم يكن هناك أي شيء تقوله؟).
- (لا أعلم. لِمَ لا توجد أزهار النرجس الأصفر الآن؟).
- (صحيح).

تكررت فترة الصمت. تطلعت «أرسيولا» إلى القمر، لقد استجمع شتاته وكان يرتجف قليلاً.

سألته: (هل نفعتك وحدتك؟).

- (ربما. لستُ أعلم الكثير. لكنني تغلبت على الكثير. هل فعلتِ أنتِ أي شيء ذا أهمية؟).
- (كلا. ألقيت نظرة على (إنكلترة)، واعتقدت بأنني قد انتهيت منها).

سال متعجباً: (لماذا إنكلتره)؟

- (لا أدري. وردت في خاطري هكذا).

قال: (ليست القضية قضية أوطان، ففرنسا أسوأ بكثير).

- (نعم، أعرف ذلك. لقد شعرت بأنني قد انتهيت منها جميعاً).

ذهبا وجلسا على جذور الأشجار البارزة، في الظل، وفي صمته تذكر جمال عينيها اللتين كانتا في بعض الأحيان تمتلئان بنور، كالربيع، يشيع فيه وعداً مدهشاً. وهكذا قال لها ببطء وصعوبة:

- (ثمّةَ نور ذهبي فيك أتمنى لو وهبتنيه) - قالها وكأنه كان يفكر بهذا بعض الوقت.

جفلت، وبدت كأنها قد وثبت بعيداً عن متناول يده، ومع هذا كانت مسرورة كذلك.

سألته: (أي نوع من النور؟).

لكنه خجل فسكت ولم يزد. وهكذا مرت الفرصة هذه المرة. أما هي فأخذ ينتابها شعور بالأسف رويداً، رويداً.

قالت: (لمْ تستوفِ حياتي غرضها).

أجاب باقتضاب، وهو لا يريد أن يسمع ذلك: (أجل).

قالت: (وأشعر كأن ليس في مستطاع أحد أن يحبني حقاً في يوم من الأيام)، بيد أنه لم يجب، فقالت متمهلة:

ـ (أو تظن أنني لا أصبو إلا إلى الأشياء الجسدية؟ ليس هذا صحيحاً. أريد منك أن ترعى روحي).

ـ (أعلم ذلك. أعرف أنك لا تبغين الأشياء الجسدية لذاتها. لكنني أريد منك أن تهبيني.. أن تهبي روحك لي.. ذلك النور الذهبي الذي هو أنت.. الذي لا تعرفين.. هبيه لي..).

أجابت بعد لحظة صمت:

ـ (لكن، أنّى لي ذلك، فأنت لا تحبني! أنت لا تريد إلا تحقيق أغراضك الخاصة بك، أنت لا تريد أن تخدمني، ومع ذلك تريد مني أن أخدمك، إنه موقف أحادي الجانب جداً!)

كان جهداً كبيراً منه أن يُبقي على هذه المحادثة، وأن يلح على الشيء الذي كان يريده منها، وهو التخلي عن روحها.

قال: (إنه شيء آخر. الفرق بين ضَرْبَيِّ الخدمة كبير جداً. إني أخدمك بطريقة أخرى.. ليس من خلال ذاتك.. بل من موقع آخر. لكنني أريد أن نكون معاً دون الاهتمام بذاتينا.. أن نكون معاً حقاً، لأننا معاً فعلاً، كما لو كان ذلك ظاهرة من الظواهر وليس شيئاً علينا أن نستبقيه بجهودنا نحن).

قالت وهي تفكر ملياً: (كلا. أنت أناني حسب. لم تكن ذا حماسة يوماً ما. أنت لا تطلع عليَّ بأية شرارة أبداً. أنت تريد نفسك، فعلاً، وشؤونك الخاصة، وتريدني أن أكون موجودة حسب، من أجل خدمتك).

لكن هذا لم يؤد إلا إلى فصله عنها.

قال: (أوه، حسن. فالكلمات لا تهم على أية حال، فالأمر موجودٌ بيننا، أو غير موجود).

صاحت: (بل أنك لا تحبني أي حب).

قال غاضباً: (بلى. لكنني أريد...). وهنا تراءى لعقله ثانية نور الربيع الذهبي اللطيف وقد شعّ من خلال عينيها، كأنه قد تخلل نافذة ما عجيبة، فأرادها أن تكون هناك في عالم اللا مبالاة الأبية هذا. لكن ما جدوى إخبارها أنه يريد هذه الرفقة في لا مبالاة أبيّة؟ ماجدوى الكلام، على أية حال؟ لابد أن يحدث ذلك متجاوزاً صوت الكلمات. لقد كانت محاولة كسبها من خلال الإقناع عملاً لا يفضي إلا إلى الهدم، فهذه كانت أحد طيور الجنة ولا يمكن إيقاعه في الشرك أبداً، إذ لابد أن يطير صوب القلب بنفسه.

ـ (أنا لا أعتقد دائماً بأن أحداً سيحبني... ثم يتخلّى عني. أنت تعرف أنك لا تحبني. إذ إنك لا تريد أن تخدمني. ذاتك حَسْبٌ هي مرادك).

سرت رعشة غيظ في عروقه من تكرار عبارة «أنت لا تريد أن تخدمني»، وغابت كل الفردوسيات عن أنظاره.

قال مغتاظاً: (كلا، لا أريد أن أخدمك، فليس ثمة ما يُخْدَم. ما تريدينني أن أخدم هو لا شيء، ليس إلا. حتى أنت ليست المقصودة بل مجرد صفتك الأنثوية. وأنا لا أهتم قيد شعرة بذاتك الأنثوية.. إنها دمية من خرق).

فضحكت باستهزاء: (ها! هذا كل ما تظن فيَّ، أليس كذلك؟.. ثم لديك من الوقاحة ما يجعلك تقول إنك تحبني!).

نهضت غاضبة، لتذهب إلى البيت.

قالت متلفتة إليه وهو لما يزل جالساً في الظل، نصف مرئي: (أنت تريد الفردوسي غافلاً. إني أعرف ما يعني ذلك، شكراً. تريد مني أن أكون شيئاً يخصك، ألا أنتقدك أبداً. وألا أقول أي شيء من أجل نفسي أبداً. تريدني أن أكون مجرد شيء بالنسبة إليك! كلا، شكراً! فإنْ كنت تريد ذلك، فهناك الكثير من النساء المستعدات لمنحك ذلك. هناك الكثير من النساء المستعدات للاضطجاع لكي تمشي فوقهن... امضِ إليهن إذاً، إنْ كان ذلك ما تريد.. امضِ إليهن).

قال وقد انطلق لسانه غاضباً: (كلا. أريد منك أن تتخلي عن إرادتك المؤكَّدة ذاتك، عن إلحاحك الذاتي الخائف، المتوجس شراً، هذا هو ما أريد. أريدك أن تثقي بنفسك على نحو مُضْمَر بحيث تتمكنين من إطلاق نفسك على سجيتها).

فرددت عبارته ساخرة: (أطلق نفسي على سجيتها! أنا أستطيع أن أطلق نفسي على السجية بما يكفي من السهولة. أنت الذي لا تستطيع أن تطلق نفسك على السجية. أنت الذي تتشبث بذاتك كأنها كنزك الأوحد. أنت ـ أنت المعلم في مدرسة الأحد ـ أنت ـ أنت الواعظ).

لقد جعله مقدار الصدق في كلامها هذا مشدوداً، غير مبال بها.

قال: (لا أقصد الانطلاق على طريقة النشوة «الدايونيسية»*. أعرف أنك لتستطيعين أن تفعلي ذلك. لكنني أكره الانتشاء سواءً كان «دايونيسياً» أم غير ذلك. فهو كالدوران في قفص سنجاب**. أريد منك ألا تُعنَي بنفسك.. بل أن تكوني هناك حسب، ولا تعني بنفسك،... ألا تلحي.. كوني سعيدة واثقة، لا مبالية).

فقالت باستهزاء: (من هو الذي يلح؟ من يواصل الإلحاح؟ ليس أنا).

كانت ثمة مرارة مكدودة، هازئة في صوتها. أما هو فقد صمت بعض الوقت.

قال: (أعرف. وإذا ما ألّح أي منا على الآخر في يوم من الأيام فنحن على خطأ تماماً. لكن ها نحن أولاءِ، لا يوافينا الوفاق).

جلسا ساكنين تحت ظل الأشجار عند الجرف. كان الليل الأبيض حولهما، وكانا في الظلام، لا يكادان يعيان.

ورويداً رويداً جاءهما السلام والسكينة. ثم جربت أن تضع يدها في يده، فتشابكت اليدان بلطف، وصمت، وسلام.

قالت: (هل تحبني حقاً؟).

فضحك، وأجاب، في استمتاع:

ـ (أسمّي ذلك صيحة الحرب*** منك).

فهتفت، في استمتاع، واندهاش حقيقي: (لماذا!).

---

* نسبة إلى دايونيس ، إله الخمر عند الإغريق ، والسمة الدايونيسية هي الانصراف إلى اللهو والملذات والعربدة . (المترجم) .

** حيث يسير السنجاب على عجلة دوّارة ، بلا هدف . (المترجم) .

*** صيحة الحث على القتال خلال الحرب .(المترجم) .

ـ (إلحاحك. صيحتك الحربية.. واحد من آلا «برانغوين»، واحد من آل «برانغوين».. صيحة حرب قديمة. صيحتك الحربية هي: «هل تحبني؟ استسلم يا وغد وإلا ستموت»).

قالت متوسلة: (لا. ليس هكذا... ليس هكذا. لكن لابد لي من أن أعرف بأنك تحبني، أليس كذلك؟).

ـ (طيب. اعرفيها. وانتهي منها).

ـ (لكن هل تحبني؟).

ـ (أجل أنا أحبك، وأعرف أن ذلك نهائي.. إنه نهائي. علام إذاً المزيد من التحدث عن ذلك؟).

سكتت بضع لحظات في ابتهاج وارتياح.

ثم قالت، وهي تستكنّ سعيدةً بالقرب منه: (هل أنت متأكد؟).

ـ (كل التأكد.. لننته من الموضوع.. اقبليه وأنهيه).

كانت لصيقة به، مستكنة.

غمغمت في حبور: (مم ننتهي؟).

قال: (من القلق).

تقربت منه والتصقت به. فضمّها إليه بقوة وقبلها برقة ولطف. كان برداً وسلاماً، وحرية سماوية، أن يطويها ويلثمها برقة حسب دون أن تكون لديه أية أفكار ورغائب، أو أية إرادة، بل مجرد المكوث معها ساكناً، ساكناً تماماً برفقتها في سلام ليس هو بالرقاد، بل في نشوة راضية.. أن يكون في نشوة راضية دون أية رغبة أو إلحاح من أية جهة. هي ذي الجنة: أن يكونا معاً في سكون سعيد.

ظلت لصيقة به مدة طويلة، فقبّلها بلطف. قبّل شعرها، وجهها، أذنيها، قبلات رفيقة ورقيقة مثل الندى وهو يتساقط. لكن هذا النفس الدافئ على أذنيها بلبلها ثانية وأشعل النيران المدمرة القديمة. التصقت به، فأحس بدمه يتغير كالزئبق.

قال: (لكننا سنظل ساكنين، أليس كذلك؟).

قالت: في ما يشبه الخنوع: (أجل).

واستمرت لصيقة به. لكن، بعد برهة وجيزة انسحبت ونظرت إليه، قائلة:

- (لابد لي من الذهاب إلى البيت).

أجاب: (هل هذا ضروري؟ إنه أمر محزن حقاً).

مالت إلى الأمام وأدنت فمها كي يلثمه.

غمغمت مبتسمة: (هل أنت حزين حقاً؟).

قال: (نعم. أتمنى لو ظللنا كما كنا، دائماً).

غمغمت، وهو يقبّلها: (صحيح؟ دائماً!). ثم صدحت، من حنجرة ممتلئة: (قبّلني! قبّلني). والتصقت به، فقبلها مرات كثيرة. لكن كانت له فكرته وإرادته، هو الآخر. لم يبغ سوى الوصل الرفيق، لا غير.. لا عاطفة مشبوبة الآن. وهكذا سرعان ما نأت، وارتدت قبعتها ومضت إلى البيت.

بيد أنه لما كان اليوم التالي، شعر بالتياع واشتياق. فظن بأنه قد كان مخطئاً. ربما كان مخطئاً في الذهاب إليها وفي ذهنه فكرة عما كان يريد. هل كانت مجرد فكرة، حقاً، أم كانت تعبيراً لاشتياق عميق؟ فإذا كان الأخير، فكيف يفسر إذاً أنه كان دائمَ التحدث عن تحقيق المراد الحسي؟ ذلك أن الاثنين لا يتطابقان تماماً.

وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه إزاء موقف. كان يمثل هذه البساطة، بساطة قتالة. فمن جهة كان يعرف أنه لا يريد مزيداً من التجربة الحسية.. شيئاً ما أعمق وأغمق مما يمكن للحياة العادية أن تعطي. تذكر التمائم الأفريقية التي كثيراً ما شاهدها عند «هاليداي». ها قد وافته إحداها، تمثال صغير ارتفاعه حوالي قدمين، قوام طويل نحيف أنيق من غرب أفريقيا مصنوع من خشب أسود لماع ولطيف. كان يمثل امرأة صُفِّفَ شعرها عالياً فشابه قبة بطيخية الشكل. تذكرها بجلاء. كانت إحدى صَفيّات روحه. كان بدنها طويلاً، رشيقاً، وكان وجهها قد انسحق فصغر كوجه خنفساء. وكانت في عنقها صفوف من أطواق مدورة، ثقيلة شبيهة بوتد محاط بأطواق الرَمْي*، تذكرها... أناقتها الرقيقة، المدهشة، وجهها المقلص الشبيه بوجه الخنفساء، الجسم الطويل الرشيق المذهل الذي يعلو ساقين قصيرتين قبيحتين وردفين ناتئين وثقيلين إلى درجة غير

* الإشارة هنا إلى اللعبة التي ترمي فيها أطواق أو حلقات لتطوق وتداً مغروساً في الأرض. (المترجم).

متوقعة وهما تحت الحقوين النحيلين المديدين. كانت تعرف مالم يكن هو يعرف. لقد خلفت وراءها آلاف السنين من المعرفة الحسية المحضة، اللا روحية المحضة. لابد أن سلالتها قد ماتت على نحو مبهم منذ آلاف السنين.. أي منذ أن انفصمت العلاقة بين الحواس والعقل ذي البيان، فبقيت التجربة كلها من صنف واحد، حسية على نحو غامض. إن ماهو وشيك الحدوث في ذاته لابد أنه قد حدث قبل ألوف السنين عند أولئك الأفارقة.. الطيبة، القداسة، الرغبة في الخلق والسعادة المنتجة لابد أنها قد مضت وانقضت، تاركة الحافز الوحيد للمعرفة في صف واحد، معرفة متدرجة، غير عقلانية، بواسطة الحواس، معرفة توقفت وانتهت في الحواس، معرفة مبهمة في طور التفكك والانحلال، معرفة كالتي لدى الخنافس، التي تعيش خالصة داخل عالم التفسخ والانحلال البارد.

هذا هو السبب في شَبَهِ وجهها لوجه الخنفساء. هذا هو سبب عبادة المصريين للجُعَل ذي البؤبؤين المتقلبين* .. السبب هو مبدأ المعرفة في خضم الانحلال والتفسخ.

ثمة طريق طويل نستطيع قطعه في رحلة مابعد نقطة الموت الفاصلة:

بعد تلك النقطة حين تنفصم الروح في معاناة شديدة عن ممسكها العضوي، كورقة تسقط، نحن نسقط من آصرة الحياة والأمل، ونهوي من الكينونة الخالصة المتكاملة، من الخلق والحرية، ونسقط في السيرورة الأفريقية الطويلة، الطويلة، عملية الإدراك الحسي المحض، معرفة أسرار الانحلال.

لقد أدرك الآن أن هذه سيرورة طويلة... تستغرق آلاف السنين، عقب موت النفس الخلاقة. أدرك أن ثمة غوامض جسيمة يتعين فَضُّ أختامها، غوامض حسية، رهيبة، غير عقلانية، تتجاوز عقيدة عبادة عضو الذكورة**. إلى أي مدى كان أولئك الأفارقة الغريبون قد تجاوزوا المعرفة الذكرية في ثقافتهم المقلوبة؟ إلى مدى بعيد، بعيد جداً. تذكر «بركن» التمثال الأنثوي ثانية.. الجسم الممدود الطويل، الطويل، الردفين الغريبين، الثقيلين على نحو غير متوقع، الجيد الطويل المقيد، الوجه الدقيق الملامح

---

* الجُعَل : خنفساء سوداء . (المترجم) .

** الإشارة هنا إلى ظاهرة تبجيل أو تقديس أو عبادة عضو الذكورة بصفته رمز الخصب والخلق والعطاء ، التي عرفت في العصور القديمة واستمرت بهذه الدرجة أو تلك حتى إلى عهد متأخر لدى بعض القبائل البدائية . (المترجم) .

الشبيه بوجه الخنفساء. كان هذا ما يفوق أية معرفة ذكرية، كان حقائق حسية غامضة تتجاوز مدى التقصيات الذكرية.

بقيت هذه الوسيلة، هذه السيرورة الأفريقية الشنيعة التي يستوجب إتمامها. وسيكون إنجازها على يد الأجناس البيض، على نحو مختلف، ولسوف تستكنه الأجناس البيض ـ وخلفها القطب الشمالي، وتجريدية الجليد والثلج الشاسعة ـ سرُّ المعرفة ذات التدمير الجليدي، الأفناء ذي التجريد الثلجي، في حين سبق للأفارقة الغربيين، الواقعين تحت سيطرة تجريدية الموت المُحْرِقة في (الصحراء الكبرى)*، أن حققوا الغرض في التدمير الشمسي، والسر التعفّني لأشعة الشمس.

هل إن ذلك، إذاً، كل ما تبقى؟ ألم يبق الآن أي شيء إلا الانفصام عن الكيان السعيد الخلاق؟ هل أزفت الساعة؟ هل انقضى يومنا في العيش الخلاق؟ ألم يبق لنا سوى عقبى المعرفة الغريبة، الفظيعة، في خضم الانحلال، المعرفة الأفريقية، لكن على نحو مختلف فينا، نحن الشقر، ذوي العيون الزرق من أهل الشمال؟

فكر «بركن» في «جرالد». كان أحد هؤلاء الشياطين الغريبين، البيض، العجيبين من أهل الشمال الذين اكتملوا في سر الصقيع المدمر. وهل كتب عليه أن يمضي وينقضي بهذه المعرفة، هذه العملية الواحدة من المعرفة الصقيعية، الموت بالبرد المطلق؟ هل كان رسولاً، نذيراً بالانحلال الكوني والتحول إلى بياض وثلج؟

ارتعب «بركن» وتعب كذلك حين بلغ هذه المرحلة من التأمل. وعلى حين غرة، وهنت يقظته المجهدة، الغريبة، فلم يعد يستطيع التفكير بهذه الخفايا. كان هناك سبيل آخر، سبيل الحرية، كان ثمة التحول الفردوسي إلى كيان مفرد خالص، تأخذ فيه الروح الفردية أسبقية على الحب والرغبة في الاتحاد، أقوى من جميع عذابات العاطفة، حالة محببة من الانفراد الحر الأبي، التي تقبل التزام الصلة الدائمة بالآخرين، وتخضع مع الآخر لنير الحب وطوقه، لكنها لا تتخلى أبداً عن وحدانيتها الفردية الأبية، حتى مع الحب والاستسلام.

كان هناك السبيل الآخر، السبيل المتبقي، وعليه أن يجري ليتعقبه. فكر في

* (الصحراء الكبرى) : منطقة الصحراء الواقعة في الشمال الأفريقي والممتدة من شاطئ المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر ، أو ـ كما يراها البعض ـ إلى نهر النيل . (المترجم) .

«أرسيولا»، ما أشدَّ حساسيتها وما أرقها فعلاً. فجلدها كان في غاية الرقة حتى لكأن طبقة كانت تنقصه. لقد كانت حقاً رقيقة وحساسة إلى درجة فائقة من الروعة. علامَ نسي ذلك أصلاً؟ يجب أن يذهب إليها فوراً. لابد أن يطلب إليها أن تتزوجه. لابد أن يتزوجا على الفور، فيقطعان عهداً ثابتاً، ويدخلان في تواصل ثابت. عليه أن يمضي فوراً ويطلب ذلك، في هذه اللحظة، لا مجال لمضيعة لحظة.

انطلق مسرعاً إلى (بلدوفر) يكاد لا يعي حركته. لم ير البلدة القائمة على منحدر التل ممتدة في غير اتساق، بل ألفاها كأنها مسورة بالشوارع المستقيمة النهائية لمساكن عمال المناجم، مشكِّلةً مربعاً كبيراً، فبدت كمدينة (القدس) في تصوره. كان العالم كله غريباً ومتسامياً.

فتحت «روزالند» الباب له، وجفلت بعض الشيء، كما اعتادت الصبايا أن تفعل، وقالت:

ـ (أوه، سأخبر الوالد).

ثم اختفت تاركة «بركن» في القاعة، يشاهد لوحات مستنسخة من «بيكاسو»، كانت «غدرون» قد جلبتها في الآونة الأخيرة. كان ينظر بإعجاب إلى التصوير الحسي، السحري تقريباً، للأرض، حين ظهر «ويل برانغوين» وهو يفرد ردني قميصه الملفوفين إلى أعلى.

قال «برانغوين»: (حسن، سأجيء بسترة)، ثم غاب هو الآخر لحظة ثم عاد وفتح باب غرفة الاستقبال، قائلاً:

ـ (لابد أن تعذرني فقد كنت أؤدي بعض الأعمال في السقيفة تواً، ادخل، رجاءً)..

دخل «بركن» وقعد. ونظر إلى وجه الرجل المحمرِّ الملتمع، وإلى الجبين الضيق، والعينين البراقتين جداً، وإلى الشفتين، الشهوانيتين نوعاً ما، اللتين انبسطتا واسعتين شاسعتين تحت الشارب الأسود المقصوص. ما أغرب أن يكون هذا كائناً بشرياً! ماذا كانت فكرة «برانغوين» عن نفسه، وكم كانت هذه عديمة المعنى إزاء حقيقته. لم يستطع «بركن» أن يرى سوى مجموعة غريبة، عصيّة على التعليل، تكاد تكون عصية على التنميط، من العواطف الجياشة والرغبات والنواهي والتقاليد والأفكار الآلية، كلها منصبّة دون انصهار، متناثرة في هذا الرجل النحيف الملتمع الوجه ذي الخمسين عاماً

تقريباً، الذي ما حزم أمره الآن، شأنه عندما كان في العشرين، ولا اكتمل خلقةً. كيف يمكن أن يكون هذا والد «أرسيولا» في حين إنه كان نفسه غير مخلوق؟ لم يكن والداً. لقد انتقلت نطفةٌ من اللحم الحي بواسطته، لكن الروح لم تأتِ منه. لم تجيء الروح من أيٍّ من الأسلاف، بل خرجت من المجهول، فالطفل هو طفل السر الغامض، وإلا فهو غير مخلوق.

قال «برانغوين» بعد أن انتظر برهة: (ليس الجو رديئاً مثلما كان).

لم يكن ثمة تواصل بين الرجلين.

قال «بركن» : (كلا. كان القمر بدراً قبل يومين).

ـ (أوه! أنت تعتقد، إذاً، بأن للقمر تأثيراً في الجو؟..).

ـ (كلا، لا أظن أنني أعتقد ذلك، في الحقيقة. إنني لا أعرف ما يكفي حول الموضوع).

ـ (أتعرف ماذا يقولون؟ القمر والجو قد يتغيران معاً، لكن تغير القمر لن يغير الجو).

قال «بركن»: (هل الأمر كذلك؟ ما سمعتُ بذلك من قبل). تلا ذلك صمت. ثم تحدث «بركن» قائلاً: (هل أنا معيقك في شيء؟ في الواقع إنني جئت لأرى «أرسيولا». هل هي في البيت؟).

ـ (لا أظن أنها في البيت. أعتقد أنها ذهبت إلى المكتبة. سأتقصى الأمر فوراً).

كان يمكن لـ «بركن» سماعه وهو يستفسر عنها في غرفة الطعام. قال بعد عودته: (لا. لكنها لن تتأخر. هل أردت التحدث إليها؟).

نظر «بركن» إلى الرجل الآخر بعينين مستطلعتين، هادئتين، صافيتين، وقال:

ـ (في واقع الأمر أردت أن أسألها الزواج مني).

شبّت عينا الرجل الأكبر سناً، البنيتان الذهبيتان وقال: (أوه؟)، وهو ينظر إلى «بركن» ثم يسبل عينيه أمام نظرة الآخر الهادئة المترصدة بثبات.

ـ (هل كانت، إذاً، متوقعةً مجيئك؟).

قال «بركن» : (كلا).

ابتسم «برانغوين» ابتسامة خرقاء، وقال: (لا؟ لم أدر أن شيئاً ما من هذا القبيل حاصل).

عاد «بركن» فتطلع إليه وخاطب نفسه: (تُرى، لم لزوم «الحصول»؟) ثم قال بصوت عال:

- (لا، ربما كان مفاجئاً بعض الشيء)، ثم أضاف وهو يفكر في علاقته بـ «أرسيولا»: (لكنني لا أدري...).

قال «برانغوين»: وقد تحير وانزعج نوعاً ما: (على حين غرة تماماً، أليس كذلك؟ أوه!).

أجاب «بركن»: (من ناحية واحدة.. وليس من ناحية أخرى).

كانت هناك لحظة صمت، قال «برانغوين» بعدها: (حسن، كما تشاء هي...).

قال «بركن» بهدوء: (أي، نعم!).

ارتجف صوت «برانغوين» القوي وهو يجيب: (ولو أنني لا أريد لها أن تكون في عجلة من أمرها أكثر من اللازم، كذلك. فلا يجدي التأسي حين يكون قد فات الأوان).

قال «بركن»: (أوه، لا لزوم لفوات الأوان أبداً، بقدر ما يتعلق الأمر بهذا الشأن).

سأل الأب: (ماذا تقصد؟).

قال «بركن»: (إن كان المرء يندم على الزواج، فعلى الزواج السلام).

- (هل تظن ذلك؟).

- (نعم).

- (أي نعم، حسن، قد تكون هذه طريقتك في النظر إلى الأمر).

فكر «بركن» في نفسه صامتاً: (قد تكون كذلك. أما بشأن طريقتك أنت في النظر إلى الأمر، يا «وليم برانغوين»، فتحتاج إلى شيء من الإيضاح).

قال «برانغوين»: (أحسب أنك تعلم أي صنف من الناس نحن؟ وأي ضرب من التربية تلقّت؟.).

حدّث «بركن» نفسه وهو يتذكر وقائع تأديبه في طفولته: («هي»، إنه أم القط*). ثم قال بصوت عالٍ:

---

* هذه العبارة تستخدم في تربية الأطفال، إذ يحثهم الكبار على تجنب استخدام «الضمير» بدلاً من «اسم الشخص» عند الإشارة إليه، لأن ذلك ينم عن قلة الأدب. (المترجم).

ـ (هل لي أن أعرف ضرب التربية الذي تلقته؟).

لقد بدا كأنه تقصَّد إزعاج «برانغوين».

قال هذا : (حسن، لقد حظِيتْ بكل شيء يصح أن تحظى فتاة به.. قدر الإمكان، قدر ما استطعنا أن نمنحها).

قال «بركن» : (أنا متأكد من ذلك)، مما سبب توقفاً خطراً. فالوالد قد أخذ يغتاظ. كان مجرد حضور «بركن» ينطوي على ما يثيره طبيعياً.

قال بصوت مدوّ: (وأنا لا أريد أن أراها تتراجع عن ذلك كله).

قال «بركن» : (لماذا؟).

تفجرت هذه المفردة الصغيرة في دماغ «برانغوين» كالطلقة.

ـ (لماذا! إنني لا أؤمن بأساليبكم المستحدثة وأفكاركم المستحدثة.. داخلين خارجين كضفدع في حُقِّ الأدوية. إن هذا لن يناسبني قط).

راقبه «بركن» بعينين ثابتتين خاليتين من العاطفة. لقد شرعت خصومتهما الجذرية تصحو.

سأل «بركن»: (ولكن هل أن أساليبي وأفكاري مستحدثة؟).

تدارك «برانغوين» نفسه قائلاً: (أهي كذلك؟ لست أتكلم عنك شخصياً. ما أعنيه هو أن أطفالي قد رُبّوا على التفكير والعمل على وفق الدين الذي نشأت أنا عليه، ولا أريد أن أراهم يبتعدون عن ذلك).

ثم تلا ذلك صمت خطير.

تساءل «بركن» : (وماذا بعد ذلك؟).

تردد الوالد، فقد كان في موقف بغيض.

ـ (إيه؟ ماذا تعني؟ كل ما أريد أن أقول هو أن ابنتي..) ثم تضاءل صوته حتى صمت، وقد قهره عدم الجدوى. كان يعرف أنه قد ضلّ السبيل على نحو ما.

قال «بركن» : (إنني لا أريد، حتماً، أن أؤذي أي شخص أو أؤثر في أي شخص. فـ «أرسيولا» تفعل تماماً ما تشاء وكيف تشاء).

حلّ صمت مطبق بسبب العجز الكلي عن الفهم المتبادل. شعر «بركن» بالضجر. لم يكن أبوها كائناً بشرياً متسق التفكير. كان عبارة عن غرفة مليئة بالأصداء

العتيقة. استقرت عينا الشاب على وجه الكهل. رفع «برانغوين» عينيه فرأى «بركن» ينظر إليه فغشي وجهه غضب أبكم ومهانة، وشعور بالضِّعة من حيث القوة.

قال: (أما المعتقدات، فذلك واحد من الأمور. لكنني أفضل أن أرى بناتي ميتات غداً على أن يكنّ طوع بنان أول رجل يأتي ويصفر لهن).

بان نور غريب، مؤلم، في عيني «بركن»، وقال:

- (في ما يخص هذا الأمر، فلا أعرف سوى أن من الأرجح بكثير أن أكون أنا طوع بنان المرأة، بدلاً من العكس).

ران صمت، ثانية. كان الوالد قد تحير بعض الشيء.

قال: (أعرف.. إنها سوف تفعل ما يسرها، كما كانت تفعل على الدوام. لقد بذلتُ قصارى جهدي من أجلهن، لكن ذلك لا يهم، لديهن أنفسهن ليرضينها، وإذا ماكان الأمر بأيديهن فلن يرضين سوى أنفسهن، لكن على «أرسيولا» حق مراعاة أمها، وكذلك مراعاتي...).

كان «برانغوين» يفكر في خواطره هو.

- (وأقول لك هذا القدر.. إني أفضّل دفنهن بدل رؤيتهن وقد انغمرن في الكثير من هذه المسالك الفاسدة مثلما ترى في كل مكان هذه الأيام. أفضل دفنهن..).

قال «بركن» ببطء، وهو متعب بعض الشيء وقد أضجره ثانية هذا الانعطاف الجديد: (نعم، لكن، كما تلاحظ، لن يتحن سواء لك أو لي فرصة دفنهن. ذلك لأنّهن لن يستحققن الدفن).

نظر «برانغوين» إليه في ومضة مفاجئة من الغضب العقيم.

قال: (والآن يا سيد «بركن» أنا لا أعرف الغرض من مجيئك إلى هنا، ولا أنا عارف ما تبغي.. بيد أن بناتي هن بناتي.. رعايتي لهن من شأني أنا، طالما أتمكن من ذلك).

انعقد حاجبا «بركن» فجأة، وتركزت عيناه في سخرية، لكنه ظل ثابتاً مشدوداً تماماً، وتلا ذلك صمت.

شرع «برانغوين» يقول بعد لأي: (ليس لدي أي مانع من زواجك من «أرسيولا». فلا شأن لي بذلك. سوف تفعل هي ما تشاء، سواء شئتُ أم أبيت).

أشاح «بركن» وجهه وأخذ ينظر إلى خارج النافذة، مطلقاً لوعيه العنان، إذ ما جدوى هذا؟ فالاستمرار فيه أمر ميؤوس منه، خير له أن يلبث قاعداً حتى تجيء «أرسيولا» إلى البيت، فيكلمها، ثم يرحل. لن يتقبل الإزعاج على يدي أبيها. كان كل ذلك لا لزوم له، وما كانت تلزمه إثارته.

جلس الرجلان في صمت مطبق، وكان «بركن» لا يكاد يعي موقعه. لقد قدم ليسألها الزواج منه ـ حسن، فلينتظر وليستمر في الانتظار حتى يسألها. أما ما ستقوله، أن تقبل به أو لا، فلم يفكر في ذلك. لسوف يقول ما جاء ليقوله.. وهذا كان كلّ ما يعرفه. لقد قبل بكل تفاهة أهل هذه الدار بالنسبة إليه. لكنّ كل شيء غدا الآن كالمقدَّر. كان أمامه شيء واحد فقط تمكن رؤيته. أما الباقي فكان هو في حلّ منه كلياً في الوقت الحاضر. فلابد من ترك حل القضايا للقدر والصدفة.

أخيراً.. سمعا صوت البوابة، وشاهداها تقبل مرتقية الدرجات وتحت ذراعيها رزمة كتب، كان وجهها مشرقاً، شارداً، كالمعتاد، بذلك الشرود، بذلك المظهر. مظهر مَنْ كان وجوده هناك غير كامل وحضوره في مواجهة الحقائق والواقع غير تام، وهذا ماكان يكدّر أباها كثيراً. كانت لديها قدرة مذهلة في إضفاء نور خاص بها، يبعد الواقع ويجعلها تبدو في داخله مشرقة كما لو كانت في ضوء الشمس.

سمعاها تذهب إلى غرفة الطعام وتلقي بحملها من الكتب على المائدة.

صاحت «روزالند»: (هل جئتِ لي بمجلة «خاصة للبنات»؟).

ـ (نعم جئت بها. لكنني نسيت أية واحدة كنت تريدين).

صاحت «روزالند» غاضبة: (قد نسيتِ... عجيب غريب!).

ثم سمعاها تقول شيئاً بنبرة أوطأ.

صاحت «أرسيولا»: (أين؟).

وللمرة الثانية كان صوت أختها مكتوماً.

فتح «برانغوين» الباب ونادى بصوته القوي، النحاسي الرنين: (يا «أرسيولا»).

ظهرت بعد لحظة، وقبعتها على رأسها.

هتفت عند رؤيتها «بركن»: (أوه، كيف الحال؟)، وقد انبهرت تماماً كأنها قد فوجئت، فاستغرب منها، وهو الذي كان يعرف بأنها على علم بحضوره.

كانت تمتلك أسلوباً في السلوك غريباً، متألقاً، لاهثاً، كأن العالم الواقعي قد أربكها، العالم غير الحقيقي في نظرها وهي التي تملك دنيا متكاملة مشرقة تخص ذاتها وحدها.

سألت: (هل قطعتُ مجرى الحديث؟).

قال «بركن» : (كلا، بل قطعتِ صمتاً مطبقاً حسب).

فقالت «أرسيولا» بغموض وشرود: (أوه). لم يكن حضورهما بالغ الأهمية بالنسبة إليها، فأمسكت، ولم تستوعبهما. كانت إهانة ماكرة من المؤكد أنها أغاظت أباها.

قال أبوها: (جاء السيد «بركن» ليتحدث إليك وليس إلي).

فهتفت بغموض كأن الأمر لا يعنيها: (أوه، صحيح!)، ثم استفاقت والتفتت إليه، مشرقة بعض الشيء، لكن على نحو سطحي تماماً، قائلة:

ـ (هل كان شيئاً خاصاً؟).

قال ساخراً: (آمل ذلك).

قال والدها: (ليعرض عليك الزواج منه، على وفق كل التفسيرات).

قالت «أرسيولا» : (أوه).

فسخر أبوها مقلداً إياها: (أوه.. أليس لديك شيء آخر تقولينه؟)

جفلت كأن اعتداءً وقع عليها.

سألت «بركن» كأن الأمر مزحة: (هل جئت لتعرض علي الزواج حقاً؟).

قال: (نعم، أحسب أنني قد أحضرت لأعرض عليك الزواج). وبدا كأنه يجاهد، وقد خجل من الكلمة الأخيرة.

فهتفت بإشراقتها الغامضة: (حقاً؟)، كان من الممكن أن يكون قد قال أي شيء آخر، مهما يكن. وبدت مسرورة.

أجاب: (أجل.. أردت أن... أردت أن توافقي على الزواج مني).

نظرت إليه: كانت عيناه تومضان بخليط من الأضواء وهو يريد شيئاً منها ولا يريد. انكمشت قليلاً، كما لو كانت انكشفت لعينيه، وكما لو كان ذلك قد آلمها. اغتمت، وغامت روحها، فأعرضت متنحية. لقد أُقصِيَتْ عن عالمها الخاص المشرق، المنفرد، كانت ترتعب من التماس، إذ كان كذلك ما يناقض طبيعتها، أو يكاد، في تلك الأوقات.

قالت: (أجل) بصوت شكوك، غائب، وعلى نحو غامض.

انكمش قلب «بركن» فوراً، وقد اكتوى بنار مفاجئة من المرارة. كان كل ذلك لا يعنيها في شيء على الإطلاق. لقد وقع في الخطأ ثانية. فقد كانت في عالم خاص بها، عالم راض عن ذاته. أما هو وآماله فكانوا بالنسبة إليها مصادفات عارضة، انتهاكات. وهذا ما دفع بأبيها إلى ذروة الغيظ المجنون. لقد تعين عليه أن يتحمل هذا منها طيلة حياته.

صاح الوالد: (حسن، ماذا تقولين؟).

فجفلت، ثم نظرت إلى أبيها من علٍّ، شبه خائفة، وقالت كما لو كانت تخشى احتمال إلزام نفسها بشيء:

- (لم أقل شيئاً، أليس كذلك؟).

قال أبوها، مغتاظاً: (كلا، لكن لا داعي للظهور بمظهر البَلْهَاء، فلديك عقلك، أليس كذلك؟).

انحسرت في عداوة خرساء، ثم رددت في صوت مستفز، كئيب: (لي عقلي، ماذا يعني ذلك؟).

فصاح أبوها غاضباً: (لقد سمعتِ ما طلب منك، أليس كذلك؟).

- (سمعتُ، حتماً).

فأرعد والدها: (حسن إذاً، ألا تستطيعين الإجابة؟).

- (لِمَ يتعين عليَّ ذلك؟).

عند هذه الإجابة الوقحة، أمسى مشدوداً بيد أنه لم يقل أي شيء. قال «بركن» للمساعدة في إنقاذ الموقف: (كلا، لا حاجة للإجابة فوراً، يمكنك أن تقولي، متى شئتِ).

فومضت عيناها بنور شديد، ثم هتفت: (لم يتعين عليَّ أن أقول أي شيء؟ أن تفعل أنت هذا هو من شأنك، ولا دخل لي فيه، لماذا تريدان، كلاكما، أن تتنمَّرا عليَّ؟).

فصرخ أبوها بغضب مرٍّ، حاقد: (التنمّر عليك! التنمّر عليك! التنمّر عليك! من المؤسف عدم إمكان التنمر عليك حتى ترشدي، وتتعقلي. التنمر عليك! أنت التي ستتكفلين بذلك، أيتها المخلوقة العنود).

لبثت متوقفة في وسط الغرفة، وقد غدا وجهها محتدماً، خطراً، وانتصبت في تحدٍّ راض، فتطلع إليها «بركن»، وقد غدا غاضباً هو الآخر.

قال بصوت خطر جداً ناعم، كذلك: (لكنْ ما من أحد يتنمر عليك).

فهتفت. : (أوه، أجل. يريد كلاكما أن يقسرني على شيء).

قال ساخراً: (هذا وهم منك).

صرخ أبوها: (وهم! حمقاء، عنود. أجل، هي كذلك).

نهض «بركن» قائلاً: (على أية حال سنؤجلها في الوقت الحاضر)...

وخرج من الدار دون أن ينبس بكلمة أخرى.

صاح أبوها وهو في غاية المرارة: (يا حمقاء، يا حمقاء!). غادرت الغرفة وصعدت إلى الطابق الأعلى، وهي تغني لنفسها. بيد أنها كانت ترتعد على نحو فظيع، كمن فرغ تواً من عراك مروع. ومن نافذتها كانت تستطيع رؤية «بركن» يمضي قدماً في الطريق. لقد كان يمضي منساقاً بغضب بهيج لدرجة أن عقلها تحيّر بشأنه، كان سخيفاً، إلا أنها كانت تخشاه. كانت كمن قد نجا من خطر ما.

لبث والدها جالساً في الطابق الأسفل، لا حول له ولا قوة، في مذلة وغم. كان يغدو كمن مسَّته جميع الشياطين عقب كل واحدة من تلك المشاحنات التي لا يمكن تعليلها مع «أرسيولا». لقد كرهها، وكأن كرهها إلى آخر مدى كان الحقيقة الوحيدة بالنسبة إليه. لقد تجمع الجحيم برمته في قلبه. لكنه مضى لينجو بنفسه، كان يعرف أنه لابد من أن ييأس. ويذعن، ويستسلم لليأس فينتهي.

انغلقت أسارير وجه «أرسيولا» وتكاملت ذاتها ضدهم جميعاً. وإذ ارتدّت إلى ذاتها، تصلّبت وتكاملت، كالجوهرة. كانت مشرقة، منيعة، حرة وسعيدة جداً، متحررة تماماً في رباطة جأشها. كان على أبيها أن يتعلم ألاَّ يلاحظ طبيعتها المتغافلة الجذلة، وإلاَّ جُنَّ. لشد ما كانت متألقة إزاء كل الأشياء بما تملك من عدائية مكتملة.

لسوف تستمر هكذا أياماً عدة، في هذه الحالة المشرقة، الصريحة، من العفوية الخالصة ظاهرياً، متغافلة أساساً عن وجود أي شيء غير نفسها، لكنها جدّ متأهبة وبارعة في مصالحها. بيد أن اقتراب رجل منها كان شيئاً مراً، ولقد لعن والدها أبوَّته. لكن كان لابد من أن يتعلم ألاَّ يراها، وألاَّ يعرف.

كانت تثبت كل الثبات في المقاومة حين تكون في هذه الحالة: جد وضاءة، جدّ مشرقة، وجدّ جذابة في معارضتها الخالصة، جد نقية، وإن ارتاب بها الجميع وكرهها الكل. كان صوتها الصافي والمنفر حد العجب هو الذي يفضحها. لم يكن هناك سوى «غدرون» على وفاق معها ولاسيما في تلكم الأحايين. كانت الألفة بين الشقيقتين تكتمل كل الاكتمال، كأن ذكاءهما كان واحداً. كانتا تشعران بارتباط قوي مشرق من التفاهم بينهما، يتجاوز كل شيء آخر. وكان الأب، طيلة تلك الأيام، أيام التجرد الأعمى، المشرق، والإلفة بين ابنتيه، يبدو كالمستنشق هواء الموت، كأنه قد دُمِّرَ في كينونته نفسها. كان سريع الاهتياج حد الجنون، غير مستطيع تذوق طعم الراحة، وبدت ابنتاه وكأنهما تدمرانه. بيد أنه كان عاجزاً غير ذي بيان، إزاءهما. لقد أُرغمَ على تنشق هواء موته نفسه، فلعنهما في سره ولم يبغِ سوى إقصائهما عنه.

لبثتا مشرقتين في تساميهما الأنثوي اليسير، جميلتين للناظر. كانتا تتبادلان الأسرار متآلفتين في البوح إلى أقصى حد، كل تبوح للأخرى كل سر في آخر المطاف. لم تستبقيا أي شيء. وقالتا كل شيء حتى أصبحتا فوق حدود البشر. وسلّحت كل منهما الأخرى بالمعرفة. واستخلصتا أرق النكهات من تفاحة المعرفة. كان غريباً كيف كانت معرفتهما تكاملية، تكمل معرفة الواحدة الأخرى.

كانت «أرسيولا» تنظر إلى رجالها نظرتها إلى الأبناء، وتتأسى لاشتياقهم، وتعجب بشجاعتهم وتتعجب منهم كما تتعجب الوالدة من طفلها، مستمتعة استمتاعاً معيناً بما يستجد منهم. لكنهم كانوا بالنسبة إلى «غدرون» بمثابة المعسكر المعادي. كانت تخشاهم وتحتقرهم وتحترم نشاطاتهم حد الافراط.

قالت بيسر: (طبيعي أن توجد في «بركن» صفة حيوية بارزة تماماً. فثمة نبع للحياة ثري غير اعتيادي فيه، والطريقة التي يستطيع فيها أن يهب نفسه للأشياء مدعاة للدهشة الحقيقية. لكن ما أكثر أمور الحياة التي لا يعرفها، بكل بساطة، فهو إما لا يعي وجودها أبداً أو أنه ينبذها على أنها مجرد أشياء تافهة.. أشياء حيوية بالنسبة إلى الشخص الآخر. فهو على نحو ما يعوزه الذكاء الكافي. إنه مفرط التوتر في بعض الشدائد).

هتفت «أرسيولا»: (أجل، إن فيه مما في الوعاظ أكثر مما ينبغي له. إنه كاهن. في واقع الأمر).

ـ (تماماً. إنه غير قادر على سماع ما يجب على أي شخص أن يقوله.. إنه لا يستطيع الاستماع، بكل بساطة، فصوته عال جداً).

ـ (أجل. إنه يصرخ حتى تلزمي الصمت).

كررت «غدرون»: (يصرخ حتى تلزمي الصمت، وذلك بمجرد قوة العنف. وطبيعي أن هذا أمر ميؤوس منه. فما من أحد يقتنع من خلال العنف، فذلك يجعل التحدث إليه مستحيلاً.. والعيش معه أكثر من مستحيل، على ما أظن).

تساءلت «أرسيولا»: (ألا تعتقدين أن في وسع المرء أن يعيش معه؟).

ـ (أعتقد أن ذلك سيكون متعباً، منهكاً جداً، ولسوف يُخْرَس المرء في كل مرة، ويُدْفَع إلى سبيله على عجل، دون أي خيار، ولسوف يريد السيطرة عليك كلياً ولا يسعه السماح بوجود أي عقل آخر غير عقله هو. ثم إن سماجة عقله الحقيقية تكمن في عجزه عن النقد الذاتي. كلا، أعتقد أن ذلك لن يطاق البتة).

أيدتها «أرسيولا» بغموض قائلة: (نعم) إنها لم توافق «غدرون» غير نصف موافقة. ثم أردفت: (المزعج أن المرء سوف يجد كل الرجال، تقريباً، لا يطاقون. بعد أسبوعين).

فقالت «غدرون»: (إنه لأمر فظيع تماماً. لكن «بركن» .. إنه جازم أكثر من اللازم. فلن يتحمل أن تقولي إن روحكِ تخصكِ أنتِ. إن هذا يصدق عليه تماماً).

قالت «أرسيولا» : (نعم.. عليك أن تمتلكي روحه هو).

ـ (تماماً! وماذا يمكن أن تتصوري ماهو أكثر من ذلك فظاعة مميتة؟).

كان ذلك صحيحاً إلى درجة أن «أرسيولا» شعرت بأنها قد ارتجَّت بكرهٍ قبيح في أعمق أعماق روحها.

لبثت، والارتجاج والاختضاض النشاز في أعماقها، وهي في أجدب فقر من البؤس.

ثم تفجرت فيها سورة انفعال نافر من «غدرون». لقد قضت هذه على الحياة قضاءً مبرماً، حتى إنها جعلت الأشياء جدّ قبيحة، جدّ ختامية. وفي واقع الأمر كانت الأشياء الأخرى صحيحة هي الأخرى، حتى لو خص الأمر «بركن» كما قالت «غدرون». لكن «غدرون» كانت قمينة بأن تضع خطين تحت اسمه وتشطبه شطب الحساب الذي تمت

تسويته. ها هو ذا، مختزلاً، مدفوع الثمن، مسوّى الحساب، ومَنْهِياً. لكن ما أكذب ذلك.. جزمية «غدرون» هذه، قضاؤها على الناس والأشياء بجملة واحدة. كان ذلك كذبة، ما أكذبها. وشرعت «أرسيولا» تنفر من أختها.

ذات يوم، إذ كانتا تتمشيان في الزقاق، شاهدتا أحد طيور الهزار على رأس غصن في إحدى الشجيرات، يصدح عالياً. توقفت الأختان تنظران إليه ومضت بسمة ساخرة على محيا «غدرون».

قالت «غدرون» مبتسمة: (كم يشعر بأهميته!).

هتفت «أرسيولا» وعلى وجهها إمارة ساخرة، صغيرة: (كم يشعر بذلك؟ أليس هو «لويد جورج» الجو، الصغير؟)*.

صاحت «غدرون» مبتهجة: (أليس كذلك؟ «لويد جورج» الجو، الصغير! هذا هو وصفهم، تماماً) ولأيام عدة كانت «أرسيولا» تتمثل الطيور الملحاحة المتطفلة، كسياسيين أشداء قصار يرفعون أصواتهم من المنصة، رجال صغار لابد من أن يُسْمِعوا أصواتهم مهما كان الثمن.

بيد أن سورة النفور تأتت حتى من هذا. فقد مرقت بعض نقارات الخشب** الصفر فجأة من أمامها، فوق الطريق، فبدت في عينيها غريبةً جداً غليظة القلب جداً مثل سهام صفر، متموجة، تمرق مخترقة الهواء في مهمة ما، سحرية حيّة بحيث خاطبت نفسها قائلة: (من الوقاحة، على أية حال، تسميتها بـ «لويدات جورج» صغار. إنها غير معروفة لنا، في الواقع، إنها القوى المجهولة. من الوقاحة النظر إليها كما لو كانت مثل الكائنات البشرية. إنها من عالم آخر. ما أسخف تشبيه غير العاقل بالإنسان؟ إن «غدرون» سليطة، وقحة حقاً، إذ تجعل نفسها معياراً لكل شيء، تفصِّل كل شيء على المقاييس البشرية. إن «روبرت» على صواب تماماً. فإن الكائنات البشرية مبعث ضجر إذ ترسم الكون على صورتها هي. حمداً لله، فإن الكون غير بشري). لقد بدا لها أن تشبيه الطيور بـ «لويدات جورج» صغيرة امتهان وتدمير لكل حياة حقة. كم هي كذبة

---

* ديفيد لويد جورج (١٨٦٣ ـ ١٩٤٥) سياسي بريطاني، ورئيس الوزراء للفترة (١٩١٦ـ ١٩٢٢). قاد بلاده إلى الانتصار في الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

** نوع من الطيور. (المترجم).

بحق طيور الهزار، وكم هي مثلبة. ومع ذلك، لقد فعلتها هي نفسها لكنْ تحت تأثير «غدرون»: وهكذا برأت نفسها.

هكذا انسحبت «أرسيولا» مبتعدة عن «غدرون» وما كانت تمثله وتوجهت ثانية نحو «بركن» روحياً. لم تكن قد رأته منذ الاخفاق التام الذي أحاق بعرضه الزواج. كانت قد رفضت ذلك لأنها لم تكن تريد أن تُفْرَض عليها مسألة قبولها فرضاً. كانت تعرف ما قصده «بركن» حين سألها الزواج منه. كانت تعرف، على نحو غامض، ومن دون أن تعبر عنه بالكلام. كانت تعرف أي نوع من الحب، أي نوع من الاستسلام كان ينشد. وما كانت متأكدة البتة من أن هذا كان نوع الحب الذي كانت نفسها تريد. لم تكن متأكدة البتة من أن هذا التواصل المتبادل ضمن الانفرادية كان هو مبتغاها. كانت تريد إلفة موصولة لا توصف. كانت تريد الاستحواذ عليه كلياً، نهائياً، آه، الاستحواذ عليه كي يكون ملكاً لها في حميمية يعزّ وصفها كثيراً.. تكرعه.. آه.. كجرعة الحياة. لقد اعترفت لنفسها باعترافات هائلة عن رغبتها في تدفئة أخمصي قدميه بين نهديها على غرار قصيدة «ميريدث»* المدوِّخة. لكن بشرط أن يعشقها هو، حبيبها، عشقاً مطلقاً بنكران ذات تام. كانت تدري، بما يكفي من الرهافة، بأنه لن يتخلى عن ذاته لها نهائياً، قطعاً، لم يكن يؤمن بالتخلي النهائي عن الذات. قالها صراحةً. كان ذلك تحدياً منه. وكانت هي مستعدة لمصاولته من أجل ذلك. ذلك أنها كانت تؤمن بالاستسلام المطلق للحب. كانت تؤمن بأن الحب يتجاوز الفرد تجاوزاً كبيراً، أما هو فكان يقول بأن الفرد أكبر من الحب، أو من أية علاقة. فبالنسبة إليه، كانت الروح المنفردة، الذكية، تقبل بالحب كأحد شروطها، كشرطٍ لتوازنها هي. وكانت تعتقد بأن الحب هو كل شيء. وعلى الرجل أن يستسلم لها. يجب أن يعب على يدها حتى الثمالة. ليكن هو رجلها كلياً، تكن هي، بالمقابل، أَمَتَهُ المطيعة ـ سواءً شاءت أم أبت.

---

* جورج ميريدث (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩) شاعر وروائي إنكليزي. والإشارة هنا إلى سطر في قصيدته الطويلة (الحب العصري): «كانت قدماي تنعمان برعاية نهديها طوال الليل». (المترجم).

الفصل العشرون

مصارعة

عقب فشل الخطبة، تعجل «بركن» في الابتعاد عن (بلدوفر) على غير هدى، في سورة من غضب. فقد شعر أنه كان أحمقَ كامل الحماقة وأن المشهد كله كان مسخرة من الطراز الأول. بيد أن ذلك لم يزعجه قط. فقد كان يشعر بسخط شديد ساخر بسبب إصرار «أرسيولا» الدائم على إطلاق هذه الصيحة البالية: (علام تريد التنمّر عليّ؟) وبنبرتها الشاردة المشرقة الوقحة.

انطلق إلى (شورتلاندز) رأساً. وهناك وجد «جرالد» مولياً ظهره إلى نار المصطلى في المكتبة ساكناً كرجل ضجر تماماً على خواء، خاو كلياً. لقد أنجز كل الأعمال التي أراد إنجازها ولم يعد ثمة أي شيء. كان يستطيع أن يخرج بالسيارة، كان يستطيع أن يمضي إلى المدينة، لكنه لم يشأ أن يخرج بالسيارة، ولم يشأ أن يمضي إلى المدينة كما لم يشأ أن يزور آل «ثرلبيز». كان معلقاً لا حراك به في عذاب الخمود مثل آلة تعوزها القوة المحركة.

كان ذلك علقماً شديد المرارة بالنسبة إلى «جرالد» الذي لم يكن قد عرف معنى الملل قط، والذي كان يتنقل من نشاط إلى نشاط دون أن يحتار أبداً. والآن كان يبدو أن كل شيء آخذ في التوقف في داخله رويداً رويداً. لم يعد يريد أن يفعل الأشياء الماثلة أمامه. ثمة شيء ما ميت في داخله كان يرفض بكل بساطة أن يستجيب لأي مقترح. فقلّب في عقله ماكان يمكن أن يفعله لينقذ نفسه من شقاء اللاشيئية هذا، ويخفف من عبء الخواء هذا. ولم يكن هنا غير ثلاثة أشياء باقية قد توقظه وتحمله على الحياة. أحد تلك الأشياء كان الشرب أو تدخين الحشيش والآخر التماس التهدئة على يد «بركن» والثالث النساء. ولم يكن ثمة أحد يشاركه الشرب في ذلك الوقت.

كما لم تكن هناك امرأة. كما كان يعلم بأن «بركن» غائب. وهكذا لم يبق أي شيء يفعله سوى تحمل عبء فراغه.

حين شاهد «بركن» أشرق وجهه بابتسامة مفاجئة مدهشة.

قال: (والله يا «روبرت» قد توصلت تواً إلى الاستنتاج بأن مامن شيء يهم في العالم سوى وجود شخص يزيل كرب الوحدة.. الشخص المناسب).

كانت البسمة التي في عينيه، وهو ينظر إلى الرجل الآخر، تثير العجب كثيراً. كانت تعبر عن ألق الارتياح الخالص. أما وجهه فكان شاحباً بل منهكاً.

قال «بركن» متخابثاً: (المرأة المناسبة، كما أحسب أنك تعني).

- (نعم، اختياراً، وإلاَّ فرجلٌ مؤنس). قالها وضحك، أما «بركن» فجلس قرب نار المصطلى. ثم سأل:

- (ماذا كنت تفعل؟).

- (أنا؟ لا شيء. أنا في وضع سيئ حالياً. فكل شيء مثير للأعصاب، فلا أنا مستطيع العمل ولا اللعب. لا أدري على وجه التأكيد ما إن كانت هذه إحدى علامات الشيخوخة).

- (تقصد أن الملل قد انتابك؟).

- (الملل، لا أدري، ليس في مستطاعي تكييف نفسي. وأشعر بأن الشيطان إما حاضر كل الحضور في دخيلتي، أو ميت).

تطلع «بركن» في عيني الآخر، وقال:

- (عليك أن تجرب ضرب شيء ما).

ابتسم «جرالد» وقال: (ربما، شريطة أن يكون شيئاً يستحق الضرب).

- (تماماً!) قالها «بركن» بصوته الناعم. وتلا ذلك صمت طويل كان كل منهما يستطيع أن يتحسس خلاله حضور الآخر.

قال «بركن» : (على المرء أن ينتظر).

- (آه، يا إلهي! الانتظار!.. ماذا ننتظر؟).

قال «بركن»: (يقول أحد القدماء إن هناك ثلاثة علاجات للملل*: النوم، والشرب، والسفر).

---

* وردت كلمة «الملل» بالفرنسية. (المترجم).

قال «جرالد»: (كلها بيض بارد*. في النوم أنت تحلم، وفي الشرب تلعن، وفي السفر تصرخ في وجه الحمّال. كلا، العمل والحب هما الحلان. فحين لا تعمل، عليك بالحب).

قال «بركن» : (فليكن إذاً).

قال «جرالد»: (اذكر لي أنت المقصود، إن إمكانات الحب تستنفد أغراضها).

ـ (صحيح؟ ثم ماذا؟).

فقال «جرالد»: (ثم تموت).

قال «بركن» : (وهل ما يتعيّن عليك).

أجاب «جرالد»: (لا أرى ذلك)، ثم أخرج يديه من جيبي سرواله وتناول سيكارة. كان متوتراً وعصبياً. أشعل السيكارة من مصباح وقد تطاول إلى أمام، ثم طفق يدخن على نحو مثابر. كان مرتدياً بدلة العشاء، كالمعتاد في الأماسي، على الرغم من كونه وحيداً.

قال «بركن» : (هناك ثالث حتى لخياريك، العمل، الحب، والقتال، لقد نسيت القتال).

قال «جرالد»: (أظن ذلك. هل مارست الملاكمة مرة...؟).

قال «بركن» : (كلا، لا أعتقد أنني فعلت ذلك).

فهتف «جرالد» قائلاً: (حقاً..).ورفع رأسه ونفخ الدخان ببطء في الهواء.

قال «بركن» : (لماذا؟).

ـ (لا شيء. ظننت بأننا قد نتلاكم في جولة. ربما كانت صحيحة رغبتي في أن أضرب شيئاً ما. إنه اقتراح).

قال «بركن»: (أنت تعتقد، إذاً، أن من الجائز أن تضربني أنا؟).

ـ (أنت؟ حسن.. ربما!.. ودياً حتماً).

قال «بركن» بلهجة نابتة: (تماماً!).

لبث «جرالد» واقفاً مسنداً ظهره إلى رف المصطلى. تطلع إلى «بركن». ومضت

---

* تعبير في الثقافة الإنكليزية الدارجة يعني : كلها حلول غير ناجعة . (المترجم) .

عيناه بشيء من الرعب، مثل عيني جواد محتقنتين بالدم ومنهوكتين من تعب، وقد ألقتا نظرة إلى الوراء في ارتياع جامد.

قال: (أشعر بأنني إذا لم أسيطر على نفسي فسأجدني مرتكباً حماقة ما).

قال «بركن» ببرود: (لم لا تفعلها؟).

أصغى «جرالد» وقد نفد صبره سريعاً، واستمر يتطلع إلى «بركن»، كما لو كان يتوقع شيئاً ما من الرجل الآخر.

قال «بركن»: (اعتدتُ مزاولة القليل من المصارعة اليابانية، فقد كان أحد اليابانيين يسكن معي في الدار نفسها، في (هايدلبرغ)، فعلّمني قليلاً. لكنني لم أتقنها، قط).

فهتف «جرالد»: (صحيح! هذا أحد الأشياء التي لم أشاهد مزاولتها أبداً. أحسب أنك تعني «جيو ـ جتسو»؟).

ـ (أجل، لكنني لست مجيداً في هذه الأشياء... إنها لا تثير اهتمامي).

ـ (صحيح؟ إنها تثير اهتمامي أنا. ماهي البداية؟).

قال «بركن»: (سأريك ما أتمكن منها، إن شئت).

ـ (حقاً؟). شدّت نظرة غريبة، باسمة، وجه «جرالد» لحظة، حين قال: (حسن. أود ذلك كثيراً).

ـ (فلنجرب الـ «جيو جتسو». لكنك لا تستطيع أن تفعل الكثير بقميص مُنَشّى).

ـ (فلنخلع ملابسنا، إذاً، ولنؤدها على الوجه السليم. انتظر لحظة..). دق الجرس وانتظر الساقي. ثم قال للرجل:

ـ (هات شطيرتين و(سيفونا)*. وبعدها لا تزعجني الليلة ـ ولا تدع أحداً غيرك).

ذهب الرجل. والتفت «جرالد» إلى «بركن» وعيناه تلتمعان، وقال:

ـ (وأنت اعتدت أن تتصارع مع ياباني؟ هل كنت تخلع ملابسك؟).

ـ (أحياناً).

ـ (صحيح؟ كيف كان هو مصارعاً؟).

---

* السيفون: هنا يعني القارورة التي تحتوي على ماء الصودا الذي يسحب منها بوساطة ضغط الغاز. (المترجم).

ـ (جيـد، على مـا أعـتـقـد، لستُ حَكَمـاً. كـان سـريعـاً جداً، مـراوغـاً، وزاخـراً بنار كهربائيـة. إنه لمما يلفت النظر ذلك الضرب العـجيب من القوة السيـالة التي يبدو أنهم يملكونها، أولئك الناس.. ليست كالسمكة البشرية... بل مثل حيوان متعدد الأرجل).

أومأ «جرالد» برأسه وقال: (أستطيع أن أتصور ذلك، من مجرد النظر إليهم. إني أنفر منهم، إلى حد ما).

ـ (تنافرٌ وتجاذب.. كلاهما، هم منفرون جداً حين يكونون باردين، ومظهرهم يمسي كئيباً، لكن حين تدب فيهم الحرارة ويتحمسون، فإن فيهم جاذبية أكيدة... نوعاً غريباً من السيولة الكهربائية التامة.. مثل ثعابين الماء).

ـ (طيب... أجل.. ربما).

جلب الرجل الصينية ووضعها.

قال «جرالد»: (كُفَّ عن المجيء).

انغلقت الباب.

قال «جرالد»: (طيب. هلمّ نخلع ملابسنا ونبتدئ. ألا نتناول شراباً أولاً؟).

ـ (كلا، لا أريد).

ـ (ولا أنا).

أوصد «جرالد» الباب ونحّى الأثاث جانباً. كانت الغرفة واسعة، وكان ثمة مجال كبير، وقد فرشت الأرض بسجاد سميك. ثم سرعان ما نضا عنه ثيابه ورماها، منتظراً «بركن». أقبل هذا عليه، أبيض، مخيفاً، كان «بركن» حضوراً أكثر منه شيئاً منظوراً. وكان «جرالد» شاعراً به تماماً لكن ليس من خلال الرؤية في واقع الأمر. في حين كان «جرالد» نفسه ملحوظاً ملموساً، قطعة من مادة خالصة نهائية.

قـال «بركن»: (الآن، سـأريك مـا تعلمتُ، ومـا أتذكـر، اسـمح لي أن آتيك هكذا..). قالها وطوقت يداه جسم الرجل الآخر العاري. وفي لحظة أخرى كان قد قلب «جرالد» بحركة خفيفة، ووازنه على ركبتيه، جاعلاً رأسه إلى الأسفل. وإذ تحرر «جرالد» من المسكة، وثب على قدميه وعيناه تلتمعان، قائلاً:

ـ (هذه شطارة.. الآن حاول مرة ثانية).

وهكذا شرع الرجلان يصطرعان. كانا على اختلاف كبير، كان «بركن» طويلاً

ورفيعاً، وكانت عظامه رقيقة دقيقة جداً. أما «جرالد» فكان أثقل وأكثر لدانة: كانت عظامه قوية، ممتلئة، وأطرافه مكورة، وجميع خطوطه المحيطية مصبوبة صباً جميلاً وممتلئاً، كان يبدو كأنه واقف على وجه الأرض بثقل ثَرّ، سليم، في حين بدا «بركن» وكأن الجاذبية مستقرة في وسطه. كما كان لـ «جرالد» نوع من القوة الثرة، الاحتكاكية، أقرب إلى الآلية، لكنها مفاجئة، منيعة، في حين كان «بركن» تجريدياً حتى لكأنه لا يكاد يدرك بالحواس. كان يهجم على الرجل الآخر على نحو غير مرئي، لا يكاد يبدو أنه كان يمسه، كرداء، ثم ينفذ فجأة في مسكة دقيقة، شديدة، تبدو وكأنها تتوغل في صميم كيان «جرالد» ذاته.

كانا يتوقفان، ويتباحثان حول الأساليب، ويتمرنان على «المسكات» و«الرميات» فاعتاد كل منهما الآخر إيقاعه وتوصلا إلى تفاهم بدني متبادل. ثم يعودان إلى جولة أخرى من التلاحم الفعلي. كانا يبدوان وكأنهما يتدافعان بلحمهما الأبيض في التحام أعمق فأعمق، كأنهما آيلان إلى توحد. كان لـ «بركن» طاقة مراوغة جبارة في وسعها أن تضغط على الرجل الآخر بقوة خارقة غريبة، وتثقل عليه مثل نوبة سحرية جاءته من عل. ثم تمضي وتنتضي، فيحرر «جرالد» نفسه في حركات بيض، لاهثة، مدوِّخة.

هكذا كان الرجلان يلتفان ويتصارعان معاً، ويتقاربان أكثر فأكثر. كان كلاهما أبيض وصافياً. بيد أن «جرالد» كان يحتقن بحمرة لاذعة حيث يُلْمَس في حين يظل «بركن» أبيض، متوتراً. كان يبدو كأنه يتغلغل في جسد «جرالد» الأصلب والأكبر، فيندمج بدنه ببدن الآخر كما لو كان يقصد إخضاعه بدهاء، ممسكاً دائماً بكل حركة من حركات اللحم الآخر بسابق معرفة سريعة، بسرعة مستحضري الأرواح، متنقلاً، راداً، صاداً، متلاعباً بأطراف «جرالد» وجذعه تلاعب الريح الصرصر، كأن براعة «بركن» البدنية كلها قد تغلغلت في جسم «جرالد»، كأن طاقته الرقيقة المتعالية قد ولجت في لحم الرجل الأكثر اكتنازاً، مثل قوة تلقي بشبكة دقيقة، أو مثل سجن، من عضل، في أعمق أعماق كيان «جرالد» البدني.

وهكذا كانا يتصارعان في رشاقة وانتشاء ومثابرة ولا عقلانية في آخر الأمر، قامتان بيضاوان، جوهريتان، تعملان في سبيل وحدة اصطراع أوثق وأكثر تلاحماً، في

انعقاد غريب، أخطبوطي، وتلامع للأطراف في ضوء الغرفة الخافت.. عقدة متوترة بيضاء من اللحم وقد مُسِكَتْ في صمت بين جدران من الكتب العتيقة، البنية اللون. وبين آن وآخر كانت تندّ لهثة نَفَسٍ حادة، أو صوت كالآهة، ثم الصوت المكتوم السريع لحركة على الأرضية المفروشة بوثير السجاد، ثم الصوت الغريب الصادر عن لحم يتملص من تحت لحم. ولطالما اختفى الرأس في مشتبك العقدة البيضاء للكائن الحي الضاري الذي كان يتطاوح في صمت، ولم يكن ثمة سوى الأطراف السريعة، المشدودة، والظهرين الأبيضين، الصلدين، والتقاطع البدني لجسمين مشتبكين في توحد. بعد ذلك يظهر رأس «جرالد» اللماع، المنفوش، عند تحول الصراع، ثم يرتفع رأس الرجل الآخر الداكن اللون، الشبيه بالظل، لحظةً، من خضم المعترك وقد اتسعت عيناه وارتعبتا وفقدتا البصر.

وأخيراً.. اضطجع «جرالد» هامداً على السجادة، وصدره يعلو في لهاث مديد بطيء، في حين كان «بركن» يجثو فوقه وهو فاقد الوعي تقريباً. كان «بركن» أشد تعباً بكثير، كان يلتقط أنفاساً قصيرة ضئيلة، وكاد أن يعجز عن التنفس. وبدت الأرض تتأرجح وتتمايل، وأخذت عتمة حالكة تغشى عقله. لم يكن يعرف ما حدث. فانزلق إلى الأمام فوق «جرالد» وهو فاقد الوعي تماماً. فلم يلحظه «جرالد». ثم عاد إلى ما يشبه الوعي، ولم يشعر بغير التأرجح والتمايل الغريبين للعالم. كانت الدنيا تنزلق.. كل شيء في انزلاق نحو الظلام. وهو نفسه كان ينزلق بعيداً، بعيداً إلى ما لا نهاية.

استعاد وعيه ثانية، سامعاً دقاً شديداً من الخارج، ماذا كان يمكن أن يجري، ماكان دقّ المطرقة الشديد ذاك وهو يدوي في أرجاء الدار؟ لم يدر. ثم خطر له بأن قلبه هو كان النابض. لكن ذلك بدا محالاً، لأن الجلبة كانت من الخارج. كلا، إنها في داخل ذاته، إنها من قلبه هو نفسه. كان النبض أليماً، بالغ الاجهاد والثقل. ترى هل كان «جرالد» يسمعه؟ لم يدر ما إن كان هو واقفاً، أو مضطجعاً، أو ساقطاً.

حينما أدرك أنه كان قد سقط منبطحاً فوق جسم «جرالد» استغرب واندهش. لكنه قام، مُنْهِضاً نفسه بيده ومنتظراً أن يصبح قلبه أهدأ وأقل إيلاماً. كان يؤلمه كثيراً جداً ويسلبه وعيه.

أما «جرالد» فكان لا يزال أقل وعياً من «بركن». انتظرا في غبش، في نوع من عدم الكينونة، دقائق عدة، غير معدودة، غير معروفة.

قال «جرالد» لاهثاً: (لم أضطر إلى أن أكون خشناً معك... كان لابد من كبح.. قوتي..).

سمع «بركن» الصوت وكأن روحه هي كانت واقفة خلفه، خارجه، تصغي إليه، كان جسمه في غيبوبة وإنهاك وروحه قد ثقل سمعها. كان جسمه لا يستطيع الاستجابة. كان لا يعرف سوى أن قلبه آخذ في الهدوء. لقد توزع كلياً بين روحه التي لبثت في الخارج وهو على علم، وبين بدنه الذي كان عبارة عن دفقة دم غاطسة لا تعي.

قال «جرالد» لاهثاً: (كان بإمكاني أن ألقيك أرضاً.. مستخدماً العنف.. لكنك غلبتني بما فيه الكفاية تماماً).

قال «بركن»: (أجل)، مغلظاً حنجرته، ومخرجاً الكلمات متوترة. (إنك أقوى مني كثيراً.. كان في إمكانك أن تغلبني.. بسهولة).

ثم استرخى ثانية في مواجهة غوص قلبه ودمه، الفظيع.

قال «جرالد» لاهثاً: (لقد أدهشتني القوة التي تملكها. تكاد تكون خارقة للطبيعة).

فقال «بركن» : (مدة لحظة فقط).

استمر يسمع كما لو كانت روحه المنفصلة عن جسده هي التي كانت تسمع وهي واقفة على مسافة خلفه. بيد أن روحه أخذت تقترب وكان نبض دمه العنيف في صدره قد أخذ ينطمس في خفوت متزايد، مما أتاح لعقله أن يعود. لقد أدرك بأنه كان رامياً كامل ثقله على جسم الرجل الآخر اللدن، وهو مستند عليه، فجفل، لأنه تصور بأنه كان قد انسحب. استفاق وجلس. بيد أنه كان لا يزال مشوش الفكر، غير مستقر. فمد يده ليثبت نفسه. فمست يد «جرالد» التي كانت ممدودة على الأرض. ضمت يدُ «جرالد» يد «بركن» في حركة دافئة، مفاجئة، وظلا على تلك الحال منهوكين، مقطوعي النفس، يداً تقبض الأخرى بتماسك. كانت يد «بركن» هي التي انغلقت، في استجابة سريعة، على يد الآخر في مسكة قوية، حارة. أما مسكة «جرالد» فكانت مباغتة وآنية.

بيد أن الوعي الاعتيادي كان قد طفق يعود، كالمد بعد الجزر. غدا في إمكان «بركن» أن يتنفس على نحو يكاد يكون طبيعياً، وانسحبت يد «جرالد» على مهل، ونهض «بركن» على قدميه دائخاً، متمهلاً، ومضى نحو المائدة وصبّ شيئاً من الويسكي والصودا. وقَدِم «جرالد» كذلك ليصب كأساً له.

قال «بركن» وهو ينظر إلى «جرالد» وقد اسودّت عيناه: (كان نزالاً حقيقياً، أليس كذلك؟).

قال «جرالد» : (نعم، والله)، ثم أضاف وهو ينظر إلى الجسم الرقيق للرجل الآخر!

ـ (لم يكن منهكاً أكثر من اللازم بالنسبة إليك، أليس كذلك؟).

ـ (كلا، على المرء أن يصارع ويجالد، ويكون متين البنيان، فذلك يجعله رشيداً).

ـ (أتعتقد ذلك فعلاً؟).

ـ (نعم، وأنت؟).

قال «جرالد» : (نعم).

كانت ثمة فترات طويلة من الصمت بين كلماتهما. لقد كان للمصارعة شيء من المعنى العميق بالنسبة إليهما ـ معنى لم يكتمل.

ـ (نحن متآلفان، عقلياً وروحياً.. وعليه يتعين علينا أن نكون متآلفين بدنياً كذلك، على نحو ما.. فذلك أكمل).

قال «جرالد»: (من المؤكد)، ثم ضحك مسروراً وأضاف: (إنه أقرب إلى الروعة، بالنسبة إلي). ثم تمطّى ماداً ذراعيه على نحو لطيف.

قال «بركن»: (أجل. أنا لا أعرف علام يتعين على المرء أن يسوّغ نفسه).

ـ (علام؟).

شرع الرجلان يرتديان ملابسهما.

قال «بركن» لـ «جرالد»: (ثم إنني أعتقد بأنك جميل. وهذا شيء ممتع هو الآخر، على المرء أن يتمتع بما وهب).

فتساءل «جرالد» وعيناه تلتمعان: (أنت تعتقد بأنني جميل.. ماذا تعني، بدنياً؟).

ـ (أجل. ففيك جمال شمالي الطراز كضوء يعكسه الثلج.. وشكل جميل لدن. أجل، ذلك موجود للتمتع به، هو الآخر. علينا أن نستمتع بكل شيء).

أطلق «جرالد» ضحكة من حنجرته، وقال:

ـ (تلك من المؤكد إحدى وجهات النظر. أستطيع أن أقول هذا المقدار.. إنني أشعر بتحسن، لقد أعانني ذلك بلا شك. هل أن هذه هي «الأخوة»* التي أردت؟).

ـ (ربما. أو تظن أن هذا توثيق لعهد ما؟).

ضحك «جرالد» : (لا أدري).

ـ (على أية حال، إن المرء يشعر بأنه أكثر تحرراً وانفتاحاً الآن وذلك هو ما نصبو إليه).

قال «جرالد» : (مؤكد).

اقتربا من النار، حاملين معهما القناني والكؤوس والطعام.

قال «جرالد» : (إنني آكل قليلاً دائماً قبل أن آوي إلى الفراش فأنام على نحو أفضل).

قال «بركن» : (لو فعلت أنا ذلك، لما نمت جيداً).

ـ (نعم؟ هانحن أولاء مختلفان. سأرتدي «روباً»)، لبث «بركن» وحيداً، ينظر إلى النار، وارتد فكره إلى «أرسيولا»، وبدت هذه وكأنها عائدة إلى وعيه. عاد «جرالد» وهو يرتدي «روباً» من حرير، عريض الخطوط، أخضر وأسود غامقاً، وكان منظره بهياً أخاذاً.

قال «بركن» : وهو ينظر إلى كامل «الروب»: (إنك وسيم جداً).

قال «جرالد» : (إنه قفطان من (بُخارى). إنني أحبه).

ـ (وكذلك أنا).

سكت «بركن» وهو يفكر: (كم كان «جرالد» مدقِّقاً في ملبسه. وباذخاً كذلك. كان يرتدي جوارب من حرير، وكانت أزرار الزينة من صنع دقيق، كما كانت ملابسه الداخلية ومشداته من حرير. غريب! ذلك كان فرقاً آخر بينهما. فلقد كان «بركن» عديم الاهتمام بمظهره ولا يُعْمِل خياله فيه).

---

* قال كلمة «الأخوة» بالألمانية وهي إشارة إلى حديث سابق بين الرجلين بشأن «أخوة الدم» . (المترجم) .

قال «جرالد» كما لو كان يفكر: (طبيعي يا هذا. ثمة شيء غريب فيك، إنك قوي على نحو مثير للتعجب. فالمرء لا يتوقع ذلك. إنه يثير الدهشة إلى حد ما).

ضحك «بركن». كان يتملى قامة الرجل الآخر المليحة، ذلك الأشقر الوسيم بالروب النفيس، وهو يفكر نصف تفكير بالفرق بينه وبين شخصه ـ ما أوسع الفرق؛ كأنه الفرق بين رجل وامرأة، ولكن من زاوية أخرى. أما في الواقع، كانت «أرسيولا» هي الامرأة التي كانت هيمنتها تتعاظم على وجود «بركن» في تلك اللحظة. لقد أمسى «جرالد» يتضاءل آيلاً إلى التلاشي من وعيه.

قال فجأة: (أتعلم أنني ذهبت إلى «أرسيولا برانغوين» هذه الليلة، وعرضتُ عليها الزواج؟).

لاحظ التعجّب الخاوي، المشرق، يبدو على وجه «جرالد».

ـ (صحيح؟).

ـ (نعم، رسمياً تقريباً، إذْ كلمت والدها أول الأمر، كما هو واجب بين الناس.. وإن حدث ذلك مصادفة.. أو لآمة).

اكتفى «جرالد» بالتفرس متعجباً، كأنه لم يستوعب الأمر.

ـ (إنك لا تقصد القول بأنك ذهبت جاداً وسألت أباها أن يسمح لك بالزواج منها؟).

قال «بركن»: (بلى، قد فعلت ذلك).

ـ (ماذا؟ هل سبق، إذاً، أن تحدثت إليها حول الموضوع؟).

ـ (كلا، ولا كلمة. فقد فكرت فجأة في أن أذهب إلى هناك وأسألها... وتصادف أن جاء والدها بدلاً عنها.. وهكذا سألته أولاً).

فأكمل «جرالد» الجملة مستنتجاً: (إن كان في إمكانك الاقتران بها؟).

ـ (ن.. ن.. نعم. هو ذلك).

ـ (ولم تكلمها؟).

ـ (بلى. فقد جاءت بعدئذٍ فطرح الأمر عليها كذلك).

ـ (صحيح! وماذا قالت عند ذاك؟ أنت مخطوب الآن؟).

ـ (كلا.. فقد اكتفت بالقول بأنها لا تريد أن يتنمّر عليها أحدٌ لكي تجيب).

- (إنها ماذا؟).
- (قالت: إنها لا تريد أن يتنمّر عليها أحدٌ لكي تجيب).
- («قالت: أنها لا تريد أن يتنمّر عليها أحدٌ لكي تجيب!»، عجيب، ماذا كانت تقصد بذلك؟)..

رفع «بركن» كتفيه وأجاب:

- (لا أستطيع القول. أحسب أنها لم ترد أن يضايقها أحد في تلك اللحظة نفسها).
- (هل كان الأمر هكذا فعلاً؟ ثم ماذا فعلت أنت عند ذاك؟).
- (خرجت من الدار وجئت إلى هنا).
- (وهل جئت إلى هنا مباشرة؟).
- (نعم).

تفرس «جرالد» في اندهاش واستمتاع، ولم يستطع أن يستوعب ذلك.

- (لكن، هل هذا صحيح حقاً، كما تقوله أنت الآن؟).
- (صحيح حرفياً).
- (صحيح؟).

مال في كرسيه إلى الخلف وقد امتلأ غبطة واستمتاعاً، وقال:

- (حسن، هذا جيد، وهكذا جئت هنا لتتصارع مع ملاكك الصالح*، أليس كذلك؟).
- (هل فعلتُ هذا؟).
- (حسن، يبدو أنه كذلك. أليس هذا ما فعلت؟)

لم يعد «بركن» يستطيع متابعة قصد «جرالد».

قال «جرالد»: (وماذا سيحدث؟ سوف تبقي العرض قائماً، كما يقال).

- (أظن ذلك. لقد أخذت على نفسي عهداً أن أشيعهم جميعاً إلى الشيطان، لكنني أحسب أنني سوف أسألها ثانيةً بعد فترة وجيزة).

---

* تلميح إلى ما ورد في الانجيل حول المصارعة التي ضمت «يعقوب» والملاك. (المترجم).

راقبه «جرالد» مثابراً، ثم سأله:

ـ (أنت مولع بها، إذاً؟).

قال «بركن» وقد تثبت وجهه وسكن تماماً: (أعتقد... أنني أحبها).

تلألأ «جرالد» بالفرح لحظة، كأن ذلك كان شيئاً قد تم خصيصاً لإسعاده. ثم اتخذ وجهه جدّية مناسبة، وأومأ برأسه على مهل، وقال:

ـ (أنت تعرف أنني كنت أؤمن بالحب دائماً... الحب الحقيقي... لكن أين يجده المرء في هذه الأيام؟).

قال «بركن» : (لا أدري).

قال «جرالد» : (نادر جداً)، ثم أردف بعد توقف: (لم أشعر به أنا قط... ليس ما ينبغي لي تسميته حباً. لقد طاردتُ النساء.. وقد تلهفت على بعضهن بما فيه الكفاية. بيد أنني ما شعرت بالحب قط. لا أعتقد بأنني شعرت يوماً بحب حيال امرأة يعدل حبي لك ـ ليس حباً . أنت تدرك ما أعني؟).

ـ (أجل. إنني متيقن من أنك لم تحب امرأة قط).

ـ (هل تحس بذلك؟.. وهل تعتقد بأنني سأفعل ذلك يوماً ما؟ أتفهم ما أقصد؟). عند ذاك وضع يده على صدره، ضاماً قبضته هناك، كأنه كان يريد أن يستخلص شيئاً منه.. (أقصد أن.. أن... لا أستطيع التعبيرعما هو.. لكنني أعرفه).

سأله «بركن» : (ما هو إذاً؟).

ـ (المسألة هي أنني عاجز عن التعبير عنه بالكلمات، أعني، على أية حال، شيئاً باقياً.. شيئاً لا يمكن أن يتبدل...).

كانت عيناه متألقتين ، متحيرتين.

قال متلهفاً: (والآن، هل تظن أنني سأشعر يوماً بذلك حيال امرأة؟).

نظر «بركن» إليه وهز رأسه، ثم قال:

ـ (لا أدري.. لا أستطيع أن أقول).

كان «جرالد» في حالة استنفار وتأهب كما لو كان ينتظر مصيره. ارتد الآن في كرسيه وقال: (لا أنت تستطيع، ولا أنا، ولا أنا).

قال «بركن» : (نحن مختلفان، أنا وأنت: لا أستطيع أن أعبر عن حياتك).

قال «جرالد» : (لا.. ولا أنا أكثر قدرة.. لكن أقول لك.. لقد بدأت أشك في ذلك).

ـ (في أنك ستحب امرأة في يوم من الأيام؟).

ـ (حسن... نعم... ما قد تسميه حباً حقاً...).

ـ (أوتشك في ذلك؟).

ـ (حسن. لقد بدأتُ).

ران صمتٌ مديد.

قال «بركن» : (في الحياة مختلف الشؤون... وليس ثمة سبيل واحد حسب).

ـ (أجل. أعتقد بذلك، أيضاً. أعتقد بذلك. ولكن لاحظ أنني لا أبالي بما هو عليه حالي.. لا أبالي بذلك.. ما دمت لا أشعر..) توقف هنا، وبانت على وجهه نظرة خاوية، عقيمة، من أجل التعبير عن شعوره، ثم أردف: (ما دمت أحس بأنني قد عشت على نحو ما.. ولا تهمني الكيفية... فإنني أريد أن أشعر بأنني..).

قال «بركن» : (قد حققت الغرض).

ـ (طيـ... ـيب... ربما تحقق الغرض، أنا لا أستخدم الكلمات التي تستخدمها أنت نفسها).

ـ (إنه الشيء نفسه).

الفصل الحادي والعشرون

المدخل

كانت «غدرون» في لندن، حيث أقامت معرضاً صغيراً لأعمالها، مع أحد الأصدقاء، وكانت تتجول هنا وهناك استعداداً للفرار من (بلدوفر).

فبصرف النظر عما قد يحدث، فإنها ستكون على درب السفر خلال وقت قصير. كما تلقت خطاباً من «وينيفرد كريتش» مزيناً بالرسوم:

(ذهب والدي هو الآخر إلى لندن ليفحصه الأطباء، وتعب كثيراً من جراء ذلك. قالوا له إن عليه أن يخلد إلى الراحة كثيراً جداً، ولهذا فهو في الفراش في أغلب الأوقات. لقد حمل لي معه ببغاء استوائية لطيفة مصنوعة من خزف مدينة (درزدن) وكذلك رجلاً يحرث، وفأرتين متسلقتين غصناً، من خزف كذلك. كانت الفأرتان من إنتاج (كوبنهاغن). كانتا الأحسن، لكن الفئران لا تلمع كثيراً، وباستثناء ذلك فهما جيدتان جداً، ولهما ذيلان رفيعان وطويلان. وهذه كلها تلمع كالزجاج تقريباً، من الطبيعي أنها الطلية الزجاجية، وأنا لا أحب ذلك.

إن «جرالد» يفضل الرجل الحارث، ذا السروال الممزق، والذي يحرث بوساطة الثور، لكونه فلاحاً ألمانياً، على ما أظن، أما اللون فكله رمادي. وأبيض، القميص أبيض والسروال رمادي، لكنهما نظيفان ولماعان جداً، أ ما السيد «بركن» فيفضل الصبية الواقفة تحت أزاهير الزعرور البري، ومعها الشاة، والمزينة تنانيرها بأوراد النرجس، والموجودة في غرفة الاستقبال. بيد أن ذلك سخيف، إذ إن الشاة ليست شاة حقيقية، كما أنها سخيفة هي الأخرى.

عزيزتي الآنسة «برانغوين»، أنت عائدة عن قريب. نحن هنا نفتقدك كثيراً جداً. أرفق طياً صورة للوالد وهو جالس في الفراش. إنه يقول: إنه يأمل ألا تتخلي عنا، آه،

عـزيزتي الآنسـة «برانغـوين»، إنني على يقين من أنك سـوف لن تفـعلين ذلك. عـودي أرجوك وارسمي أبنـاء مِقْرَض*. إنهم أحلى وأنبل الأحباب في العالم. عسى أن ننحتهم على خشب البـهشيـة**، على خلفيـة من أوراق خضر. أوه، لنفعل ذلك فهم في غاية الجمال.

يقـول الوالد: إنه قـد يكون لدينا مـرسم. ويقـول «جـرالد» إننا نسـتطيع أن نمتلك مرسماً لطيفاً يُشاد فوق الاصطبلات، ولن يعوزه سوى نصب نوافذ في منحدر السقف، وهذا أمر يسيـر. عند ذاك سوف تتمكنين من البقـاء هنا طيلة النهار وتشتـغلين. وفي وسعنا العيش في المرسم كفنانتين حقيقيتين مثل الرجل في الصورة المعلقة في القاعة، ذي المقلاة والحيطان التي تزخر بالرسوم. إني أتوق للحرية ولعيش حياة الفنان الطليقة. حتى «جرالد» نفسـه قد أخبر الوالد (إن الفنان هو المتحرر الوحيد، لأنه يعيش في عالم خلاّق خاص به...).

أدركت «غدرون» منحى النوايا العـائلية في هذه الرسـالـة.. فـ «جرالد» كان يريد منهـا أن تكون مرتبطة بأهل الدار في (شورتلاندز)، وكـان يسـتـخدم «وينيفرد» دريئة له***. أمـا الوالد فـمـاكـان يفكر إلا بطفلتـه، حيـث كـان يرى في «غـدرون» مـلاذاً للخلاص. وكانت «غدرون» معجبة به لفطنته. علاوة على أن الطفلة كانت استثنائية حقاً. اطمأنت «غدرون» تماماً. كانت راغبة تماماً، إذا ما أعطيت مرسماً، في قضـاء أيامهـا في (شـورتلاندز). لقد غدت تكره المدرسة الثانوية كلياً وتريد أن تكون حرة. فلو جُهِّزَ مرسم ستكون حرة في مواصلة عـملها. وستنتظر تطور الأحداث بكل سكينة. ثم إنها كانت قد شغفت بـ «وينيفرد» فعلاً، ولسوف يسرها تماماً أن تتفهم الصبية.

هكذا أقيم احتفال جد مختصر على حسـاب «وينيفـرد» يوم عودة «غـدرون» إلى (شورتلاندز).

قال «جرالد» مبتسماً لشقيقته: (عليك أن تعدّي باقة أزهار لتهديها إلى الآنسة «برانغوين» عند وصولها).

---

* مفردها : ابن مقرض ، وهو حيوان شبيه بابن عرس يستخدم لتصيد القَوارض . (المترجم) .

** نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف . (المترجم) .

*** الدريئة = الجواد . الدريئة = جواد أو شي على صورة جواد يستتر به الصائد ليخدع الطرائد . (المترجم) .

فصاحت «وينيفرد»: (أوه كلا... ذلك سخيف).

ـ (أبداً، إنه اهتمام عادي ولطيف جداً).

اعترضت «وينيفرد» بالاستحياء الأليم المفرط* الذي يميز سنها.

قائلة: (أوه، إنه سخيف)، ومع ذلك استهوتها الفكرة وأرادت تنفيذها بكل رغبة. فتنقلت في أرجاء المستنبتات الزجاجية وحافظة النباتات وهي تنظر باشتياق ملتاع إلى الأزهار على سيقانها. وكلما زادت مشاهداتها زاد اشتياقها لعمل باقة من الزهيرات التي قد رأتها وزاد افتتانها بفكرة احتفالها الصغير وغدت أشد تحرجاً وحياءً مفرطاً، لدرجة كادت أن تفقدها رشدها. لقد عجزت عن إبعاد الفكرة عن عقلها... كأن تحدياً هاجساً كان يلح عليها، ولم تكن لديها الشجاعة الكافية لقبوله. وهكذا عادت تتجه إلى المستنبتات الزجاجية، تنظر إلى الأزهار الجميلة في أصصها، وإلى زهور آذان الأرنب العذرية**، وإلى المجاميع البيض الغامضة لأحد النباتات المتسلقة، أوه، ياللجمال، ياالجمالها، أوه ياللنعمة الفردوسية، لو أنها ملكت باقة كاملة، واستطاعت أن تعطيها إلى «غدرون» في اليوم التالي. لقد جعلتها عاطفتها المشبوبة وتردّدها التام عليلة تقريباً.

أخيراً انسلت إلى جانب أبيها وقالت:

ـ (بابا...).

ـ (ماذا ، يا غاليتي؟).

بيد أنها تراجعت، وقد كادت عيناها أن تغرورقا بالدموع وهي في حالتها المضطربة الحساسة. نظر أبوها إليها فاضطرم قلبه رقةً بعذاب حب أليم.

ـ (ماذا تريدين أن تقولي لي، يا حبي؟).

ابتسمت عيناها باقتضاب: (بابا..! أليس من السخف أن أعطي الآنسة «برانغوين» بعض الأزهار عند قدومها؟).

نظر الرجل العليل إلى عيني طفلته البراقتين العالمتين، فاشتعل قلبه حباً.

ـ (كلا يا حبيبتي، ليس ذلك سخيفاً، فهو ما يفعلونه للملكات).

---

* وردت عبارة «بالاستحياء الأليم المفرط» بالفرنسية . (المترجم) .

** آذان الأرنب = بحور مريم = نبات عشبي جميل الزهر . (المترجم) .

لم يكن هذا ليطمئن «وينيفرد» كثيراً، فقد كانت تشك نوعاً ما بأن الملكات أنفسهن كنَّ عبارة عن سخافة من السخافات بيد أنها كانت تصبو إلى مناسبتها الرومانسية الصغيرة، كذلك، فسألت:

ـ (هل لي، إذاً؟).

ـ (إهداء شيء من الأزهار إلى الآنسة «برانغوين»؟ نعم، يا طيري. أخبري «ولسن» بأنني أقول بأن لك ما تريدين).

ابتسمت الطفلة ابتسامة صغيرة متسللة غير واعية لنفسها تعبيراً عن الامتنان بطريقتها الخاصة. وقالت:

ـ (لكنني لن آخذها حتى الغد).

ـ (ليس قبل الغد، يا طيري، أعطني قبلة، إذاً..).

قبلت «وينيفرد» الرجل العليل بصمت، وانسلت خارج الغرفة. ومن جديد أخذت تتجول في أرجاء المستنبتات الزجاجية والحافظة، وأخبرت البستاني بأسلوبها المتعالي الجازم والبسيط بما تريد، معددة له الأزاهير التي كانت قد انتقتها.

سألها «ولسن»: (لأيِّ غرض تريدين هذه الأزهار؟).

قالت: (أريدها). وتمنت لو أن الخدم امتنعوا عن إلقاء الأسئلة.

ـ (أجل، لقد قلت هذا القدر. لكن لأي غرض تريدينها؟ أللزينة، أم الإرسال، أم ماذا؟).

ـ (أريدها باقة إهداء).

ـ (باقة إهداء! من القادم، إذاً؟.. دوقة (بورتلاند؟).

ـ (كلا).

ـ (أوه، ليست هي؟.. حسن، سيكون عندك عرض مبهرج نادر إذا ما ضممت كل الأشياء التي ذكرتها في باقتك).

ـ (أجل، أريد عرضاً مبهرجاً نادراً).

ـ (تريدين ذلك! إذاً، لا داعي للمزيد من الكلام).

في اليوم التالي، كانت «وينيفرد» تنتظر في غرفة التدريس بفارغ الصبر، وهي ترتدي بدلة من المخمل الفضي اللون، وتمسك بيدها باقة أزهار مزوقة، تنظر إلى

الممشى تطلعاً لمقدم غدرون. كان صباحاً مطيراً. وتحت أنفها كان يفوح العبق الغريب لأزهار المستنبت المدفأ وكانت الباقة كلهبة نار صغيرة بالنسبة إليها. لقد بدا لها أن ثمة ناراً جديدة غريبة في قلبها. وحرك هذا الشعورُ الخفيف برومانسية الموقف أحاسيسَها، وكأنه شراب مسكر.

أخيراً.. شاهدت «غدرون» قادمة، فجرت إلى الطابق الأسفل لتخطر أباها و«جرالد». فضحكا من قلقها وجديتها، وجاءا معها إلى القاعة. أقبل الخادم إلى الباب على عجل، وهناك أراح «غدرون» من مظلتها ثم من معطفها المطري. أما رهط الترحيب، فقد ظل في الخلف حتى دخلت زائرتهم القاعة.

كانت «غدرون» متوردة الوجه من أثر المطر، وكان شعرها متطايراً في عقصات صغيرة طليقة فكأنها زهرة تفتحت تواً في المطر، وغدا قلب الزهرة مرئياً وبدا يشع دفئاً من شعاع شمس مستبقى.

انتفض «جرالد» في روحه إذ شاهدها على تلك الدرجة من الجمال والغموض. كانت مرتدية رداءً ذا لون أزرق خفيف، وجورباها لونهما أحمر غامق.

تقدمت «وينيفرد» على نحو رسمي، جليل، غريب، وقالت، وهي تقدم باقة الأزهار:

ـ (عودتُك تسرّنا كثيراً. هي ذي أزهارك).

هتفت «غدرون»: (أزهاري!). توقفت لحظة، ثم احتقن وجهها كثيراً. كانت كمن غشيت بصرَهُ آنياً شعلةٌ من المتعة. ثم تطلعت عيناها، غريبتين، ملتهبتين، إلى الوالد وإلى «جرالد». ومن جديد، انكمش «جرالد» روحياً، كأن الأمر جاوز ما يمكنه احتماله إذ حطت عليه عيناها المنكشفتان الملتهبتان. كان هناك شيء ما قد انكشف كثيراً: كانت هي قد تكشفت إلى حد جاوز المحتمل أمام ناظريه. أشاح بوجهه جانباً. وشعر بأنه لن يكون قادراً على التنحي عنها. فتلوّى تحت وطأة سجنها.

دست «غدرون» وجهها في الأزهار وقالت بصوت مكتوم:

ـ (لكن ما أجملها!). ثم انحنت وقبلت «وينيفرد» بانفعال غريب انكشف فجأة.

تقدم السيد «كريتش» ماداً يده لها، وقال مازحاً:

ـ (خشيتُ أن تهربي منا).

تطلعت «غدرون» إليه بوجه متألق غامض ذي دهاء وأجابت:

- (صحيح! كلا، لم أشأ المكوث في لندن).

بدا صوتها وكأنه يعني ضمناً أنها مسرورة بالعودة إلى (شورتلاندز)، كانت نبرتها دافئة، توحي بالملاطفة الضمنية.

ابتسم الوالد قائلاً: (هذا شيء حسن، كما ترين، إنك على الرحب والسعة هنا بين ظهرانينا).

اكتفت «غدرون» بالنظر إلى وجهه مباشرة بعينين دافئتين، خجولتين، زرقاوين زرقة غامضة. لقد انجرفت بقوتها هي، على غير وعي منها.

واصل السيد «كريتش» كلامه وهو ممسك بيدها:

- (كما أنك تبدين وكأنك قد عدت إلى مسقط الرأس مكلّلة بكل نصر ممكن).

فقالت، وقد تألقت على نحو غريب: (كلا، ما نلتُ أي نصر حتى جئتُ إلى هنا).

- (آه، رويدك، رويدك! لن نسمع أية رواية من هذا القبيل. ألم نقرأ تقارير إخبارية في الصحف يا «جرالد» ؟).

قال «جرالد» لها وهو يصافحها: (لقد انتهيتِ إلى نجاح جيد، هل بعتِ أي شيء؟).

قالت: (كلا... ليس كثيراً).

قال: (حسن بالقدر نفسه).

تساءلت ما الذي كان يعنيه، لكنها كانت مشرقة كل الإشراق من حسن استقبالها، وقد خلبتها تلك الاحتفالية الصغيرة المعبرة.

قال الأب: (يا «وينيفرد»، هل لديك زوج من الأحذية للآنسة «برانغوين»؟ خير لك أن تغيري ملابسك فوراً...).

خرجت «غدرون» وباقتها في يدها.

قال الوالد لـ «جرالد» حين خرجت: (شابة ممتازة تماماً).

أجاب «جرالد» باقتضاب: (أجل)، وكأنه لم يستلطف الملاحظة.

كان السيد «كريتش» يحب أن تجلس «غدرون» معه مدة نصف ساعة. كان بطبيعته كالحاً، مبتئساً، قد تهرأت الحياة منه برمتها. لكنه حالما كان يستجمع قوته،

كان يحب التظاهر بأنه على عهده كما في السابق، في كامل الصحة، متوسطاً زحمة الحياة ـ ليست الحياة الخارجية، بل في وسط حياة قوية جوهرية. ولقد ساهمت «غدرون» في هذا الاعتقاد على خير وجه. فبمعيتها كان يستطيع، بوساطة التحفيز، أن يظفر بأنصاف الساعات الثمينة تلك، الحافلة بالقوة والحبور والحرية الخالصة، حين كان يبدو كأنه يعيش أكثر مما كان قد عاش أصلاً.

قدِمَتْ إليه وهو راقد، مسنود، في المكتبة. كان وجهه أشبه بالشمع الأصفر، وكانت عيناه مسودتين كأنهما لا تبصران. وبدت لحيته السوداء، التي وخطها الشيب الآن، كأنها قد نبتت من لحم جثة متشمع. ومع ذلك كان الجو المحيط به نشطاً ومَراحاً. وقد ساهمت «غدرون» في هذا على خير وجه. ففي تصورها، كان هو مجرد رجل عادي. إنما مظهره الفظيع بعض الشيء كان مرسوماً في روحها، بعيداً تحت وعيها. كانت تعلم أن عينيه، على الرغم من مرحه، ماكانتا تستطيعان التحول عن فراغهما المعتم، فقد كانتا عيني رجل قد قضى نحبه.

قال، وهو يفيق فجأة عند دخولها بعد أن أعلن الخادم عن ذلك:

ـ (آه.. هي ذي الآنسة «برانغوين» يا «توماس»، ضع كرساً للآنسة «برانغوين» هنا.. مضبوط). رنا إلى وجهها الناعم، النضر، بابتهاج. كان ذلك يمنحه وهماً بالحياة. (والآن، ستتناولين كأساً من شراب «الشيري» وقطعة صغيرة من الكعك... يا «توماس»...).

قالت «غدرون»: (كلا، أشكرك)، وحالما قالت ذلك، غاص قلبها على نحو فظيع، فقد بدا الرجل العليل وكأنه قد سقط في هوة قاتلة عند ممانعتها. كان ينبغي لها أن تتملقه، لا أن تخالفه، وفي لحظة شرعت تبتسم ابتسامتها الماكرة نوعاً ما.

قالت: (لا أحب «الشيري» كثيراً، لكنني أحب أي شيء آخر، تقريباً).

تشبث الرجل العليل بهذه القشة فوراً.

ـ (ليس «الشيري»! لا ! شيء آخر ماهو؟ ما الموجود يا «توماس»؟..).

ـ (نبيذ «البورت»*.. «الكوراسو»...)**.

---

* «البورت» : ضرب من الخمر برتغالي الأصل . ((المترجم) .

** «الكوراسو» : شراب مسكر منكه بقشر نوع من البرتقال المجفف . (المترجم) .

قالت «غدرون» وهي تنظر إلى الرجل العليل نظرة المانح الثقة: (أحب «الكوراسو»).

ـ (صحيح؟ حسن. «الكوراسو» يا «توماس» وقطعة صغيرة من الكعك، أو البسكويت؟).

قالت «غدرون» : (قطعة من البسكويت)، لم تكن تريد أي شيء لكنها كانت حصيفة.

ـ (نعم).

انتظر حتى تستقر، بكأسها وبسكويتها، فرضي واطمأن.

قال، في شيء من الحماسة: (لقد سمعتِ عن الخطة المتعلقة بمرسم لـ «وينيفرد» فوق الاصطبلات؟).

هتفت «غدرون» في اندهاش مصطنع: (كلا!).

ـ (أوه، ظننت أن «وينيفرد» قد ذكرته لك في خطابها!).

ابتسمت «غدرون» بمكر وتدليل، قائلة: (أوه.. نعم.. من الطبيعي لكنني اعتقدت أنه ربما كانت تلك من بنات أفكارها هي، لا غير).

فابتسم الرجل العليل هو الآخر، منتعشاً.

ـ (أوه، كلا. إنه مشروع حقيقي. هناك غرفة صالحة تحت سقف الاصطبلات.. ذات عوارض خشبية مائلة. وقد فكرنا في تحويلها إلى مرسم).

صاحت «غدرون» بحرارة منفعلة: (ما أشد لطف ذلك إذا ما تمّ!). لقد أثارتها فكرة العوارض.

ـ (أتظنين ذلك؟ حسن. إن إنجازه ممكن).

ـ (كم هو ممتاز حقاً بالنسبة إلى «وينيفرد»! طبيعي إنه مايلزم تماماً إذا ما أريد لها أن تعمل على نحو جدي أصلاً. لابد أن يكون للمرء مشغله وإلاً فإنه سيظل هاوياً على الدوام).

ـ (هل الأمر كذلك؟.. أجل. أود بلا شك، أن تشتركي فيه مع «وينيفرد»).

ـ (أشكرك جداً).

كانت «غدرون» تعرف كل هذه الأشياء من قبل. لكن كان لابد لها من أن تبدو مستحية، جداً ممتنة، كالمنبهرة.

ـ (طبيعي، إن ما أحبذه تماماً احتمال أن تتمكني من التخلي عن عملك في المدرسة الثانوية وتتفرغي للاستفادة من المرسم، وتشتغلي هناك... حسن... بقدر ما تحبين، زيادة أو نقصاناً..)

نظر إلى «غدرون» بعينين مغتمتين، خاويتين، فنظرت إليه، بالمقابل، نظرة كأنها تزخر بالامتنان. فتلك العبارات الآتية من رجل محتضر كانت جدّ كاملة وطبيعية، وهي تصدر كالأصداء من فمه الميت.

ـ (أما عن راتبك... فلن تمانعي من أن تأخذي مني ماكنت تأخذينه من (لجنة التعليم)، أليس كذلك؟ لا أريدك أن تخسري).

فقالت «غدرون»: (أوه، لو استطعت إشغال المرسم والعمل هناك، فسأتمكن من كسب ما يكفي، سأتمكن من ذلك فعلاً).

قال، وقد سره أن يكون المحسن: (حسن، في وسعنا أن ننظر في ذلك كله. وأنت، سوف لن تمانعين في قضاء نهاراتك هنا؟).

فقالت «غدرون» : (إذا ما وجدت مرسماً أعمل فيه، فلن أستطيع أن أطلب شيئاً ما أفضل).

ـ (صحيح؟).

لقد سره ذلك جداً، فعلاً، لكنه كان قد بدأ يشعر بالتعب. كان في وسعها ملاحظة حالة شبه الوعي الكامد الفظيع من الألم المحض والانحلال الخالص، وهي تتنابه ثانية، والعذاب يسري في خواء عينيه المعتمتين. لم تنته، بعد، عملية الموت تلك. نهضت بلطف، قائلة:

ـ (لعلك مقبل على الرقاد. لابد لي من أن أفتش عن «وينيفرد»).

خرجت، وأعلمت الممرضة بأنها قد بارحته. لقد أخذ نسيج الرجل العليل يضؤل أكثر فأكثر، يوماً بعد يوم، وزاد اقتراب العملية من العقدة الأخيرة التي تمسك الكائن البشري في وحدته. لكن تلك العقدة كانت صلبة، غير مرتخية، فإرادة الرجل المحتضر لم تستسلم قط. قد يكون ميتاً بنسبة تسعة أعشار، لكن العشر الباقي ظل دون تغيير حتى يمسي هو الآخر مزقاً، من خلال إرادته. تشبث بوحدة ذاته، وطيدةً، متينة. بيد أن دائرة قوته كانت في تضاؤل مطرد، ولسوف تتضاءل في خاتمة المطاف إلى نقطة، ثم تنجرف.

ولكي يتشبث بالحياة، كان لابد من التشبث بالعلاقات البشرية. وفي هذا الصدد كان يتمسك بكل قشة. «وينيفرد» والساقي والممرضة و «غدرون»، أولئك هم الناس الذين كانوا يعنون كل شيء بالنسبة إليه في تلك الملاذات الأخيرة. أما «جرالد» فكان يتيبس نفوراً في محضر أبيه. وهكذا كان الحال، بدرجة أقل، مع جميع الأبناء عدا «وينيفرد»، فحينما كانوا ينظرون إلى والدهم لم يكونوا يستطيعون أن يلمحوا أي شيء سوى الموت، فكأن كرهاً سرياً كان قد استولى عليهم، لم يسعهم مشاهدة الوجه المألوف، أو سماع الصوت المألوف. لقد استبد بهم النفور من الموت المرئي والمسموع. كان «جرالد» يعجز عن التنفس في محضر أبيه، مما كان يحتم عليه الخروج فوراً. وهكذا، وبالطريقة نفسها، كان الوالد لا يطيق وجود ابنه. فقد كان ذلك مبعث غيظ نهائي يتخلل روح الرجل المحتضر.

أُعِدّ المرسم وانتقلت «غدرون» و «وينيفرد» إليه. لقد استمتعا كثيراً بتنظيمه وإعداده. والآن كادت الحاجة أن تنتفي لبقائهما في البيت كلياً. كانتا تتناولان وجباتهما في المرسم، وتعيشان هناك آمنتين، ذلك أن الدار قد غدت فظيعة، فثمة ممرضتان بالرداء الأبيض تمرقان صامتتين في الأرجاء، كأنهما نذير الموت. وكان الوالد ملازماً الفراش، وهناك حركة مجيء وذهاب هامسة* للأخوات والأخوان والأطفال.

كانت «وينيفرد» الزائرة الدائمة لأبيها. ففي كل صباح، بعد الفطور، كانت تدخل غرفته حين يكون قد اغتسل وأُجْلِسَ في الفراش مسنوداً، كي تقضي نصف ساعة معه.

كان سؤالها الدائم هو: (هل تحسنت صحتك يابابا؟).

فيجيبها دائماً: (أجل، أعتقد أن صحتي قد تحسنت قليلاً، يا مدللتي).

فتمسك يده بكلتا يديها، في حب وصون. وكان ذلك عزيزاً عليه جداً.

كانت تهرع إليه في العادة، ثانية، في موعد الغداء لتخبره عن مجريات الحوادث، ثم تقضي معه وقتاً طويلاً كل مساء، حين تسدل الستائر وتكون غرفته مبعث راحة. إذ تكون «غدرون» قد ذهبت إلى بيتها، و «وينيفرد» وحيدة دارها، فكانت تفضل أن تكون مع أبيها على أي شيء آخر. كانا يتحدثان، ويثرثران كيفما اتفق، وكان هو

---

* وردت «هامسة» باللغة الإيطالية. (المترجم).

يتصرف كأنه متعافٍ مثلما كان أيام نشاطه، بحيث أن «وينيفرد» بغريزتها الطفولية البارعة في تجنب الأمور الأليمة، كانت تتصرف كأن شيئاً خطيراً لم يكن. وبالغريزة كانت تكبح قلقها وتبدو سعيدة. ومع ذلك، ففي قرارة نفسها، كانت تعرف، كما كان يعرف البالغون، بل ربما معرفة أفضل من معرفتهم.

كان والدها على ما يرام في تظاهره معها. لكنه كان ينتكس عند خروجها، تحت وطأة بؤس انحلاله. ومع ذلك، كانت هناك تلك اللحظات المشرقات، بيد أن قابليته على الانتباه أخذت تضعف مع اضمحلال قوته، ماكان يجبر الممرضة على إبعاد «وينيفرد» لتقيه الإنهاك.

لم يعترف قط بأنه كان موشكاً على الموت، كان يعرف أن الأمر كذلك، كان يعرف أنها النهاية. لكنه لم يقر بذلك حتى لنفسه. لقد كره تلك الحقيقة كرهاً مميتاً. كانت إرادته صلبة ولم يكن يتحمل أن يقهره الموت. فليس ثمة موت في نظره. ومع هذا، كان يشعر أحياناً بحاجة ماسة للصراخ، والعويل، والتشكي. كان يود لو أنه بكى بكاءً عالياً في وجه «جرالد» فيرتاع الابن ويخرج عن طوره الهادئ. كان «جرالد» على وعي بذلك، غريزياً، وكان ينسحب ليتجنب أي شيء من هذا القبيل. إن قذارة الموت هذه كانت تنفره على نحو مفرط. ذلك أن الإنسان لابد له أن يموت سريعاً، مثل (الرومان). عليه أن يكون سيد مصيره في الموت كما في الحياة. كان يتلوى في قبضة موت أبيه هذا، كأن ثعبان «لاوكون»* العظيم قد التف حوله التفافاً. لقد ظفر الثعبان العظيم بالأب، فانجرَّ الابن إلى داخل طوق الموت المريع مع الوالد. كان يقاوم على الدوام. فأمسى، في نظر أبيه وعلى نحو ما غريب، قلعة للقوة.

في آخر مرة طلب فيها الرجل المحتضر أن يرى «غدرون» كان قد أمسى رمادي اللون من الموت الوشيك. ومع ذلك كان لابد من أن يقابل أحداً، لابد أن يتصيّد صلة بالعالم الحي، في فترات الوعي، كي لا يضطر إلى قبول وضعه هو، ومن حسن الحظ أنه كان دائماً نصف مرتحل في أغلب الأوقات، يمضي ساعات عديدة يفكر في الماضي، إذا صح التعبير، على نحو أغبش، يستعيد تجاربه القديمة دون وضوح. بيد أنه كانت

---

* «لاوكون» كاهن من أهل «طروادة» قتله ، وابنيه ، ثعبانان بحريان بعد تحذيرهم أهالي «طروادة» من خطر الحصان الخشبي الذي كان يختبئ داخله الجنود الإغريقيون ، حسب ما ورد في الأساطير الإغريقية . (المترجم) .

ثمة أوقات، حتى وهو يدنو من الختام، استطاع فيها إدراك ماكان حادثٌ له في الوقت الراهن، إدراك الموت الذي كان يخيم عليه. تلك كانت الأوقات التي كان ينادي فيها طالباً مساعدة خارجية، مهما كان مصدرها. كان لديه إدراك بأن الموت الذي كان يكابده كان موتاً يتجاوز الموت، لا يطاق قط، كان ذلك اعترافاً ماكان مقرراً له أن يصدر عنه قط.

ارتعبت «غدرون» لمرآه، والعينان المسودتان، المتهافتتان تقريباً، اللتان كانتا لا تزالان ثابتتين، لم تُقْهَرا.

قال بصوته الذي قد وهن: (حسن، كيف تسير الأمور بالنسبة إليك وإلى «وينيفرد»؟).

أجابت «غدرون»: (أوه، جيدة جداً، فعلاً).

كانت هناك ثغرات صغيرة ميتة أثناء الحوار، كأن الخواطر المستذكرة لم تكن سوى قش مراوغ طاف على الفوضى العتماء لاحتضار الرجل العليل.

قال: (هل إن المرسم مناسب؟).

قالت «غدرون» : (ممتاز. لا يمكن أن يكون ألطف وأكمل).

انتظرت ما قد يقوله بعد ذلك.

- (أو تعتقدين بأن لدى «وينيفرد» مكوِّنات النحات؟).

كم غريب خواء الكلمات وتجردها من المعنى.

- (أنا متأكدة من ذلك. سوف تصنع أعمالاً جيدة، يوماً ما).

- (آه، إذاً، لن تكون حياتها عبثاً جملة واحدة، في نظرك؟).

تعجبت «غدرون» بعض الشيء، وهتفت همساً: (كلا، مؤكداً).

- (صحيح).

عادت «غدرون» وانتظرت ما قد يتفوه به.

سأل: (أنت تجدين أن الحياة لطيفة، فالعيش لطيف، أليس كذلك؟).

ابتسمت.. لسوف تكذب كيفما اتفق: (أجل. إنني أقضي وقتاً طيباً وعلى نحو جيد، على ما أعتقد).

- (صحيح، إن الطبع السعيد ميزة عظيمة).

ابتسمت «غدرون» ثانية، وإن كانت روحها قد جفّت من نفور. هل يجب على المرء أن يموت هكذا.. تُسْتَخلص منه الحياة قسراً وهو يبتسم ويتحادث حتى النهاية؟ أليس هناك مخرج آخر؟ هل يتعين على المرء أن يكابد كل فظاعة هذا النصر على الموت، نصر الإرادة الكاملة التي لا تقهر حتى تزول كلياً؟ لابد من ذلك، فهو السبيل الوحيد. لقد أعجبت برباطة جأش الرجل المحتضر وسيطرته غاية الإعجاب. لكنها مقتت الموت عينه. لقد أبهجها أن دنيا الحياة اليومية كانت سليمة، ولا حاجة بها لأن تعترف بأي شيء يتجاوز ذلك.

ـ (أنت مرتاحة راحة تامة هنا؟.. لا شيء نستطيع أن نفعله من أجلك؟... لا شيء تجدين أنه غير سليم في وضعك).

قالت «غدرون» : (ما عدا كونكم كرماء أكثر من اللازم حيالي).

قال وقد شعر بشيء من الاعتزاز لإلقائه هذا الخطاب: (آه، حسن، اللوم عليك في ذلك). كان لا يزال عائشاً، وجدَّ قوي! بيد أن جيشان الموت طفق يتسلل إليه ثانية، في ردة فعل.

قفلت «غدرون» راجعة إلى «وينيفرد». كانت (المدموازيل) قد رحلت، وظلت في (شورتلاندز) مدة طويلة، وجاء مدرس ليواصل تعليم «وينيفرد» لكنه لم يسكن في الدار لارتباطه بالمدرسة الثانوية.

ذات يوم تقرر أن تذهب «غدرون» إلى المدينة بالسيارة، ومعها «وينيفرد» و «جرالد» و «بركن». كان يوماً معتماً، تتخلله زخات مطر. استعدت «وينفيرد» و«غدرون» وانتظرتا عند الباب. كانت «وينيفرد» ساكنة جداً، بيد أن «غدرون» لم تلحظ ذلك. وعلى حين غرة، سألت الطفلة بصوت غير مبال.

ـ (أو تعتقدين يا آنسة «برانغوين» أن أبي سيموت قريباً؟).

جفلت «غدرون»، وأجابت: (لا أدري).

ـ (ألا تعلمين حقاً؟).

ـ (لا أحد يعلم على وجه اليقين. إنه قد يموت، هذا طبيعي).

فكرت الطفلة ملياً بضع لحظات، ثم سألت:

ـ (لكن هل تعتقدين بأنه سيموت؟).

كان ذلك أقرب إلى صيغة سؤال في الجغرافية أو العلوم، وضعته في إصرار كأنها تبغي إقراراً قسرياً من الكبيرة، كانت الطفلة المترصدة المنتصرة بعض الشيء شيطانية تقريباً.

كررت «غدرون»: (هل أعتقد أنا بأنه سيموت؟ أجل، أعتقد ذلك).

بيد أن عيني «وينيفرد» الواسعتين كانتا مسمّرتين باتجاهها، ولم تتحرك الفتاة.

قالت «غدرون» : (إنه مريض جداً).

بانت ابتسامة صغيرة على وجه «وينيفرد»، ماكرةً ، شكوكاً.

أكدت الطفلة ساخرة، وهي تبتعد في الممر: (أنا لا أعتقد بأنه سيموت).

راقبت «غدرون» قوام الطفلة المنعزل، فتوقف قلبها. كانت «وينيفرد» تعبث بساقية ماء في استغراق، كأن شيئاً لم يكن قد قيل.

قالت عبر الحيّز الرطب: (لقد عملتُ سداً مضبوطاً).

قدم «جرالد» متجهاً إلى الباب، من خارج القاعة، الكائنة في الخلف.

قال: (من الخير كذلك أن تختار عدم تصديق ذلك).

نظرت «غدرون» إليه. وتقابلت الأعين، وتبادلا تفاهماً ساخراً.

قالت «غدرون» : (وهو كذلك).

نظر إليها ثانية، فرفّت شعلةٌ في عينيه.

قال: (أفضل شيء هو أن يرقص المرء بينما تحترق روما*، مادام احتراقها لا مناص منه، ألا تظنين كذلك؟).

فوجئت نوعاً ما، لكنها أجابت بعد أن جمعت شتات نفسها:

- (أوه... الرقص خير من العويل. هذا مؤكد).

- (هكذا أعتقد).

شعر الاثنان بالرغبة الخفية في الانطلاق، في قذف كل شيء أشتاتاً، والانغمار في انفلات محض... عنيف، خليع.. واصطخبت في «غدرون» عاطفة خالصة مشبوبة، سوداء، غريبة. وشعرت بالقوة. لقد شعرت بأن يديها أمستا من القوة وكأنها غدت

---

* تعديل للقول المأثور : «غنِّ بينما روما تحترق» ، على أساس أن الإمبراطور الروماني «نيرون» كان يغني أثناء حرق روما بناءً على أوامره . (المترجم) .

تستطيع أن تمزق العالم إرباً إرباً بهما. تذكرت خلاعات الإباحية الرومانية فاضطرم قلبها. كانت تعرف بأنها كانت نفسها تريد هذا هي الأخرى.. أو شيئاً ما.. شيئاً ما يضاهيه. آه، لو أن ذلك المجهول المكبوت في ذاتها ينفلت مرة، لكان حدثاً معربداً، مشبِعاً، حقاً. ذلك ماكانت تريد. وارتجفت قليلاً من قرب الرجل الذي كان واقفاً خلفها مباشرة، موحياً بالإباحية السوداء نفسها التي ثارت في نفسها. كانت تريدها معه... ذلك الجنون غير المعترف به.

وللحظة أشغل بالَها إدراك ذلك على نحو واضح، بيِّن وكامل في حقيقته النهائية. بعدما أوصدت الباب عليه تماماً وقالت:

- (لعل من الأفضل أن نذهب إلى غرفة البواب ونتعقب «وينيفرد». نحن نستطيع ركوب السيارة هناك).

أجاب وهو يصاحبها: (أجل، نستطيع).

وجدا «وينيفرد» في غرفة البواب تبدي الإعجاب بالجراء البيض الخالصة النسب. رفعت الفتاة عينيها، فبدت فيهما نظرة عشواء أقرب إلى الدمامة عندما التفتت إلى «جرالد» و «غدرون». لم تكن تبغي رؤيتهما.

صاحت: (انظرا! ثلاثة جراء جدد! يقول «مارشال»: إن هذا الجرو ممتاز، على ما يبدو. ما ألطَفَهُ! أليس كذلك؟ لكنه ليس في مثل لطافة أمه). والتفتت لتداعب كلبة الصيد البيضاء التي كانت رابضة جنبها، غير مرتاحة.

قالت: (يا أعز عزيزاتي يا ليدي «كريتش»، أنت جميلة مثل ملاك على الأرض.. ملاك... ملاك... ألا تعتقدين يا «غدرون» أن فيها من الطيبة والجمال ما يكفي كي تذهب إلى الفردوس؟ سيكونون في الفردوس، أليس كذلك؟ لاسيما حبيبتي الليدي «كريتش»! يا سيدة «مارشال»!).

قالت الامرأة، وقد ظهرت عند الباب: (نعم يا آنسة «وينيفرد» ؟).

- (أوه، أؤكد عليك أن تسمي هذه ليدي «وينيفرد»، إذا ما أضحت ممتازة، رجاءً، ولا تنسي أن تخبري «مارشال» أن يسميها ليدي «وينيفرد»).

- (سأخبره... لكنني أخشى أن يكون هذا جرواً سيداً، يا آنسة «وينيفرد»).

- (أوه، كلا)، وسمعوا صوت سيارة.

صاحت الطفلة: (هاهو ذا «روبرت»!)، ثم جرت نحو البوابة.

أوقف «بركن» السيارة أمام البوابة.

هتفت «وينيفرد»: (نحن مستعدون! أريد أن أجلس معك في الأمام يا «روبرت». هل تسمح لي بذلك؟).

قال: (أخشى ألا تستقري فتسقطي).

- (كلا، لن أفعل ذلك. إني متلهفة للجلوس في الأمام بجانبك، إن ذلك يجعل قدميَّ تشعران باللطف والدفء بتأثير المحرك).

ساعدها «بركن» في الصعود وقد أمتعه إجلاس «جرالد» بجانب «غدرون» في داخل السيارة.

وإذ اندفعوا في الطرقات صاح «جرالد»: (هل من أخبار، يا «روبرت»؟).

هتف «بركن»: (أخبار؟).

نظر «جرالد» إلى «غدرون» الجالسة بجانبه وقال لها، وعيناه تتضاحكان قليلاً:

- (نعم، أريد أن أعرف إن كان يجب أن أهنئه، بيد أنني لا أستطيع أن أظفر بأي شيء منه).

احتقن وجه «غدرون» احتقاناً غامقاً وقالت في تحدٍ:

- (تقصد مع «أرسيولا»؟).

- (أجل، هو ذاك، أليس كذلك؟).

قالت «غدرون» ببرود: (لا أعتقد بأن هناك أية خطوبة).

فصاح: (هل هو كذلك؟ هل من تطورات حتى الآن، يا «روبرت»؟).

- (أين؟ زيجية؟ كلا).

هتفت «غدرون»: (ما معنى ذلك؟).

فألقى «بركن» نظرة عجلى حوله. كان ثمة امتعاض في عينيه كذلك.

أجاب: - (لماذا؟ ما رأيك في ذلك، يا «غدرون»؟).

صاحت: (أوه) وقد حزمت أمرها على أن تلقي بحجرها في البركة* هي الأخرى

---

* أن تنضمّ إلى الفوضى. (المترجم).

مادام قد بدأ...(لا أعتقد أنها تريد خطوبة. لاشك أنها طير يفضل الأجمات)*. كان صوت «غدرون» صافياً، جرسياً، ذكّر «روبرت» بصوت أبيها، الجهير، الرنان جداً.

قال «بركن»، ووجهه متعابث لكنه مصمم: (وأنا، أنا أريد عقداً ملزماً، ولستُ ولوعاً بالحب، ولاسيما الحب الطليق).

سرّ الاثنان. علام هذه المجاهرة العلنية؟ بدا «جرالد» متوقفاً لحظة، وهو يستمتع. ثم هتف:

- (ألا يجديك الحب، بما فيه الكفاية؟).

صاح «بركن»: (كلا).

قال «جرالد» : (ها، حسن، ذلك لأنك مفرط التهذب). ومضت السيارة موغلة في الوحل.

التفت «جرالد» إلى «غدرون» وقال: (ما خطبك، حقاً؟؟) كان هذا ادعاءً لنوع من الألفة أغاظ «غدرون» حد الإهانة تقريباً، وبدا لها أن «جرالد» كان يهينها عن عمد، منتهكاً خصوصية الجميع.

قالت بصوتها العالي، المنكر: (ما الخبر؟ لا تسألني!... أؤكد لك أني لا أعرف أي شيء عن الزواج النهائي، أو حتى قبل النهائي).

أجاب «جرالد»: (فقط الصنف العادي الذي لا مسوّغ له! هكذا هو... الشيء نفسه هنا. لست خبيراً في الزواج ودرجات الانتهاء. يلوح كأنه نحلة تطن طنيناً عالياً في قبعة «روبرت»).

- (تماماً! لكن هذه هي مشكلته تماماً! فبدلاً من أن يريد امرأة لذاتها، يريد أن تتحقق أفكاره. وهذه، حيث تأزف ساعة التطبيق الفعلي، ليست مجدية بالقدر الكافي).

- (أوه، كلا، الأحسن أن يسعى المرء مباشرة وراء ماهو نسائي في النساء، كالثور المنطلق صوب بوابة). ثم بدا يومض في ذاته، وسأل:

- (أنت تعتقدين بأن الحب هو عين الصواب، أليس كذلك؟).

جاء صوت «غدرون» صاراً يعلو فوق الجلبة:

---

* في تناقض مع المثل السائر «طير في اليد خير من عشرة على الشجرة» . (المترجم) .

ـ (هذا أكيد، مادام باقياً... غير أنك لا تستطيع أن تصر على دوامه).

ـ (بالزواج، أو من غير الزواج، نهائي أو شبه نهائي، أو بين بين لا غير... خذي الحب كما تجدينه).

رددت: (كما تشاء، أو كما لا تشاء. إن الزواج ترتيب اجتماعي، كما أحسب، ولا شأن له بمسألة الحب).

كانت عيناه ترفرفان عليها طيلة الوقت. وشعرت كأنه كان يقبلها بانطلاق وخبث، وهذا ما ألهب لون خديها، بيد أن قلبها ظل ثابتاً لا يهون.

تساءل «جرالد» : (أو تظنين أن «روبرت» مخبول بعض الشيء؟).

ومضت عيناها إقراراً.

قالت: (بالنسبة إلى موقفه من المرأة، نعم أعتقد ذلك. ـ ربما هناك شيء من هذا القبيل. شخصان متحابان طيلة حياتيهما، ربما لكن الزواج لن يكون هنا ولا هناك، حتى حينئذٍ، فإذا كانا متحابين، فخير على خير، وإلا، ما جدوى كسر البيض بهذا الشأن؟)*.

قال «جرالد»: (أجل... هذا هو انطباعي عن ذلك. لكن ماذا عن «روبرت»؟).

ـ (لا أقدر أن أفقه الوضع، ولا هو بقادر ولا أي امرئ آخر. يلوح أنه يعتقد أن المرء إذا تزوج ففي وسعه أن يبلغ، بوساطة الزواج، سماءً ثالثة، أو شيئاً ما... وكله على درجة كبيرة جداً من الغموض).

ـ (جداً! ومن ينشد سماءً ثالثة؟ إن «روبرت» يتوق، في واقع الأمر، إلى أن يكون آمناً... أن يربط نفسه بالصاري).

قال «غدرون»: (أجل، يلوح لي أنه على خطأ في هذا كذلك. أنا على يقين من أن الخليلة أقرب إلى الإخلاص من الزوجة... لمجرد كونها سيدة نفسها لا غير. كلا.. إنه يعتقد بأن في مقدور رجل وزوجه أن يمضيا متجاوزين أي كائنين آخرين... لكن، إلى أين... ذلك بلا توضيح. فهما يستطيعان أن يعرف كل منهما الآخر، فردوسياً وجهنمياً، ولكن جهنمياً على الأخص، إلى درجة من الكمال بحيث يتجاوز الفردوس والجحيم... إلى... وهنا يتعطل كل شيء... إلى لا مكان).

---

* بمعنى «لماذا إثارة كل هذه الضجة بهذا الشأن ؟» . (المترجم) .

ضحك «جرالد» قائلاً: (هو يقول: إلى الجنة).

هزت «غدرون» كتفيها مستخفة وقالت: (أنا لا أبالي بجنتك!)*.

قال «جرالد» : (لكونك غير مُسْلمة)**. كان «بركن» جالساً دون حراك، وهو يقود السيارة، غير واعٍ البتة بما قالا. أما «غدرون» التي كانت جالسة وراءه مباشرة فقد شعرت بضرب من الاستمتاع الساخر بكشفه ذلك الكشف.

أضافت، بإيماءة ساخرة: (يقول إن في وسعك أن تجد توازناً أبدياً في الزواج، إنْ قبلتَ بالتواصل وأتحتَ لنفسك الانفصال، مع ذلك، دون أن تحاول الاندماج).

قال «جرالد»: (إنه لا يوحي إليَّ بشيء).

قالت «غدرون» : (هو ذاك ، تماماً).

قال «جرالد» : (إني أؤمن بالحب، بالتخلي الحقيقي عن الذات، إنْ كان المرء قادراً عليه).

قالت: (وكذلك أنا).

- (وكذلك «روبرت» هو الآخر.. وإن كان يصرخ على الدوام).

قالت «غدرون» : (كلا... لن يتخلى عن نفسه للشخص الآخر. أنت لا تستطيع أن تكون متأكداً منه... هنا المشكلة، على ما أحسب).

- (ومع هذا يريد الزواج! الزواج.. وبعد ذلك؟).

سخرت «غدرون» قائلة: (الجنة!)***.

أحس «بركن» وهو يسوق، بتنمل عموده الفقري****، كأن شخصاً ما كان يهدد عنقه. بيد أنه هز كتفيه بلا مبالاة. بدأ المطر يهطل، هو ذا تغيّر ما. أوقف السيارة ونزل لينشر الغطاء*****.

---

* قالت : (أنا لا أبالي) بالفرنسية . (المترجم) .

** في الأصل وردت كلمة «محمَّديَّة» ، التي تستعمل في الغرب أحياناً للإشارة إلى المسلم ، أما تعليق «جرالد» ففيه إشارة إلى مكانة الجنة في الدين الإسلامي . (المترجم) .

*** نطق «جرالد» عبارة (وبعد ذلك ؟) و «غدرون» ، كلمة (الجنة!) بالفرنسية . (المترجم) .

**** معنى التشبيه : أحس بتوجس . (المترجم) .

***** سقف السيارة القابل للطّي ، على النحو الشائع في سيارات ذلك الزمن . (المترجم) .

الفصل الثاني والعشرون

امرأة مقابل امرأة

بلغوا المدينة، وتركوا «جرالد» عند محطة القطار، كان من المقرر أن تتناول «غدرون» و «وينيفرد» الشاي مع «بركن» الذي كان يتوقع مجيء «أرسيولا» كذلك. بيد أن «هرمايني» كانت أول شخص أقبل عصراً. كان «بركن» في الخارج. ولذلك دخلت غرفة الاستقبال، وطفقت تنظر في كتبه وأوراقه وتعزف على البيانو. ثم وصلت «أرسيولا»، فاستغربت، متكدرة، حين رأت «هرمايني» التي لم تكن قد سمعت شيئاً عنها منذ مدة.

قالت: (فوجئت بمرآك).

قالت «هرمايني»: (نعم، كنت مسافرة إلى «أكس»...)*.

- (أوه، بسبب صحتك؟).

- (أجل).

رنت كلّ من الامرأتين إلى الأخرى. عافت نفس «أرسيولا» وجه «هرمايني» الطويل، الجليل، المتعالي. كان فيه شيء من غباء الحصان، وتوقّده الجاهل لذاته. تحدثت «أرسيولا» إلى نفسها قائلة: (إن لها وجه حصان... إنها تجري بين غمامتين)**. لقد بدا فعلاً كأن «هرمايني»، كان لعملتها وجه واحد فقط، مثل القمر***. لم يكن ثمة وجه آخر، لقد انبرت تمضي طيلة الوقت في الدنيا الضيقة، لكنْ الكاملة بالنسبة إليها، دنيا الوعي القائم. أما في الظلام فكانت غير موجودة. ومثل

* (اكس - لي - بان) : منتجع صحي وسياحي في إقليم (سافوي) ، جنوب شرق فرنسا . (المترجم) .

** الغمامتان : ما يوضع على عيني حصان لحجب رؤيته . (المترجم) .

*** المقصود : إنها أُحادية النظرة إلى الحياة . (المترجم) .

القمر، كان نصفها ضائعاً إلى الأبد. كانت ذاتها كلها في رأسها، وما كانت تعرف معنى التحرك أو الجري عفوياً، كسمكة في الماء، أو كابن عرس فوق العشب كان لابد لها أن تعرف على الدوام.

غير أن «أرسيولا» لم تحس إلا بالمعاناة من جراء أحادية «هرمايني». لم تحس إلا بدليل وجود «هرمايني» الفاتر الذي كان، على ما بدا، ينزلها منزلة اللا شيء. «هرمايني» التي كانت تتأمل وتتأمل إلى درجة الانهاك من ألم مجهودها الساعي إلى الوعي، وقد تبدّدت أو ارمدّت* في بدنها، والتي ظفرت باستنتاجاتها المعرفية النهائية العقيمة بتلك الدرجة من البطء والمجاهدة. «هرمايني» هذه كانت قادرة في محضر النساء الأخريات، اللواتي كانت لا ترى فيهن سوى الأنثى، بكل بساطة، على أن ترتدي استنتاجات يقينها المرّ كما ترتدي الجواهر، التي كانت تضفي عليها امتيازاً لا ريب فيه، وتوطّدها في مرتبة أسمى من مراتب الحياة. كانت قادرة ذهنياً على أن تتنازل لنساءٍ من مثل «أرسيولا» التي كانت تعدها عاطفية كلياً. مسكينةٌ «هرمايني»، كان يقينها الأليم هذا ملكها الوحيد، مسوّغها الفريد. لابد لها من أن تكون واثقة هنا. ذلك أنها، يعلم الله، كانت تشعر بأنها منبوذة وقاصرة بما فيه الكفاية في مواضع أخرى. أما في الحياة الفكرية والروحية فكانت واحدة من الصفوة.

كانت تنشد أن تكون كليّة. لكنْ كان ثمة ارتياب مدمّر في قرارة ذاتها. ذلك أنها لم تكن تؤمن بكلّياتها نفسها ـ فتلك كانت زائفة... لم تكن تؤمن بالحياة الروحية ـ فتلك كانت خدعة، ولم تكن حقيقية، لم تكن تؤمن بالعالم الروحاني فذلك كان تصنعاً وافتعالاً. وكملاذ أخير، آمنت بـ«مامون»**، لحماً، وشيطاناً ـ هذان، في الأقل، لم يكونا زائفين. كانت كاهنة بلا معتقد. بلا إيمان راسخ، أُرضِعَتْ عقيدة بالية وحُكَمِ عليها بتكرار غوامض لم تكن إلهية في نظرها. ومع ذلك ما كان ثمة مفر. كانت ورقة على شجرة ميتة. أيُّ ملاذٍ، إذاً، كان هناك سوى في مواصلة الكفاح من أجل الحقائق البالية العتيقة، والموت في سبيل الإيمان المتهرئ العتيق، وأن تكون كاهنة مقدسة

---

* ارمدّت : غدت رماداً . (المترجم) .

** «مامون» : شيطان الجشع ، أو إله الثراء الدنيوي . (المترجم) .

معصومة، لغوامض مدنَّسة؟ إن الحقائق القديمة العظيمة كانت حقيقية، وكانت هي ورقة في شجرة المعرفة القديمة العظيمة، الآيلة إلى الذبول الآن، وعليه، لابد لها من أن تكون مخلصة للحقيقة القديمة الأخيرة، حتى ولو كان هناك ارتياب واستخفاف في قرارة روحها .

قالت لـ «أرسيولا» بصوتها المتمهل الذي كان يشبه التعويذ:

ـ (لشدّ ما يسرني لقياك. لقد أصبحت أنت و «روبرت» صديقين تماماً؟).

قالت «أرسيولا» : (أوه، أجل. إنه دائماً في مكان ما في الخلفية).

توقفت «هرمايني» قبل أن تجيب. لقد لحظت جيداً تبجّح الامرأة الأخرى، وبدا لها ذلك مبتذلاً حقاً.

قالت ببطء وبمنتهى الرصانة: (هل هو كذلك؟ وهل تعتقدين أنكما ستتزوجان؟).

كان السؤال من الهدوء والاعتدال، من البساطة والصراحة العارية والنزاهة، بحيث فاجأ «أرسيولا» نوعاً ما وفتنها، لقد سرّها كما تسر اللئامةُ تقريباً. كان في «هرمايني» شيء من المفارقة، العارية، البهيجة.

أجابت «أرسيولا»: (حسن. هو الذي يريد ذلك كثيراً. لكنني لست متأكدة كل التأكد).

راقبتها «هرمايني» بعينين هادئتين، متمهلتين، ولاحظت هذا التعبير الجديد من التبجح. كم حسدت «أرسيولا» على تلك الإيجابية غير الواعية! بل حتى على ابتذالها!

سألت بنبرتها الرتيبة الرخية: (لماذا أنت غير متأكدة؟).. كانت مرتاحة تماماً، بل لعلها مبتهجة لهذا الكلام: (ألا تحبينه حقاً؟). احتقن وجه «أرسيولا» قليلاً بسبب الوقاحة الطفيفة التي انطوى عليها هذا السؤال. ومع ذلك، ما وسعها أن تستاء على وجه اليقين. لقد بدت «هرمايني» صريحة على نحو جد هادئ، جدّ رشيد، وعلى أية حال، كان من العظمة، تقريباً، أن يتمكن المرء أن يكون بمثل هذا الرشاد.

أجابت: (يقول: إن ما ينشده هو ليس الحب).

ـ (ماهو إذاً؟). كانت «هرمايني» متأنية، متزنة.

ـ (في الواقع، إنه يريدني أن أقبل به زوجاً).

سكتت «هرمايني» بعض الوقت، ترقب «أرسيولا» بعينين متأملتين، متأنِّيتين. قالت بعد لأي، على نحو يخلو من التعبير: (صحيح؟). ثم أفاقت قائلة: (وما الذي لا تريدين؟ ألا تريدين الزواج؟).

ـ (كلا... لا أريد... ليس في الواقع. أنا لا أريد منحه ذلك الضرب من الخضوع الذي يصر عليه... يريدني أن أستسلم.. وأنا، بكل بساطة، لا أشعر أن في مقدوري أن أفعل ذلك).

مرة أخرى، ساد الصمت طويلاً، قبل أن تجيب «هرمايني»:

ـ (كلا، إذا كنت لا تريدين ذلك). ران صمت آخر، ارتعدت «هرمايني» برغبة غريبة. آه، لو كان قد سألها هي أن تخنع له، أن تكون أَمَتَهُ! ارتعدت رغبةً.

ـ (المسألة هي أنني لا أستطيع..).

ـ (لكن ، ماذا، تحديداً...؟).

لقد بدأتا معاً فجأة، وتوقفتا معاً. ثم أردفت «هرمايني» كما لو كانت متعبة، على أساس أن لها الأسبقية في الكلام.

ـ (إلى أي شيء يريدك أن تخضعي؟).

ـ (يقول:إنه يريد مني أن أقبله نهائياً، وبصورة غير انفعالية.. في الحقيقة أنا لا أعرف ماذا يعني. يقول إنه يريد تزاوجَ الجزء الشيطاني من ذاته... بدنياً... وليس الكائن البشري. المسألة هي أنه يقول شيئاً ذات يوم، وآخر في اليوم التالي... إنه يناقض نفسه على الدوام).

قالت «هرمايني» على مهل: (ويفكر دائماً بنفسه، وبما لا يرضيه شخصياً).

صاحت «أرسيولا»: (نعم، كأنه هو الوحيد الذي يخصه الأمر، وهذا ما يجعل الأمر مستحيلاً إلى حد بعيد).

بيد أنها طفقت تتراجع على الفور. استأنفت كلامها قائلة:

ـ (إنه يصر على أن أقبل بما يعلم الله أنه فيه. يريدني أن أقبله، ك .. كشيء مطلق... لكن يلوح لي أنه لا يريد أن يعطي أي شيء. وهو لا يريد إلفة حقيقية دافئة.. لا، لن يريدها.. إنه يرفضها، إنه لا يدعني افكر، في الواقع، لا يدعني أحس... فهو يكره الأحاسيس).

ران صمت طويل الأمد، مُرّ بالنسبة إلى «هرمايني»، آه لو كان قد طلب إليها هذا الطلب. لقد دفعها، هي، إلى داخل التفكير دفعاً، دفعها إلى المعرفة على نحو لا هوادة فيه.. ثم لعنها على ذلك.

أردفت «أرسيولا» قائلة: (يريد مني أن أطمس ذاتي، وأتخلى عن أي كيان خاص بي...).

قالت «هرمايني» بتنغيمها الهادئ: (لماذا لا يتزوج، إذاً، محظيةً من محظيات الحريم، إذا كان ذلك مبتغاه؟). كان مظهر وجهها ساخراً مسروراً.

قالت «أرسيولا» بغموض: (نعم). كان الشيء المتعب، على أية حال، إنه لم يرد محظية! لم يرد أمّة.. كان يمكن أن تكون «هرمايني» أَمَتَه.. إذا كانت فيها رغبة فظيعة في أن تجثو أمام رجل... إنما رجل يعبدها، ويعترف بأنها الشيء الأسمى، لم يرد محظية، كان يبغي امرأة تأخذ شيئاً ما منه، وتسلّم نفسها إلى درجة تمكّنها من أن تستخلص آخر حقائقه، آخر الوقائع، آخر الوقائع البدنية، بدنية وعصيّة على التحمل.

ولو كانت فعلت ذلك، هل كان سيعترف بها؟ هل كان سيعترف بها من خلال كل شيء، أم أنه كان سيستخدمها أداةً له حسب، يسخّرها مرضاةً لنفسه هي، دون أن يعترف بها؟ ذلك ما كان قد فعله الرجال الآخرون. كانوا ينشدون غرضهم هم، دون الاعتراف بها، محيلين كل ما كانت تمثله إلى لا شيئية. تماماً مثلما كانت «هرمايني» تخون نفسها الآن، كانت «هرمايني» تشبه الرجل، تؤمن بأمور الرجال: فقد خانت المرأةَ في نفسها، و «بركن» هل سيعترف بها، أم أنه سينكرها؟

قالت «هرمايني»، وقد استفاقت كلّ منهما من شرودها الحالم الخاص بها:

- (اجل، سيكون من الخطأ... أعتقد بأنه سيكون من الخطأ...).

تساءلت «أرسيولا»: (الزواج منه؟).

قالت «هرمايني» متمهلة: (نعم... أعتقد بأنك تحتاجين إلى رجل... قوي الإرادة، له بأس الجندي...). مدت «هرمايني» يدها، وضمّتها بشدّة منفعلة. (أولى بك أن يكون لديك رجل كالأبطال القدامى.. يلزمك الوقوف خلفه، وهو ذاهب إلى المعركة.. تلزمك رؤية قوته، وسماع صيحته... إنك في حاجة إلى رجل قوي بدنياً، وفحل في إرادته.. وليس رجلاً حساساً). حدث توقف كأن الكاهنة قد نطقت حكمتها.

والآن واصلت المرأة بصوت أتعبه الانفعال: (وتلاحظين أن «روبرت» ليس هذا، ليس كذلك. إنه واهن الصحةِ والجسم، ويحتاج إلى عناية كبيرة، كبيرة، ثم إنه جدّ متقلب وغير متأكد من نفسه.. إن مساعدته تتطلب أعظم الصبر والتفهم. ولا أحسب أنك صبورة، ولسوف يتعين أن تتهيئي للمعاناة، على نحو فظيع، ليس في مقدوري أن أقول لك كم يتطلب إسعاده من المعاناة، إنه يحيا حياة روحانية جداً في بعض الأحيان.. مدهشة جداً، جداً، وبعد ذلك تترى ردود الفعل. لا يسعني أن أتحدث عما عانيته معه. لقد لبثنا معاً مدة طويلة بحيث غدوت أعرفه حق المعرفة. إني أعرف ماهو حق المعرفة، وأشعر أن علي أن أقول ذلك. إني أشعر بأن زواجك منه سيكون نكبة كبرى لك... لكِ حتى بقدرٍ أكبر منها له).

ثم عادت «هرمايني» فاستغرقتها مُرُّ الهواجس: (إنه غير واثق، غير مستقر، جداً... يكلّ ثم يرتدّ، لا أستطيع أن أخبرك عن ردود فعله، لا أستطيع أن أخبرك عن المعاناة منها، فذلك الذي يؤكده ويحبه يوماً.. يرتدّ عليه بعد قليل في سورة غضب مدمر، إنه لا يستقر على حال أبداً. ثمة رد الفعل الفظيع، المريع هذا ـ دائماً التحوّل السريع من الحسن إلى السيئ، ومن السيئ إلى الحسن ـ ولا شيء مدمِّر يعادل هذا... لا شيء...). قالت «أرسيولا» بتواضع: (أجل، لابد أنكِ قد عانيتِ).

بان على وجه «هرمايني» نور غير دنيوي، وضمّت يدها كمن جاءه وحي.

ـ (وعلى المرء أن يتقبل المعاناة.. يتقبل المعاناة من أجله ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم... إن كنت ستساعدينه وإذا بقي مخلصاً لأي شيء، أصلاً).

قالت «أرسيولا»: (وأنا لا أريد أن أعاني ساعة إثر ساعة ويوماً إثر يوم، لا أريد ذلك، وإلا فسأشعر بالعار، أحسب أنه لما يحطّ من القَدْرْ ألا يكون المرء سعيداً).

توقفت «هرمايني»، ورَنَتْ إليها فترة طويلة.

أخيراً قالت: (صحيح؟)، وبدا هذا القول لها مؤشراً إلى بُعْد المسافة بينها وبين «أرسيولا». ذلك أن المعاناة كانت بالنسبة إلى «هرمايني» أعظم الحقائق، وليكن ما يكون. ومع ذلك فقد كانت عندها هي الأخرى عقيدة للسعادة.

قالت: (أجل، حريّ بالمرء أن يكون سعيداً...) لكن المسألة كانت مسألة إرادة.

قالت: «هرمايني» وقد فتر تركيزها الآن: (نعم، لا أستطيع سوى الإحساس بأن

الزواج منه، المستعجل في الأقل، سيكون جلّاباً للمصائب، ألا يمكنكما أن تكونا معاً دون زواج؟.. ألا يمكنكما أن ترحلا وتعيشا في مكان ما، دون زواج؟ أشعر فعلاً بأن الزواج سيكون قتّالاً لكليكما.. كما أعتقد بأن وقعه سيكون أكثر عليك منه عليه.. كما أنني أفكر في صحته...).

قالت «أرسيولا»: (طبيعي. أنا لا أهتم بالزواج.. فهو ليس مهماً حقاً بالنسبة إلي.. إنه هو الذي يريده).

قالت «هرمايني» بتلك النهائية الكليلة، وبنوع من عصمة «آه لو عرف الشباب»*: (إنها فكرته في اللحظة الراهنة).

كان ثمة توقف، ثم انفجرت «أرسيولا» تتحدث في تحدٍّ متعثر:

- (أنت تعتقدين بأنني مجرد امرأة جسدية، أليس كذلك؟).

قالت «هرمايني»: (كلا، قطعاً، كلا، قطعاً! لكنني أعتقد بأنك ذات حيوية وشباب... ليست القضية قضية سنين - بل ولا حتى خبرة... إنها تكاد أن تكون قضية عرق. «فروبرت» متأصل العرق.. جاء من عرق قديم. أما أنت فتبدين في عز الشباب.. جئت من أحد الأعراق الشابة، الغرّة). قالت «أرسيولا»: (صحيح! لكنني أظن أنه صغير السن جداً، من ناحية).

- (نعم.. ربما... صبياني من نواح عدة ومع ذلك..). ران صمت على كلتيهما. كانت «أرسيولا» قد امتلأت بالامتعاض وبشيء من القنوط. تحدثت إلى نفسها، مخاطبة خصمها بصمت: (ليس صحيحاً... ليس صحيحاً.. أنت التي تريدين رجلاً قوي البدن، متنمراً، وليس أنا، أنت التي تريدين رجلاً عديم الإحساس، وليس أنا. أنت لاتعرفين أي شيء عن «روبرت» في الواقع، على الرغم من صحبة السنين معه. أنت لا تهبينه حب المرأة، بل حباً مثالياً، ومن أجل ذلك تكون ردة فعله الإشاحة عنك.. أنت لا تعلمين.. تعرفين الأشياء الميتة فقط. أية خادمة مطبخ قد تعرف شيئاً ما عنه. أما أنت فلا تعرفين. ماهي معرفتك، كما تظنين، سوى إدراك ميتٍ لا يعني شيئاً. أنت جدّ زائفة، وغير صادقة، فكيف يمكنك أن تعرفي أي شيء؟.. ما جدوى

* وردت العبارة بالفرنسية، وهي نصف المثل القائل: «آه لو عرف الشباب، آه لو استطاع المشيب»، بمعنى أن للشباب القدرة، لا الحكمة، على إتيان ما لا يستطيعه المشيب. (المترجم).

كلامك عن الحب... أنت يا طيف امرأة زائفة؟... كيف يمكنك أن تعرفي أي شيء حين يعوزك الإيمان؟... أنت لا تؤمنين بذاتك ولا بأنوثتك أنت، فما جدوى نباهتك الضحلة، المتكبرة...!).

لبثت الامرأتان جالستين في صمت عدائي. لقد شعرت «هرمايني» بالألم لأن كل نواياها الطيبة وكل عروضها لم تفضِ إلا إلى ترك الامرأة الأخرى في عداء مبتذل. ثم إن «أرسيولا» ماكانت لتستطيع أن تدرك ولن تدرك قط، ولم تستطع قط أن تزيد عن كونها الأنثى الغيرى، اللاعقلانية الاعتيادية، مع قدر كبير من العاطفة الأنثوية الجياشة، والجاذبية الأنثوية، وقدر لا بأس به من الفهم الأنثوي، لكن دون عقل. كانت «هرمايني» قد قررت منذ أمد بعيد بأنه إذا ما غاب العقل، فلا جدوى من مناشدة الرشد والصواب، ولابد للمرء أن يتجاهل الجاهل. أما بشأن «روبرت» فقد أبدى الآن ردة فعل إزاء المرأة الأنانية، المتعافية، الشديدة الأنوثة.. كانت تلك ردة فعله في الوقت الراهن.. ولا مجال لعلاج ذلك البتة. كانت برمتها سلسلة طائشة من ردود الأفعال، تذبذباً عنيفاً سوف يتجاوز عنفُهُ في خاتمة المطاف قدرته على التماسك، فيتهشم ويموت، دون أن يكون ثمة أمل في إنقاذه. ولسوف تستمر فيه ردة الفعل العنيفة هذه، العديمة الاتجاه، بين البهيمية والصدق الروحي، حتى ينشطر شطرين بين الاتجاهين المتعاكسين، ويختفي من الحياة، دون معنى. لا جدوى.. فقد كان هو نفسه بلا وحدة، بلا عقل، في المراحل الختامية للعيش. ماكان رجلاً بما يكفي لأن يكون المصيرَ بالنسبة إلى امرأة.

لبثتا جالستين حتى دخل «بركن» عليهما ووجدهما معاً، وعلى الفور أحس بأن في الجو عدوانيةً، شيئاً متأصلاً لا يطاق، فعضَّ شفته بيد أنه تكلف أسلوباً تمويهياً.

- (مرحباً يا «هرمايني». هل عدت ثانيةً؟ كيف حالك؟).

- (أوه، أحسن، وكيف حالك؟.. أنت لا تبدو متعافياً..).

- (أوه... أعتقد أن «غدرون» و «وينيفرد كريتش» قادمتان لتناول الشاي. لقد قالتا ذلك، في الأقل... سنقيم حفلاً لتناول الشاي، بأي قطار جئتِ يا «أرسيولا»؟).

كان من المزعج بعض الشيء رؤيته وهو يحاول تهدئة كلتا الامرأتين في الوقت عينه. راقبتاه، كلتاهما... «هرمايني» باستياء شديد. وتأسٍّ من أجله، و«أرسيولا»

بنفاد صبر شديد، كان عصبياً، وفي مزاج رائق جداً على ما يظهر، وهو يثرثر حول العموميات التقليدية، لقد دهشت «أرسيولا» وغضبت بسبب الأسلوب الذي كان يتحدث فيه أحاديث تافهة، كان ماهراً كأي شخص في دنيا المسيحيين. انْشَدَّت تماماً ولم تشأ الإجابة. لقد بدا لها كل شيء جد زائف، جد مهين، أما «غدرون» فلم تظهر بعد.

أخيراً، قالت «هرمايني» : (أظن أنني سأذهب إلى «فلورنس» لقضاء الشتاء هناك).

أجاب: (حقاً؟.. لكن الجو شديد البرودة هناك).

- (أجل، لكنني سأمكث مع «بالسترا»*. ذلك مريح جداً).

- (ما الذي يجعلك تذهبين إلى «فلورنس»؟).

قالت «هرمايني» ببطء: (لا أدري)، ثم رنت إليه بتحديقتها البطيئة الثقيلة: (سيفتح «بارنز» مدرسة الجماليات الخاصة به، وسيلقي «أولاندين» سلسلة أحاديث حول السياسة الوطنية الإيطالية...).

قال: (كلتاهما سخافة).

فقالت «هرمايني» : (كلا، لا أعتقد ذلك).

- (بأيهما أنت معجبة، إذاً؟).

- (أنا معجبة بكليهما، فـ «بارنز» رائد. ثم إنني معنية بإيطاليا، في بلوغها الوعي القومي).

قال «بركن»: (أتمنى، إذاً، لو أنها تعكف على شيء غير الوعي القومي خصوصاً وأن ذلك لا يعني سوى ضرب من الوعي التجاري - الاقتصادي، إني أكره إيطاليا وتبجحها القومي، وأعتقد بأن «بارنز» من الهواة).

ظلت «هرمايني» صامتة بضع لحظات، في حالة عدائية، لكنها، مع ذلك، هاقد استعادت «بركن» إلى دنياها! ما أدهى نفوذها، فقد بدت وكأنها قد حرّكت اهتمامه المستفز باتجاهها هي حصراً في بحر دقيقة واحدة. لقد غدا مخلوقها هي.

* اسم الدوقة الإيطالية التي ورد ذكرها في الفصل الثامن. (المترجم).

قالت: (كلا. أنت مخطئ). ثم استولى عليها نوع من التوتر، وأعلت وجهها كالعرّافة التي أوحي إليها بالحكم، ثم مضت تتكلم بنبرة منفعلة: («ساندرو» كتب لي بأنه قد لقي استقبالاً حماسياً، وإن كل الشباب والصبايا والأطفال...)*. واستمرت تتحدث بالإيطالية، كأنها كانت تفكر بالإيطالية عندما كانت تفكر بالإيطاليين.

أنصت إلى معزوفتها الانفعالية بشيء من النفور، ثم قال:

ـ (ومع كل ذلك، لا أحبها، فقوميتهم عبارة عن تصنيع، حسب.. ذلك مع غيرة ضحلة أكرهها كراهية شديدة).

قالت «هرمايني»: (أعتقد أنك على خطأ.. أعتقد أنك على خطأ.. فهي تبدو لي عفوية، لطيفة، عاطفة الإيطالي العصري المشبوبة... ذلك أنها عاطفة بالنسبة إلى إ يطاليا... «ليتاليا»**).

سألت «أرسيولا» «هرمايني»: (هل تعرفين إيطاليا جيداً؟).كانت «هرمايني» تكره أن تقاطع بهذا الأسلوب، ومع هذا أجابت بلطف:

ـ (أجل، أ عرفها جيداً، نوعاً ما قضيت سنوات عدة من صباي هناك، مع والدتي. لقد ماتت والدتي في «فلورنس»).

ـ (أوه).

كان ثمة صمت مؤلم بالنسبة إلى «أرسيولا» وإلى «بركن». أما «هرمايني» فبدت مستغرقة وهادئة. كان «بركن» قد ابيضَّ لونه واضطرمت عيناه كما لو كان محموماً. لقد أضناه الإنهاك جداً. ما أشد معاناة «أرسيولا» في جو الإرادات المجهدة المتوتر هذا! فكأن رأسها قد قيدته أطواق من حديد.

دق «بركن» الجرس لإحضار الشاي، فما عادوا يستطيعون انتظار «غدرون». وحين فُتحَ الباب، دخل القط. نادت «هرمايني» بنغمتها الرتيبة البطيئة المتأنية: (ميتشيو! ميتشيو!)***. التفت القط لينظر إليها، ثم تقدم إلى جانبها بمشيته المتمهلة الجليلة.

---

* نطقت هذه الجملة بالإيطالية. (المترجم).

** إيطاليا، باللغة الإيطالية. (المترجم).

*** بالإيطالية، ومعناها «قطة» على النحو الذي يستعملها الأطفال عند مخاطبة قطة ما. (المترجم).

ـ (تعال... تعال إلى هنا)*.

تحدثت «هرمايني» بصوتها الغريب، الملاطف، الحاني، كما لو كانت هي الأكبر سناً دائماً، رئيسة للراهبات. (تعال وقل صباح الخير لعمتك هل تتذكرني؟ تتذكرني جيداً؟ أليس كذلك، أيها الصغير؟ أصحيح أنك تتذكرني؟ أصحيح؟)**. وعلى مهل دعكت رأسه.. على مهل وبدون مبالاة، ساخرة. قالت «أرسيولا»: (هل يفهم الإيطالية؟). كانت تجهل اللغة تماماً. فقالت «هرمايني» بعد لأي: (أجل كانت أمه إيطالية. وقد وُلِدَتْ في سلة المهملات في «فلورنس» صباح عيد ميلاد «روبرت» فكانت هدية عيد ميلاده).

جيء بالشاي وصبه «بركن» لهما. كم غريبة كانت تلك الألفة المنيعة التي كانت قائمة بينه وبين «هرمايني». لقد شعرت «أرسيولا» بأنها دخيلة. حتى أكواب الشاي نفسها والفضيات القديمة كانت رباطاً يربط بين «هرمايني» و «بركن». لقد بدا ذلك منتمياً إلى عالم ماض، قديم، كانا قد عاشاه معاً، وكانت «أرسيولا» غريبة فيه. فكأنها كانت من حديثي النعمة في وسطهما القديم المثقف. فمعتقدها كان غير معتقدهما، ومقاييسهما كانت غير مقاييسها. فما يخصّهما كان وطيداً، شرّفه العصر وأقرّه. كان هو وهي، «بركن» و «هرمايني»، شخصين من التقليد القديم نفسه، الثقافة الذابلة، المحتضرة نفسها. أما هي، «أرسيولا»، فكانت دخيلة. وهذا ما كانا يجعلانها تشعر به على الدوام.

صبت «هرمايني» قليلاً من القشدة في صحن القدح. كان اليسر الذي كانت تمارس به حقها في غرفة «بركن» يجنن «أرسيولا» ويخمد همتها. كان يوحي بجبرية، كان ذلك لابد أن يكون. رفعت «هرمايني» القط، ووضعت القشدة أمامه، فأنشب مخلبيه في حافة المائدة، وأحنى رأسه الصغير اللطيف كي يشرب. وأنشدت «هرمايني» قائلة: (بكل تأكيد يتذكر الإيطالية، ثم ينسى لغة ماما)***.

رفعت رأس القط بأناملها الطويلة، البيض، المتمهلة، معيقة إياه عن الشرب،

* نطقت الجملة بالإيطالية. (المترجم).

** ورد هذا الكلام بالإيطالية. (المترجم).

*** نطقت هذه الجملة بالإيطالية. (المترجم).

واضعته تحت سيطرتها. كان ذلك الشيء نفسه على الدوام. بهجة التسلط هذه الت يكانت تظهرها، لاسيما في السيطرة على الكائن الذكر. رمشَ القط متسامحاً، معبراً عن ملل ذكري، ولاحساً شاربيه، ضحكت «هرمايني» ضحكتها القصيرة الغليظة، وقالت: (انظروا، هو ذا الولد الشجاع، كم هو رائع هذا!)*.

كانت تشكل مع القط صورة حية، بمثل ذلك الهدوء وتلك الغرابة. كان لها تأثير وطيد، حقيقي، وكانت فنانة اجتماعية من بعض النواحي.

رفض القط النظر إليها، وتجنب أناملها دون اهتمام، وشرع يشرب ثانية، وأنفه نازل إلى حيث القشدة، وقد توازن تماماً فيما كان يلعق مطقطقاً تلك الطقطقة الصغيرة الغريبة.

قال «بركن» : (ليس جيداً تعليمه الأكل على المائدة).

قالت «هرمايني» : (نعم)، موافقةً بسهولة.

ثم عاودت تنغيمها الرتيب القديم، الساخر، الهازل: (يعلمونك أشياء قبيحة، قبيحة)**.

رفعت ذقن الـ «مينو» الأبيض بسبابتها على مهل، تلفت القط الصغير حوله، وعليه سيماء التسامح السامي، وتجنب رؤية أي شيء. ثم سحب ذقنه وشرع ينظف وجهه بمخلبه. أطلقت «هرمايني» ضحكتها الغليظة، مسرورة، وقالت: (أيها الولد الجميل....)***. تقدم القط ثانية، ووضع كفه الأبيض الرقيق على حافة صحن القدح، فرفعته «هرمايني» ببطء رقيق، إن تلك الحركة المعتنية، المتأنية، الرقيقة ذكرت «أرسيولا» بـ «غدرون».

- (كلا! غير مسموح وضع مخلب القط في الصحن. بابا لا يعجبه ذلك. إن السيد القط وحشي بهذه الدرجة...!)****. قالت ذلك وهي مستبقية إصبعها على مخالب القط الناشبة برفق، وكان صوتها يشي بالنبرة المشاكسة النزوائية المرحة، عينها.

---

* ورد هذا الكلام بالإيطالية (المترجم).

** نطقت الجملة بالإيطالية (المترجم).

*** ورد هذا الكلام بالإيطالية (المترجم).

**** ورد هذا الكلام بالإيطالية (المترجم).

لقد طفح كيـل «أرسيـولا» وأرادت أن ترحل فـوراً، إذ بدا كل شيء عديم الجدوى. لقـد استـقـر الوضع لـ «هرمـايني» إلى الأبد، أمـا هي فكانت طارئـة، بل إنهـا لم تـوجد بعـد. قالت على حين غـرة: (سـأمضي الآن). نظر «بركن» إليـهـا بما يشبـه الخوف.. كان يخشى غضبها إلى حد كبير، وقال:

- (لكن لا داعي لمثل هذه العجلة).

أجابت: (بلى، إني ذاهبة)، ثم التفت إلى «هرمايني»، وقـبل أن يتهيـأ وقت لمزيد من الكلام مدت يدها وقالت: (إلى لقاء).

أنشـدت «هرمـايني» وهي تسـتـبـقي اليـد:(إلى لقـاء... هل لابد لك من الذهاب الآن، حقاً؟). قالت «أرسيولا» ، وقد استقر وجهها وتحاشى عيني «هرمايني»:

- (نعم، أحسب أنني ذاهبة).

- (أو تظنين ذلك؟).

بيد أن «أرسيولا» كانت قد حرّرت يدها، التفتت إلى «بركن» قائلة: (إلى لقاء) بسرعـة، وبما يقرب من الاستـهزاء، وفـتـحت البـاب قـبل أن يتـسنى له وقت ليـفعل ذلك نيابة عنها.

وحين بلغت خارج الدار، جرت في الطريق في انفعال وغضب. لقد كان غـريباً ذلك الغـضب اللاعـقـلاني وذلك العنف اللذان كـانت «هرمـايني» قد أثارتـهـمـا فـيـهـا بمجـرد حضورها. كـانت «أرسيولا» تعرف إنهـا كشفت نفسـها أمام المرأة الأخرى. كـانت تعرف أنهـا قد ظهـرت بمظهـر سيـئة التنشـئة، المغـاليـة، الخرقـاء، لـكنهـا لم تبـال بل مضت تجري في الطريق، لئلا ترجع وتسـخر في وجـهي الاثنين اللذين تركـتـهـمـا خلفـهـا. فـقـد أثاراها وأساءا إليها.

الفصل الثالث والعشرون

استطراد

في اليوم التالي، سعى «بركن» للخروج مع «أرسيولا»، وصادف أن كان ذلك اليوم ذا نصف دوام في المدرسة الثانوية. ظهر في الساعات الأخيرة من الصباح وسألها إن كانت تود أن تخرج معه عصراً في السيارة، فوافقت. لكن وجهها كان مغلقاً لا يستجيب، فغاص قلبه.

كان جو العصر لطيفاً وغائماً. كان يقود السيارة وقد جلست بجانبه، لكن وجهها ظل مغلقاً حياله، غير مستجيب، وحين كانت تغدو هكذا، كجدار مقام دونه، كان قلبه ينكمش.

لقد بدت حياته الآن متضائلة جداً إلى درجة أنه كاد يكف عن الاهتمام، كلياً. وبدا له، في بعض اللحظات، أنه ما عاد يهتم البتة بما إذا كانت «أرسيولا» أو «هرمايني» أو أي شخص آخر موجوداً أم لا. لِمَ إشغال البال! لِمَ الكفاح من أجل حياة متسقة هنيئة؟ لم لا ننجرف في سلسلة مصادفات.. كما في رواية تشردية؟* لم لا؟ لم إشغال الفكر بالعلاقات الإنسانية؟.. لماذا نأخذهم مأخذ الجد، رجالاً كانوا أم نساءً؟ علام إقامة أية علاقة جدية، أصلاً؟... لم لا نكون عفويين، ننساب انسياباً، آخذين الأمور كلها حسب استحقاقها؟

بيد أنه كان، مع ذلك، ملعوناً، محكوماً عليه بالمجاهدة البالية من أجل العيش الجاد.

قال: (انظري ما اشتريت). كانت السيارة منطلقة في طريق عريض، أبيض، تحف به أشجار خريفية.

---

* رواية تشرّدية أو صعلوكية: نوع من الرواية، إسباني الأصل، يصور حياة المتشردين. (المترجم).

ناولها قطعة صغيرة من ورق ملفوف، فأخذتها وفتحتها.

هتفت: (ما أجملها). تفحصت الهدية. هتفت ثانية: (لكم هي في غاية الجمال!). ثم ألقت سؤالاً مغضباً:

- (لكن لماذا تعطيها لي؟). اضطرب وجهه من انزعاج ملول. هز كتفيه قليلاً، استهجاناً، وقال:

- (قد أردتُ ذلك).

- (لكن لماذا؟ ما الداعي؟). فتساءل:

- (هل مطلوب مني أن أقدم أسباباً؟..). ران عليهما صمت، فيما كانت تتفحص الخواتم التي كانت قد لُفّت في الورقة. قالت:

- (أظن أنها بديعة، لاسيما هذا. هذا مدهش....).

كان «أوبالا»* مدوراً، أحمر نارياً مرصعاً بدائرة من ياقوتات حمر صغار.

قال: (أتفضلين ذلك؟).

- (أظن).

قال: (أحب الصَّفِّير)**.

- (هذا؟).

كان «صفيراً» جميلاً، بشكل الورد، مع ماسات صغار.

قالت:

- (أجل، إنه لطيف). مسكته في الضوء، وأضافت: (بلى، من المرجح أنه الأحسن).

قال: (الأزرق...).

- (نعم، رائع..).

فجأة حرف السيارة بعيداً عن عربة حقل. فجنحت إلى كتف الطريق، كان سائقاً طائشاً، ومع ذلك كان جد سريع، بيد أن «أرسيولا» ارتعبت. دائماً كان فيه شيء من

---

* الأوبال: حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً. (المترجم).

* الصفير: ياقوت أزرق. (المترجم).

اللا مبالاة يُرعِبها. وعلى حين غرة شعرت بأنه قد يقتلها بارتكاب حادثة ما فظيعة، بالسيارة. غدت لحظةً متحجرة من خوف.

سألته: (اليست طريقتك في القيادة خطرة بعض الشيء؟).

ـ (كلا، ليست خطرة). وبعد توقف، أردف:

ـ (ألا تحبين الخاتم الأصفر مطلقاً؟).

كان من حجر «التوباز» المربع الموضوع في إطار من فولاذ، أو من معدن مشابه آخر، مشغولاً بدقة.

قالت: (نعم. أحبه بلا شك. لكن لماذا اشتريت هذه الخواتم؟).

ـ (أردتها. إنها مستعملة).

ـ (اشتريتَها لنفسك؟).

ـ (اشتريتها كي أعطيها لك).

ـ (ولكن ما السبب؟ ينبغي عليك أن تعطيها إلى «هرمايني». ذلك أمر طبيعي. إنك تخصها). لم يجب، لبثت ويدها مغلقة على الجواهر، أرادت أن تجربها على أصابعها. لكن شيئاً ما في داخلها منعها. ثم إنها خشيت أن تكون يداها جدّ كبيرتين فانكمشت من مذلة الفشل في تجربتها على أي إصبع سوى الخنصر. واصلا المضي بالسيارة في صمت خلال الدروب الخالية.

سألت على حين غرة: (أين نحن؟).

ـ (غير بعيد من «وركسوب»).

ـ (وإلى أين نحن ذاهبان؟).

ـ (إلى أي مكان ما).

كان ذلك هو الجواب الذي تحب.

فتحت يدها لتنظر إلى الخواتم، فأبهجتها هذه جداً، وهي متشابكة في كفها: الحلقات الثلاث بجواهرها المنعقدة. كان عليها أن تجربها. ففعلت ذلك سراً، كارهة السماح له برؤيتها، وذلك لكي لا يعرف أن إصبعها كان أكبر من الخواتم. لكنه رأى، مع ذلك. كان يرى دائماً وإن لم ترد ذلك. كانت تلك إحدى سماته الكريهة، المترصدة، الأخرى.

لم يناسب بنصرها سوى «الأوبال» بحلقته السلكية الرفيعة. كانت تؤمن بالخرافات. لا، كان ثمة الكفاية من نذر الشؤم. لن تقبل هذا الخاتم عربوناً منه.

قالت: (انظر) ومدت يدها، التي كانت منكمشة، نصف مغلقة، (البقية لا تصلح لي). نظر إلى الحجر الناعم، الملتمع باللون الأحمر على جلدها الحساس جداً، وقال: (نعم).

قالت ملتاعة: (لكن أحجار «الأوبال» تجلب الشؤم، أليس كذلك؟).

- (كلا. أنا أفضل الأشياء التي لا تجلب السعد. الحظ شيء مبتذل. من يريد ما يجلبه الحظ؟ أنا لا أريد ذلك). ضحكت: (لكن ما السبب؟)

وإذ كانت تتحرق شوقاً لترى كيف يبدو الخاتمان الآخران على يدها، وضعتهما في خنصرها.

قال: (يمكن تكبيرها قليلاً).

أجابت في ارتياب: (نعم)، وتنهدت. كانت تعلم أنها إن تقبلت الخواتم، فقد تقبلت عربوناً، ومع ذلك كان القدر أقوى منها، على ما بدا. عادت تنظر إلى الجواهر. كانت جميلة جداً في نظرها. ليس بوصفها حليةً أو ثروة، بل قطعاً صغيرة من اللطافة.

قالت: (أنا مسرورة لشرائك إياها)، ووضعت يدها برفق على ذراعه، نصف كارهة.

ابتسم ابتسامة خفيفة. كان يريد منها أن تُقْبِل عليه. لكنه في أعماق نفسه، كان غاضباً، غير مبال، كان يعرف أنها شغوفة به، فعلاً، لكن هواها لم يكن مشوّقاً على نحو نهائي. فثمة أعماق في الهوى يغدو المرء فيها غير شخصي ولا مكترث، ولا عاطفي. أما «أرسيولا» فلم تزل عند المستوى الشخصي، العاطفي... دائماً شخصية على نحو فظيع. لقد تقبّلها على نحو لم يسبق أن تلقّاه هو من أحد، قط، لقد تقبلها من جذور ظلامها وعارها - مثل شيطان، يضحك عند نبع الفساد الغامض الذي كان أحد مصادر كينونتها، يضحك ويستهجن، ويقبل، ويقبل قبولاً نهائياً، أما هي، فمتى ستتجاوز ذاتها بحيث تقبله في صميم الموت؟

سعدت الآن تماماً. مضت السيارة قدماً، وكان جو العصر معتدلاً قليل الضياء. تحدثت باهتمام مفعم بالحيوية، محللة الناس وبواعثهم - «غدرون» و «جرالد». كان

يجيبها على نحو مبهم. لم يعد يُعنى كثيراً بالناس وبالشخصيات.. قال: إن الناس كلهم مختلفون، لكنهم مطوَّقون جميعاً في الوقت الراهن بحدّ محدد. لم تبق سوى فكرتين عظيمتين، جَدْ وَلِيْ نشاطٍ عظيمين، مع أشكال منوعة من ردود الفعل، متأتية منهما، وإن ردود الفعل تختلف كلها في مختلف الناس، لكنهم يتبعون بضعة قوانين عظيمة. أما من حيث الجوهر فليس ثمة اختلاف، هناك أفعال وردود أفعال غير إرادية على وفق بضعة قوانين عظيمة. وحالما تُعرف القوانين والمبادئ العظيمة، يفقد الناس صفة الإمتاع الغامض. إنهم متشابهون جميعاً من حيث الجوهر، أما الاختلافات فلا أكثر من تنويعات لنغمة واحدة. لا تتجاوز التنويعةُ الشروطَ الموضوعة.

لم توافق «أرسيولا» على ذلك.. فالناس لا يزالون مثل المغامرة في نظرها... لكن... ربما ليس بالقدر الذي كانت تحاول أن تقنع نفسها به. لعل شيئاً آلياً كان في اهتماماتها الآن. لعل اهتمامها غدا مدمراً، ربما غدا تحليلها تمزيقاً حقيقياً، كان فيها حيز سفلي حيث لا اهتمام بالناس ولا بخصائصهم، ولا حتى بتدميرهم. لقد مَسَّتْ، على ما يبدو، هذا الصمت السفلي في ذاتها، لحظةً، فأمست ساكنة، والتفتت إلى «بركن» برهةً، خالص الالتفات.

قالت: (اليس لطيفاً ذهابنا إلى البيت في الظلمة؟.. قد نتناول الشاي متأخرين قليلاً... هلا فعلنا ذلك؟... ونتناول وجبة مبكرة ألن يكون ذلك لطيفاً نوعاً ما؟).

قال: (وعدت أن أكون في «شورتلاندز» للعشاء).

ـ (لكن... هذا لا يهم... يمكنك الذهاب غداً..). قال بصوت متضايق نوعاً ما: («هرمايني» موجودة هناك. إنها مسافرة في بحر يومين، أحسب أنه ينبغي لي أن أودعها. فلستُ ملاقيها ثانية أبداً). نأت «أرسيولا»، وقد انغلقت في صمت عنيف. عقد حاجبيه، وشرعت عيناه تضطرمان غضباً، مرة أخرى.

سأل محتداً: (أنت لا تمانعين، أليس كذلك؟).

ـ (كلا.أنا لا أهتم. لم يجب علي ذلك؟ لم يجب علي الاهتمام؟). كانت نبرتها ساخرة ومسيئة.

قال: (ذلك هو ما أتساءل عنه. لماذا يجب عليك أن تهتمي! لكن مظهرك يشي بذلك). توتر حاجباه بسخط عارم.

ـ (أؤكد لك العكس. فلست مبالية البتة. اذهب إلى حيث تنتمي... فذلك هو ما أريدك أن تفعل).

صاح: (آه ، يا حمقاء! أنت وعبارتك أن « اذهب إلى حيث تنتمي »، لقد انتهت علاقتنا، أنا و«هرمايني». فهي تعنيك أنت بهذا الصدد أكثر بكثير مما تعنيني. وأنت لا يسعك إلا أن تثوري في ردة فعل خالصة إزاءها.. أن تكوني نقيضتها معناه أن تكوني نظيرتها). صاحت «أرسيولا»: (آه، نقيضتها! أنا أعرف مراوغاتك، ولا أنخدع بتلاعبك بالكلمات، أنت تخصّ «هرمايني» وأبّهتها الميتة. حسن! إذا كنتَ كذلك، فلتكن. فلست ألومك، لكنَّ لن تكون لك عند ذاك أية علاقة بي).

أوقف السيارة، وهو في سخط ملتهب مثار للغاية، ولبثا جالسين هناك في وسط الدرب الريفي، ليحسما الخصام. كانت بينهما أزمة حرب، ولذلك لم يلحظا سخافة موقفهما.

هتف في يأس يقطّر مرارة: (لو لم تكوني حمقاء، آه لو أنك لم تكوني حمقاء، لرأيت أن في وسع المرء أن يكون مهذباً حتى ولو كان على خطأ. لقد كنت مخطئاً حين أمضيت مع «هرمايني» كل تلك السنوات. فقد كانت عملية قتالة. لكن يمكن للمرء، بعد هذا وذاك، أن يملك القليل من التهذيب. لكن لا، فأنت تودين لو مزقتِ روحي بغيرتك بمجرد ذكر اسم «هرمايني»).

ـ (أنا غيور! أنا... غيور! أنت مخطئ إن اعتقدت ذلك. أنا لا أغار من «هرمايني» البتة، فهي لا شيء بالنسبة إلي، ليس من تلك!).قالت ذلك وطقطقت أصابعها. (لا. إنك أنت الكذاب، إنك أنت الذي يجب عليه أن يعود، مثلما يعود كلب إلى قَيْئِه. إن ما تمثله «هرمايني» هو الذي أكره... أكرهه، إنه أكاذيب. إنه زائف، إنه الموت. بيد أنك تنشده، ولا حيلة لك في ذلك، لا حيلة لك في نفسك. إنك تنتمي إلى تلك الطريقة البالية الميتة في الحياة.. فارجع إليها إذاً، لكن لا تعد إليَّ، فلا علاقة لي بك).

وفي وطأة انفعالها العنيف، نزلت من السيارة ومضت إلى سياج الشجيرات، تقطف منها دون وعي بعضاً من أثمار التوت المغزول ذوات اللون اللحمي، وكان البعض منها قد تفتّح، مُظهراً بذوره البرتقالية اللون.

صاح بمرارة، وبشيء من الازدراء: (آه، إنك حمقاء).

ـ (أجل، أنا كذلك، أنا حمقاء، وأحمد الله على ذلك. أنا أحمق من أن أُصَدِّق شطارتك. الحمد لله. امضِ إلى نسوتك... امضِ إليهن.. إنهن من صنفك.. كان لديك دائماً صفٌّ منهن يتعقبنك... وستظل كذلك. اذهب إلى عرائسك الروحانيات.. لكن لا تأتني أنا الأخرى، ذلك لأنني لن تكون لي أية علاقة، شكراً، أنت لم تكتفِ وتقنع، أليس كذلك؟... إن عرائسك الروحانيات لا يستطعن منحك ما تبغي، لسن عاديات ومكتنزات بالقدر الذي يكفيك، أليس كذلك؟ ولهذا تجيء إلي وتستبقيهن في الخلف! ستتزوجني للاستعمال اليومي، لكنك ستوفر لك عدداً كافياً من العرائس الروحانيات تستبقيهن في الخلف. أنا أعرف لعبتك الصغيرة، القذرة). وفجأة سرت لهبة فيها، وضربت أرض الطريق بقدمها في جنون، فجفل، خشية أن تضربه. (وأنا، وأنا لستُ روحانية بما يكفي، أنا لست في مثل روحانية تلك الـ «هرمايني» ...!). انعقد حاجباها، واتقدت عيناها كعيني نمر: (اذهب إليها، إذاً، ذلك كل ما أنا قائلة. اذهب إليها... اذهب... ها... هذه الروحانية... الروحانية هذه....! المادية القذرة فعلاً... أما أنها روحانية؟ ما الذي تهتم به؟ ماهي روحانيتها؟ ماهي؟). بدا غضبها يلتهب ويحرق وجهه. انكمش قليلاً. (أقول لك، إنها قذارة، قذارة ولا شيء غير القذارة. وإن القذارة هي ما تريده أنت، ما تتحرق شوقاً إليه، روحانية! هل إن هذا روحاني، تنمُّرها، غرورها، ماديتها الدنيئة؟ إنها بائعة سمك*، إنها بائعة سمك. إنها مادية فظيعة، كلها قذارة، وماذا تسعى لتفعل في النهاية، بكل عاطفتها الاجتماعية، كما تسميها؟ عاطفة اجتماعية.. أية عاطفة اجتماعية لديها؟ أرني إياها؟ أين هي؟ إنها تنشد سلطة تافهة، فورية، إنها تريد التوهم بأنها امرأة عظيمة... هذا كل مافي الأمر. إنها، في روحها، كافرة شيطانية، عادية كالوساخة. ها هي ذي، في الصميم. والباقي زيف كله... لكنك تحب الروحانية الزائفة، فهي زادك. ولماذا؟.. بسبب القذارة المخبأة. أتظن أنني لا أعلم بقذارة حياتك الجنسية... وحياتها؟ أنا على علم بذلك. إنما هذه هي القذارة التي تريد.. يا كذاب. خذها إذاً، خذها، ما أكذبك!).

---

* بائعة سمك: تورية معناها امرأة بذيئة. (المترجم).

استدارت مبتعدة وطفقت تقطع غصينات التوت المغزلي بحركات متشنجة من شجيرات السياج، عاقدة إياها في صدر سترتها بأنامل مرتعدة.

لبث واقفاً يراقبها في صمت. احتدمت في داخله رقة عجيبة عند مشاهدة أناملها المرتجفة، الحساسة جداً... وفي الوقت نفسه كان يطفح بالغضب وبقسوة الفؤاد. قال ببرود: (هذا مشهد مخزٍ). قالت: (أجل، مخزٍ فعلاً، لكنْ لي أكثر منه لك). فقال: (مادمتِ قد اخترت أن تحطّي من قدرك). وللمرة الثانية غمرت الومضة وجهها، واحتشدت الأضواء الصفر في عينيها. صاحت: (أنت... أنت! يا عاشق الحقيقة! أيها المتجر بالطهارة! مبعثٌ للنتن حقيقتك وطهارتك. إنهما تفوحان بنتن النفايات التي تقتات عليها، أيها الكلب المقتات على القمامة، يا آكل الجيف، أنت قذر، قذر.. ولابد أن تعرف ذلك طهارتك، صراحتك، طيبتك... أجل، شكراً، لقد خبرنا شيئاً منها، ما أنت إلا شيء قذر مميت مشين، ذلك هو أنت، مشين منحرف... أنت والحب!.. أولى بك أن تقول إنك لا تريد الحب. كلا، أنت تبغي نفسك والقذارة والموت.. ذلك هو ما تريد. لشد ما أنت منحرف وأكّال للموتى. ثم إن...). قال، وهو يتلوى من تنديدها الصارخ: (هناك دراجة هوائية قادمة). رمقت الدرب بنظرة، وصاحت: (لا يهمني ذلك). ومع ذلك سكتت، ألقى راكب الدراجة نظرة مستغربة على الرجل والمرأة وعلى السيارة الواقفة، أثناء مروره، بعد أن طرقت سمعه أصوات التشاحن العالية. قال جذلاً: (... مساءً). أجاب «بركن» ببرود: (عمت مساءً). كانا صامتين فيما كان الرجل يمر مبتعداً.

بانت على وجه «بركن» ملامح نظرة أوضح. كان يعرف بانها كانت على صواب في أغلب ما قالت. كان يعرف بأنه كان منحرفاً، شديد الروحانية من ناحية، فاسداً على نحو غريب من الناحية الأخرى. لكنْ هل كانت هي نفسها أحسن منه على نحو ما؟ هل كان ثمة أي شخص أفضل منه، على نحو ما؟..

قال: (قد يكون كل ذلك صحيحاً، الأكاذيب والنتن وسائر الأشياء، لكن إلفة «هرمايني» الروحانية ليست أنتن من إلفتك العاطفية، الغيور. في وسع المرء أن يحافظ على آداب السلوك حتى مع أعدائه.. من أجله هو. إن «هرمايني» عدوتي.. حتى نفسها الأخير!.. ولذلك لابد لي من أن أتخلّص منها بطريقة مؤدبة إذ ترحل عن المنطقة).

ـ (أنت! أنت وأعداؤك وتخلصاتك المؤدبة! صورة لطيفة ترسمها لنفسك. لكنك لا تخدع أحداً سواك. أنا غيور! أنا! ما أقوله..) وهنا علا صوتها حتى غدا لهيباً: (... أقوله لأنه صحيح، هل تلاحظ ذلك، لأنك أنت، أنت كذاب غشاش، قذر، قبر مبيَّض*. ذلك هو سبب قولي... وأنت سامعه). أضاف بابتسامة هاجية: (وممتن).

هتفت: (نعم، كن ممتناً، إن كنت تملك ذرة من الأدب).

رد: (إن عدم امتلاك ذرة من الأدب، مع ذلك...).

فصاحت: (كلا، أنت لا تملك ولا ذرة، ولهذا يمكنك أن تمضي في سبيلك، وأنا سأمضي في سبيلي. فلا جدوى نهائياً، وعليه، يمكنك أن تتركني الآن، لا أريد أن أمضي معك مسافة أبعد مهما كانت... اتركني...).

قال: (أنت لا تعرفين حتى المكان الذي أنت فيه الآن).

ـ (أوه، لا تقلق. أؤكد لك أنني سأكون بخير، عندي عشرة شلنات في جيبي، وهذه ستوصلني إياباً إلى أي مكان أتيت بي منه). ترددت. كانت الخواتم لا تزال في أصابعها: اثنان في خنصرها، وواحد في الوسطى.. ومع ذلك ترددت.

قال: (جيد جداً. الأحمق هو الوحيد الذي لا رجاء منه).

قالت: (إنك على صواب، تماماً).

كانت لا تزال مترددة، ثم بانت على وجهها نظرة قبيحة، لئيمة، فخلعت الخواتم من أصابعها ورمتها عليه. مس أحدها وجهه، وارتطم الآخران بسترته وتناثرت في الوحل.

قالت: (وخذ خواتمك، وامضِ، واشتر لك أنثى في مكان آخر ـ وهن كُثْرٌ ـ ممن يسرّهن أن يسهمن في خبيصتك الروحانية.. أو يصبن من خبيصتك البدنية، ويتركن الخبيصة الروحانية لـ «هرمايني»). وإذ قالت ذلك مضت تمشي في الطريق مبتعدة على غير هدى. أما هو فقد لبث واقفاً دون حراك، يراقب مشيتها الغاضبة، القبيحة نوعاً ما. وكانت تقطف وتنتف غصينات سياج الشجيرات، في غضب، أثناء مرورها. ضؤلت قامتها تدريجياً وبدأت تختفي عن بصره. استبدت الظلمة في ذهنه، لم تكن هناك سوى ذرةٍ آليةٍ من الوعي تحوم بالقرب منه.

---

* تشبيه ورد في الإنجيل، ومعناه: دجال، يدعي الفضيلة، وهو أبعد ما يكون عنها. (المترجم).

أحس أنه متعب، واهن، لكنه منفرج الكرب كذلك.. ترك موضعه السابق وتوجه نحو كتف الطريق وجلس هناك، لاشك في أن «أرسيولا» كانت على حق. كان ما قالته صحيحاً في الحقيقة. كان يعرف أن روحانيته كانت تلازم أسلوباً من الفسوق، نوعاً من المتعة في تدمير الذات في الحقيقة، كان هناك فعلاً حافز معين في تدمير الذات، بالنسبة إليه، خصوصاً عند ترجمته روحانياً. بيد أنه كان يعرف ذلك، يعرفه، وقد انتهى منه. ثم، ألم يكن أسلوب «أرسيولا» في الألفة العاطفية عاطفياً وجسدياً؟ ألم يكن خَطِراً خطورة إلفة «هرمايني» المجردة، الروحانية، تماماً؟ الاندماج، الاندماج، هذا الاندماج الفظيع بين كائنين الذي تلح عليه كل امرأة وأغلب الرجال، ألم يكن فظيعاً، مثيراً للاشمئزاز على أي حال، سواء أكان اندماج الروح أم البدن العاطفي؟ كانت «هرمايني» ترى نفسها على أنها (الفكرة الكاملة) التي يتعين على كل الرجال أن يتوجهوا إليها، أما «أرسيولا» فكانت (الرحم) الكامل، حمام الولادة، الذي يتعين على كل الرجال أن يتوجهوا إليه! وكان كلاهما فظيعاً، لِمَ لمْ يستطيعا البقاء فردين، تحدّهما حدودهما هما؟ علام هذه الفكرة الشمولية المريعة، هذا الطغيان الكريه؟ لم لا يُتْرَك الكائن الآخر طليقاً؟ علام محاولة التشرب أو الذوبان، أو الاندماج؟ قد يسلّم المرءُ نفسَه كلياً إلى اللحظات، لا إلى أي كائن آخر.

لم يستطع تحمل منظر الخواتم ملقاة في وحل الطريق الكالح. فالتقطها ومسحها بيديه دون انتباه. كانت هي الرموز الصغيرة لواقعية الجمال، واقعية السعادة في الخَلْق الدافئ. لكنه قد وسخ يديه وتربّهما تماماً.

تملكت عتمة ذهنه. انحلت عقدة الوعي الفظيعة التي كانت تلح هناك كالهاجس، ذهبت إلى غير رجعة وذابت حياته في الظلام عبر أطرافه وبدنه. لكنْ كانت هناك نقطة قلق في قلبه الآن. فقد أراد أن تعود. كان يتنفس تنفساً خفيفاً ومنتظماً، كطفل يتنفس ببراءة، متجاوزاً مسحة المسؤولية.

إنها عائدة. فقد رآها تنساق على غير هدى تحت شجيرات السياج العالي، متقدمة نحوه ببطء، لم يتحرك، ولم يعاود النظر. كان هادئاً، كالنائم، غافياً، مسترخياً تماماً.

اقتربت، ولبثت واقفة أمامه، منكّسة رأسها.

قالت وهي تمسك، ملتاعة، قطعة أرجوانية الحمرة من نبات الخلنج الجرسي تحت وجهه: (انظر، أية وردة جئت بها إليك).

رأى مجموعة الأجراس الملونة، والغصين الصغير الشبيه بالشجرة: كذلك يديها، ذات الجلد الفائق النعومة والفائق الحساسية.

قال: (لطيفة!)، وهو يتطلع إليها با سماً، ويتناول الزهرة. عاد كل شيء بسيطاً، بسيطاً جداً، واختفى كل أثر للتعقيد. بيد أنه كان يتوق إلى البكاء توقاً حاداً، لولا أنه كان مكدوداً قد أ ضجره الانفعال.

ثم غمرت قلبه عاطفة ساخنة من الرقة، فانتصب وتطلع إلى وجهها. كان جديداً، أوه، وجدٌ رقيق في اندهاشه وخوفه النيّرين. طوقها بذراعيه، فاخفت وجهها في كتفه.

كان سلاماً، سلاماً بسيطاً حسب، إذ وقف طاوياً إياها في دعة، هناك في الطريق المفتوح. كان ثمة سلام، أخيراً، لقد مضت دنيا التوتر القديمة، الكريهة، وانقضت أخيراً، وأمست روحه قوية مرتاحة.

تطلعت إليه، لقد غدا الألق الأصفر المدهش في عينيها الآن رقيقاً، خضوعاً، وعاد السلام بينهما. قبّلها برقة، مرات كثيرة، كثيرة. بانت ضحكة في عينيها.

تساءلت: (هل أسأتُ إليك؟).

ابتسم ثانية، وتناول يدها، التي كانت ناعمة، مستسلمة.

قال: (لا بأس، كله مآله الخير). عاد فقبلها، قبلات ناعمات، مرات ومرات.

قالت: (اليس كذلك؟).

أجاب: (مؤكد، لحظة! لسوف آخذ بثأري).

ضحكت على حين غرة. وفي صوتها نبرة جامحة، وألقت بذراعيها حوله. هتفت، وهي تهصره إليها: (أنت لي، حبيبي، أليس كذلك؟)، قال برقة: (بلى).

كان صوته على درجة من الرقة والجزم بحيث استكانت تماماً، كأن القدر قد تملكها. أجل، لقد أذعنتْ.. لكن ذلك تم دون إذعانها. كان يقبّلها بهدوء، مرة تلو الأخرى، بسعادة هادئة رقيقة كادت أن تجعل قلبها يتوقف عن النبض.

هتفت: (حبيبي!)، وأعلت وجهها وهي تنظر في دهشة خائفة، رقيقة، من النشوة، هل كان ذلك كله حقيقياً؟ لكن عينيه كانتا جميلتين ورقيقتين وخاليتين من الإجهاد أو

الانفعال، جميلتين ومبتسمتين قليلاً لها، مبتسمتين معها. أخفت وجهها على كتفه، لتخفي نفسها عنه. لأنه كان يستطيع أن يراها رؤية تامة. كانت تعلم أنه كان يحبها، فخافت. كانت في محيط غريب، يحيط بها فردوس جديد. كانت تتمنى لو كان مشبوب العاطفة، ذلك أنها مع العاطفة المشبوبة تكون على سجيتها. لكن هذا كان ساكناً وضعيفاً جداً، كما يكون الفضاء أبعث على الارتياع من القوة.

رفعت رأسها ثانية بسرعة.

قالت عجلى مندفعة: (هل تحبني؟). فأجاب، غير مبال بحركتها، بل بسكونها فقط: (أجل). كانت تدرك أن ذلك كان صحيحاً، فسحبت جسمها.

قالت، ملتفتة لتنظر إلى الطريق: (يجب عليك. هل عثرت على الخواتم؟).

- (أجل).

- (أين هي؟).

- (في جيبي).

دست يدها في جيبه، وأخرجتها. تململت.

قالت: (هلاّ مضينا؟).

أجاب: (نعم). صعدا إلى السيارة ثانية، وتركا ساحة المعركة التي لا تنسى هذه، خلفهما.

انسابا بمضيان العصر المتأخر العاصف في تحرك جميل. كان يبتسم ويتسامى. كان ذهنه مرتاحاً ارتياحاً حلواً، وكانت الحياة تنساب منه كأنها منبعثة من نبع جديد. كان كمن وُلِدَ من تشنجات رحم. سألته، على طريقتها الغريبة، الجذلة: (هل أنت سعيد؟). قال: (نعم).

فهتفت في نشوة مفاجئة: (وكذلك أنا)، وطوقته بذراعها، متشبثة به في ضمة عنيفة وهو يقود السيارة.

قالت: (لا تسق أكثر، لا أريد أن تكون فاعلاً شيئاً ما على الدوام).

قال: (كلا سننهي هذه السفرة الصغيرة، ثم نكون أحراراً).

فهتفت بابتهاج، مقبِّلة إياه حين التفت إليها: (نعم يا حبيبي، نعم).

واصل القيادة متيقظاً على نحو جديد، غريب، وقد زال توتر الوعي فيه، وبدا

على وعي تام، كل جسمه متيقظ بوعي بسيط، متألق، كأنه قد استيقظ تواً، مثل شيء قد وُلِد، مثل طير يطلع من بيضة إلى كون جديد. هبطا حدر تل طويل، في الغسق، وفجأة تعرفت «أرسيولا» على معالم كنيسة (ساوثويل)، على يمينها في الغور.

هتفت بسرور: (هل نحن هنا!).

كانت الكاتدرائية الصارمة، الكئيبة، القبيحة تستقر في عتمة الليل المقبل عند دخولهما البلدة الضيقة، وكانت الأضواء الذهبية تبين كألواح وَحْي في واجهات الدكاكين.

قالت: (جاء أبي وأمي إلى هنا حين تعارفا أول مرة، إنه يحبها. يحب الكنيسة، أتحبها أنت؟).

- (أجل. إنها تبدو كبلورات مَرْوٍ منتصبة من داخل الغور المعتم. سنتناول شاينا المركز عند «رأس ساراسن...»*. وفيما كانا يهبطان، سمعا أجراس الكنيسة تقرع لحن ترتيلة، حين كانت الساعة تدق معلنةً السادسة:

(لك المجد يا إلهي في هذه الليلة...

عن كل بركات النور...)**.

هكذا كان النغم يتساقط، على مسمع «أرسيولا»، قطرة، قطرة، من السماء غير المرئية على البلدة الغبشاء. كان مثل قرون من الزمان معتماً خلت، وهي تطرق المسامع. كان كل ذلك نائياً جداً. لبثت واقفة في فناء الخان العتيق الذي كانت تفوح منه رائحة الدريس والاصطبلات والبنزين. وفي الأعالي، رأت بواكير النجوم. ماكان ذلك كله؟ لم يكن عالماً واقعياً البتة، كانت دنيا أحلام طفولة المرء... ذكرى عظيمة، مطوّقة. لقد أمست الدنيا مقطوعة الصلة بالواقع، وهي نفسها كانت حقيقة غريبة متسامية. لبثا جالسين معاً في ردهة صغيرة، قرب نار المصطلى.

تساءلت ملحة، وهي تضحك، لكن دون اطمئنان: (هل هو كذلك؟).

---

* يبدو أن «رأس ساراسن» اسم خان أو فندق صغير وكلمة «ساراسن» تعني العربي أو المسلم على النحو الذي كان يشار إليه أيام الحروب الصليبية. (المترجم).

** بداية ترتيلة تنشد في الكنائس في قداس المساء. (المترجم).

- (ماذا؟).

- (كل شيء ... هل إن كل شيء حقيقي؟).

قال مكشراً لها: (الأحسن هو الحقيقي).

أعادت التساؤل الملحاح: (هل هو كذلك). تطلعت إليه. بدا كأنه لا يزال راكداً، منعزلاً. انفتحت عينان جديدتان في روحها. رأت فيه مخلوقاً غريباً من عالم آخر. فكأنها قد سُحِرَت وتبدل كل شيء. تذكرت ثانية السحر القديم في (سفر التكوين)، حيث رأى أبناءَ الرب بنات البشر، فاستملحوهن، وكان هو أحد هؤلاء، أحد تلك المخلوقات الغريبة من العالم الآخر، يتطلع إليها من عل، ويستملحها.

لبث واقفاً على بساط المصطلى يتملاّها، يتملى وجهها المُعَلَّى كالزهرة تماماً، زهرة نضرة متألقة، تتلألأ خفيفاً بلون الذهب - بقطرات ندى غمرتها بواكير الضوء. وكان يبتسم قليلاً، كأن الدنيا قد خلت من الكلام، ماعدا ابتهاج الأزهار الصامت، ابتهاج كل زهرة بالأخرى. ابتهجا مبتسمين بحضورهما، ذلك الحضور الخالص، الذي لا ينبغي له التفكير فيه، ولا حتى معرفته. لكن عينيه ضاقتا بمسحة من السخرية.

وانجذبت إليه على نحو غريب كما في السحر. جثت على بساط المصطلى قبالته، وطوقت حقويه ووضعت وجهها على فخذيه. كنوز! كنوز! لقد غمرها شعور بثراء ملء السماء.

قالت في فرح: (إن كلاً منا يحب الآخر).

أجاب: (أكثر من ذلك). ناظراً إليها بوجهه المتألق الرضي.

وبدون وعي راحت تتلمس مؤخر فخذيه بأطراف أناملها الحساسة، متعقبة مجرى ما للحياة هناك، زاخر بالغموض. لقد اكتشفت شيئاً ما، شيئاً أكثر من رائع، أروع من الحياة ذاتها، كان هو السرَّ الغريب لحركة حياته، هناك، في مؤخر فخذيه، حَدْرَ الجنبين. كان الحقيقة الغريبة لكيانه، مادة الكينونة ذاتها، هناك في الدفق النازل مباشرة من الفخذين، هناك اكتشفت واحداً من أبناء الرب كما كانوا في بدء العالم. ليس رجلاً. بل شيئاً آخر، شيئاً أكثر.

هاهو ذا المتنفَّس أخيراً. كانت قد عرفت عشاقاً، وعرفت العاطفة المشبوبة، لكن هذا لم يكن حباً ولا عاطفة مشبوبة، إنما بنات البشر وهن يعدن إلى أبناء الرب، أبناء الرب العجيبين غير البشريين الذين وُجِدوا في البدء.

غدا وجهها الآن ألقاً من نور ذهبي منطلق، وهي تتطلع إليه وتضع يديها بكل ثقلهما على فخذيه، من الخلف، فيما كان منتصباً أمامها. نظر إليها من علٍ وقد أشرق جبينه وأثرى مثل إكليل فوق عينيه. كانت جميلة مثل زهرة جديدة عجيبة، تفتحت إزاء ركبتيه. زهرة فردوسية كانت هي.. تتجاوز الأنوثة، زهرة الإشراق هذه، بيد أن ثمة شيئاً مشدوداً مقيِّداً، كان فيه، لم يكن يحب هذا الجثو، هذا الإشراق.. ليس كلياً.

لقد كمل كل شيء بالنسبة إليها فقد عثرت على أحد أبناء الرب، من أهل (البدء)، وقد عثر هو على إحدى أوائل بنات البشر وأكثرهن بهاءً، اقتفت بيديها خط حقويه وفخذيه، من الخلف، فسرت فيها نار حية منه على نحو غامض. كانت دفقاً غامضاً من عاطفة كهربائية، تلك التي أطلقتها منه، واجتذبتها إلى داخل ذاتها. لقد كونت دائرة جديدة قوية. تياراً جديداً من الطاقة الكهربائية، العاطفية، بين الاثنين، منطلقة من أحلك أقطاب الجسد عتمة، ومتكونة في دائرة متكاملة. كانت ناراً سوداء من الكهربائية انطلقت منه إليها، وغمرتهما معاً بالرضا والطمأنينة الثرة.

هتفت: (حبيبي)، معليةً وجهها نحوه، وعيناها مفتوحتان وفمها فاغر، في نشوة.

أجاب: (حبيبتي)، وانحنى يقبلها، يقبلها دون انقطاع.

أغلقت يديها على كامل حقويه المكوَّرين المليئين، فيما كان ينحني فوقها، وبدت كأنها تمس الصميم من سر العتمة التي كانت تمثله بدنيا. بدت على وشك أن يغمى عليها، وهي في موضعها تحته، وبدا على وشك أن يغمى عليه وهو منحن فوقها. كان ذلك زوالاً مطلقاً لكل منهما، وفي الوقت نفسه أشق ارتقاءً إلى الكينونة... التحقيق العجيب للإشباع الآني... غامراً، متدفقاً، من أعمق نبع لقوة الحياة، من أعتم، وأعمق، وأغرب نبع حياة للجسم البشري، في مؤخرة الحقوين وقاعدتهما.

وبعد فترة من السكينة، وبعد أن مرت أنهر الثراء السيال، الغريب، الغامض، من فوقها، غامرة، جارفة عقلها، متدفقة كالطوفان نزولاً حدر عمودها الفقري وركبتيها، مروراً بقدميها، طوفان غريب يكتسح كل شيء مبقياً إياها كياناً جوهرياً، جديداً ـ بعد ذلك كله تُرِكَتْ حرة طليقة، طليقة في كمال الراحة، وكمال الذات. وهكذا نهضت

ساكنة، مبتهجة، وهي تبتسم له. أما هو فقد لبث واقفاً قبالتها، بهياً، جد حقيقي حد الفظاعة، بحيث أن قلبها كاد أن يتوقف عن النبض. ظل واقفاً هناك ببدنه الغريب الكامل، ذي الينابيع العجيبة، مثل أبدان أبناء الرب الذين كانوا في البدء. كانت ثمة ينابيع غريبة في بدنه أكثر غموضاً وقوة من كل ماكانت قد تصورت أو عرفت، أكثر إشباعاً... آه، مشبعة على نحو نهائي، خفي - بدني. كانت تظن أنه مامن نبع أعمق من النبع الذكري. أما الآن، فانظر. من الصخرة المسحورة* لجسم الإنسان، من الجنبين والفخذين، الغريبة، المدهشة، الأعمق والأبعد في الغموض من النبع الذكري، جاء طوفان من الظلمة التي لا توصف، والثروة التي لا توصف.

كانا فرحين، يستطيعان النسيان تماماً. ضحكا ومضيا إلى وجبة الطعام المعَدّة. كانت ثمة فطيرة بلحم الغزال، من دون كل الأشياء الأخرى، وقطعة كبيرة عريضة من فخذ الخنزير، وبيض، ورشاد، وجذور البنجر الأحمر، وثمار المشملة، وكعك محشو بالتفاح، ثم الشاي.

هتفت في التذاذ: (أية أشياء لطيفة! ما أنبل منظرها!... هل لي أن أصب الشاي؟...).

كانت، في العادة، عصبية، غير وثوق عند القيام بهذه الواجبات العامة، كصبّ الشاي، أما اليوم، فقد نسيت، وغدت رخية البال، ناسية الشكوك كل النسيان: فإبريق الشاي كان يُصَبّ صباً لطيفاً من صنبور فخور رفيع، وعيناها تدفئهما البسمات وهي تناوله شايه، لقد تعلمت أخيراً أن تكون ساكنة، كاملة.

قالت له: (كل شيء ملكنا).

أجاب: (كل شيء).

أطلقت صيحة صغيرة، غريبة، ظافرة.

وهتفت بارتياح لا يوصف: (لشد ما أنا سعيدة!).

فقال: (وكذلك أنا... لكنني أفكر أن من الأفضل لنا أن نتخلى عن مسؤولياتنا بأسرع مايمكن).

---

* إشارة إلى ما ورد في الإنجيل من قيام «موسى» بقدح صخرة لاستخراج ماءٍ منها. (المترجم).

تساءلت مستغربة: (أية مسؤوليات؟).

- (يجب أن نتخلى عن عَمَلَينا، بسرعة الطلقة)*.

لاح على وجهها فهم جديد.

قالت: (طبيعي... فليكن).

قال: (لابد أن نخرج.. لم يعد هناك شيء سوى الخروج، على عجل).

نظرت إليه مرتابة، عبر المائدة.

قالت: (لكن إلى أين؟).

قال: (لا أدري. سوف نهيم قليلاً، حسب).

عادت فنظرت إليه بفضول.

قالت: (سأكون سعيدة في «الطاحونة»).

قال: (إنه مكان قريب جداً من ذلك الشيء القديم. لنتجول قليلاً).

كانت لصوته المقدرة في أن يكون ناعماً ومراحاً، فتغلغل في عروقها مثل فرط الغبطة، ومع ذلك كانت تحلم بواد وحدائق برية وسلام. كانت ترغب كذلك في الفخامة... فخامة أرستقراطية، باذخة فبدا لها التطواف مثل التململ واللا إشباع.

تساءلت: (إلى أين تريد التجول؟).

- (لا أدري. أشعر كأنني سأكتفي بلقياك، ثم نشرع في الترحال... قطعاً للمسافات حسب).

تساءلت قلقة: (لكن إلى أين يكننا أن نذهب؟ على أية حال، هناك العالم فقط، ومامن مكان فيه ببعيد جداً).

قال: (ومع هذا، أود الذهاب معك، إلى لا مكان. ولسوف يكون أشبه بتطواف إلى لا مكان. ذلك هو المقصد.. اللا مكان. إن المرء لينشد أن يهيم بعيداً عن هذا المكان من العالم أو ذاك، قاصداً لا مكاننا نحن). ظلت تتفكر.

قالت: (المسألة، يا حبيبي، أنني أخشى تماماً أن يتعين علينا تقبل الدنيا القائمة، مادمنا مجرد بشر، إذ ليس هناك أي شيء آخر).

---

* أي: حالاً. (المترجم).

قال: (بل هناك، ثمة مكان ما يمكن أن نكون أحراراً فيه.. مكان لا يحتاج المرء فيه أن يرتدي الكثير من الملابس... بل ولا أي شيء إطلاقاً... حيث يلتقي المرء أفراداً قلائل عانوا ما يكفي ويمكنهم أن يتقبلوا الأشياء كمسلّمات.. حيث تكونين على سجيتك، دون انزعاج... يوجد مكان ما... هناك شخص أو شخصان..).

تنهدت قائلة: (لكن أين...؟).

- (في مكان ما.. في مكان ما. لننطلق هائمين.. هذا هو الشيء الذي يلزم عمله... لننطلق هائمين).

- (أجل)، قالتها وقد انتشت بفكرة الترحال، لكنه لم يكن سوى ترحالٍ في نظرها.

قال: (كي نكون أحراراً. كي نكون أحراراً في مكان حر.. مع قلة من الأشخاص الآخرين).

قالت ملتاعة: (أجل). لقد كدرتها تلك «القلة من الأشخاص الآخرين».

قال: (ولو أنه ليس موضعاً، في الحقيقة... إنها علاقة مكتملة بيني وبينك والآخرين... العلاقة المثلى... بحيث نكون أحراراً معاً).

قالت: (فعلاً، يا حبيبي، أليس كذلك؟ أنت وأنا.. أنت وأنا، أليس كذلك؟).

مدت ذراعيها له. أقبل وانحنى ليلثم وجهها. انغلق ذراعاها حوله ثانية وامتدت يداها على كتفيه، متنقلتين هناك، على مهل، متنقلتين ببطء على ظهره، نزولاً من ظهره ببطء بحركة غريبة إيقاعية متكررة لكنها متجهة إلى الأسفل ببطء، ضاغطة في غموض على حقويه، على جنبيه. غمر عقلها شعورٌ بفظاعة الكنوز التي لا يمكن أن تتلف أبداً، كأنه نشوة، كأنه موت في أروع استحواذ، أكيد، مبهم. لقد حازت عليه كليةً، وعلى نحو لا يطاق، إلى درجة أنها، نفسها، تلاشت، ومع هذا، كانت لا تزال جالسة على الكرسي بهدوء حسب، ويداها ضاغطتان عليه وتاهت.

قبلها ثانية مترفقاً.

دمدم بهدوء. (لن نفترق ثانية أبداً). لم تتكلم. واكتفت بضغط يديها على نحو أشد نزولاً إلى منبع العتمة فيه.

حين أفاق من النشوة الخالصة، قررا أن يكتبا استقالتيهما من دنيا العمل في التو وحيث كانا. كانت تنشد ذلك.

دق الجرس وطلب أوراقاً لا تحوي عنواناً مطبوعاً. أخلى النادل المائدة.

قال: (والآن. كتابك أولاً. دوّني عنوان مسكنك والتاريخ.. ثم «إلى مدير التعليم، دار البلدية.. سيدي..» والآن! أنا لا أعرف تفاصيل هذه الأمور حقيقة.. أحسب أن في وسع المرء أن يخرج من الوظيفة في أقل من شهر.. على أية حال: «إنني أرجو، يا سيدي، الاستقالة من منصبي معلمة صف في مدرسة (ويلي غرين) الثانوية. سأكون ممتنة جداً لو فككتموني بأسرع ما يمكن دون انتظار انتهاء مدة الإشعار البالغة شهراً». هذا يكفي. هل ضبطتها؟ لنر: «أرسيولا برانغوين» جيد!.. الآن سأكتب استقالتي. يجب عليَّ أن أخطرهم قبل ثلاثة شهور. لكن في مقدوري التعلل بصحتي. في وسعي أن أدبر ذلك على خير وجه).

جلس وكتب استقالته الرسمية.

قال بعد ختم الظرفين وعنونتهما: (والآن، هل سنُبْرِدهما هنا، كلانا معاً؟ أعرف أن «جاكي» سيقول: (هي ذي مصادفة!) عندما يتسلمهما وهما متماثلان تماثلاً كلياً. هل ندعه يقولها، أم لا؟).قالت: (لا أبالي). قال متفكراً: (لا..؟). قالت: (ذلك غير مهم، أليس كذلك؟).

رد: (لن ندع تصوراتهم تعمل عملها فينا. سأبرد كتابك هنا، ثم كتابي، لا يمكنني التورط في خضم تصوراتهم).

تطلع إليها بفرديته الغريبة، غير البشرية.

قالت: (أجل، أنت على صواب).

أعلت وجهها نحوه، منفتحاً، مشرقاً تماماً، كان كأنه قد يلج إلى داخل نبع إشراقها رأساً. غدا وجهه متحيراً بعض الشيء.

قال: (هل نمضي؟).

أجابت: (كما تشاء).

وفي الحال أصبحا خارج البلدة الصغيرة، مخترقين دروب الريف غير المستوية على عجل. كانت «أرسيولا» ملتصقة به والجة دفأه الثابت، وراقبت الانكشاف الخافت الإضاءة، المتسارع في الأفق: الليل المنظور. كان الطريق أحياناً عريضاً قديماً ذا بقع من العشب على هذا الجانب أو ذاك، سحراً طائراً فاتناً في الضوء المحفز، وأحياناً كانت

ثمة أشجار تلوح فوق الرؤوس، وأحياناً شجيرات عليق، وأحياناً جدران ساحة عمال، أو طرف حظيرة.

سألته «أرسيولا» فجأة: (هل ستذهب إلى «شورتلاندز» من أجل العشاء؟).

فجفل.

قال: (أعوذ بالله! «شورتلاندز»! لا عودة إليه أبداً. ليس هذا. ثم إننا سنتأخر عن الموعد كثيراً جداً).

- (إلى أين نحن ماضيان، إذاً؟... هل إلى «الطاحونة»؟).

- (إن شئت. شيء مؤسف أن نذهب إلى أي مكان في هذه الليلة الطيبة الظلماء.. شيء مؤسف، حقاً، أن نتركها. شيء مؤسف ألا يمكننا أن نتلبث في العتمة الطيبة. إنها خير من أي شيء يمكن أن يكون... هذه العتمة الطيبة المباشرة).

جلست، محتارة. كانت السيارة تتمايل وتتأرجح. لقد عرفت أنها لن تتركه. كانت الظلمة قد جمعتهما معاً واحتوتهما، فلن يتجاوزاها. ثم إنها قد حصلت على معرفة غامضة كاملة بسر حقويه اللطيفين، المتلفّعين بالظلام، اللطيفين؛ وفي تلك المعرفة كان يكمن شيء من حتمية القدر وجماله، القدر الذي ينشده المرء، والذي يقبله قبولاً كاملاً.

لبث جالساً في سكون مثل (فرعون) مصري، وهو يقود السيارة. كان يحس كأنه قاعد في جبروت سرمدي، مثل التماثيل العظيمة المنحوتة في مصر الحقيقية، مثلها في الحقيقة، وفي الكمال ذي القوة البارعة وقد ارتسمت على الشفتين بسمة غامضة ملغزة. كان يعرف ما معنى امتلاكه تيار القوة السحري الغريب في ظهره وحقويه، وخدر ساقيه، قوة كانت من الكمال بحيث أبقته دون حراك وتركت وجهه مبتسماً برقة ولا عقلانية. كان يعرف ما معنى أن يكون متيقظاً وجباراً في ذلك العقل الآخر، الأساسي، العقل البدني الأعمق، ومن هذا النبع، كان يمتلك تحكماً سحرياً وخالصاً، سحرياً. ملغزاً.. قوة في العتمة، كأنها الكهرباء. كان من الصعب جداً التكلم. كان الكمالَ بعينه الجلوسُ في هذا الصمت الحي، الخالص، الغامض، الزاخر بالمعرفة التي يعزّ وصفها، والقوة التي يعزّ وصفها، مسنوداً أبداً بقوة لازمنية، مثل المصريين الساكنين، ذوي القوة القهارة، القاعدين أبداً في صمتهم الحي، الغامض.

قال: (لا حاجة بنا إلى الذهاب إلى البيت. لهذه السيارة مقاعد تمكن إمالتها إلى الأسفل فتصبح سريراً. كما يمكننا رفع الغطاء).

فرحت وخافت، انكمشت لِصْقَه.

قالت: (لكن ماذا عنهم، فِي البيت؟).

ـ (أرسلي برقية).

لم يزيدا في الكلام. واصلا السير في صمت. لكنه قاد السيارة نحو المقصد بنوع ثان من الوعي. فقد كان يملك الحذق المتحرر كي يوجه غاياته هو. كانت ذراعاه وصدره ورأسه تفيض بالحياة والكمال مثل نظيرتها عند الإغريق، ولم يكن يملك ذراعي المصري الغافيتين، المستقيمتين، ولا رأسه المختوم الهاجع، كان ثمة ذكاء ألمعي يلعب دوراً ثانوياً فوق تركيزه المصري الخالص، في الظلام.

بلغا قرية كانت محاذية للطريق. تزاحفت السيارة ببطء إلى الأمام حتى رأى مكتب بريد، فتوقف عنده.

قال: (سأرسل برقية إلى أبيك، وسأكتفي بالقول بأننا «سنمضي الليلة في المدينة». هل لي أن أفعل ذلك؟).

أجابت: (نعم). لم تشأ أن تنزعج باضطرارها إلى التفكير.

شاهدته يمضي إلى مكتب البريد. لاحظت أنه كان دكاناً كذلك. غريباً كان هو. فقد ظل سرياً سحرياً حتى عند دخوله المحل العام المضاء. لقد بدا الصمتُ الحيّ تجسيداً للحقيقة فيه، غامضاً قوياً عصياً على الانكشاف. هاهو ذا! وفي مدٍّ غريبٍ من الزهو، رأته.. رأت الكائن الذي لم يكن لينكشف، الفظيع في قوته، الغامض والحقيقي. إن حقيقته هذه الغامضة السرية، التي ماكان لها أن تُتَرجم قط، قد حررتها نحو الكمال، كمال كيانها هي. كانت هي الأخرى غامضة مشبعة في صمت.

خرج وألقى بعض الرزم داخل السيارة.

قال، بصوته الذي كان كالضاحك بسبب السكينة والقوة الناصعتين اللتين كانتا بمثابة الحقيقة فيه: (ثمة شيء من الخبز والجبن والزبيب، والتفاح والشوكولاتة الصلبة). شعرت بوجوب لمسه. فالكلام والرؤية أمسيا لا شيء. كان من السخرية النظر إلى الرجل الموجود هناك أو استيعابه. لابد للظلام والصمت من أن يهبطا عليها كلياً كي

تعلم العلمَ الغامض، بلمسٍ غير منكشف. لابد لها من أن تتصل به اتصالاً خفيفاً شارداً، فتتعرف على المعرفة التي هي موت المعرفة، حقيقة اليقين في خضم عدم المعرفة.

وفي الحال عادا إلى الانطلاق مخترقين الظلام. لم تسأله أين كانا ذاهبين إذ لم تبال. لبثت جالسة في امتلاء وقوة خالصة كأنها لا مبالاة، غافلة دون حراك، كانت تحاوره معلّقةً في راحة خالصة مثلما تتعلق النجمة وقد توازنت على نحو لا يتصور. ومع ذلك ظل ثمة ألق معتم من التوقع. ولسوف تلمسه، فبأطراف الأنامل الرقيقة الكاملة للحقيقة سوف تمس الحقيقة فيه، حقيقة حقويه المظلمين، الخالصة، الرقيقة، التي لا تمكن ترجمتها، أن تمس في الظلام وهي شاردة الذهن، وأن تبلغ، في مسٍّ خالص، الحقيقة النابضة في حقوي وفخذي الظلام، اللطيفة الكاملة العائدة له.. ذلك كان أملها الذي كان يمدها بأسباب الحياة.

كان هو الآخر، ينتظر منها، في ترقب راسخ، سحري، أن تتقبل هذه المعرفة عنه كما كان قد أخذها عنها. لقد عرفها على نحو خفي، بكامل المعرفة الخفية الداكنة.. ولسوف تتعرف عليه الآن، وسوف يتحرر هو الآخر. سيكون طليق الليل، مثل مصريٍّ، راسخاً في توازن معلق على النحو الأمثل، التعلق الخالص، المبهم للكائن البشري، ولسوف يهب كل منهما الآخر هذا التوازن الكوكبي، الذي هو الحقيقة دون غيره. لاحظت أن السيارة كانت ماضية بين أشجار.. أشجار ضخمة، قديمة، ينمو تحتها سرخس محتضر. كانت الجذوع الباهتة، الكثيرة العقد تبدو كالأطياف، مثل كهنة كهول في الامتداد الحالم، في حين انتصب السرخس سحرياً غامضاً. كانت ليلة قاتمة السواد، في سمائها سحاب منخفض.

همست: (أين نحن؟).

- (في غابة «شروود»).

كان من الجلي أنه يعرف المكان... قاد السيارة متأنياً يرقب. ثم بلغا طريقاً أخضر يتوسط الأشجار. استدارا بحذر، وشرعا يتقدمان بين أشجار بلوط الغابة، حذر درب أخضر. اتسع الدرب الأخضر فغدا دائرة صغيرة من العشب، حيث كان ثمة وشل يقطر ماء في قاع جرف منحدر. توقفت السيارة.

قال: (سنبقى هنا.. ونطفئ المصابيح).

وفي الحال أطفأ المصابيح، فساد ظلام دامس، فيه أطياف أشجار، كأنها حقائق عن كيانات ليلية أُخر. ألقى ببساط على السرخس، جلسا في سكينة، وصمت غافل. كانت هناك أصوات ضعيفة تنبعث من الغابة، لكن دون إزعاج، دون أي إزعاج ممكن. كان هناك حَظْرٌ غريب مفروض على الدنيا، فقد غشيها لغز جديد. خلعا ثيابيهما، وضمها إليه، فوجدها، وجد الحقيقة الخالصة، المتألقة، في جسدها الذي لا يرى أبداً. كانت أصابعه المكبوحة، اللا بشرية، وهي على عريها غير المنكشف، أصابع الصمت على الصمت، كيان ليل غامض على كيان ليلٍ غامض، ليل ذكر وأنثى، ما شاهدته العين قط، ولا أدركه العقل، لا يعرف إلا على أنه تجل ملموس لآخر حي.

نالت منه مشتهاها، فلمست، وتلقت غاية الوصل الذي لا يوصف باللمس الخفي، المتسلل، الصامت صمتاً مطلقاً، بوهب رائع وإرجاع رائع، قبول أمثل وإذعان أمثل، لغز غامض، حقيقة ما لايعرف أبداً، حقيقة حيوية، حسية لا يمكن تحويلها إلى محتوى عقلي، بل تظل في الخارج، تجسيداً حياً للظلام والصمت والرقة، جسم الحقيقة الملغز: لقد حققت رغبتها. وحقق رغبته. ذلك لأنها كانت بالنسبة إليه ماكان بالنسبة إليها: الروعة الخالدة للآخرية الغامضة الملموسة، الحقيقية.

ناما طيلة الليلة الباردة تحت غطاء السيارة، ليلة من رقاد متصل. وحين استيقظ، كان النهار قد طلع منذ مدة. نظر كل منهما إلى الآخر وضحك، ثم أشاحا بوجهيهما، وقد امتلأ خفاءً وسرية. بعدها تبادلا القبلات وتذكرا روعة الليلة. كانت رائعة جداً، تراثاً لكون من الحقيقة السرية، حتى أنهما خشيا الظهور بمظهر المتذكِّر؛ فأخفيا الذكرى والمعرفة.



الفصل الرابع والعشرون

موت وحب

توفي «توماس كريتش» ببطء، ببطء فظيع. لقد بدا مستحيلاً للجميع أن يكون في الإمكان أن يستطيل خيط الحياة ويرق إلى هذا الحد، ومع ذلك لا ينقطع. فقد ظل الرجل المريض طريح الضعف والوهن اللذين يعزّان على الوصف، باقياً على قيد الحياة بالمورفين وجرعات الدواء، التي كان يرتشفها ببطء... كان نصف واعٍ حسب. كان خيط رفيع من الوعي يصل ظلمة الموت بضياء النهار. ومع ذلك، لم تنكسر إرادته. بل كان كاملاً، متكاملاً. إنما كان ينشد الهدوء التام فقط، حوله.

لقد غدا أي حضور، عدا وجود الممرضات، عبئاً عليه مجهداً. وفي كل صباح كان «جرالد» يدخل الغرفة على أمل أن يجد أباه ميتاً، أخيراً. لكنه كان يرى، على الدوام، الوجه الشفاف نفسه، والشعر القاتم. المروع عينه على الجبين الشمعي، والعينين الفظيعتين القائمتين، البدائيتين، اللتين كانتا تبدوان متحللتين إلى عتمة عديمة الشكل، واللتين لم تبق فيهما سوى وُمَيْضَةٍ من البصر.

وعلى الدوام كانت هناك نوبة جيشان محرقة تخترق أحشاء «جرالد» وتتردد أصداؤها، على ما بدا، في كامل كيانه كلما التفتت إليه العينان القاتمتان البدائيتان، مهددةً بتحطيم عقله بضجتها الصاخبة، وبتجنينه.

كان الابن يقف هناك كل صباح، منتصباً، مشدوداً من حيوية، متألقاً في شقرته. كانت الشقرة المتألقة لشخصه الغريب، المتصلت فوق الرؤوس، تبعث في الوالد حمى من السخط الزاخر بالغيظ. لم يكن يستطيع أن يتحمل نظرة عيني «جرالد» الزرقاوين الغريبة، الموجهة إليه من عل، لكن ذلك لم يكن ليستغرق أكثر من برهة، فلما كان كل من الوالد والابن على وشك المغادرة، كل في سبيله، كانا يتبادلان النظر ثم يفترقان.

لقد احتفظ «جرالد» طويلاً برباطة الجأش تماماً، وظل هادئاً كل الهدوء. بيد أن الخوف قوّض كيانه في آخر المطاف. فقد خشي انهياراً فظيعاً في ذاته، وتعين عليه أن يبقى ويمضي بهذا الشوط حتى نهايته. كانت ثمة مشيئة منحرفة جعلته يرقب أباه وهو يتجرجر على حواشي الحياة. ومع ذلك، ظلت الضربة الكبيرة، المتوهجة الحرارة، ضربة الخوف الهلوع تقدح شرراً أشد في أحشاء الابن، الآن، وفي كل يوم، وطوال اليوم كان «جرالد» يمضي في شأنه وبه ميل إلى الانكماش كأن سنان سيف «داموقليس»* يَخزُ قفا رقبته.

لم يكن ثمة مَخْلَص.. كان موثقاً بوالده مما يُوَجِّب عليه أن يعايشه حتى النهاية. وإرادة والده ما لانت ولا أذعنت للموت قط. كانت ستنقصف حين يقصفها الموت أخيراً، اللهم إلا إذا استمرت عقب الموت الجسدي. كذلك، لم تذعن إرادة الابن، فلبث صامداً، منيعاً، متجاوزاً هذا الموت، وهذا الاحتضار.

وكانت تجربة تعذيب. هل كان في مقدوره أن يصمد ويرى والده يضمحل ويختفي ببطء في عملية الموت دون أن تستسلم إرادته مرة، دون أن يلين مرة أمام جبروت الموت؟ وكهندي أحمر يعاني التعذيب، كان على «جرالد» أن يعاني كامل عملية الموت البطيء دون أن يجفل أو يحجم، بل إنه انتصر في ذلك. فلقد أراد هذا الموت، بصورة من الصور، بل إنه قسره قسراً، كان كمن يتعامل ذاتياً مع الموت، حتى في الوقت الذي كان فيه في أشد حالات النكوص هلعاً. ومع هذا فلسوف يتعامل معه، ولسوف ينتصر من خلال الموت.

لكن، تحت وطأة هذه المحنة، فَقَدَ «جرالد» هو الآخر سيطرته على الحياة اليومية الخارجية، فماكان عزيزاً في نظره غدا لا معنى له البتة... العمل، المتعة: كلها خلّفها وراءه. كان يواصل أعماله على نحو آلي تقريباً، لكن ذلك النشاط كان كله دخيلاً عليه. فالنشاط الحقيقي انصب على هذه المقارعة المنحوسة مع الموت في داخل روحه هو، ولابد لإرادته الذاتية من أن تنتصر. ومهما حدث، فلن يطأطِئ رأسه، أو يخنع، أو يعترف بوجود سيد. لم يكن عليه سيّدٌ في الموت.

---

* «داموقليس» : أحد رجال البلاط في مدينة (سيراكيوز) القديمة ، قيل إنه أجلس في وليمة تحت سيف معلق بشعرة واحدة لكي يجعلونه يرى كمّ السعادة الذي يشعر به الحاكم «دايونيسس الأول» لدى استماعه للمديح يُكال له . (المترجم) .

لكن، مع استمرار الصراع، واستمرار تهدم كل ماكانه من قبل ومن بعد، بحيث أمست الحياة قوقعة خاوية تحوطه، تصطخب وتقعقع كاصطخاب البحر، بضجيج كان يسهم هو فيه من الخارج، وفي داخل تلك القوقعة الخاوية كان فراغ الموت المخيف وظلامه كله، فقد أدرك أن لابد له من أن يجد إمدادات تعززه، وإلا انهار تجاه الداخل نحو الفراغ العظيم، المظلم، الذي كان يدور وسط روحه. كانت إرادته توطّد حياته الخارجية، فبقي ذهنه الخارجي، كيانه الخارجي، دون تكسّر أو تغيّر. بيد أن الضغط زاد عن الحد وتعين عليه أن يعثر على شيء ما لاستعادة التوازن. كان لابد أن يصاحبه شيء ما إلى داخل فراغ الموت الأجوف الكائن في روحه فيردمه، وبذلك يوازن الضغط الداخلي بالضغط الخارجي. كان شعوره يزداد يوماً بعد يوم بأنه مثل فقاعة ممتلئة ظلاماً تدوِّم حولها تقزحاتٌ* وعيه الملونة، وتضج حولها ضغوط العالم الخارجي، والحياة الخارجية، ضجيجاً صاخباً.

في هذه الشدة، دلّته غريزته على «غدرون». فنحّى كل شيء جانباً، وما عاد ينشد سوى توطيد العلاقة بها. فكان يتبعها إلى المرسم كي يكون قريباً منها ويتحدث إليها. كان يتلبث واقفاً في الغرفة يتلقط، لا على التعيين، العدد، وكتل الطين، والتماثيل الصغار التي كانت قد سبكتها (وكانت هذه مزاجية ومضحكة) وهو ينظر إليها دون إدراك، ولقد كانت تحس به وهو يتعقبها، ويلازم عقبيها كالقدر. كانت تبتعد عنه، لكنها كانت تعرف أنه كان يدنو منها أكثر فأكثر، على الدوام.

قال لها في إحدى الأمسيات، على نحو غريب، غير مفكر، غير متيقن:

ـ (هلاّ مكثتِ الليلة لتناول العشاء؟.. أتمنى لو بقيت).

ارتدّت قليلاً. خاطبها مثل رجل يتقدم برجاء إلى رجل آخر.

قالت: (إنهم يتوقعون قدومي في البيت).

قال: (أوه، إنهم لن يمانعوا، أليس كذلك؟.. سأكون مسروراً جداً لو مكثت).

أفضى صمتها الطويل إلى الموافقة، أخيراً.

قال: (سأخبر «توماس» إذاً؟).

---

* تقزحات: تلونات بألوان قوس قزح تظهر على فقاعات الصابون. (المترجم).

قالت: (يجب علي أن أذهب بعد العشاء مباشرة).

كان مساءً بارداً، معتماً. لم تكن ثمة نار في غرفة الاستقبال، فجلسا في المكتبة. كان صامتاً معظم الوقت وشارداً، وقلما تكلمت «وينيفرد». لكن حين استفاق «جرالد» فعلاً، تبسم وغدا لطيفاً وعادياً إزاءها. ثم عاودته فترات الشرود الطويلة التي لم يكن على علم بها.

كانت منجذبة إليه كثيراً جداً. لقد بدا مشغول البال جداً، وقد تأثرت بفترات شروده الغريبة التي لم تكن تستطيع أن تفقهها وجعلتها في حيرة بشأنه، جعلتها تشعر بالتوقير حياله.

لكنه كان كريماً جداً حيالها. ناولها أفضل الأشياء الموجودة على المائدة. وكان قد طلب قنينة من النبيذ اللذيذ، الذهبي، الحلو المذاق قليلاً، للعشاء ولعلمه أنها كانت تفضله على نبيذ «برغندي» شعرت بأنها كانت موضع احترام وتكاد تكون موضع احتياج.

فيما كانا يتناولان القهوة في المكتبة حصل نقر خفيف، خفيف جداً على الباب، جفل وصاح: (ادخل). أربك جرسُ صوته، الشبيهُ بشيء ما يرن بطبقة عالية، «غدرون». دخلت ممرضة مرتدية ثياباً بيضاً، وهي تكاد تحوم في المدخل كطيف، كانت وسيمة جداً، لكن الغريب أنها كانت خجولاً غير واثقة بنفسها.

قالت بصوتها الخفيض المتحفظ: (يود الطبيب التحدث إليك يا سيد «كريتش»).

فقال وهو يهم بالنهوض: (الطبيب! أين هو؟).

- (إنه في غرفة الطعام).

- (قولي له أنني قادم).

أكمل شرب قهوته وتبع الممرضة التي كانت قد ذابت كطيف.

تساءلت «غدرون»: (أية ممرضة كانت تلك؟).

أجابت «وينيفرد»: (الآنسة «إنغليس».. التي استلطفها أنا أكثر من الأخريات).

عاد «جرالد» بعد فترة وجيزة وقد بدا مستغرقاً بأفكاره الخاصة، ومعانياً من بعض ذلك التوتر والشرود اللذين يشاهدان في الرجال المخمورين قليلاً. لم يقل لِمَ

استدعاه الطبيب، بل وقف قبالة النار ويداه خلف ظهره ووجهه منفتح كأنه كان سابحاً في عالم آخر، ليس لأنه كان يفكر أصلاً.. بل متوقفاً في حالة ترقب خالص داخل ذاته، والأفكار تسري عبر ذهنه بدون نظام.

ألقت بتحية المساء على كليهما.

نهضت «غدرون» هي الأخرى مستأذنة للإنصراف.

قال «جرالد» وهو يلقي نظرة عجلى على الساعة: (لا لزوم لانصرافك الآن، أليس كذلك؟ لا يزال الوقت مبكراً.. سأتمشى برفقتك حين تنصرفين، اقعدي لا تتعجلي بالانصراف).

جلست «غدرون» وكأن إرادته قد تسلطت عليها على الرغم من شروده. لقد شعرت أنها نُوِّمَتْ تنويماً مغناطيسياً، تقريباً، كان غريباً عنها، شيئاً ما غير معروف. ماذا كان يفكر، بماذا كان يشعر، وهو واقف ثمة جد مستغرق، لا ينبس ببنت شفة؟ كان في مستطاعها أن تشعر بأنه كان مستبقيها، لن يدعها ترحل. راقبته في خضوع خانع.

أخيراً تساءلت برقة ممزوجة بذلك التعاطف الدمث الوديع الذي كان يمس وتراً حساساً في قلبه:

ـ (هل كان لدى الطبيب أي شيء جديد ينبئك به؟).

رفع حاجبيه ، وقد بان عليه سيماء التغاضي واللا مبالاة، مجيباً، كأن السؤال كان عرضياً جداً وتافهاً: (كلا... لا شيء جديد. يقول إن النبض جد ضعيف فعلاً، ومتقطّع جداً... لكن ذلك لا يعني الكثير بالضرورة، كما تعلمين). تطلع إليها. كانت عيناها دكناوين، رقيقتين ومنكشفتين، فيهما نظرة منكسرة أثارته.

همهمت بعد لأي: (لا، أنا لا أفقه أي شيء في هذه الأشياء).

قال: (ذلك أفضل. أقول لك، هلاّ دخنت سيكارة؟... افعلي ذلك!).

أسرع فجأة بالعلبة وأولع ناراً قَرَّبها إليها، ثم عاد ووقف أمامها عند المصطلى.

قال: (كلا، ماكان عندنا في الدار حالات كثيرة من المرض قط. نحن كذلك... حتى مرض الوالد). بدا يفكر ملياً فترة وجيزة. ثم واصل وهو يتطلع إليها بعينين زرقاوين صريحتين على نحو غريب أثار فيها الهلع.

ـ (إنه أمر لا تحسبين له حساباً حتى يقع، كما تعرفين، ثم تدركين أنه كان هناك

طيلة الوقت.. كان هناك على الدوام.. أنت تعرفين ما أقصد؟..احتمال الإصابة بهذا الداء العضال، هذا الموت البطيء).

حرك قدميه عند المصطلى الرخامي على نحو يشي بعدم الارتياح، ووضع سيكارته في فمه، وهو يتطلع إلى السقف.

همهمت «غدرون»: (أعرف... إنه فظيع).

لبث يدخن دون وعي. ثم أخذ السيكارة من بين شفتيه، وكشف عن أسنانه، ثم وضع طرف لسانه بين أسنانه وبصق ذرة تبغ، مشيحاً بوجهه قليلاً، كما يفعل رجل موجود وحده أو غارق في لجة التفكير.

قال، ناظراً إليها ثانية: (لا أعرف ماهو أثر ذلك في المرء، فعلاً). كانت عيناها دكناوين، أصابتهما المعرفة إذ تطلعتا في عينيه. لاحظ أنها كانت غارقة في الشقاء، فأشاح بوجهه عنها. (لكنني قد تغيرت كلياً. لم يبق أي شيء إن كنت تدركين ما أعني. يبدو المرء متشبثاً بفراغ.. وهو خاوٍ، نفسه، في الوقت عينه. وهكذا لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل). همهمت: (صحيح). وأضافت، وقد سرت رعشة ثقيلة، في أعصابها، ثقيلة، تكاد تغدو لذة، تكاد تكون ألماً: (ما الذي يمكن عمله؟).

استدار ونفض الرماد من سيكارته على أحجار المصطلى الضخمة الرخامية التي كانت عارية في الغرفة، دون واقية أو حاجز.

أجاب: (لا أدري، أنا متأكد من ذلك... لكنني أعتقد جازماً بأن على المرء أن يجد طريقة ما لحسم الموقف... ليس لأنه يريد ذلك، بل لأنه مضطر، وإلا قضي عليه. إن كل شيء، دون استثناء، بمن في ذلك أنت، آيل إلى الانهيار، إنما أنت تدعمينه من تحت بيديك. حسن، هذا وضع لا يمكن أن يستمر، كما هو واضح، فلن تستطيعين أن تصمدي إلى الأبد في إسنادك السقف بيديك. ولسوف تضطرين إلى الإفلات إن عاجلاً أو آجلاً، كما تعرفين. هل تفهمين ما أعني؟ من أجل هذا لابد من فعل شيء ما، وإلا فسيحدث انهيار كلي... بقدر ما يتعلق الأمر بك أنت).

تحرك أمام المصطلى ليسحق جمرة بكعب حذائه، ثم ألقى نظرة عليها، كانت عينا «غدرون» تستوعب ألواح المصطلى الجميلة القديمة الرخامية الفاخرة بنعومة نحتها، حوله وفوقه، وشعرت كأن القدر قد اقتنصها أخيراً فغدت حبيسة فخّ مروع، مصيري.

همهمت بتواضع: (لكن ما الذي يمكن عمله؟ لابد لك من لقياي إن استطعت أنا إسداء أية مساعدة.. لكن كيف يمكنني ذلك؟ لا أدري كيف أتمكن من مساعدتك).

تطلع إليها بنظرة ناقدة. قال(وقد اغتاظ قليلاً): (لا أريدك أن تساعدي. فليس ثمة أي شيء يمكن عمله. أنا لا أريد سوى التعاطف، هل تدركين ذلك؟ أريد شخصاً ما أستطيع التحدث إليه تعاطفاً، فذلك يخفف الضغط، وليس هناك أي شخص أتعاطف معه بالكلام. هذا هو الغريب في الأمر، ليس ثمة أحد. هناك «روبرت بركن» بيد أنه غير متعاطفٍ، ويريد أن يملي إملاء، وهذا لا يجدي البتة). وقعت في شرك غريب، ألقت نظرة على يديها.

ثم ندَّ صوت الباب المنفتحة بهدوء. جفل «جرالد» وتكدر. وكان ذلك الجفول هو الذي أدهش «غدرون» في واقع الأمر. ثم تقدم بحركة مجاملة، سريعة، رشيقة، مقصودة.

قال: (أوه أمي!.. ما ألطف قدومك إلى هنا. كيف حالك؟).

تقدمت الامرأة المسنة، المتلفعة برداء قرمزي، فضفاض، ضخم، صامتةً، متثاقلة قليلاً كالمعتاد. لبث ابنها بجانبها. جاء بكرسي لها. وقال: (أنت تعرفين الآنسة «برانغوين»، أليس كذلك؟).ألقت الوالدة نظرة غير مبالية على «غدرون» وقالت: (أجل)، ثم أدارت عينيها العجيبتين، الزرقاوين زرقة الزهرة المسماة (لا تنسني)، متطلعة إلى ابنها وهي تهم بالجلوس بتؤدة على الكرسي الذي جاء به إليها.

قالت بصوتها السريع الذي لا يكاد يسمع: (جئت لأستفسر عن أبيك. لم أكن أعرف أن أحداً برفقتك).

- (صحيح؟ ألم تخبرك «وينيفرد» ؟.. لقد بقيت الآنسة «برانغوين» معنا على العشاء لتزيد حيويتنا قليلاً...).

استدارت السيدة «كريتش» ببطء نحو «غدرون» وألقت نظرة عليها، لكن بعينين لا تريان.

- (أخشى أن الدعوة لن تبهجها). ثم استدارت ثانية نحو ابنها: (قالت لي «وينيفرد» أن الطبيب كان لديه ما يقوله بشأن أبيك. ماهو؟)... أجاب «جرالد»: (لاشيء سوى أن النبض ضعيف جداً، وأنه يختل كلياً مرات عدة بحيث أنه قد لا يعيش إلى نهاية الليلة).

لبثت السيدة «كريتش» جالسةً جامدة الشعور تماماً، كأنها لم تسمع. بدت كتلتها متكورة في الكرسي. كان شعرها الأشقر متهدّلاً فوق أذنيها بارتخاء. بيد أن جلدها كان صافياً ورقيقاً. وكانت يداها، وهي جالسة وقد نسيتهما وطوتهما، جميلتين جداً، زاخرتين بطاقة كامنة، لقد بدا أن مقداراً ضخماً من الطاقة كان في سبيله إلى التلف في ذلك الكيان الصامت، الثقيل.

تطلعت إلى ولدها وهو واقف جنبها، مرهف الإحساس، ذا بأس جنودي. كانت عيناها زرقاوين زرقة عجيبة غاية العجب، أكثر زرقة من أزهار (لا تنسني). بدت واثقة ثقة معينة في «جرالد»، وشاعرة بقدر معين من ارتياب أموميّ تجاهه.

همهمت، بصوتها الهادئ هدوءاً غريباً، كأن المقصود كان أن يسمعه هو حسب: (كيف حالك؟ لست صائراً إلى حالة سيئة من التوتر، أليس كذلك؟.. لن تسمح بذلك أن يجعلك مهروعاً).

أجفل التحدي الغريب الذي شاب الكلمات الأخيرة «غدرون».

أجاب بشيء من البرود البهيج: (لا أعتقد ذلك يا والدتي. أنت تعرفين أنه لابد أن يظل امرؤ ما حتى ينتهي الأمر).

أجابت الوالدة على عجل: (وهل فعلوا ذلك؟.. هل فعلوا ذلك؟ لم يتعين عليك أنت أن تتولى الأمر؟ ما الذي يجب عليك أن تفعله لإنهائه؟ إنه سينتهي تلقائياً. مامن حاجة إليك).

أجاب: (كلا، أنا لا أفترض أنني قادر على فعل أي شيء ذي جدوى، المسألة هي أن الأمر مقتصر على كيفية تأثيره فينا).

- (أنت تحب أن تتأثر.. أليس كذلك؟.. إنه ولع مهووس بالنسبة إليك؟ لابد لك من أن تكون ذا شأن. لا حاجة بك لأن تمكث في الدار. لماذا لا ترحل؟..).

فوجئ «جرالد» بهذه العبارات التي هي، كما كان واضحاً، الثمرة الناضجة لساعات كئيبة عدة.

قال ببرود: (لا أظن أن من المجدي الارتحال الآن، يا والدتي، في اللحظة الأخيرة). أجابت الوالدة: (احترس، اهتم بنفسك.. فهذه هي مهمتك. أنت تأخذ الكثير على عاتقك حدّ الإفراط. اهتم بنفسك، وإلا وجدت نفسك في ورطة. هذا ما سيصيبك. أنت مهروع، وقد كنت كذلك دائماً).

قال: (أنا في خير يا والدتي، أؤكد لك ألاً لزوم للقلق بشأني).

- (ليدفن الأموات أمواتهم*.. لا تبادر إلى دفن نفسك معهم.. ذلك ما أقوله لك. أنا أعرف بما فيه الكفاية).

لم يجب على هذا لعدم معرفته ماذا يجب عليه أن يقول. لبثت الأم جالسة متكورة في صمت، ويداها الجميلتان البيضاوان الخاليتان من أي خاتم ممسكتان برمانتي كرسيها ذي الذراعين.

قالت بنبرة تكاد أن تكون مُرَّة: (أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك، إذ ليست لديك قوة الأعصاب. في الحقيقة أنت ضعيف ضعف القط وقد كنت كذلك دائماً. هل أن هذه الشابة باقية هنا؟). قال «جرالد» : (كلا، إنها ذاهبة إلى بيتها هذه الليلة).

- (خير لها إذاً أن تركب العربة التي تجرها الفرس، هل سفرتها بعيدة؟).

- (إلى «بلدوفر» فقط).

- (آه). لم تلق الامرأة المسنة نظرة على «غدرون» قط، ومع ذلك بدت شاعرة بحضورها.

قالت الوالدة وهي تنتصب على قدميها بشيء من الصعوبة: (أنت تميل إلى أن تأخذ على عاتقك أكثر مما ينبغي لك، يا «جرالد»).

سألها بأدب: (هل أنت ذاهبة يا والدتي؟).

أجابت: (نعم، سأصعد ثانية). ثم التفتت إلى «غدرون» قائلة: (تصبحين على خير). ومضت نحو الباب ببطء كما لو كانت غير معتادة على المشي. وعند الباب أعلت وجهها صوبه تلميحاً، فقبّلها. قالت بصوتها الذي لا يكاد يسمع: (لا ترافقني مسافة أبعد. لا أريدك أكثر من ذلك).

ألقى عليها تحية المساء، وراقبها وهي تعبر إلى حيث درجات السلم، وترتقيها على مهل. ثم أغلق الباب وعاد إلى «غدرون». نهضت «غدرون» هي الأخرى، لترحل. قال: (امرأة غريبة الأطوار، أمي هذه). أجابت «غدرون» : (أجل).

- (إن لها أفكارها الخاصة). فأجابت «غدرون» : (أجل). ثم صمتا. سأل: (أتريدين الذهاب؟ نصف دقيقة. سأطلب ربط فرس، حسب...).

---

* مقتبس من الإنجيل ، بمعنى : دع الماضي للنسيان . (المترجم) .

قالت «غدرون»: (كلا، أريد أن أمشي).

كان قد وعد أن يمشي معها الطريق الخاص الطويل الموحش الذي يبلغ طوله ميلاً، وكانت تريد ذلك.. قال: (لعل من الخير استخدام السيارة). فأكدت مشدِّدة: (أفضل السير).

- (أتفضلين ذلك؟ سأجيء معك، إذاً. أنت تعرفين أين هي أشياؤك؟ سأرتدي الجزمة). ارتدى قلنسوة، ومعطفاً فوق بدلة المساء، وخرجا إلى جوف الليل. قال، وقد توقف في ركن مستور من الرواق: (لنشعل سيكارة. ترغبين واحدة كذلك؟).

وهكذا انطلقا، ورائحة التبغ تمتزج بجو الليل، في الطريق المعتم الذي كان يخترق سياجين من الشجيرات المشذبة على نحو دان، عبر مروج منحدرة.

أراد أن يطوقها بذراعه. ولو استطاع أن يطوقها بذراعه ويجتذبها نحوه في أثناء سيرهما، لَتَوَازَنَ، ذلك أنه أخذ يشعر الآن وكأنه كفتا ميزان، إحداهما تهبط نزولاً، نزولاً، نحو فراغ لا قرار له. لابد له أن يستعيد نوعاً من التوازن. وهاهو ذا الأمل، والعودة إلى الوضع السويّ تماماً.

وبدون مراعاة لشعورها، ودون أي تفكير بغير نفسه، مد ذراعه حول خصرها بتسلل ناعم، وجذبها صوبه. أصابها الإغماء في الفؤاد، إذ شعرت بأنها قد اصطيدت. لكن ذراعه كانت من القوة بحيث أنها ذوت جراء قبضته القوية، الهاصرة. ماتت ميتةً صغيرة، وجذبها نحوه وهما يتمشيان والجَيْنْ العتمةَ العاصفة. وبدا كأنه كان يوازنها كامل الموازنة إزاءه، وهما في حركة سيرهما الثنائية. وهكذا غدا، على حين غرة، متحرراً، متكاملاً، قوياً، بطولياً.

مد يده إلى فمه ورمى السيكارة، نقطةً وامضة، في اتجاه سياج الشجيرات غير المنظور، بعدها تحرّر تماماً كي يوازنها. قال وهو في أشد الابتهاج: (هذا أفضل).

كانت نبرة الابتهاج في صوته بالنسبة إليها مثل دواء سام، ذي مذاق يميل إلى الحلاوة. هل كانت، إذاً، تعني كل ذلك بالنسبة إليه؟ رشفت السم. تساءلت ملتاعة: (هل إنك في حال أسعد؟). قال بنبرة الابتهاج عينها: (أفضل كثيراً، لقد كنت مرهقاً كل الإرهاق تقريباً).

دنت منه مستكنة. أُحسَّ بها نعومةً كليةً ودفئاً، فقد كانت الجوهر النفيس، اللطيف لكيانه. لقد سرى فيه دفءُ حركةِ مشيتها، على نحوٍ رائع.

قالت: (يسرني كثيراً إن ساعدتك). أجاب: (نعم، ليس من أحد آخر يستطيع أن يفعل ذلك، إنْ لم تفعلي أنت). خاطبت نفسها وقد غمرتها رعدة فرح غامر غريب، قتّال: (ذلك صحيح).

وفيما كانا يتمشيان، بدا كأنه رافعها أقرب فأقرب إلى نفسه، حتى أخذت تتحرك على مركب جسمه الركين. كان جد قوي، جد مُعين، لا تمكن مقاومته. فانساقت قدماً في تلاحم رائع للحركة البدنية، حدر سفح التل المعتم، العاصف. وفي الأفق البعيد، كانت تتلألأ أضواء (بلدوفر) الصفر، الصغيرة، بأعداد كبيرة، منتشرة في رقعة كثيفة من تل معتم آخر. بيد أنهما كانا يتمشيان في عتمة تامة، منعزلة، خارج العالم.

جاء صوتها، بنبرة تكاد تكون متشكية: (لكن ما مقدار اهتمامك بي؟ المسألة هي أنني لا أعرف، لا أفهم).

رن صوته بانبساط أليم: (ما مقدار ذلك؟ لا أدري أنا الآخر.. لكنه كل الاهتمام).

لقد أجفله تصريحه هو. كان ذلك صحيحاً. وهكذا جرد نفسه من كل وقاية في هذا الإقرار لها. كان مهتماً بها كل الاهتمام.. كانت كل شيء.

جاء صوتها الخفيض، مندهشاً مرتجفاً: (لكنني لا أستطيع أن أصدق ذلك). كانت ترتجف من ارتياب وابتهاج. هذا هو الشيء الذي كانت تريد أن تسمع، هذا حسب، أما وقد سمعته الآن، سمعت جرس الحقيقة المصطفق، الغريب، في صوته، وهو يقولها، فإنها لم تستطع أن تصدق، لم تستطع أن تصدق.. ولم تصدق. ومع هذا صدقت، منتصرة بسرور مهلك.

قال: (لم لا؟.. لماذا لا تصدقين؟ إنها الحقيقة إنه حقيقي كوقفتنا في هذه اللحظة). لبث واقفاً معها في مهب الريح بلا حراك. (لا يهمني أي شيء في الأرض، أو في السماء، خارج هذه البقعة التي نحن فيها. وليس حضوري نفسه هو ما أهتم به، إنه حضورك بكامله. أنا مستعد لأبيع روحي مئة مرة، لكنني لا أستطيع أن أتحمل عدم وجودك هنا. لا أستطيع أن أتحمل أن أكون وحيداً، فقد ينفجر دماغي. إنها الحقيقة).

أدناها إليه بحركة جازمة. همهمت خائفة: (لا). ومع ذلك، كان ذلك هو ما ابتغته،

لماذا فقدت الشجاعة هكذا؟.. استأنفا مسيرتهما الغريبة. كانا غريبين جداً.. لكنهما كانا قريبين على نحو فظيع جداً، لا يُتَصَوَّر. فكأنه الجنون. ومع هذا كان ذلك ماكانت تريد، كان ذلك ماكانت تريد. هبطا التل، وهاهما قادمان نحو القنطرة المربعة حيث يمر الطريق تحت سكة المناجم. كانت للقنطرة، كما تعرف «غدرون»، جدران من الأحجار المربعة المكسوة بالطحلب الذي يتقاطر منه الماء، من جانب، والجافة من الجانب الآخر، كانت قد وقفت تحتها من قبل لتسمع ضجيج القطار المرعد إذ يمر على خشب العارضات، فوق الرؤوس؛ كما كانت تعرف أنه تحت هذا الجسر المعتم، المتوحد، كان يقف الشباب من عمال المناجم في الظلام مع حبيباتهم في الجو الممطر. وهكذا، أرادت أن تقف تحت الجسر مع حبيبها هي، وأن يقبلها تحت الجسر في العتمة غير المرئية. تثاقلت خطواتها فيما كانت تقترب.

هكذا توقفا تماماً، تحت الجسر، ورفعها إلى صدره، اهتز بدنه متوتراً قوياً فيما كان يطبق عليها ويهصرها، وهي لاهثة، دائخة ومتحطمة، يهصرها على صدره. آه، كان ذلك فظيعاً وكاملاً، فَتَحْتَ هذا الجسر كان عمال المناجم يضمون حبيباتهم إلى صدورهم ضماً. والآن، تحت الجسر كان سيدهم جميعاً يضمها ضماً لنفسه! وكم كانت ضمته أفظع وأقوى بكثير من ضمتهم. وكم كان حبه أشد تركيزاً وروعةً من حبهم في الموقف عينه! لقد شعرت بأنها كانت ستسقط مغشياً عليها، تموت تحت وطأة الشدّ الراعش اللا بشري لذراعيه وجسمه.... كانت ستقضي نحبها. ثم تراخى التراجف الشديد الذي لا يصدق، وغدا أكثر تماوجاً. تراخى هو، وجذبها معه للوقوف، مولياً ظهره إلى الحائط.

لقد كادتِ أن تفقد الوعي هكذا. إذاً كان العشاق من عمال المناجم يقفون وظهورهم إلى الحيطان، مطوقين حبيباتهم ومقبليهن كما كانت تُقَبَّلُ هي الآن. آه، لكن هل كانت قبلاتهم في مثل لطافة وقوة قبلات السيد ذي الفم الحازم؟ حتى الشارب المنسدر، القصير القصّة، كان يعوز عمال المناجم.

كانت حبيبات عمال المناجم، مثلها، يرخين رؤوسهن إلى الوراء على أكتافهن، وينظرن عبر فتحة القنطرة المعتمة إلى الرقعة الكثيفة من الأضواء الصفر على التل غير المرئي القائم في البعيد، أو إلى الشكل الغامض للأشجار، أو إلى مباني ساحة أخشاب المنجم، في الاتجاه الآخر.

كانت يداه قد أحكمتا تطويقها، وبدا لامّاً إياها إلى نفسه، لامّاً دفئها، نعومتها، ثقلها الفاتن، وهو يكرع مُنْسَكَبَ كيانها البدني، بلهفٍ وشراهة. رفعها وبدا كأنه يصبّها في ذاته، مثل نبيذ يُصَبُّ في كأس. قال بصوت غريب نفاذ: (هذا يعدل كل شيء).

هكذا تراخت وبدت ذائبة، متدفقة فيه، كما لو كانت مُنْسَكَباً دافئاً، ثميناً جداً، يملأ عروقه، كخمر مسكر. طوقت ذراعاها عنقه فقبّلها وأمسك بها معلّقة تماماً، فغدت كلّها مرتخيةً ومتدفقة فيه، وكان هو الكأسَ الثابتةَ القوية التي تتلقى نبيذ حياتها. وهكذا لبثت ملقاةً عليه، جانحة، مرفوعة إليه، لصيقة به، ذائبة، ذائبة تحت وطأة قبلاته، وذَوَبُها يتغلغل في أطرافه وعظامه كما لو كان هو حديداً مطاوعاً قد زخر بحيويتها الكهربائية. حتى بدت مغمى عليها، وأخذ عقلها يغيب شيئاً فشيئاً، وامّحتْ من الوجود وكان كل شيء فيها قد ذاب وسال، ولبثت ساكنة يحتويها هو وهي راقدة فيه كما يرقد البرق على الحجر الخالص الناعم. وهكذا امّحت وحلّت فيه، فاكتمل.

حين فتحت عينيها ثانية ورأت رقعة الأضواء عن بعد، بدا لها أن من الغريب أن يكون العالم لا يزال قائماً وأنها واقفة تحت الجسر مريحة رأسها على صدر «جرالد». «جرالد» ؟ مَنْ كان؟ ... كان المغامرة الرائعة، المجهولَ الشهيَّ بالنسبة إليها.

نظرت إلى أعلى، وفي الظلمة رأت وجهه فوقها، وجهه الوسيم الرجولي. بدا نور باهت أبيض ينبعث منه، هالة بيضاء كما لو كان هو زائراً قادماً من اللا منظور. مدت يديها مثلما مدت حواء يديها إلى تفاحات شجرة المعرفة، وقبلته، وإن كانت عاطفتها عبارة عن خشية فائقة من الشيء الذي كان، ولامست وجهه بأناملها المتعجبة، المتجاوزة، الرقيقة غاية الرقة. تفحصت أناملها شكل وجهه، ملامحه. ما أكمله وما أغربه! آه، ما أخطره! ارتعدت روحها من كمال المعرفة. كان ذلك هو التفاحة اللماعة، المحرَّمة: وجه هذا الرجل. قبلته، واضعة أناملها على وجهه، عينيه، منخريه، على حاجبيه وأذنيه، على رقبته، كي تعرفه، كي تستجمعه باللمس. كان ثابتاً وجميل الشكل جداً، جمالاً مُشْبِعاً بما لا يمكن تصوره، غريباً لكنْ صافياً صفاءً يُجلّ عن الوصف. كان عدوّاً يَجلّ عن الوصف إلى حد بعيد، لكنْ مشرقاً بنار بيضاء خارقة للطبيعة. كانت تريد أن تتحسسه، وتتحسسه، وتتحسسه حتى تتملكه يداها كلياً،

حتى يتم لها هصره في ذوب معرفتها. آه لو تمكنت من الاستحواذ على معرفته الثمينة إذاً لامتلأت ولن يكون في الاستطاعة حرمانها من هذا إطلاقاً. ذلك أنه كان غير مضمون جداً، محفوفاً بمخاطر كثيرة في عالم اليوم المألوف. همهمت في حلقها: (ما أجملك!).

كان محتاراً، معلقاً، لكنها أحست به يرتعد، فدنت دون إرادتها متقربة منه. لم يكن في يده حيلة. لقد وقع تحت سيطرة أصابعها. إن الرغبة التي لا قرار لها، التي كان في استطاعة أناملها أن تثيرها فيه، كانت أعمق من الموت حيث لا خيار له فيه.

بيد أنها قد عرفت الآن، وكفى. لقد تدمرت روحها بالرعدة ا لرائعة لبرقه السيّال الذي لا يرى. كانت تعرف ذلك. وهذه المعرفة كانت موتاً وجب عليها الخلاص منه. ما مقدار ما بقي منه مما يتعين عليها أن تعرفه؟ آه، الكثير، الكثير، حصاد أيام جديدة بيديها الواسعتين، لكنْ الحاذقتين، الرقيقتين تماماً، في حقل جسمه الحي، الإشعاعي النشاط. آه، كانت يداها تواقتين تطمعان في المعرفة. لكن ذلك كان كافياً في الوقت الحاضر، كافياً بالقدر الذي كانت روحها تتحمله، فلو زاد كثيراً ستتهشم هي، ستملأ القارورة الرقيقة بأسرع مما يجب، فتتكسر، يكفي هذا الآن. يكفي في الوقت الحاضر. ستكون ثمة الأيام التالية برمتها حين تستطيع يداها، مثل الطيور، أن تقتات في حقول شكله الملغز، المطواع.. كفى، حتى ذلك الحين.

حتى إنه سُرَّ أن قد أُوقِفَ عند حده وعُنِّفَ وكُبِحَ جَماحه. ذلك أن الاشتهاء خير من الامتلاك، فنهائية الختام كانت مخيفة بالشدة التي كانت بها مشتهاة.

واصلا السير صوب البلدة، إلى حيث انتظمت المصابيح فرادى، تفصلها مسافات طوال باتجاه الدرب الرئيس المعتم للوادي. وأخيراً بلغا بوابة الطريق الخاص. قالت: (لا تأتِ مسافة أبعد). تساءل، مرتاحاً: (أتفضلين ألا أفعل ذلك؟).

لم يرد المضي معها في الشوارع العامة وروحه على ماكانت عليه من عري تام واتّقاد.

- (أفضل ذلك كثيراً... طابت ليلتك). مدت يدها، مسكها ثم مسَّ الأنامل الخطرة الجبارة بشفتيه. قال: (طابت ليلتك. إلى الغد).

افترقا. مضى إلى البيت وهو يزخر بقوة الرغبة في الحياة وسلطانها. بيد أنها لم تأتِ في اليوم التالي، بل أرسلت خطاباً موجزاً مفاده أن نوبة برد قد ألزمتها الفراش.

هو ذا العذاب! لكنه تمالك نفسه بقدر ما من الصبر وكتب جواباً مقتضباً ينبئها فيه كم هو آسف لعدم رؤيتها.

وفي اليوم التالي، مكث في البيت.. فقد بدا له أن لا جدوى البتة من الذهاب إلى المكتب: فأبوه لن يستطيع العيش حتى نهاية الأسبوع. وكان هو يريد أن يلازم الدار، مُعَلَّقاً.

جلس «جرالد» على كرسي قرب النافذة في غرفة أبيه. كان المنظر الطبيعي في الخارج داكناً وشتائي التلبد. وكان أبوه راقداً في مضجعه، أشيب شاحباً شحوب الموتى. وكانت ثمة ممرضة تتنقل صامتة، بردائها الأبيض، أنيقةً رشيقة بل جميلة. كان أريج ماء الكولونيا يعبق في جو الغرفة. خرجت الممرضة، وبقي «جرالد» وحيداً مع الموت مواجهاً المنظر الخارجي الشتائي العتمة.

انبعث من السرير الصوت الخافت، الحازم، النكد: (هل هناك المزيد من الماء في «دنلي»؟). كان الرجل المحتضر يسأل عن نضحٍ من (ويلي غرين) ينزّ في إحدى حفر المناجم.

قال «جرالد»: (بقي قليل منه. سيتعين علينا أن نفرغ البحيرة).

ترشح الصوت الخافت حتى تلاشى وهو يقول: (هلا فعلت ذلك؟). تلا ذلك سكون كسكون الموت. لبث الرجل العليل ذو الوجه الرمادي اللون راقداً مغمض العينين، أكثر موتاً من الموت. أشاح «جرالد» بوجهه، وشعر أن قلبه قد ذوى وأنه قد يهلك إذا طال أمد هذا الوضع.

فجأة سمع صوتاً غريباً. التفت فألفى عيني أبيه مفتوحتين على مداهما تجهدان وتتقلبان في نوبة من الصراع اللا بشري. وثب «جرالد» على قدميه فزعاً ولبث متسمّراً في هلع.

ندّت حشرجة مريعة خانقة من حنجرة والده: (وا... آه... ه...ه)، وتقلّبت عيناه الخائفتان المخبولتان على نحو فظيع في طلبها الجامح، غير المجدي، للمساعدة، متنقلتين على نحو أعمى إلى «جرالد»، ثم تدفق الدم الغامق على وجه الكائن المحتضر. ارتخى الجسد المشدود وسقط الرأس جانباً على الوسادة.

لبث «جرالد» واقفاً دون حراك وروحه تتصادى في هلع. كان يود أن يتحرك لكنه لم يستطع. لم يستطع أن يحرك أطرافه. وبدا دماغه يرجع الصدى كالنبض.

دخلت الممرضة المرتدية البزة البيضاء بهدوء. ألقت نظرة على «جرالد»، ثم على السرير.

انطلقت صيحتها الرقيقة المتشنجة: (آه!)، ثم هرعت إلى الرجل الميت. (آه... ه!). هكذا جاء الصوت الضئيل الصادر عن ألمها المنفعل، فيما وقفت منحنية عند طرف السرير. ثم استعادت رشدها واستدارت، وأقبلت طلباً لمنشفة وإسفنجة. شرعت تمسح الوجه الميت بعناية، مغمغمةً، ناشجةً تقريباً على نحو جد رقيق: (مسكين سيد «كريتش»!.. مسكين سيد «كريتش»! .. أوه، مسكين سيد «كريتش»!...).

رن صوت «جرالد» قوياً: (هل مات؟).

أجاب صوت الممرضة الرقيق النائح فيما تطلعت إلى وجه «جرالد»: (أوه نعم، لقد رحل). كانت شابة وجميلة ومرتعدة. بانت على وجه «جرالد» تكشيرة غريبة من نوعها من الهلع. ثم خرج من الغرفة.

كان يقصد إخبار والدته. وعلى منبسط السلم لقي أخاه «بيزل». قال، وهو عاجز تقريباً عن خفض صوته، كي لا يتيح لصوت غير واع مخيف جذل أن يتسلل إلى الأسماع: (لقد مات يا «بيزل»).

صاح «بيزل» وقد شحب لونه: (ماذا؟). أومأ «جرالد» برأسه، ثم واصل سيره إلى غرفة والدته. كانت جالسة مرتدية ثوبها الأرجواني، تخيط ببطء شديد، تخيط غرزةً، غرزةً. تطلعت إلى «جرالد» بعينيها الزرقاوين الجريئتين. قال: (لقد رحل الوالد).

- (مات؟ من يقول هذا؟).

- (أوه يا والدتي، لسوف تعلمين إن شاهدته). نحّت ما كانت تخيطه جانباً، ونهضت ببطء. سألها: (هل ستلقين نظرة عليه؟). قالت: (نعم). كان الأطفال قد وقفوا إزاء السرير في جمع باكٍ.

صاحت البنات، في نوبة بكاء تكاد لا تكبح، وهن ينتحبن عالياً: (أوه، يا أماه).

لكن الأم مضت قدماً.. كان الميت راقداً في ارتياح، كأنه نائم بوداعة، غاية الوداعة، غاية السكينة، مثل شاب نائم في براءة. كان لا يزال دافئاً. لبثت واقفة ترنو إليه فترة في صمت كئيب، ثقيل.

أخيراً، قالت بمرارة كأنها تتحدث إلى شهود السماء غير المرئيين: (أي نعم، هاقد مُتَّ). ظلت واقفة في صمت بضع دقائق، خافضةً بصرها. ثم قالت جازمة بدندنة خفيضة: (جميل... جميل كأن الحياة لم تكن قد آذتك قط.. لم تكن قد آذتك قط. من عطايا الله أنني أبدو مختلفة. آمل أن أبدو على نحو متفق مع سنوات عمري حين أموت. جميل.. جميل). ثم أردفت: (في وسعكم أن تشاهدوه وكأنه في سن المراهقة، وقد ظهرت لحيته على وجهه أول مرة... روح لطيفة، لطيفة..). ثم تمزق صوتها انفعالاً وهي تهتف: (لن يكون أحد منكم شبيهه عندما تموتون! لا تدعوا ذلك يحدث مرة أخرى)... كان أمراً غريباً صادراً عن المجهول: تضامَّ أبناؤها دون وعي في جمع أكثر تقارباً، عند سماعهم الأمر المريع، وتورد خداها زاهيين وبدت فظيعة ومدهشة. (لوموني، لوموني إن شئتم، لرقوده ثمة مثل صبي لم يبلغ العشرين، وقد ظهرت لحيته على وجهه أول مرة. لوموني إن شئتم. لكن مامن أحد منكم على بيّنة). صمتت صمتاً مطبقاً. ثم تكلمت في صوت خفيض، متوتر: (لو ظننت أن الأطفال الذين حملتهم سوف يرقدون رقدة الموت بهذه الصورة لخنقتهم وهم رضّع، أي نعم..).

جاء صوت «جرالد» المرتفع، الغريب من الخلف: (كلا: يا والدتي، نحن مختلفون، ونحن لا نلومك).

التفتت وحدقت إليه بنظرة عميقة، ثم رفعت يديها في نصف إيماءة غريبة من يأس مخبول.

قالت بقوة: (صلّوا! صلّوا لله من أجل نفوسكم، فلا عون لكم من والديكم). صرخت بناتها باهتياج مفرط: (أوه، يا أماه!).

بيد أنها كانت قد استدارت ومضت، فتفرق الجميع على عجل.

حين سمعت «غدرون» أن السيد «كريتش» قد قضى نحبه، شعرت باللوم. كانت قد نأت لئلا يظنها «جرالد» سهلة المنال جداً. والآن كان في غمرة الضيق، في حين كانت هي باردة.

في اليوم التالي عرجت على «وينيفرد» كالمعتاد، فسُرّت هذه للقياها، سُرَّت لخلاصها بالذهاب إلى المرسم. كانت الفتاة قد بكت، وإذ خافت غاية الخوف، أعرضت جانباً لتتفادى المزيد من الاحتمالات المأساوية.

استأنفت «غدرون» العمل في عزلة المرسم، كالمعتاد، وبدا ذلك سعادة لا حد لها، عالماً خالصاً من الحرية، عقب البؤس والضياع اللذين حلا في الدار. لبثت «غدرون» حتى المساء وجيء بالعشاء لها ولـ «وينيفرد» إلى المرسم، حيث أكلتا بحرية، بعيداً عن أهل الدار كافة.

أقبل «جرالد» بعد العشاء. كان المرسم العالي الواسع ظليلاً جداً، وعابقاً بنكهة القهوة. كانت لدى «غدرون» و «وينيفرد» مائدة صغيرة قرب المصطلى، في الطرف البعيد وعليها مصباح أبيض لا يبتعد ضوؤه كثيراً. كانتا تشكلان عالماً صغيراً خاصاً بهما، وكانت الظلال اللطيفة تحيط بالفتاتين، وثمة دعامات وروافد ظليلة فوق الرؤوس، ومصطبات وعُدَدٌ ظليلة في أرض المرسم. قال «جرالد» وهو يقبل عليهما: (أنتما مرتاحتان هنا بما فيه الكفاية).

كان هناك مصطلى قرميدي واطئ مليء بالنار، وبساط تركي قديم أزرق، والمائدة الصغيرة المصنوعة من خشب البلوط، والمصباح، والغطاء الأبيض والأزرق وعُقبة الحلوى والفاكهة، و «غدرون» تصنع القهوة في ركوة قديمة من الصُّفْر* و«وينيفرد» تسخن قليلاً من الحليب في قدر صغيرة ذات مقبض.

قالت «غدرون» : (هل تناولت القهوة؟).

أجاب: (اجل، لكنني سأستزيد منها معكما).

قالت «وينيفرد»: (لابد إذاً أن تشربها في كأس. فليس هناك سوى قدحين).

قال وهو يسحب كرسياً فيلج حلقة الفتاتين المسحورة: (لا فرق بالنسبة إلي). كم كانتا سعيدتين! ما أروع رفقتهما وأفتنها في عالم من الظلال العالية! لقد امّحى تماماً العالم الخارجي الذي كان يباشر فيه مشغلة الجنازة طيلة اليوم. وفي لحظةٍ تنشّقَ الفتنة والسحر.

كانت جميع أشيائهما لطيفة جداً: قدحان صغيران لطيفان غريبان، قرمزيا اللون ومذهبان، وإبريق اسود صغير بأقراص قرمزية، وماكنة البن الغريبة التي كان لهبها الكحولي ينطلق على نحو دائم، لا يكاد يُرى. كان ثمة أثر لثراء شبه منحوس، سرعان ما لاذ به «جرالد».

---

* الصُّفْر : النحاس الأصفر . (المترجم) .

قعد الجميع، وصبت «غدرون» القهوة باعتناء.

سألت بهدوء وهي توازن الإبريق الصغير الأسود ذا النقاط الكبيرة الحمر بعصبية: (هل تريد حليباً؟). كانت دائماً ذات سيطرة تامة، لكنها عصبية على نحو مرّ. أجاب: (كلا، لا أريد).

وهكذا قدمت قدح القهوة الصغير له، بمذلة غريبة، وتناولت هي الكأس غير الملائم. بدت راغبة في خدمته.

قال: (لماذا لا تعطيني الكأس؟... إنه لا يناسبك البتة). كان يفضل أخذه هو، ومشاهدتها تخدم بأناقة، لكنها كانت ساكنة، قد سرّها التمايز وإذلال الذات. قال: (أنتما تجيدان إدارة شؤون البيت)*. قالت «وينيفرد»: (نعم. إننا في الحقيقة لا نحسن استقبال الضيوف).

- (أولستما كذلك؟.. إذاً أنا متطفل؟)..

شعر أول مرة بأن بدلته العادية لم تكن مناسبة... كان دخيلاً.

كانت «غدرون» هادئة جداً. لم تشعر بالميل إلى التحدث إليه. في هذه المرحلة، كان السكوت هو الأفضل، أو الكلمات الخفيفة حسب. كان الأفضل تنحية الأشياء الجدية. وهكذا لبثوا يتبادلون الأحاديث الظريفة، الخفيفة، إلى أن سمعوا الرجل الذي كان في الأسفل يسوق الحصان إلى الخارج وينادي عليه أن أرجع! أرجع! إلى مربط العربة الصغيرة التي كان من المقرر أن تقل «غدرون» إلى البيت. وهكذا أخذت أشياءها، وصافحت «جرالد» دون أن تلاقي عينيه ولو مرة، ثم مضت.

كانت مراسم الجنازة كريهة، وبعدها أخذت البنات يكررن القول على مائدة الشاي بأنه: «كان أباً طيباً حيالنا... خير أب في الدنيا»... أو «لن يكون من السهل علينا أن نجد رجلاً آخر في مثل طيبة أبينا».

أذعن «جرالد» لكل ذلك. كان ذلك هو الموقف التقليدي السليم، وكان هو مؤمناً بالتقاليد بقدر تعلق المسألة بأمور الدنيا. كان يأخذها مأخذ الأمور المتوقعة. لكن «وينيفرد» كانت كارهة كلّ شيء، واختفت في المرسم وبكت بكاءً مراً وتمنت لو جاءت «غدرون».

---

* قالها بالفرنسية. (المترجم).

من حسن الحظ أن الجميع كانوا مقبلين على الارتحال. فلم يكن من عادة آل «كريتش» البقاء طويلاً في الدار قط. وعند حلول موعد العشاء ألفى «جرالد» نفسه وحيداً تماماً. حتى «وينيفرد» سُفِّرت إلى لندن بضعة أيام مع أختها «لورا».

لكنْ حين تُرِكَ «جرالد» وحيداً فعلاً لم يستطع تحمل ذلك. انصرم يوم، ثم آخر. وطيلة الوقت كان مثل رجل معلّق بسلاسل فوق حافة هاوية. ومهما كافح لم يتمكن من التحول إلى الأرض الصلدة، وما استطاع أن يظفر بموطئ قدم. كان معلقاً بحافة فراغ، يتلوى. ومهما أعمل تفكيره لم تكن ثمة سوى الهاوية سواءً أكان تفكيره بالأصدقاء أم بالغرباء أم بالعمل أم باللعب. كل ذلك لم يُرِه إلا الفراغ عينه الذي لا قرار له حيث كان قلبه يتأرجح نحو الهلاك. ما كانت ثمة منجاة. ما كان ثمة أي شيء يتشبث به، يتمسك به. لابد له من أن يتأرجح على حافة الهاوية متعلقاً بقيود الحياة البدنية غير المرئية.

في أول الأمر كان هادئاً، محتفظاً بسكينته، متوقعاً زوال الشدة، متوقعاً أن يجد نفسه طليقاً في دنيا الأحياء بعد هذه المصيبة المكفِّرة عن الذنوب. لكنها لم تزل ثمة، فتملكته أزمة.

ما إن حل مساء اليوم الثالث حتى أخذ فؤاده يقرع من خوف. لن يستطيع تحمل ليلة أخرى قادمة وليلة أخرى كتب عليه أن يظل معلقاً بسلاسل الحياة البدنية فوق حفرة اللا شيئية التي ليس لها قرار. وهذا مالم يكن يستطيع تحمله. لم يكن يستطيع تحمله. تملكه الخوف عميقاً، بارداً، خوف يتغلغل في روحه. لم يعد يؤمن بقوته الذاتية. ماكان في وسعه السقوط في هذا الفراغ اللا متناهي والنهوض ثانية. فلو سقط لذهب إلى الأبد. لابد له من أن ينسحب. عليه أن يلتمس ما يقوّيه. لم يعد يؤمن بذاته المفردة نفسها بعد الآن.

بعد العشاء، تلفّت جانباً، وهو في مواجهة التجربة الختامية للا شيئية الذاتية. لبس جزمته، وارتدى معطفه وانطلق سائراً في عتمة الليل.

كان الجو معتماً وضبابياً، مضى مخترقاً الغابة، متعثراً، متحسساً سبيله إلى (الطاحونة). كان «بركن» غائباً. حسن... سرّه ذلك نصف مَسَرَّة. استدار مرتقياً التل، وتعثر كالأعمى في المنحدرات القفر بعد أن أضاع المسلك في الظلمة الحالكة. سرى

الضجر في نفسه. إلى أين كان ذاهباً؟ لم يهمّه ذلك. واصل تعثّره حتى بلغ أحد المسالك ثانية. بعدها اخترق غابة أخرى. اظلَمَّ ذهنه فاستمر تلقائياً. ودون فكر أو حس، استمر يتعثر على نحو غير سوي حتى خرج إلى أرض مفتوحة ثانية، متلمساً المراقي، مضيعاً أثر المسلك، ماشياً بمحاذاة أسيجة شجيرات الحقول حتى بلغ المخرج.

أخيراً بلغ الطريق العام. كان كفاحه الأعمى عبر تيه الظلام قد بلبل فكره. لكن يجب عليه الآن أن يعيّن اتجاهه. بيد أنه لم يكن يعرف حتى موقعه. لكنه يجب أن يحدد اتجاهاً الآن. لن تُحَل أية مشكلة بمجرد السير، السير تهرباً. لابد له من أن يتخذ وجهةً.

لبث واقفاً في الطريق العام وسط الليل الحالك السواد، ولم يعرف أين كان. كان شعوراً غريباً، وقلبه يدق، وقد أحاط به الظلام المجهول كلياً. وهكذا ظل واقفاً بعض الوقت.

ثم سمع وقع أقدام، ولمح ضوءاً خافتاً متأرجحاً، فسعى إليه في الحال. كان أحد عمال المناجم. قال: (هل تستطيع أن تخبرني إلى أين يؤدي هذا الطريق؟).

ـ (طريق؟ نعم، إنه يؤدي إلى «واتمور»).

ـ («واتمور»؟ أوه، أشكرك. صحيح... حسبت أنني على خطأ. طابت ليلتك).

أجاب صوت العامل العريض: (طابت ليلتك).

خمّن «جرالد» موقعه. ولسوف يعرف، في الأقل حين يصل إلى (واتمور). فرح لأنه أصبح في طريق عام. سار قُدُماً كأنه في رقدة عزوم.

هل كانت تلك قرية (واتمور)؟ أجل. ذلك هو (كنغزهيد)*، وتلك هي بوابات القاعة. هبط التل الشديد الانحدار جرياً، تقريباً، وإذ شق طريقه الملتوي عبر الغور، مر بالمدرسة الثانوية وبلغ كنيسة (ويلي غرين). باحة الكنيسة! فتوقف.

ثم، وفي لحظة ثانية، ارتقى السور وأخذ يسير بين القبور. حتى في تلك العتمة كان في مستطاعه أن يلحظ الاصفرار المكوَّم لأزهار بيض ذاوية، عند قدميه. هذا، إذاً، هو اللحد. انحنى. كانت الأزهار باردة وندية. كان ثمة عبق فج من زهور الأقحوان

---

* الأرجح أن يكون هذا اسم مشرب عام. (المترجم).

ونباتات مسك الروم الميتة. أحس بوجود الطين تحت قدميه فانكمش. كان دبقاً وبارداً جداً حد الفظاعة فابتعد مشمئزاً.

هاهنا، إذاً، أحد المراكز، هنا في الظلمة الحالكة جنب اللحد الخام الذي لا يُرى، لكنْ لم يكن له أي شأن هنا. كلا، مامن شيء هنا يستبقيه. أحس كأن شيئاً من الطين آخذ في الالتصاق بارداً، غير نظيف، بفؤاده. لا هذا يكفي.

إلى أين، إذاً؟... البيت؟ أبداً، لا جدوى من الذهاب إلى هناك، بل أقل من اللا جدوى. لا يمكن فعل ذلك. هناك مكان ما آخر يحسن الذهاب إليه. أين؟

اتخذ قراراً خطراً في فؤاده، كفكرة ثابتة، هناك «غدرون» .. ستكون في مأمن في مسكنها. لكنه يستطيع بلوغها.. ينشد بلوغها. لن يعود الليلة حتى يكون قد أتاها ولو كلف ذلك حياته. راهن بكل شيء على هذه المغامرة...

انطلق ماشياً، مخترقاً الحقول صوب (بلدوفر) مباشرة. كان الظلام حالكاً إلى درجة لا تمكّن أحداً من أن يراه أبداً. كانت قدماه مبللتين، باردتين وقد أثقلهما الطين. بيد أنه واصل السير مثابراً كالريح إلى الأمام مباشرة كأنه متوجه إلى مصيره. كانت هناك ثغرات كبيرة في وعيه.

كان يدرك بأنه في قرية (وينثروب) لكنه غير واعٍ تماماً بكيفية وصوله إلى هناك. بعد ذلك، كما في حلم، ألفى نفسه في شارع (بلدوفر) الطويل، ذي المصابيح.

كانت ثمة ضجة أصوات، وباب تصفق وتغلق بمزلاج، ورجال يتحادثون في الليل. لقد أغلق (لورد نلسن)* أبوابه تواً، وأخذ الشاربون يتوجهون إلى بيوتهم. خير له أن يسأل أحد هؤلاء عن موقع دارها.. ذلك لأنه لم يكن يعرف الشوارع الفرعية إطلاقاً.

سأل أحد الرجال المترنحين: (هل يمكنك أن تخبرني أين يقع شارع «سومرست درايف»؟).

أجاب صوت عامل المنجم المخمور: (أين ماذا؟).

- («سومرست درايف»).

- («سومرست درايف»؟.. سمعتُ عن مثل هذا المكان، لكنني، وحياتي، عاجز عن أن أقول أين هو. مَنْ عساك تريد؟)..

* لابد أن يكون هذا اسم مشرب عام. (المترجم)

ـ (السيد «برانغوين»... «وليم برانغوين»).

ـ («وليم برانغوين»؟...).

ـ (الذي يدرّس في المدرسة الثانوية في (ويلي غرين)... وكذلك تفعل ابنته).

ـ (أو.... و... وه «برانغوين»!... الآن قد فهمتك. طبيعي، «وليم برانغوين»... نعم.. نعم.. عنده صبيتان تدرّسان بالإضافة إلى شخصه، نعم، هو ذاك.. هو ذاك! أكيد، أعرف محل سكناه، من المؤكد، أراهن بحياتك أنني أعرفه! نعم.. أي مكان يسمونه؟).

كرر «جرالد» بصبر: «سومرست درايف». كان يعرف عماله معرفة حسنة.

قال عامل المنجم وهو يدير ذراعه كما لو كان يوشك أن يمسك شيئاً ما عالياً: («سومرست درايف»، مؤكد! «سومرست درايف»... نعم! ما استطعت ـ وحياتي ـ أن أتثبت من موقع المكان... نعم، أنا أعرف المكان، أعرفه على وجه التأكيد).

استدار على قدميه بحركة قلقة وأشار باتجاه الطريق المظلم، المهجور تقريباً.

ـ (امضِ إلى هناك، وسر في أول... نعم، أول منعطف إلى يسارك... إلى تلك الجهة... ماراً بحانوت (وينامسيس) للحلويات...).

قال «جرالد» : (أنا أعرف).

ـ (أجل! انزل قليلاً، مروراً بمسكن المجذِّف.. حيث يتفرع «سومرست درايف» كما يسمونه، على جهة اليمين... حيث لا توجد إلا ثلاثة بيوت، لا أكثر من ثلاثة كما أظن... وأكون متأكداً من أن دارهم هو الأخير.. آخر الثلاثة.. كما تلاحظ).

قال «جرالد» : (أشكرك جزيل الشكر، طابت ليلتك).

ثم انطلق. تاركاً الرجل المخمور واقفاً متسمراً.

مضى «جرالد» قدماً، ماراً بالحوانيت والبيوت المظلمة، التي كان معظم أصحابها نياماً، واستدار نحو الزقاق غير النافذ الذي كان ينتهي بحقل من الظلام. تباطأ فيما اقترب من مقصده، غير عارف كيف يجب عليه أن يتصرف. ماذا لو أن الدار كانت مغلقة في العتمة؟...

لكنها لم تكن كذلك. فقد شاهد نافذة كبيرة مضاءة، وسمع أصواتاً، ثم قَرْعَ بوابة. التقطت أذناه المرهفتان صوت «بركن»، وشخصته عيناه الحادتان وهو بمعية

«أرسيولا» التي كانت واقفة على درجة ممر الحديقة، مرتدية ثوباً باهت الألون. ثم نزلت «أرسيولا» وتوجهت إلى الطريق، ماسكة ذراع «بركن».

ولج «جرالد» في الظلام، فمرّا به، وهما يتعابثان متمهلين، ويتحادثان مسرورين. كان صوت «بركن» واطئاً، وصوت «أرسيولا» عالياً، واضحاً. اتجه «جرالد» إلى البيت مسرعاً.

كانت الستائر مزاحة من أمام النافذة الكبيرة المضاءة في غرفة الطعام. ألقى نظرة على طرف الممر، إلى الجانب، فتمكن من رؤية الباب التي كانت قد تُرِكَتْ مفتوحة، مرسلة ضوءاً هادئاً، ملوناً، من مصباح القاعة. أسرع صامتاً في اجتياز الممر، وألقى نظرة داخل القاعة. كانت ثمة صور على الجدران، وقرون أيِّل... ثم درجات السلم المؤدية إلى الأعلى من الجانب، ثم باب غرفة الطعام نصف المفتوحة، قرب قاعدة السلم تماماً.

وإذ توتّر فؤاد «جرالد»، توجه إلى داخل القاعة ذات الأرضية المرصوفة بالقرميد الملون، وأسرع يتطلع إلى داخل الغرفة الواسعة، البهيجة: على كرسي قرب النار، كان الوالدُ جالساً في سبات، وقد مال رأسه إلى الخلف، مرتكناً إلى جانب رف المصطلى الكبير المصنوع من خشب البلوط، وبدا وجهه المحمر وكأنه قد قصر وتفتح منخراه وتهدل فمه قليلاً.. كان أقلُّ صوتٍ كفيلاً بإيقاظه.

لبث «جرالد» لحظة متوقفاً. ألقى نظرة على الممر وراءه. الظلام سائد. توقف ثانية، ثم مضى مسرعاً إلى الطابق الأعلى، كانت أحاسيسه جد مرهفة، تكاد أن تكون خارقة للطبيعة، حتى إنه بدا وكأنه يفرض إرادته على الدار نصف الغافية.

بلغ المنبسط الأول للسلم. لبث واقفاً لا يكاد يتنفس. ومرة ثانية، كانت ثمة باب أخرى تناظر الباب التي في الأسفل. لابد أنها غرفة الوالدة. فكأنه كان يسمعها وهي تنتقل في ضوء الشموع. لابد أنها متوقعة مجيء بعلها إليها. ألقى نظرة صوب منبسط السلم المظلم.

ثم تقدم في الممر، بهدوء، على قدمين حذرتين كل الحذر، متحسساً الجدار بنهايات أطراف أصابعه. كانت هناك باب، وقف وتسمّع.. كان يمكنه سماع شخصين يتنفسان. لم تكن تلك. تسلل قدماً. ثمة باب أخرى، مفتوحة قليلاً. كان الظلام يسود الغرفة،

فارغةً. بعدها كان الحمام. كان في وسعه أن يشم الصابون ويتنشق الحرارة، ثم، ثمة غرفة نوم أخرى، عند النهاية... تنفَّسٌ منفرد، رقيق. كانت تلك هي.

أدار مقبض الباب، بحذر يكاد يكون سحرياً. وفتح الباب بوصة. فصرّت قليلاً. ثم فتحها بوصةً أخرى.. ثم أخرى. لم ينبض قلبه وبدا هو كالمحدِث صمتاً حول ذاته أو نسياناً.

صار داخل الغرفة. استمر الشخص النائم في تنفسه الرقيق. كان الظلام حالكاً. تحسس سبيله بوصة، بوصة، بيديه وقدميه، تلمس السرير، كان في وسعه سماع النائم. دنا أكثر، منحنياً قربه، كأن عينيه ستميطان اللثام عما استتر، مهما كان.. وبالقرب من وجهه، رأى والخوف يتملكه، الرأس المدور، المعتم لصبي. استعاد رباطة جأشه، والتفت إلى ما حوله، ورأى الباب على مبعدة، وتبين ضوءاً باهتاً. فعاد أدراجه على عجل، وجذب الباب دون إيصادها ومرق مجتازاً الممر، وعند طرف السلم تردد، مازال هناك وقت للهرب.

لكن ذلك لا يمكن التفكير به. لسوف يحافظ على إرادته. استدار متجاوزاً باب غرفة نوم الوالدين، مثل طيف، وأخذ يرتقي المجموعة الثانية من درجات السلم. كانت تصرّ تحت ثقله.. شيء مغيظ. آه، أية نكبة لو انفتحت باب غرفة الأم الواقعة تحته مباشرة، ورأته! سوف تحلّ نكبة لوحدث ذلك، لكنه ظل مسيطراً على الموقف.

لم يكن قد ارتقى كل الدرجات تماماً حين طرقت سمعه حركة أقدام مسرعة في الأسفل. أغلِقَت الباب الخارجية وأوصدت. سمع صوت «أرسيولا» ثم الصوت المتسائل للوالد النعسان، فأسرع إلى المنبسط الأعلى متعجلاً.

مرة أخرى كانت هناك باب مفتوحة جزئياً، وغرفة خالية. وإذ تلمس طريقه إلى الأمام بأطراف أصابعه كالأعمى، وهو يتعجل السير قلقاً من احتمال صعود «أرسيولا» إلى الطابق الأعلى، وجد باباً أخرى. تنصت هناك بيقظة حواسه المرهفة على نحو يتجاوز الطبيعي. سمع شخصاً يتقلب في الفراش. هذه هي.

وهنا أدار المزلاج برفق، كشخص له حاسة واحدة حسب هي حاسة اللمس، فطقطق هذا، وسكن هو. سمع حفيف الأغطية، لم ينبض قلبه. عاد فأرجع المزلاج، ودفع الباب برفق رقيق، فأحدثت صوتاً مقاوماً فيما انفتحت.

جاء صوت «غدرون» المرتاع: (أهذه أنت يا «أرسيولا» ؟). سمعها تنتصب جالسة في الفراش. إنها قد تصرخ بعد لحظة. قال وهو يتحسس طريقة إليها: (كلا، أنا.. أنا «جرالد»).

جلست في فراشها ساكنة في استغراب صرف، لقد بلغ استغرابها وتفاجؤها مبلغاً تجاوز الخوف.

رددت في استغراب مشدوه: («جرالد»!). لقد وجد طريقه إلى السرير ومست يداه الممدودتان صدرها الدافئ كما يفعل الأعمى، فانكمشت مبتعدة.

قالت وهي تثب من السرير: (دعني أشعل ضوءاً).

لبث واقفاً دون حراك. سمعها تتلمس علبة الثقاب، وسمع أناملها تتحرك. ثم شاهدها في ضوء الثقاب الذي كانت تمسكه إزاء الشمعة. علا النور في الغرفة ثم هبط إلى عتمة ضئيلة فيما ضؤل لهب الشمعة، قبل أن يشتد ثانية.

نظرت إليه وهو واقف قرب الجانب الآخر من السرير. كانت قلنسوته موطأة على جبينه ومعطفه الأسود مزرراً حتى الذقن. كان وجهه غريباً ومشرقاً. كان قدراً محتوماً مثل كائن خارق للطبيعة. وحين فرغت من مشاهدته، عرفت... عرفت أن في الموقف شيئاً مصيرياً، لابد أن تقبله. ومع ذلك، لابد لها من أن تتحداه.

سألته: (كيف صعدت؟).

- (ارتقيت السلم.. كانت الباب مفتوحة). نظرت إليه. قال: (لم أغلق هذه الباب، هي الأخرى).

فسارت عبر الغرفة مسرعة وأغلقت الباب مترفقة وأوصدتها، ثم عادت.

كانت رائعة بعينيها الفزعتين وخديها المحمرَّين وضفيرة شعرها القصير، والكث نوعاً ما، المتهدل على ظهرها، وقميص نومها الطويل، الرقيق، الأبيض، النازل إلى قدميها.

لاحظت أنّ جزمتيه موحلتان تماماً، حتى سرواله كان متلوثاً بالطين. فتساءلت في فكرها عما إن كان قد ترك آثار قدميه على طول طريق الصعود. كان ذا هيئة غريبة جداً، وهو واقف في غرفة نومها قرب الفراش المقلوب. سألته بنبرة تكاد أن تكون متشكّية: (لِمَ قدمت؟). أجاب: (رغبتُ في ذلك). وهذا ما كانت تراه في وجهه. كان

قذراً. قالت في استهجان، لكن برفق: (أنت جدّ مطيَّن). ألقى نظرة إلى قدميه. أجاب: (كنت أمشي في الظلام). لكنه كان يشعر بابتهاج مفعم بالحيوية. ساد الصمت. لبث واقفاً بجانب الفراش المقلوب، وهي في الجانب الآخر.. حتى إنه لم يزح قلنسوته من على حاجبيه. قالت بتحدٍ: (وماذا تريد مني؟).

نظر جانباً ولم يجب، لولا الجمال الخارق والجاذبية المبهمة لهذا الوجه الغريب المتجلي لَصَرَفَتْهُ. لكن وجهه كان مفرط الروعة والغموض بالنسبة إليها. فقد فتنها فتنةَ الجمال الصرف وسَحَرَها سحراً كالتوق أو كالألم.

كررت القول بصوت قد تغرَّب: (ماذا تريد مني؟).

خلع قلنسوته بحركة المتحرر من حلم وأقبل عليها. لكنه لم يستطع أن يلمسها لأنها كانت تقف عارية القدمين في قميص نومها في حين كان هو موحلاً، مبتلاً. راقبته عيناها المشدوهتان، الواسعتان، المتعجبتان، وسألتاه السؤال المطلق.قال: (جئتُ... لأنني مجبر.. لم السؤال؟). نظرت إليه في ارتياب وتساؤل، قالت: (لابد لي أن اسأل). هز رأسه هزاً خفيفاً. أجاب بخواء غريب: (ليس ثمة أي جواب).

بدت عليه سيماء من البساطة والسذاجة المباشرة، غريبة، تكاد تكون ربانية، فذكّرها ذلك بإحدى الرؤى، رؤية «هورميز» الشاب*. ألحت: (لكنْ لِمَ جئتني؟).

ـ (لأن.. لابد أن يكون هذا. لو لم تكوني في الدنيا، لما كنت أنا في الدنيا، كذلك).

وقفت تنظر إليه بعينين واسعتين، مشدوهتين، عاجزتين. كانت عيناه تتطلعان في عينيها بثبات طيلة الوقت، وبدا متسمراً في ثبات غريب خارق للطبيعة. تأوهت. لقد تاهت الآن، ولم يكن ثمة من خيار. قالت: (هلا خلعت جزمتيك؟. لابد أنهما مبتلتان).

أسقط قلنسوته على كرسي وفكّ أزرار معطفه مُعلياً ذقنه كي يفك أزرار الرقبة. كان شعره القصير، المنسدر، منفوشاً، كم كان أشقر على نحو أخاذ، مثل الحنطة. نزع معطفه.

---

* «هورميز» : رسول الآلهة عند الإغريق . وإله الطرق والتجارة والاختراع والفصاحة والمكر واللصوصية . (المترجم) .

أسرع في خلع سترته وجر رباطه الأسود فانفك وأخذ يفك زرَّي القميص اللذين كانا مرصعي الرأسين بلؤلؤتين. أصغت، وهي ترقب، آملة ألا يسمع أحدٌ طقطقة الكتان المنشّى. كانت طقطقته تبدو كأنها إطلاقات مسدس.

لقد قَدِمَ للثأر. سمحت له أن يمسكها بين ذراعيه، ويشبكها لصق أحضانه. وجد فيها راحة لا متناهية. ففيها سكب كل ظلامه المكبوت وموته الناخر، فتعافى ثانية. كان ذلك مدهشاً، عجيباً... كان معجزة.. تلك كانت معجزة حياته المتواترة أبداً، حيث ضاع، من خلال معرفته بها في نشوة ارتياح وروعة. أما هي، رَعيَّتهُ، فقد تقبلته كوعاء مُلِئَ بجرعة الموت المُرّة الآتية منه. لم تكن فيها قوة لتقاوم بها في خضم تلك الأزمة. لقد ملأها عنف الموت الفظيع، الاحتكاكي ملأً فتلقته في نشوة خضوع، في عذابات من الشعور العنيف الحاد.

وفيما كان يدنو منها أكثر، غاص عميقاً في دفئها الناعم الغامر، في حرارة رائعة خلاقة تغلغلت في عروقه ومنحته الحياة ثانية. أحس أنه ذائب وغارق ليستريح في حوض قوتها النابضة بالحياة. بدا كأن قلبها الذي يحتويه صدرها كان شمساً ثانية لا تقهر وأنه، «جرالد»، قد انغمر في ألَقِه وقوته المبدعة، أكثر فأكثر. كلُّ عروقه التي كانت قد ذُبحت ومُزقت، تعافَتْ بنعومةٍ حين واتتها الحياةُ نابضةً، تتسلل فيه كأنها دفق الشمس الجبار، ودمه، الذي بدا كأن الموت كان قد تخطّفه، عاد كعودة المدّ، واثقاً، جميلاً، قوياً.

شعر أن أطرافه أخذت تزداد امتلاءً ومرونة بدفق الحياة، وأن بدنه قد اكتسب قوة غامضة. عاد رجلاً من جديد، قوياً، ممتلئاً، وقد كان طفلاً مسترضى جداً، مجُدَّداً، وزاخراً بالشكر والعرفان.

أما هي، فكانت مُسْتَحَمَ الحياة العظيم، كانت معبودته، أمّ الحياة كلها وجوهرها، كانت هي، أما هو، الطفل والرجل، فكان يتلقى منها، فغدا كاملاً. لقد كاد جسمه الخالص أن يُقْتَلَ قتلاً. لكن دفق صدرها الرقيق، الأعجازي، غَمَرَهُ، غَمَرَ عقله الذابل، المتضرر، كأنه لمفٌ* شافٍ، مثل دفق رقيق، ملطف، للحياة نفسها، فاكتمل كأنه قد تحمّم في الرحم كرة أخرى.

---

* اللمف (أو اللنف) : سائل عديم اللون تقريباً تشتمل عليه الأوعية اللمفاوية ويتألف من بلازما الدم وكريات الدم البيضاء . (المترجم) .

لقد تضرر عقله، وذبل، كأن النسيج فيه قد دُمِّر. لم يكن قد عرف مدى تضرره، وكيف تضرر نسيجه، نسيج عقله نفسه، بطوفان الموت الناخر. أما وقد سرى لمف دفقها الشافي في كيانه، فقد أدرك كم كان هو قد تدمر، مثل نبتة فَجَّرَ الصقيعُ نسيجها من الداخل.

دفن رأسه الصغير، الصلب، بين نهديها، وهصر نهديها لصقه بيديه. أما هي فأدنت رأسه لصقها بيدين مرتعشتين، وهو مضطجع متخدر، وهي مضطجعة في وعي تام. فاض الدفء اللطيف، الخلاق، متغلغلاً فيه، مثل هجوع الخصوبة في الرحم. آه، لو أنها منحته سيل هذا الدفق الحي، حسب، لتجدّد وجوده واكتمل ثانية. لقد خشي أن تحرمه قبل الختام، وكطفل رضيع التصق بها بقوة ولم تستطع أن تبعده. فارتخى غشاؤه الذاوي، التالف، ورقّ، وغلّ ذلك الذاوي، المتيبس، المنفجر غلته ثانية، وغدا ليّناً، مرناً، ينبض بحياة جديدة. غمر «جرالد» شعورٌ بالامتنان إلى أبعد الحدود، كشاكر الله، أو كرضيع على صدر أمه. كان سعيداً وممتناً كمن يهذي وهو يحس برجوع كماله إليه، وهو يحس بتغلب الرقاد التام الذي لا يوصف، عليه، رقاد الإنهاك والتجدد.

بيد أن «غدرون» لبثت مضطجعة، في كامل اليقظة، وقد صيَّرها هلاكها كاملة الوعي. ظلت مضطجعة دون حراك، وعيناها الواسعتان تحملقان في الظلام دون حراك، فيما كان هو غارقاً في النوم وذراعاه تطوقانها.

بدت وكأنها تسمع أمواجاً تتكسر على جُرْفٍ خفي.... أمواجاً مديدة، بطيئة، كئيبة، تتكسر على وقع القدر، برتابة من فرضها كانت تبدو أبدية. هذا التكسّر الذي لا ينتهي لأمواج القدر العابسة، البطيئة، امتلك حياتها منها، فيما كانت مستلقية وعيناها الدكناوان، الواسعتان تحدقان إلى العتمة. كان في وسعها أن تنظر بعيداً جداً، بُعْدَ الأبدية، لكنها لم تكن ترى شيئاً. كانت متعلقة بوعي كامل ـ وبِمَ كانت واعية؟ ..

مرت حالة الانفعال الشديد هذه، حين كانت تحدق إلى الأبدية، مُعَلَّقةً تماماً، وواعية بكل شيء إلى أقصى الحدود، مرت وتركتها في اضطراب. كانت قد ظلت مضطجعة دون حراك مدةً طويلة. تحركت وغدت واعية بذاتها. أحبت أن تنظر إليه. أن تشاهده، لكنها لم تجرؤ أن تشعل ضوءاً لأنها كانت تعرف أنه سيصحو، وماكانت تريد أن تعكر صفو رقاده الكامل، الذي كانت تعرف أنه قد ظفر به منها.

حررت نفسها برفق وانتصبت قليلاً كي تنظر إليه. بدا لها أن ثمة ضوءاً باهتاً في الغرفة. تمكنت من أن تميز ملامحه حسب، فيما كان نائماً نوماً كاملاً. بدا لها أنها كانت تراه بوضوح جلي، في تلك العتمة. بيد أنه كان في عالم آخر، جد بعيد. آه، كان يمكنها أن تصرخ من العذاب، كان جدّ ناءٍ، ومتكاملاً، في عالم آخر. لا ح لها أنها كانت تنظر إليه نظرتها إلى حصاة على مبعدة في ماءٍ صافٍ معتم. هاهي ذي قد تُرِكَتْ بكل عذاب الوعي، في حين كان هو غارقاً في لجة الوسط الآخر، وسط الألق الطيفي، الغافل، البعيد، الحي. كان جميلاً نائياً ومتكاملاً. لن يكونا معاً أبداً. آه من هذا البعد اللعين، اللا بشري، المتداخل دائماً بينها وبين الكائن الآخر!

لم يبق أي شيء تفعله سوى الهمود والصبر. شعرت برقة طاغية نحوه، وكذلك باضطراب باطني، قاتم من الكراهية الحسود لكونه راقداً في غاية الكمال والمنعة، في عالم آخر، في حين كانت هي تتعذب من أثر يقظة عنيفة، وهي ملقاة في الظلام الخارجي. لبثت مستلقية في وعي شديد، مفعم بالحيوية، إفراط في الوعي مهلك. دقت ساعة الكنيسة معلنة الوقت في تتابع سريع، على ما بدا لها. سمعتها بجلاء، في شدة وعيها المرهف. وظل هو نائماً كأن الزمن كان لحظة واحدة، لا يتغير ولا يتحرك.

كانت متعبة، منهوكة القوى. ومع هذا تعين عليها الاستمرار في هذه الحالة من الوعي المفرط، الناشط المتقد، كانت شاعرة بكل شيء... بطفولتها، صباها، كل الحوادث المنسية، كل التأثيرات غير المتحققة، وكل الوقائع التي لم تكن قد فهمتها، التي كانت تخصها، وعائلتها، وأصدقاءها وعشاقها، ومعارفها، وسائر الآخرين، كانت كمن يجرّ حبلاً متلألئاً من المعرفة إلى خارج بحر الظلمات، تجرّ، وتجرّ، وتجرّ إلى خارج أغوار الماضي التي لا قرار لها، ولمّا تصل إلى نتيجة... لا نتيجة لذلك ولابد لها من أن تسحب، وتسحب حبل الوعي المتلألئ، جاذبةً إياه متلألئاً من الأعماق السحيقة للاّوعي، حتى تمسي تَعِبةً، موجوعةً، منهوكة، حَرِية بالتهشم... لكنها لم تفعل.

آه، لو أنها استطاعت إيقاظه حسب! تقلبت غير مرتاحة. متى تستطيع إيقاظه وصرفه؟ متى تتمكن من إقلاق راحته؟ ثم ارتدت إلى نشاط الوعي التلقائي الذي لا ينتهي.

بيد أن الوقت الذي تستطيع فيه أن توقظه قد أزف. كان كالانعتاق. دقت الساعة

الرابعة، في غمرة الليل، في الخارج، شكراً لله، فقد كاد الليل أن ينصرم.. لابد أن ينصرف في الساعة الخامسة، فتتنفس الصعداء، عندها ستتمكن من الاسترخاء واحتلال مكانها. كانت في تلك الآونة قد اندفعت لصق حركة نومه الرائعة، مثل مدية ابيضّتْ من سخونتها على حجر الشحذ... كان ثمة شيء ما فظيع بشأنه، بشأن تجاوره إياها.

كانت الساعة الأخيرة هي الأطول... ومع هذا فإنها قد انقضت أخيراً. قفز قلبها ارتياحاً.. أجل، كانت هناك دقات ساعة الكنيسة البطيئة، القوية، أخيراً... عقب ليلة الخلود تلك.

انتظرت دقيقتين لتقتنص كل رجع، بطيء، مصيري، (اثنتان ... أربع... خمس!). ها قد انتهت. وانزاح عنها عبء ثقيل.

انتصبت ومالت عليه برقة وقبلته. حزنت لإيقاظه، وبعد بضع لحظات، قبلته مرة أخرى. لكنه لم يتململ، ياللحبيب، لقد كان غاطاً في نوم عميق، عميق! ما أخزى انتزاعه منه، تركته يرقد فترة وجيزة أخرى... لكنه يجب أن ينصرف... لابد أن ينصرف فعلاً.

تناولت وجهه بين يديها ولثمت عينيه برقة كاملة مفرطة. انفتحت العينان، وظل دون حراك، ينظر إليها. توقف قلبها. ولكي تخفي وجهها عن عينيه الفظيعتين، المفتوحتين، مالت عليه وقبلته هامسة: (لابد أن تنصرف، يا حبيبي). لكن الهلع أسقمها إسقاماً. طوقها بذراعيه، فغاص قلبها.

- (لابد من أن تنصرف، يا حبي، فالوقت متأخر). قال: (كم الساعة؟). غريب، صوته الرجولي، ارتعدت، كان ذلك ظلماً لا تطيقه. قالت: (بعد الساعة الخامسة). لكنه اقتصر على تطويقها بذراعيه ثانية، صرخ قلبها معها، من جوى وعذاب. تحررت منه بحزم. قالت: (لابد أن تنصرف فعلاً). قال: (ولو بعد دقيقة). لبثت مستلقية، ساكنة، مستكنة حياله، لكن غير مذعنة. كرر حاضناً إياها بتطويق أشد: (ولا دقيقة؟). قالت، دون إذعان: (نعم... أخشى بقاءك مدة أطول).

كان ثمة نوع من البرود في صوتها جعله يُطْلِقها. فأفلتت، وقامت وأشعلت شمعة. تلك، إذاً، كانت الخاتمة.

نهض، كان دافئاً، يزخر بالحياة والرغبة. ومع ذلك شعر بقليل من الخجل والذلة وهو يرتدي ملابسه أمامها، في ضوء الشموع. ذلك أنه شعر بأنه منكشف، معرَّض قبالتها في وقت كانت فيه مناوئةً له على نحو ما. كان ذلك كله عصياً على الفهم. ارتدى ملابسه بسرعة دون ياقة أو رباط. ومع هذا شعر بالامتلاء والكمال والاكتمال.

اعتقدت أن من الإهانة رؤية رجل يرتدي ملابسه: القميص السخيف، السروال وحمالته السخيفان، لكن فكرة أنقذتها مرة ثانية. حدثت «غدرون» نفسها: (إنه مثل عامل ينهض ليذهب للعمل... وأنا مثل زوجة العامل)، لكنّ ألماً كالغثيان انتابها: غثيان منه.

دفع بياقته ورباطه داخل جيب معطفه، ثم قعد يلبس جزمتيه، كانتا قذرتين قذارة جوربيه وقفا بنطاله، أما هو فكان دافئاً، سريعاً.

قالت: (ربما يجب عليك أن تلبس جزمتيك في الطابق الأسفل). وفي الحال خلعهما ثانية، دون إجابة، ووقف ماسكاً إياها بيديه. كانت قد دست قدميها داخل خُفّين، وألقت بروب فضفاض على جسمها. كانت مستعدة. نظرت إليه فيما كان واقفاً، ينتظر، وقد زرّر معطفه الأسود حتى الذقن، وأوطأ قلنسوته، وأمسك بجزمتيه. وانبعث فيها لحظةً الافتتانُ المشبوبُ العاطفة، الذي يكاد يكون كريهاً. لم يكن قد نضب، كان وجهه دافئ المظهر جداً، متسع العينين، زاخراً بالجدّة والكمال.

شعرت هي بأنها عجوز، عجوز. مضت إليه متثاقلة، كي يقبلها. قبّلها سريعاً. تمنّت لو أن جماله الدافئ، غير المعبر، لم يسحرها كل هذا السحر القتال، ولا قهرها ولا أخضعها. كان عبئاً مثقِلاً عليها استاءت منه لكنها عجزت عن الخلاص منه. ومع ذلك كانت تعرف، حين كانت تنظر إلى حاجبي الرجل المستقيم الذي كانه، وإلى أنفه الصغير نوعاً ما واللطيف الشكل وإلى عينيه الزرقاوين غير المكترثتين، أن هواها له لم يُشبَع بعد، وقد لا يمكن إشباعه أبداً. لكنها تعبة الآن، تشعر بألم كالغثيان، كانت تريده أن ينصرف.

هبطا إلى الطابق الأسفل على عجل... بدا لهما أنهما قد أحدثا ضجة فظيعة. تبعها، فيما كانت تتقدمه حاملة الشمعة، متلفعة بدثارها ذي اللون الأخضر الزاهي. تألمت كثيراً من خشية أن يصحو أهلها، أما هو فلم يكد يحفل... لم يعد يأبه الآن بمن قد يعرف، فكرهت ذلك فيه. لابد للمرء أن يحترس، لابد للمرء أن يحافظ على نفسه.

مضت به إلى المطبخ. كان هذا أنيقاً، مرتباً كما كانت الخادمة قد تركته، ألقى نظرة إلى الساعة المعلقة... الخامسة وعشرون دقيقة! ثم قعد على كرسي ليلبس جزمتيه. انتظرت، وهي تراقب كل حركة منه. كانت تريد الانتهاء من ذلك لأنه قد أثقل أعصابها وشدّها كثيراً.

وقف... رفعت رتاج الباب الخلفية ونظرت إلى الخارج. ثمة ليل بارد. رطب حد الإزعاج لم ينبلج فجره بعد، وقطعة قمر في السماء الغامضة. فرحت لعدم اضطرارها إلى الخروج. همهم قائلاً: (إلى اللقاء، إذاً).قالت: (سأجيء حتى البوابة).

عادت فأسرعت تمضي قدماً أمامه، لتحذره من درجات السلم. وعند البوابة توقفت ثانية على الدرجة فيما كان يقف إلى الأسفل منها... همست قائلة: (إلى اللقاء). قبلها كما يقتضي الواجب واستدار منصرفاً.

عانت العذاب وهي تسمع وطء قدميه الحازم المتواصل بوضوح وجلاء وهو يسير على الطريق. آه، ما أبلد إحساس ذلك الوقع الحازم!

أغلقت البوابة وتسللت مسرعة صامتة عائدة إلى السرير. وحين بلغت غرفتها وأغلقت الباب وغدا كل شيء آمناً، تنفست الصعداء وانزاح عبء ثقيل عن عاتقها. استلقت مرتاحة في الفراش، في موضع التقعّر الذي كان جسمه قد صنعه، في الدفء الذي كان قد تركه، وسرعان ما راحت في سبات عميق، ثقيل، منفعلةً، منهكةً، وإن كانت لا تزال مشبعة.

سار «جرالد» مسرعاً، مخترقاً الظلام الفجّ للفجر الذي يوشك أن ينبلج. لم يلق أحداً.. كان عقله خلياً، وهادئاً على نحو لطيف، مثل بركة ساكنة؛ وكان جسمه ممتلئاً، دافئاً، ثرياً... مضى مسرعاً نحو (شورتلاندز)، في اكتفاء ذاتيّ شَكُور.



الفصل الخامس والعشرون

زواج أم لا

أزمع آل «برانغوين» على الانتقال من (بلدوفر). فقد اقتضى الأمر أن يكون الوالد في المدينة.

كان «بركن» قد استحصل على إجازة قران رسمية، لكن «أرسيولا» كانت تؤجله من يوم إلى آخر. لم تشأ أن تحدد أي موعد معين.. فما انفكت تتردد. انقضت ثلاثة أسابيع من إشعارها بترك المدرسة الثانوية البالغ أمده شهراً. وأوشك عيد الميلاد أن يحل.

ترقب «جرالد» عقد قران «أرسيولا» و «بركن». كان ذلك شيئاً جدّ مهم بالنسبة إليه. قال لـ «بركن» في أحد الأيام: (هلاّ جعلناه احتفالاً مزدوج الماسورة؟)* تساءل «بركن» : (لمن تكون الطلقة الثانية؟). قال «جرالد» وقد بان في عينيه بريق المغامرة: (أنا و «غدرون»). رمقه «بركن» بنظرة ثابتة، كما لو كان قد فوجئ نوعاً ما. تساءل: (أجدٌّ ... أم هزل؟).

ـ (أوه، جد. هل لي أن أفعل ذلك؟ هل لي و «غدرون» أن ننطلق في معيتكما؟). قال «بركن»: (نعم، بكل تأكيد. لم أدر أنكما قد بلغتما هذه المرحلة). قال «جرالد» وهو ينظر إلى الرجل الآخر، ضاحكاً: (أية مرحلة؟.. أوه، أجل لقد قطعنا كل المراحل). قال «بركن»: (بقي إرساء القضية على أساس اجتماعي، عريض، وبلوغ هدف أخلاقي سام). أجاب «جرالد» مبتسماً: (شيء من هذا القبيل: طولاً وعرضاً وارتفاعاً). قال «بركن»: (أوه، حسن، حَقّ عليّ القولُ بأنها خطوة جديرة بالإعجاب الشديد). نظر «جرالد» إليه متفحصاً، وسأله:

---

* تشبيه ببندقية ذات ماسورتين . (المترجم) .

ـ (لماذا أنت غير متحمس؟ كنت أعتقد أنك شديد الافتتان بالزواج؟). رفع «بركن» كتفيه: (قد يكون المرء شديد الافتتان بالأنوف بالحماسة نفسها. هناك مختلف الأنواع من الأنوف، الأفطس وغيره...). ضحك «جرالد» وقال: (وكذلك مختلف ضروب الزواج: الأفطس، وغيره).

ـ (صحيح).

تساءل «جرالد» ساخراً وقد مال رأسه قليلاً: (وهل تظن أن الأمر سيكون أفطس إذا ما تزوجتُ؟). ضحك «بركن» بسرعة، وقال: (كيف أعرف ما سيكون عليه الحال! لا تجلدني بالتشبيهات التي أخترعها أنا). فكر «جرالد» ملياً، فترة، وقال:

ـ (لكنني أود معرفة رأيك، تماماً).

ـ (بشأن زواجك؟ أو الزواج؟ لم يتعين عليك أن تنشد رأيي؟ لا آراء عندي، أنا غير معنيّ بالزواج الشرعي بطريقة أو بأخرى. إنه مجرد قضية ملاءمة). ظل «جرالد» يراقبه عن كثب، ثم قال بنبرة جدية:

ـ (وأكثر من ذلك، على ما أعتقد. على أية حال، إنك قد تملّ أخلاقيات الزواج. لكن الزواج في الحقيقة شيء حاسم، نهائي، على وفق كل حالة شخصية خاصة).

ـ (تعني أن ثمة شيئاً نهائياً في الذهاب إلى مسجل العقود مع امرأة؟). قال «جرالد» : (أجل، فيما إذا عدتَ معها. إنه، في وجه من الوجوه، غير قابل للنقض). قال «بركن»: (نعم، أوافقك).

ـ (مهما كانت نظرة المرء إلى الزواج الشرعي، فإن الدخول في مرحلة الزواج شيء نهائي، حسب كل حالة شخصية تحديداً...). قال «بركن»: (أعتقد ذلك، على نحو ما). قال «جرالد»: (يبقى السؤال إذاً، هل يتعين على المرء أن يفعله؟). راقبه «بركن» بدقة، بعينين مستمتعتين، وقال:

ـ (إنك مثل اللورد «بيكون»، يا «جرالد» تناقضه بصفة محام.. أو مثل «هاملت» حين يقول: «أن تكون أو أن لا تكون»*. لو كنتُ مكانك لما تزوجت، لكن

---

* اللورد «بيكون» هو «فرانسيس بيكون» (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) سياسي وفيلسوف إنكليزي ، ويعتبر أحد رواد العلم التجريبي الحديث ، أما «هاملت» فالشخصية الرئيسية في مسرحية «شكسبير» المأساوية التي تحمل الاسم نفسه ، والاقتباس جزء من كلام «هاملت» في الفصل الأول من المسرحية . (المترجم) .

سَلْ «غدرون» ولا تسلني، فلست متزوجني، أليس كذلك؟). لم يبال «جرالد» بالجزء الأخير من الكلام. قال: (أجل. يجب على المرء أن يتدبر الزواج بموضوعية. إنه شيء حاسم، حيث يصل المرء إلى نقطة يتعين عليه عندها أن يتّخذ خطوة باتجاهٍ أو بآخر. والزواج - واحد من الاتجاهين..). سأله «بركن» بسرعة: (وماهو المتجه الآخر؟). تطلع «جرالد» بعينين حادتين، واعيتين على نحو غريب، لم يستطع الرجل الآخر فهمهما. أجاب: (لا أعرف. لو عرفت ذلك..) تململ على قدميه، ولم يكمل. سأله «بركن»: (تقصد أنك لو عرفت البديل؟ ومادمت لا تعرفه، فالزواج هو السبيل الوحيد الباقي)*. تطلع «جرالد» إلى «بركن» بالعينين الحادتين، المقيدتين نفسيهما، واعترف قائلاً: (يساور المرء فعلاً شعور بأن الزواج هو السبيل الوحيد الباقي). قال «بركن»: (لا تفعله إذاً). ,ثم أردف: (كما قلت من قبل، يبدو لي أن الزواج، بالمعنى القديم، مثير للنفور.. لا وجه لمقارنته بـ «أنانية» الاثنين**. إنه ضرب من التصيد الضمني الثنائي: كل العالم أزواج ثنائية. وكل زوج منها يقيم في مسكنه الخاص به، يحمي مصالحه التافهة الخاصة، ويتقلب نكداً في خصوصيته التافهة... إنه أكثر الأشياء إثارة للنفور على وجه البسيطة). قال «جرالد»: (إنني موافق تماماً، ثمة شيء قاصر فيه، لكن، كما قلت، ما البديل؟).

- (يتعين على المرء أن يتفادى غريزة البيت. فهي ليست غريزة، إنما عادة من عادات الجبناء. لا ينبغي على المرء أن يكون له بيت). قال «جرالد»: (أؤيد ذلك فعلاً. لكن ليس هناك بديل آخر).

- (علينا أن نجد بديلاً. أنا أؤمن فعلاً بالاتحاد الدائم بين الرجل والمرأة، فالتقلب هو مجرد عملية مضنية. بيد أن العلاقة الدائمة بين الرجل والمرأة ليست هي الكلمة الفصل... مؤكد أنها ليست كذلك). قال «جرالد»: (تماماً). قال «بركن»: (في الواقع إن كل التوتر والضعة وعدم الكفاية مردّها أن العلاقة بين الرجل والمرأة قد جعلوها الآصرة الأسمى والأكثر خصوصية). قال «جرالد»: (نعم، أنا مصدِّقُك).

---

* قال عبارة «السبيل الوحيد» الباقي بالفرنسية. (المترجم).

** قال عبارة (أنانية الاثنين) بالفرنسية. (المترجم).

ـ (عليك أن تُنزل المثل الأعلى للحب المفـضي إلى الزواج من عليـائه. فنحن في حـاجـة إلى شيء أوسع. أنا أؤمن بـالعـلاقـة الإضـافـيـة الكاملة بين الرجل والرجل... الإضافية إلى الزواج). قـال «جرالد» : (لن أستطيع أبداً أن أفهم كيف يمكن أن يكونا الشيء نفسه).

ـ (ليس الشيء نفسه... لكنه مثله مهم، مثله مبدع. مثله مقدس، إن شئت).

قـال «جرالد»: (أعـرف أنك تؤمن بشيء من هذا القبيل، غير أن المسألة هي أنني لا أسـتطيع الإحسـاس به)... ثـم وضع يده عـلى ذراع «بركن» بشيء من الـود المحطّ للقدر. ثم ابتسم كالمنتصر.

كـان «جرالد» مستعداً للحكم المصيـري. كـان الزواج كـالقدر بـالنسبـة إليـه. كـان ميـالاً لأن يدين نفسـه بالزواج ويغدو كـالمدان المحكوم عليـه بالاحتجاز في مناجم العـالم السفلي، لا يحيا حياة في ضـوء الشمس، بل ينشط في غور مروع كان راغباً في قبول ذلك. والزواج يَخْـتِمِ الحكم بخـتم الإدانة، كـان راغـبـاً فـي أن يُخْـتَمَ هكذا فـي العـالم السـفلي، مثـل روح لُعِنَتْ، لكنهـا تعـيش في اللعنة أبداً. بيد أنه لم يشأ أن يقيم أية علاقـة خالصـة مع أية روح أخرى. فـمـاكان في وسعـه ذلك، لـم يكن الزواج التزاماً من ذاته للدخـول في عـلاقـة مع «غـدرون». كان التـزامـاً من ذاته بقبـول الدنيـا الراسخـة. ولسـوف يقـبل بـالنظام الراسخ، الذي لم يكن ليـؤمن به حـيـويـاً، ثـم ينكص إلى العـالم السفلي ليظلَّ هناك طيلة حياته. ذلك كان ما سيفعله.

كـان السـبـيلُ الآخر قـبولَ عـرض «روبرت» للتـواصل، لإقـامـة آصرة الثـقـة التـامـة والحب مع الرجل الآخر، ثم مع المرأة، بالتالي. فإن نذر نفسه للرجل، يستطيع بعدئذٍ أن ينذر نفسه للمرأة: ليس بمجرد الزواج الشرعي، بل بالزواج المطلق، الصوفي.

ومع ذلك، لم يستطع أن يقبل العرض. سرى خَدَرٌ فيـه، خدر مردّه إما إرادة غائبة، لم تولد بعـد، أو توقفٌ من جـراء ضـمـور، لعـله كـان غـيـاب الإرادة. ذلك أنه قد ابـتـهج بعـرض «روبرت» على نحـو غـريب، ومع ذلك ظل أكـثـر فـرحـاً في رفـضـه، في عـدم الالتزام به.

الفصل السادس والعشرون

كرسي

كان ثمة سوق للأثاث المستعمل تقام عصر كل يوم اثنين في ساحة السوق القديمة من البلدة. وفي عصر أحد الأيام تجول «بركن» و «أرسيولا» حتى بلغاها. كانا يتحاوران بشأن الأثاث وأرادا أن يتقصّيا ما إذا كانت هناك أية قطعة قد يودّان شراءها، من بين أكوام سقط المتاع المجموعة على منبسط أحجار الرصف.

لم تكن ساحة السوق القديمة كبيرة جداً، بل مجرد رقعة جرداء من مواضع صوانية عليها بضعة أكشاك لبيع الفواكه إزاء أحد الجدران. كانت تقع في أحد الأحياء الفقيرة من البلدة. وعلى جانب، قامت بيوت هزيلة، ومعمل جوارب، وساحة شاسعة فيها شبابيك مستطيلة لا تعد ولا تحصى عند طرف المكان، وشارع فيه دكاكين صغيرة ورصيف من ألواح الحجر، عند الجانب الآخر. وكنصب جليل، كان هناك حمّام عمومي مبني بالآجر الجديد الأحمر، وبرج ساعة. بدا الناس الذين كانوا يجوبون المكان بدينين، قصاراً، قذرين، وبدا الهواء كريه الرائحة نوعاً ما. وكان هناك شعور بوجود الكثير من الشوارع الحقيرة المتفرعة إلى حيث مُكْتَظّ الحقارة. وبين الحين والحين كانت حافلة (ترام) فخمة باللونين البني والأصفر تتثاقل حول منعطف صعب يقع تحت معمل الجوارب.

انتشت «أرسيولا» ظاهرياً حين ألفت نفسها بين العوام، حيث اختلط المتاع دون انتظام، وتكومت الأسِرة العتيقة، والحدائد القديمة، ومجاميع باهتة اللون من الأواني الفخارية الحقيرة ومجموعات ملفوفة من الملابس العصيّة على الوصف. مضت و «بركن» على مضض مجتازَين الممر الضيق، بين السلع الصَدِئة. كان هو ينظر إلى البضاعة، وهي إلى الناس.

لاحظت بحماسة شابةً حبلى كانت تقلّب فراشاً وتحمل شاباً كئيباً منقبض الصدر

على أن يتحسسه هو الآخر. بدت الشابة جد متكتمة وناشطة ومتلهفة. وبدا الشاب جد ممتعض وخائر. لقد كان يزمع الزواج منها لأنها حامل.

حين فرغا من تحسس الفراش، سألت الشابة الكهل الجالس على مقعد بين سلعه، عن سعره. أخبرها فالتفتت إلى الشاب. كان هذا خجلاً حيياً. أشاح بوجهه، وإنْ كان قد ترك جسمه المنتصب ثمة، وغمغم على انفراد. عادت المرأة تتحسس الفراش بتوق وحيوية، وجمعت وطرحت في ذهنها وتساومت مع الكهل الوسخ، وطيلة ذلك الوقت، لبث الشاب واقفاً، ينتظر، في خضوع وخجل واكتئاب. قال «بركن»: (انظري، هو ذا كرسي لطيف). هتفت «أرسيولا»: (فتان! أوه، فتان!).

كان كرسياً ذا ذراعين، مصنوعاً من الخشب العادي، أو ربما من خشب البتولا، لكنه في غاية التناسق الدقيق اللطيف، وهو قائم هناك على الأحجار القذرة، بحيث كاد أن يبكيها. كان مربع الشكل. ذا خطوط دقيقة على أصفى ما يكون، وأربعة أوتدة قصيرة من الخشب في المسند الخلفي، ذكّرت «أرسيولا» بأوتار القيثار.

قال «بركن»: (لقد كان مذهّباً في يوم ما.. وذا مقعد من الخيزران. لقد سمّر أحدهم مقعد الخشب هذا به. انظري، هذا بعض الأحمر الذي كان تحت الجزء المذهب. أما الباقي فكله أسود ما عدا الموضع الذي كان الخشب قد تهرأ فيه تماماً والتمع. إن وحدة الخطوط الدقيقة هي التي تسحر وتفتن. انظري كيف أنها تمتد وتلتقي وتتضاد. لكن، طبيعي أن المُقْتَعَد الخشب غلط. إذ إنه يدمر الخفة الرائعة ووحدة الشد اللتين كان الخيزران قد أضفاهما عليه. إلا أنني أحبه، مع ذلك...).

قالت «أرسيولا»: (أي نعم، وكذلك أنا). سأل «بركن» الرجل: (كم سعره؟).

- (عشرة شلنات).

- (وهل سترسله؟..). تم شراؤه.

قال «بركن»: (ما أجمله!.. ما أصفاه! إنه يكاد يحطم قلبي). سارا قدماً بين أكوام سقط المتاع. (يالبلدي المحبوب.. كان فيه تعبير ماحتى عند صنع هذا الكرسي).

سألته «أرسيولا»: (أو ليس فيه هذا الآن؟). كانت تغضب دائماً كلما تحدث بهذه اللهجة.

- (كلا، ليس فيه ذلك، حين أرى هذا الكرسي الصافي، الجميل وأفكر بإنكلترة -

حتى إنكلترة «جين أوستن»*... أجد أنها كانت تملك أفكاراً حية تريد عرضها، حتى في ذلك العهد، وسعادة خالصة في عرضها. والآن فإننا لا نستطيع سوى أن نقتنص من بين أكوام النفاية بقايا التعبير القديم. ليس لدينا إنتاج الآن، خلا آلية قذرة، عفنة). هتفت «أرسيولا»: (هذا ليس صحيحاً. لم يجب عليك دائماً أن تشيد بالماضي على حساب الحاضر؟.. في الحقيقة، أنا لا أعتدُّ كثيراً بإنكلترة «جين أوستن». كانت مادية بما فيه الكفاية، إن شئت...).

قال «بركن»: (كان في استطاعتها أن تكون مادية، إذ كانت تملك القوة لتكون شيئاً ما: وهذا ما نفتقده. نحن ماديون لأننا نفتقر إلى القوة التي نستطيع بها أن نكون أي شيء آخر.. ومهما حاولنا فلسنا بقادرين على أن ننجح في أي مسعىً غير المادية: الآلية، جوهر المادية الخالص). استكانت «أرسيولا» إلى حال من الصمت الغاضب. لم تكترث بما قاله. كانت ثائرة ضد شيء آخر.

هتفت: (وأنا أكره ماضيك. لقد ضقت ذرعاً به. أظن أنني أكره حتى ذلك الكرسي العتيق، ولو أنه جميل فعلاً. ليس جماله من الضرب الذي يستهويني أنا. أتمنى لو كان قد حُطِّم حين انتهت أيامه، بدل تركه يزكي لنا الماضي العزيز، لقد أسقمني الماضي العزيز). قال: (ليس مثل بَرَمي بالحاضر الملعون).

- (نعم، الشيء عينه، تماماً.. أنا أكره الحاضر.. لكنني لا أريد أن يحل الماضي محله.. أنا لا أريد ذلك الكرسي العتيق).

انتابه شيء من الغضب لحظة. ثم نظر إلى السماء المشرقة وراء برج الحمّام العمومي، وبدا متجاوزاً لكل ما حصل. فضحك. قال: (حسن. فلنتركه. لقد ضقت ذرعاً بكل شيء، أنا الآخر. على أية حال، ليس بمقدور أحد أن يستمر في الاعتياش على عظام الجَمال القديمة). هتفت: (لا يستطيع المرء ذلك، أنا لا أريد أشياء بالية). أجاب: (الحقيقة هي أننا لا نريد أية أشياء البتة. إن فكرة حيازتي على دار وأثاث مقيتة في نظري). أفزعها هذا القول برهة، ثم أجابت: (وكذلك بالنسبة إليَّ. لكن لابد للمرء أن يعيش في مكان ما). قال: (ليس في مكان ما.. بل في أي مكان. يتعين

* «جين أوستن» (١٧٧٥ - ١٨١٧) روائية إنكليزية، عنيت بتصوير حياة الطبقة الوسطى، من أشهر رواياتها (الكبرياء والتحامل). (المترجم).

على المرء أن يعيش في أي مكان.. وألا يملك أي مكان محدد، أنا لا أريد مكاناً معيناً، ذلك أنه حالما تحصلين على غرفة، وتكون كاملة، حتى تريدين الفرار منها. إن غرفي عند (الطاحونة) كاملة تماماً الآن. أريدها أن تقبع في قاع البحر. إنه استبداد فظيع، استبداد الوسط الثابت، حيث تكون كل قطعة أثاث حجارة من أحجار الوصايا)*.

تشبثت بذراعه فيما كانا يتمشيان مبتعدين عن السوق. قالت: (لكن ما الذي سنفعله؟ لابد لنا من العيش على نحو ما. وأنا أريد جمالاً ما فعلاً في ما يحيط بي. أريد نوعاً من الفخامة الطبيعية، بل الأبهة).

- (لن تظفري بذلك أبداً في الدور والأثاث.. ولا حتى بالملابس. إن الدور والأثاث والملابس، كلها، تعابير عالم قديم واطئ، مجتمع بشري كريه، وإذا كان لديك مسكن من الطراز (التيودوري)**، وأثاث قديم جميل، فما ذلك إلا الماضي مخلَّداً فوق رأسك.. وذلك شيء فظيع. وإذا كان لديك بيت عصري كامل أقامه «يواريه»*** لك، فذلك شيء آخر مخلد فوق رأسك، وكل ذلك فظيع، كلها مقتنيات، مقتنيات، تستبد بك وتحيلك إلى عموميات. عليك أن تكوني مثل «رودان» أو «ميخائيل أنجللو» وتتركين جزءاً من الصخر الخام غير مكتمل في تمثالك. يجب عليك أن تتركي ما يحيط به ناقص التخطيط غير كامل، حتى لا يحتويك الخارج أو يقيدك أو يسيطر عليك أبداً). لبثت واقفة في الشارع تفكر ملياً. قالت: (لن يكون لدينا، أبداً، مكان كامل يخصنا.. بيت لنا، أبداً). أجاب: (ابتهلي إلى الله ألا يكون هذا، في هذه الدنيا). اعترضت: (لكن ليس ثمة غير هذه الدنيا). بسط يديه في إيماءة لا مبالاة. قال: (سنتحاشى إذاً في أثناء ذلك حيازة أشياء تكون ملكنا). قالت: (لكنك اشتريت كرسياً تواً). أجاب: (يمكنني أن أخبر الرجل أنني لا أريده). عادت ففكرت ملياً، ثم اختلج وجهها بحركة صغيرة، غريبة. قالت: (كلا، لا نريده.. لقد سئمت من الأشياء العتيقة). قال: (والجديدة، كذلك). عادا أدراجهما.

---

* الإشارة إلى الألواح الحجرية التي كتبت عليها (الوصايا العشر) للنبي «موسى». (المترجم).

** (التيودوري) نسبة إلى عهد أسرة (تيودور) التي حكمت إنكلترة من ١٤٨٥ إلى ١٦٠٣. (المترجم).

*** «يول يواريه» (١٨٧٩ - ١٩٤٤) مصمم فرنسي. (المترجم).

وهناك، كان الشاب والشابة واقفين، أمام بعض الأثاث: المرأة الحبلى والشاب ضيق الوجه. كانت شقراء، قوية، أقرب إلى القصر. وكان هو ذا قامة متوسطة، جذاب البنية. كان شعره الغامق متهدلاً على جبينه إلى جانب، تحت قلنسوته. لبث واقفاً في تجرد غريب، مثل أحد الذين حلت عليهما اللعنة.

همست «أرسيولا»: (لنعطهما إياه، انظر، إنهما يعدان بيتاً لهما). قال على نحو فظ، متعاطفاً في الحال مع الشاب المتجرد، الماكر، ضد الأنثى النشيطة الحامل: (لن أساعدهما، وأحضهما على ذلك).

هتفت «أرسيولا» : (أوه، أجل، إنه يناسبهما.. ليس هناك أي شيء آخر يلائمهما).

قال «بركن» : (حسن جداً، امنحيهما إيّاه أنت، وأنا سأراقب).

مضت «أرسيولا» إلى الزوجين الشابين، عصبية بعض الشيء، وكانا يتناقشان بشأن مغسلة حديد، أو بالأحرى، كان الرجل ينظر خلسة وفي عجب، مثل سجين، إلى ذلك الشيء الفظيع، في حين كانت المرأة تتناقش. قالت «أرسيولا» : (لقد اشترينا كرسياً، ولا نحتاج إليه، هلا أخذتماه؟ يسرنا أن تأخذاه). التفت الشابان ونظرا إليها، وهما غير مصدِّقين بأنها يمكن أن تخاطبهما.

كررت «أرسيولا»: (هل أنتما راغبان فيه؟ إنه جد لطيف فعلاً... لكن... لكن..) ابتسمت ابتسامة باهرة، نوعاً ما.

لم يفعل الشابان سوى التحديق إليها، وتبادلا النظرات على نحو ذي معنى كي يعرفا ماذا عساهما يصنعان. وقام الرجل، في أسلوب عجيب، بإلغاء وجوده، كأنه كان يستطيع أن يجعل نفسه غير مرئي، كما تستطيع الفأرة ذلك.

أوضحت «أرسيولا» التي استبد بها الارتباك والخوف منهما الآن قائلة: (وددنا إعطاءكما إياه). لقد استلطفت الشاب. كان مخلوقاً ساكناً، غافلاً، لا يكاد أن يكون رجلاً البتة، مخلوقاً أنتجته المدن، خالص التنشئة على نحو غريب، ولطيفاً في معنى من المعاني، وماكراً، سريعاً، دقيقاً. كانت رموشه غامقة اللون، طويلة ولطيفة فوق عينيه اللتين تفتقران إلى الرشاد، وليس فيهما سوى ضرب مخيف من الوعي المذعن، الداخلي، المزجج، المعتم. كان حاجباه الأسودان، وكل ملامحه مرسومة بدقة. حريٌّ به أن

يكون عاشقاً فظيعاً، لكنْ مدهشاً، لامرأة مادام مخلوقاً على هذا النحو المدهش. لابد أن تكون ساقاه بارعتين نشيطتين على نحو مدهش، داخل السروال عديم الشكل. كان يملك بعضاً من رقة وسكينة ونعومة فأرة صامتة، سوداء العينين.

كانت «أرسيولا» قد استوعبته برعشةٍ مرهفة من الانجذاب، وكانت المرأة الممتلئة تحملق على نحو عدواني. عادت «أرسيولا» فنسيته. قالت: (ألا تريديان أخذ الكرسي؟).

ألقى الرجل عليها نظرة تقدير من جانب عينيه، لكنها كانت نظرة نائية تكاد تكون وقحة، أما المرأة فلملمت نفسها. كان فيها شيء من نعمة الفاكهاني المتجول. لم تكن تعرف ماذا كان مقصد «أرسيولا» فاحترست على نحو عدواني. دنا «بركن» وهو يبتسم بخبث عند مشاهدة «أرسيولا» بتلك الدرجة من الارتباك والخشية.

قال مبتسماً: (ما خطبك؟). كان جفناه قد تهدلا قليلاً، وبانت عليه سيماء السرية الموحية، الساخرة، نفسها التي ميزت مسلك المخلوقين القادمين من المدينة. أمال الرجل رأسه قليلاً إلى جانب باتجاه «أرسيولا» وقال بحماسة غريبة، ودية، ساخرة: (ماذا تريد هذه ـ إيه؟)، والتوت شفتاه بابتسامة غريبة.

نظر «بركن» إليه من تحت جفنيه المرتخيين، الساخرين، وقال مؤشراً: (نريد إعطاءك كرسياً.. هذا، الملصقة رقعة عليه).

نظر الرجل إلى الشيء موضع الإشارة. كانت ثمة خصومة غريبة في التفاهم الرجالي، المحرم بين الرجلين.

أجاب بنبرة من الألفة الطليقة أهانت «أرسيولا»: (لم تريد أن تعطيه إلينا يا مبجل..؟).قال «بركن» مبتسماً ابتسامة ساخرة: (ظننت أنه قد يروق لكما.. إنه كرسي لطيف. لقد اشتريناه، ولا نريده. لا إلزام عليكما أن تأخذاه. لا تخافا).

تطلع الرجل إليه، على نحو نصف عدائي، نصف مدرك.تساءلت المرأة بفتور: (لماذا لا تريدانه لكما، إن كنتما قد اشتريتماه تواً؟.. لا يليق بكما، بعد أن تفحصتماه؟ .. تخافان أن يكون فيه شيء ما، إيه؟).

كانت تنظر إلى «أرسيولا» بإعجاب، لكن بشيء من البرم. قال «بركن»: (ما فكرت بهذا قط.. لكن لا، فالخشب بالغ الرقة، في كل موضع). قالت «أرسيولا»

وقد أشرق وجهها وانشرح: (المسألة هي أننا على وشك الزواج، وفكرنا أن نبتاع بعض الأشياء، ثم قررنا تواً أن لا حاجة بنا للأثاث إذ سنسافر إلى الخارج).

نظرت بنت المدينة، الممتلئة ذات الخدين المتوردين بعض الشيء، إلى وجه الامرأة الأخرى الدقيق، نظرة تقويم. تبادلتا نظرات التقويم. لبث الشاب واقفاً على حدة، وقد فقد وجهه التعبير والزمن، وتشكل الخط الرفيع لشاربه الأسود شكلاً موحياً على نحو غريب على فمه المغلق، العريض نوعاً ما. كان جامد الشعور، مستغرقاً مثل حضور معتم، موحٍ، كحضور الحمأة*.

قالت فتاة المدينة، ملتفتةً إلى صاحبها الشاب: (لا بأس أن نكون من إحدى فئات القوم). لم ينظر إليها، لكنه ابتسم بالجزء السفلي من وجهه، مميلاً رأسه إلى جانب في إيماءة قبول غريبة. كانت عيناه ثابتتين، زججهما الظلام. قال بلهجة وضيعة على نحو لا يصدق**: (تبديل رأيك يكلف شيئاً ما). قال «بركن»: (عشرة شلنات هذه المرة). تطلع الرجل إليه بتكشيرة مختلسة. مترددة، كانت بمثابة ابتسامة: قال: (رخيص بنصف جنيه، يا مبجل. ليس كالطلاق). قال «بركن» : (لم نتزوج بعد). قالت المرأة بصوت عال: (صحيح، ولا نحن، لكننا سنتزوج يوم السبت). عادت فنظرت إلى الشاب نظرة تصميم وحماية، نظرة متغطرسة، وجدّ رقيقة في الوقت عينه. كشر على نحو سقيم مشيحاً بوجهه. لقد ظفرت برجولته ولكن، يا إلهي، هل همه ذلك؟ كان ذا كبرياء، غريبة، ماكرة، وفردية منسلة. قال «بركن»: (حظاً سعيداً لكما). فقالت الامرأة: (ولكما كذلك). ثم قالت بشيء من التردد: (متى يومكما، إذاً؟). التفت «بركن» إلى «أرسيولا» وأجاب: (القول للآنسة. سنذهب إلى مسجل العقود حالما تكون هي مستعدة). ضحكت «أرسيولا» وقد غمرها الارتباك والحيرة. قال الشاب وهو يكشر تكشيرة موحية: (لا داعي للعجلة). قالت الشابة: (أوه، لا تدق عنقك استعجالاً لذلك. إنه أشبه بموتك.. كأنك متزوج منذ وقت طويل). أعرض الشاب، كأن ذلك قد لطمه. قال «بركن»: (لنأمل أنه كلما طال أمده، كان ذلك خيراً).

---

* الحمأة : الدرك الأسفل من حضارة المدن . (المترجم)

* المقصود "باللهجة" هنا الطريقة التي تخرج بها الأصوات من فم المتكلم ، حيث ينحرف الكثير منها (خصوصاً أصوات اللين) عن لفظها القياسي (أو الفصيح) . والمقصود "باللهجة الوضيعة" هنا اللهجة المنحرفة التي تنم عن الانتماء الطبقي أو المعيشي الوضيع للمتكلم . وإنه لمما يؤسف له أن تقف الترجمة قاصرة عن نقل هذه السمة اللغوية . (المترجم)

قال الشاب بإعجاب: (هو ذاك يا مبجل. تمتع به مادام موجوداً.. لا تجلد حماراً ميتاً أبداً)*. قالت الشابة وهي تنظر إلى رجلها اليافع برقة سلطوية، ملاطفة: (إلا حين يدعي الموت). فقال بنبرة ساخرة: (أوه، هناك فرق). قال «بركن» : (ماذا بشأن الكرسي؟). قالت المرأة: (نعم، موافقة). اتجهوا متثاقلين صوب البائع، وكان الشاب الوسيم، لكنْ القانط، يتعمد المجانبة قليلاً. قال «بركن»: (هو ذاك. هل ستأخذانه معكما أم تريدان تغيير العنوان؟).

- (أوه يستطيع «فرد» حمله. اجعله يقوم بما يستطيع من أجل البيت العزيز القديم). قال «فرد» مازحاً بتجهم فيما كان يأخذ الكرسي من البائع: (يستخدمونه). كانت حركاته رشيقة، لكنها انسلالية، مقنطة على نحو غريب. قال: (هو ذا كرسي الولادة المريح، يحتاج إلى وسادة)، ثم أقامه على حجارة السوق. ضحكت «أرسيولا»: (ألا تعتقدين بأنه جميل؟). قالت الشابة: (أوه، مؤكد). قال الشاب: (جربي أن تجلسي عليه، وستتمنين لو أنك قد احتفظت به). قعدت «أرسيولا» على الفور، في وسط ساحة السوق. قالت: (مريح جداً، لكنه صلب إلى حد ما، جربه أنت) دعت الشاب إلى الجلوس. بيد أنه أعرض على نحو فظ، أخرق، متطلعاً إليها بعينين سريعتين، لماعتين، موحيتين على نحو غريب، مثل فأرة سريعة مفعمة بالنشاط. قالت الشابة: (لا تدلليه، فهو غير معتاد على الكراسي ذوات الأذرع. لا، إنه غير معتاد). أشاح الشاب بوجهه، وقال مكشراً تكشيرة مخفاة: (يحتاج إلى أرجل فقط). افترق الأربعة. شكرتهما الشابة.

- (شكراً على الكرسي، سيبقى حتى آخر عمره). قال الشاب: (سنحتفظ به زينةً). قال «بركن» و «أرسيولا»: (عمتما مساءً...عمتما مساءً). قال الشاب وهو يرمق «بركن» بنظرة، متحاشياً عينيه ومديراً رأسه جانباً: (حظاً سعيداً لكما).

افترق الزوجان الاثنان، وكانت «أرسيولا» متعلقة بذراع «بركن». وحين ابتعدا مسافة، نظرت إلى الخلف وشاهدت الشاب وهو بجانب الشابة الممتلئة، الرضية. كان سرواله هابطاً على كعبيه، وكان هو يتحرك بشيء من التهرب المنسل، وقد زاد من

---

* بمعنى : لا تتحمس لشيء لم يعد نافعاً . (المترجم) .

تحطمه بحيائه الغريب حِملُهُ الكرسيَ القديم، الرشيق، فيما كانت ذراعه فوق ظهره، والسيقان الأربع، الدقيقة، المربعة المستدقة، تتأرجح على نحو خطر قرب الصبات الصوانية للشارع المرصوف. ومع ذلك كان منعزلاً، لا يقهر، تقريباً، مثل فأرة سريعة، ناشطة. كان ذا جمال غريب، ينتمي إلى العالم السفلي، ومنفر كذلك. قالت «أرسيولا»: (ما أغربهما!)

قال: (أبناء الرجال. إنهما يذكراني بيسوع. «سيرث الودعاء الأرض»).

قالت «أرسيولا»: (لكنهما ليسا من الودعاء).

أجاب: (نعم، لا أعرف السبب، لكنهما كذلك).

انتظرا حافلة الترام. جلست «أرسيولا» في الطابق الأعلى وطفقت تنظر إلى الخارج، إلى المدينة. كان الغسق قد أخذ الآن يحيل تجاويف البيوت المزدحمة إلى عتمة. قالت: (وهل سيرثون الأرض؟).

- (أجل... هم). سألت: (ماذا نحن فاعلون، إذاً؟... لسنا مثلهم... أليس كذلك؟... لسنا من الودعاء).

- (كلا، علينا أن نعيش في الشقوق التي يخلفونها لنا). هتفت «أرسيولا» : (كم هو فظيع! أنا لا أريد أن أعيش في الشقوق). قال: (لا تقلقي، إنهم أبناء الرجال. إنهم يفضلون ساحات الأسواق وملتقى الشوارع، وهذا يبقي الكثير من الشقوق).. قالت : (كل العالم).

- (آه.. كلا.. لكن فسحة ما).

ارتقت حافلة الترام التل ببطء، حيث بدت جموع المساكن القبيحة، الرمادية بلون الشتاء، كطيف من أطياف الجحيم بارد ٍ، خشن ٍ، جلسا ونظرا بعيداً، في الأفق، كانت ثمة حمرة غاضبة من الغروب، كان كل شيء بارداً، صغيراً، على نحو ما، مزدحماً، كأنه نهاية العالم. قالت «أرسيولا» وهي تفكر في مكروهية كل ذلك: (لايهمني ذلك، حتى في تلك المرحلة، إذ لا شأن لي بها). أجاب ماسكاً يدها: (من المؤكد أنه لن يهمنا بعد الآن. لا لزوم للمرء أن ينظر، بل يذهب في سبيله. في دنياي، شروق وسعة..).

هتفت: (نعم يا حبيبي، أليس كذلك؟)، وهي تلتصق به أكثر، في أعلى حافلة الترام، بحيث أخذ الركاب الآخرون يتفرّسون فيهما.

قال: (ولسوف نتجول على وجه الأرض، ونشاهد الدنيا في ما وراء هذه البقعة بالذات).

تلا ذلك صمت مديد. أشرق وجهها كالذهب فيما كانت هي جالسة تفكر.

قالت : (لا أريد أن أرث الأرض، لا أريد أن أرث أي شيء). أطبق كفه على يدها.

ـ (ولا أنا. أريد أن أُحْرَم من الميراث). شدت على أصابعه وقالت: (لن نحفل بأي شيء). لبث ساكناً وضحك. أضافت: (وسنتزوج ونكون قد نفضنا أيدينا منها). ضحك مرة ثانية. قالت: (إنها إحدى طرق التخلص من كل شيء... أن نتزوج). أضاف: (وإحدى طرق قبول الدنيا كلها). قالت جذلة: (أجل، دنيا أخرى، برمتها). قال: (ربما يكون هناك «جرالد» و «غدرون»..). قالت : (المسألة هي: إن يكونا، يكونا، لا جدوى من قلقنا، نحن لا نستطيع في الحقيقة أن نغيرهما، أليس كذلك؟). قال: (كلا، ليس للمرء الحق في أن يحاول ذلك.. حتى لو كانت لديه أشرف النيات في العالم). سألته: (هل تحاول قسرهما؟). قال: (ربما. لماذا يتعين عليَّ أن أنشد حريته، إن لم يكن هذا من صلب اهتمامه؟..).. توقفت بعض الوقت. قالت: (إننا لا نستطيع أن نجعله سعيداً. على أية حال، عليه أن يسعد من ذاته). قال: (أعرف. لكننا نريد أناساً آخرين معنا، أليس كذلك؟). تساءلت: (لِمَ يتعين علينا ذلك؟). قال غير مرتاح: (لا أدري. يشتد الشوق بالمرء إلى مزيد من الزمالة، نوعاً ما). ألحت قائلة: (لكن لماذا؟ لم يتعين عليك أن تتوق إلى الآخرين كثيراً؟ ما لزوم الحاجة إليهم؟). أصابه هذا في الصميم تماماً، فقطب حاجبيه. سألها متوتراً: (هل تكون الخاتمة بوجودنا نحن الاثنين فقط؟).

ـ (أجل. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ فإن أحب أحدهم الانضمام إلينا، فليأت، لكن لماذا يجب عليك أن تجري وراءهم؟)..كان وجهه متوتراً، غير راضٍ. قال: (المسألة هي أنني أتصور سعادتنا الحقة دائماً برفقة بعض الناس الآخرين... شيء قليل من الحرية مع الناس). فكرت ملياً لحظة.

ـ (نعم، يريد المرء ذلك فعلاً، لكنه يجب أن يحدث حدوثاً. إنك لا تستطيع أن تفعل أي شيء من أجل ذلك بإرادتك. يبدو أنك تعتقد دائماً بأن في مقدورك أن تقسر الأزهار على التفتح. لابد أن يحبنا الناس لأنهم يحبوننا... إذ لا تستطيع أن تحملهم على ذلك). قال: (أعرف. لكن هل يجب على المرء ألا يتخذ أية خطوات البتة؟ هل يجب على الفرد أن يمضي ببساطة كما لو كان وحيداً في الدنيا.. المخلوق الوحيد في

العالم؟). قالت: (أنا لديك. لم يجب عليك أن تحتاج إلى الآخرين؟ لم يجب عليك أن تجبر الناس على الاتفاق معك؟ لماذا لا تستطيع أن تنفرد بذاتك، كما تقول أنت على الدوام؟ أنت تحاول أن تتنمّر على «جرالد»... كما حاولت أن تتنمر على «هرمايني». عليك أن تتعلم أن تكون وحيداً. وأنها لفظاعة من لدنك. فعندك أنا، ومع ذلك تريد أن تقسر أناساً آخرين على أن يحبوك، كذلك. أنت تحاول فعلاً التنمر عليهم، كي يحبوك. وحتى آنذاك، أنت لا تريد محبتهم). كان وجهه مفعماً بحيرة حقيقية. قال: (صحيح؟ إنها المشكلة التي لا أستطيع حلها. أنا أعرف بأنني أريد علاقة كاملة، متكاملة معك، وقد ظفرنا بها تقريباً... فعلاً ظفرنا بها. لكن ماذا بعد ذلك؟ هل أريد علاقة حقيقية، نهائية مع «جرالد»؟ هل أريد علاقة نهائية، تكاد تتجاوز العلاقة البشرية... علاقة في منتهاي ومنتهاه.. أم لا أريد؟). نظرت إليه طويلاً بعينين غريبتين، براقتين لكنها لم تجب.

الفصل السابع والعشرون

انتقال

في تلك الأمسية، عادت «أرسيولا» إلى البيت رائعة ملتمعة العينين جداً... ما أغاظ أهلها. عاد أبوها إلى الدار وقت العشاء، تعباً جراء دروس الصف المسائي وطول رحلة العودة إلى البيت. كانت «غدرون» تطالع، والوالدة جالسة في صمت. فجأة خاطبت «أرسيولا» الجماعة عموماً، بصوت مشرق:

ـ (سنتزوج أنا و «روبرت» غداً). استدار الوالد متصلباً، وقال: (أنت ماذا؟). رددت «غدرون»: (غداً!). قالت الوالدة: (غريب!). لكن «أرسيولا» اكتفت بالابتسام على نحو رائع، ولم تجب. صاح الوالد بخشونة: (تتزوجين غداً!.. ما الذي تقولينه؟). قالت «أرسيولا» : (أجل. لم لا؟). تلك الكلمتان، منها، كانتا تثيران فيه غضباً شديداً على الدوام. (كل شيء على ما يرام... سوف نذهب إلى مكتب مسجل العقود..). تلت غموضَ «أرسيولا» البهيج ثانيةٌ من السكوت في الغرفة. قالت «غدرون»: (صحيح يا «أرسيولا»؟!). تساءلت الوالدة بشيء من الجلال: (هل يمكننا أن نسأل لم كل هذه السرية حتى الآن؟). قالت «أرسيولا»: (لكن لم تكن ثمة سرية، فقد كنت تعلمين). صاح الوالد عندئذٍ: (مَنْ كان يعلم؟ من كان يعلم؟ ماذا تعنين بقولك: كنت تعلمين؟).

كان في إحدى حالات هياجه السخيفة، فأقفلت عليه ، في الحال، قائلةً ببرود: (كنت تعلم حتماً، كنت تعلم بأننا مزمعان الزواج). تلا ذلك صمت خطر.

ـ (هل كنا نعلم بأنكما كنتما مقبلين على الزواج؟ هل كنا؟.. كنا نعلم! عجباً! هل يعلم أحد أي شيء عنك؟ يا أيتها الكلبة المراوغة!). صاحت «غدرون» وقد احتقن وجهها احتقاناً شديداً في اعتراض صارخ: (أبتاه!). ثم تساءلت في صوت فاتر لكنه

رقيق، كما لو كانت تريد تذكير أختها بأن تكون طيعة: (لكنْ، أليس ذلك قراراً مفاجئاً على نحو فظيع؟). أجابت «أرسيولا» بالابتهاج نفسه الذي يبعث على الجنون: (كلا، ليس حقاً. كان ولا يزال منذ أسابيع يريدني أن أوافق... قد هيأ الإجازة... لكنني... لم أكن أنا مهيأة في قرارة نفسي. أما الآن فإنني مستعدة... فهل هناك أي شيء يسيء؟..). قالت «غدرون» : (كلا مؤكد)، لكن بنبرة تأنيب غير ودي. (لكِ الحرية الكاملة في أن تفعلي ما تشائين).

قلد الأب عبارتها على نحو جارح: («مهيأة في قرارة نفسك»... نفسك، هذا كل ما يهمك، أليس كذلك؟ «ألم أكن مهيأة في قرارة نفسي»... أنت ونفسك. أنت على شيء من الأهمية، أليس كذلك؟).

انتصبت، وأمالت جيدها إلى الوراء، وعيناها تلتمعان بألق أصفر وخطر.

قالت وقد جُرِحَت ومُسَّت كبرياؤها: (أنا لنفسي. أعرف أنني لا أخص أحداً. لقد أردت أن تتنمر عليَّ حسب... أنت لم تكن تحفل بسعادتي قط).

كان مائلاً إلى أمام، يراقبها، ووجهه متوتر مثل شرارة.

هتفت أمها: (ما الذي تقولينه يا «أرسيولا» ؟ لا تطلقي لسانك). استدارت «أرسيولا» وومضت عيناها، وصاحت: (كلا. لن أفعل. لن ألزم الصمت ليتنمروا علي. ماذا يهم في أي يوم أتزوج؟ ماذا يهم! إنه لا يعني أحداً سواي).

كان أبوها متوتراً، ومتحفزاً كقط على وشك الوثوب. صاح: (حقاً؟). واقترب منها أكثر فانكمشت مبتعدة. أجابت منكمشة، لكنْ عنيدة: (كلا، كيف يمكن ذلك؟). هتف بصوت غريب يشبه الصرخة: (أنا لا يهمني إذاً ما تفعلين، ما سيكون عليه مصيرك؟). ارتدت الوالدة و «غدرون» كأنهما قد نُوِّمتا مغناطيسياً. فقالت «أرسيولا» متأتئة: (كلا)... دنا والدها منها كثيراً. (أنت لا تريد سوى..)

عرفت أن ذلك كان خَطِراً، فتوقفت. لقد تحفّز واستعدت كل عضلة من عضلاته. قال متحدياً: (ماذا؟). غمغمت: (أن تتنمّر عليّ)، وحتى في أثناء ماكانت شفتاها تتحركان، كانت يده قد هوت بشدّة على جانب الوجه، فأطيح بها نحو الباب.

صاحت «غدرون» بصوت عال: (أبتاه، هذا مستحيل!).

لبث واقفاً لا يتحرك. استعادت «أرسيولا» رباطة الجأش، ووضعت يدها على

مقبض الباب. انتصبت ببطء. أما هو فبدا الآن في شك من أمره. أعلنت، والدموع المتلألئة تترقرق في عينيها، ورأسها مرفوع في تحد، قائلة: (إنه صحيح، ما الذي كان حبّكَ يعني؟ ما الذي عناه أبداً؟ ... تنمّر وحرمان... ذلك ما عناه..).

أخذ يتقدم ثانية، بحركات غريبة، متوترة، وقبضة مطبقة، ووجه قاتل. لكنها كانت قد مرقت خارجة من الباب بسرعة البرق، وسمعوها تركض إلى الطابق الأعلى.

لبث واقفاً لحظة عند الباب. ثم استدار وقفل راجعاً إلى مقعده إزاء النار، كحيوان مدحور.

كانت «غدرون» شاحبة جداً، ومن خلال الصمت المطبق، سُمِعَ صوت الأم بارداً وغاضباً وهي تقول:

- (حسن، لا يتعين عليك أن تأبه لها إلى هذا الحد).

ومرة أخرى ران الصمت، كلٌّ يتابع سلسلة من العواطف والخواطر، على حدة.

فجأة انفتحت الباب ثانية: «أرسيولا»، مرتدية قبعة وفرواً، وممسكة بحقيبة صغيرة، قالت بنبرتها المجنِّنة المشرقة التي تكاد أن تكون ساخرة: (إلى اللقاء! إني ذاهبة).

وفي اللحظة التالية، انغلقت الباب، وسمعوا الباب الخارجية، فخطواتها السريعة وهي تجتاز ممر الحديقة، ثم طرق البوابة، فانقطاع وقع قدميها الخفيف. حلّ في الدار سكون كالموت.

مضت «أرسيولا» إلى المحطة مباشرة، متعجلة على قدمين مجنحتين، دون انتباه. لم يكن هناك أي قطار، ولابد لها من مواصلة السير حتى المفرق. وفيما كانت تجتاز العتمة، شرعت تبكي بكاءً مراً، معانيةً عذاباً أخرس، كسير القلب، طفولياً، طيلة الطريق وفي القطار. مرّ الوقت دون أن تتحقق منه، أو تحفل به. لم تعرف أين كانت ولا ما كان جارياً، إلا أنها كانت تبكي من أعماق لا قرار لها، في حزن يائس، يائس، حسب، حزن فظيع طفولي، حزن لا يعرف الكلال.

ومع هذا كان لصوتها الإشراق الدفاعي نفسه حين خاطبت مالكة دار «بركن» عند الباب:

- (مساء الخير! هل السيد «بركن» موجود؟ هل يمكنني مقابلته؟).

ـ (أجل، إنه موجود في غرفة المطالعة). انسلت «أرسيولا» مجتازة المرأة، انفتحت باب، إذ كان قد سمع صوتها. هتف قائلاً: (مرحبا!)، وقد فوجئ إذ رآها واقفة هناك، وفي يدها حقيبة، وعلى وجهها آثار دموع. كانت من الطراز الذي يبكي دون إظهار الكثير من الآثار مثل طفل. قالت منكمشة: (هل إن منظري مثير للغرابة؟).

ـ (كلا.. لماذا؟ هيا ادخلي). تناول الحقيبة من يدها ودخلا غرفة المطالعة.

هناك على حين غرة، ارتجفت شفتاها كشفتي طل يستعيد ذكرى، واغرورقت عيناها بالدموع.

تساءل مطوقاً إياها بذراعيه: (ما خطبك؟). نشجت بشدة على كتفه وهو ممسك بها في سكون، ينتظر.

أعاد القول، حين هدأت قليلاً: (ما خطبك؟). لكنها اكتفت بأن ضغطت وجهها على كتفه على نحو ما أشد، في ألم، مثل طفل لا يستطيع أن يتحدث.سألها: (ما الخبر، إذاً؟).

نأت فجأة، ومسحت عينيها، واستعادت رباطة جأشها، ومضت إلى كرسي فجلست عليه. أعلنت، وهي جالسة مكوَّرة، أشبه بطير منفوش الريش، وعيناها مشرقتان جداً: (لقد ضربني أبي). قال: (لماذا؟). أشاحت بوجهها ولم تشأ أن تجيب. كانت ثمة حمرة مثيرة للشفقة في منخريها الحساسين وشفتيها المرتجفتين.

كرر متسائلاً بصوته الغريب، الناعم، النفاذ: (لماذا؟). التفتت إليه بشيء من التحدي، وقالت: (لأنني قلت له أنني مزمعة على الزواج غداً فصبّ جام غضبه عليّ).

ـ (لِمَ صبَّ جام غضبه عليك؟). تهدل فمها ثانية حين تذكرت المشهد مرة أخرى، واغرورقت عيناها بالدموع. قالت، وقد انحرف فمها جراء بكائها طيلة الوقت الذي كانت فيه تتكلم، حتى إنه كاد أن يبتسم، إذ بدا الأمر طفولياً جداً: (لأنني قلت إنه لا يهتم... وهو كذلك.. إنما سطوته هي التي كانت قد مُسَّت). لكن الأمر لم يكن طفولياً، بل كان صراعاً مميتاً، جرحاً عميقاً. قال: (ليس ذلك صحيحاً كل الصحة. وحتى لو كان كذلك، فلا يجب عليك أن تقوليه). قالت وهي تنتحب: (إنه صحيح... إنه صحيح... ولن أرضى بالاستبداد المدعى بأنه حب.. في حين إنه ليس كذلك.. إنه لا يهتم... كيف يمكنه ذلك؟... كلا، لا يمكنه..).

جلس صامتاً، لقد حركت مشاعره بإفراط. أجاب «بركن» بهدوء: (لذلك لا ينبغي عليك إثارته، إن لم يستطع ذلك). انتحبت قائلة: (ولقد أحببته، أجل، لقد أحببته على الدوام، وكان هو يفعل بي هذا على الدوام، أجل، كان كذلك...). قال: (كان، إذاً، حب الأضداد. لا بأس عليكِ... سيكون كل شيء على ما يرام. ليس الوضع ميؤوساً منه).

قالت باكية: (أجل، إنه كذلك...إنه كذلك).

- (لماذا؟).

- (لن أراه ثانية بعد اليوم أبداً...).

- (ليس فوراً. لا تبكي.. كان لابد لك من أن تقطعي الصلة به.. كان أمراً محتوماً... لا تبكي). دنا منها ولثم شعرها الناعم، الرقيق، ماساً خديها المبتلين برفق. أعاد القول: (لا تبكي، كفي عن البكاء). مسك رأسها وضمّه إليه ضماً دانياً، هادئاً. سكنت أخيراً. ثم تطلعت إليه، بعينين واسعتين، خائفتين. سألته: (ألا تريدني؟).

- (أريدك؟). حيرتها عيناه المحزونتان، المستقرتان، ولم يمنحها حرية التصرف.

سألته، بعد أن عاودها القلق الشديد خشية أن تكون في غير مكانها: (هل تتمنى لو أنني لم أجيء). قال: (كلا. أتمنى لو لم يكن العنف.. ما أقبحه... لكن، لعله كان أمراً لا مناص منه). راقبته بصمت. بدا خامداً. سِألته وهي تحس بالمهانة: (لكن أين سأقيم؟). فكر لحظة، وقال: (هنا، معي، نحن متزوجان اليوم كما سنكون غداً).

- (لكن...).

قال: (سأنبئ السيدة «فارلي». لا تبالي الآن). جلس ينظر إليها. كان باستطاعتها أن تحس بعينيه المحزونتين، المستقرتين وهما تنظران إليها طيلة الوقت. لقد أخافها ذلك قليلاً. أبعدت شعرها عن جبينها بحركة عصبية. قالت: (هل أبدو قبيحة؟). وتمخطت ثانية. بانت بسمة صغيرة حول عينيه. قال: (كلا، لحسن الحظ). ثم أقبل عليها ولمّها بذراعيه كجامعٍ شيئاً يخصه. كانت جميلة جمالاً رقيقاً إلى درجة أنه لم يكن يتحمل رؤيتها، بل تمكن فقط من تحمل إخفائها لصق نفسه. أما وقد غسلتها دموعها على أنظف ما يكون، فقد غدت نضرة، ضعيفة كزهرة تفتحت تواً، زهرة جدً

نضرة. جد رقيقة، جد مكتملة بنور داخلي، حتى إنه لم يستطع أن يتحمل النظر إليها، وكان لابد له من أن يخفيها لصق نفسه، ويغطي عينيه منها. كان فيها صدق الخليقة التام... شيء شفاف وبسيط مثل وردة بهية، مشرقة تفتحت تواً في نعماء جوهرية. كانت يافعة جداً، مدهشة جداً، لم تكمد البتة، وكان هو بالغ الكبر، قد غمرته ذكريات ثقال غمراً. كانت روحها يافعة. غير محددة المعالم. تتألق بالذي لا يُرى. وكانت روحه معتمة، كئيبة، لا تملك سوى ذرة يتيمة من الأمل الحي، مثل حبة واحدة من الخردل*. بيد أن تلك الحبة الوحيدة الحية فيه كانت تضارع الشباب الكامل فيها.

همس قائلاً: (أحبكِ) فيما كان يقبلها، وارتجف يحدوه أمل خالص، مثل رجل ولد ثانية بأمل مدهش حي يجاوز تخوم الموت بكثير.

لم تستطع أن تعرف مقدار ماكان يعني ذلك بالنسبة إليه، وما مدى ماكان يعنيه بتلك القلة القليلة من الكلمات. وعلى نحو كاد أن يكون طفولياً، أرادت دليلاً وبياناً، بل بياناً مبالغاً فيه، ذلك أن كل شيء بدا لها غير أكيد، غير محدد، بعد.

لكنها لم تستطع أن تفهم قط عاطفة الامتنان التي استقبلها بها في قرارة روحه، والفرحة الغامرة التي لا توصف، فرحة الإدراك بأنه عائش وأنه لائق للاتحاد بها، وهو الذي كان أقرب إلى الموت، وهو الذي كان أقرب إلى الزوال مع بقية جنسه في منحدر الموت الآلي. لقد عبدها كما يعبد العمرُ الشبابَ، وتباهى بها لأنه بات، بذرّة الإيمان التي كان يملك، في مثل شبابها.. كان قرينها المناسب. كان ذلك الزواج منها بمثابة بعثه وحياته.

كل هذا، لم تستطع أن تدركه. كانت تريد أن تكون موضع اهتمام وهيام. كانت ثمة مسافات من السكوت بينهما، لا حدود لها. كيف يتمكن من أن يحدثها عن تأصل جمالها، الذي لم يكن شكلاً، أو وزناً، أو لوناً، بل شيئاً ما مثل نورٍ ذهبي، غريب! كيف يستطيع أن يعرف هو ما الذي كان جمالها يضمره له؟ قال: (أنفك جميل، ذقنك رائع). لكن ذلك بدا كالأكاذيب، فخاب ظنها وتألمت. حتى حين قال هامساً في صدق (أحبك، أحبك) لم تكن تلك الحقيقة حقيقية. كان شيئاً تجاوز الحب، بهجة بهيجة

* اقتباس من الإنجيل (متّى) : «إن مملكة السماء مثل حبة خردل» . (المترجم) .

مردُّها تجاوزُ المرء ذاته، وتساميه على وجوده القديم. كيف يمكنه أن يقول: (أنا) في حين كان هو شيئاً جديداً وغير معروف، غير نفسه كلياً. هذه الأنا، هذه الصيغة القديمة من صيغ العمر، كانت حرفاً ميتاً.

في النعمة الجديدة، الرائعة، والسكينة التي تتجاوز المعرفة، ماكان ثمة أنا وأنت، بل الأعجوبة الثالثة، غير المتحققة، أعجوبة الوجود، ليس وجود الشخص نفسه، بل في مُنْجَز كياني، أنا مع كيانها، وصيرورتهما كياناً جديداً.. وحدة جديدة فردوسية مستعادة من الثنائية. كيف يمكنني أن أقول: (أحبك) حينما أكون أنا قد انتهيت من الوجود، وتكونين أنت قد انتهيت من الوجود: كلانا قد اقْتُنِصَ ورُفِعَ إلى وحدانية جديدة حيث يصمت كل شيء، لأن لا شيء تلزم الإجابة عنه.. كل شيء كامل ومتناغم. الكلام ينتقل بين الأجزاء المنفصلة لكن في (الواحد) الكامل هناك نعمة الصمت الكامل.

تزوجا شرعاً في اليوم التالي. عملت بما أشار عليها، فكتبت إلى أبيها وأمها، أجابت أمها ولم يجب الأب.

لم ترجع إلى المدرسة بل مكثت مع «بركن» في غرفة، أو في (الطاحونة)، متنقلة معه، حيثما ارتحل، لكنها لم تلتق أحداً عدا «غدرون» و «جرالد».

وظلت غريبة متحيرة تماماً، لكنها مرتاحة ارتياحها من الفجر.

جلس «جرالد» إليها عصر أحد الأيام في غرفة المطالعة، في (الطاحونة). لم يكن «روبرت» قد عاد إلى البيت بعد. سألها «جرالد» مبتسماً: (أنت سعيدة؟). هتفت، وهي ترتد قليلاً في إشراقتها: (سعيدة جداً).

- (أجل، يمكن للمرء أن يلاحظ ذلك).

هتفت «أرسيولا» متفاجئة: (صحيح؟). تطلع إليها بابتسامة دالّة، وقال: (أوه، نعم، بكل وضوح). سُرَّتْ. تأملت برهة.

- (وهل يمكنك أن تلاحظ أن «روبرت» سعيد هو الآخر؟).

أخفض جفنيه ونظر جانباً، وقال: (أوه، نعم).

- (حقاً!).

- (أوه، نعم). كان هادئاً جداً، كأن ذلك شيء يجب ألا يكون هو من يتحدث عنه.

بدا حزيناً. كانت حساسة جداً حيال الإيحاء. سألته السؤال الذي كان يريد منها أن تسأله. قالت: (لم لا تكون سعيداً أنت الآخر؟ في وسعك أن تكون تماماً). تمهل لحظة، ثم تساءل: (مع «غدرون..»؟). هتفت وقد تألقت عيناها: (أجل!). لكنْ كان هناك توتر غريب... تأكيد، كأنهما كانا يؤكدان على أمانيهما، على خلاف الحقيقة. قال: (تعتقدين أن «غدرون» ستقبل بي وأن من المفروض أننا سنكون سعيدين؟). هتفت قائلة: (أجل، أنا على يقين!). استدارت عيناها من حبور، لكنها كانت في قرارة نفسها مقيدة. فقد كانت تعرف إلحاحها. أضافت قائلة: (أوه، ما أسعدني). ابتسم، وقال: (ما الذي يجعلك سعيدة؟). أجابت: (من أجلها. أنا متأكدة منك... إنك الرجل المناسب لها). قال: (صحيح؟... وهل تظنين أنها ستتفق معك؟). هتفت على عجل: (أوه، نعم). ثم أردفت بعدم ارتياح شديد، بعد إعادة النظر في الأمر: (وإن لم تكن «غدرون» بسيطة جداً، أليس كذلك؟ إن المرء لن يعرفها في خمس دقائق، أليس كذلك؟ إنها لا تشبهني بهذا الصدد). وضحكت أمامه بوجهها الغريب، الصريح، المنبهر. تساءل «جرالد»: (أتظنين أنها لا تشبهك كثيراً؟). قطبت حاجبيها.

ـ (أوه، إنها لا تشبهني من نواح عدة، لكنني لن أعرف أبداً ماهي فاعلة حين يطرأ شيء جديد). قال «جرالد» : (حقاً؟). سكت بضع لحظات، ثم تحرك متردداً قائلاً بصوت جد خفيض وحذر: (كنت، على أية حال، سأطلب إليها أن تسافر معي في عيد الميلاد).

ـ (تسافر معك؟.. تقصد مؤقتاً؟). قال، بحركة مستنكرة: (بقدر ما تحب). صمت كلاهما بضع دقائق. قالت «أرسيولا» بعد لأي: (طبيعي قد تكون راغبة تماماً في التعجيل بالزواج، في مقدورك أن تلاحظ ذلك). ابتسم «جرالد» قائلاً: (نعم، في مقدوري أن ألاحظ ذلك. لكن في حالة الرفض، فهل تظنين أنها ستصاحبني إلى الخارج أياماً معدودات.. أو مدة أسبوعين؟). قالت «أرسيولا» : (أي نعم، سأسألها).

ـ (وهل تظنين بأننا قد نسافر جميعنا معاً؟).

ـ (كلنا؟). أشرق وجه «أرسيولا» ثانية. (سيكون ذلك مسلياً نوعاً ما، ألا تظن ذلك؟).

قال: (مسلياً جداً). قالت «أرسيولا» : (وعندها تستطيع أن ترى).

- (ماذا؟).

- (كيف تسير الأمور، أعتقد أن من الأفضل أن يسبق شهرُ العسل العرسَ، أليس كذلك؟). سُرَّت بهذا القول البارع*، وضحك هو. قال: (في حالات معينة، أتمنى لو كان الأمر كذلك بالنسبة إلى حالتي الشخصية).

هتفت «أرسيولا»: (حقاً؟). ثم ارتابت: (نعم، لعلك على صواب. على المرء أن يرضي نفسه). قدم «بركن» بعد فترة قصيرة فأخبرته «أرسيولا» بما دار من حديث. هتف «بركن»: («غدرون» ! إنها خليلة بالفطرة، تماماً مثلما أن «جرالد» عاشق بالفطرة، عاشق بحق**. إذا كانت جميع النساء إما متزوجات أو خليلات، كما يقول أحدهم، فإن «غدرون» خليلة). صاحت «أرسيولا»: (وجميع الرجال إما عشاق أو أزواج، لكن لماذا لا يكونون الاثنين؟). ضحك قليلاً: (ينفي كل منهما الآخر). هتفت «أرسيولا» : (إذاً أريد عاشقاً). قال: (كلا، أنت لا تريدين ذلك). قالت مولولة: (لكنني أريده). قبلها وضحك. كان من المقرر أن تذهب «أرسيولا» بعد يومين من ذلك، إلى البيت في (بلدوفر) لتأخذ أشياءها، كان الانتقال قد تمّ، والعائلة قد رحلت، وكانت «غدرون» قد حصلت على غرفة في (ويلي غرين). لم تكن «أرسيولا» قد التقت والديها منذ زواجها، لقد بكت بسبب القطيعة، لكن ما جدوى رأب الصدع؟ وسواءً صح ذلك أم لم يصح، فإنها ما كانت تستطيع الذهاب إليهما. وهكذا تركت متاعها حيث كان، وقررت السير مع «غدرون» إلى هناك بعد الظهر. كان عصراً شتائياً ذا سمة حمراء حين بلغتا المنزل. كانت النوافذ معتمة وخاوية، وكان المكان قد بدأ يثير المخاوف. وكانت قاعة المدخل الخالية المقفرة تبعث القشعريرة في قلبي الفتاتين.

قالت «أرسيولا»: (لا أظن أنني أتجرأ على المجيء وحدي... إن ذلك يخيفني). هتفت «غدرون»: («أرسيولا» ! أليس هذا مذهلاً! هل يمكنك تصور أنك كنت قد عشت في هذا المكان وما أحسست به قط؟ لا أستطيع أن أتصور كيف عشتُ هنا يوماً دون أن أموت رعباً؟). تفحصتا غرفة الطعام الواسعة. كانت غرفة من الحجم المتوسط. لكنّ زنزانةً كانت ستكون أبدع منها الآن. كانت النوافذ الناتئة عارية، والأرضية

---

* جاءت عبارة «القول البارع» بالفرنسية . (المترجم) .

** قال (عاشق بحق) بالفرنسية . (المترجم) .

جرداء، وثمة حاشية من صبغ أدكن تحيط بشريط الألواح الخشبية الباهت، وعلى ورق الجدران الباهت اللون بقع غامقة، حيث كانت الأثاث موضوعة، وحيث كانت الصور معلقة. كان الإحساس بالجدران، الجدران الرقيقة، المتيبسة، ذوات المظهر المهلهل، وبالأرضية المهلهلة التي بهت لونها بحواشيها السود المصطنعة، إحساساً من شأنه أن يعطّل العقل. كان كل شيء عديم الوجود بالنسبة إلى المشاعر. كان ثمة وعاء، دون مادة، ذلك أن الحيطان كانت متيبسة وورقية. أين كانت قائمة: هل على الأرض، أم أنها معلقة في صندوق من الورق المقوى؟ كانت في الموقد أوراق محروقة وقطع من ورق نصف محروق. قالت «أرسيولا»: (تصوري أننا أمضينا أيامنا هنا!). هتفت «غدرون»: (أعرف ذلك. إنه مرعب جداً. على أية صورة يجب أن نكون نحن، إذا كان هذا المكان هو الذي احتوانا!). قالت «أرسيولا»: (حقير! إنه كذلك فعلاً). وتعرفت على أغلفة نصف محروقة من مجلة (فوغ)*... رسوم نصف محروقة لنسوة يرتدين أردية... ملقاة تحت مشبك المصطلى.

مضيتا إلى غرفة الاستقبال: بقعة أخرى من هواء محتجز بلا وزن أو مادة، ليس ثمة سوى شعور بانحباس ورقي لا يطاق، في اللا شيء، لكن المطبخ بدا فعلاً على درجة أكبر من الأهمية، بسبب الأرضية المرصوفة بالقرميد الأحمر، وبسبب الموقد، وإن كان بارداً وفظيعاً.

تسكعت الفتاتان بخواء، مرتقيتين درجات السلم العارية. تردد صدى كل صوت، تحت فؤاديهما. تسكعتا رجوعاً مجتازتين المجاز العاري. كانت أشياء «أرسيولا» مسندة إلى جدار غرفة نومها، حقيبة ملابس كبيرة، سلة شغل، بضعة كتب، معاطف فضفاضة وصندوق قبعات، منتصبة كلها في كمد في فراغ الغسق الغامر. قالت «أرسيولا» وهي تنظر إلى ممتلكاتها المهجورة: (منظر بهيج، أليس كذلك؟). قالت «غدرون» : (بهيج جداً). شمرت الفتاتان عن ساعد الجد وحملتا كل شيء نزولاً إلى الباب الأمامية، وكررتا انتقالهما الخاوي ذا الرجع الصادي مرات ومرات. وبدا المكان كله مصطخباً من حولهما اصطخاب عبث فارغ، خاوٍ. وعلى بعد، كانت الغرفة

* «فوغ» «Vogue» : مجلة الأزياء النسائية المشهورة. (المترجم).

الفارغة، غير المنظورة، تبعث رجعاً يكاد يكون فاحشاً. حتى إنهما كادتا تفرّان إلى العراء مع القطع الأخيرة من المتاع.

بيد أن الجو كان بارداً، كانتا تنتظران «بركن» الذي كان سيجيء بالسيارة. عادتا فدخلتا، ثم صعدتا إلى الطابق الأعلى حيث غرفة نوم والديهما الأمامية التي كانت نوافذها تطل على الطريق، وعلى الغروب الذي يعترضه سواد قضبان الشباك، وعبر الريف تعترضه الحمرة والبياض، دون ضوء.

جلستا على مقعد الشباك تنتظران. كانت كلتا الفتاتين تتفحص الغرفة. كانت خاوية بعبثية تكاد أن تبعث الخوف.

قالت «أرسيولا» : (في الحقيقة، لا يمكن أن تكون هذه الغرفة مقدسة، أليس كذلك؟). تفحصت «غدرون» الغرفة بعينين متأنيتين، وأجابت: (محال).

ـ (حين أفكر في حياتهما، حياة أبي وأمي، وحبهما، وزواجهما، ونحن والأطفال جميعاً، وتنشئتنا... هل تستسيغين مثل هذه الحياة يا «خوخة»؟).

ـ (لن أستسيغها يا «أرسيولا»).

ـ (تبدو كلها لا شيء، إلى حد كبير. حياتاهما.... لا معنى فيهما. في الواقع، إنهما لو لم يلتقيا، ولم يتزوجا، ولم يعيشا معاً... فما كان ذلك لِيَهُمُّ، أليس كذلك؟). قالت «غدرون» : (طبيعي.... إنك لا يمكنك أن تقرري).

ـ (كلا، لكنني لو تصورت أن حياتي مآلها مثلها.. يا «خوخة»...) وهنا مسكت ذراع «غدرون» وأردفت: (لهربتُ). سكتت «غدرون» بضع لحظات ثم أجابت:

ـ (لا يستطيع المرء، في واقع الأمر، أن يتفكر في الحياة العادية... لا يستطيع المرء أن يتفكر فيها، أما بالنسبة إليك يا «أرسيولا» فالأمر مختلف جداً. إذ ستكونين بمنجاة من كل ذلك، برفقة «بركن». إنه حالة خاصة. أما بالنسبة إلى الرجل العادي الذي استقرت حياته في مكان واحد، يكون الزواج محالاً تماماً. قد يكون هناك، بل يوجد ألوف من النساء ممن يردن ذلك، ولا يمكنهم تصور أي شيء آخر. لكن مجرد التفكير بذلك يحيلني مجنونة. يجب أن يكون المرء طليقاً، قبل كل شيء. يجب أن يكون المرء طليقاً. قد يتخلى المرء عن أي شيء آخر، لكن يجب أن يكون طليقاً. يجب ألا يكون المرء عنواناً: ٧ شارع (الذهب المزيف).... أو طريق (سومر ست درايف)....

أو (شورتلاندز). مامن رجل يكفي ليعوض عن ذلك... أي رجل! ولغرض الزواج، لابد من الظفر بإنسان طليق دون ارتباط، أو لا شيء... رفيق سلاح، فارس حظ*، رجل ذي مركز في دنيا المجتمع..... الخلاصة، ذلك شيء محال، ولا شيء غير ذلك... محال). قالت «أرسيولا» : (ما أجمل عبارة فارس الحظ! إنها ألطف بكثير من عبارة الجندي المغامر، المرتزق). قالت «غدرون» : (نعم، أليس كذلك؟.. أستطيع أن أهز العالم بفارس حظ، أما البيت، أما المؤسسة! ماذا قد يعني ذلك يا «أرسيولا» ؟ تصوري!). قالت «أرسيولا» : (أعرف ذلك. كان عندنا بيت واحد... وهذا كاف بالنسبة إليَّ). قالت «غدرون»: (كاف، تماماً). استشهدت «أرسيولا» بسخرية بالقول: (البيت الصغير الرمادي اللون الواقع في الغرب**.

قالت «غدرون» بتجهم: (أليس وقعه رمادياً كذلك؟)***

قوطعتا بصوت السيارة. هوذا «بركن». دهشت «أرسيولا» لشعورها بمثل هذا الإشراق المفاجئ، ولانطلاقها فجأة هكذا من إسار مشكلات البيوت الرمادية في الغرب. سمعتا وقع كعبيه على أرضية القاعة، في الأسفل. نادى قائلاً: (مرحباً!). فتردد صوته حياً عبر الدار. ابتسمت «أرسيولا» لنفسها. لقد خاف هو الآخر من المكان. نادت باتجاه الطابق الأسفل: (مرحباً!.. ها نحن هنا). وسمعتاه يصعد في عدو سريع. قال: (هذا وضع شبحي مخيف). قالت «غدرون»: (لا أشباح في هذه البيوت... إذ لا شخصية لها. ولا يمكن لغير المكان ذي الشخصية أن يكون فيه شبح).

- (أظن ذلك. هل أنتما تبكيان على الماضي؟). قالت «غدرون» متجهمة: (أجل). ضحكت «أرسيولا» وقالت: (لا نبكي على فراقه، بل نبكي لأنه كان يوماً). أجاب وقد ارتاح: (أوه...).

جلس لحظة. اعتقدت «أرسيولا» أن ثمة شيئاً مشرقاً زاخراً بالحيوية في حضوره، جعل حتى الشكل النشاز لهذا البيت الخاوي يغيب عن الأنظار.

---

* ورد تعبير (فارس حظ) هنا ، وفي السطور التالية بالألمانية ، ومعناه الجندي الجاهز لخدمة أي شخص لقاء نقود . (المترجم) .

** عنوان أغنية شائعة يومذاك . (المترجم) .

*** أثرنا الإبقاء على كلمة «رمادي» الدالة على اللون على الرغم من أن معناها هنا «كئيب» لأن المعنيين تؤديهما في الإنكليزية كلمة واحدة . (المترجم) .

قالت «أرسيولا» عن قصد: (تقول «غدرون» أنها لا تستطيع تحمل الزواج والإقامة في بيت).

كانوا يعرفون أن في هذا إشارة إلى «جرالد».

سكت بضع لحظات، ثم قال: (حسن، إذا كنت تعرفين سلفاً أنْ لا طاقة لك بذلك، فأنت آمنة). قالت «غدرون»: (تماماً..). قالت «أرسيولا»: (لماذا تظن كل امرأة أن هدفها في الحياة هو أن يكون لها بعل وبيت صغير رمادي في الغرب؟.. لماذا يكون هذا غاية الحياة؟ لم يتعين أن يكون الأمر كذلك؟). قال «بركن»: (من اللازم احترام حماقات المرء)*.

ضحكت «أرسيولا» قائلة: (لكن لا لزوم لاحترام الحماقة، قبل أن ترتكبها).

ـ (آه، ثم هناك حماقات بابا؟). أضافت «غدرون» هاجية: (وحماقات ماما). قالت «أرسيولا»: (والجيران). ضحك الجميع ونهضوا. لقد أوشك الظلام أن يحل، حملوا الأشياء ونقلوها إلى السيارة. أوصدت «غدرون» باب البيت الخالي. كان «بركن» قد أضاء مصابيح السيارة. كان كل شيء بهيجاً، على ما بدا، كأنهم خارجون في نزهة. قالت «غدرون»: (هل لديك مانع من التوقف عند كُلسنْز)؟ عليّ أن أترك المفتاح هناك). قال «بركن»: (حسن) ثم مضوا.

توقفوا في الشارع الرئيس. كانت الحوانيت قد أضيئت أنوارها تواً، وكان آخر عمال المناجم يمرون في أوبتهم إلى بيوتهم على المسالك المعبدة، وكأنهم أطياف نصف مرئية في وساختهم المنجمية الدكناء، متخللين الهواء الأزرق. بيد أن أقدامهم كانت تصطفق بخشونة على الرصيف بأصوات عديدة.

ما أشد سرور «غدرون» عند خروجها من المتجر ودخولها إلى السيارة التي حملتها سريعاً إلى منحدر الغسق المتجلي، بصحبة «أرسيولا» و«بركن»! يالها من مغامرة تبدّت بها الحياة في هذه اللحظة! لكم كان حسدها لـ «أرسيولا» عميقاً ومباغتاً! كانت الحياة بالنسبة إليها جد سريعة، ومفتوحة الباب... طائشة جداً، كأنما لم يكن هذا العالم وحده لا شيء في نظرها، بل العالم الذي انقضى، والعالم المقبل كذلك. آه.. لو استطاعت أن تكون كذلك حسب، إذاً لبلغ الأمرُ حدَّ الكمال.

---

* نطق «بركن» جملته بالفرنسية، وبالفرنسية أيضاً دار حوار «الحماقات» اللاحق. (المترجم).

ذلك أنها كانت تشعر بنقص في داخلها، على الدوام، تُسْتَثْنى من ذلك لحظات انفعالها. كانت غير متيقنة. لقد أحست بذلك الآن. أخيراً، في حب «جرالد» القوي والجارف. كانت قد أخذت تحيا حياة كاملة، نهائية، بيد أنها حين قارنت نفسها بـ «أرسيولا» سارعت روحها إلى الحسد وعدم الرضا. لم تكن راضية.... لن تكون راضية أبداً.

ما الذي كان يعوزها الآن؟... الزواج.... استقرار الزواج المدهش كانت تصبو إليه على نحو مؤكد، ولتقل هي ما تريد. كانت تكذب ولا تزال. إن فكرة الزواج القديمة، فكرة الزواج والبيت، كانت صائبة حتى في ذلك الوقت.... ومع ذلك كان فمها يكشر تكشيرة صغيرة عند التفوه بهذه الكلمات، فكرت في «جرالد» و(شورتلاندز)... الزواج والبيت! آه، حسن، ليبق الحال كما هو! لقد كان يعني الكثير في نظرها... لكن...! ربما لم يكن من طبعها الزواج. كانت إحدى منبوذات الحياة، إحدى النفوس المنجرفة التي لا جذور لها. لا، لا.... لا يمكن أن تكون كذلك. وفجأة استحضرت في ذهنها صورة غرفة وردية اللون، وهي نفسها في ثوب جميل. وثمة رجل وسيم في ثياب السهرة يطوقها بذراعيه في ضوء النهار، ويقبلها، أطلقت على هذه الصورة اسم (البيت) كانت تليق (بالأكاديمية الملكية).

قالت «أرسيولا» وهم يقتربون من البيت الصغير في (ويلي غرين): (تعالي معنا لتناول الشاي... أرجوك). فقالت «غدرون»: (شكراً جزيلاً... لكن لابد لي من الذهاب إلى البيت...). كانت تتوق إلى الذهاب مع «أرسيولا» و «بركن» فذلك كان يبدو لها كالحياة فعلاً. لكنّ عناداً معيناً منعها.

توسلت «أرسيولا»: (تعالي، رجاءً... نعم.... سيكون ذلك لطيفاً جداً).

- (أنا آسفة غاية الأسف.... كان بودي.... لكنني لا أتمكن... في الحقيقة...). نزلت من السيارة في عجالة مرتجفة.

جاء صوت «أرسيولا» المتأسف: (ألا تستطيعين حقاً؟!).

ردّت كلمات «غدرون» المكروبة، المثيرة للشجن، من وراء الغسق: (كلا، لا أستطيع فعلاً). هتف «بركن»: (هل أنت على ما يرام؟!). قالت «غدرون»: (تماماً! ليلة سعيدة!). هتفا: (ليلة سعيدة). صاح «بركن»: (تعالي متى شئتِ. سنسعد

بذلك). هتفت «غدرون» بصوت الكآبة الموحشة، الغريب، الذي ينبض بالألم والذي كان يحيره كثيراً: (شكراً جزيلاً). ثم استدارت مبتعدة باتجاه بوابة بيتها الصغير. أما هما فواصلا رحلتهما بالسيارة. لكنها توقفت فجأة لتراقبهما فيما كانت السيارة تبتعد إلى حيث الغموض وعدم الجلاء. وفيما كانت تقطع الممر قاصدة بيتها الغريب، كان قلبها قد امتلأ مرارةً تعصى على الفهم.

كانت في الردهة ساعة ذات صندوق طويل، قد أدخل في قرصها المدرج وجه مدور، أحمر، مائل العينين، بهيج الصبغ، يهتز بأسخف غمزة جانبية حين تتك الساعة، ثم يعود فيكرر غمزة الغزل السخيفة نفسها عند التكة التالية. كان الوجه السخيف، الصقيل، البني المحمر، يرمقها بـ «عين الغزل» الفضولية تلك طيلة الوقت. لبثت واقفة طيلة دقائق تراقبه، حتى استبد بها نوع من الاشمئزاز المجنون، فضحكت من نفسها ضحكاً خاوياً. ومع ذلك كان لا ينفك يهتز ويغمز لها تارة من ناحية، ثم من ناحية أخرى، من ناحية، ثم من ناحية أخرى، آه.... ما أتعسها! ما أتعسها في غمرة سعادتها المفعمة بغاية النشاط! ألقت نظرة على المائدة... مربى الكشمش، والكعك نفسه، المعمول في البيت بالكثير، الكثير من الصودا!... ومع ذلك فمربى الكشمش جيد، وكان من النادر الحصول عليه.

كانت تحن، طيلة المساء، إلى الذهاب إلى (الطاحونة). لكنها حَرَّمتْ ذلك على نفسها، ببرود، وذهبت إلى هناك عصر اليوم التالي، عوضاً عن ذلك. فرحت بوجود «أرسيولا» وحدها. كان الجو حميمياً لطيفاً، منعزلاً. تحدثتا فرحتين أحاديث ليس لها نهاية، قالت «غدرون» لشقيقتها، وهي تنظر في المرآة إلى عينيها هي البراقتين: (ألست سعيدة هنا على نحو مخيف؟). كانت دائمة الحسد، حد الامتعاض تقريباً، لسمة الكمال الغريب، الإيجابي التي كان يتسم بها الجو المحيط بـ «أرسيولا» و«بركن».

قالت بصوت عال: (ما أ جمل ترتيب هذه الغرفة فعلاً. هذه الحصيرة المضفورة بقوة، ما ألطف لونها... لون النور البارد!)..

بدا لها الوضع رائعاً.

قالت بعد لأي، بصوت فيه سؤال وانعزال: (يا «أرسيولا»، هل علمت أن «جرالد كريتش» قد عرض أن نسافر جميعنا إلى الخارج في عيد الميلاد؟).

ـ (أجل، لقد تحدث إلى «روبرت»).

تورد خدا «غدرون» باحتقان شديد. صمتت برهة، كأنها قد فوجئت وما عرفت ما يجب أن تقول. قالت أخيراً: (أولا تعتقدين أن في ذلك صفاقة تثير العجب!).

ضحكت «أرسيولا» وقالت: (إني أستلطفه من أجل ذلك). سكتت «غدرون». كان من الواضح أنَّ الفكرة نفسها استهوتها كثيراً، على الرغم من شعورها بالخزي تقريباً من تجرؤ «جرالد» على التقدم بمثل هذا المقترح إلى «بركن».

قالت «أرسيولا» : (أظن أن في «جرالد» بساطة تكاد تكون محببة، متحدية على نحو ما! أوه، أعتقد بأنه محبوب جداً). لم تجب «غدرون» بضع لحظات. كانت لاتزال تحاول التغلب على الشعور بالإهانة جراء التطاول على حريتها. تساءلت: (ما الذي قاله «روبرت».... هل تعلمين؟). قالت «أرسيولا» : (قال إن ذلك سيكون مبهجاً جداً). عادت «غدرون» فأطرقت، وصمتت. قالت «أرسيولا» بتردد: (ألا تظنين ذلك؟). لم تكن متيقنة كل التيقن، قط، كم من الدفاعات قد نصبت «غدرون» حول شخصها.

أعلت «غدرون» وجهها بمشقة، وأبقته مشيحاً. أجابت: (أظن أن ذلك قد يكون مبهجاً جداً، كما تقولين، لكن، ألا تعتقدين أنها جرأة لا تغتفر... التحدث عن مثل هذه الأشياء إلى «روبرت» الذي... على أية حال.... تعرفين ما أعني يا «أرسيولا» ... ربما كانا مثل رجلين يرتبان سفرة مع واحدة من ذلك الطراز* التافه كانا قد التقطاها من الشارع. أوه، إن ذلك لا يغتفر أبداً!).

ومضت عيناها، واحتقن وجهها وتجهم. تطلعت «أرسيولا» مرتاعة نوعاً ما، مرتاعة قبل كل شيء لأنها ظنت أن «غدرون» كانت تبدو عادية إلى حد ما، مثل الطراز التافه، فعلاً، لكنها لم تكن تملك الشجاعة لتظن هذا الظن تماماً... ليس على الفور.

صاحت متلعثمة: (أوه... كلا... أوه. كلا... لا شيء من هذا القبيل البتة... أوه، كلا... لا... أظنها أقرب إلى الجمال، تلك الصداقة بين «روبرت» و «جرالد» إنما هما بسيطان.... هذا كل مافي الأمر... إنهما يتحادثان بأي موضوع، مثل الأشقاء).

---

*استعملت الكلمة الفرنسية المقابلة لـ «طراز» . (المترجم)

احتقن وجه «غدرون» أكثر. لم تستطع أن تتحمل أن يفضحها «جرالد» حتى إلى «بركن».

سألت، بغضب شديد: (لكنْ هل تعتقدين بأنه حتى الأخوة لهم أي حق في تبادل أسرار من هذا النوع؟).

قالت «أرسيولا»: (أي نعم، مامن شيء يقال أبداً مما لا يندرج ضمن الصراحة التامة. لا، الشيء الذي أدهشني جداً في «جرالد»... كم هو قادر على أن يكون بهذه البساطة والصراحة التامتين!... وكما تعلمين فذلك يتطلب رجلاً عظيماً إلى حد ما، فأكثرهم لابد أن يكونوا مواربين، إنهم جبناء جداً).

بيد أن «غدرون» ظلت صامتة من غضب. كانت تريد الحفاظ على السرية التامة بصدد تحركاتها.

قالت «أرسيولا»: (ألا تريدين الذهاب؟... أرجوك، قد نسعد كثيراً، جميعنا! ثمة شيء أحبه في «جرالد» ... إنه محبوب أكثر بكثير مما كنت أظن، إنه طليق يا «غدرون»، إنه كذلك فعلاً).

ظل فم «غدرون» مغلقاً، غاضباً وقبيحاً. أخيراً فتحته، وسألت: (هل تعرفين أين يقترح أن نذهب؟).

- (نعم... إلى (التيرول)*.... حيث اعتاد الذهاب حين كان في ألمانيا... مكان لطيف يقصده الطلاب، صغير ووعر ولطيف، لرياضة الشتاء!). جالت في عقل «غدرون» الخاطرة الغاضبة: (إنهم يعرفون كل شيء). قالت بصوت عال: (نعم، على مسافة أربعين كيلو متراً تقريباً من (إنزبروك)**، أليس كذلك؟).

- (لا أعرف الموقع تماماً.... لكنه سيكون لطيفاً، في الأعالي حيث الثلج الرائع.......ألا تظنين ذلك؟). فقالت «غدرون» في تهكم: (لطيفاً جداً!). انزعجت «أرسيولا». قالت: (طبيعي. أظن أن «جرالد» تحدث إلى «روبرت» حتى لا تبدو السفرة كنزهة مع واحدة من ذلك الطراز....). قالت «غدرون» : (أنا أعرف، بلا شك، إنه غالباً ما يعاشر هذا النوع). قالت «أرسيولا» : (صحيح! لكن كيف تعرفين؟).

* منطقة جبلية تقع في الجزء الغربي من النمسا . (المترجم) .

** أكبر مدينة في غرب النمسا . (المترجم) .

قـالت «غـدرون» ببـرود: (سـمـعت من مـوديـل في «تشلسي»). وهنا، صـمـتت «أرسيولا». قالت أخيراً بضحكة شكوك: (حسن. أتمنى أن يقضي وقتاً ممتعاً معها). عندها بدت «غدرون» أشد اكتئاباً.

الفصل الثامن والعشرون

«غدرون» في الـ (بومبادور)

أوشك عيد الميلاد أن يحل واستعد الأربعة للفرار، انشغل «بركن» و«أرسيولا» في حزم أمتعتهما الشخصية القليلة ليهيئاها للإرسال إلى أي بلد وأي مكان قد يختاران آخر الأمر. وكانت «غدرون» متحمسة جداً. إذ كانت تحب السفر.

ولكونها قد استعدّت و «جرالد» أولاً، فقد انطلقا عن طريق لندن وباريس إلى (إنزبروك) حيث كانا سيلتقيان «أرسيولا» و «بركن». مكثا في لندن ليلة واحدة، حيث ذهبا إلى مسرح المنوعات ثم إلى مقهى (البومبادور).

كانت «غدرون» تكره المقهى، لكنها اعتادت أن تؤوب إليه على الدوام، كما كان يفعل أكثر الفنانين من معارفها. كانت تمقت جوّه، جو الرذيلة الوضيعة، والحسد الوضيع، والفن الوضيع، ومع ذلك كانت تعود فتؤمه على الدوام حين تكون في المدينة... كأنها مجبرة على العودة إلى هذه الدوامة المركزية، التافهة، المملة، للانحلال والتفكك: لمجرد إلقاء نظرة عليها.

جلست مع «جرالد» تتناول شراباً يميل إلى الحلاوة، وتتفرس بنظرات قاتمة عابسة في مختلف الجماعات الجالسة إلى الموائد. لم تشأ أن تحيّي أحداً، لكن الشباب غالباً ما كانوا يومئون برؤوسهم تحيةً لها بما يشبه الألفة الساخرة، فكانت تتجاهلهم جميعاً. كان يطيب لها الجلوس هناك، وقد تورّد خداها، واكتأبت عيناها وعبستا، تنظر إليهم جميعاً على نحو موضوعي، كأنها تنبذهم، مثل مخلوقات في معرض وحوش يضم نفوساً فردية محتقرة. يا إلهي، ما أحقره من رهط! كان دمها ينبض مسوداً ثخيناً في عروقها من غضب ومقت. ومع هذا؟ كان لابد لها من أن تجلس وتراقب، وتراقب. جاءها واحد أو اثنان ليتحدثا إليها، ومن كل ناحية من نواحي المقهى كانت الأعين

تلتفت نحوها على نحو شبه خفي، شبه ساخر، ورجال ينظرون من فوق أكتافهم، ونسوة من تحت قبعاتهن.

كانت المجموعة القديمة هناك: «كارليون» في ركنه مع تلاميذه وصديقته، و«هاليدي» و«ليبدنكوف» و«يوسوم». كلهم كانوا هناك. راقبت «غدرون» «جرالد». راقبت عينيه وهما تستقران لحظة على «هاليدي» وعلى زمرة «هاليدي» وكل هؤلاء يترصدون. فأومَؤوا برؤوسهم تحيةً له، فرد بإيماءة. قهقهوا وتهامسوا في ما بينهم. راقبهم «جرالد» بالومضة المستقرة في عينيه. كانوا يستحثون «مينيت» على شيء ما.

نهضت أخيراً... كانت مرتدية ثوباً غريباً من حرير غامق ذي نقش إشعاعي طويل باهت، له تأثير إشعاعي غريب. كانت أنحف من ذي قبل، وعيناها ربما أوسع، وأكثر تحللاً، وما عدا ذلك، كانت كما كانت من قبل تماماً. راقبها «جرالد» بالومضة المستقرة في عينيه، ذاتها، وهي قادمة نحوه. مدت يدها النحيفة الجميلة إليه، وقالت: (كيف حالك؟).

صافحها، لكنه ظل جالساً وتركها واقفة بالقرب منه، إزاء المائدة. أومأت برأسها ببرود إلى «غدرون»، التي لم تكن تعرفها حدَّ التحادث معها، بل بما يكفي من خلال الرؤية والشهرة.

قال «جرالد»: (أنا في حال حسنة جداً... وأنت؟).

- (أوه.. لا باس، ماذا عن «ووبوت»!)*

- («روبرت» ...؟ إنه في حالة حسنة جداً، هو الآخر).

- (نعم، أنا لا أقصد ذلك. ماذا عن زواجه؟).

- (أوه.... أجل، لقد تزوج). ومضت عينا «مينيت» بشدة.

- (أوه.... لقد نجح إذاً في محاولته فعلاً. أليس كذلك؟! متى تزوج؟).

- (قبل أسبوع أو أسبوعين.).

- (صحيح! لم يكتب قط).

- (حقاً؟).

---

* تلثغ مينيت ، أحياناً ، بحرف الراء ، كما يتذكر القارئ من فصول سابقة في الرواية . (المترجم) .

ـ (كلا. ألا تعتقد بأن ذلك غير صحيح بالمرة؟).

كانت في العبارة الأخيرة نبرة تحدٍ، أفصحت «مينيت» بنبرتها عن إدراكها بأن «غدرون» مصغية إليها. أجاب «جرالد» : (أحسب أنه لم يشعر بالرغبة في ذلك). تابعت «مينيت»: (لكن لماذا لم يفعل؟).

تلقى هذا القول بالصمت. كان ثمة إلحاح قبيح ساخر في الصورة ا لصغيرة الجميلة للفتاة القصيرة الشعر، وهي واقفة بالقرب من «جرالد». تساءلت: (هل أنت باق في المدينة مدة طويلة؟).

ـ (الليلة فقط).

ـ (أوه، الليلة فقط. هل ستجيء وتتحدث إلى «جوليوس»؟..).

ـ (ليس في هذه الليلة).

ـ (أوه، حسن. سأخبره إذاً). ثم جاءت لمستُها الشيطانية: (يبدو أنك في أتم صحة)..

ـ (أجل... أنا شاعر بذلك). كان «جرالد» هادئاً ومرتاحاً جداً، وفي عينيه ومضة اغتباط ساخر.

ـ (هل تقضي أوقاتاً سعيدة).

كانت هذه ضربة مباشرة إلى «غدرون»... جملةً قيلت بصوت رتيب عديم النبرة، صوت ارتياحٍ عديم الشعور. أجاب بنبرة لا لون لها: (نعم).

ـ (أنا آسفة جداً لعدم مجيئك. أنت لست مخلصاً جداً لأصدقائك).. قال: (ليس كثيراً).

أومأت برأسها إليها ملقية تحية المساء، وأقفلت راجعة ببطء إلى زمرتها.

راقبت «غدرون» مشيتها الغريبة، متقبضة، متأرجحة عند الحقوين. سمعا صوتها الرتيب، عديم النبرة، بوضوح:

ـ (لن يأتي... ثم إنه مخطوب).

كثر الضحك، والسخرية والأصوات الخفيضة على المائدة. قالت «غدرون» وهي تنظر إلى «جرالد» بهدوء: (هل هي صديقتك؟). قال، ملاقياً عينيها المتأنيتين، الهادئتين: (كنت قد مكثت عند «هاليدي» مع «بركن»). كانت تعرف أن «مينيت» كانت إحدى خليلاته.... وكان هو يعرف أنها تعرف.

نظرت إلى ما حولها ونادت على النادل. طلبت كوكتيلاً مثلجاً يحوي جميع الأشياء. سر هذا «جرالد» ... ترى ماذا كان في الجعبة؟...

سكرت زمرة «هاليدي» وغدت خبيثة. أصبحوا يتحدثون عالياً عن «بركن» مُسَخِّفينه من كل ناحية، لاسيما في ما يتعلق بزواجه. زعق «هاليدي»: (أوه، لا تحملني على التفكير في «بركن» إنه يسقمني تماماً... إنه سيِّئ مثل يسوع. «يا إلهي، ما الذي يجب أن أفعله من أجل الخلاص!»). قهقه مع نفسه مخموراً.

جاء صوت الروسي السريع: (هل تذكر الخطابات التي اعتاد أن يرسلها؟.. «الرغبة مقدسة...»).

فهتف «هاليدي»: (أي نعم! أوه، كم هو رائع كل الروعة. ما بالي؟.. عندي واحد في جيبي. أنا متأكد من ذلك). أخرج أوراقاً مختلفة من دفتر جيبه.

ـ (أنا متأكد بأن لدي ـ هيك*! عجيب! ـ واحداً). كان «جرالد» و «غدرون» يرقبان الوضع باستغراق.

ـ (أي نعم، ما أروع ذلك ـ هيك! ـ ما أكمله! لا تحمليني على الضحك يا «مينيت» فذلك يجعلني أصاب بالفواق... هيك! ـ). فقهقه الجميع. سألته «مينيت» وهي تميل إلى أمام وشعرها القصير الأشقر يتهدل ويتمايل على وجهها:

ـ (ماذا قال في الخطاب؟). كان ثمة شيء بذيء على نحو غريب في رأسها الأشقر المائل إلى الطول، لاسيما حين تظهر الأذنان.

ـ (انتظري... أوه، أرجوك أن تنتظري... كلا... لا، لن أعطيه لك. سأقرأه عالياً، سأقرأ لك مقتطفات مختارة منه... هيك!... عجيب!... هل تعتقدين أن شربي الماء سيزيل هذا الفواق؟ هيك! أوه أشعر بالعجز التام).

تساءل «مكسيم» بصوته الرقيق السريع: (أليس ذلك الخطاب عن توحّد الظلام والنور، وعن دفق الفساد؟). قالت «مينيت»: (أظن ذلك).

قال «هاليداي»، وهو يفتح الخطاب: (أوه، صحيح؟ لقد نسيت ـ هيك! إنه ذاك هيك! ... أي نعم. ما أكمل روعته! إنه أحد أفضل الخطابات). ثم قرأ بالنغمة الرتيبة

---

* هيك . . . هنا ، صوت الفواق . (المترجم) .

البطيئة الواضحة التي يتسم بها صوت كاهنٍ وهو يتلو شيئاً من الكتاب المقدس: («في كل عرق من الأعراق توجد مرحلة تسود فيها الرغبة في التدمير على كل رغبة أخرى. وبالنسبة إلى الفرد تكون هذه الرغبة في النهاية رغبة للتدمير في الذات» - هيك!). توقف ورفع بصره.

جاء صوت الروسي السريع: (آمل أنه مثابر على تدمير نفسه). قهقه «هاليداي»، وأرخى رأسه إلى الوراء على نحو غامض. قالت «مينيت»: (ليس هناك الكثير فيه ليُدَمَّر، إنه جد نحيف الآن، ولم تعد غير بقية منه يُبدأ بها).

زعق «هاليداي»: (أوه، ما أجمله! أحب قراءته! أظن أن فوافي قد ذهب! دعوني استمر رجاءً: «إنها الرغبة في عملية الإحالة في الذات. إحالة تعيد إلى الأصل... عودة في دفق الفساد إلى الظروف الأصلية الابتدائية للكينونة....!»... أوه، لكنني أعتقد كل الاعتقاد بأنه مدهش.... إنه يكاد يتفوق على الكتاب المقدس...). قال الروسي: (أجل، «دفق الفساد».... أتذكر تلك العبارة). قالت «مينيت»: (أوه، كان دائمَ التحدث عن «الفساد» لابد أن يكون فاسداً نفسه لينشغل باله إلى هذا الحد). قال الروسي: (تماماً!).

- (دعوني أستمر؛ أوه، هذه قطعة مدهشة تماماً!... لكن أرجوكم أن تنصتوا إلى هذا... «وفي مرحلة التراجع الكبير، الإحالة التراجعية لجسم الحياة المخلوق، نظفر بالمعرفة، وبعد المعرفة، النشوة المشرقة للإحساس المرهف» أوه. أعتقد فعلاً بأن هذه العبارة مدهشة حد السخافة المفرطة. أوه، ولكن ألا تعتقدون إنها كذلك؟... إنها في مثل جودة يسوع.... «إذا ما أردتَ، أنت يا «جوليوس».. نشوة الإحالة هذه مع «مينيت»، فلا بد أن تمضي قدماً حتى تحقيقها. لكن من المؤكد أن فيك، كذلك، وفي موضع ما، الرغبة الحية من أجل الخلق الإيجابي، علاقات في الوثوق النهائي، حين تكون عملية الفساد الفعال كلها، بكل أزهارها الطينية، قد تسامت، وانتهت على نحو ما...» ليت شعري ماهي أزهار الطين هذه؟ «مينيت» أنتِ زهرة من طين).

- (أشكرك... وماأنت؟).

- (أوه، أنا من المؤكد زهرة أخرى، بموجب هذا الخطاب! كلنا أزهار من طين...

أزهار ـ هيك! ـ الشر*. إنه مدهش تماماً... «بركن» وهو يسحو تربة الجحيم**... يسحو «البومبادور» ـ هيك!)..

قال «مكسيم»: (استمر... ما الذي يلي ذلك؟ في الحقيقة إنه ممتع جداً). قالت «مينيت»: (أعتقد أن الكتابة على هذا النحو وقاحة قبيحة). قال الروسي: (أجل... أجل... وكذلك أنا... إنه مصاب بجنون العظمة، ذلك طبيعي. إنه نوع من الهوس الديني. يحسب نفسه (مخلّص) البشرية... واصل القراءة).

رنّم «هاليداي»: (بلا شك... «من المؤكد أن الطيبة والرحمة قد تعقبتاني طيلة أيام العمر...»). توقّف وقهقه. ثم بدأ ثانية، مترنماً كما يترنم كاهن: («من المؤكد أن تنتهي هذه الرغبة فينا للتنائي الدائم... عاطفة التشتيت هذه... تشتيت كل شيء، أنفسنا، محيلين أنفسنا أجزاء متناثرة... متعاملين في حميمية للتدمير فقط... مسخّرين الجنس كعامل إحالة مهم، إحالة عنصري الذكر والأنثى العظيمين من وحدتهما المعقدة جداً... إحالة الأفكار القديمة، العودة إلى الهمج طلباً لمشاعرنا... ساعين دوماً إلى خسران أنفسنا في إحساس أسود ختامي، لا عقلاني ولا نهائي... محترقين بنار مدمرة دون غيرها، مصطفّين بأمل أن نحترق تماماً...»).

قالت «غدرون» لـ «جرالد» وهي تشير إلى النادل: (أريد أن أرحل). كانت عيناها تومضان، وخداها محتقنين. كان التأثير الغريب لخطاب «بركن» المقروء عالياً في ترنيم كَنَسِيّ كامل، صافٍ ورنان، عبارةً، عبارة، أن جعل الدم يصعد إلى رأسها كما لو كانت مجنونة.

نهضت، بينما كان «جرالد» يدفع القائمة، وسارت إلى حيث مائدة «هاليدي». رفع الجميع أبصارهم إليها. قالت: (عفواً. هل هذا الذي تقرأ خطاب أصلي؟). قال «هاليدي»: (أي نعم، صحيح كل الصحة).

ـ (هل لي أن أراه؟). ناولها الخطاب، وهو يبتسم ببلادة، كأنما نُوِّمَ تنويماً مغناطيسياً. قالت: (أشكرك). استدارت وسارت إلى خارج المقهى، ومعها الخطاب،

---

* قال «أزهار الشر» بالفرنسية، وهو عنوان مجموعة شعرية للشاعر الفرنسي «بودلير». (المترجم).

** «يسحو تربة الجحيم» إشارة ساخرة إلى القصيدة الدينية القر ـ وسطية: «المسيح يسحو الجحيم» التي تصف كيف ألحق المسيح الهزيمة بإبليس. (المترجم).

مجتازة الصالة المتألقة، من بين الموائد، على طريقتها الموزونة. مرت بضع لحظات قبل أن يدرك أحد ما جرى.

انبعثت من مائدة «هاليدي» صرخات نصف بيِّنة، ثم أطلق أحدهم صوت استهجان، ثم شرع جميع من كان في الطرف القصي من المكان يفعلون الشيء عينه في أعقاب قامة «غدرون» المتراجعة. كانت مرتدية زيّاً أنيقاً ذا لون أخضر مسود، وفضي. أما قبعتها فكان لونها أخضر لماعاً، لمعانَ حشرة، لكنّ الحافة كانت ذات لون أخضر غامق رقيق، والحاشية متهدلة فضية رقيقة. أما سترتها فخضراء، غامقة، لمّاعة لها ياقة عالية من الفرو الرمادي وحواش وأكمام ضخمة من الفرو. ومن حواشي ثوبها بان مخملٌ فضي اللون وأسود. أما جورباها وحذاءاها فلونها رمادي فضي. كانت متوجهة إلى الباب بلا مبالاة، بطيئة، أنيقة. فتح البواب لها الباب متذللاً، وبإيماءة منها هرع إلى حافة الرصيف وصفر لإيقاف سيارة أجرة. وفي الحال تقريباً، انعطف ضوءا مركبة باتجاهها، كأنهما عينان.

كان «جرالد» قد تعقبها مندهشاً، وسط صيحات الاستنكار، دون أن يكون قد وقف على فعلتها. سمع صوت «مينيت» وهي تقول: ـ (إمضِ واسترجعه منها... لم أسمع شيئاً من هذا القبيل من قبل قط.. امضِ واسترجعه منها. أخبر «جرالد كريتش» ... ها هو ذا... اذهب واحمله على التخلي عنه).

لبثت «غدرون» واقفة عند باب سيارة الأجرة الذي كان سائقها ممسكاً به مفتوحاً.

سألت «جرالد» فيما كان خارجاً على عجل: (إلى الفندق؟). أجاب: (حيثما تحبين). قالت: (حسن!) ثم وجهت كلامها إلى السائق: (واغستاف... شارع بارتن). أحنى السائق رأسه وأنزل الإشارة*.

دخلت «غدرون» في سيارة الأجرة بالحركة المتأنية الرزينة لامرأة أنيقة الملبس، ساخرة الروح. ومع ذلك كانت قد جمّدتها أحاسيس مكدودة. تبعها «جرالد».

قالت بفتور، وبإيماءة خفيفة من قبعتها: (لقد نسيتَ الرجل). نفح «جرالد» الرجل بشلن فحياه هذا، وانطلقا. تساءل «جرالد» في انفعال متعجب: (ما سبب الصخب؟).

---

* إعلاماً للناس بأن السيارة مشغولة بركّاب. (المترجم).

قالت: (أخذت خطاب «بركن» وخرجت). رأى الورقة المغضنة بيدها. التمعت عيناه بالرضا. قال: (آه! رائع! رهط من الحمير!).

صاحت بانفعال: (كان يمكنني أن أقتلهم! كلاب!... إنهم كلاب! لماذا يكون «روبرت» من الحماقة بحيث يكتب مثل هذه الخطابات إليهم؟ لِمَ يكشف عن دخيلة نفسه لمثل هؤلاء الرعاع؟.. إنه شيء لا يمكن تحمله). تعجب «جرالد» من انفعالها العاطفي الغريب.

لم تعد تتمكن من المكوث في لندن مدة أطول. لابد من ذهابهما بقطار الصباح من محطة (تشيرنغ كروس). وفيما كانا في طريقهما، بالقطار، على الجسر، يستطلعان النهر من بين العوارض الحديد الضخمة صاحت:

- (أشعر بأنني لن أتمكن من رؤية هذه المدينة القذرة ثانية أبداً... لن أستطيع تحمل العودة إليها).

الفصل التاسع والعشرون

في القارة*

استمرت «أرسيولا» في حالة ترقب زائف خلال الأسابيع الأخيرة السابقة للسفر. لم تكن على سجيتها... لم تكن أي شيء... كانت شيئاً ما سيكون... قريباً... قريباً جداً. لكنها في الوقت الحاضر، كانت وشيكة أن تكون، لا غير.

ذهبت لرؤية والديها. كان لقاءً شاقاً، حزيناً تقريباً، أقرب إلى حالة التحقق من الافتراق منه إلى لمّ الشمل. بيد أن الجميع كانوا غير صريحين، غير محدَّدين. بعضهم مع بعض، وقد تصلبوا من جراء القدر الذي فرّقهم.

لم تفق حقاً إلا حين أصبحت على متن الباخرة التي كانت ستعبر من (دوفر) إلى (أوستند)**. وبغموض مضجر، كانت قد نزلت إلى لندن مع «بركن». كانت لندن إبهاماً، وكذلك كانت الرحلة بالقطار إلى (دوفر) لقد مرّ كلّ ذلك كالرقاد.

والآن، أخيراً، وفيما كانت واقفة في مؤخرة السفينة، في ليلة حالكة السواد، عاصفة نوعاً ما، تتحسس حركة البحر، وتراقب الأضواء الصغيرة الضئيلة والكئيبة نوعاً ما، التي كانت تتلألأ على سواحل إنكلترة، وكأنها سواحل لا مكان، تراقبها وهي تغوص متضائلة أكثر فأكثر في داخل العتمة العميقة، الحية، شعرت بروحها تتململ لتصحو من رقادها المتخدر.

قال «بركن» : (هلا ذهبنا إلى الأمام؟). أراد أن يكون عند الطرف المستدق من منطلقها. وهكذا غادرا موضعهما، وهما ينظران إلى الومضات الخابية التي كانت

---

* في الثقافة البريطانية عموماً تستعمل كلمة «القارة» مفردةً للإشارة إلى قارة أوربا حصراً . (المترجم) .

** ميناءان على القنال الإنكليزي ، الأول في إنكلترة والثاني في بلجيكا . (المترجم) .

تتلألأ من ا للا مكان، على البعد البعيد المسمى إنكلترة، ثم أدارا وجهيهما صوب الليل الذي لا قرار له، من أمامهما.

ذهبا إلى مقدمة السفينة التي تتغاطس على نحو هين. وفي الظلام الشامل، وجد «بركن» ركناً منعزلاً، مستوراً بعض الشيء، حيث التف حبل ضخم... كان قريباً جداً من مقدمة السفينة نفسها قرب الفضاء المعتم، غير المخترَق، في الأمام. هنا جلسا، الواحد منطوٍ على الآخر، منطويَيْن لفّاً ببطانية واحدة، زاحفَيْن الواحد نحو الآخر أقرب فأقرب على نحو متواصل، حتى ظهرا وكأنهما قد زحف أحدهما داخل الآخر مباشرة، وأصبحا مادة واحدة، كان الجو بارداً جداً، والظلام محسوساً، ملموساً.

أقبل أحد الملاحين على سطح السفينة، داكناً كالدُكْنَة، لا تمكن رؤيته في الواقع، ثم استبانا أبهت ملامح وجهه. شعر بوجودهما فتوقف متردداً، ثم انحنى إلى الأمام، وحين اقترب وجهه منهما، وقع نظره على شحوب وجهيهما الخفيف، ثم انسحب كالطيف، وراقباه دون أن يحدثا أي صوت.

كانا يبدوان وكأنهما نائيان في غياهب الظلام، فلا كانت هناك سماء ولا أرض، بل ظلام واحد موصول حسب كانا ينأيان فيه على ما يبدو، بحركة رخيّة، منوّمة، مثل بذرة حياة مغلقة تنأى في فضاء معتم، لا قرار له.

لقد نسيا أين كانا، نسيا كل الذي كان وكل ما قبله، ولم يكونا واعيين إلا في الفؤاد حسب، حيث اقتصر وعيهما على هذا المسار الخالص خلال الظلمة الفائقة. مضت مقدمة السفينة تشق العباب شقاً دون صخب، مخترقة الليل الكامل دون أن تعرف، دون أن ترى، ولا شيء غير الجيشان قُدُماً.

انتصر في «أرسيولا» الشعور بالعالم المقبل غير المتحقق على كل شيء، ففي وسط هذه العتمة العميقة بدأ يتألق في قلبها سطوعُ فردوس مجهول غير متحقق، امتلأ قلبها بأروع نور، ذهبي كعسل الظلام، حلو كدفء النهار، نور لم يشع على الدنيا، بل على الفردوس المجهول الذي كانت متجهة صوبه حسب، حلاوة استيطان، بهجة عيش مجهولة تماماً، تخصها هي على نحو معصوم. وفي غمرة نشوتها أعلت وجهها فجأة صوبه، فمسّه بشفتيها. ما أبرد وأنضر وجهها الصافي صفاء البحر. كان لَثْمُهُ كتقبيل زهرة تنمو قرب أمواج الشاطئ المتكسرة.

بيد أنه لم يكن يعرف نشوة النعيم بتلك الطريقة التنبؤية التي عرفتها هي، فبالنسبة إليه كانت أعجوبة هذه النشوة غامرة، كان يهبط خلال دوامة من العتمة اللا متناهية، مثل شهاب مندفع في اجتياز الهوة التي تفصل مابين العالمين. لقد انشقت الدنيا نصفين، وكان هو يمرق مثل نجم غير مضاء خلال الشق الذي يفوق الوصف. مايلي ذلك لم يكن يخصه بعد، لقد قهره هذا المسار.

استلقى في نشوةٍ مطوّقاً «أرسيولا» تطويقاً مطبقاً، وكان وجهه لصق شعرها الناعم، الرقيق، فتنشّق ضوعه مع البحر والليل العميق. سكنت روحه واستكانت فيما كان هو يهبط في المجهول. كانت تلك أول مرة تدخل فؤاده سكينةٌ مطلقة، تامة، في هذه النقلة النهائية إلى خارج الحياة.

أفاقا حين حدثت حركة فوق سطح الباخرة، نهضا.. ما أشدّ تيبّسهما وتشنّجهما في ساعات الليل! ومع ذلك كان الألق الفردوسي في فؤادها، وسكينة الظلمة التي لا توصف في قلبه، هما الكلّ في الكل.

قاما ونظرا إلى الأمام، شاهدا أضواء خافتة عبر الظلام. ذلك كان العالم مرة ثانية، لم يكن ذاك نعيم قلبها ولا سكينة قلبه، بل عالم الواقع السطحي غير الحقيقي. لكنه ماكان العالم القديم تماماً. ذلك أن السكينة والنعيم كانا مقيمين باقيين في قلبيهما.

كان النزول إلى اليابسة في الليل أغرب وأوحش من أي شيء آخر، مثل النزول من (اسطقس)* إلى العالم السفلي الموحش. كان هناك الفضاء الرطب والبارد للموقع المعتم نصف المضاء، المحجوب، الذي كان خاوياً، مكسواً بالألواح الخشبية في أرضيته، لا تسوده سوى الوحشة في كل مكان. كانت «أرسيولا» قد لمحت حروف كلمة (اوستند) الضخمة، الباهتة، الغامضة، منتصبة في العتمة. كان الجميع يسرعون بتصميم أعمى كالحشرات، عبر الهواء المعتم، الكئيب، وكان الحمالون ينادون بإنكليزية غير إنكليزية، ثم يهرعون حاملين حقائب ثقيلة، وقد بدت قمصانهم شبحية المظهر فيما كانوا يختفون عن الأنظار. لبثت «أرسيولا» واقفة عند حاجز طويل، واطئ، مغطى بالزنك، مع مئات

---

* «اسطقس» نهر الجحيم الرئيس ، عند الإغريق ، كان على الموتى عبوره . (المترجم) .

من الناس الآخرين كالأطياف. وعلى امتداد العتمة الرطبة الباردة الشاسعة كان ثمة هذا الصف الخفيض من الحقائب المفتوحة، وأناس كالأطياف، في حين كان في الجهة الأخرى من الحاجز موظفون شاحبو الوجوه، يعتمرون قلنسوات مستدقة الرؤوس ولهم شوارب مستدقة الأطراف، يقلبون الملابس الداخلية في الحقائب ثم يعلّمون هذه بالطباشير على عجل.

انتهى كل شيء. أغلق «بركن» الحقائب اليدوية بطَقة مفاجئة، وانطلقا، يتبعهما الحمال. اجتازا مدخلاً واسعاً، وأمسيا في عراء الليل ثانية... آه، رصيف محطة قطار! كانت هنالك أصوات ما فتئت تنادي في مضطرب غير بشري خلال الهواء الرمادي المعتم، وأطياف تهرول في الظلمة، بين القطارات.

لمحت «أرسيولا» عبارة (كولون ـ برلين) على الألواح المعلقة على أحد جانبي القطار العالي.

قال «بركن» (ها نحن أولاء قد وصلنا). وعلى جهتها قرأت: (الزاس ـ لوترنغن ـ لوكسمبورغ ـ ميتس ـ بازل). تقدم الحمال نحوهما (هي ذي... بازل!).

ـ (إلى بازل... الدرجة الثانية؟ هي ذي!)*. صعد إلى القطار العالي بمشقة. تبعاه. بعض المقصورات سبق أن شُغلَتْ. لكن الكثير منها كانت معتمة وفارغة. صُفَّت الأمتعة على الرف، وتسلم الحمال مكافأة.

قال «بركن» : (لا يزال لدينا..؟). ونظر إلى ساعته وإلى الحمال:

ـ (لا يزال هناك نصف ساعة). وعندها اختفى الحمال ذو القميص الأزرق. كان قبيحاً ووقحاً.

قال «بركن» : (هيا... الجو باردٌ. لنأكل).

كانت هناك عربة قهوة على الرصيف. شربا قهوة حارة غير مركزة وأكلا لفات الخبز الطويلة التي شُطِرَتْ وحُشِرَ فيها لحم من فخذ الخنزير. كانت اللقمات ضخمة إلى درجة أنها كادت أن تحدث خلعاً في فك «أرسيولا». بعدها تمشيا حذو القطارات العالية.

---

* تبادل «بركن» والحمال الكلام بالفرنسية. (المترجم).

كان كل شيء جدًّ غريب، غاية في الكآبة، مثل العالم السفلي، معتماً، معتماً عتمة التراب، كئيباً، موحشاً، ليس بمكان... معتماً، موحشاً... ليس بمكان.

أخيراً مضى القطار بهما خلال الليل.. وفي الظلمة تبينت «أرسيولا» الحقول المنبسطة، وظلمة (القارة) الرطبة، المسطحة الكئيبة. توقف بعد فترة قصيرة جداً حدًّ الغرابة... هي ذي مدينة (برووج)!.. ومن بعدها عبر الظلمة المنبسطة، لمحات من حقول غافية وأشجار حور رفيعة، وطرق خارجية مهجورة. لبثت جالسة في اكتئاب ويدها ممسكة بيد «بركن». أما هو، الشاحب، الجامد، كشبح عائد، فكان ينظر من النافذة إلى الخارج بين الحين والحين، ويغلق عينيه أحياناً، ثم يفتح عينيه ثانية، معتمتين، كالعتمة التي في الخارج.

ومضة من بضعة أضواء قليلة عبر الظلام... محطة (غانت)!

بضعة أطياف أخرى تتحرك في الخارج على الرصيف.. ثم الجرس... ثم الحركة ثانية عبر منبسط الظلام. شاهدت «أرسيولا» رجلاً يخرج من حقل قرب خط السكة حاملاً فانوساً، ويعبر إلى حيث أبنية الحقل المظلمة. تذكرت (المستنقع)، وعيشة الحقل القديمة، الحميمية، (كوستهي). يا إلهي. ما أبعد المسافة التي انقذفَتْ عبرها منذ طفولتها. وكم هي المسافة التي يتعين عليها أن تقطعها بعد! إن المرء ليقطع دهوراً في عمره. كانت هوة الذاكرة بينها وبين طفولتها في بيئة الريف الحميمة في (كوستهي) و(أجمة المستنقع) واسعة جداً... وقد تذكرت الخادم «تلي» الذي اعتاد أن يناولها الخبز والزبدة التي ذُرَّ عليها سكّر أسمر في غرفة الجلوس القديمة حيث ساعة الحائط القائمة على الأرض والمرسومة على أرقامها سلة فيها قرنفلتان، على الوجه. أما الآن، وهي مسافرة نحو المجهول مع «بركن»، الغريب تماماً، فقد كانت الهوة جد هائلة بحيث بدا لها أنها قد فقدت هويتها، وأن الطفلة التي كانتها، التي كانت تلعب في فناء كنيسة (كوستهي)، أمست مخلوقة ضئيلة من مخلوقات التأريخ، وليست نفسها الحقيقية.

بلغا مدينة (بروكسل)... نصف ساعة لتناول الفطور. نزلا. كانت ساعة المحطة الكبيرة تشير إلى السادسة. تناولا قهوة وخبزاً وعسلاً في غرفة المرطبات والحلويات الواسعة، الكئيبة جداً، الكئيبة جداً على الدوام، والقذرة، والواسعة جداً... فضاء ما

أوحشه. لكنها غسلت وجهها ويديها بالماء الحار، ومشطت شعرها... وتلك كانت نعمة.

بعد قليل عادا إلى القطار الذي سرعان ما انطلق. شرع الفجر الرمادي ينبلج، كان في المقصورة أناس كثيرون، ورجال أعمال بلجيكيون ضخام. متوردو الوجوه، ذوو لحى طويلة بنية اللون، يتحدثون دون انقطاع بفرنسية قبيحة لم تتعقبها من فرط تعبها.

بدا القطار منطلقاً، بدرجاتٍ من الظلمة إلى الغبش، ثم إلى النهار، طرقة بعد طرقة. آه، كم كان ذلك متعباً! بانت الأشجار باهتة كالأطياف، ثم بان بيت أبيض توضَّحَ على نحو غريب، كيف كان ذلك؟.. بعدها رأت قرية... كانت هناك دور تمر على الدوام.

ذلك كان عالماً قديماً ما انفكت تجول عبره، كئيباً وذا ثقل شتائي. كانت ثمة أراضي حراثة، ومراع، وايكات من أشجار جرد، وغيطان من أجمات، ومساكن خيالية، هامدة. لم يحدث أنْ مرّت أرضٌ جديدة.

نظرت إلى وجه «بركن». كان شاحباً، ساكناً سرمدياً.. مفرطاً في السرمدية. شبكت أناملها بانامله مترجيةً، من تحت ستْرَ بطانيتها. استجابت أصابعه، وردت عيناه النظر إليها. ما أشد عتمة عينيه، كأنَها الليل، كأنها عالم آخر بعيد. آه، لوكان هو الدنيا أيضاً، لو أن الدنيا كانت هو!.... لو استطاع فقط أن ينادي على دنيا فتكون، لكانت تلك دنياهما تحديداً.

غادر البلجيكيون القطار. واصل القطار سيره عبر (لوكسمبورغ) و(الزاس - لورين). و(ميتس). بيد أنها كانت عمياء. لم تستطع أن ترى المزيد. لقد كفت روحها عن الترصد.

أخيراً وصلا إلى (بازل)، إلى الفندق. كانت كلها غيبوبة جارفة لم تستفق منها قط. نزلا في الصباح قبل أن يغادر القطار المحطة. شاهدت الشارع والنهر، ووقفت على الجسر، لكن ذلك كله لم يكن يعني أي شيء. تذكرت بعض الحوانيت... أحدها مليء بالصور، منها واحدة ذات مخمل برتقالي اللون وفرو القاقُم*. ولكن ما مغزى تلك؟ لا شيء.

---

* «القاقمُ» أو «القاقوم» = حيوان من فصيل بنات عرس . (المترجم)

لم تشعر بالارتياح حتى ركبا القطار ثانية، عندها ارتاحت. كانت راضية مادامـا منطلقين قدماً. وصلا إلى (زوريخ)، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى بلغا أقدام الجبال المغطاة بالكثير من الثلج. أخيراً اقتربت. كانت تلك إذاً الدنيا الثانية.

(إنزبروغ) كانت مدهشة قد غمرها الثلج والمساء. انطلقا في مزلجة مفتوحة على الثلوج. لقد كان القطار خانقاً، حاراً جداً، وبدا الفندق كالبيت بضوئه الذهبي المتألق تحت الرواق.

ضحكا جذلين حين بلغا البهو. بدا المكان ممتلئاً، يزخر بالنشاط، سأل «بركن» بالألمانية: (هل تعرف إن كان السيد «كريتش» وعقيلته، الإنكليزيان، قد وصلا من باريس؟).

فكر البواب قليلاً، وكان على وشك الإجابة، حين لمحت «أرسيولا» «غدرون»، وهي تهبط الهوينى على الدرج، مرتدية معطفها الغامق، اللماع، ذا الفرو الرمادي، نادت: («غدرون» ...! «غدرون»!..) وهي تلوّح من قاع السلم.. (شوو.. هوو!). ألقت «غدرون» نظرة من فوق حاجز السلم. وفجأة نسيت اتئادها واستحياءها، وَمَضَتْ عيناها، وصاحت: («أرسيولا!» ... حقاً؟)، ثم شرعت تنزل من الدرج فيما كانت «أرسيولا» تصعد جرياً. التقتا في منعطف وتبادلتا القبلات والصيحات المثيرة وغير البيِّنة. هتفت «غدرون» متكدرة: (لكننا ظننا أنكما آتيان غداً! كنت أريد أن أجيء إلى المحطة). صاحت «أرسيولا»: (كلا، لقد جئنا اليوم! أليس هذا المكان لطيفاً!). قالت «غدرون»: (رائع! «جرالد» خرج تواً ليأتي ببعض الأشياء.يا «أرسيولا»، ألست متعبة بدرجة فظيعة؟).

ـ (كلا، لست منهكة جداً. لكن منظري قذر، أليس كذلك؟!..).

ـ (كلا ليس كذلك، إنك تبدين نضرة كل النضارة تقريباً، أحب تلك القلنسوة المصنوعة من الفرو، كثيراً جداً). ألقت نظرة على «أرسيولا» التي كانت مرتدية معطفاً واسعاً، ناعماً، ذا ياقة من الفرو الناعم السميك، الأشقر، وقلنسوة ناعمة من الفرو الأشقر. هتفت «أرسيولا» : (وأنت! كيف وضعك أنت، في تقديرك؟). اتخذت «غدرون» مظهر اللا مبالي، الجامد التعبير عن المشاعر. قالت: (هل أنت مستمتعة بالوضع؟). هتفت «أرسيولا» بنبرة ربما فيها مسحة من الهجو: (إنه لطيف جداً). قال

«بركن» (اصعدا... أو انزلا)، ذلك أن الشقيقتين لبثتا واقفتين هناك: «غدرون» واضعة يدها على ذراع «أرسيولا» عند منعطف الدرج في منتصف الطريق إلى المنبسط الأول، معيقتين الطريق، ومتيحتين متعةً تامة لكل من كان في البهو في الأسفل، من البواب إلى اليهودي البدين ذي الملابس السود.

صعدت الشابتان ببطء، يتبعهما «بركن» والنادل. سألت «غدرون» وهي تنظر إلى الخلف من فوق كتفها: (الطابق الأول؟). أجاب النادل: (الثاني يا سيدتي... المصعد!). ثم مرق إلى المصعد ليسبق الامرأتين. لكنهما تجاهلتاه وتوجهتا فيما كانتا تثرثران دون انتباه لارتقاء المرحلة الثانية من درجات السلم. تكدّر النادل بعض الشيء، إلا أنه تبعهما. كان ابتهاج كل من الأختين بالأخرى في هذا اللقاء مثيراً للاستغراب. كان كما لو كانتا قد التقتا في منفى ووحّدتا قوتهما المنفردة في مواجهة العالم كله. نظر «بركن» إليهما بشيء من الارتياب والتعجب.

دخل «جرالد» عليهما بعد أن فرغا من الاستحمام وتبديل الثياب. بدا مشرقاً كالشمس فوق الصقيع.

خاطبت «أرسيولا» «بركن» قائلة: (امضِ مع «جرالد» ودخِّنا. نريد أنا و«غدرون» أن نتحادث).

ثم جلست الأختان في غرفة نوم «غدرون» وتحدثتا عن الملابس والتجارب. أخبرت «غدرون» «أرسيولا» عن حادثة رسالة «بركن» في المقهى. صُدمَت «أرسيولا» وارتاعت. سألتها: (أين الخطاب؟). قالت «غدرون»: (احتفظتُ به). قالت: (ستعطينيه، أليس كذلك؟). إلا أن «غدرون» سكتت بضع لحظات قبل أن تجيب:

ـ (هل تريدينه حقاً يا «أرسيولا»).. قالت «أرسيولا»: (أريد أن أقرأه). قالت «غدرون»: (هذا مؤكد).

حتى تلك اللحظة، لم تكن تستطيع أن تقر لـ «أرسيولا» بأنها كانت تريد أن تحتفظ به ذكرىً أو رمزاً، إلا أن «أرسيولا» عرفت واستاءت. وهكذا أُغلق الموضوع.

سألتها «أرسيولا»: (ما الذي فعلته في باريس؟). فقالت «غدرون» باقتضاب: (أوه، الأشياء المعتادة، حضرنا حفلة لطيفة في إحدى الليالي في مرسم «فاني باث»).

ـ (صحيح؟ وكنتما أنت و «جرالد» حاضرين!.. من كان هناك، كذلك؟ أخبريني عن ذلك).

قالت «غدرون» : (طيب، ليس هناك شيء خاص حريّ بالتحدث عنه. تعرفين أن «فاني» مغرمة على نحو فظيع بذلك الرسام «بيلي مكفارلين». كان حاضراً.. ولهذا لم تبخل «فاني» بأي شيء، فأسرفت في الإنفاق جداً. كان ذلك رائعاً حقاً! و من الطبيعي أن يسكر الجميع على نحو مروّع... إنما على نحو ممتع، على خلاف تلك الزمرة اللندنية القذرة. الحقيقة هي أن هؤلاء كانوا جميعاً أناساً مهمين، وهذا هو الفرق، كل الفرق، كان هناك (روماني)... فتى طيب، شرب هذا حتى سكر تماماً، وصعد إلى أعلى أحد سلالم المرسم العالية وألقى أعجب خطاب... كان ذلك رائعاً حقاً، يا «أرسيولا»! بدأ بالفرنسية قائلاً: (إن الحياة هي قضية نفوس إمبراطورية..)*. وذلك بصوت في غاية الجمال. كان فتى وسيماً.. إلا أنه صار يتكلم الرومانية قبل أن ينتهي، ولم يفهمه أحد. بيد أن «دونالد غلكرايست» انفعل كالمجنون، فقذف بكأسه إلى الأرض وأعلن بأنه مسرور، والله، لأنه كان قد وُلِدَ. وأنها، بالله، لمعجزة أن يكون المرء عائشاً. هل تعرفين يا «أرسيولا» لقد كان الأمر كذلك...).

وضحكت «غدرون» ضحكة جوفاء بعض الشيء.

تساءلت «أرسيولا» : (لكن كيف كان «جرالد» بين كل هؤلاء؟).

- («جرالد» ! يا إلهي لقد ظهر مثل زهرة هندباء في ضوء الشمس! فهو، ما إن يُثار حتى يغدو، بمفرده، حفلة «ساتورنية» كاملة**. لا أحب أن أقول خصر مَنْ لم يطوقه. في الحقيقة يا «أرسيولا» يبدو أنه يفوز بالنساء كالحاصد حصداً. ماكانت ثمة واحدة كانت ستقاومه. كان ذلك مدهشاً حدَّ الإفراط! هل في وسعك أن تدركي ذلك؟).

فكرت «أرسيولا» ملياً، وبان نور راقص في عينيها. قالت: (أجل. في وسعي ذلك، إنه كامل الأوصاف).

هتفت «غدرون»: (كامل الأوصاف! أحسب أنه كذلك! إلا أن ذلك صحيح يا «أرسيولا». فكل امرأة في الغرفة كانت مستعدة للاستسلام له... ديكٌ صيّاحٌ، أليس هو كذلك؟.. حتى «فاني باث» التي تحب «بيلي مكفارلين» حباً صادقاً! لم أصَبْ

* وردت هذه الجملة بالفرنسية (المترجم) .

** حفلة «ساتورنية» نسبة إلى الإله الروماني «ساتورن» وهي حفلة تقام في عيد متميز بالاسترسال في القصف والعربدة . (المترجم) .

بدهشة أعظم في حياتي! وبعد ذلك، أتعرفين، أحسست كأني أصبحتُ ملءَ غرفة كاملة من النساء. لم أعد أنا بالنسبة إليه أكثر من الملكة فكتوريا*. غدوت ملء غرفة كاملة من النساء في الوقت نفسه، كان ذلك عجيباً غاية العجب! لكن، يا عيني!، لقد اصطدتُ سلطاناً من السلاطين وقتذاك...).

أخذت عينا «غدرون» تومضان، وسخن خداها، وبدت غريبة، دخيلة، مستهجنة. فتن هذا، «أرسيولا» في الحال، ومع ذلك لم ترتح.

كان عليها أن تتهيأ للعشاء. نزلت «غدرون» مرتدية ثوباً جريئاً من حرير أخضر زاه ونسيج ذهبي، ذا صدر مخملي أخضر، وقد لفت شعرها بشريط غريب أبيض وأسود. كانت جميلة جمالاً مشرقاً فعلاً، ما جذب انتباه الجميع، أما «جرالد» فكان في تلك الحال النيرة، الزاخرة بالعنفوان، حين يكون على أوسمه. راقبهما «بركن» بعينين متعجلتين، ضاحكتين، نصف شريرتين، أما «أرسيولا» فقد فقدت رشدها تماماً. كان يبدو كأن ثمة سحراً، سحراً يكاد يعمي الأبصار، قد ألقي حول مائدتهم، كأن موقعهم قد أنير بدرجة أشد من بقية أرجاء غرفة الطعام.

هتفت «غدرون» : (ألا تحبون أن تكونوا في هذا المكان؟ أليس الثلج رائعاً! هل تلاحظون كيف أنه يرفع من شأن كل شيء؟ إنه، بكل بساطة رائع، إن المرء ليشعر فعلاً بأنه (سوبرمان)**... أكثر من بشري).

هتفت «أرسيولا»: (فعلاً. لكن أليس ذلك مرده جزئياً الاغتراب عن إنكلترة؟).

هتفت «غدرون»: (أوه، هذا طبيعي لا يستطيع المرء أن يحس هكذا في إنكلترة، لسبب بسيط هو أن مثبطات الهمة تظل لصيقة بالمرء هناك أبداً. إن من المحال تماماً أن يكون المرء على سجيته فعلاً في إنكلترة... من ذلك، أنا متأكدة).

والتفتت ثانية صوب الطعام الذي كانت تتناوله. كانت تضج بقوة زاخرة بالحيوية.

قال «جرالد» : (هذا صحيح كل الصحة. فليس الحال في إنكلترة مثلما هو هنا، تماماً، أبداً. لكنّ من المرجح أننا لا نريد حدوث ذلك... ربما كان ذلك مثل تقريب النار

---

* ملكة إنكلترة (١٨٣٧ - ١٩٠١) . المقصود بالتشبيه هنا شخص ناءٍ نأياً مستحيلاً . (المترجم) .

** قالت (سوبرمان) بالألمانية ، ومعلوم أن (سوبرمان) . التي تعني بالعربية الإنسان الأمثل ، أو (الخارق) ، وهو صورة الإنسان الاستثنائي التي تخيلها أصلاً الفيلسوف الألماني «نيتشه» . (المترجم) .

إلى مستودع البارود أكثر مما يجب بقليل، هذا الانطلاق على السجية في إنكلترة، إذ يخشى المرء ماقد يحدث إذا انطلق سائر الناس على سجيتهم). هتفت «غدرون»: (يا إلهي! لكن ألن يكون من الرائع أن تتفجر إنكلترة كلها فعلاً، على حين غرة، مثل عرض للألعاب النارية؟). قالت «أرسيولا»: (لا يمكن أن يكون ذلك... كلهم نديون أكثر من اللازم. البارود قد ترطب فيهم). قال «جرالد»: (لست متيقناً من ذلك). قال «بركن»: (ولا أنا... إذا ما شرع الإنكليز في التفجر حقاً، كتلةً واحدة*، فقد حان الوقت لتسد أذنيك وتجري). قالت «أرسيولا»: (لن يفعلوا ذلك أبداً). أجاب: (سوف نرى). قالت «غدرون»: (أليس ذلك مدهشاً... شعور المرء بالامتنان عند خروجه من بلده. أنا لا أستطيع أن أصدق نفسي. لشدّ ما يستخفني الفرح في اللحظة التي أضع فيها قدمي على جرف أجنبي فأخاطب نفسي قائلة: «هو ذا مخلوق جديد يخطو نحو الحياة»). قال «جرالد»: (لا تفرطي في القسوة على إنكلترة المسكينة، العجوز. نحن نحبها، دون ريب، وإن كنا نلعنها). بدا لـ «أرسيولا» أن في هذه الكلمات رصيداً من السخرية.

قال «بركن»: (لعلنا نحبها... لكنه حب لعين، لا يريح... مثل الحب الممنوح لوالد مُسنٍّ يشكو مرّ الشكوى من اختلاطات مرضية، ميؤوس منها). نظرت «غدرون» إليه بعينين متسعتين، دكناوين. تساءلت بأسلوبها المباشر: (أوَ تظن أنْ لا أمل هناك؟). لكن «بركن» تراجع، ولم يشأ أن يجيب عن مثل هذا السؤال.

- (أي أمل في أن تغدو إنكلترة حقيقية؟ الله أعلم، إنها الآن زيف حقيقي عظيم، تجمّعٌ آيلٌ إلى اللا حقيقة. قد تكون حقيقية، لو لم يكن هناك إنكليز).

ألحت «غدرون»: (أوَ تظن أن على الإنكليز أن يختفوا؟) كان غريباً اهتمامها الشديد بجوابه. بدا وكأن مصيرها نفسها هو الذي كانت تستفسر عنه. استقرت عيناها الدكناوان المتسعتان على «بركن»،كأنها كانت تستطيع أن تستخلص حقيقة المستقبل من دخيلته، مثل استخلاصها من إحدى وسائل الرجم بالغيب. كان شاحب اللون، ثم أجاب على مضض:

* نطق «كتلة واحدة» بالفرنسية، (المترجم).

ـ (حسن.. ما الذي أمامهم غير ذلك سوى التواري؟ لابد لهم من التواري من ذلك الصنف الخاص من السمة الإنكليزية الذي يخصهم، على أية حال). راقبته «غدرون» كما لو كانت في حالة تنويم مغناطيسي، وعيناها متسعتان، ومستقرتان عليه. ألحّت متسائلة: (لكن بأية طريقة تقصد أن يكون التواري؟). تدخل «جرالد» : (صحيح ، هل تعني تغيير الآراء؟).

قال «بركن» : (لا أقصد أي شيء. لِمَ يتعيّن عليّ ذلك؟ إني إنكليزي، وقد دفعت ثمن ذلك. لا يسعني التحدث عن إنكلترة... أستطيع التحدث عن نفسي فقط). قالت «غدرون» ببطء: (أجل، إنك تحب إنكلترة كثيراً جداً، جداً، يا «روبرت»). أجاب: (وأغادرها). فقال «جرالد» وهو يومئ إيماءة حكيمة: (لا، ليس نهائياً، سوف تعود). قال «بركن» محملقاً بمرارة: (يقولون إن القمل يزحف مبتعداً عن الجسد المحتضر. وها أنذا تارك إنكلترة). قالت «غدرون» بابتسامة ساخرة: (آه، لكنك ستعود). أجاب: (بئس المآب)*.

ضحك «جرالد» وقد طاب له ذلك: (ما أغضَبَهُ إزاء وطنه الأم!).

قالت «غدرون» بشيء من السخرية: (آه.. إنه وطنيٌّ!). امتنع «بركن» عن أن يزيد في الإجابة.

ظلت «غدرون» تراقبه بضع لحظات، ثم انصرفت عنه... لقد انتهى فيه سحرها التكهني، وأخذت تحس فعلاً بالارتياب الصرف. ألقت نظرة على «جرالد». كان في نظرها مدهشاً كقطعة من (الراديوم) المشع. شعرت أن في مستطاعها أن تبدد ذاتها فتعرف كل شيء، بواسطة هذا المعدن الحي، القتال. ابتسمت لنفسها جراء سعة خيالها. وماذا ستفعل بنفسها بعد أن تكون قد دمرت نفسها؟ فإذا كانت الروح، إذا كانت الكينونة المتكاملة، فانيةً، فالمادة لا تفنى.

كان يبدو مشرقاً، شارداً، محتاراً في تلك اللحظة. مدت ذراعها الجميل، المغطى بـ(التول) الأخضر، الناعم، ومست ذقنه بأناملها الرقيقة، أنامل الفنان.

سألته، بابتسامة غريبة، عارفة: (إذاً، ماهي؟). رد وقد اتسعت عيناه فجأة، من عجب: (ماذا؟).

---

* نطق «بركن» هذه الجملة بالفرنسية . (المترجم) .

ـ (أفكارك؟). بدا «جرالد» كأنه رجل شرع يصحو. قال: (أظن أنه ليست عندي أية أفكار). قالت، وفي صوتها ضحكة رصينة: (صحيح!). كانت، في نظر «بركن»، كأنها قد قتلت «جرالد» بتلك اللمسة. هتفت «غدرون»: (آه، ولكن، لنشرب نخب بريطانيا... لنشرب نخب بريطانيا).. بدا في صوتها يأس عنيف. ضحك «جرالد» وملأ الكؤوس. قال: (أظن أن «روبرت» يقصد أن جميع الإنكليز، وطنياً، ولابد أن يموتوا، كي يعيشوا أفراداً، و....). تدخلت «غدرون» بإيماءة ساخرة صغيرة، وهي ترفع كأسها: (وطنياً بدرجة فائقة...!).

في اليوم التالي نزلوا في محطة قطار (هوهن هاوزن) الصغيرة، عند منتهى سكة الوادي الصغير. كان الثلج في كل مكان. كان عبارة عن مهد من الثلج أبيض رائع، جديد، وجامد، مترامٍ من كلا الجانبين على صخور ناتئة سود، وامتدادات بيض من الفضة نحو السماء الزرقاء الشاحبة.

حين خرجوا إلى الرصيف الأجرد، حيث لا شيء هناك غير الثلج من جميع الجهات وفي الأعلى، انكمشت «غدرون» كأن ذلك قد أصاب فؤادها بالقشعريرة. قالت، ملتفتة إلى «جرالد» في إلفة مباغتة: (يا إلهي.. لقد حققتَ إنجازاً الآن يا «جري»*).

ـ (ماذا؟). أومأت إيماءة خفيفة، مشيرة إلى الدنيا بكلتا اليدين: (انظر إليها!). بدت خائفة من الاستمرار. فضحك.

أصبحوا في وسط الجبال... ومن الأعالي، على كلا الجانبين، ترامى غطاء الثلج الأبيض ممتداً إلى الأسفل، بحيث بدا المرء صغيراً وضئيلاً في واد من السموات الخالصة المتماسكة، وكل شيء متألق على نحو غريب، وصامت لا يتغير.

قالت «أرسيولا» ملتفتة إلى «بركن» وواضعة يدها على ذراعه: (إنه يبث في الإنسان شعوراً بصغره ووحدانيته). قال «جرالد» لـ «غدرون»: (لستِ آسفة لمجيئك، أليس كذلك؟). بدت مرتابة. خرجوا من المحطة إلى مابين سدين من الثلج. قال «جرالد»، وهو يتنشق الهواء في ابتهاج: (آه.. هذا رائع. هي ذي مزلجتنا. سنتمشى قليلاً... سنهرول في الطريق).

---

* كنية «جرالد». (المترجم).

ألقت «غدرون»، المرتابة دائماً، بمعطفها السميك على المزلجة، وكذلك فعل، ثم انطلقا. وعلى حين غرة، رفعت رأسها بسرعة وانطلقت تعدو مندفعة في درب الثلوج وقد أوطأت قلنسوتها على أذنيها. كان ثوبها الأزرق اللماع يخفق في مهب الريح وجورباها السميكان القرمزيان يلتمعان فوق البياض.

راقبها «جرالد». بدت مندفعةً نحو قَدَرها، تاركةً إياه في الخلف. تركها تقطع بعض المسافة ثم أرخى أطرافه وتعقّبها.

كان الثلج العميق، الصامت، في كل مكان. كانت أفاريز الثلج الكبيرة تثقل على الدور (التيرولية)* العريضة سقوفها والغاطسة في الثلج، حتى أطر زجاج النوافذ. التفتت الفلاحات ذوات التنورات الفضفاضة. والمرتديات الشال المتقاطع وجزم الثلج الثقيلة، في الطريق لينظرن إلى الفتاة الناعمة العزوم، التي كانت تركض باندفاع متأن هرباً من الرجل الذي كان يحاول أن يدركها دون أن يتمكن من أن ينالها البتة.

مرّا بالنزل ذي الشبابيك المصبوغة المصاريع، والشرفة، وكذلك ببضعة أكواخ نصف مطمورة بالثلج، ثم بمنشرة الخشب الصامتة المطمورة بالثلج والواقعة قرب الجسر المسقف الذي كان يقطع الجدول الخفي والذي عبراه جرياً إلى أعمق أعماق طبقات الثلج التي لم يمسسها أحد... كان صمتاً وبياضاً خالصاً بهيجاً حدّ الجنون. إلا أن الصمت المطبق كان مريعاً جداً، يعزل الروح ويحيط الفؤاد بهواء متجمد.

قالت «غدرون» وهي تنظر في عينيه نظرة غريبة ذات معنى: (إنه مكان مدهش، مع ذلك). فوثبت روحه. قال: (جيد).

بدا وكأن طاقة كهربائية ضارية قد سرت في جميع أطرافه، أما عضلاته فقد انْشَحَنَتْ بإفراط، وتقسّت يداه من قوة. سارا مسرعين في درب الثلوج الذي كان مُعَلَّماً بأغصان أشجار ذابلة غرزت على مسافات. كانا، هو وهي، منفصلين كقطبين متضادين من طاقة واحدة جامحة. إلا أنهما كانا يشعران بما يكفي من القوة للوثوب فوق تخوم الحياة والجَيْن المناطق المحرمة، ثم منها عائدين.

كان «بركن» و «أرسيولا» يجريان على الثلج، كذلك، وكان قد تخلّص من

---

* (التيرولية): نسبة إلى (التيرول) وهو إقليم يقع شرقي جبال (الألب). (المترجم).

الأمتعة، وكانا يسبقان المزلجات بمسافة قليلة. كانت «أرسيولا» متحمسة وسعيدة، لكنها ظلت تتلفت فجأة لتمسك بذراع «بركن» للتأكد منه. قالت: (هذا شيء لم أتوقعه قط. هنا عالم مختلف).

مضيا قدماً حتى بلغا مرجاً ثلجياً. هناك جاوزتهما المزلجة التي قَدِمَتْ وهي ترنّ مخترقةً السكون. كان أمامهما ميل آخر قبل أن يلتقيا «غدرون» و «جرالد» في المرتقى الشديد الانحدار، بجانب المرقد الوردي اللون، نصف المطمر.

ثم مرا داخل أخدود حيث جدران من صخر أسود، ونهر مليء بالثلج، وسماء زرقاء هادئة في الأعالي. اجتازا قنطرة مغطاة، ناقِرَيْن بقوة الألواح الخشب، مجتازَيْن قاع الثلج ثانية، صاعدين بعد ذلك ببطء وتدرّج. كانت الخيول تسرع والسائق يفرقع سوطه الطويل فيما كان يمشي جانباً، صائحاً بصوته الغريب، المهتاج: (هيو.. هيو!). وجدران الصخر تمر ببطء إلى أن برزت ثانية من بين منحدرات الثلج وكتله، أعلى، فأعلى. صعدا تدريجياً خلال إشراقة الظل الباردة لما بعد الظهر، وقد أسكتتهما علياءُ الجبال، وسفوح الثلج الملتمعة المبهرة التي كانت تشمخ فوقهما ثم تهبط مبتعدة نحو الأسفل.

بلغا في خاتمة المطاف نَجْداً مرتفعاً من الثلج حيث انتصبت آخر ذرى الثلج، كتويجات قلب زهرة مفتوحة، وفي وسط آخر وديان السماء المهجورة قام مبنى وحيد ذو جدران من خشب وسقف أبيض ثقيل. كان مهجوراً، مطموراً في قفر مترامي الأطراف من الثلج، كأنه حلم. كان قائماً مثل صخرة تدحرجت من آخر المنحدرات الشديدة الميلان، صخرةٍ كانت قد تشكّلت على هيئة دار، وغدت الآن نصف منطمرة. كان مما لا يمكن تصديقه أن يستطيع إنسان العيش هناك دون أن يمحقه كل هذا القفر الفظيع من البياض، والصمت، والبرد الصافي الشاهق المرنان.

ومع ذلك كانت المزلجات ترقى صُعداً على نحو رشيق، وكان الناس يبلغون الباب ضاحكين ومتحمسين. كانت أرضية النزل ترن خاوية، وكان الممر بليلاً بالثلج، إلا أن الداخل كان دافئاً، حقيقياً.

ارتقى القادمون الجدد درجات الخشب الجُرْد بتثاقل، وهم يتبعون الخادمة. احتل «جرالد» و «غدرون» أول غرفة نوم، وفي لحظة، ألفيا نفسيهما وحيدين في غرفة جرداء، منغلقة، أقرب إلى الصغر، كلها من خشب ذهبي اللون ـ الأرضية والجدران

والسقف والباب، كلها من الألواح الدافئة الذهبية عينها المصنوعة من الصنوبر المدهون. كانت ثمة نافذة تقابل الباب، لكنها واطئة جداً بسبب انحدار السطح. وتحت منحدر السقف كانت المائدة، وطاس لغسل الأيدي، وأبريق، ثم مائدة أخرى ذات مرآة، وفي الجانب الآخر، وعلى جانبي الباب سريران تركمت كلاً منهما عالياً وسادةٌ ضخمة ذات نقوش مربعة زرق... ضخمة حقاً.

كان ذلك كلُّ الموجود... لا دولاب، ولا شيء من أسباب راحة العيش. هاهنا قد حُجِزا في هذه الغريفة الذهبية اللون، مع فراشين بنقوش مربعة زرق. نظر كل منهما إلى الآخر، وضحكا، وقد أخافهما شبه العزلة العاري هذا.

قرع رجلٌ البابَ ودخل حاملاً الأمتعة. كان شخصاً قوياً، عظما خداه أقرب إلى التسطح، شاحب اللون بعض الشيء، ذا شارب خشن أشقر. راقبته «غدرون» وهو يضع الحقائب على الأرض بصمت، ثم يجرجر نفسه إلى الخارج متثاقلاً.

تساءل «جرالد»: (ليس هنا إفراط في الخشونة، أليس كذلك؟). لم تكن غرفة النوم دافئة كثيراً، فارتجفت قليلاً. راوغت قائلة: (إنها رائعة. انظر إلى لون هذه الألواح... إنه مدهش، كالوجود داخل جوزة).

كان واقفاً يراقبها، وهو يتحسس شاربه قصير القصة، مائلاً قليلاً إلى الخلف ومترصداً إياها بعينيه الثاقبتين، الجريئتين، وقد استبدت به عاطفة مشبوبة لا تحيد، كأنها قدر أدركه. ذهبت قبالة النافذة وجثمت هناك، مستطلعة. هتفت دون إرادة منها، بما كاد أن يكون ألماً: (أوه.. لكن هذا...!).

قبالتها كان ثمة وادٍ حجزته السماء من فوق، وأواخر منحدرات الثلج الضخمة والصخر الأسود، وفي النهاية، مثل سُرَّة الكرة الأرضية، جدار أبيض الطيات، وقمتان متلألئتان بالضياء الأخير، وإلى الأمام مباشرة، امتد مهدُ الثلوج الصامتة، بين المنحدرين الجبارين اللذين كانت تغشاهما عند الحوافي خشونة طفيفة من أشجار صنوبر انتصبت كالشَّعْر، حول القاع. إلا أن مهد الثلوج كان يمتد ويمتد حد الانغلاق السرمدي، حيث انتصبت جدران الثلوج والصخور شامخةً لا يمكن اختراقها، وارتفعت قمم الجبال العالية إلى عنان السماء مباشرة. كان ذلك مركز الدنيا، عُقْدَتَها، سُرَّتَها، حيث انتمت الأرض إلى السموات، صافيةً، لا يمكن بلوغها أو عبورها.

لقد ملأ ذلك «غدرون» نشوةً غريبة. لبثت جاثمة أمام النافذة، مطبقة يديها على وجهها، في نوع من الانتشاء. لقد وصلت أخيراً، لقد بلغت مكانها. هنا أخيراً، تخلت عن مغامرتها واستقرت مثل بلورة في سُرَّة الثلج، وغابت.

مال «جرالد» فوقها وطفق يطل من فوق كتفها. هاهو شاعر بوحدته، إنها غائبة... إنها غائبة تماماً.. أما قلبه فقد لفّه ضباب بارد كالثلج. أطل على الوادي غير النافذ، على درب الثلج العظيم المسدود وذرى الجبال تحت السماء. ما كان ثمة مخرج. لقد لفّه السكون الفظيع والبرد والبياض الفاتن للغسق لفاً، ولبثت هي جاثمة قبالة الشباك. كأنها كانت في مزار ديني، كانت طيفاً من الأطياف.

سألها في صوت بدا غريباً، نائياً: (هل تحبينه؟). كان يمكن أن تقر في الأقل بأنه كان معها. لكنها أشاحت بوجهها الناعم، الصامت، قليلاً، عن تحديقته، وعرف أن عينيها مغرورقتان بالدموع، دموعها هي، دموع إيمانها الغريب الذي كان يسبب هلاكه.

وعلى نحو مفاجئ تماماً، وضع يده تحت ذقنها وأعلى وجهها صوبه، كانت عيناها الزرقاوان زرقة غامقة قد اتسعتا من بلل الدموع كأنها مرتاعة في داخل روحها هي. نظرتا إليه من خلال دموعها، في فزع وشيء من الرعب. كانت عيناه الزرقاوان زرقة خفيفة نفاذتين وحدقتاهما صغيرتين، وبصرهما غير طبيعي. انفرجت شفتاها فيما شق عليها التنفس.

تنامت فيه الرغبة الجامحة، ضربةً فضربةً، مثل رنين جرس برونزي بالغ القوة، لا صدع فيه، ولا يمكن قهره. توترت ركبتاه حتى غدتا برونزاً، فيما كان معلقاً فوق وجهها الناعم الذي انفرجت شفتاه وتوسعت عيناه في انتهاك غريب. في قبضة يده، كان ذقنها ناعماً، حريرياً يفوق الوصف، شعر بأنه قوي كالشتاء، وكانت يداه معدناً حياً، لا تقهران ولا يمكن تنحيتهما. كان قلبه يدق كجرس يرن في داخله.

تلقفها بين ذراعيه، كانت ناعمة، واهنة، لا حركة فيها. وطيلة الوقت كانت عيناها اللتان لم تجفّ منهما الدموع بعد متسعتين كما في نشوة افتتان وعجز ما... كان قوياً إلى درجة تفوق قوة البشر، لا شائبة فيه، كأنه قد وُهِبَ قوة خارقة للطبيعة.

رفعها وأدناها وطواها لِصْقَهُ. استكانت نعومتها وثقلها المستريح، المتكاسل، إلى أطرافه الشبيهة بالبرونز، والفائقة الشحن، في تثاقل مشتهى سيدمّره إن لم يستكمل

هو منجزه. تحركت منتفضةً، وهي ترتد بعيداً عنه. احتدم قلبه كلهبة ثلج، وأطبق عليها كالفولاذ... سيدمّرها بدل أنْ يُحْرَم.

بيد أن قوة بدنه المستبدة كانت أشدّ مما تطيق. استرخت ثانية، وتمددت طليقة ناعمة، وهي تلهث في شبه هذيان. ما أحلاها في عينيه، كانت نعمةً من نِعَمِ الانعتاق إلى حد أنه كان يفضل أن يعاني من عذاب سرمدي لا ينتهي بدل أن يتخلى عن لحظة واحدة من تباريح هذا النعيم الذي لا يمكن أن يفوقه نعيم.

قال لها وقد أمسى وجهه متغضناً وغريباً ومختلفاً في المظهر: (يا إلهي، وماذا بعد ذلك؟).

كانت مستلقية بكل هدوء، وكان وجهها هادئاً شبيهاً بوجه الأطفال، وعيناها غامضتين ترنوان إليه. كانت ضائعة، صريعة في التو. قال وهو ينظر إليها: (سأحبك على الدوام). إلا أنها لم تسمع. لبثت مستلقية ترنو إليه كما لو كان شيئاً لن تستطيع فهمه أبداً... مثل طفل ينظر إلى شخص بالغ دون أمل في فهم.. بل في خضوع، حسب.

قبّلها، قبّل عينيها مغلقتين، حتى لا تتمكن هي من رؤيته بعد ذلك. كان يصبو إلى شيء ما في الحال، إقرارٍ ما، علامة ما، تسليم ما، بيد أنها ظلت مستلقية بصمت، وطفولية، ونأي، حسب، مثل طفل، قُهِرَ وعجز عن الإدراك، ولم يشعر بغير الضياع. قبلها ثانية، واستسلم يائساً. سألها: (هلا نزلنا وتناولنا قهوة و«كوخن»*؟).

كان ضوء الشفق قد أخذ يطل على النافذة، أزرق زرقة الاردواز. أغلقت عينيها: فأوصدت دونها المرحلة الرتيبة من العجب الميت، وفتحتهما ثانية نحو العالم اليومي.

- (نعم). قالتها باقتضاب، مستعيدة إرادتها تماماً في الحال، عادت إلى الشباك ثانية. كان المساء الأزرق قد حل فوق أرجاء الثلوج وفوق المنحدرات العظيمة الباهتة اللون. بيد أن ذرى الثلوج كانت وردية اللون في السماء، تلتمع مثل عناقيد زهرية مستدقة، تتعالى وتشع في العالم العلوي السماوي، جدَّ لطيفة ونائية.

---

* «الكوخن» أو «الكرانتسكوخن» نوع من المعجنات الألمانية من (الكيك) المصنوع على شكل إكليل. (المترجم).

شاهدت «غدرون» كلّ لطافة تلك... كانت تعرف كم جميلة جمالاً خالداً كانت تلك المشاهد... مدقات عظيمة من لهب وردي اللون وقوده الثلج في غسق السماء الأزرق. كان في إمكانها أن تراها... كانت «غدرون» مُبْعَدَة، ممنوعة من الدخول... كانت تعرفها. حُجزَتْ خارجاً.

وبنظرة ندم أخيرة، أشاحت بوجهها، وشرعت تصفف شعرها. فك «جرالد» سيور الأمتعة وانتظر وهو يراقبها. كانت تعرف أنه كان يراقبها... ما جعلها متسرعة قليلاً وشديدة الانفعال في عجالتها.

نزلا إلى الطابق الأسفل، وعلى وجه كليهما سيماء غربة عالم آخر، وفي عيونهما ألق. شاهدا «بركن» و «أرسيولا» جالسين عند المائدة الطويلة، في أحد الأركان، ينتظرانهما.

فكرت «غدرون» في حسد: (كم رائق وبسيط منظرهما معاً!). حسدتهما على بعض عفويتهما، وعلى اكتفاء طفولي ما كانت هي لتستطيع بلوغه قط.. لكم ظهرا طفلين في نظرها.

هتفت «أرسيولا» جشعة: (ما أطيب «الكرانتسكوخن»! ما ألذه!).

فقالت «غدرون»: (صحيح). ثم أردفت موجهة كلامها إلى النادل: (قهوة و«كرانتسكوخن» رجاء).

ثم جلست على المقعد الطويل بجانب «جرالد». شعر «بركن» بتباريح الحنان إزاءهما وهو ينظر إليهما. قال: (أعتقد أن المكان مدهش حقاً يا «جرالد»، فخم، رائع، بالغ الجمال، عصيّ على الوصف، وإلى آخر الصفات الألمانية الأخرى)*.

قطع «جرالد» الصمت ببسمة خفيفة، وقال: (أنا أحبه).

كانت الموائد مصنوعة من الخشب الأبيض المحكوك موضوعة على ثلاثة من جوانب الغرفة على طريقة الفنادق الصغيرة الألمانية. جلس «بركن» و«أرسيولا» وظهراهما إلى الجدار، الذي كان من الخشب المدهون، في حين جلس «جرالد» و «غدرون» في الركن، بجوارهما، قرب الموقد. كان مكاناً واسعاً نوعاً ما، به مشرب صغير، مثل نزل

---

* نطق مجموعة الصفات المتلاحقة بالألمانية. (المترجم).

ريفي تماماً، لكنه بسيط جداً وأجرد، كله من الخشب المدهون، سقوفاً وجدراناً وأرضية، واقتصرت الأثاث على الموائد والمصاطب الموضوعة حول ثلاثة جوانب، والموقد الضخم الأخضر، والمشرب والأبواب على الجانب الرابع. أما النوافذ فكانت مزدوجة وخالية من الستائر تماماً. كان الوقت بواكير المساء.

جيء بالقهوة، ساخنة وجيدة، مع حلقة كاملة من الكعك.

هتفت «أرسيولا» : (حلقة كاملة من «الكوخن»!.. إنهم يعطونكما أكثر منا! أريد شيئاً من كعكتكما).

كان «بركن» قد اكتشف بأن هناك أشخاصاً آخرين في النزل، عشرة أشخاص: فتاتان، وثلاثة تلاميذ، ورجل وزوجته، وأستاذ وابنتاه.. كلهم من الألمان، أما الأشخاص الأربعة الإنكليز، فلكونهم نزلاء جدداً فقد جلسوا في ركنهم المتميز يراقبون. اختلس الألماني النظر خلال الباب، وتحدثوا إلى النادل بكلمة، وخرجوا ثانية. لم يكن موعد الطعام قد حان، ولذلك لم يدخلوا غرفة الطعام هذه، بل انتقلوا إلى قاعة الملتقى بعد أن أبدلوا جزمهم.

كان في استطاعة الزوار الإنكليز أن يسمعوا، بين آن وآخر، رنين آلة قانون، وعزف بيانو، ونتفاً من ضحك وصياح، وغناء، وترديداً واهناً من الأصوات. ولكون البناية كلها من الخشب، فقد بدا أنها كانت تنقل كل صوت كالطبل، لكن بدل أن تزيد كلَّ صوت منفرد، كانت تقلله، بحيث بدا صوت القانون ضئيلاً. كان ثمة قانونٌ مصغرٌ يُعْزَف عليه في مكان ما، كما بدا أن البيانو لابد أن يكون مِعْزَفاً صغيراً، مثل (سيينت)* صغير.

أقبل المضيف حين انتهى تناول القهوة. كان من أهالي (التيرول)، عريض المنكبين، مسطح الخدين تقريباً، ذا بشرة مجدّرة، وشاربين عامرين.

تساءل منحنياً إلى أمام ومبتسماً، مظهراً أسنانه الكبيرة، القوية: (أتودون الذهاب إلى قاعة الملتقى للتعرف على السيدات والسادة الآخرين؟) جالت عيناه الزرقاوان سريعاً من واحد إلى آخر. إذ لم يكن متيقناً من موقعه مع هؤلاء الإنكليز.

---

* (سيينت) آلة موسيقية قديمة تشبه (البيانو) أو (الأرغن). (المترجم).

كما أنه لم يكن سعيداً بسبب عدم تكلمه الإنكليزية، وعدم تأكده مما إذا كان ينبغي له أن يجرب فرنسيته.

كرر «جرالد» ضاحكاً: (هلاً انتقلنا إلى قاعة الملتقى، وتعرفنا على الآخرين؟). كانت ثمة لحظة تردد. قال «بركن»: (أحسب أن من الأفضل أن نفعل ذلك... من الأفضل أن نمهد السبيل بخطوة أولى).

نهضت الامرأتان وقد شاع الدم في وجهيهما قليلاً، ومضت هامة صاحب النزل السوداء، العريضة المنكبين، الشبيهة بالخنفساء، على نحو ذليل أمامهم، نحو مصدر الصخب. فتح الباب وأرشد الغرباء الأربعة إلى داخل غرفة السمر.

وفي الحال، ساد صمت، وغمر الجمعَ شيءٌ من الحرج. انتاب القادمين الجدد شعورٌ بأن الكثير من الوجوه الشقر كانت تنظر إلى اتجاههم. ثم انحنى المضيف إلى رجل قصير، نشيط المظهر، ذي شارب كبير، وقال بصوت خفيض:

- (السيد الأستاذ، هل لي أن أقدم...)*.

كان السيد الأستاذ سريعاً ونشيطاً. انحنى انحناءة خفيضة للأشخاص الإنكليز مبتسماً، وشرع يتصرف كرفيق، على الفور. قال بلطف ناشط، وقد تموّج صوته جهيراً وهو يسأل:

- (هل يتفضل السادة بمشاركتنا الحديث؟)**. ابتسم الإنكليز الأربعة متكاسلين وهم في وسط الغرفة، وقد سادهم شعور حاد بعدم الارتياح. قال «جرالد» المتكلم بلسانهم، إنهم سيسهمون، عن رغبة، في حفل السمر. شعرت «غدرون» و «أرسيولا»، وهما تضحكان منفعلتين، بعيون جميع الرجال، وقد تسمّرت بهما، فرفعتا رأسيهما ونظرتا إلى لا شيء، وشعرتا بجلال ملكي.

أعلن الأستاذ أسماء الحاضرين، بدون رسميات***. كانت هناك انحناءات تحية لأشخاص خطأً ولأشخاص صواباً. كان الجميع حاضراً إلا الرجل وزوجته. انحنت بنتا الأستاذ الطويلتان، الرياضيتان، ببشرتيهما الصافيتين والبلوزتين الزرقاوين زرقة

---

* وردت الجملة بالألمانية، (المترجم).

** وردت الجملة بالألمانية، (المترجم).

*** وردت «بدون رسميات» بالفرنسية، (المترجم).

غامقة، والمفصّلتين تفصيلاً عادياً، والتنورتين الرصاصيتين، وبرقبتيهما القويتين الطويلتين نوعاً ما، وعيونهما الزرق الصافية، والشعر المزدان بأشرطة باعتناء، وحرجهما المورد للخدود... ثم تراجعتا وقوفاً. ثم جاء دور التلاميذ الثلاثة فانحنوا انحناءات خفيضة جداً وهم يأملون بتواضع في خَلْق انطباع يوحي بتنشئتهم تنشئة قويمة جداً. ثم كان هناك رجل نحيف، أسمر البشرة ذو عينين منتفختين.. مخلوق غريب، كطفل أو كقزم خرافي، سريع، مبتعد: حيّا بانحناءة خفيفة. أما رفيقه الشاب الضخم، الأشقر، أنيق الملبس، فقد احمر حتى العينين خجلاً وانحنى انحناءة واطئة جداً. انتهى كل شيء. قال الأستاذ: (كان السيد* «لوركه» يلقي علينا تلاوة بلهجة مدينة «كولون»). قال «جرالد» : (لابد أن يسامحنا لمقاطعته... إننا نود كثيراً أن نسمعه).

وفي الحال، كانت ثمة تحيات، وتقديم مقاعد. جلست «غدرون» و «أرسيولا» و«جرالد» و «بركن» على الأرائك الخفيضة إزاء الحائط. كانت الغرفة ذات ألوح مدهونة جرداء، مثل بقية النزل. كان فيها بيانو وأرائك ومقاعد ومنضدتان عليها كتب ومجلات. كانت جدّ مريحة وبهيجة على الرغم من خلوها من الزخارف عدا الموقد الكبير الأزرق.

كان السيد «لوركه» هو الرجل الضئيل، ذا الشكل الصبياني، والرأس المدور، الممتلئ، ذا المظهر الحساس، والعينين المنتفختين السريعتين، كعيني فأر. ألقى نظرة عجلى على كل واحد من الغرباء، ثم اتخذ هيئة المتجرد عن الآخرين.

قال الأستاذ بلطف، وبسطوته الطفيفة: (واصل التلاوة، رجاءً). رمش «لوركه» الذي كان متكوراً على مقعد البيانو ولم يجب.

قالت «أرسيولا» التي كانت تعدُّ جملة بالألمانية منذ بضع دقائق: (سيكون ذلك من دواعي سرورنا العظيم....).

ثم فجأة استدار الرجل الضئيل، غير المستجيب، جانباً، نحو مستمعيه السابقين، واندفع تماماً مثلما كان قد انقطع فجأة، بصوت ساخر مُسَيْطَر عليه مقلداً عراكاً بين امرأة عجوز من (كولون) وأحد جباة القطارات.

كان بدنه ضئيلاً، غير كامل التكوين مثل بدن طفل إلا أن صوته كان ناضجاً

---

* وردت «السيد» بالألمانية. (المترجم).

ساخراً، تنطوي حركته على مرونة القوة الضرورية، وإدراك ساخر، نفاذ. لم تستطع «غدرون» أن تفهم كلمة واحدة من تلاوته المنفردة، لكنها سُحِرَتْ وهي تراقبه. لابد أن يكون فناناً، فلا أحد غير الفنان يمتلك مثل هذه القدرة على التكيف الدقيق والانفراد. انقلب الألمان على أعقابهم من فرط الضحك، وهم يسمعون كلماته الغريبة المضحكة، عباراته المضحكة باللهجة العامية. وفي غمرة تلك النوبات، كانوا ينظرون نظرات تبجيل إلى الغرباء الإنكليز الأربعة، إلى الصفوة. اضطرت «أرسيولا» و «غدرون» إلى الضحك. وضجت الغرفة بأصوات الضحك. اغرورقت عيون بنتي الأستاذ الزرق بدموع الضحك، واحمرت خدودهما الصافية من المرح حتى غدت قرمزية، وانفجر الأب في أعجب ضجيج مرح. أما التلاميذ فأثنوا رؤوسهم حتى الركب من فرط الابتهاج. التفتت «أرسيولا» تنظر إلى ما حولها مندهشة.. كانت الضحكات تبقبق منطلقة منها على نحو لا إرادي. نظرت إلى «غدرون» ونظرت «غدرون» إليها وانفجرت الأختان في الضحك منجرفتين في جو المرح. ألقى «لوركه» نظرة عجلى عليهما بعينيه المنتفختين. أما «بركن» فكان يضحك ضحكات نصف مكبوتة على نحو لا إرادي، في حين لبث «جرالد كريتش» منتصب الجلسة، وعلى وجهه نظرة فرح متألقة. وعاد الضحك يتفجر في نوبات عنيفة، حتى إن ابنتي الأستاذ صارتا في حالة من الاختضاض المنفلت، وتورمت عروق رقبة الأستاذ، وأمسى وجهه أرجواني اللون، واختنق في نوبات صامتة، نهائية من الضحك، وصاح الطلاب بكلمات نصف واضحة اللفظ آلت أخيراً إلى انفجارات منفلتة. وفجأة انقطع الهذر السريع من جانب الفنان وندّت شهقات طفيفة من المرح المتناقص. وطفقت «أرسيولا» و «غدرون» تمسحان عيونهما، وأخذ الأستاذ يصيح:

ـ (كان ذلك رائعاً، كان ذلك استثنائياً....). ورددت ابنتاه المتعبتان قوله بوهن: (استثنائياً حقاً....). هتفت «أرسيولا» : (وما استطعنا فهم ذلك). هتف الأستاذ: (أوه، مع الأسف، مع الأسف!). صاح التلاميذ، وقد حُلَّتْ عقدة لسانهم أخيراً حيال الغرباء: (لم تستطيعوا أن تفهموا. أوه، شيء مؤسف حقاً، شيء مؤسف، أيتها السيدة المحترمة، فكما تعلمين...)*.

---

* وردت تعليقات الأستاذ والبنتين والطلبة في معظمها بالألمانية. (المترجم).

تم الاختلاط، وامتزج القادمون الجدد بالحفل، كما تمتزج المقومات الجديدة، وضجت الغرفة كلها بالحيوية، كان «جرالد» في الوسط الملائم له فشرع يتحدث بحرية وحماسة، وأشرق وجهه باستمتاع غريب. حتى «بركن» ربما كان سينطلق في النهاية. كان خجولاً، متقيداً، وإنْ كان كله انتباهاً.

أقنعوا «أرسيولا» أن تغني «آني لوري»* كما سماها الأستاذ. فساد صمت مرده غاية التوقير. لم تكن قط موضعاً لمثل هذا الإطراء في حياتها. صاحبتها «غدرون» على البيانو، عازفة من الذاكرة.

كان لدى «أرسيولا» صوت جميل رنان، لكن دون ثقة بالنفس مما كان يؤدي إلى إفساد كل شيء. في هذا المساء شعرت بالزهو والانطلاق. كان «بركن» في الخلف تماماً، فأشرق وجهها كردّة فعل. لقد جعلها الألمان تشعر بأنها على ما يرام وليست معرضة للخطأ. لقد تحررت، حد الإفراط في الثقة بالنفس. أحست كأنها طير يطير في الهواء فيما كان صوتها يعلو صعوداً، مستمتعة جداً بتوازن الأغنية وانطلاقها مثل حركة جناحي طير مطاول للريح يلعب وينسل في الهواء. لقد أدت اللحن على نحو عاطفي، يساندها انتباه منتش. كانت جد سعيدة وهي تغني تلك الأغنية منفردة، زاهرة بزهو العاطفة والقوة، متلاعبة بعواطف كل أولئك الناس ونفسها كذلك. مجهدة نفسها وهي راضية، ومرضية الألمان إلى درجة لا تقدر.

في الختام كان أثر الأغنية على الألمان جميعاً لذيذاً وباعثاً على الشجن، فأثنوا عليها بأصوات خفيضة مبجلة... وما عاد في وسعهم القول الكثير:

ـ (ما أجمل هذا، وما أشد وقعه!... آخ، هذه الأغاني الاسكوتلاندية ذات الإيحاء الجميل! غير أن للسيدة المحترمة صوتاً رائعاً. إن السيدة المحترمة فنانة بحق، بحق!)**.

أشرقت وانبسطت مثل زهرة في شمس الصباح. شعرت بأن «بركن» كان ينظر إليها، كما لو كان يحسدها، فانتشى نهداها وصارت كل عروقها ذهبية. كانت في مثل سعادة الشمس التي تفتحت تواً فوق الغيوم. وبدا الجميع معجبين ومتألقين جداً... فكان الكمال.

---

* اسم أغنية اسكوتلندية. (المترجم).

** وردت هذه التعليقات بالألمانية. (المترجم).

بعد العشاء أرادت أن تخرج برهة وجيزة لتشاهد الدنيا. حاولت الجماعة أن تثنيها، فقد كان الجو بارداً برداً فظيعاً. قالت: لمجرد إلقاء نظرة.

تلفع الأربعة ناشدين الدفء وألفوا أنفسهم في عراء مبهم، غير حقيقي، عراء ثلج معتم وأطياف من عالم علوي كوّنت أشباحاً قبالة النجوم. كان الجو بارداً فعلاً برداً قارصاً مخيفاً غير طبيعي. لم تستطع «أرسيولا» أن تصدق الهواء المارّ في منخريها، فقد بدا واعياً، لئيماً، متقصداً، في برودته الشديدة القتالة.

بيد أن ذلك كان مدهشاً، كان افتتاناً مسكراً، صمت ثلج معتم، غير مدرك، صمت اللا مرئي المتخلل بينها وبين المرئي، بينها وبين الكواكب الوامضة. كان في مستطاعها مشاهدة كوكب (الجوزاء) في حركة اعتلاء ما أروعه... إن فيه من الروعة ما يكفي لحمل المرء على البكاء بصوت عالٍ.

وهنا وهناك، في كل صوب، كان ثمة هذا المهد من الثلج. كما كان هناك ثلج صلد تحت الأقدام، يرتطم بارداً ثقيلاً بكعبي جزمتها. كان الوقت ليلاً، وكان هناك صمت. تخيلت أنها كانت تستطيع سماع النجوم، تخيلت بوضوح أن في وسعها سماع الحركة السماوية الموسيقية للنجوم، على مقربة تامة من متناول اليد. بدت كطير طائر في غمرة حركة النجوم المتسقة.

وتشبثت بـ «بركن» ملتصقة به. على حين غرة أدركت بأنها لم تكن تعرف بماذا كان يفكر، لم تعرف أين كان يجول خاطره.

قالت: وقد توقفت لتنظر إليه: (حبي!).

كان وجهه شاحباً، وعيناه داكنتان، فيهما ومضة خافتة من نور الكواكب.

ورأى وجهها ناعماً، مُعلّى صوبه، قريباً جداً. قبّلها برقة. سألها: (ماذا بعد؟). سألته: (هل تحبني؟). أجاب هادئاً: (أكثر من اللازم). التصقت به أكثر، قليلاً. ردت بالتماس: (ليس أكثر من اللازم). قال بما يقرب من الحزن: (أكثر من اللازم بكثير). سألته، ملتاعة: (وهل يحزنك أنني كل شيء بالنسبة إليك؟). أمسك بها، وضمها إليه، مقبّلاً إياها، قائلاً بصوت يكاد يشق سماعه:

- (كلا، لكنني أشعر بأنني مثل شحاذ... أشعر بالفقر). سكتت، شاخصةً بصرها إلى النجوم الآن، ثم قبلته. تضرعت ملتاعة: (لا تكن شحاذاً. ليس شائناً أن تحبني).

أجاب: (إن من المشين أن يشعر المرء بأنه فقير، أليس كذلك؟). تساءلت: (لماذا؟ لم يتعين ذلك؟). لبث واقفاً حسب، في الهواء الفظيع البرودة الذي كان يتحرك فوق ذرى الجبال على نحو لا يرى، وطوقها بذراعيه. قال: (ما كنتُ أستطيع تحمل هذا المكان البارد السرمدي بدونك، ماكنت أستطيع تحمله، فمن شأنه أن يصيب من حياتي مقتلاً). عادت فقبلته. على حين غرة. سألته محتارة متعجبة: (هل تكرهه؟). أجاب: (لو لم أستطع أن أكون بقربك، لو لم تكوني هنا، لكرهته، ماكنت أستطيع تحمله). قالت: (لكن الناس لطيفون). قال: (أعني السكون، والبرد، والأبدية المتجمدة). احتارت، ثم أقبلت روحها لتسكن إليه، لتستقر في أحضانه، غير واعية. قالت: (أجل، حسن أن نكون متدفئين، مجتمعين).

واستدارا صوب النزل ثانية، شاهدا أضواءه الذهبية متألقة في ليل الصمت الثلجي، صغيرةً في الخواء، مثل عنقود من التوت الأصفر، بدت مثل حزمة من ومضات شمسية، جد صغيرة وبرتقالية اللون وسط العتمة الثلجية. ووراء ذلك، كان طيفُ قمةٍ شامخ، يمحي الكوكب كأنه شبح من الأشباح.

اقتربا من مسكنهما. شاهدا رجلاً آتياً من المبنى المعتم، حاملاً فانوساً مضاءً يتأرجح ذهبياً، ويكشف عن قدميه المعتمتين اللتين كانتا تمشيان في هالة من ثلج. كان شخصاً ضئيلاً، معتماً في الثلج المظلم. فتح مزلاج باب كوخ خارجي. خرجت رائحة الأبقار، حارةً، حيوانية، تكاد أن تكون لحماً بقرياً مستحضراً، متخللة الهواء البارد برداً ثقيلاً. بانت لمحةٌ لبقرتين في مربطهما المظلم، ثم أُغلِقَتْ الباب ثانية، فلم يبن خلالها ولا حزمة ضوء. لقد ذكّر ذلك «أرسيولا» ثانية بالبيت وبالمستنقع، وبطفولتها، وبسفرتها إلى بروكسل، ومن الغريب أنه ذكرها بـ «انتون سكرينسكي»*

أوه، يا إلهي. هل يمكن للإنسان أن يطيق ذلك... ذلك الماضي الذي ابتلعته الهوة؟.. هل تستطيع هي أن تتحمل أنه كان فعلاً في يوم من الأيام! أجالت بصرها في العالم العلوي الصامت، عالم الثلج والكواكب والبرد ذي البأس الشديد. كانت ثمة دنيا أخرى، مثل مناظر في فانوس سحري... (المستنقع) و(كوستهي) و(آيكستن)،

* حبيب «أرسيولا» السابق. (المترجم).

مضاءة بنور عادي، غير حقيقي، كانت هناك «أرسيولا» شبحية، غير حقيقية، خيالَ ظلٍّ كامل لحياة غير حقيقية*. كانت زائفة ومقيد، مثل منظر في فانوس سحري، وتمنت لو أن الشرائح الزجاجية انكسرت. وتمنت لو أنها زالت إلى الأبد، مثل زجاجة في فانوس سحري انكسرت. أرادت ألا يكون لها ماض. أرادت مجيئها من قبل، من سفوح السماء، إلى هذا المكان بصحبة «بركن» بدل الكدح خروجاً من ضباب طفولتها وتنشئتها ببطء، وتلوث شامل، شعرت بأن الذاكرة كانت حيلة قذرة استُخْدِمَت ضدها. ماهو هذا الحكم الذي يتعين عليها بموجبه أن «تتذكر»!.. لم لا يكون هناك حمام للنسيان الخالص، ولادة جديدة، دون أية ذكريات أو لوثة حياة ماضية. إنها مع «بركن» وقد جاءت للحياة تواً، هنا في الثلوج العالية، قبالة النجوم، ما علاقتها بالوالدين وبالأسلاف؟.. لقد عرفت نفسها، جديدة، لم تولد، وماكان لها أب، وأم، أو قرابات سابقة. كانت هي نفسها... نقية، فضية، لا تنتمي إلا إلى التفرد مع «بركن». تفرد يطلق أنغاماً أعمق، تتردد في فؤاد الكون، في قلب الحقيقة، حيث لم تكن هي من قبل قط.

حتى «غدرون» كانت وحدة منفصلة، منفصلة، منفصلة، لا علاقة لها بهذه الذات، بـ «أرسيولا» هذه، في عالمها الجديد، عالم الحقيقة. أما ذلك العالم الشبحي القديم، واقعية الماضي... آه، فليذهب! لقد ارتفعت طليقةً على جناحي حالتها الجديدة.

لم يكن «جرالد» و «غدرون» قد دخلا بعد. كانا قد ارتقيا الوادي قبالة النزل تماماً، وليس كما فعل «بركن» و«أرسيولا»، ومضيا صعداً إلى التل الصغير، على جهة اليمين. كانت «غدرون» مدفوعة برغبة غريبة، كانت تنشد الاستمرار في الاندفاع قدماً حتى تبلغ نهاية وادي الثلوج، ومن هناك كانت تريد أن ترتقي جدار النهائية البيضاء، تصعد فوقه، ماضيةً حتى الذرى التي قامت مثل أوراق الورد المدببة. في قلب سُرَّة العالم المتجمدة، الغامضة. شعرت بأن هناك فوق الحيطان الغريبة المعتمة الفظيعة من الثلوج الصخرية، هناك في سُرَّة العالم الغامض، بين منجمع القمم النهائي، هناك، في السرة المطويّة، سرة كل الأشياء، هناك سيكون اكتمالها. آه لو تمكنت من أن تبلغ ذروتها هناك حَسْبُ، بمفردها، وتبلغ السرة المطويّة للثلج السرمدي، وللانبعاث...

---

* خيال الظل : مسرحية تُمَثَل بإلقاء ظلال الدمى (أو الممثلين) على شاشة . (المترجم) .

ذرى الثلج والصخر الخالدة، إذاً لَغَدَتْ واحدةً متوحدةً مع الكل، ولكانت نفسها، الصمتَ الأبدي المطلق... مركز (الكل) الراقد المنجمد، السرمدي.

عادا إلى النزل وإلى قاعة الملتقى. استبد بها الفضول كي ترى ماكان يجري. أثار الرجال الذين كانوا هناك فيها الفضول والانتباه. كان ذاك طعماً جديداً للحياة بالنسبة إليها. كانوا مغلوبين جداً حيالها لكنهم زاخرون بالحياة.

كان الجمع صاخباً: الجميع يرقصون معاً، يرقصون الـ (شوويلاتن)، الرقصة (التيرولية) المنطوية على التصفيق وقذف المراقص الآخر في الهواء في اللحظة الحاسمة، كان الألمان كلهم أكفاء... كانوا في معظمهم من (ميونخ)، وكان «جرالد» نفسه متوسط الإجادة. وكانت ثمة ثلاث آلات قانون ترنّ بغير انقطاع في أحد الأركان، كان مشهداً ينبض حيويةً وفوضى، وكان الأستاذ يلقن «أرسيولا» مبادئ الرقصة، ضارباً الأرض بقدميه، مصفقاً، وقاذفاً إياها عالياً بقوة وحماسة مدهشتين. وحين أتت اللحظة الحاسمة، تصرف حتى «بركن» تصرفاً رجولياً مع إحدى بنتي الأستاذ النضرتين القويتين، التي كانت في غاية السعادة. الجميع كانوا يرقصون... كانت هناك جلبة في غاية الصخب.

أطالت «غدرون» النظر مبتهجة. كانت الأرضية الخشبية الصلبة تضجّ بضربات كعوب الرجال، والهواء يرتدّ بصفق الأيادي وموسيقى القانون وكان هناك غبار ذهبي يحوم حول المصابيح المتدلية.

فجأة انتهى الرقص، واندفع «لوركه» والطلاب إلى الخارج ليأتوا بالمشروبات. كانت هناك ضجة منفعلة من الأصوات، وقعقعة أغطية الأباريق، وصيحات عالية: (في صحتك... في صحتك!)*. كان «لوركه» في كل مكان في الوقت نفسه، كأنه قزم خرافي، مقترحاً الشرب على النساء، مطلقاً نكتة غامضة محفوفة بالمخاطر في صفوف الرجال، مربكاً النادل ومحيِّرَهُ.

كان يشتهي الرقص مع «غدرون» جداً. فمنذ اللحظة الأولى التي رآها فيها أراد أن يقيم صلة بها. شعرت هي بذلك غريزياً، وانتظرت منه أن يقبل عليها إلا أن نوعاً من التجهم أبعده عنها، ولهذا ظنت أنه لم يكن يميل إليها.

* وردت «في صحتك» بالألمانية. (المترجم).

قال الشاب الضخم الأشقر، رفيق «لوركه»: (هل ترقصين رقصة «شوويلاتن» معي يا سيدتي..؟)*. كان أنعم وأذلّ من أن يتقبله ذوق «غدرون» إلا أنها كانت تريد أن ترقص، وكان هذا الشاب الأشقر المسمى «لايتنر» وسيماً بما فيه الكفاية في أسلوبه المضطرب المدقع قليلاً، ومذلته التي كانت تخفي شيئاً من الخوف فقبلت به مراقصاً.

عادت آلات القانون ترن، وابتدأ الرقص. سبق «جرالد» الجمع ضاحكاً، مراقصاً إحدى ابنتي الأستاذ، رقصت «أرسيولا» مع أحد الطلاب، و«بركن» مع ابنة الأستاذ الأخرى، والأخير مع السيدة «كرامر». أما بقية الرجال فقد رقص بعضهم مع البعض الآخر، بحماسة كانت من الشدة كأنهم يراقصون نساء.

ولأن «غدرون» راقصها رفيق «لوركه»، الشاب الناعم ذو البنية القوية، فقد أمسى «لوركه» نكداً، مغتاظاً أكثر من أي وقت مضى، حتى إنه لم يعد يحس بوجودها في الغرفة. جرح ذلك كبرياءها، إلا أنها عوضت عنه بمراقصة الأستاذ الذي كان قوياً، قوةَ ثورٍ بالغ متمرس، وزاخراً بطاقة فجة. لم تستطع أن تطيقه، من الزاوية النقدية، ومع ذلك طاب لها أن يندفع بها في الرقص ويقذفها عالياً في الهواء بزخمه الفج القوي. استمتع الأستاذ بذلك، هو الآخر، وأخذ يتفرس بعينين غريبتين، واسعتين، زرقاوين، زاخرتين بلهب مثير. كرهته للبهيمية المتمرسة شبه الأبوية التي كان ينظر بها إليها، إلا أنها أعجبت بثقل قوته.

امتلأت الغرفة حماسة وعاطفة بهيمية. حيل بين «لوركه» و «غدرون» التي كان يريد أن يكلمها، بما يشبه سياجاً من شوك، فأحس بكراهية ساخرة لا ترحم حيال رفيق الغرام هذا، الشاب «لايتنر» المفلس الذي كان عالةً عليه.

سخر من الشاب باستهزاء لاذع جعل «لايتنر» أحمر الوجه، عاجزاً من غيظ. عاد «جرالد»، الذي غدا الآن متقناً للرقصة تماماً، إلى الرقص مع أصغر ابنتي الأستاذ التي كادت أن تموت من اهتياج بتولي لأنها اعتبرت «جرالد» رائعاً ووسيماً جداً. لقد أمست في قبضته، كأنها طير نابض، كأنها مخلوق خفاق ومرتبك يطير جافلاً. وهذا ما جعله يبتسم، فيما انكمشت منتفضةً بين يديه، ومتصلبة حين كان يجب عليه أن يقذف بها

* نطق نصف الجملة بالإنكليزية، ونصفها الآخر بالألمانية. (المترجم).

في الهواء. وفي النهاية، أمست جد مقهورة بحب ذليل حتى كادت ألا تستطيع التفوه بكلام معقول أبداً.

كان «بركن» يراقص «أرسيولا». كانت تتراقص في عينيه حرائق صغيرة غريبة، وبدا أنه استحال شيئاً شريراً، خفاقاً، ساخراً، موحياً، لا يطاق نهائياً. خافت «أرسيولا» منه وافتتنت به. كان في مستطاعها أن ترى بوضوح أمام عينيها، كما في رؤيا، سخرية عينيه التهكمية، الشهوانية .

دنا منها دنواً ماكراً بهيمياً غير مكترث. كانت غرابة يديه اللتين جاءتا سريعتين ماكرتين حتميتين إلى الموضع الحيوي تحت نهديها. ورفعتاها في نزوة ساخرة موحية، وحملتاها في الهواء كأنما بدون قوة، بسحر أسود، قد جعلها في إغماءة من خوف. اشمأزت لحظة، فقد كان ذلك فظيعاً. إنها ستبطل السحر. لكن قبل أن ينعقد العزم، كانت قد رضخت ثانية، واستسلمت لخوفها. كان يعرف طيلة الوقت ما هو فاعل. كانت تستطيع أن تستشف ذلك في عينيه المبتسمتين، المتركزتين. كان ذلك من مسؤوليته، فلتتركه له.

حين انفردا في الظلام، أحست ببهيميته الغريبة تحوم حولها، انزعجت واشمأزت، لم يتعين عليه أن يغدو هكذا؟

سألته في ارتياع: (ما خطبك؟).

لكن وجهه لم يزد عن التلؤلؤ حيالها، فظيعاً، مجهولاً، ومع ذلك، فقد فتنها. انتابها دافع لتردّه على أعقابه بضراوة وتتخلص من سحر البهيمية الساخرة هذا. إلا أن افتتانها كان أبلغ، وأرادت أن تخضع، أرادت أن تعرف ما عساه فاعلاً بها؟..

كان جذاباً جداً، ومنفراً جداً في الوقت نفسه. إن الإيحاء الساخر الذي كان يومض ثم يخبو على وجهه، والذي كان يتبدى من عينيه المضيقتين، جعلها تود الاختفاء، إخفاء نفسها بعيداً عنه، ومراقبته من مكان ما دون أن يراها.

استفسرت منه ثانية، وقد ثارت ضده بقوة وعداوة مفاجئتين: (لماذا أنت هكذا؟).

تركزت النيران الوامضة في عينيه فيما كان يتفرس في عينيها. ثم تهدل الجفنان في حركة طفيفة من ازدراء ساخر. ثم ارتفعا ثانية إلى درجة الإيحاء القاسي نفسه. فاستسلمت... ليفعل ما يشاء.. كانت شهوانيته جذّابة على نحو منفر. بيد أنه كان ذا مسؤولية ذاتية، ولسوف ترى ما الأمر.

كان في وسعهما أن يفعلا ما يشاءان... هذا ما أدركته فيما كانت ذاهبة لتنام... كيف يمكن استثناء أي شيء يبعث على الرضا؟ ما المخزي؟ ومن يهتم؟ إن الأشياء المخزية حقيقية، في واقع مختلف. ثم إنه كان لا يخجل ولا يتقيد. أليس فظيعاً، نوعاً ما، لرجل في مقدوره أن يكون بمثل تلك العاطفية والروحانية، أن يكون الآن بهذه.. توقفت في أفكارها وذكرياتها الخاصة بها... ثم أردفت: ... بهذه البهيمية؟... بهذه البهيمية ... كلاهما!.. بهذا التحلل! جفلت، لكن، على أية حال، لم لا؟ ابتهجت كذلك. لم لا تكون بهيمية وتمارس كامل التجربة؟ ابتهجت بالفكرة. كانت بهيمية. ما أطيب أن يكون المرء شائناً حقاً!.. عندها لن يكون ثمة أي شيء شائن لم تجربه. ومع هذا ما خجلت، فقد كانت نفسها. لم لا؟.. ستكون طليقة حينما تعلم كل شيء، ولن تحرم من أي شيء مخز، معتم.

بينما كانت «غدرون» تراقب «جرالد» في غرفة الملتقى، فكرت على حين فجأة:

ـ (ليحظ بكل من يستطيع من النساء... إنها طبيعته، من السخف أن ندعوه أحادي الزواج... طبيعي إنه زير نساء. تلك هي طبيعته).

جاءتها الخاطرة عفوياً، فصدمتها نوعاً ما... وكأنها قد رأت (مينه! مينه!)*. جديدة على الحائط، إلا أن ذلك كان حقيقياً. بدا أن صوتاً قد خاطبها لافظاً الكلمة بوضوح إلى درجة أنها، في تلك اللحظة، آمنت بالوحي.

خاطبت نفسها مرة أخرى: (إنها حقيقية فعلاً).

كانت تعرف جيداً بأنها كانت تؤمن بذلك طول الوقت. عرفت ذلك ضمناً. لكن يجب عليها أن تعتّم الأمر... تعتيماً يكاد يكون حتى عن نفسها. لابد أن تتكتم الأمر كلياً. كانت تلك معرفة تخصها وحدها، ونادراً ما كان عليها الإقرار بها حتى لنفسها.

انعقد العزم الوطيد في نفسها على محاربته. لابد لأحدهما أن ينتصر على الآخر، أي منهما يتعين فوزه؟ امتلأت روحها تصميماً فولاذياً، وكادت أن تضحك في سريرتها من ثقتها. لقد أثارت هذه الثقة شفقة ما شديدة، نصف مزدرية، حناناً عليه: كانت شديدة القساوة.

---

* (مينه) : علامة غامضة، سرية، تنذر بخطر دائم داهم، وحسب (العهد القديم) فإنها العلامة التي حذرت الملك (بلثزار) قبل سقوطه. (المترجم).

انفض الجمع في ساعة مبكرة. ذهب الأستاذ و «لوركه» إلى قاعة استراحة صغيرة ليشربا. راقب كلاهما «غدرون» وهي تمضي صوب منبسط الدرج، صعوداً إلى الطابق الأعلى حذو الحاجز.

قال الأستاذ: (دونك امرأة جميلة).

أكد «لوركه» باقتضاب: (أجل)*.

سار «جرالد» بخطوه الغريب، المديد كخطو الذئاب، مجتازاً غرفة النوم حتى النافذة، وانحنى وتطلع إلى الخارج، ثم انتصب ثانية والتفت إلى «غدرون»، وعيناه قد احتد بصرهما ببسمة شاردة. بدا طويلاً جداً في نظرها، ولاحظت التماع حاجبيه المائلين إلى البياض والمتصل أحدهما بالآخر.

قال: (هل يعجبك الحال؟!).

كان، على ما بدا، يضحك في سريرته دون أي وعي منه. نظرت إليه. كان بالنسبة إليها ظاهرة وليس كائناً بشرياً، مخلوقاً ما شَرِهاً.

أجابت: (تعجبني كثيراً جداً).

سألها، متألقاً ومنتصباً بطوله فوقها وشعره المنسدر الملتمع قد انتصب: (مَنْ تحبين أكثر مِنَ الطابق الأرضي؟).

كررت وهي تبغي الإجابة عن سؤاله وقد شق عليها أن تستجمع شتات أفكارها: (مَنْ أحب أكثر؟ صراحةً، أنا لا أ دري. لا علم كافياً لديّ عنهم حتى الآن كي أستطيع القول. مَنْ تحب أنت، أكثر؟).

- (أوه، لا أحفل بهم... أنا لا أحب أو أ كره أياً منهم. ليس المهم رأيي. أردت أن أعرف رأيك أنت).

سألته، وقد امتقع لونها نوعاً ما: (لكن، ما السبب؟)... زادت البسمة الشاردة غير الواعية في عينيه.

قال: (أردت أن أعرف).

التفتت جانباً، مبطلةً السحر. لقد شعرت، على نحو ما، بأنه شرع يسيطر عليها.

---

* وردت ملاحظة الأستاذ وجواب «لوركه» بالألمانية. (المترجم).

قالت: (حسن، لا أستطيع أن أخبرك بعد).

مضت إلى المرآة لتخرج دبابيس الشعر. كانت تقف، كل ليلة، قبالة المرآة بضع دقائق، تمشط شعرها الناعم الغامق، كان ذلك جزءاً من طقوس حياتها الحتمية.

تبعها ووقف خلفها. كانت منشغلة، وهي منكفئة الرأس، بإخراج الدبابيس ونفض شعرها الدافئ كي يرخي وينبسط. وحين رفعت بصرها شاهدته في المرآة واقفاً خلفها يراقبها على نحو غير واعٍ، دون أن يراها على نحو واعٍ.. ومع ذلك كان يراقبها بعينين لطيفتي البؤبؤين بدتا مبتسمتين لكنهما لم تكونا مبتسمتين في واقع الأمر.

جفلت. استجمعت كل شجاعتها لتستمر في تمسيد شعرها بالفرشاة كالمعتاد والتظاهر بأنها مرتاحة، مطمئنة. كانت أبعد، أبعد ما تكون عن الارتياح والطمأنينة حياله. أرهقت دماغها شديداً كي تقول شيئاً ما له.

سألته دون مبالاة، في حين كان قلبها ينبض بعنف، وعيناها تلتمعان بعصبية غريبة حتى إنها أحست بأنه كان يراقبها لا محالة: (ما هي خططك ليوم غدٍ؟). إلا أنها كانت تعرف كذلك أنه كان أعمى تماماً، أعمى مثل ذئب ناظر إليها، كانت معركة غريبة بين وعيها العادي ووعيه الغريب ذي السحر الأسود.

أجاب: (لا أدري. ماذا تودين أن تفعلي؟).

تكلم خاوياً، فقد كان عقله قد غاص بعيداً.

قالت، بمعارضة طفيفة: (أوه، أنا مستعدة لأي شيء. أنا متيقنة من أن أي شيء سيكون حسناً بالنسبة إلي).

ولنفسها تحدثت: (يا إلهي، لماذا أنا عصبية هكذا؟!.... لِمَ أنتِ عصبية هكذا، أيتها الحمقاء؟ لو لاحظ ذلك، لانتهيتِ إلى أبد الآبدين... أنتِ تعرفين أنك ستنتهين إلى الأبد لو شاهد الحال السخيفة التي أنتِ عليها).

وابتسمت لنفسها كما لو كان كلُّ ذلك لعبة أطفال. وفي أثناء ذلك، كان قلبها قد أخذ يغطس. كانت على وشك الإغماء. كان في مقدورها أن تراه، في المرآة، واقفاً هناك خلفها طويلاً ومتقوساً بإفراط.. أشقرَ ومخيفاً على نحو فظيع. ألقت نظرة على منعكسه بعينين مستدقتين، وهي راغبة في أن تهب أي شيء لتوفّر عليه العلم بأن في استطاعتها رؤيته. لم يكن يعرف أن في استطاعتها أن تشاهد منعكسه. كان ينظر من علٍ بإشراق، ودون وعي، إلى رأسها الذي تهدل الشعر منه محلولاً فيما كانت تفرشه

بيد عصبية، هائجة. أمالت رأسها جانباً واستمرت تفرّش وتفرّش شعرها بجنون. ماكانت تستطيع أن تلتفت وتواجهه، حتى لو كانت حياتها متوقفة على ذلك. ما كانت تستطيع. حتى لو كانت حياتها متوقفة على ذلك، ومعرفتها تلك جعلتها تهمد إلى الأرض، تقريباً، في إغماءة، عاجزة، منهوكة القوى. كانت شاعرة بكيانه المخيف، المحدق، واقفاً خلفها... كانت شاعرة بصدره الصلد، القوي، الصامد، مخيفاً على ظهرها. وأحست بأنها لن تستطيع تحمل المزيد وأنها سوف تسقط عند قدميه في بضع دقائق تتذلّل عند قدميه وتدعه يدمرها.

أرهفت الخاطرة كل ذكائها الحاد وحضور ذهنها. لم تجرؤ أن تلتفت إليه... وهاهو ذا واقف هناك دون حراك، ودون هوادة. وإذ استجمعت كل قواها، قالت بصوت ممتلئٍ، رنانٍ، غير مبالٍ، أطلقته بكل ما تبقى لديها من سيطرة على النفس:

- (أوه، هلا نظرت إلى داخل تلك الحقيبة، إلى الخلف، وأعطيتني حاجتي...؟).

هنا خمدت قوتها، وصرخت في صمت محدثة نفسها: (ماهي؟.. ماهي؟).

بيد أنه كان قد استدار، وقد أدهشه وأفزعه طلبها منه أن ينظر إلى داخل الحقيبة، وهي التي كانت دائماً تحتفظ بما يخصها لنفسها إلى أبعد الحدود. التفتت، وقد غدا وجهها الآن شاحباً، وعيناها الغامقتان مضطربتين بانفعال غريب مرهق. رأته ينحني صوب الحقيبة ويفك إبزيم سيرها الموصد بلا إحكام، دون انتباه. سألها: (ماهي حاجتك؟).

- (أوه، علبة صغيرة من الميناء... صفراء.. مرسوم عليها طائرُ غاقٍ ينقر صدره...).

توجهت نحوه، مثنية ذراعها الجميل العاري، وقلبت بعض أشيائها برشاقة، وأخرجت العلبة ذات التلوين الرائع.

قالت: (انظر، هي ذي)، وأخذتها من تحت عينيه.

تحيّر الآن.. وتُركَ ليسد الحقيبة، في حين كانت تسرح شعرها سريعاً لفترة الليل، وتقعد لفكّ رباط الحذاء. لن تدير ظهرها إليه بعد الآن.

كان متحيراً، محبطاً، لكنه غير واعٍ. لقد آلت السيطرة إليها الآن. فقد عرفت أنه لم يلحظ ارتياعها الفظيع. كان قلبها لا يزال ينبض هائجاً، ما أحمقَها، ما أحمقَها، إذ

بلغت مثلَ هذه الحال! كم حمدت الله لعمي «جرالد» الكليل. شكراً لله على عجز «جرالد» عن رؤية أي شيء.

جلست تفك رباط حذائها بتأنٍ وشرع هو الآخر يخلع ثيابه. شكراً لله على انتهاء الأزمة. شعرت بأنها كادت الآن أن تكون مشغوفة به أو لعلها قد عشقته.

قالت ضاحكة، ملاطفةً، مكايدة: (آه يا «جرالد»، آه، ما ألطف اللعبة التي لعبتَ مع ابنة الأستاذ... قل، الآن، إنك لم تفعل ذلك؟).

سألها وهو يتلفت حواليه: (أية لعبة؟).

قالت «غدرون» وهي في أسعد مزاج وأفتنه: (أليست هي مغرمة بك؟ ياللعجب، أليست هي مغرمة بك!).

قال: (أفترض غير ذلك).

كايدته قائلة: (تفترض غير ذلك! مابالك؟.. إن الفتاة المسكينة مستلقية في هذه اللحظة وقد أضناها الوجد.... إنها تموت في حبك، وتعتقد بأنك مدهش... أوه رائع... بما يفوق أيّ حدٍّ بلغه أي رجل في يوم من الأيام. أليس هذا مضحكاً، في الحقيقة؟..).

قال: (مضحك؟.. ماهو المضحك).

قالت على نحو شبه لائم حيّر غرور الذكر فيه: (غريب! مشاهدتك تحاول التأثير فيها... لا ريب، يا «جرالد» إن الفتاة المسكينة...).

قال: (لم أفعل أي شيء لها).

- (أوه، كان ذلك جد شائن... الطريقة التي اكتسحتها بها اكتساحاً في الهواء بكل بساطة).

أجاب مبتسماً ابتسامة عريضة: (تلك كانت رقصة «شوويلاتن»). فضحكت «غدرون» : (ها... ها... ها!).

ارتدّت سخريتها عبر عضلاته بأصداء غريبة. وحين نام، بدا جاثماً في الفراش، منطوياً على قوته، التي كانت خاوية حتى تلك البرهة.

ونامت «غدرون» نوماً قوياً، نوماً منتصراً. وعلى حين غرة، استيقظت استيقاظاً يكاد يكون عنيفاً. كانت الغرفة الصغيرة الخشبية قد تألقت بالفجر، الذي لاح صاعداً

من النافذة الواطئة. وحين رفعت رأسها استطاعت أن ترى أسفل الوادي: الثلوج بسحرها شبه المرئي والضارب إلى اللون الوردي، وهداب أشجار الصنوبر في قاع المنحدر... وثمة شيء ما صغير جداً يتحرك فوق الفضاء المضاء بغموض.

ألقت نظرة على ساعته: كانت السابعة. كان لا يزال مستغرقاً في النوم وكانت هي مستيقظة كل الاستيقاظ إلى درجة تكاد تكون مخيفة... يقظة، صلبة، صعبة، لبثت مستلقية تنظر إليه.

كان نائماً تحت وطأة صحته وهزيمته. استبد بها شعور بالاهتمام الصادق حياله. حتى الآن، كانت تخاف حضوره. لبثت مضطجعة تفكر فيه... ماكان، وماذا كان يمثل في العالم؟ كان يمتلك إرادة رائعة، مستقلة، فكرت في الثورة التي كان قد أحدثها في المناجم، في فترة ما أقصرها. كانت تعرف إنه إذا ما واجهته أية مشكلة، أية صعوبة حقيقية عسيرة، فسيتغلب عليها، وإذا ما خطرت له أية فكرة فسينفذها حتى الختام. كان يملك القدرة على خلق النظام من الفوضى. أُتحْ له أن يمسك بزمام موقف ما، حسب، يختمْهُ حتماً.

وعلى امتداد لحظات قليلات، نأت محمولة على أجنحة الطموح الجامحة. فـ«جرالد»، بقوة إرادته وقدرته على فهم الدنيا الواقعية، ينبغي أن يُطْلَقَ لحلّ مشاكل اليوم، مشكلة تغليب الصناعة على غيرها في العالم الحديث. كانت تعرف أنه سيحدث التغييرات التي يرغب فيها، بمرور الوقت، وأنه يستطيع أن يعيد تنظيم النظام الصناعي. كانت تعلم بأنه قادر على ذلك. كان مدهشاً وهو يلعب دور الوساطة في هذه الأمور، إذ لم تكن قد رأت قط رجلاً له مثل إمكاناته. كان غير عالم بهذه الإمكانات، لكنها كانت على علم بذلك.

لم يكن يحتاج إلاّ إلى إيصال كي يمضي.. كان في حاجة إلى أن توضع يده على المهمة. ذلك لأنه كان غيرَ دارٍ، وهذا ماكانت هي تستطيع أن تفعله. في وسعها أن تتزوجه، فيذهب إلى (البرلمان) لمصلحة (حزب المحافظين). فيصفّي الفوضى الكبيرة في صفوف العمال والصناعة. كان جسوراً على نحو رائع، أستاذاً مسيطراً. كان يعلم أن كل مشكلة لها حل في الحياة كما في علم الهندسة... ولن يهتم لا بنفسه ولا بأي شيء آخر سوى العمل على حل المشكلة. كان خالصاً جداً في الحقيقة.

تسارع نبض قلبها، وطارت على أجنحة الفرح، متخيلةً مستقبلاً. سيكون «نابليوناً» للسلام أو «بسماركاً»... وهي الامرأة التي تسنده. كانت قد قرأت رسائل «بسمارك» وتأثرت بها كثيراً. ولسوف يكون «جرالد» أكثر حرية وأكثر جرأة من «بسمارك».

لكنْ حتى أثناء استلقائها في نشوة خيالية، سابحة في شعاع شمس غريب زائف من الأمل في الحياة، بدا أن شيئاً ما قد فرقع فيها، وشرع تشاؤم فظيع يتملكها، يعصف بها كالريح، استحال كل شيء فيها إلى مفارقة وغدت النكهة الأخيرة لكل شيء سخرية ساخرة، وحين كانت تحس بتباريح الواقع الذي لا يمكن نكرانه، كان ذاك إيذاناً بمعرفتها المفارقة القاسية التي تَسِمُ الآمال والخواطر.

ظلت مستلقية، تنظر إليه فيما كان نائماً. لقد كان جميلاً جمالاً محضاً. كان أداة كاملة. وبالنسبة إليها، كان أداة خالصة، لا بشرية، تكاد أن تكون أداة فائقة البشرية. كانت سمة الأداة فيه تستهويها أيما استهواء، فتمنت لو كانت هي الرب فتستخدمه أداةً.

وفي اللحظة ذاتها، جاء السؤال الساخر: (من أجل ماذا؟). فكرت في زوجات عمال المناجم، ومشمع أرضياتهن وستائرهن المصنوعة من الدانتيل البائس، وبناتهن الصغيرات بجزمهن ذوات الأربطة العالية، فكرت بزوجات مديري المناجم وبناتهن، وزمرهن في لعبة التنس، وفي صراعاتهن الفظيعة في سبيل التفوق، بعضهن على بعض، في السلم الاجتماعي، ثم هناك (شورتلاندز) بتميزها الذي لا معنى له، وجماعة آل «كريتش» السخيفة، ثم هناك لندن، و(مجلس العموم)، والعالم الاجتماعي القائم يا إلهي!..

لقد تحسست «غدرون» نبض المجتمع الإنكليزي برمته، على الرغم من صغر سنها. لم تكن لديها أية أفكار عن العلو في الدنيا، كانت تعرف، بكل لوذعية الشباب القاسي.، أن العلو في الدنيا معناه استبدال عرض خارجي بآخر، وكأن التقدم مثل حيازة نصف ريال زائف بدل قرش زائف. كلُّ عملة التسعير والتثمين زائفة، ومع هذا، وبلا شك، إن لوذعيتها كانت على علم كافٍ بأن عالماً يسود فيه النقد الزائف فإن جنيهاً زائفاً فيه خير من فلس زائف. إلا أنها كانت تحتقر الاثنين على السواء، الأغنياء والفقراء.

هاهي ذي قد سخرت من نفسها بسبب أحلامها. كان يمكن تحقيقها بشيء من السهولة، بيد أنها كانت تعترف تماماً، في نفسها، بزيف دوافعها الذاتية. ما الذي كان يهمها، أن يخلق «جرالد» صناعة مجزية تماماً من مشروع متهرئ بال؟.. ما الذي كان يهمها؟ فالمشروع البالي والصناعة السريعة المنظمة تنظيماً رائعاً كلاهما عملة زائفة، ومع ذلك كانت شديدة الاهتمام ظاهرياً... والظاهر كان كل ما يهم، إذ إن الباطن كان نكتة رديئة.

كان كل شيء في نظرها قطعة من السخرية من حيث الجوهر. مالت على «جرالد» وقالت في سرها، حانية:

ـ (آه يا عزيزي، يا عزيزي... إن اللعبة لا تستحق حتى شخصك. إنك شيء لطيف حقاً... لِمَ يتعين استخدامك في مثل هذا العرض الرديء!).

كان فؤادها متحطماً شفقةً وحزناً عليه. وفي اللحظة ذاتها، بانت تكشيرة على فمها، تكشيرة سخرية مزدرية على خطبتها العنيفة، غير الملقاة.

آه، أية مهزلة كانت! فكرت في «پارنل» و«كاترين أوشيا»*. «پارنل»! على أية حال، من يستطيع أن يأخذ تأميم إيرلندة مأخذ الجد؟ من يستطيع أن يأخذ إيرلندة السياسية مأخذ الجد فعلاً مهما فعلت؟ ومن يستطيع أن يأخذ إنكلترة السياسية مأخذ الجد؟ من؟ من يمكنه أن يهتم مقدار ذرة فعلاً بالكيفية التي يتم بها المزيد من التلاعب على غير طائل بالدستور القديم المرقع؟ من يهتم مقدار ذرة بأفكارنا القومية أكثر من الاهتمام بقبعتنا المستديرة السوداء القومية؟**؟.. اها... الكل قبعة قديمة***، قبعة مستديرة سوداء عتيقة!.

هذا كل مافي الأمر يا «جرالد» يا بطلي اليافع، على أية حال، إننا سنوفر على أنفسنا كراهة تقليب المرق العتيق**** من الآن فصاعداً، كن جميلاً وطائشاً يا «جرالدي».

---

* من دعاة القومية الإيرلندية في أواخر القرن التاسع عشر. وقد انهارت سمعة «پارنل» السياسية بعد إدانته بصفته المتهم الثاني في دعوى الطلاق التي أقامها النقيب «أوشيا» على زوجته «كاترين». (المترجم).

** القبعة التي يرتديها السيد المهذب (الجنتلمان) الإنكليزي عادة، (المترجم).

*** كناية عن الطراز العتيق. (المترجم).

**** بمعنى: إثارة المسائل التي عفا عليها الزمن. (المترجم).

إن هناك لحظات رائعة. استيقظ، يا «جرالد»، استيقظ، أقنعني باللحظات الرائعة. أوه، أقنعني فأنا بحاجة إلى ذلك.

فتح عينيه، ونظر إليها. حيته ببسمة ساخرة، غامضة، احتوت بهجة مثيرة، وعلى وجهه بان منعكس الابتسامة. ابتسم هو الآخر، بلا وعي البتة.

امتلأت فرحاً غامراً لمشاهدة البسمة تلوح على وجهه، منعكسة من وجهها. تذكرت أن هذه هي الكيفية التي يبتسم بها الطفل، فامتلأت بهجةً غامرة مشرقة.

قالت: (لقد فعلتها). سألها دائخاً: (ماذا؟).

- (أقنَعْتَني).

وانحنت تقبله بعاطفة مشبوبة، مشبوبة، بحيث أصابته الدهشة. لم يسألها بماذا كان قد أقنعها وإن انتوى ذلك. سعد بتقبيلها إياه. بدت متلمسة قلبه ذاته كي تثيره في الصميم، وكان يريد منها أن تمس صميم كيانه، كان يريد ذلك أكثر من أي شيء آخر.

في الخارج، كان أحدهم يغني بالألمانية، بصوت رجولي منفلت لطيف:

هيِّئي لي، هيِّئي لي أنتِ، أيتها الفخور،

وأشعلي ناراً من خشب،

لأن المطر قد بللني، لأن المطر قد بللني*.

كانت «غدرون» تعرف أن تلك الأغنية ستتردد في سرمديتها هي، مُنْشَدَةً بصوت رجولي، منفلت، ساخر. كانت مَعْلَمَاً لإحدى لحظاتها الرائعة، التباريح الرائعة لرضاها النفسي. وهاهي ذي، قد تثبتت إلى الأبد من أجلها.

حل النهار لطيفاً، ضارباً إلى الزرقة. كانت هناك ريح خفيفة تهب بين ذرى الجبال، بتّارة مثل سيف ذي حدين حيثما لمست، حاملة غباراً رقيقاً من نثار الثلج معها. خرج «جرالد» بوجه لطيف أعشى لرجل في حالة إشباع. كان هو و«غدرون» في وحدة كاملة مستقرة، هذا الصباح، لكن دون رؤية ولا دراية. خرجا في مزلقة، تاركين «أرسيولا» و «بركن» ليلحقاهما.

* وردت كلمات الأغنية بالألمانية. (المترجم).

كانت ملابس «غدرون» كلها قرمزية وزرقاء ملكية*: قميص محاك قرمزي وقلنسوة، وتنورة وجوربان باللون الأزرق الملكي. مضت جذلة على الثلج الأبيض، و«جرالد» بجانبها، بالأبيض والرمادي، ساحباً المزلقة الصغيرة. ظهرا صغيرين في مبعدة الثلج، وهما يرتقيان السفح شديد الانحدار.

أما بالنسبة إلى «غدرون» فإنها بدت والجةً ولوجاً كلياً في بياض الثلوج، واصبحت بلورة خالصة عديمة التفكير. وحين بلغت ذروة المنحدر، في مهب الريح، نظرت إلى ما حولها وشاهدت قمةً إثر قمة من الصخر والثلج، مزرقة شامخة إلى السماء. بدا ذلك لها مثل حديقة، ورودها النقية هي الذرى وقلب «غدرون» قاطفها. لم يكن لديها وعي منفصل إزاء «جرالد».

تشبثت به فيما كانا ينحرفان هبوطاً فوق المنحدر الشديد الميلان، شعرت وكأن أحاسيسها كان يجري شحذها على حجر رحى دقيق، قاطع كاللهب. كان الثلج يمرق من الجانبين، مثل شرارات تنبعث من نصلٍ جارٍ شحذُهُ، وتراكضَ البياضُ في ما حولها أسرع فأسرع. وفي شعلة خالصة، انطلق المنحدر الأبيض عكس اتجاهها، فانصهرت مثل كرية راقصة مذابة، مندفعة عبر كثافة بيضاء. ثم كان هناك منعطف شديد في القاع، حيث انحرفا، تقريباً، في سقطة على الأرض خلال الحركة المتلاشية.

بلغا مرحلة السكون، لكن حين نهضت على قدميها، لم تستطع أن تقف. أطلقت صرخة غريبة، واستدارت وتشبثت به، مُغْرِقةً رأسها في صدره، وغابت عن الوعي فيه. أصابها النسيان التام فيما كانت تستريح بضع لحظات مخذولة لصقه.

قال: (ما الخبر؟ هل تعبتِ أكثر مما يجب؟).

بيد أنها لم تسمع شيئاً.

حين استعادت وعيها نهضت وألقت نظرة على ما حولها، مندهشة. كان وجهها شاحباً، وعيناها واسعتين، ملتمعتين.

كرر القول: (ما الخبر؟ هل تكدرت؟).

نظرت إليه بعينيها البراقتين اللتين بدتا متغيرتي الشكل، وضحكت بمرح فظيع.

---

* الأزرق الملكي: أزرق ضارب إلى الأرجواني. (المترجم).

هتفت بفرح منتصر: (كلا.. كانت تلك اللحظة الكاملة في حياتي).

ورمقته بنظرة رافقتها ضحكتها الباهرة، المفرطة، مثل شخص ممسوس. بدا أن نصلاً مرهفاً ولج قلبه، بيد أنه لم يبال أو يهتم أدنى اهتمام.

بيد أنهما صعدا المنحدر ثانية وانطلقا كالطير نزولاً عبر اللهب الأبيض، ثانية على نحو رائع، رائع. كانت «غدرون» تضحك وتلتمع وقد انتثرت عليها بلورات الثلج. أما «جرالد» فكان مُجيداً في عمله. لقد شعر بأن في مقدوره توجيه المزلقة بكل دقة حتى كاد أن يكون في استطاعته أن يجعلها تخترق الهواء وتتوسط كبد السماء تماماً.. بدا له أن المزلقة الطائرة لم تكن سوى قوته منشورةً وما عليه إلا أن يحرك ذراعيه، فتغدو الحركة ملك يمينه. جالا في المنحدرات العظيمة نشداناً لمنزلق آخر. لقد شعر بأنه لابد أن يكون هناك شيءٌ خيرٌ مما كانا قد عرفا. ولقي ما رغب فيه: امتداداً كاملاً، طويلاً، شديداً، ينحرف مجتازاً قاعدة إحدى الصخور ومخترقاً الأشجار التي في القاعدة. كان يعرف أنه خَطِر لكنه كان يعرف كذلك أنه سوف يوجّه المزلقة بيسر بين أصابعه. مرت الأيام الأولى في نشوة من الحركة البدنية: ركوب مركبات الجليد، التزلج، والتزحلق... الانطلاق في سرعة شديدة وفي غمرة من الضوء الأبيض فاقت الحياة ذاتها، وحملت أرواح الكائنات البشرية إلى البعيد... في تجريد لا بشري للسرعة والوزن والثلج الأبدي المنجمد.

صارت عينا «جرالد» نفاذتين، غريبتين، وإذ انطلق على مزلاجيتيه غدا أشبه بتنهيدة قوية مصيرية منه برجل، وعضلاته مطاطية في مسار كامل شاهق، وبدنه ناتئاً في تحليق خالص، لا عقلاني، لا روح له، مارقاً في خط متكامل من القوة.

ومن حسن الحظ أنْ حلَّ يوم سقط فيه الثلج مما أرغم الجميع على البقاء داخل المساكن: ولو لم يحدث ذلك، كما قال «بركن» لكانوا سيفقدون قدراتهم جميعاً، ويشرعون في التخاطب بالصيحات والصرخات، مثل أنواع غريبة مجهولة من المخلوقات الثلجية.

صادف عصر ذلك اليوم أن جلست «أرسيولا» في قاعة الملتقى تتحدث إلى «لوركه». كان الأخير قد بدا تعيساً في الأيام الأخيرة. إلا أنه كان زاخراً بالحيوية والمرح الخبيث، كالمعتاد.

بيد أن «أرسيولا» اعتقدت بأنه متجهم جراء شيء آخر. كذلك كان رفيقه الضخم الوسيم، الأشقر، غير مرتاح، يروح ويجيء كأنه يخص لاشيء، ومحتَجَزٌ في مذلة ما، كان ثائراً عليها.

لم يتحدث «لوركه» إلى «غدرون» إلا نادراً جداً. إلا أن زميله، من الناحية الأخرى، كان دائماً يبدي بها اهتماماً رقيقاً، مفرط التبجيل. كانت «غدرون» تود التحدث إلى «لوركه». كان نحاتاً، فأرادت أن تسمع رأيه في فنه، ثم إن شكله قد جذبها، هناك مظهر المتشرد الصغير فيه قد فتنها، ومظهر الرجل الكهل قد أثار اهتمامها. وهناك، بالإضافة إلى ذلك، تفرد غير طبيعي، صفة الانفراد بالنفس وعدم الاتصال بأي أحد آخر، أبرزت سمة الفنان فيه بالنسبة إليها، كان ثرثاراً، مهذاراً، منشئاً لمداعبات عملية سمجة، كانت بارعة جداً أحياناً، ولم تكن كذلك في أغلب الأحيان. كان في إمكانها أن تلمح في عينيه البنيتين، الشبيهتين بعيني القزم الخرافي، المظهر المعتم لبؤس لا عضوي اتسمت به كل تهريجاته الصغيرة.

لقد أثار شكله اهتمامها.. شكل صبي، يكاد يكون من المتشردين، لم يحاول أن يخفيه، كان يرتدي دائماً بدلة بسيطة رمادية اللون، سروالها قصير حتى الركبة، كانت ساقاه نحيلتين، ولم يحاول إخفاء الحقيقة: وهذا، بحد ذاته، شيء ملفت للنظر بالنسبة إلى ألماني. كما أنه لم يَسْعَ قط ليفوز بالحظوة هنا أو هناك، البتة، بل كان يعتزل الناس على الرغم من مرحه الظاهري.

أما «لايتنر» رفيقه، فكان رياضيّاً كبيراً، وسيماً جداً، بأطرافه الضخمة وعينيه الزرقاوين. كان من عادة «لوركه» أن يخرج لركوب المزلقة أو التزلج فتراتٍ قِصاراً، لكنه كان غير معني بذلك. كان منخراه الدقيقان، الرقيقان، اللذان يشبهان منخري متشرد أصيل، يرتعشان إزدراءً بعروض «لايتنر» الرياضية. كان من الواضح أن الرجلين اللذين كانا قد سافرا وعاشا معاً، متشاركَيْن في غرفة نومٍ واحدة، قد بلغا الآن مرحلة التنافر. لقد كره «لايتنر» «لوركه» كرهاً مُهاناً، متلوياً، عقيماً، وتعامل «لوركه» مع «لايتنر» بازدراء واحتقار مرهف الارتعاش. لابد لهما أن يفترقا عن قريب.

لقد ندر اجتماعهما معاً فعلاً. كان «لايتنر» ينطلق مرتبطاً بهذا أو ذاك، دائم

المراعاة للغير، في حين كان «لوركه» وحيداً في أغلب الأحيان. كان يرتدي، في العراء، قلنسوة مصنوعة في (وستفاليا)*، وغطاء رأس ضيقاً بنياً مخملياً ذا حاشيتين كبيرتين بنيتين من القطيفة متدليتين فوق أذنيه، كأنه، في مظهره، أرنب مبتور الأذنين أو قزم خرافي. كان وجهه أحمرَ ضارباً إلى السمرة، ذا بشرة جافة لماعة بدت كأنها تتغضن بتعابير وجهه المتقلبة. كانت عيناه ملفتتين للنظر... بنيتي اللون، منتفختين كعيني أرنب، أو عيني قزم خرافي، أو مثل عيني كائن ضائع، لهما مظهر غريب، أخرس، محروم من المعرفة، وشرارة سريعة من نار خارقة للطبيعة. وكلما حاولت «غدرون» التكلم معه، كان يتحاشاها على نحو غير مسؤول، ناظراً إليها بعينين متربصتين دكناوين، لكن دون أن يقيم أية علاقة معها. لقد جعلها تشعر بأن فرنسيتها البطيئة، وألمانيتها الأبطأ، كانتا كريهتين بالنسبة إليه، أما بشأن إنكليزيته هو، الكسيحة، فكان أكثر ارتباكاً من أن يحاولها أصلاً. بيد أنه كان يفهم الكثير مما كان يقال، على الرغم من ذلك، فتركته «غدرون» وشأنه، مستاءة.

ومع ذلك ذهبت إلى قاعة الاستراحة عصر ذلك اليوم فيما كان يتحدث إلى «أرسيولا». لقد ذكّرها شعره الأسود الناعم، على نحو ما، بخفاش، إذ تفرّق خفيفاً على كامل رأسه ذي المظهر الحساس، وبلي عند الصدغين، جلس متكوراً كأن روحه كالخفاش. كان في استطاعة «غدرون» أن ترى أنه كان يسر «أرسيولا» على نحو بطيء، دونما رغبة... يسرها ببوح ذاتي بطيء طفيف، شاك. مضت وجلست بجانب أختها.

ألقى نظرة إليها، ثم عاد فأشاح، كأنه لم يلحظها، لكنها، في واقع الحال، أثارت اهتمامه كثيراً.

قالت «أرسيولا» ملتفتة إلى أختها: (أليس ممتعاً يا «خوخة»... أن يقوم السيد «لوركه» بعمل طُنُف** ضخم لأحد المعامل في مدينة (كولون). وجهه إلى الخارج، إلى الشارع؟).

نظرت إليه... إلى يديه النحيلتين، السمراوين، العصبيتين اللتين كانتا مهيأتين للإمساك، والشبيهتين، بالمخالب، كالبراثن*** لا تخصان البشر.

---

* إقليم غرب ألمانيا. (المترجم).

** الطنف (في العمارة): أو الإفريز: طوق من النحت أو الديكور يحيط بأعلى البناء أو الحائط. (المترجم).

*** وردت كلمة (البراثن) بالفرنسية. (المترجم).

سألته: (بماذا؟).

وكررت «أرسيولا» السؤال بالألمانية: (بماذا؟).

أجاب: (بحجر الصوان).

غدت المحادثة فجأة سلسلة مقتضبة من أسئلة وأجوبة بين رفاق حرفيين.

سألته «غدرون»: (ما نوع البروز؟).

- (مرتفع البروز)*.

- (وعلى أي ارتفاع؟).

كان من الممتع جداً بالنسبة إلى «غدرون» أن تتصور قيامه بصنع طنف الصوان الضخم لمعمل صوان ضخم في مدينة (كولون). ظفرت منه بفكرة عن التصميم. كان يمثل مهرجاناً ريفياً، فيه فلاحون وصناع مهرة يلهون ويعربدون وهم سكارى ومضحكون في لباسهم العصري، يدورون في دوامات على نحو سخيف ويحدقون إلى العروض، فاغري الأفواه، ويتبادلون القبلات ويترنحون ويتدحرجون في مجاميع ويتأرجحون في زوارق هزازة، ويطلقون النار من منصات الإطلاق. كان عبارة عن فوضى مجنونة من الحركات.

دار نقاش سريع في التقنيات. وأعجبت «غدرون» أيما إعجاب.

هتفت «أرسيولا» : (كم هو مدهش، أن يكون هناك مثل هذا المعمل! على أن البناية بمجملها لطيفة؟).

أجاب: (نعم. إن الطنف عبارة عن جزء من كامل التشكيل المعماري. نعم، إنه شيء هائل).

بدا متماسكاً، وهز كتفيه ثم واصل:

- (يجب أن يسير النحت والعمارة جنباً إلى جنب. إن عصر التماثيل اللا عقلانية، وكذلك الصور الجدارية، قد ولّى. إن النحت، في واقع الأمر، هودائماً جزء من مفهوم معماري. ومادامت الكنائس كلها عبارة عن متاحف، وبما أن الصناعة هي شغلنا حالياً، فلنجعل إذاً أماكن الصناعة الخاصة بنا فننا... لنجعل مصنعنا (بارثينوننا)، انظرو!)**.

---

* قالها بالإيطالية. (المترجم).

** (البارثينون) : هيكل الآلهة «أثينا» على جبل «أكروبوليس» في مدينة أثينا. ونطق «لوركه» كلمة (انظروا) بالإيطالية. (المترجم).

فكرت «أرسيولا» ملياً.

قالت: (أحسب أن لا لزوم لمعاملنا العظيمة أن تكون على هذا القدر من القبح).

وفي الحال تفجرت فيه الحركة.

هتف: (ها أنت ذا قد تفوهت بها! ها أنت قد تفوهت بها. ليس ثمة لزوم قط لأماكن شغلنا أن تكون قبيحة، لكن قبحها يتلف العمل في النهاية. فلن يستمر الرجال في التسليم بمثل ذلك القبح الذي لا يحتمل. وفي النهاية سيكون ضرره مفرطاً، وسيذوون جراء ذلك. وهذا سيضر بالعمل كذلك. وسيعتقدون أن العمل نفسه قبيح: المكائن وفعل الشغل نفسه. في حين أن المكائن وأفعال الشغل جميلة للغاية، وعلى نحو يبعث على الجنون. بيد أن هذه ستكون نهاية مدنيتنا، حين لن يقبل الناس على العمل لأن العمل قد غدا لا تتحمله مشاعرهم، مثيراً نفورهم على نحو مفرط، مما يجعلهم يفضلون المجاعة. عند ذاك سوف نرى المطرقة وقد اقتصر استخدامها على التحطيم... لسوف نرى ذلك عندئذٍ. ومع ذلك هانحن، تتاح لنا الفرصة لإنشاء مصانع جميلة، مبان جميلة للمكائن... لدينا الفرصة السانحة لذلك...).

لم تستطع «غدرون» إلا أن تفهم كلامه فهماً جزئياً. كان من الممكن أن تبكي غيظاً.

سألت «أرسيولا»: (ماذا يقول؟).. وترجمت «أرسيولا» مغمغمة وموجزة. راقب «لوركه» وجه «غدرون» ليرى حكمها.

قالت «غدرون» : (وهل تعتقد، إذاً، أن الفن يجب أن يخدم الصناعة؟)..

قال: (يجب على الفن أن يفسر الصناعة، كما فسر الفن الدينَ من قبل).

سألته: (لكن هل يفسر مهرجانك الريفي الصناعة؟).

- (من المؤكد. ما الذي يفعله الإنسان في مثل هذا المهرجان؟ إنه يؤدي نظير العمل... فالآلة تشغّله، بدل أن يشغّل هو الآلة. إنه يتمتع بالحركة الآلية في بدنه نفسه).

قالت «غدرون»: (لكن، هل هناك لا شيء غير العمل.. العمل الآلي؟). كرر وهو يميل إلى أمام، وعيناه عبارة عن عتمتين، فيهما ثقبا إبرة من الضوء: (لاشيء غير العمل! كلا... لا شيء غير هذا... إما خدمة الآلة، أو التمتع بحركة الآلة...

الحركة... هذا كل مافي الأمر، أنت لم تشتغلي إتقاءً للجوع قط، وإلا لعرفتِ أي إله يحكمنا).

ارتعشت «غدرون» واحتقن وجهها. لقد كادت أن تذرف الدمع، لسبب ما.

أجابت: (كلا، لم أشتغل بسبب الجوع... لكنني قد اشتغلت!).

تساءل: (اشتغلت... عملت... وأي عمل... أي عمل... أي عمل قمت به؟)*.

هكذا انطلق بخليط من الإيطالية والفرنسية، مستخدماً لغة أجنبية غريزياً حين كان يتحدث إليها.

قال لها ساخراً: (أنتِ لم تعملي قط كما يعمل الخَلْقُ).

قالت: (بلى، قد فعلت، ولا أزال... إني أعمل الآن من أجل قوتي اليومي).

توقف، وأطال النظر إليها، ثم نفض يديه عن الموضوع كلياً، بدت له وكأنها تعبث.

سألته «أرسيولا»: (لكن هل عملت أنتَ يوماً كما يعمل الخلق؟).

نظر إليها مرتاباً.

أجاب بنبحة فظة: (نعم، قد عرفت ما يعني الهجوع في الفراش ثلاثة أيام لأنني لم أكن أملك أي شيء آكله).

كانت «غدرون» تنظر إليه بعينين واسعتين رزينتين بدتا كأنهما تستخلصان الاعتراف منه كاستخلاص النخاع من العظام. كانت طبيعته برمتها تثنيه عن الاعتراف. ومع ذلك بدا أن عينيها الواسعتين الرزينتين كانتا تفتحان صماماً ما في عروقه فطفق يتكلم على نحو لا إرادي:

- (كان أبي رجلاً لا يحب العمل، وكنا محرومين من الأم، كنا نعيش في النمسا، النمسا البولندية**. كيف كنا نعيش؟.. ها!.. على نحو ما!.. غالباً في غرفة واحدة مع ثلاث عوائل أخرى.. كل عائلة في ركن.. والمرحاض في وسط الغرفة... وعاء فوقه لوح.. ها! كان لي أخوان وأخت... وقد تصحب أبي امرأة. كان كائناً متحرراً،

---

* جاء كلامه هذا بالفرنسية والإيطالية معاً. (المترجم).

** كان الجزء الغربي من بولندا قسماً من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية (من نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى). (المترجم).

على طريقته، مستعداً لمقاتلة أي رجل في البلدة.. وكانت هذه موقعاً لحامية عسكرية.. كان رجلاً ضئيلَ الحجم أيضاً. لكنه لم يكن ليعمل لأي شخص.. مصمماً على الرفض، راغباً عن العمل).

سألته «أرسيولا» : (وكيف كنتم تعيشون، إذاً؟).

نظر إليها.. ثم إلى «غدرون» فجأة.

تساءل: (هل تفهمين؟).

أجابت: (بما فيه الكفاية).

تلاقت أعينهما لحظة.. ثم أشاح ببصره، ولم يزد قولاً.

سألته «أرسيولا» : (وكيف أصبحت نحاتاً؟).

ـ (كيف أصبحتُ أنا نحاتاً...). توقف. (حسن...)*. استأنف كلامه بطريقة مختلفة، مبتدئاً بالتحدث بالفرنسية: (... كبرت إلى حد ما... اعتدت السرقة من السوق، بعد ذلك صرت أعمل... أدمغ الختم على القناني الطينية قبل أن تفخر. كان معملاً للقناني الفخارية، هناك شرعت في عمل النماذج. وفي أحد الأيام ضقت ذرعاً. استلقيت في أشعة الشمس ولم أذهب للعمل، بعدها سرت إلى (ميونيخ).. ثم سرت إلى إيطاليا... أشحذ، أشحذ كل شيء.

(كان الإيطاليون كرماء جداً إزائي... محسنين، شرفاء إزائي. من (بوزن) إلى (روما) كنت أظفر كل ليلة تقريباً بوجبة طعام وفراش، ربما من القش، عند أحد الفلاحين. أنا أحب الشعب الإيطالي من كل قلبي.

حسن، والآن** الآن أنا أكسب ألف باون في السنة، أو ألفين).

خفض بصره صوب الأرض، وتناهى صوته إلى صمت.

نظرت «غدرون» إلى بشرته الناعمة الرقيقة اللماعة التي لوحتها الشمس فغدت بنية اللون ضاربة إلى الحمرة، والتي انْشَدَّتْ على الصدغين الممتلئين، وإلى شعره الخفيف... وإلى شاربه الكثيف الخشن كالفرشاة والقصير القصة فوق فمه المتحرك الذي يكاد أن يكون لا شكل له..

---

* قال (حسن) بالإيطالية . (المترجم) .

** نطق (حسن) بالإيطالية ، (الآن) بالإيطالية ثم بالفرنسية . (المترجم) .

سألته: (كم عمرك؟).

تطلع إ ليها بعينين منتفختين متخابثتين، وقد فوجئ.

كرر: (كم العمر؟)*، ثم تردد. كان من الواضح أن ذلك من مكتوماته...

ردد، دون إجابة: (كم عمرك أنت؟).

أجابت: (أبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً).

كرر، منعماً النظر في عينيها: (ستة وعشرين)، توقف ثم قال:

ـ (والسيد زوجك، كم عمره؟)**

سألته «غدرون»: (من؟).

قالت «أرسيولا» بشيء من السخرية: (زوجك).

قالت «غدرون» بالإنكليزية: (ليس عندي زوج)، (وبالألمانية) أجابت:

ـ (عمره واحد وثلاثون).

إلا أن «لوركه» كان يراقبها عن كثب، بعينيه الغريبتين، المنتفختين، المرتابتين. كان في «غدرون» شيء ما بدا أنه كان ينسجم معه. في الحقيقة مثل أحد «الأقزام» عديمي الروح، الذي عثر على قرينته في شخص إحدى الكائنات البشرية. لكنه عانى في اكتشافه. لقد فتنت به هي الأخرى، فتنت به كأن مخلوقاً غريباً ما، أرنباً أو خفاشاً أو فقمة بنية اللون، قد شرع يتحدث إليها. إلا أنها كانت تعلم كذلك مالم يكن لديه علم به: قدرته العظيمة على الفهم، على إدراك حركتها الحية. لم يكن على علم بقوته الشخصية. لم يدر كيف أن بمقدوره، بعينيه المنتفختين الغارقتين الراصدتين، أن يتفرس في دخيلتها ويراها ـ يرى ماكانت، يستكشف أسرارها. ماكان يبغي منها سوى أن تكون على سجيتها... كان يعرفها حقاً، معرفة تتجاوز الوعي، منحوسة، خالية من الأوهام والآمال.

كان في «لوركه»، في نظر «غدرون»، حضيض الحياة برمتها. كل امرئ سواه كان لديه وهمه، لابد أن يكون لديه وهمه، من قبل ومن بعد. لكنه وبـ «رواقية»*** تامة،

---

* نطق السؤال بالألمانية. (المترجم).

** نطق السؤال بالألمانية. (المترجم).

*** الرواقية: مذهب فلسفي أنشأه «زينو» أو «زينون» الفيلسوف الإغريقي الذي عاش حوالي (٣٠٠ ـ ٤٠٠ قبل الميلاد). ومفاد المذهب أن على الرجل الحكيم أن يتحرر من الانفعال وألا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع لحكم الضرورة القاهرة بلا تذمر. (المترجم).

تخلّى عما قبل ومابعد جميعاً، واستغنى عن كل وهم. لم يخدع نفسه في المقام الأخير. لم يهتم بأي شيء في آخر المطاف، ولم يزعجه أي شيء، ولم يحاول البتة أن يتوافق مع أي شيء، لقد عاش إرادة خالصة، غير مرتبطة.... رواقية وآنية، لم يكن عنده غير عمله.

كذلك كان من الغريب كيف أن فقره وانحطاط مراحل حياته الأولى قد استهوياها. كانت ثمة تفاهة وقلة ذوق برأيها في فكرة السيد المهذب، الرجل الذي طرق السبيل المعتاد من المدرسة إلى الجامعة. من ناحية ثانية، فاض بها شعور جامح من التعاطف مع طفل الأوحال هذا، فقد بدا خامة الحياة السفلى فعلاً، وبعده ماكان ثمة تجاوز.

لقد انجذبت «أرسيولا» هي الأخرى إلى «لوركه». فقد فرض نوعاً من الإجلال على الشقيقتين. إنما كانت هناك لحظات بدا فيها لـ «أرسيولا» قاصراً، زائفاً، على نحو لا يوصف، مبتذلاً إبتذالاً سوقياً.

أما «بركن» و «جرالد» فقد كرهاه كلاهما، إذ كان «جرالد» يتجاهله بشيء من الاحتقار، وكان «بركن» ساخطاً عليه.

تساءل «جرالد»: (ما الذي تجده النسوة كثيراً للإعجاب في ذلك الطفل المزعج الضئيل؟).

أجاب «بركن»: (الله وحده هو العالم... مالم يكن لديه نوع من الجاذبية بها يستهويهن فيطويهن ويسيطر عليهن إلى هذا الحد).

رفع «جرالد» بصره متعجباً وتساءل: (وهل يستهويهما؟).

أجاب «بركن»: (أجل، أجل. إنه الكائن الخضوع كل الخضوع، العائش كما يعيش المجرم، تقريباً، والنساء يندفعن نحو أولئك، اندفاع تيار هواء نحو فراغ).

قال «جرالد»: (من المضحك أن يندفعن نحو ذلك).

قال «بركن»: (إنه يبعث المرء على الجنون، كذلك. إنما فيه سحر الرثاء والنفور بالنسبة إليهما.. ذلك الوحش التافه الفاحش القادم من دنيا الظلام).

لبث «جرالد» واقفاً، دون حراك، مستغرقاً في التفكير.

سأل: (ماذا تبغي النساء أساساً؟).

هز «بركن» كتفيه، وقال:

- (الله هو العالم. بعض الإشباع من خلال النفور الأساس، على ما يبدو لي. يبدو أنهن يزحفن في نفق مظلم موحش، ولن يرضين أبداً حتى يبلغن النهاية).

تطلع «جرالد» إلى الخارج، من خلال ضباب الثلج الناعم الذي كان يهب ماضياً. كان كل شيء غير سالك في ذلك اليوم على نحو فظيع.

سأل: (وماهي النهاية؟).

هز «بركن» رأسه:

- (لم أصل إلى هناك بعد ولهذا لا أعرف. سَلْ «لوركه» إنه قريب منها إلى حد ما. فقد طوى أشواطاً عدة أكثر مما تستطيع أنت أو أنا بلوغه).

فهتف «جرالد» مغتاظاً: (نعم. لكن، بماذا أبلغ أشواطاً أبعد؟) تنهد «بركن» وعقد حاجبيه في عقدة غضب.

قال: (أشواطاً أبعد في الكره الاجتماعي، إنه يعيش مثل جُرذٍ في شط الفساد تماماً حيث يجري نزولاً إلى الحفرة التي لا قرار لها، إنه أبعد منا. إنه يكره المثاليات على نحو أشد... يكره المثاليات كلياً، ولو أنها لا تزال تسيطر عليه. أحسب أنه يهودي... أو يهودي جزئياً).

قال «جرالد»: (ربما..).

- (إنه نكرة تافهة قاضمة... تقضم جذور الحياة).

هتف «جرالد» : (لكن لماذا الاهتمام به؟)..

- (لأنهن يكرهن المثاليات كذلك في قرارة أنفسهن. إنهن ينشدن استكشاف البلاليع، وهو الجرذ الساحر الذي يسبح في المقدمة).

ظل «جرالد» واقفاً يحملق إلى ضباب الثلج غير السالك، في الخارج.

قال في صوت نشاز، محكوم عليه بالهلاك: (لا أفهم، في الحقيقة، تعابيرك، لكن الحالة تبدو نوعاً غريباً من الرغبة).

قال «بركن» : (أحسب أننا نريد الشيء نفسه. سوى أننا نريد أن نهبط إلى الأسفل سريعاً، في نوع من الانتشاء... في حين ينحسر هو مع التيار، تيار البلاليع)..

في هذه الأثناء، كانت «غدرون» و «أرسيولا» تترقبان سنوح الفرصة التالية

للتحدث إلى «لوركه». لم يكن ثمة جدوى من الشروع حين كان الرجلان موجودين، فلن يستطيعا آنذاك إقامة أي اتصال بالنحات الضئيل المعتزل. لابد أن ينفردا به، ثم إنه كان يفضل وجود «أرسيولا» هناك وسيلةً للتواصل مع «غدرون».

سألته «غدرون» في إحدى الأمسيات: (هل تقتصر في عملك على النحت المعماري؟).

أجاب: (ليس الآن. لقد مارست كل الأنواع... عدا صور الأشخاص. لم أنفذها قط... لكن الأشياء الأخرى...).

سألته «غدرون»: (أي نوع من الأشياء؟).

توقف لحظة، ثم نهض وغادر الغرفة. عاد في الحال تقريباً حاملاً لفة صغيرة من الورق، ناولها إياها، فبسطتها، كانت نسخة لتمثال صغير منجزة بطريقة الحفر الضوئي، بتوقيع، «ف.لوركه»

قال: (هذه إحدى أعمالي المبكرة... ليس آلياً.. أكثر شعبية).

كان التمثال الصغير يمثل فتاة عارية، صغيرة، دقيقة التكوين، جالسة على ظهر جواد ضخم عار. كانت الفتاة يافعة ورقيقة، مجرد برعم، وكانت ممتطية الحصان جانبياً ووجهها بين يديها كأنها في حزن وخجل مع شيء من التهتك. كان شعرها القصير والتبني اللون حتماً، قد تهدل إلى أمام، متفرقاً، مغطياً يديها بعض الشيء.

كانت أطرافها يافعة وطرية، أما ساقاها، اللتان ما اكتملتا بعد تقريباً، ساقا عذراء بالغة مرحلة النسوية القاسية تواً، فقد تدليتا صبيانياً على جنب الجواد القوي، على نحو مثير للشجن، وقد انطوت قدم على الأخرى، كأنهما تتخفيان. بيد أنه ماكان ثمة اختفاء، هي ذي مكشوفة، عارية على جنب الحصان العاري.

كان الحصان واقفاً في جمود، مشدود الجسم في ما يشبه بدء الانطلاق. كان جواداً ضخماً، رائعاً، متصلباً، ذا قوة حبيسة، وكان عنقه مقوساً وفظيعاً كمنجل، وجنباه منضغطين متصلبين من قوة وبأس.

شحب لون «غدرون» ، واسودت عيناها بما يشبه الخجل. رفعت بصرها بنوع من التضرع، الذي كاد أن يكون عبودية. ألقى نظرة عليها، ونفض رأسه قليلاً.

سألته بصوت عديم النبرة، مصرة على الظهور بمظهر اللا مبالاة وعدم التأثر:

ـ (ما حجمه؟)...

أجاب ملقياً نظرة عجلى عليها ثانية: (ما حجمه؟ بدون قاعدة.. بهذا الارتفاع)... قالها وهو يقيس بيده...(مع القاعدة... بهذا).

أطال النظر إليها. كان هناك ازدراء فظ، مغال، حيالها في إيماءته السريعة. أما هي فبدت منكمشة قليلاً.

سألته، مثنيةً رأسها إلى وراء وناظرة إليه ببرود متكلف: (ممَّ صنع؟).

استمر ينظر إليها بثبات، ولم تهتز سطوته:

ـ (من البرونز... البرونز الأخضر).

رددت «غدرون» وقد قبلت تحديه ببرود: (البرونز الأخضر!).. كانت تفكر في أطراف الصبية النحيلة، الطرية، التي لم يكتمل نموها بعد... ناعمة، باردة بالبرونز الأخضر.

غمغمت متطلعة إليه بشيء من التوقير المعتم: (أجل، جميل).

أغمض عينيه، ونظر إلى الجانب ، منتصراً.

قالت «أرسيولا» : (لِمَ جعلت الحصان متصلباً هكذا؟ إنه متصلب ككتلة حجر).

فكرر ساخطاً على الفور: (متصلب؟).

ـ (نعم، انظر، كم هو مبتذل وبليد ومتوحش. الخيل حساسة، رقيقة جداً، حساسة، فعلاً).

رفع كتفيه، وبسط يديه في حركة من اللا مبالاة المتأنية، كأنه يقصد إعلامها بأنها مجرد هاوية، ونكرة سليطة.

قال، وفي صوته تصابر وكياسة مهينتان: (اعلمي* أن هذا الحصان هو شكل معين، جزء من شكل كامل. إنه جزء من عمل فني، قطعة شكلية، إنه ليس صورة حصان ودود تناولينه قطعة سكر، هل تلاحظين ذلك؟... إنه جزء من عمل فني، ولا علاقة له البتة بأي شيء خارج ذلك العمل الفني).

أجابت «أرسيولا» مهتاجة محتقنة الوجه رافعته، وهي غضبى لمعاملتها على هذا

---

* قال (اعلمي) بالألمانية . (المترجم) .

النحو المعين، بتواضع المتعالي الكيِّس* من علياء فن الصفوة إلى مهاوي الهواية العامة الشعبية:

ـ (لكنها، مع ذلك، صورة حصان، فعلاً..).

رفع كتفيه في هزة أخرى.

ـ (كما تشائين... إنها ليست صورة بقرة. هذا مؤكد).

هنا تدخلت «غدرون» محمرة الوجه، متقدة، وتواقة إلى تحاشي المزيد من هذا، المزيد من إصرار «أرسيولا» الطائش على الكشف عن دخيلتها.

صاحت بأختها: (ماذا تعنين بـ «صورة حصان»؟.. ماذا تعنين بالحصان؟.. تقصدين فكرة لديك في رأسك، تريدين أن تريها مصورة ثمة فكرة أخرى، أصلاً... فكرة أخرى غير تلك تماماً، سَمِّها حصاناً، إن شئت، أو قولي إنها ليست حصاناً. لي كل الحق، مثلما لك، في القول بأن حصانك ليس حصاناً... وأنه زيف من صنع خيالك).

ترددت «أرسيولا» محتارة، ثم جاءت كلماتها:

ـ (لكن لماذا تكون لديه هذه الفكرة عن الحصان؟ أعرف إنها فكرته. أعرف إنها صورة نفسه، في الحقيقة..).

أطلق «لوركه» شخرة، غضباً.

ردد مزدرياً: (صورة نفسي! هل تعلمين يا سيدتي المحترمة بأن هذا عمل فني؟** إنه ليس صورة لأي شيء، لأي شيء إطلاقاً.. لا علاقة له بأي شيء إلا بنفسه. لا صلة له بهذا العالم اليومي أو بغيره.. لا رابط بينهما إطلاقاً. إنهما مُسْتَوَيا وجودٍ مختلفان متميزان، وإن ترجمة الواحد إلى الآخر أسوأ من الغباء.. إنهما تسويد لكل رشاد، إشاعةُ الفوضى في كل مكان. هل تدركين أن من الواجب عليك ألا تخلطي بين عالم العمل النسبي وعالم الفن المطلق. ذلك ما يجب عليك ألا تفعلي).

هتفت «غدرون» وقد انطلقت في شبه حماسة جذلة: (هذا صحيح تماماً.. الشيئان

* ورد تعبير (بتواضع المتعالي الكيِّس) بالفرنسية. (المترجم).

** وردت (هل تعلمين يا سيدتي المحترمة) و(عمل فني) بالألمانية. (المترجم).

مختلفان تماماً ودائماً، ولا علاقة بينهما البتة. أنا وفني ليست بيننا أية علاقة. أنا في هذا العالم... وفني قائم في عالم آخر).

كان وجهها محتقناً ومتغير الشكل. أما «لوركه»، الذي كان جالساً مثنيَّ الرأس مثل مخلوق محاصر يدافع عن نفسه، فقد رفع بصره إ ليها على عجل، أشبه بمختلس النظر، وغمغم: (أجل، هو كذلك، هو كذلك)*.

صمتت «أرسيولا» بعد هذا الانفجار. كانت تتميز غيظاً، كانت تريد أن تحدث ثقباً في كليهما.

أجابت على نحو مباشر: (لا كلمة منه صحيحة، كل هذا الخطاب الرنان الذي ألقيته عليّ. فالحصان صورة لوحشيتك البليدة المبتذلة، والصبية كانت فتاة أحببتها أنت وعذبتها ثم أنكرتها).

رفع بصره إليها بابتسامة ازدراء طفيفة في عينيه. لم يكلف نفسه مشقة الإجابة عن هذه التهمة الأخيرة..

كانت «غدرون» صامتة هي الأخرى في احتقار ساخط: كانت «أرسيولا» فعلاً دخيلاً لا يطاق، تندفع إلى حيث تخشى الملائكة أن تخطو**. لكن لابد من تحمل الأغبياء، ولو بالهَمِّ والغَمِ***.

بيد أن «أرسيولا» كنت لجوجاً هي الأخرى.

قالت: (أما بصدد عالم الفن، وعالم الحقيقة لديك، فعليك الفصل بين الاثنين، لأنك لا تطيق معرفة من أنت. أنت لا تطيق أن تدرك كم أنت وحش مبتذل، متصلب، ضيق التفكير، حقاً، ولذلك تقول: (إنه عالم الفن). إن عالم الفن ماهو إلا الحقيقة عن العالم القائم. هذا كل ما في الأمر... لكنك مفرط بالابتعاد بحيث لا ترى ذلك).

كانت شاحبة، مصممة، ترتجف. لبث «لوركه» و «غدرون» جالسين في كره قاس لها.

أما «جرالد» الذي كان قد قدِمَ في بدء الخطاب، فقد ظل واقفاً هو الآخر، ينظر

---

* نطق جملته بالألمانية. (المترجم).

** اقتباس غير دقيق لسطر من مقالة الشاعر الإنكليزي: «الكزاندر پوپ» (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤). بعنوان (مقالة في النقد): «يندفع الأغبياء إلى حيث تخشى الملائكة أن تخطو». (المترجم)

*** اقتباس من الإنجيل. (المترجم).

إليها في استنكار ورفض تامين. لقد شعر بأنها غير جديرة بالاحترام إذ قد مسّت بنوع من الابتذال مبدأ الصفوة الذي منح الإنسان آخرَ ميزاته. ضمَّ قواه إلى الاثنين الآخرين. أراد ثلاثتهم جميعاً منها أن تمضي. لكنها لبثت جالسة في صمت، وروحها تنوح وتتشنج بعنف، وأناملها تفتل منديلها.

لزم الآخرون صمتاً مطبقاً، متيحين لمشهد التطفل الذي قدمته «أرسيولا» أن يمضي وينقضي. ثم تساءلت «غدرون»، بصوت جد هادئ وعرضيّ كما لو كانت تواصل حديثاً عرضياً:

- (هل كانت الفتاة موديلاً؟).

- (كلا، لم تكن موديلاً. كانت طالبة رسم صغيرة)*.

رددت «غدرون» : (طالبة رسم!).

لكم توضح الموقف لها! لقد شاهدت طالبة الرسم، غير الناضجة والطائشة طيشاً مهلكاً، الغَرَّ، ذات الشعر السبط، البني اللون، القصير القصة، المتهدل حتى الجيد تماماً، المعقوف إلى الداخل قليلاً جراء كثافته النسبية، و «لوركه» أستاذ النحت الشهير... والفتاة، التي قد تكون من عائلة صالحة أحسنت تربيتها، وهي تتخيل نفسها عظيمة جداً لكونها خليلته. أوه، لكم عرفت حق المعرفة الفظاظة المبتذلة للمسألة برمتها. (درزدن)، (باريس)، أو (لندن)... ما الذي كان يهم؟ لقد كانت على علم بها.

تساءلت «أرسيولا» : (أين هي الآن؟).

رفع «لوركه» كتفيه تعبيراً عن جهله وعدم اكتراثه التامين.

قال: (كان ذاك قبل ستة أعوام، وستبلغ الثالثة والعشرين من العمر، ولن تنفع بعد الآن).

كان «جرالد» قد تناول الصورة، وصار ينظر إليها. لقد استهوته هو الآخر. لاحظ على القاعدة أن اللوحة قد سميت «الليدي غودايفا»**. قال مبتسماً، متلاطفاً: (لكن

---

* جاء جوابه بالألمانية . (المترجم) .

** «الليدي غودايفا» (١٠٤٠ - ١٠٨٠) زوجة لورد بلدة (كوفنتري) في إنكلترة ، تقول الحكايات الشعبية أنها ركبت حصاناً وهي عارية ومضت في شوارع البلدة لكي تجعل زوجها يخفف الضرائب الثقيلة التي كان يفرضها على الناس . ويقال : إن شعرها كان طويلاً إلى درجة أنه غطّى عريها ، وأن الناس - تقديراً لموقفها - امتنعوا عن النظر إليها ، باستثناء رجل واحد سمي فيما بعد «توم مسترق النظر» . (المترجم) .

هذه ليست «الليدي غودايفا» فقد كانت تلك الزوجة المتوسطة العمر لحامل لقب «ايرل» أو غيره، والتي تسترّت بشعرها الطويل).

فقالت «غدرون» بإيماءة ساخرة: (على طريقة «مود ألن»)*.

أجاب «جرالد» : (لماذا «مود ألن» ؟ أليس الأمر كذلك؟ كنت دائم الاعتقاد بأن الأسطورة كانت هكذا)..

- (أجل، يا عزيزي «جرالد». أنا متأكدة تماماً ، بأنك تعرف الأسطورة كاملة).

كانت ساخرة منه، مع شيء من الازدراء التهكمي الملاطف.

ضحك هو الآخر قائلاً: (يقيناً، أنا أفضل رؤية المرأة على الشعر).

سخرت «غدرون» : (هل أنت تفضل ذلك، حسب!؟).

نهضت «أرسيولا» ومضت، تاركة الثلاثة معاً.

أخذت «غدرون» الصورة ثانية من «جرالد» ولبثت جالسة تنظر إليها بإمعان.

قالت ملتفتة لتغيظ «لوركه» الآن: (طبيعي أنك كنت تفهم طالبة الرسم** اليافعة تلك).

رفع حاجبيه وكتفيه في إيماءة رضا.

سأله «جرالد» وهو يؤشر إلى التمثال: (الفتاة الصغيرة؟).

كانت «غدرون» جالسة والصورة في حضنها. رفعت نظرها متطلعة إلى «جرالد» في عينيه مباشرة، حتى أنه بدا مكفوفاً.

قالت لـ «جرالد» في معابثة مرحة، ساخرة قليلاً: (ألم يفهمها! انظر إلى القدمين حسب. أليستا رائعتين، لطيفتين ورقيقتين جداً... أوه... إنهم مدهشتان حقاً... إنهما في الحقيقة...).

رفعت عينيها على مهل، بنظرة مهتاجة ملتهبة مصوَّبة إلى عيني «لوركه» زحزت روحه بعرفانها المحتدم، وبدا متنامياً في استعلائه وجلال قدره.

نظر «جرالد» إلى القدمين الصغيرتين المنحوتتين. كانتا معكوفتين معاً، تستر

---

* «مود ألن» (١٨٧٩ - ١٩٣٦) راقصة اعتادت أن ترقص حافية القدمين وبملابس شفافة . (المترجم) .

** نطقت (طالبة الرسم) بالألمانية . (المترجم) .

واحدة منهما الأخرى نصفَ سترٍ في استحياء وخجل يثيران الشجن. أطال النظر إليهما مفتوتاً. ثم أبعد الصورة عنه متألماً قليلاً. لقد أحسَّ بجذبٍ مَلأ كيانه.

سألت «غدرون» «لوركه» : (ماذا كان اسمها ؟).

أجاب «لوركه» متذكراً: («آنيت فون فيك». نعم، كانت جميلة*... كانت لطيفة... لكنها متعبة... كانت مزعجة... لا تسكن حتى دقيقة واحدة ... حتى أصفعها صفعاً شديداً وأبكيها... عند ذاك تلبث جالسة مدة خمس دقائق).

كان تفكيره منصباً على العمل، على عمله البالغ الأهمية بالنسبة إليه. سألته «غدرون» ببرود: (هل كنت تصفعها حقاً؟).

نظر إليها بالمقابل، وهو يستقرئ تحديها.

قال دون مبالاة: (نعم، قد فعلت ذلك. على نحو أ شد من ضربي أي شيء في حياتي. كنت مضطراً إلى ذلك... كنت مضطراً إلى ذلك، كان ذلك السبيل الوحيد لإنجاز العمل).

راقبته «غدرون» بضع لحظات بعينين واسعتين ملؤهما الغم. بدت متفحصة روحه. بعدها أطرقت.

سأل «جرالد»: (لِمَ ، إذاً، صنعتَ «غودايفا» يافعة هكذا ؟!.. ثم إنها صغيرة جداً، وهي ممتطية الحصان... ولا تناسبه في الحجم... هذه الطفلة الصغيرة).

بان على وجه «لوركه» تشنج غريب.

قال: (نعم، أنا لا أحبهن أكبر حجماً أو سناً، ثم إنهن جميلات في السادسة عشرة، السابعة عشرة، الثامنة عشرة. أما بعد ذلك فلا ينفعنني).

ساد صمت لحظة.

سأل «جرالد» : (لم لا ؟)..

هز «لوركه» كتفيه.

- (لا أجدهن مثيرات للاهتمام... أو جميلات.... إنهن لا يجدين نفعاً بالنسبة إلي... إلى عملي..).

---

* نطق هذه الجملة بالألمانية . (المترجم) .

سأله «جرالد» : (هل تعني القول إن المرأة ليست جميلة بعد العشرين؟).

ـ (نعم، في نظري، فقبل العشرين، تكون صغيرة ونضرة ورقيقة وطرية، بعد ذلك لتكن ما تريد... فلا شيء فيها يستهويني... إن «فينوس» (ميلو) كانت برجوازية... وهكذا كلهن).

سأله «جرالد» : (أنت لا تحفل بتاتاً بنساء فوق العشرين؟).

كرر «لوركه» وقد نفد صبره: (إنهن عديمات الجدوى بالنسبة إلي.. ولا نفع فيهن لفني.. أنا لا أجدهن جميلات).

قال «جرالد» : (أنت «أبيقوري»*) وضحك ضحكة خفيفة تهكمية. سألت «غدرون» على حين غرة: (وماذا من الرجال؟...).

أجاب «لوركه» : (نعم، إنهن يصلحن في كل الأعمار. ينبغي للرجل أن يكون ضخماً وقوياً سواءً كان كبيرَ السن أم صغيراً فذلك غير ذي اعتبار. له حجم وكتلة ضخمة. وشكل بليد).

خرجت «أرسيولا» وحدها إلى عالم الثلج الخالص، الجديد، لكن البياض المبهر بدا منهكاً لها حتى آذاها، وشعرت أن البرد صار يخنق روحها ببطء. كانت تشعر بأن دواراً وخدراً قد ألمّا برأسها.

فجأة أرادت الرحيل، خطر لها ذلك كالمعجزة... إمكان ارتحالها إلى عالم آخر. لقد شعرت بأنها محكوم عليها تماماً هنا في الثلوج الأبدية، كأنْ لم يكن ثمة ماهو أبعد.

والآن، على حين غرة، تذكرت بما يشبه المعجزة أن هناك في المنطلق البعيد، أسفلها، توجد الأرض الدكناء المثمرة، وأن باتجاه الجنوب ثمة أصقاع مديدة من الأرض، دكناء بأشجار البرتقال والسرو، رمادية اللون بأشجار الزيتون، وأن أشجار الصنوبر الأخضر كانت تحمل عناقيد زغبية مدهشة ظليلة إزاء سماء زرقاء، معجزة المعجزات!... إن هذا العالم المنجمد، الصامت كلياً، عالم ذرى الجبال، لم يكن الدنيا برمتها! في الإمكان مغادرته والانتهاء منه، في الوسع الارتحال.

---

* «أبيقوري» الشخص المنغمس في الملذات الحسية، نسبة إلى «أبيقور» الفيلسوف الإغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى. (المترجم).

أرادت أن تحقق المعجزة في الحال. أرادت أن تنتهي في هذه اللحظة من عالم الثلوج... قمم الجبال الفظيعة، الثابتة، المبنية بالثلج، أرادت أن تشاهد الأرض السمراء، أن تتنشق خصوبتها الترابية، أن ترى النبات الشتوي الصبور، وأن تستشعر أشعة الشمس وهي تتلقى استجابة من البراعم.

عادت مبتهجة إلى النزل، زاخرة بالأمل. كان «بركن» يطالع، مستلقياً في الفراش.

قالت، مخترقةً سكونه: (يا «روبرت» ، أريد أن أرحل).

رفع بصره إليها ببطء..

أجاب برفق: (صحيح؟)..

جلست بجانبه وطوقت عنقه بذراعيه. لقد استغربت من قلة استغرابه.

سألته، قلقة: (ألا تريد أنت ذلك؟).

قال: (لم أكن قد فكرت فيه، لكنني متأكد من أنني أريد ذلك). انتصبت فجأة في جلستها.

قالت: (أكرهه... أكره الثلج وعدم طبيعيته، الضوء غير الطبيعي الذي يلقيه على الجميع، السحر الشبحي، الأحاسيس غير الطبيعية التي يدخلها في روع الجميع).

ظل ساكناً في سريره، وضحك وهو يفكر ملياً.

قال: (حسن، نستطيع أن نرحل.. نستطيع أن نرحل غداً... سنذهب غداً إلى (فيرونا)* حيث نجد «روميو وجولييت» ونجلس في المدرج.. ما رأيك؟).

فجأة، أخفت وجهها لصق كتفه في حيرة واستحياء، لبث مستلقياً آمناً.

قالت بنعومة وقد ارتاحت كل الارتياح: (نعم). شعرت أن روحها قد غدا لها جناحان جديدان. مادام قد خلا باله من القلق والتهجس. قالت: (لسوف أحب أن نكون «روميو وجولييت يا حبيبي»!).

قال: (على الرغم من أن ريحاً باردة إلى درجة فظيعة تهب في (فيرونا) من جبال (الألب). ستظل رائحة الثلج في أنوفنا).

---

* المدينة الكائنة في شمال إيطاليا ، حيث المدرج الروماني الشهير ، وحيث جرت أحداث مسرحية «شكسبير» (روميو وجولييت) . (المترجم) .

انتصبت في جلستها ونظرت إليه.

سألته في قلق: (هل يسرّك الذهاب؟).

كانت عيناه ضاحكتين، غامضتين.. أخفت وجهها لصق رقبته وهي تلتصق به أكثر. وترجّته قائلة:

ـ (لا تسخر مني.. لا تسخر مني).

ضحك مطوقاً إياها بذراعيه: (عجيب ، وكيف ذلك؟).

همست قائلة: : (لأنني لا أحب أن يسخر مني أحد).

زاد ضحكاً فيما كان يقبّل شعرها الناعم المعطر بعطر لطيف.

همست قائلة في جدية مهتاجة: (هل تحبني؟).

أجاب ضاحكاً: (نعم).

فجأة أعلت فمها ليقبّله. كانت شفتاها متوترتين، راعشتين، مجْهَدَتين وشفتاه ناعمتين، مبهمتين، رقيقتين. تلبّث في القبلة بضع لحظات. ثم رانت على روحه مسحة حزن.

قال في لوم طفيف: (فمك قاس جداً).

فقالت مبتهجة: (وفمك ناعم ولطيف جداً).

سألها آسفاً: (لكن لماذا تشدين على شفتيك دائماً).

قالت على عجل: (لا تهتم.. إنها طريقتي).

كانت تعرف أنه يحبها، كانت متيقنة منه، لكنها لم تستطع أن تتحرر من إسار قيد يقيّدها. كانت لا تطيق أن تكون موضع تساؤله. لقد سلّمت نفسها بسرور لحبه إياها. كانت تعرف أنه على الرغم من سعادته حين تسلم نفسها كانت تعتريه مسحة من حزن كذلك. كانت تستطيع أن تسلّم نفسها لنشاطه.

بيد أنها كانت تعجز عن أن تطلق نفسها على سجيتها، لم تكن لتجرؤ على أن تدنو، في عري تام، من عريه، متخلية عن كل تكليف، غائبة معه في إيمان خالص. كانت تتخلى عن نفسها له، أو تتمسك به وتجني سعادتها منه. وكان تستمتع به كلياً، لكنهما لم يكونا معاً تماماً قط في اللحظة ذاتها. فقد كان أحدهما يُخْذَل قليلاً في النهاية على الدوام. ومع ذلك، كانت فَرِحةً بالأمل، متألقة، طليقة، تزخر بالحياة والحرية، أما هو فما فتئ هادئاً، ناعماً، صبوراً، لأمد.

قاما بالإعداد للمغادرة في اليوم التالي، فمضيا إلى غرفة «غدرون» أولاً حيث كانت و «جرالد» قد أكملا تواً ارتداء الملابس استعداداً لقضاء الأمسية في الداخل.

قالت «أرسيولا»: (أظن يا «خوخة» أننا سنرحل غداً، لم أعد أطيق الثلج فترة أطول. إنه يؤذي بشرتي وروحي).

سألتها «غدرون» بشيء من العجب: (هل إنه يؤذي روحك حقاً، يا «أرسيولا»؟ في الوسع الاعتقاد تماماً بأنه مضر للبشرة... إنه فظيع.. لكنني كنت أعتقد أنه رائع للروح).

قالت «أرسيولا» : (كلا، ليس لروحي.. إنه يؤذيها بالبساطة كلها). هتفت «غدرون»: (صحيح!).

ساد صمت في الغرفة، وكان من اليسير على «أرسيولا» و «بركن» الإدراك بأن رحيلهما سوف يريح «غدرون» و «جرالد».

قال «جرالد» وفي صوته رنة طفيفة من عدم الارتياح: (هل سترحلان إلى الجنوب؟).

فقال «بركن»، مشيحاً بوجهه: (أجل). كانت ثمة خصومة غريبة لا يمكن تحديدها بين الرجلين في الآونة الأخيرة. كان «بركن» على العموم كئيباً غير مبالٍ، ماضياً في انجرافه في مجرى معتم هادئ، صبوراً غير منتبه، وذلك منذ مغادرته البلاد، في حين كان «جرالد» من الناحية الثانية، مشدود الأعصاب، قد تملّكه صراع داخلي متقّد حدّ البياض. لقد ألغى الرجلان أحدهما الآخر.

كان «جرالد» و «غدرون» في غاية اللطف حيال المسافرَين الاثنين، حريصين على راحتهما كأنهما طفلان. جاءت «غدرون» إلى غرفة نوم «أرسيولا» حاملة ثلاثة أزواج من الجوارب الملونة التي اشتهرت بها، وألقت بها على السرير، لكن هذه كانت جوارب حرير، سميكة، ذوات ألوان قرمزية ورمادية وزرقاء زرقة أرجوانية، جيء بها من باريس. كانت الرمادية محبوكة ثقيلة، غير مدروزة، غمرت «أرسيولا» النشوة. كانت تعرف أن «غدرون» لابد أن تكون شاعرة باللطف الغامر كي تتخلى عن مثل هذه النفائس.

هتفت : (لا أستطيع أن آخذها منك يا «خوخه». لا يمكنني قطعاً أن أحرمك منها... هذه الدرر).

هتفت «غدرون» وهي تحدق إلى هداياها بعين حسود: (أليست درراً!... اليست هي حبيبة إلى النفس فعلاً!).

فقالت «أرسيولا»: (بلى، ولابد أن تحتفظي بها).

- (لا أريدها. عندي ثلاثة أزواج أخرى... أريد أن تحتفظي بها أنتِ... أريد منك أن تأخذيها. إنها ملكك... هي ذي...).

وبيدين مرتجفتين، منفعلتين، وضعت الجوارب المرموقة تحت وسادة «أرسيولا».

قالت «أرسيولا»: (إن المرء ليظفر بأعظم سعادة من الجوارب اللطيفة حقاً).

أجابت «غدرون»: (فعلاً... السعادة العظمى).

وقعدت على الكرسي. كان واضحاً أنها كانت قد قَدِمَتْ لتتحدث آخر مرة. أما «أرسيولا» فقد انتظرت في صمت، لجهلها بما كانت تريد.

بدأت «غدرون» مرتابةً نوعاً ما: (هل تشعرين يا «أرسيولا» بأنك راحلة أبداً، بلا رجعة، بشيء من هذا القبيل؟).

قالت «أرسيولا»: (أوه، إننا سنعود، إنها ليست قضية سفرات متسلسلة).

- (نعم، أعرف ذلك، لكن، روحياً، إن جاز التعبير، هل أنتِ راحلة عنا جميعاً؟).

ارتعدت «أرسيولا».

قالت: (لا أعرف حتى القليل عما سيحصل، كل ما أعرف أننا ذاهبان إلى مكان ما).

انتظرت «غدرون» ثم سألت: (وهل أنت فرحة؟).

فكرت «أرسيولا» ملياً لحظةً، ثم أجابت: (أعتقد بأنني مسرورة جداً).

بيد أن «غدرون» قرأت الإشراق اللا واعي على وجه أختها، بدلاً من نبرات كلامها المترددة.

- (لكن ألا تعتقدين بأنك ستحتاجين الصلة القديمة بالعالم... والدنا، وسائر أفراد العائلة، وكل ما يعنيه ذلك... إنكلترة وعالم الفكر.. ألا تعتقدين بأنك ستكونين في حاجة إلى ذلك فعلاً، لتكوين دنيا؟).

كانت «أرسيولا» صامتة، تحاول التخيل.

قالت بعد لأي، على نحو لا إرادي: (أظن أن «روبرت» على صواب.. فالمرء يحتاج إلى أن يكون في جو جديد، ويبتعد عن القديم).

راقبت «غدرون» أختها بوجه جامد وعينين مستقرتين.

قالت: (أؤيد تماماً حاجة المرء إلى أن يكون في جو جديد. لكنني أعتقد بأن العالم الجديد إنما هو تطور عن هذا العالم، وأن الانعزال بمعية شخص آخر ليس إيجاداً لعالم جديد إطلاقاً. بل هو ملاذ للمرء في دنيا أوهامه).

تطلعت «أرسيولا» إلى خارج النافذة، في روحها طفقت تتصارع فخافت. كانت تخشى الكلمات على الدوام، لأنها كانت تعرف أن مجرد قوة الكلام يمكن دائماً أن يحملها على الإيمان بما لم تكن تؤمن به.

قالت، وقد امتلأت بالشك في نفسها وفي كل الناس: (جائز). وأضافت: (إنما أنا أعتقد فعلاً بأن المرء لا يستطيع أن يتولى شيئاً جديداً وهو مهتم بالقديم.. هل تعرفين ما أعني؟.... حتى محاربة القديم إنما هو انتماء له. أنا أعرف أن المرء يُغرى لكي يتوقف مع العالم، لمجرد محاربته... لكنه ذل لا يستحق العناء، آخر الأمر).

فكرت «غدرون» في أمرها هي.

قالت: (أجل، من ناحية، يكون المرء في العالم إن كان عائشاً فيه، لكنْ أليس وهماً، حقاً، أن تعتقدي بأن في مقدورك الإفلات منه؟ على أية حال. إن كوخاً في (أبروزي)* أو أي مكان آخر، ليس عالماً جديداً. كلا، إن الشيء الوحيد الذي يجب فعله إزاء العالم هو التواصل معه حتى النهاية).

أشاحت «أرسيولا» بوجهها، لقد كانت تخشى الجدل كثيراً.

قالت: (لكنْ يمكن أن يكون هناك شيء آخر، أليس كذلك؟... في وسع المرء التواصل معه حتى النهاية، في روحه، قبل أن ينتهي فعلياً، بمدة طويلة. وحين يكون المرء قد تبين روحه، يكون قد صار شيئاً آخر).

تساءلت «غدرون» : (هل يتمكن المرء من التواصل مع العالم في روحه؟ إن كنتِ تقصدين بأن في وسعك رؤية ما سيحدث حتى النهاية، فأنا لا أوافق، لا أستطيع أن أوافق في الواقع. ثم إنك لا تستطيعين أن تطيري إلى كوكب آخر على حين غرة لأنك تعتقدين أن في مستطاعك رؤية هذا حتى النهاية).

---

* سلسلة جبال في وسط إيطاليا . (المترجم) .

اعتدلت «أرسيولا» في جلستها فجأة.

قالت: (أجل... أجل... إن المرء ليعرف، لم تعد له صلات هنا. لديه نفس أخرى، على نحو ما، تنتمي إلى كوكب آخر، ليس هذا الكوكب. وعليه الانطلاق إليه).

فكرت «غدرون» ملياً بضع لحظات، ثم بانت على وجهها ابتسامة استخفاف تكاد تكون ازدراءً.

هتفت متهكمة: (وماذا سيحدث حين تجدين نفسك في الفضاء؟ ثم إن أفكار العالم العظيمة هي نفسها هناك. أنت، قبل غيرك، غير قادرة على التهرب من حقيقة كون الحب، مثلاً، هو الشيء الأسمى، سواء في الأرض أم في الفضاء).

فقالت «أرسيولا»: (كلا. إنه ليس كذلك، إن الحب مفرط في ضآلته وبشريته. إني أؤمن بشيء غير بشري، لا يكون الحب سوى جزء ضئيل منه. أعتقد أن ما يجب علينا أن ننجزه نابع من المجهول فينا، وهو شيء أكبر من الحب إلى أبعد الحدود. إنه ليس مجرد شيء بشري).

نظرت «غدرون» إلى «أرسيولا» بعينين مستقرتين، موازنتين. ما أشد إعجابها بأختها واحتقارها لها في الوقت نفسه! وفجأة أشاحت بوجهها عنها، قائلة ببرود وبشاعة:

ـ (حسن، ليس عندي ماهو أبعد من الحب، إلى حد الآن).

فومضت خاطرة في ذهن «أرسيولا»: (لأنك ما أحببتِ قط، لأنك عاجزة عن بلوغ ماهو أبعد منه).

نهضت «غدرون» وأقبلت على «أرسيولا» وطوقت جيدها بذراعها. قالت وصوتها يرن بلطف زائف: (اذهبي وجِدي دنياك الجديدة، يا عزيزتي. على أية حال، إن أسعد رحلة هي في نشدان جزر «روبرت» المباركة)*.

ظل ذراعها مطوقاً عنق «أرسيولا» وأناملها على خد «أرسيولا» بضع لحظات. تضايقت الأخيرة جداً في أثناء ذلك. كانت ثمة إهانة في رعاية «غدرون» الحامية لها والتي كانت في الحقيقة مفرطة في الأذى. وإذ شعرت «غدرون» بمقاومة أختها، انسحبت انسحاباً غير متسق، وقلّبت الوسادة، وأظهرت الجوارب ثانية.

---

* (الجزر المباركة) : جزر خيالية في بحار نائية . (المترجم) .

ضحكت ضحكة خاوية نوعاً ما: (ها... ها! يا للكيفية التي نتحدث بها فعلاً، عوالم جديدة وقديمة!).

وانتقلنا إلى المواضيع الدنيوية المعتادة.

كان «جرالد» و «بركن» قد سبقاهما في السير بانتظار قدوم المزلقة الناقلة للضيوف المغادرين.

سأل «بركن» وهو ينظر إلى وجه «جرالد» الأحمر جداً، والخالي من التعبير تقريباً: (إلى متى ستمكثان هنا؟).

أجاب «جرالد» : (أوه، لا أستطيع القول. حتى نمل).

سأله «بركن»: (ألا تخشى أن يذوب الثلج، قبل ذلك؟).

ضحك «جرالد».

قال: (وهل سيذوب؟).

قال «بركن» : (أمورك سائرة على ما يرام، إذاً؟).

ضيق «جرالد» عينيه قليلاً.

قال: (على ما يرام؟ أنا لا أعرف أبداً ما يعنيه هذا التعبير الدارج. على ما يرام، وعلى ما لا يرام... أليسا مترادفين في موضع ما؟).

فقال «بركن» : (أجل، كما أظن، ماذا عن عودتكما؟).

قال «جرالد» : (أوه، لا أعرف. قد لا نعود أبداً. أنا لا أنظر إلى ما قبل وما بعد).

فقال «بركن»: (ولا تذب شوقاً إلى ما لا يكون).

تفرَّس «جرالد» في الأفق البعيد بعيني الصقر المجردتين ذواتي البؤبؤين الصغيرين.

ـ (كلا، هناك شيء ما نهائي في هذا الأمر، و «غدرون» تبدو كالمنتهى بالنسبة إليَّ. لا أدري... لكنها تبدو ناعمة جداً، وبشرتها كالحرير وذراعاها مليئتان وناعمتان. إن ذلك يذوي الوعي فيَّ، على نحو ما، ويحرق لبّ عقلي). خطا قُدُماً بضع خطوات وهو يحدق أماماً، ثابت النظر، كأنه قناع من تلك التي تستخدم في ديانات البرابرة المربعة.

قال: (إنه ينسف بصيرة روحك، ويتركك دون بصر، ومع ذلك، فإنك تريد أن تكون مكفوفَ البصر.. تريد أن تُنْسَف.. ولا تريد غير ذلك).

كان يتكلم كأنه في غيبوبة، لفظياً، فارغاً. فجأة، استجمع قواه بشيء من الحماسة البهيجة، ونظر إلى «بركن» بعينين ثأريتين، مروعتين، قائلاً:

(هل تدري ماهي المعاناة حين تكون مع امرأة؟ إنها من الجمال والكمال، أنت تجدها من الطيبة، بحيث تتمزق أنت كالحرير، وكل حركة صغيرة، وكل ملاطفة تشجك كما تشج سكين حادة... ها... ذلك الكمال... حين تنسف نفسك، تنسف نفسك! ثم...). ثم توقف على الثلج وفتح يديه المطبقتين على حين غرة، وأردف: (إنه لا شيء.. قد يكون دماغك قد تفحّم مزقاً... و...). وتلفّت متبصّراً في الهواء بحركة غريبة مسرحية... (إنه يتفجر... أنت تعرف ما أعني.. إنها تجربة عظيمة، شيء ختامي... وإذا بك تذوي كمن صُعِقَ بالكهرباء). واصل السير في صمت. بدا مثل المتبجح، لكنْ مثل رجل في شدة، يتبجح بصدق.

استأنف كلامه قائلاً: (طبيعي... ماكان لي أن أمر بها. إنها تجربة كاملة. وهي امرأة رائعة.. لكن... لكم أنا أكرهها في موضع ما. إنه أمر غريب...).

نظر «بركن» إليه، إلى وجهه الغريب، الذي كاد أن لا يكون واعياً. بدا «جرالد» خلواً من التعبير حيال كلماته نفسها.

قال «بركن»: (لكنك قد اكتفيت الآن؟ قد كابدت تجربتك. لِمَ الانكباب على جرح قديم؟).

فقال «جرالد»: (أوه، لا أعرف، إنها لم تنته...).

ومضيا في السير قدماً.

قال «بركن» بمرارة: (لقد أحببتُكَ مثلما أحببتُ «غدرون». لا تنسَ ذلك).

فنظر «جرالد» إليه نظرة غيبة، شاردة، وقال بجمود ثلجي:

ـ (حقاً أم أنك تظن ذلك؟). كاد ألا يكون مسؤولاً عما قال.

قدمت المزلقة. نزلت «غدرون» وتوادع الجميع. كانوا جميعاً يريدون الافتراق. احتل «بركن» موقعه، ومضت المزلقة مبتعدة، تاركة «غدرون» و «جرالد» وقوفاً على الثلج، يلوّحان. جَمّدَ شيءٌ ما فؤادَ «بركن» إذ رآهما واقفين هناك في منعزل الثلج يتضاءلان حجماً و يزدادان انعزالاً.

الفصل الثلاثون

وسط الثلوج

حين رحل «بركن» و «أرسيولا» أحست «غدرون» أنها قد تحررت في صراعها مع «جرالد». وإذ زاد تعود كل منهما الآخر، بدا أنه يضغط عليها أكثر فأكثر. في أول الأمر، استطاعت أن تسوسه بحيث ظلت إرادتها الذاتية حرة على الدوام. لكنه سرعان ما شرع يتجاهل مناورات الأنثى فيها، وتخلّى عن احترامه لنزواتها وخصوصياتها، وطفق يمارس إرادته هو على نحو أعمى، دون الخضوع لإرادتها.

كان صراع حيوي قد بدأ فعلاً، مما أخاف الاثنين، لكنه كان وحيداً في حين سبق لها أن شرعت في رمي شباكها سعياً وراء سلوى خارجية.

حين رحلت «أرسيولا» شعرت «غدرون» أن وجودها هي قد أمسى مقفراً وبدائياً. مضت وجثمت وحدها في غرفة نومها تنظر خارجاً من خلال الشباك إلى الكواكب الكبيرة الوامضة. أمامها، كان الظل الشاحب لعقدة الجبال، هنا كان المحور. شعرت بالغربة والحتمية كأنهما قد تمركزا في محور الوجود كله، ولم يعد ثمة واقع آخر.

لم يمض وقت طويل حتى فتح «جرالد» الباب. كانت تعرف أنه لن يطيل مكوثه خارج الغرفة. كانت نادراً ما تنفرد، وكان هو ينيخ عليها مثل الصقيع، يميتها.

قال: (هل أنت وحيدة في الظلمة؟). واستطاعت التعرف من نبرته أن ذلك كان موضع امتعاضه. إنه كان يمتعض من هذه العزلة التي كانت قد أحاطت نفسها بها. ومع ذلك كانت حانية حياله، وهي تشعر بالركود والحتمية.

سألته: (هل تود إشعال الشمعة؟).

لم يجب، بل أقبل ووقف خلفها في الظلام.

قالت: (انظر إلى تلك النجمة الجميلة هناك في الأعالي، هل تعرف اسمها؟).

جثم بجانبها لينظر من خلال النافذة الواطئة.

قال: (كلا. إنها لطيفة جداً).

- (أليست جميلة! هل تلاحظ كيف أنها تقذف بلُهُبٍ مختلفة الألوان... إنها تومض على نحو رائع حقاً).

لبثا في صمت... وبإيماءة خرساء ثقيلة وضعت يدها على ركبته وتناولت يده.

سألها: (هل أنت حزينة لرحيل «أرسيولا»؟).

قالت: (كلا، البتة)، ثم سألته في مزاج متأنٍ: (كم تحبني؟). شدّ نفسه لصقها أكثر، وسأل: (ما مقدار حبي لك، في ظنك؟).

أجابت: (لا أدري).

سألها: (لكن ما رأيك؟).

ساد صمت. أخيراً، في الظلمة، جاء صوتها قاسياً، غير مكترث، إذ قالت ببرود وبما يكاد أن يكون وقاحة: (قليلٌ جداً، فعلاً).

تجمّد قلبه بسماع صوتها.

سألها كما لو كان معترفاً بصحة اتهامها، وإن كان كارهاً إياها جراء ذلك: (لِمَ لا أحبك؟).

- (لا أعرف لماذا لا تحبني... كنت طيبة حيالك، ولا أزال. لقد كنتَ في حال مفزعة حين جئتني).

كان قلبها ينبض خانقاً إياها، لكنها كانت شديدة البأس، لا تلين. سألها: (متى كنتُ في حال مفزعة؟).

- (حين جئتني أول مرة. كان عليَّ أن أشفق عليك، لكنه لم يكن حباً قط).

كان ذلك القول (لم يكن حباً قط) هو الذي طرق أذنيه بجنون.

قال بصوت مخنوق بالغيظ: (لم يجب عليك أن تكرري ذلك كثيراً: أن لا حب هناك؟).

سألته: (حسن، أنت لا تعتقد أنك تحب، أليس كذلك؟).

صمت بانفعال بارد من الغضب.

كررت القول بما يقرب أن يكون سخرية: (أنت لا تعتقد أنك قادر على أن تحبني، أليس كذلك؟).

قال: (كلا).

ـ (أنت تعرف أنك لم تحبني قط، أليس كذلك؟).

أجاب: (لا أعرف ماذا تعنين بكلمة «الحب»).

ـ (بل إنك عارف. أنت تعلم جيداً بأنك لم تحبني قط. أوَ تظن أنك قد أحببتني؟).

قال: (كلا) وقد استحثه روح أجدب ما من الصدق والعناد.

قالت خاتمةً: (ولن تحبني أبداً، أليس كذلك؟).

كان فيها برود شيطاني يفوق ما يمكن تحمله.

قال: (كلا).

ردّت: (إذاً، ما الذي تحمله ضدي؟).

سكت في يأس وحنق باردين، مرتعبين، وصار فؤاده يكرر الهمس: (آه، لو استطعت أن أقتلها، لو استطعت أن أ قتلها... لغدوت طليقاً).

بدا له أن الموت هو الحلال الوحيد للعقدة (الغوردية)* المستعصية هذه.

قال: (لِمَ تعذبينني؟).

ألقت بذراعيها حول عنقه.

قالت مشفقة كأنها تسري عن طفل: (أوه، أنا لا أريد أن أعذبك).

كانت الوقاحة قد صيَّرت عروقه باردة، وماعاد يحس. لبثت مطوِّقة عنقه بذراعيها في انتصار مشفق. وكان إشفاقها عليه بارداً برودة الصخر، وكان أعمق دوافع الإشفاق كرهها إياه وخشية سطوته عليها، التي لابد لها من إحباطها دائماً.

ناشدته: (قل إنك تحبني. قل إنك سوف تحبني إلى الأبد. هلا فعلت ذلك؟.. هلا فعلت ذلك؟..).

إنما صوتها فقط هو الذي كان يلاطفه، في حين كانت أحاسيسها كلها في غربة عنه، باردة، مدمرة إياه، إرادتها المتعجرفة هي التي كانت تصر.

لاطفته قائلة: (ألن تقول إنك سوف تحبني على الدوام؟ قلها ولو لم تكن صادقة... قلها يا «جرالد» قلها).

---

* العقدة الغوردية عقدة أحكم شدها «غورديوس» ملك «فريجيا» وقد زعموا أنه لن يحلها إلا سيد آسيا المقبل، فجاء الاسكندر الكبير وقطعها بسيفه. (المترجم).

ردد في عذاب حقيقي، مكرِهاً الكلمات على الخروج: (سوف أحبك دائماً).
منحته قبلة عابرة.

قالت، مازحة قليلاً: (تصوَّرْ، ها إنك قد قلتها فعلاً).

انتصب واقفاً، كمن لحقت به الهزيمة.

قالت بنبرة نصف مزدرية، نصف ملاطفة: (حاول أن تحبني أكثر قليلاً، وتريدني أقل قليلاً).

بدت العتمة متماوجة في عقله، موجات ضخام من الظلام تغمر عقله، بدا له أنه قد حُقِّرَ في الصميم، واستهين به كلياً.

قال: (تقصدين أنك لا تريدينني؟).

ـ (ما أكثر إلحاحك، وأقل كياستك ورقّتك... إنك فظ جداً. إنك تحطمني... وتضيعني فقط... وهذا فظيع بالنسبة إليّ).

ردد: (فظيع بالنسبة إليك).

ـ (أجل، ألا تظن أن لي الحق في غرفة أنفرد بها، بعد أن سافرت «أرسيولا». يمكنك أن تقول إنك تريد حجرة لبس).

قال، مفلحاً في النطق بوضوح: (افعلي ما تشائين... يمكنك الرحيل أصلاً، إن شئت).

أجابت: (أجل، أنا أعرف ذلك، ويمكنك ذلك أنت أيضاً، يمكنك أن تتركني متى شئت... حتى بدون إخطار).

تمايلت أمواج الظلام العظيمة في ذهنه، حتى أنه كاد ألا يستطيع الاستمرار في الوقوف منتصباً. غشيه إنهاك فظيع، وأحس أنه لابد من أن يستلقي أرضاً. وإذ قذف بملابسه، ذهب إلى السرير واضطجع مثل رجل قهره السُكْرُ فجأةً، وصارت العتمة تعلو وتنغمر كما لو كان مستلقياً على يمٍّ أسود مسبِّبٍ الدوار. لبث مضطجعاً في سكون في غمرة ذلك الدوار الغريب المريع، بعض الوقت، غير واعٍ مطلقاً.

بعد لأي، انسلت من فراشها هي وأقبلت عليه. ظلّ متصلباً، مديراً ظهره لها. كان قد استعاد وعيه.

وضعت ذراعيها حول جسمه المفزع، عديم الحس، ووضعت خدها لصق كتفه المتيبس.

همست: («جرالد» .. «جرالد»).

لم يطرأ أي تغيير عليه. أمسكت به لصقها، ضغطت نهديها لصق كتفيه، لثمت كتفه من خلال سترة بيجامته. جال تفكيرها فوق بدنه المتصلب،غير العائش. احتارت وأصرّت، ومع ذلك تقصّدت إرادتها أن يكلّمها.

همست منحنية فوقه ولاثمةً أذنه: («جرالد» ، عزيزي!). بدا أن مداعبة أنفاسها الدافئة وإيقاعها المرفرف فوق أذنه قد أرْخيَا التوتر. كان في وسعها أن تحسّ بجسمه وهو يرتخي قليلاً بالتدريج، ويفقد صلابته المريعة، غير الطبيعية. أمسكت يداها بأطرافه، بعضلاته، متفحصةً إياه بحركات متشنجة.

بدأ الدم الحار يجري ثانية في عروقه، وارتخت أطرافه.

همست، وقد ابتأست بالإصرار والانتصار: (استدرْ نحوي).

وهكذا خضع ثانية، أخيراً، دافئاً، مطواعاً. استدار واحتواها بين ذراعيه. وإذ أحسّ بها ناعمة لصقه، نعومةً كاملة، مدهشة، مرحبة، شدّ ذراعيه عليها. صارت كالمحطمة، لا حول لها إزاءه. بدا دماغه قاسياً لا يقهر الآن، كأنه جوهرة لم يعد هناك مجال لمقاومته.

كانت رغبته الجنسية فظيعة بالنسبة إليها، متوترة، مروعة، غير شخصية، كأنهار دمار، نهائية. شعرت بأن تلك سوف تقتلها. كانت آنذاك تُقْتَل.

صرخت، في خضم الألم، في عناقه إياها: (رباه.. رباه)، وهي تشعر بأن حياتها آيلة إلى الفناء في داخلها، وبينما كان يقبلها ويلاطفها. تباطأ نَفَسُها، كأنما أخذت تفنى وتموت فعلاً.

خاطبت نفسها مكررة: (هل سأموت، هل سأموت؟).

وفي الليل، وفي «جرالد»، ماكان ثمة جواب للسؤال.

ومع ذلك، ففي اليوم التالي، ظلت تلك الكسرة من كيانها التي لم تدمَّر سالمة، عدائية. لم ترحل، بل مكثت لتكمل العطلة، دون إقرار بأي شيء. لم يكن يتركها وحدها إلا في ما ندر. بل كان يتعقبها كالظل. كان كالقدر المحيق بها.. آمِراً.. ناهياً على الدوام. في بعض الأحيان، كان يبدو هو الأقوى، في حين كانت هي شبه فانية، تزحف قرب الأرض مثل ريح متبددة. وأحياناً كان العكس. إنما كان الوضع أرجحةً سرمدية على الدوام، أحدهما يفنى كي يوجد الآخر، أحدهما يُزكَّى لأن الآخر قد أُلغي.

تحدثت إلى نفسها قائلة: (في آخر المطاف، سأرحل عنه).

خاطب نفسه في نوبة اشتداد معاناته: (سأتمكن من التحرر من إسارها).

وعقد العزم على التحرر.. حتى إنه استعد للرحيل، ليتركها في وضع حرج. لكن، ولأول مرة، حدث شرخ في إرادته.

تساءل: (إلى أين سأذهب؟).

ردّ على تساؤله، مقدماً نفسه على كبريائه: (ألا تستطيع أن تكون ذاتي الاكتفاء؟).

ردد: (ذاتي الاكتفاء!).

بدا له أن «غدرون» كانت مستلقية بنفسها، متشرنقة ومتكاملة، مثل شيء في صندوق. أقرّ بذلك في رشاد روحه الهادئ الركين، واعترف بأن من حقها أن تنغلق على نفسها، أن تكون مكتملة بذاتها، دون شهوة. لقد أدرك ذلك وأقرَّ به. ما كانت ثمة حاجة إلاَّ إلى جهد أخير من جانبه ليفوز لنفسه بالاكتمال نفسه. كان يعرف بأنه لا يلزمه سوى خَضَّة من إرادته كي يتمكن من شرنقة نفسه، كي ينغلق على ذاته مثل صخرة تثبّتت على ذاتها، وصارت كاملة الذات، غير نافذة... شيئاً منعزلاً.

قذفته هذه المعرفة في مُضْطَرب فظيع. ذلك أنه مهما عظمت إرادته، عقلياً، ليكون منيعاً، كامل الذات، فإن الرغبة في تلك الحالة كانت قاصرة، وماكان بوسعه أن يستحدثها. كان في وسعه أن يدرك أنه لكي يكون موجوداً أصلاً. فلابد أن يتحرر من إسار «غدرون» ويتركها، إنْ أرادتْ أن تُتْرَك وشأنها، ولا يطلب أي شيء منها، ولا يطالبها بأي شيء.

بيد أن عدم مطالبتها بأي شيء يعني وجوب وقوفه وحيداً، في لا شيئية محضة. وعند هذه الخاطرة، استحال دماغه صفراً. إنها حالة من حالات اللا شيئية. من جهة أخرى، يمكنه أن يستسلم ويتزلف لها، أو قد يقتلها، في النهاية. أو قد يكتفي بأن يكون غير مبال، لا هدف له، خليعاً، ابن ساعته، لكن طبيعته كانت مفرطة الجدية، وليست لعوباً أو ماكرة بما فيه الكفاية لممارسة التهتك المزدري.

حدث شرخ غريب فيه، ومثل ضحية شُقَّت بطنها ووُهِبَتْ إلى السموات. هكذا كان هو قد مُزِّق إرباً ومُنِحَ إلى «غدرون». كيف يتعين ضمُّ أوصاله ثانية؟ هذا الجرح، هذا الشق الغريب الحساس جداً في روحه، حيث كان منكشفاً، مثل زهرة متفتحة، للعالم

كله... حيث وُهِبَ إلى مكمله الآخر، غير المعروف... هذا الجرح. هذا الانكشاف، هذه الإماطة لغطائه نفسه... ليُتْرَك ناقصاً، متحدداً، غير كامل، مثل وردة متفتحة تحت السماء... تلك كانت فرحته الأشد قساوة... لِمَ، إذاً، يتعين عليه التخلي عن ذلك؟ لم يتعين عليه أنْ يتشرنق، ويمسي منغلقاً، منيعاً مثل شيء جزئي في غمد، في حين أنه كان قد تفتّح، مثل بذرة نبتت فتفتحت على الكينونة، معانقةً السموات التي لا تُدْرَك.

لسوف يُبْقي على النعمة الناقصة من تشوّقه الشخصي حتى من خلال العذاب الذي فرضته هي عليه. لقد تملّكه عناد غريب. لن ينأى عنها مهما قالت أو فعلت. لقد حمله شوق غريب مميت إلى صحبتها. كانت بمثابة الأثر الحاسم في وجوده نفسه، ولو أنها كانت تعامله بازدراء وصدٍّ وجحود متكررين... مع ذلك لن يرحل أبداً. إنه بمجرد وجوده قريباً منها كان يحس بالتسارع والانطلاق في ذاته، والانعتاق ومعرفة حدوده الذاتية، وسحر الوعد، وكذلك سر دماره وفنائه.

لقد عذّبت قلبه المكشوف حتى حين استدار نحوها، وتعذبت هي الأخرى، ربما كانت إرادتها أقوى. لقد أحَسَّتْ، باستفظاع، كأنه قد مزّق البرعم في قلبها، مزقه حتى تفتّح، مثل كائن لجوج لا يحترم أحداً، ومثل صبي ينتزع جناحي ذبابة، أو يمزق برعماً كي يرى ما بداخل الزهرة، فإنه أعمل تمزيقاً في خصوصيتها، في حياتها ذاتها، ولسوف يدمرها مثلما يُدَمِّرُ برعماً فجاً، تفتح بالتمزيق.

ربما كانت لتتفتح له، في أحلامها، منذ أمد طويل، حين كانت روحاً طاهرة. أما الآن فلا يمكن انتهاكها وتدميرها. لقد انغلقت بوجهه في ضراوة.

كانا يرتقيان المنحدر العالي معاً في الأماسي ليشاهدا غروب الشمس. وفي مهب الرياح المرهفة، الرقيقة الهبوب، كانا يقفان ويراقبان الشمس الصفراء وهي تنغمر في اللون القرمزي، وتختفي، ثم تتألق الذرى وسلاسل الجبال في الشرق بلون وردي حي، ملتمعة كأزهار خالدة قبالة سماء أرجوانية بنية، في إعجاز، في حين تكون الدنيا القائمة في الأسفل ظلاً ضارباً إلى الزرقة، وفي الأعلى كانت نشوة وردية تحوم كالبشارة* وسط الهواء.

* كالبشارة، التي حملها الملاك إلى مريم يخبرها فيها بأنها قد اختيرت لتحمل «الطفل المقدس». (المترجم).

كان ذلك في نظرها جميلاً جداً... هيجاناً، كانت تريد أن تضم الذرى الملتمعة السرمدية إلى صدرها، وتموت. أما هو فقد رآها، رآها جميلة، لكنها لم تحرك جيشاناً ما في صدره، بل مجرد أسى. كان خيالياً في جوهره، تمنى لو أن القمم كانت قاتمة غير جميلة كي لا تتلقى «غدرون» عوناً منها. لماذا خانت كليهما على هذا النحو من الفظاعة بمعانقة ألق المساء، علام تركته واقفاً هناك، وريح الثلج تهب خلال قلبه، كالموت، كي تسعد ذاتها بين ذرى الثلج الوردية؟

قال: (ما أهمية الشفق؟ لماذا تتذللين قبالته؟ هل له تلك الأهمية بالنسبة إليك؟).

ارتدّت في غضب وشعور بالاستباحة.

هتفت: (امضِ، واتركني معه). وطفقت تنشد في نغمِات غريبة، جد عاطفية: (إنه جميل... جميل. إنه أجمل شيء رأيته في حياتي.. لا تحاول أن تنحشر بيني وبينه. أغرب عني، إنك نشاز هنا...).

ارتدّ قليلاً في وقفته وتركها واقفة هناك، مثل تمثال، في نشوة الشرق الغامض المتألق. كان اللون الوردي قد أخذ يبهت الآن، وطفقت كواكب بيض كبيرة في الظهور ومضاً. انتظر. لسوف يتخلى عن كل شيء خلا الشوق المضني.

قالت بنبرات باردة قاسية حين استدارت نحوه أخيراً: (كان ذاك أروع شيء شاهدته حتى الآن، يدهشني أنك تنشد تدميره. إن كنت عاجزاً عن رؤيته، لماذا تحاول صدي؟). لكنه في الواقع كان قد دمره لها فعلاً.. فقد كانت تجهد نفسها في سبيل الاستبقاء على أثر ميت.

قال برقة وهو يتطلع نحوها: (في يوم من الأيام، سوف أدمرك أنت وأنت واقفة تنظرين إلى الغروب، لأنك كذوب).

كان في الكلمات وعد رقيق، شهواني، لنفسه. أصابتها قشعريرة، لكنها كانت متعجرفة.

قالت: (ها! أنا لا أخشى تهديداتك!).

امتنعت عليه، وأبقت غرفتها لنفسها على نحو صارم، لكنه ظل ينتظر في صبر عجيب مردّه اشتياقه لها.

تحدث إلى نفسه في وعد شهواني حقيقي: (في النهاية، حين يصل الأمر إلى تلك النقطة، سأستغني عنها). ارتعد ملتذاً في كل طرف من أطرافه، ارتعاد الترقب، كما كان يرتعد في أعنف فورات اهتياجه حين كان يقدم عليها إقداماً شهوانياً، مرتعداً من فرط الرغبة العارمة.

صار لديها آنذاك نوع غريب من الولاء الدائم لـ «لوركه»: شيء غدار، خوّان. كان «جرالد» على علم به، لكن في حالة الصبر غير الطبيعية، وعدم الرغبة في أن يقسو عليها التي ألفى نفسه فيها، لم يأبه، ولو أن عطفها الرقيق حيال الرجل الآخر، الذي كرهه كره الحشرة الضارة، جعله ثانية في نوبة من الارتعاد الغريب التي كثيراً ما كانت تصيبه.

لم يكن يتركها وحيدة إلاَّ حين كان يخرج للتزلج، وهي الرياضة التي كان يحبها ولم تكن تمارسها. عند ذاك كان يبدو منطلقاً خارج الحياة... قذيفة نحو الأبعد. وعند خروجه كانت في الغالب تتجاذب أطراف الحديث مع النحات الألماني القصير. كان موضوعهما فنهما دائماً.

كانا يحملان الآراء نفسها تقريباً، كان يكره «مستروفيتش»*، غير مقتنع بجماعة «المستقبليين»**، كان يحب منحوتات الخشب (الإفريقية الغربية)، والفن (الأزتيكي)*** سواء كان من المكسيك أم من أمريكا الوسطى. كان يرى إلى (الغروتسك)**** فيشعر بالثمل من جراء نوع ما غريب من الحركة الآلية، من فوضى في الطبيعة. كان «لوركه» و «غدرون» يمارسان معاً لعبةً عجيبة، ذات إيحائية مطلقة... غريبة، ماكرة، كما لو كانا على علم خفي بالحياة، وكانا وحدهما قد لُقِّنا الأسرار المركزية المخيفة التي لا يجرؤ العالم على معرفتها. كان تخاطُبُهُما كله ذا

* «إيفان مستروفيتش» (١٨٨٣ - ١٩٦٢). نحات يوغسلافي. (المترجم).

** المستقبلية: حركة فنية تأسست في إيطاليا في العام ١٩٠٥ تسعى إلى تضمين الرسم «شعر الحركة»... الخ، وتدعي بأنها ترسم طريق مستقبل الرسم. (المترجم)

*** «الأزتيكي»: نسبة إلى «الأزتيكين». وهم شعب متمدن حكم المكسيك قبل أن يفتحها الإسبان عام ١٥١٩. (المترجم).

**** «الغروتسك»: قطعة من الفن الزخرفي تتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية متناسجة عادةً مع رسوم أوراق نباتية أو نحوها مما يحيل كل ماهو طبيعي إلى بشاعة أو كاريكاتير. (المترجم).

إيحائية غريبة لا تكاد تُفْهَم، وكانا يبهجان نفسيهما إزاء الشبق الماكر للمصريين والمكسيكيين. كانت كل اللعبة عبارة عن إيحاءات متبادلة ماكرة، وكانا يريدان إبقاءها على مستوى الإيحاء. ومن خلال إيحاءاتهما الشفهية والبدنية كانا يظفران بأسمى راحة للأعصاب، إثر تبادل غريب للخواطر والنظرات والإيماءات شبه المكشوفة، التي كان «جرالد» لا يطيقها إطلاقاً، وإنْ كانت غير مفهومة. لم تكن لديه لغة يفكر فيها حول تواصلهما، فقد كانت لغته مفرطة في عموميتها.

كان إيحاء الفن البدائي ملاذهما، وخفايا الشعور الباطنية موضع عبادتهما. كان (الفن) و(الحياة) بالنسبة إليهما بمثابة (الواقع) و(اللا واقع).

قالت «غدرون»: (طبيعي ألاَّ تهم الحياة في الحقيقة.. إذ أن فن المرء هو المهم، فما يفعله المرء في حياته ليس له سوى علاقة طفيفة* بذلك... إنه لا يعني الكثير).

أجاب النحات: (أجل، هو ذاك، تماماً. إن ما يفعله المرء في فنه لهو بمثابة النَفَس لكينونته، أما ما يفعله في حياته فهو شيء تافه يَتصايح بشأنه الدخلاء).

كان من الغريب أن تجد «غدرون» كل هذا الشعوربالابتهاج والتحرر في هذا التواصل. لقد شعرت بالاستقرار الأبدي. طبيعي أن كان «جرالد» تافهاً... كان الحب أحد الأشياء الزائلة في حياتها، إلا بالقدر الذي كانت فيه فنانة.

لقد فكرت في «كليوباترا»... و«كليوباترا» لابد أنها كانت فنانة، فقد استخلصت الجوهر من الرجل، وحصدت الأحساس الختامي، ورمت القشور... وكذلك «ميري ستيوارت»، و«راشيل»** العظيمة وهي تلهث مع عشاقها بعد العروض المسرحية... هؤلاء كنّ نصيرات الغرام اليسيرات على الفهم. ثم، ما العاشق سوى الوقود لنشوة هذه المعرفة الماكرة، من أجل فن أنثوي، فن المعرفة الخالصة الكاملة في الفهم الحسي.

كان «جرالد» يتجادل مع «لوركه» في أحد الأماسي حول إيطاليا وطرابلس***.

---

* نطقت عبارة (علاقة طفيفة) بالفرنسية. (المترجم).

** «ميري ستيوارت» (١٥٤٢ - ١٥٨٧) ملكة اسكتلندة الجميلة والمحبوبة جداً، للفترة (١٥٤٢ - ١٥٦٧). اضطرت إلى التنازل عن العرش، ثم أعدمتها الملكة «إليزابيث الأولى»، أما «راشيل» فهو الاسم الفني لـ «إليسا فيليكس» (١٨٢٠ - ١٨٥٨) وهي ممثلة مسرحية تراجيدية فرنسية. (المترجم).

*** طرابلس الليبية حالياً، وكانت ليبيا مستعمرة إيطالية يومذاك (حتى استقلالها في العام ١٩٥١). (المترجم).

كان الإنكليزي في حالة غريبة ملتهبة، والألماني في حالة انفعال. كانت مبارة في الكلمات، لكنها كانت تعني صراعاً روحياً بين الرجلين. وطيلة الوقت كان في وسع «غدرون» أن ترى في «جرالد» احتقاراً إنكليزياً للأجنبي. ومع أن «جرالد» كان يرتعد، وامض العينين، محتقن الوجه، فقد كانت في نقاشه فظاظة، وفي تصرفه ازدراء كاسر جعلا دم «غدرون» يضطرم، وصيّرا «لوركه» مرهفَ الأحساس، مجروحَه، ذلك أن «جرالد» كان يهوي بالآراء التي يطرحها كالمطرقة الثقيلة، وكان كل شيء يقوله الألماني الصغير عبارة عن مجرد هراء محتقر.

أخيراً التفت «لوركه» إلى «غدرون» رافعاً يديه في سخرية بائسة وحركة من الكتفين تنم عن رفض ساخر... شيءٍ مُتَرَجٍّ، طفوليٍ.

بدأ كلامه: (ألا ترين، يا أيتها السيدة المحترمة...).

فهتفت «غدرون» وعيناها تومضان وخداها مضطرمان: (أرجوك، لا تقل أبداً أيتها السيدة المحترمة)*.

كانت تبدو كأنها (مديوزا)** حية. كان صوتها عالياً، ضاجاً. صاحت عالياً: (أرجو ألا تناديني بالسيدة «كريتش»).

لقد كان الاسم في فم «لوركه» على الخصوص إهانة لا تحتمل وقيداً يقيدها في تلك الأيام الكثر.

نظر إليها الرجلان في اندهاش. شحب وجه «جرالد» عند عظمي الخدين. سأل «لوركه» في تلميح ناعم مستهزئ: (كيف سأناديك، إذاً؟).

غمغمت وقد احتقن خداها بلون قرمزي: (لا تقل هذا، حسب***. ليس هذا، في الأقل).

لاحظت من النظرة التي بانت على وجه «لوركه» أنه قد فهم، فهي لم تكن السيدة «كريتش»! هكذا إذن... نْ... نْ.. لقد اتضح الكثير.

---

* بادر «لوركه» «غدرون» بالكلام وردت هي عليه بالألمانية. (المترجم).

** «مديوزا» أو «مديوسا» إحدى «الغورغانات» الثلاث، وهؤلاء أخوات ثلاث في الأساطير الإغريقية مكسوات الرؤوس بالأفاعي بدلاً من الشعر، كان كل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر. (المترجم).

*** قالتها بالألمانية. (المترجم).

تساءل بخبث: (هل سأقول يا آنسة؟)*

فقالت بشيء من التعالي: (أنا غير متزوجة).

أخذ قلبها يخفق الآن، ينبض كطير محتار. لقد عرفت أنها تسببت في جرح أليم، فلم تستطع أن تتحمل ذلك.

ظل «جرالد» في جلسته منتصباً، ساكناً كل السكون، وكان وجهه شاحباً هادئاً، مثل وجه تمثال. لم يكن دارياً بها أو بـ «لوركه»، أو بأي أحد. لبث جالساً دون حراك، بهدوء لا يريم. في أثناء ذلك كان «لوركه» قابعاً ينظر إلى أعلى من تحت رأسه المحني.

كانت «غدرون» تعاني العذاب من أجل أن تقول شيئاً ما، كي تخفف من التوجس، لَوَتْ وجهَهَا بابتسامة، وألقت نظرة عارفة، تكاد تكون ساخرة على «جرالد».

خاطبته مكشرة: (الصدق هو الأحسن).

بيد أنها عادت الآن تحت سطوته، الآن، لأنها قد سددت إليه هذه الضربة، لأنها قد دمرته ولم تعرف كيف تلقاها. راقبته، كان مثيراً لاهتمامها، لقد فقدت اهتمامها بـ«لوركه».

أخيراً نهض «جرالد» وتوجه بحركة متهادية هادئة صوب الأستاذ وشرع الاثنان يتحدثان عن «غوته»**.

لقد مست ببساطة تصرف «جرالد» هذا المساء كبرياءها نوعاً ما، لم يبد غاضباً أو مشمئزاً، بل بريئاً طاهراً على نحو غريب، جميلاً حقاً. نظرة التنائي الصافية هذه كانت تظهر عليه أحياناً، فتسحرها على الدوام.

انتظرت طيلة المساء، مضطربة البال. ظنت أنه سيتحاشاها، أو يدل بإشارة ما. لكنه كلمها ببساطة وبدون عاطفة، كما يفعل مع أي شخص آخر في الغرفة، لقد تملك روحَه نوعٌ من السلام، أو الذهول.

ذهبت إلى غرفته، مهتاجة، في أشد الشوق له. كان جميلاً جداً، وبعيد المنال.

* سألها بالألمانية. (المترجم).

** «غوته»: الشاعر والمسرحي والروائي الألماني العظيم. (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢).

قبلها، وتعشقها، واستلذت منه إلى أقصى حد، لكنه لم يفق، بل ظل بعيداً، بلا ضغينة، غير واعٍ. أرادت أن تتحدث إليه. لكن هذه الحالة البريئة الجميلة من اللا وعي التي كانت قد غشيته منعتها، شعرت بالعذاب والكآبة.

لكنه في الصباح، كان ينظر إليها بشيء من النفور، وقد تقتّم شيء من المقت وشيء من الرعب في عينيه. انسحبت إلى موقعها القديم. ومع ذلك لم يشأ أن يحشد قواه ضدها.

كان «لوركه» بانتظارها آنذاك. لقد شعر الفنان القصير، المنعزل في قوقعته الكاملة الخاصة، أن ثمة، بعد لأي، امرأة يستطيع أن يستخلص شيئاً ما منها. كان مضطرباً طيلة الوقت، في انتظار التحدث إليها والتوسل بوسيلة ماكرة للتقرب منها. كان حضورها يملؤه شوقاً وانفعالاً، فانجذب إليها بانسلال، كما لو كانت تملك قوة جذب ما غير منظورة.

لم يكن يشك في موقفه من «جرالد» على الإطلاق. كان «جرالد» أحد الدخلاء، لكن «لوركه» كان يكرهه لغناه وتكبره ووسامة مظهره. إلا أن كل هذه الأشياء، الثروة، الزهو بالمركز الاجتماعي وجمال التكوين الخلقي كانت عوامل خارجية، فحين يتعلق الأمر بالعلاقة بامرأة مثل «غدرون» كان «لوركه» يمتلك أسلوباً وقوة لم يكن «جرالد» ليحلم بهما قط.

كيف يفترض «جرالد» أن يأمل في إرضاء امرأة مثل «غدرون»؟ هل كان يظن أن الكبرياء أو الإرادة المسيطرة، أو القوة البدنية ستساعده؟ كان «لوركه» يعرف سراً يفوق هاتيك الأشياء، ثم إنه كان يملك أعظم قوة هي القوة الماكرة التي تكيّف نفسها، وليست تلك التي تهاجم هجوماً أعمى. ثم إنه، «لوركه»، كان يملك تفهماً حيث كان «جرالد» فتى غراً. كان «لوركه» يستطيع أن يسبر أغواراً أبعد بكثير من معرفة «جرالد». كان «جرالد» يُتْرَكُ في الخلف، مثل مُرَشَّح للرهبنة قابع في غرفة الانتظار في معبد الأسرار هذا.. هذه المرأة. لكنْ، ألم يكن في مستطاعه، هو، «لوركه»، أن يتغلغل حتى العتمة الباطنية، ويجد روح المرأة في مختلاها الداخلي، ويصارع معها هناك، يصارع الثعبان المركزي الملتوي في قلب الحياة؟ ما الذي تريده المرأة، فضلاً عن ذلك؟.. هل هو مجرد التأثير الاجتماعي، تحقيق الطموح في عالم اجتماعي، في

المجتمع البشري؟... أم ترى أنه يرقى إلى التواصل في الحب والطيبة؟.. هل كانت تبغي «الطيبة»؟ من يتقبل هذا من «غدرون» غير الأحمق؟ إنه ليس سوى المظهر الخارجي لحاجاتها. اجتز العتبة، تَجِدْها بكليتها... شكّاكةً تماماً بالعالم الاجتماعي بكل مزاياه. وحالما تكون داخل مسكن روحها، تجد جواً لاذعاً من التآكل، ظلاماً ملتهباً من المشاعر ووعياً حيوياً، دقيقاً، مدققاً يرى العالم مشوهاً، مريعاً.

ثم ماذا؟ ماذا بعد ذلك؟.. هل سيرضيها عند ذاك مجرد قوة عمياء من العاطفة المشبوبة؟ ليس هذا، بل الرعشات الرقيقة لمنتهى مشاعر الهوى، وهي في غمرة التحول. كانت عبارة عن إرادة لا تلين، متفاعلة ضد إرادتها التي لا تلين في الغزير من رعشات التحول الرقيقة، النشاطات الرقيقة الأخيرة للتحليل والتحلل، الجارية في داخل عتمتها، في حين يكون الشكل الخارجي، أي الشخص، غير متغير البتة، بل عاطفياً في مواقفه.

لكن مدى التجربة الحسية الخالصة بين شخصين معينين، أي شخصين على وجه البسيطة، يكون محدوداً. فإن بلوغ ذروة رد الفعل الحسية، عند بلوغها في أي اتجاه، سيكون نهائياً ولا مجال لاستمراره. ليس ممكناً سوى التكرار، أو تباعد بطلي الحدث، أو إخضاع إرادة أحدهما إلى الآخر، أو الموت.

كان «جرالد» قد تغلغل في جميع المواضع الخارجية من روح «غدرون». كان في نظرها أهم مثال على العالم القائم، الكمال* في دنيا الرجال كما هي قائمة في نظرها. في «جرالد» عرفت الدنيا وفرغت منها. وإذ عرفته نهائياً، غدت الاسكندر الباحث عن عوالم جديدة. بيد أنه ماكانت ثمة عوالم جديدة، وماكان ثمة رجال آخرون، لم يكن هناك سوى مخلوقات، مخلوقات صغيرة، نهائية، مثل «لوركه». لقد انتهى العالم الآن بالنسبة إليها. لم تبق سوى الظلمة الداخلية الشخصية، الإحساس داخل الأنا، السر الفاضح الديني للتحول الختامي، النشاطات الاحتكاكية الغامضة للتحول التنازلي، الشيطاني المجَزِّئ لكيان الحياة الحيوي، العضوي.

كل هذا كانت تعرفه «غدرون» في عقلها الباطن، لا في عقلها الواعي. كانت تعرف خطوتها التالية. كانت تعرف المقصد الذي عليها أن تمضي إليه قدماً إذا

---

* ورد المصطلح الذي يعني «الكمال» باللاتينية (المترجم).

ماهجرت «جرالد». كانت تخاف من «جرالد» خشية أن يقتلها. لكنْ ماكان في نيتها أن تُقْتَل. كان هناك خيط رفيع لم يزل يوحّدها به، ولا يجب أن يكون موتُها سببَ قطعه. كانت أمامها مسافة أبعد ستقطعها، وثمار تجربة وئيدة رائعة أخرى ستجنيها، ولطافات لا توصف من الإحساس ستعرفها، قبل أن تنتهي هي.

كان «جرالد» غير متمكن من السلسلة الأخيرة من اللطافات. كان لا يستطيع أن يلمسها في الصميم. وحيث عجزت ضرباته الأعنف أن تتخلل هناك، كان إدراك «لوركه» الحشري قادراً على بلوغه بالنصل الرقيق الإيحائي لذلك الإدراك. لقد حان الوقت، في الأقل، كي تنتقل إلى الشخص الآخر، المخلوق الحِرَفيِّ، النهائي. كانت تعرف أن «لوركه» كان، في صميم روحه، متجرداً عن كل شيء، فلا سماء عنده ولا أرض ولا جحيم. لم يقرّ بأي ولاء، ولا بأي انتماء لأي كان. كان متفرداً. وبالتجرد عن سائر الخلق، كان مطلقاً في ذاته.

في حين كان بعض الارتباط بالآخرين، بالجميع، ما انفكّ لابثاً في نفس «جرالد» وهذا كان قصوره، كان محصوراً، مقيداً في تفكيره، خاضعاً لحاجته، في المقام الأخير، إلى الطيبة، إلى الاستقامة، إلى التوحد مع الغاية النهائية، واحتمال أن يكون الهدف النهائي هو التجربة الكاملة الدقيقة لعملية الموت، مع إبقاء الإرادة دون تضرر، فذلك مالم يُسْمَح له به، تلك كانت حدوده.

كان هناك نصر حائم في نفس «لوركه» منذ أن أنكرت «غدرون» زواجها من «جرالد». بدا الفنان مرفرفاً مثل مخلوق ذي جناحين ينتظر أن يحط. لم يتقرب إلى «غدرون» بعنف، إذ لم يكن يسيء توقيته قط، إنما ساقته غريزة واثقة في كامل ظلمة روحه فتخاطب معها صوفياً، على نحو غير محسوس، لكنه ملموس.

ظل يحاورها مدة يومين مواصلاً النقاش حول الفن وحول الحياة، وهما الموضوعان اللذان كانا يجدان فيهما متعة فائقة. وأطريا الأشياء القديمة، وسُرّا على نحو عاطفي طفولي بكمال منجزات الماضي. وأحبا على الخصوص الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، فترة «غوته» و«شلي» و«موتسارت»*.

* «شلي» الشاعر الرومانسي الإنكليزي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) . (المترجم) .
«موتسارت» الموسيقار النمساوي العظيم (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) . (المترجم) .

تلاعبا مع الماضي، ومع شخصيات الماضي البارزة، لعبة صغيرة من قبيل الشطرنج أو الدمى المحركة، كل ذلك كي يدخلا السرور على نفسيهما. اتخذا من كل الرجال العظام دمى لهما، ونصبا نفسيهما رباً للاستعراض ومشغلاً له كله. أما بالنسبة إلى المستقبل، فلم يذكراه قط إلا بصيغة أضحوكة حلم ساخر ما، من أحدهما، عن تدمير العالم جراء نكبة سخيفة من صنع الإنسان: رجل استنبط متفجِّراً بلغ من الكمال أنه نسف الأرض فأحالها شطرين، وانطلق النصفان في الفضاء باتجاهين مختلفين مما أرعب السكان: أو أن سكان المعمورة انقسموا إلى نصفين، وقرر كل نصف أنه مصيب وكامل وأن النصف الآخر على باطل ويجب تدميره، وبذلك ستكون نهاية العالم. أو بدلاً من ذلك، كان هناك حلم الرعب الذي حلمه «لوركه» حيث استحال العالم بارداً وسقط الثلج في كل مكان ولم يقاوم أحدٌ للبقاء في قسوة الثلوج سوى المخلوقات البيض: الدببة القطبية، والثعالب البيض، ورجال يشبهون الطيور المثلجة البيض الفظيعة.

باستثناء هذه القصص، لم يتحدثا عن المستقبل قط. كانا يستمتعان جداً بتصورات الدمار الزائفة أو باستعراضات دموية، عاطفية لطيفة عن الماضي. كانت متعة عاطفية: استعادة تكوين عالم «غوته» في (فايمار)*، أو عالم «شيلر» والفقر والحب المخلص، أو إعادة مشاهدة «جان جاك» في جلساته التأملية، أو «فولتير» في (فرني) أو «فردريك» الكبير وهو يتلو قصائده هو.

كانا يتحدثان طيلة ساعات عن الأدب والنحت والرسم الزيتي، يمتعان نفسيهما مع

* (فايمار) : بلدة في شرقي ألمانيا ، كانت مركز الحياة الثقافية الألمانية أيام «غوته» .
- «شيلر» : الشاعر والمسرحي الألماني (١٧٥٩ - ١٨٠٥) .
- «جان جاك روسو» : الفيلسوف السياسي والمربي المولود في النمسا (١٧١٢ - ١٧٧٨) .
- «فولتير» الكاتب الفرنسي (١٦٩٤ - ١٧٧٨) الذي استقر في وقت لاحق في (فرني) في سويسرا .
- «فردريك الكبير» ملك بروسيا (١٧١٢ - ١٧٨٦) الذي كان مهتماً بالأدب والموسيقى .
- «جون فلاكسمان» : (١٧٥٥ - ١٨٢٦) نحات إنكليزي .
- «ويليم بليك» : (١٧٥٧ - ١٨٢٧) الشاعر والرسام الإنكليزي .
- «فوزللي» : (١٧٤١ - ١٨٢٥) رسام ولد في سويسرا واستقر في إنكلترة .
- «فويرباخ» : (١٨٢٩ - ١٨٨٠) . رسام ألماني .
- «بوكلن» : (١٨٢٧ - ١٩٠٩) رسام سويسري .

«فلاكسمان» و«بليك» و«فوزللي» برقة، وكذلك مع «فوير باخ» و«بوكلن». لقد شعرا بأنهما لو أرادا أن يعيشا حياة الفنانين العظام ثانية، على نحو مصغر* لاستغرق ذلك عمراً برمته منهما، إلا أنهما رجحا البقاء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

تحدثا بخليط من اللغات. أما الأساس فكان الفرنسية بالنسبة إلى كل منهما. لكنه كان ينهي معظم جمله بِعَشْرَةٍ بالإنكليزية وبخاتمة بالألمانية، وكانت هي تشق طريقها إلى هدفها بمهارة بأية عبارة ترد على خاطرها. كانت تستمتع بهذه المحادثة على نحو خاص. كانت تزخر بالتعبيرات الغريبة الضخمة، وازدواج المعنى، والتهرب، واللبس الموحي. كانت متعةً بدنية حقيقية لها أنْ تصنع خيط المحادثة هذا من الجدائل المختلفة الألوان للّغات ثلاث.

كان الاثنان يحومان طوال الوقت حول شعلة من بوح ما، غير منظور، ويترددان. كان هو ينشد البوحَ، لكنّ إحجاماً حتمياً ما كان يردّه، وكانت هي الأخرى تنشده لكنها أرادت أن ترجئه، ترجئه، إلى أجل غير معلوم، فقد كانت تشعر بشيء من الشفقة حيال «جرالد»، بشيء من الصلة به، وأَقْتَلُ من كل ذلك، إنها كانت تشعر بتأسٍ عاطفي حافلٍ بالذكريات، حيال نفسها معه. وبسبب ماكان، أحسّت بأنها مرتبطة به بخيوط سرمدية غير مرئية... بسبب ماكان... بسبب مجيئة إليها في تلك الليلة الأولى، في بيتها، في ساعة شدته... بسبب...

تملك «جرالد» تدريجياً اشمئزازٌ ماقتٌ لـ «لوركه». لم يكن يأخذ الرجل مأخذ الجد، بل كان يحتقره حسب، إلا عند إحساسه بتأثير المخلوق الصغير في عروق «غدرون». ذلك ماكان يثير «جرالد»، الإحساس بحضور «لوركه» في عروق «غدرون»، بوجود «لوركه» سارياً فيها، مهيمناً.

سألها، محتاراً حقاً: (ما الذي يجعلك مفتونة هكذا بتلك الحشرة؟). ذلك أنه لم يستطع، وهو الرجل، أن يلحظ أي شيء جذاب أو مهم البتة في «لوركه». كان «جرالد» يتوقع وجود بعض الوسامة أو النبل تعليلاً لخضوع المرأة. بيد أنه لم ير أي شيء من هذا القبيل سوى مصدر للنفور حشري.

---

* ورد تعبير (على نحو مصغر) باللاتينية. (المترجم).

احتقن وجه «غدرون» شديداً، تلك هي الهجمات التي لن تغفرها له أبداً.

أجابت: (ماذا تعني؟ رباه! أية نعمة ألا أكون متزوجة منك!).

مسّ صوتها المهين والمزدري كبرياءه. لقد أُوقِفَ عند حده، لكنه استفاق. أعاد الطلب بصوت خَطِرٍ مُضَيَّق: (أخبريني، أخبريني فقط، ما الذي يفتنك به؟).

قالت ببراءة باردة منفرة: (لست مفتونة)..

- (بل إنك مفتونة... أنت مفتونة بذلك الثعبان الصغير، الممل، مثل طيرٍ فاغرٍ فاه، على وشك السقوط في حلقه). نظرت إليه بغضب أسود.

قالت: (لا أرغب أن أكون موضع بحثك).

أجاب: (ليس مهماً أن ترغبي أم لا. ذلك لا يغير حقيقة استعدادك لتجثمي وتقبلي قدمَيّ هذه الحشرة الصغيرة، وأنا لا أريد أن أمنعك.. هيا اجثمي وقبلي قدميه. لكنني أريد أن أعرف ما الذي يفتنك... ما هو؟). لزمت الصمت، وقد اجتاحها غيظ أسود.

صاحت: (كيف تجرؤ أن تأتي لترهبني بالصياح؟ كيف تتجرأ، أيها المشاكس، يا زير النساء التافه؟ أيُّ حق لك عليّ، كما تظن؟).

كان وجهه شاحباً ملتمعاً. عرفت من ضوء عينيه أنها كانت في قبضته... قبضة الذئب. ولأنها كانت تحت سيطرته فقد كرهته بقوة تعجبت هي كيف أنها لم تقتله. لقد قتلته.. بإرادتها، وهو واقف إزاءها. لقد محته محواً.

قال «جرالد» فيما كان يجلس على كرسي: (ليست القضية قضية حق). لاحظت التغيّر في بدنه، رأت جسمه المشدود الآلي يتململ مثل الهاجس. اشتبك كرهها له بازدراء قتّال.

- (ليست القضية قضية حقي عليك... وإن كنت أملك بعض الحق، كما تذكرين. أريد أن أعرف. أريد أن أعرف، فقط، ما الذي يُخضِعُكِ إلى ذلك النحات القزم الحقير الموجود في الطابق الأسفل، ما الذي يُنزِلك من عليائك، مثل يرقة وضيعة، لعبادته. أريد أن أعرف ما الذي تسعين إليه بدبيبك هذا).

لبثت واقفة إزاء النافذة، تستمع. ثم استدارت.

قالت، بأمضى صوت وأيسره: (صحيح؟.. هل تريد أن تعرف ما عنده؟.. السبب أنّ لديه فهماً للمرأة... فهوليس بليداً .. هو ذا السبب).

ظهرت على وجه «جرالد» ابتسامة غريبة، منحوسة، حيوانية.

قال: (لكنْ أي فهم هذا؟.. إدراك برغوثٍ، برغوثٍ قفّازٍ، ذي خرطوم. لماذا يتعين عليك أن تدبّي بحقارة إزاء إدراك برغوث؟).

مر بخاطر «غدرون» تصوير «بليك»* لروح برغوث، أرادت أن تفصّله على مقاس «لوركه». كان «بليك» مهرجاً هو الآخر، لكنْ كان من اللازم إجابة «جرالد».

سألته: (ألا تعتقد بأن إدراك البرغوث أكثر إثارة للاهتمام من إدراك الأحمق؟!).

كرر: (الأحمق؟!).

أجابت: (الأحمق، الأحمق المغرور....). وأضافت الكلمة الألمانية المرادفة: (الأحمق المغرور).

أجاب: (أتسمينني أحمق؟.. حسن. أليس من الأفضل أن أكون هذا الأحمق الذي هو أنا من ذلك البرغوث الموجود في الطابق الأسفل؟).

فنظرت إليه. فغشي روحَها غباءُ كليلٌ أعمى كان موجوداً فيه، فَقَيَّدَها.

قالت: (إنك تفضح دخيلتك، بتلك العبارة الأخيرة).

قال: (إني راحل قريباً).

التفتت نحوه.

قالت: (تذكّر بأنني مستقلة عنك كلياً... كلياً. اتخذ ترتيباتك، وأنا أتخذ ترتيباتي).

فكر ملياً في هذا.

سألها: (تقصدين أننا غريبان اعتباراً من هذه الدقيقة؟).

توقفت واحتقن وجهها. كان يوقعها في شرك، مقسراً إياها على الكشف عن أوراقها.

استدارت نحوه.

قالت: (غريبان.. لا يمكننا أن نكون أبداً. لكنْ إذا أردت أن تقوم بأية حركة في معزل عني، فأود أن تعرف بأنك حر تماماً في أن تفعل ذلك. لا تدخلني في الحسبان البتة).

---

* المقصود «ويليم بليك» الذي تتسم أعماله بالطابع الرمزي. (المترجم).

حتى مثل هذا التلميح الطفيف إلى حاجتها إليه، واعتمادها عليه، حتى الساعة كان كافياً لإثارة عواطفه. وفيما هو جالس، طرأ تغيّر على جسمه، وصعد الدفق الساخن، الذائب، إلى عروقه، دون إرادة منه. كان يئن في دخيلته، من قيده، لكنه أحب ذلك. نظر إليها بعينين صافيتين بانتظارها.

أدركت ذلك فوراً، فاختضت من نفور بارد. كيف يمكنه أن ينظر إليها بتلك العينين الصافيتين الدافئتين، المنتظرتين، ويظل ينتظرها حتى في ذلك الظرف؟.. ماقيل بينهما، ألم يكن كافياً ليفرّق بينهما مسافة عوالم، ويجمّدها في فراق أبدي؟.. ومع ذلك، كان قد أثير وانتشى تماماً، في انتظارها.

لقد حيّرها ذلك. قالت، وهي تميل رأسها إلى الجانب:

ـ (سوف أعلمك دائماً حالما أنوي أن أجري تغييراً ما...).

قالت ذلك ومضت إلى خارج الغرفة.

ظل جالساً لا يريم، في ارتدادٍ مرهف أساسه الخيبة التي بدت مدمِّرةً إدراكه شيئاً فشيئاً، لكن حالة الصبر اللا واعية ظلت لا تبارحه. بقي دون حراك، دون فكر أو معرفة، مدة طويلة، ثم نهض ومضى إلى الطابق الأسفل ليلعب الشطرنج مع أحد الطلاب. كان وجهه منفتحاً ورائقاً، عليه سيماء بريئة من عدم التحفظ* أقلقت «غدرون» إلى أقصى حد وجعلتها خائفة منه، تقريباً، وهي له كارهة كلَّ الكره في الوقت نفسه.

بعد هذا، أخذ «لوركه» الذي لم يكن قد تحدث إليها على مستوى شخصي بعد، قط، يسألها عن حالتها.

سألها: (أنت لست متزوجة إطلاقاً، أليس كذلك؟!).

نظرت إليه بملء عينيها.

أجابت على طريقتها المحسوبة: (كلا، البتة). ضحك «لوركه» مغضّناً وجه على نحو غريب. كانت ثمة خصلة رقيقة من شعره شاردة على جبينه، فلاحظت أن بشرته كانت ذات لون أسمر صاف، كما لاحظت يديه ورسغيه. بدت يداه معدَّتين للإمساك الشديد، وبدا هو مثل حجر (التوباز) ضارباً إلى اللون البني وصافياً على نحو غريب.

* ورد تعبير (عدم التحفظ) بالفرنسية. (المترجم).

قال: (جيد).

مع ذلك، كان استمراره في الكلام يتطلب بعض الشجاعة.

سألها: (هل السيدة «بركن» أختك؟).

- (نعم).

- (وهي متزوجة؟).

- (نعم، متزوجة).

- (وهل عندكما والداكما؟).

قالت «غدرون»: (أجل، عندنا والدانا).

وأخبرته، بإيجاز مقتضب، عن وضعها. كان يراقبها عن كثب، بفضول، طيلة الوقت. هتف بشيء من المباغتة: (هكذا إذاً! والسيد «كريتش» هل هو موسر؟).

- (نعم إنه موسر، ملاّك للفحم).

- (كم مضى على صداقتكما؟).

- (بضعة أشهر).

تلا ذلك صمت.

قال أخيراً: (نعم، أنا مستغرب، الإنكليز كنت أظن أنهم... باردون جداً. وماذا تظنين أنك فاعلة حين تغادرين هذا المكان؟).

كررت: (ماذا أظن أني فاعلة؟).

قال: (نعم، إنك لا تستطيعين العودة إلى التدريس... كلا) - وهز كتفيه - (هذا محال، اتركي ذلك للرعاع* الذين لا يستطيعون عمل أي شيء آخر. أنت، بالنسبة إليك... أنت، كما تعلمين، امرأة استثنائية، امرأة غير اعتيادية**. لِمَ إنكار ذلك.. علام التساؤل؟ إنك امرأة غير اعتيادية. لماذا يتعين عليك أن تتبعي المسلك الاعتيادي، الحياة العادية؟).

لبثت «غدرون» تنظر إلى يديها، وقد احتقن وجهها. سرها أنه قال بكل بساطة إنها امرأة استثنائية. ماكان ليقول ذلك إطراءً لها... فقد كان معتداً برأيه وموضوعياً جداً بطبيعته.

---

* نطق كلمة (الرعاع) بالفرنسية. (المترجم).

** عبارة (امرأة غير اعتيادية) بالألمانية. (المترجم).

قالها كما يقول إن عملاً ما في النحت رائع، لأنه يعرف أنه كذلك.

طاب لها أن تسمعها منه. ثمة أناس آخرون يهوون كثيراً جعل كل شيء بمرتبة واحدة، على نمط واحد. فمن الأناقة في إنكلترة أن يكون المرء عادياً تماماً. لقد ارتاحت حين اعترف لها بالامتياز، فلا لزوم للتبرم بشأن المعايير الدارجة.

قالت: (المسألة هي أنني لا أملك مالاً مهما كان).

فهتف، معلياً كتفيه: (آخ، المال! حين يكبر المرء، يكون المال متوافراً في خدمته، ولا يندر إلا في الصغر. لا تفكّري بالمال.. إنه في متناول اليد دائماً).

قالت وهي تضحك: (صحيح؟).

- (دائماً. سيمنحك «جرالد» مبلغاً إنْ طلبتِ ذلك منه...).

احتقن وجهها شديداً.

قالت بشيء من الصعوبة: (سأسأل أي شخص آخر، عداه). رمقها «لوركه» بنظرة متفحصة.

قال: (جيد، فليكن شخصاً آخر. فقط، لا تعودي إلى إنكلترة تلك، إلى المدرسة تلك. لا، فذلك غباء).

ومن جديد، ران صمت. كان يخشى أن يسألها مباشرة أن تصاحبه، بل إنه لم يكن متأكداً تماماً أنه يريدها. أما هي، فكانت تخشى أن يسألها. لقد ضنَّ بعزلته، وحرص كثيراً على مسألة مشاركة حياته، حتى وإن كان يوماً واحداً.

قالت: (المكان الآخر الوحيد الذي أعرفه هو باريس، وأنا لا أتحمل ذلك).

نظرت إلى «لوركه» بعينيها الواسعتين، المستقرتين. طأطأ رأسه ونحى وجهه.

قال: (باريس، لا! بين دينِ الحب* وأحدث المذاهب الفنية، والتوجه الجديد نحو (يسوع)، من الأفضل للمرء أنَ يمتطي أحد خيول لعبة الدوامة** طيلة اليوم. لكن، تعالي إلى (درزدن)، عندي مشغل هناك... أستطيع أن أوليك عملاً... أوه، سيكون ذلك سهلاً بما فيه الكفاية. لم أر أيّاً من أعمالك لكنني أؤمن بك. تعالي إلى (درزدن).. إنها مدينة لطيفُ السكن فيها، تطيب فيها الحياة كما هو المتوقع في المدن. لديك كل شيء هناك، من دون طيش باريس أو جعة ميونيخ).

---

* نطق عبارة (دين الحب) بالفرنسية. (المترجم).

** لعبة الخيول الاصطناعية التي يمتطيها الأطفال عادة في مدن الألعاب، وتدور بهم في دائرة. (المترجم).

لبث جالساً ينظر إليها ببرود. ما أحبت فيه كان مخاطبته إياها ببساطة ومباشرة، كما لو كان يخاطب نفسه. كان، بالنسبة إليها، زميلاً في الحرفة، زميلاً في الكينونة، قبل أي شيء آخر.

واصل كلامه: (لا لباريس. إنها تبعث في نفسي الاشمئزاز... پاه... الغرام... إني أمقته.. الغرام، الهوى، الحب* أكرهه بكل اللغات)، ثم هتف: (النساء والحب.. لا يوجد ماهو أضجر منهما).

أحست بشيء من الاستياء. ومع ذلك، فقد كان هذا هو شعورها الأساسي هي. الرجال والحب... لا يوجد ماهو أضجر منهما.

قالت: (أرى الشيء نفسه).

كرر قائلاً: (مصدر إزعاج.. ما الذي يهم سواء ارتديت هذه القبعة أم تلك. وكذلك الحب. لا حاجة بي لأن أرتدي قبعة، إطلاقاً. فقط حسب ما أشتهي. كذلك لا أحتاج إلى الحب إلاّ على راحتي. أقول لك أيتها السيدة المحترمة..). قالها ومال نحوها، ثم أومأ إيماءة سريعة غريبة، كضاربٍ شيئاً لتنحيته... (ايتها الآنسة المحترمة**، لا عليك... أقول لك، إني مستعد لأن أعطي كل شيء، كل شيء، كل حبك، مقابل رفقة ذكاء قليلة...). وومضت عيناه غموضاً وشراً صوبها، ثم سألها بابتسامة طفيفة: (هل تفهمين؟... لن يهمني إذا كان عمرها مئة سنة، أو ألفاً... كله سيان بالنسبة إلي، ما دامت تستطيع أن تفهم).

أغمض عينيه فجأة.

ومرة أخرى، أحست «غدرون» بشيء من الاستياء. ألم يكن يظن أنها جميلة، إذاً؟ وفجأة ضحكت.

قالت: (سأضطر إلى الانتظار، ما يقارب الثمانين عاماً لأناسبك في ذلك. أنا على شيء من الدمامة، أليس كذلك؟).

فنظر إليها بعين فنان ناقدة، مقوِّمة، فجائية.

---

* نطق كلمة (الغرام) بالفرنسية و(الحب) بالألمانية و(الهوى) بالإيطالية. (المترجم).

** قال (السيدة المحترمة) ثم (الآنسة المحترمة) بالألمانية. (المترجم).

قال: (إنك جميلة، وأنا مسرور لذلك)، ثم هتف بتأكيدٍ أطراها: (لكن هذه ليست هي المسألة... ليست تلك. إنها امتلاكك لنوع من الفطنة، ونوع من الإدراك. فبالنسبة إلي، أنا صغير قميء*، غير مثير للاهتمام، حسن! إذاً، لا تطلبي إليَّ أن أكون قوياً ووسيماً. لكنه الأنا). ـ قالها واضعاً أصابعه على فمه على نحو غريب ـ (هذا الأنا هو الذي يبحث عن خليلة، وأناي ينتظر الأنت من الخليلة، ينتظر النِدَّ الذكائي الذاتي، أتفهمين؟).

قالت: (أجل، أنا فاهمة).

ـ (أما بشأن الشيء الآخر، هذا الغرام) ـ أومأ، مطلقاً يده إلى جانب، كما لو كان يزيح شيئاً مزعجاً ـ (فهذا غير مهم، غير مهم. هل يهم إنْ شربتُ نبيذاً أبيض هذا المساء أم لم أشرب أي شيء؟ ذلك لا يهم، ذلك لا يهم.. وهكذا هذا الحب، هذا الغرام، هذه القُبلة... نعم أم لا، كانت أم لم تكن، اليوم، غداً، أو لا إلى الأبد، كله سواء.. لا يهم. ليس أكثر من النبيذ الأبيض)**.

انتهى بنكسة غريبة من الرأس في إنكار يائس.. راقبته «غدرون» على نحو مستديم، كان لون وجهها قد صار شاحباً.

فجأة مالت نحوه ومسكت يده بيدها.

قالت بصوت عال، متحمس، نوعاً ما: (ذلك صحيح... ذلك صحيح، بالنسبة إلي كذلك، المهم هو الفهم).

نظر إليها في ما يقرب من الخوف والنزوع إلى التملص، ثم أومأ برأسه، مع شيء من العبوس. تركت يده: لم يكن قد أبدى أدنى استجابة وجلسا صامتين.

قال، ناظراً إليها فجأة بعينين مبهمتين، متنبئتين، معتدتين: (هل تدرين أن مصيرك ومصيري سيمضيان معاً حتى...). وتوقف فجأة، بتقطيبة طفيفة.

سألته، شاحبة، وقد ابيضت شفتاها: (حتى متى..). كانت فظيعة التأثر بنذر السوء هذه ، لكنه هز رأسه حسب.

قال: (لا أعرف.، لا أعرف..).

لم يعد «جرالد» من التزلج حتى حلول الظلام، ففاتته القهوة والكعك اللذان

---

* قال (قميء) بالفرنسية . (المترجم) .

** قال (الغرام) و(القبلة) و(كانت أم لم تكن) بالفرنسية . (المترجم) .

يتناولهما عند الساعة الرابعة. كان الثلج بحالة رائعة، وقد جال مسافة طويلة، بمفرده، بين تلول الثلج على مزلجته، وصعد عالياً عالياً إلى درجة مكّنته من أن يرى من فوق قمة الشعْب وعلى مسافة خمسة أميال من البعد، يرى (مارين أوته)، النزل القائم على قمة الشعب، نصف مطمور بالثلج، وما بعده كذلك، سفح الوادي العميق حتى غسق أشجار الصنوبر. يمكن للمرء أن يمضي إلى مسكنه من ذلك الطريق. لكنه ارتعد غثياناً من فكرة المسكن... في مقدور المرء أن ينزل على المزلجة إلى هناك ويصل إلى الطريق (الإمبراطوري) القديم، في أسفل الشعْب. لكن لماذا سلوك أي طريق؟ ثار على خاطرة وجود نفسه في الدنيا ثانية، لابد له من البقاء هناك في ثلوج الأعالي إلى الأبد.

كان سعيداً بانفراده هناك في الأعالي، مارقاً على المزلجتين بسرعة، طائراً بوثبات مديدة، مندفعاً حذو الصخور الدُكْنِ المعرّقة بالثلج اللماع.

بيد أنه أحس بشيء بارد كالثلج يتجمع في فؤاده. هذا المزاج الغريب من الصبر والبراءة الذي تلبّث عنده بضعة أيام كان في طريقه إلى الزوال، ولسوف يجد نفسه ثانية فريسةً للعذابات والعواطف المشبوبة الفظيعة، هكذا هبط، ممتعضاً، مُسفَعاً بالثلج ومغترباً بالثلج، إلى النزل الواقع في الغور بين مفاصل قمم الجبال. رأى أنواره تضيء صغاراً، فتوقف متمنياً لو أنه ما احتاج إلى الدخول ومواجهة أولئك الناس وسماع صخب الأصوات والإحساس بفوضى حضور الآخرين. كان منعزلاً، كأن ثمة فراغاً يحيق بقلبه، أو دثاراً من ثلج خالص.

في اللحظة التي رأى فيها «غدرون» أختضّ شيء ما في روحه. كانت تبدو أقرب إلى التعالي والتفوق، وهي تبتسم للألمان ببطء وكياسة. وثبت رغبة مفاجئة في فؤاده ليقتلها. ظنّ أن قتلها سيكون منجزاً رائعاً شهوانياً حقاً. لقد غاب عقله طيلة المساء، جراء تغربه بسبب الثلج وشهوته. بيد أنه استبقى الفكرة في دخيلته على الدوام. كَمْ شهوانيٌّ وكامل سيكون إنجاز خنقها، خَنْق كل ومضة من ومضات الحياة فيها حتى ترقد فاقدةً الشعور تماماً، ناعمةً، مرتخيةً إلى الأبد. ستكون خاتمةٌ جدَّ متكاملة وشهوانية.

لم تكن «غدرون» واعية بما كان يشعر، فقد بدا هادئاً وودوداً، كالمعتاد، حتى إن دماثة خلقه جعلتها تشعر بالقسوة حياله.

دخلت غرفته حين كان قد خلع بعضاً من ملابسه. لم تلاحظ ومضة المقت المحض، الغريبة، الجذلة التي كان ينظر بها إليها. وقفت قرب الباب ويدها خلفها.

قالت بلا مبالاة مهينة: (صرت أفكر يا «جرالد» بعدم الرجوع إلى إنكلترة).

قال: (أوه، إلى أين ستذهبين إذاً؟).

لكنها تجاهلت سؤاله. كان عندها قولها المنطقي الخاص بها، ولابد من قوله كما كانت قد فكرت به.

واصلت: (لا أرى جدوى في الرجوع. لقد انتهى مابيني وبينك...). توقفت كي يتكلم، لكنه لم يقل أي شيء. كان يحدث نفسه حسب قائلاً:

ـ (أصحيح أنه قد انتهى؟ أظن أنه قد انتهى، لكنه لم يختتم. تذكري أنه لم يختتم، لابد لنا من أن نضع خاتمة ما لذلك. لابد أن يكون ثمة ختام، لابد أن يكون هناك منتهى).

هكذا كان يتحدث إلى نفسه. لكنه لم يقل أي شيء بصوت عال إطلاقاً. مضت في الكلام: (ماكانَ كان، ليس هنالك أي شيء أنا آسفة عليه. آمل أنك غير آسف على أي شيء...).

انتظرته كي يتكلم.

قال مجاملاً: (أوه، لست آسفاً على شيء).

أجابت: (حسن، إذاً.. حسن، إذاً. إذاً لا يشعر أيّ منا بأي أسف. وهذا ما يجب أن يكون).

قال، في شرود: (تماماً، كما يجب أن يكون).

توقفت لتستجمع خيوط تفكيرها ثانية.

قالت: (كانت محاولتنا فاشلة، لكن يمكننا أن نحاول ثانية من موقع آخر).

سرت في دمه ومضة طفيفة من الغيظ، كأنها كانت تثيره، تنخسه. لِمَ يجب عليها أن تفعل ذلك؟..

سألها: (محاولةُ ماذا؟).

قالت محتارةً قليلاً، لكنها جاعلة كل شيء يبدو جدّ تافه: (محاولة أن نكون عاشقين، على ما أ حسب).

كرر بصوت عال: (محاولتنا أن نكون عاشقين قد باءت بالفشل؟)..

وإلى نفسه كان يقول: (يجب أن أقتلها هنا، لم يبق لي غير هذا، أن أقتلها).

استبدت به رغبة عارمة، هائجة، ليحقق موتها، أما هي فكانت غير عارفة.

تساءلت: (أليس كذلك؟ هل تعتقد بأنها كانت ناجحة؟).

مرةً أخرى، سرت إهانة التساؤل الوقح في دمه، كتيار من نار.

أجاب: (كانت فيها بعض عناصر النجاح، علاقتنا. كان من الجائز أن تنجح).

لكنه توقف قبل أن يختم العبارة الأخيرة. حتى حين بدأ الجملة لم يكن يعتقد بما كان سيقوله. كان يعرف أن علاقتهما ماكان لها أن تنجح أبداً.

أجابت: (كلا، إذْ لا يمكنك أن تحب).

سألها: (وأنت؟).

استقرت عيناها الواسعتان المعتمتان كلياً، مثل قمرين من ظلام. قالت بصوت بارد، صارخ: (ماكان في مقدوري أن أحبك أنتَ).

مرقت في دماغه ومضة تعمي الأبصار، واختضَّ جسده، وتفجّر قلبه لهباً. أما وعيه فصار في رسغيه، في يديه. لقد غدا كله رغبة عمياء لا تُكْبَح لقتلها. صار رسغاه يتفجران. لن يرتاح حتى تكون يداه قد أطبقتا عليها.

لكن حتى قبل أن يستدير جسمه ليقبل عليها، بان على وجهها هي إدراكٌ بارعٌ مفاجئ. وفي لمح البصر أصبحت خارج الباب، جَرَتْ إلى غرفتها بسرعة البرق وأقفلت الباب عليها. كانت خائفة، لكنها واثقة. كانت تعرف أن حياتها كانت تتأرجح على حافة هاوية، لكنها كانت موقنة من موقفها على نحو غريب. كانت تعرف أن دهاءها يستطيع أن يتفوق على براعته.

كانت ترتجف، وهي واقفة في غرفتها، من انفعال، وابتهاج فظيع. كانت تعرف أن في مستطاعها التفوق عليه في الحيلة والدهاء. كانت تستطيع الاعتماد على حضور ذهنها وعلى دهائها. لكنه كان صراعاً حتى الموت. ذلك ما تبيّن لها الآن. زلّة واحدة فتضيع، كانت في جسمها علة غريبة، شديدة، ناشطة، مثل شخص في خطر السقوط من علو شاهق، لكنه لا ينظر إلى الأسفل، ولا يعترف بالخوف.

قالت: (سأرحل بعد غدٍ).

حَسْبُها أنها لم ترد أن يظن «جرالد» بأنها خائفة منه، وأنها مولية الأدبار لأنها كانت تخشاه. لم تكن تخافه أساساً. كانت تعرف أن منجاتها كانت تكمن في تجنب عنفه البدني. لكن لم تكن تخافه حتى بدنياً، كانت تريد أن تبرهن له على ذلك. وحين تكون قد دللت على ذلك، على عدم خوفها منه مهما كان... حين تنتهي من البرهنة على ذلك، فتستطيع أن تهجره إلى الأبد. لكن في أثناء ذلك، كان الصراع بينهما، على فظاعته كما كانت تعلم، صراعاً غير محسومٍ. ثم إنها كانت تنشد الثقة بنفسها. ومهما كانت الفظاعات التي قد تواجهها فلن تخاف. ولن تخضع له. لن يستطيع إخضاعها أبداً، أو السيطرة عليها، أو ممارسة أي حق عليها: هذا هو النهج الذي ستواصله إلى أن تثبت ذلك. وحالما يتم إثباته، ستتحرر منه إلى الأبد.

بيد أنها لم تكن قد أثبتته بعد، لا له ولا لنفسها. وهذا ماكان لا يفتأ يشدّها إليه. كانت مشدودة إليه، ولم تكن تستطيع العيش بدونه. لبثت جالسة في الفراش ساهرة، متلفعة، متدثرة ساعات عدة، تفكر في نفسها وتفكر، كأنها لم تكن قد انتهت من رسم التدابير الكبرى التي انطوت عليها أفكارها.

تحدثت إلى نفسها: (لا يبدو قط أنه قد أحبني حقاً. إنه لا يحبني. كل امرأة يلقاها يريدها أن تقع في حبه. إنه لا يدرك أنه يمارس هذا السلوك. لكن هاهو ذاك، يعرض جاذبيته الرجولية أمام كل امرأة، ويتباهى بمرغوبيته العظيمة، ويحاول أن يحمل كل امرأة على أن تفكر: ما أروعَ أن تتخذه عشيقاً لها. إن تجاهله للنساء تحديداً جزء من اللعبة، إنه ليس غير واعٍ بهن قط. كان يجب أن يكون ديكاً صغيراً، كي يستطيع أن يتبختر أمام خمسين أنثى، كلهن أتباعه، لكن «دون جوانياته»* لا تثير اهتمامي في الواقع. أستطيع أنا أن أمثل دور «دون جوانيتا» خيراً من تمثيله «جوان» مليون مرة، إنه يبعث في نفسي الضجر. كما تعرفين، ذكورته تضجرني، لا شيء مضجر كهذا، سخيفٌ سخافةٌ متأصلة ومغرور غروراً سخيفاً، كهذا. حقاً، يالغرور هؤلاء الرجال، يا لغرورهم الذي لا يُسْبَر له غور، ياللسخف - تبّاً لهؤلاء المتبخترين الصغار.

(كلهم سواء. انظري إلى «بركن». هم مجبولون من غرورهم القاصر، ولا شيء

---

* الجمع المؤنث لـ «دون جوان» . (المترجم) .

غير ذلك، حقاً، لا شيء سوى قصورهم السخيف، وتفاهتهم المتأصلة، يجعلهم على هذا النحو من الخيلاء.

(أما بشأن «لوركه» ففيه أكثر مما في «جرالد» ألف مرة، «جرالد» محدود جداً، دربه غير سالك، فمن شأنه أن يواصل الطحن في المطاحن العتيقة إلى أبد الآبدين. وفي الواقع لم تعد ثمة حبوب بين حجري الرحى. ويستمر الطحن دون انقطاع في حين ليس هناك ما يُطْحَن... يقول الأشياء نفسها، يؤمن بالأشياء نفسها، يقوم بالأشياء نفسها، أوه، يا إلهي، ذلك يبلي صبرَ الحجر.

(أنا لا أعبد «لوركه»، لكنه، في الأقل، شخص حر، فهو ليس جافياً من زهو بفحولته الذاتية ولا هو بالجارش القائم بواجبه في المطاحن العتيقة. رباه، حين أفكر في «جرالد» وعمله، ومكاتبه في (بلدوفر).. والمناجم.. يعتل قلبي، ما شأني بها؟.. بينما هو يحسب أن في وسعه أن يكون عاشقاً لامرأة! بإمكان المرأة أن تطلب ذلك أيضاً من عمود إنارة راضٍ عن نفسه! هؤلاء الرجال وأشغالهم الأبدية.. ومطاحنهم الربانية الأبدية التي تواصل الطحن. طحن لا شيء. إن هذا ممل غاية الملل، ممل تماماً. كيف صادف أصلاً أنني أخذته مأخذ الجد أساساً؟..

(في (درزدن) في الأقل، سيدير المرء ظهره إلى كل شيء، ثم ستكون ثمة أشياء مسلية يقوم المرء بها، سيكون مسلياً ارتياد عروض الرقص الإيقاعي، والأوبرا الألمانية، والمسرح الألماني، ولسوف يكون من المتع ممارسة الحياة البوهيمية الألمانية. ثم إن «لوركه» فنان، وهو شخص متحرر. سيتخلص الفرد من الكثير، الكثير... هذا هو الشيء المهم، يتخلص من الكثير من التكرار الممل الكريه لأعمال سوقية مبتذلة، وعبارات مبتذلة، وأوضاع مبتذلة. أنا لا أوهم نفسي بأنني سأجد أكسير الحياة في (درزدن)، أعرف أنني لن أجده، لكنني سأبتعد عن أناس لهم بيوتهم الخاصة وأطفالهم ومعارفهم الخاصون، وهذه الأشياء وتلك التي تخصهم. سوف أكون بين أناس لا يملكون أشياء، ولا بيوتاً ولا خدماً ولا حشماً قائمين على خدمتهم، ولا مركزاً ومقاماً ودرجة وحلقة من الأصدقاء من الشاكلة نفسها. رباه... دواليب ضمن دواليب من الناس.. ذلك يجعل رأس المرء يتكتك مثل الساعة بجنون الجنون من الرتابة الآلية الميتة وخلوٍّ المعنى. لكم أكره الحياة، لكم أكرهها، لكم أكره مَنْ هم على شاكلة «جرالد» الذين لا يمكنهم أن يعرضوا غير شيء واحد لا غير.

(«شورتلاندز»*.. يا إلهي!.. تصوري العيش هناك، أسبوعاً، أسبوعين ثم الثالث....

(كلا، لن أفكر بذلك... إنه أصعب مما أطيق...).

ثم توقفت، مرتاعة حقاً، عاجزةً عن تحمل المزيد فعلاً.

إن فكرة التتالي الآلي للأيام، يوماً بعد يوم، يوماً بعد يوم، إلا ما لا نهاية** كانت أحد الأشياء التي تجعلها قلبها يخفق دانياً من الجنون فعلاً. إن العبودية الفظيعة لتكتكة الوقت هذه، وهذه الحركة الاختلاجية لعقربي الساعة، هذا التكرار الأبدي للساعات والأيام، رباه... إن ذلك أفظع من أن تستطيع تصوره.. ولا خلاص منه... لا خلاص.

أوشكت أن تتمنى لو كان «جرالد» معها كي ينقذها من فظاعة أفكارها ذاتها. أوه، كم كانت تعاني، وهي مستلقية هناك وحدها، تواجهها الساعة الفظيعة بتكتكتها الأبدية. الحياة برمتها، الحياة كلها، قد تحولت إلى هذه التكتكة: تك تاك، تك تاك، تك تاك، ثم دقت الساعة، ثم التك تاك، تك تاك، ثم اختلاجات عقربي الساعة.

لم يكن «جرالد» ليستطيع إنقاذها، هو، وجسمه، حركته، حياته، كانت التكتكةَ نفسها، لاختلاج ذاته عبر قرص الساعة، اختلاج مريع آلي إلى الأمام على وجه الساعات... ما الذي كانته قبلاته، وعناقاته؟ في استطاعتها أن تسمع تكتكتها... تك تاك، تك تاك.

ها.. ها.. ضحكت لنفسها من خوفٍ جعلها تحاول أن تتخلص منه بالضحك... ها.. ها.. كم كان باعثاً على الجنون.. أكيد... أكيد!...

ثم، بحركة مارقة، واعية للذات، تساءلت عما إذا سيدهشها جداً أن تلاحظ، عند نهوضها صباحاً، أن شعرها قد ابيضَّ. كانت قد أحست به يستحيل أبيض في أحوال كثيرة جداً، تحت وطأة أفكارها وأحاسيسها، التي لا تطاق، لكنْ ها هو قد ظلّ بني اللون، كما كان أبداً، وهاهي نفسها تبدو عنوان الصحة والعافية.

ربما كانت متعافاة. ربما كانت صحتها التي لا تعتل، وحدها، هي التي جعلتها

* للتذكير، (شورتلاندز) اسم ضيعة «جرالد كريتش». (المترجم).

** وردت عبارة (إلى ما لا نهاية) باللاتينية. (المترجم).

معرضة للحقيقة إل هذا الحد، فلو كانت عليلة، لتولدت لديها أوهامها وتصوراتها. أما في الواقع، فلم يكن هناك خلاص. لابد لها أن ترى وتعلم دائماً، ولا تهرب أ بداً. لم تكن تستطيع الهروب أبداً. هي ذي قاعدة قبالة ساعة الحياة. فإنْ التفتتْ، كما في محطة القطار، لتلقي نظرة على كشك الكتب، لرأت الساعة دوماً، نفسها هي، رأت الساعة، واجهةَ الساعة الكبيرة البيضاء دوماً. عبثاً كانت تقلب أوراق الكتب، أو تصنع تماثيل صغيرة من الطين.. كانت تعرف بأنها لم تكن تقرأ فعلاً. ولم تكن تشتغل فعلاً. كانت تراقب العقارب وهي تختلج على الوجه السرمدي، الآلي، الرتيب لساعة الزمان. لم تكن عائشة في الحقيقة، كانت مراقبة حسب. بل إنها كانت ساعة صغيرة تعمل اثنتي عشرة ساعة، إزاء ساعة الأبدية الضخمة... هاهي ذي، مثل (الجلال) و(الوقاحة)، أو (الوقاحة) و(الجلال).

سرتها الصورة، ألا يشبه وجهها فعلاً قرص الساعة؟.. مدور تقريباً، وشاحب في الغالب، وغير معبر. كانت على وشك أن تنهض لتنظر في المرآة، لكن فكرة منظر وجهها هي، الشبيه بالساعة العاملة اثنتي عشرة ساعة، ملأتها بجزع بلغت شدّته حداً جعلها تسارع إلى التفكير بشيء آخر.

أوه، لِمَ لَمْ يكن ثمة شخص ما يحنو عليها؟ لِمَ لَمْ يكن ثمة شخص ما يأخذها بين ذراعيه ويضمها إلى صدره، ويمنحها الراحة، راحة خالصة، عميقة، شافية. أوه، لِمَ لَمْ يكن ثمة شخص ما يأخذها بين ذراعيه ويطويها آمنة، كاملة، لتنام. كانت تتوق إلى هذا الرقاد الكامل، المطوِّق. كانت تتمدد دائماً في نومها، غطاء تلتف به، ولسوف تستلقي في نومها دائماً دون غطاء، دون راحة، دون خلاص، أوه، كيف يمكنها أن تتحمل ذلك، عدم الراحة هذا الذي لا نهاية له، عدم الراحة الأبدي هذا.

«جرالد»! هل يستطيع أن يطويها بين ذراعيه ويكتنفها كالدثار في الرقاد؟ ها! كان يحتاج إلى من ينيمه هو... «جرالد» المسكين. ذلك كان كلَّ ماكان يلزمه.. ماذا فعل؟ جعل عبئها أكبر، وأمسى عبء نومها غير محتمل على نحو أشد. حين كان موجوداً معها، كان إرهاقاً إضافياً يثقل لياليها غير المتناضجة، ورقداتها غير المثمرة. ربما كان يظفر ببعض الراحة منها. ربما فعل ذلك. لعل هذا هو ماكان يلح عليها بشأنه على الدوام، مثل طفل جائع، يبكي طلباً للثدي. ربما كان ذاك سرّ هواه، سر اشتهائه إياها الذي لا يرتوي: حاجته إليها كي تنيمه وتريحه.

ماذا إذاً! هل كانت هي أمه؟ هل كانت قد أرادت، بدلاً من عشيق لها، طفلاً عليها أن ترضعه طوال الليالي؟.. لقد احتقرته، احتقرته، وحَجَّرَتْ قلبها... طفل يصرخ في الليل*، هذا «الدون جوان».

أووه، لكم كرهت الطفل الباكي في الليل. كانت قمينةً بأن تقتله مسرورة، بأن تخنقه وتواريه التراب، كما فعل «هتي سوريل»**. لاشك أن طفل «هتي سوريل» كان يصرخ في الليل. ولا ريب أن طفل «آرثر دونيثورن»*** كان قميناً بفعل ذلك، ها...! من هم على شاكلة «آرثر دونيثورن» و«جرالد» في هذا العالم: ما أفحَلَهم بالنهار، وأبكاهم أطفالاً في الليل! ليتحولوا إلى آليات، دعوهم، ليصبحوا أدواتٍ، مكائنَ محضة، إرادات محضة، تعمل عمل الساعة، في تكرار أبدي. ليكونوا هكذا، ليستغرقهم عملهم كلياً، ليكونوا أجزاء تامة من آلة ضخمة. رقادهم متكرر على الدوام. ليقم «جرالد» بإدارة شركته. هناك سيرضى، سيرضى رضا عربة اليد التي تُدفع جيئةً وذهاباً فوق الرصيف طيلة النهار... لقد سبق أن شاهدتْ ذلك...

عربة اليد.. ذات الدولاب المتواضع الواحد - وحدة الشركة، ثم العربة ذات الدولابين. ثم العربة ذات الأربعة، فالمحرك الصغير النقال ذو الثمانية، فماكنة اللف ذات الستة عشر، وهلم جرا، حتى تغدو عامل المنجم بالألف دولاب، فالكهربائي بالثلاثة آلاف، ومدير المنجم ذا العشرين ألف، فالمدير العام ذا المئة ألف دولاب صغير التي تعمل على نحو متواصل لتكمل كيانه، ثم «جرالد» ذا المليون دولابٍ وسنٍّ ومحور.

مسكين «جرالد» ما أكثر الدواليب الصغيرة اللازمة لكيانه! كان أكثر تعقيداً من ساعة «الكرونوميتر»****... لكن ياللسماء، أي ضجر! أي ضجر. يشهد الرب الذي في السماء! ساعة (كرونوميتر) - خنفساء - غابت روحها من سأم غامر وهي تفكر

---

* «طفل يصرخ في الليل» اقتباس من قصيدة للشاعر الإنكليزي «الفرد تنيسون» (١٨٠٩ - ١٨٩٢). (المترجم).

** بطلة رواية الروائية الإنكليزية «جورج إليوت» (١٨١٩ - ١٨٨٠) المسماة (آدم بيد). (المترجم).

*** اسم مالك الأرض الشاب الذي أغوى «هتي سوريل» في الرواية. (المترجم).

**** ساعة (الكرونوميتر): أداة لقياس الزمن بدقة بالغة. (المترجم).

بذلك. ما أكثر الدواليب التي يجب عدّها وأخذها بنظر الاعتبار واحتسابها! كفى، كفى... هناك نهاية لقدرة الإنسان حتى على التعقيد، أو ربما ليست ثمة نهاية.

في أثناء ذلك، كان «جرالد» جالساً في غرفته، يطالع. لقد أمسى مذهولاً بعد ذهاب «غدرون» وانحباس شهوته. لبث جالساً على حافة السرير مدة ساعة، في ذهول، وومضات صغار من الوعي تظهر وتعيد الظهور. لكنه لم يتحرك، وظل هامداً مدة طويلة ورأسه مدلى على صدره.

ثم رفع بصره، وأدرك أنه كان ذاهباً إلى الفراش. كان يشعر بالبرد... وفي الحال استلقى في فراشه وسط الظلمة. لكن ما لم يستطع تحمله كان الظلام. لقد كان الظلام الحالك قبالته يدنيه من الجنون، فنهض وأشعل ضوءاً. لبث جالساً برهة، ينظر أمامه متفرساً. لم يفكر في «غدرون» ولم يفكر بأي شيء.

وعلى حين غرة ذهب إلى الطابق الأسفل ينشد كتاباً. لقد كان طيلة حياته يفزع من الليالي التي قد تحل حين لا يستطيع أن ينام. كان يعرف أن ذلك سيكون أكثر مما يستطيع تحمله، حين يضطر إلى مكابدة ليال من الأرق والرصد الفظيع للساعات.

وهكذا بقي في الفراش ساعاتٍ مثل تمثال وهو يقرأ، كان ذهنه حاداً متوتراً، يطالع بسرعة وجسمه لا يفقه شيئاً. وفي حالة من اللا وعي المتصلب، واصل المطالعة طوال الليل حتى الصباح، وعندها نام مدة ساعتين، مكدوداً ومشمئزاً في روحه، مشمئزاً من نفسه قبل كل شيء.

ثم نهض مشدوداً، زاخراً بالطاقة. لم تكلمه «غدرون» إلا لماماً، حين قالت له عند تناول القهوة:

- (إني راحلة غداً).

سألها: (سنذهب معاً حتى (انزبروك) من أجل المظاهر؟).

فقالت: (ربما).

قالت كلمة (بما) بين رشفات القهوة. وكان صوتُ أَخْذِها لِنَفْسِها في اللفظة مثيراً للنفور بالنسبة إليه. قام على عجل. ليبتعد عنها.

مضى ليتخذ ترتيبات المغادرة في اليوم التالي. ثم انطلق لتمضية النهار في التزلج، بعد أن تزوّد بشيء من الطعام. أخبر صاحب النزل إنه صاعد إلى (مارتن هوته) وربما ينزل إلى القرية.

كان هذا اليوم بالنسبة إلى «غدرون» حافلاً بالوعد، كالربيع. كانت تشعر بانعتاق وشيك، بينبوع جديد من الحياة يتدفق فيها صعداً. سرها أن تتلبث في حزم أمتعتها، سرها أن تتصفح الكتب، وتجرب لبس مختلف أثوابها وتنظر إلى نفسها في المرآة. شعرت بأن فرصة جديدة قد أقبلت عليها، فسُعِدَت كالطفل وغدت جدَّ جذابة وجميلة في ناظر الجميع، بقامتها اللدنة، المترفة، وبسعادتها، أما في دخيلة نفسها فكان هناك الموت عينه.

في العصر، كان عليها أن تخرج مع «لوركه». كان غدها غامضاً تماماً أمامها. وهذا ما ابتعث السرور فيها. لعلها ستذهب إلى إنكلترة مع «جرالد»، لعلها ستذهب إلى (درزدن) مع «لوركه»، لعلها ستذهب إلى (ميونيخ) حيث هناك صديقة لها. قد يحدث أي شيء في الغد. واليوم هو العتبة البيضاء، الثلجية، المتألقة، لكل احتمال... كل احتمال.. ذلك كان بمثابة السحر بالنسبة إليها... السحر اللطيف، المتألق، غير المحدد... الوهم الخالص. كل احتمال... لأن الموت لا مفر منه... ولا شيء جائز غير الموت.

لم ترد أن تتبلور الأشياء، أن تأخذ أي شكل، أرادت، فجأة، أن تنساق في إحدى لحظات رحلة الغد، في مساق جديد كل الجدة، جراء حادثة أو حركة غير متوقعة إطلاقاً، وعليه، وعلى الرغم من أنها أرادت أن تخرج مع «لوركه» إلى الثلج لآخر مرة، لم تشأ أن تكون جادة أو عملية.

ثم أن «لوركه» ماكان شخصاً جاداً، فبقلنسوته المخملية البنية اللون، التي جعلت رأسه مدوراً مثل الكستناءة، وبالحاشيتين المخمليتين البنيتين اللتين تدليتا سائبتين على أذنيه، وبقليل من الشعر الأسود الخفيف الشبيه بشعر الجني، المتطاير فوق عينيه المنتفختين السوداوين الشبيهتين بعيني الجني، وبالبشرة اللماعة، الشفافة، السمراء التي تتجعد مكوِّنة تكشيرات غريبة على وجهه الصغير الملامح، كان يبدو كمزيج من رجل وصبي، غريباً، صغيراً، خفاشاً، لكنه في شكله، في البدلة الرصاصية المخضرة، كان يبدو سقيماً، قميئاً* لا يزال يختلف عن البقية على نحو غريب.

* وردت كلمة [قميئاً] بالفرنسية ، وهي الكلمة الفرنسية ذاتها التي استخدمها «لوركه» في وصف نفسه في موضع سابق . (المترجم) .

اختار مزلقة صغيرة تتسع لكليهما ، وشقا طريقهما مابين المنحدرات الثلجية التي تعمي الأبصار وتحرق وجهيهما اللذين أمسيا مخشوشنين، يضحكان من سلسلة لا تنتهي من الطرائف والنكات والتحليلات متعددة اللغات. كانت تخيلاتهما هي الحقيقة بالنسبة إلى كليهما ، وقد سعدا أيما سعادة وهما يتقاذفان كريات ملونة من النكات والطرائف الكلامية. بدت طبيعتاهما متلألئتين في تفاعل تام.. كانا يستمتعان بلعبة خالصة... وأرادا أن يبقياها على مستوى اللعبة... علاقتهما تلك، يالها من لعبة لطيفة.

لم يأخذ «لوركه» المزلقة مأخذ الجد، لم يضف إليها حماسة وحرارة كما كان يفعل «جرالد»، وهذا ما سرَّ «غدرون». لقد ضجرت، أوه، ضجرت جداً من تحمس «جرالد» المتشدد للحركة البدنية. كان «لوركه» يترك المزلقة تنساب جامحة، جذلة، مثل ورقة شجر طائرة. وحين كان يقذف بها وبنفسه في الثلج، عند منعطف ما ، كان يكتفي بأن ينتظر قيامهما ، الاثنين، دون أذى، من الأرض البيضاء اللاذعة، ليضحكا ، وينشطا ، كضحكات جنية صغيرة، كانت تعلم أن من شأنه أن يبدي ملاحظات ساخرة، عابثة، وهو يجوب الجحيم، إنْ كان على مزاج رائق، وهذا ماكان يسرها كثيراً جداً. لقد بدا ذلك ارتقاء فوق مضجرات الواقع ورتابة الاحتمالات.

لبثا يلعبان حتى غروب الشمس في استمتاع خالص، خاليين من الهموم، غير عابئين بالزمن. ثم قال فجأة، فيما انعطفت المزلقة الصغيرة على نحو خطر لتقف في قاع المنحدر: (انتظري!). وأخرج من مكان ما كظيمة* كبيرة. وعلبة (كيكس) وقنينة من الـ (شنابس)**.

هتفت: (أوه «لوركه» . أي إلهام! أية ذروة من السعادة*** فعلاً! ما نوع «الشنابس»؟!).

قال : (هايدلبير)****.

---

* الكظيمة = الترمس ، الدورق المستعمل لحفظ حرارة أو برودة السائل الذي فيه . (المترجم) .

** الـ « كيكس » نوع من البسكويت ، والـ « شنابس » مسكر هولندي ثقيل ، والـ (هايدلبير) أو الـ « هايدلبير قازر » الذي سيرد ذكره نوع من الـ « شنابس » مصنوع من مستقطر عنب الأحراج ، أو العنبية ، وهو حبات فاكهة زرقاء صغيرة . (المترجم) .

*** نطقت عبارة (ذروة من السعادة) بالفرنسية . (المترجم) .

**** قالها بالألمانية ، وتعني (عنب الأحراج) . (المترجم) .

ـ (كلا! من عنب الأحراج من تحت الجليد. ألا يبدو كأنه مقطّر من الثلج! هل يمكنك...). وتنشقت القنينة... (هل يمكنك شم عنب الأحراج؟.. أليس مدهشاً؟ كأنه تماماً كما لو كان المرء يتنشقه من خلال الثلج).

ضربت الأرض بقدميها خفيفاً. جثم وصفر أدنى أذنه إلى الجليد. وبينما كان كذلك، التمعت عيناه السوداوان.

ضحكت: (ها!...ها) متحمسة بالطريقة النزوائية التي كان يسخر بها من مبالغاتها الكلامية. كان دائم المكايدة لها، ساخراً بأساليبها. لكن، بما أنه في سخريته كان حتى أكثر سخافة منها في مبالغاتها، فما الذي يستطيع المرء أن يفعله سوى الضحك والشعور بالانعتاق؟..

كانت تستطيع سماع صوتيهما، صوتها وصوته، يرنان رنيناً فضياً.. مثل أجراس في الهواء المنجمد الساكن في بواكير الشفق. كم هو كامل، كم هو كامل جداً... هذا الانعزال والتفاعل الفضيان.

رشفت القهوة الحارة التي كانت نكهتها تفوح حولها مثل نحل يطن حول الأزهار في الهواء الثلجي، وشربت رشفات صغيرة من الـ (هايدلبير ڤازر) وأكلت رقائق البسكويت الهش البارد الحلو ذي القشرة. ما أطيب كل شيء! ما أكمل كل شيء، مذاقاً ونكهة وصوتاً، هنا في سكون الثلج المطبق وفي الغسق الوشيك هذا.

جاء صوته أخيراً: (أنت راحلة غداً؟).

ـ (أجل).

تلا ذلك صمت، حين بدا المساء يعلو في شحوبه الصامت، المتحلق إلى أعال لا نهاية لها، إلى اللا نهاية التي كانت في متناول اليد.

قال بالألمانية: (ڤوهن؟).

إلى أين؟ (ڤوهن؟).. ما ألطفها من كلمة! لم ترد أن يكون لها جواب قط. لترنَّ إلى الأبد.

قالت، مبتسمة لها: (لا أدري).

تلقف البسمة منها.

قال: (لن يدري المرء أبداً).

كررت: (لن يدري المرء أبداً).

ساد الصمت وشرع في أثناء ذلك يأكل البسكويت سريعاً مثلما يأكل الأرنب أوراق الشجر.

ضحك: (لكن، إلى أين ستكون التذكرة التي ستشترين؟).

هتفت: (أوه، ياللسماء! لابد أن يشتري المرء تذكرة).

هي ذي ضربة نزلت، تخيلت نفسها عند شباك بيع التذاكر في محطة القطار، ثم جاءتها فكرة تريح، تنفست الصعداء.

هتفت: (لكن، لا لزوم للذهاب).

قال: (من المؤكد).

- (أعني لا لزوم للذهاب إلى حيث تقول التذكرة).

خطرت بباله فكرة، قد يشتري المرء تذكرة كي لا يسافر إلى المقصد المذكور فيها. قد يتوقف المرء فجأة ويتحاشى المقصد، نقطة تحددت.. هذه فكرة!...

قال: (إذاً، خذي تذكرة إلى لندن. لا يجب على المرء أن يذهب إلى هناك).

أجابت: (صحيح).

صبَّ قليلاً من القهوة في كأس من صفيح.

سألها: (لن تخبريني إلى أين ستذهبين؟).

قالت: (حقاً وفعلاً.. لا أدري، فذلك يعتمد على مهب الريح ومتجهها).

فنظر إليها مازحاً، ثم زمّ شفتيه، مثل «زفيروس»* نافخاً عبر الثلج.. قال: (إنها تتجه نحو ألمانيا).

ضحكت: (أعتقد ذلك).

فجأة شعرا بقامة غامضة بيضاء قربهما. كان «جرالد». قفز قلب «غدرون» من ارتياع مفاجئ، ارتياع شديد. نهضت على قدميها.

جاء صوت «جرالد» مثل حكم قضائي، في هواء الشفق الضارب إلى البياض: (لقد أخبروني أين أنتما). هتف «لوركه»: (يا مريم! لقد جئت مثل شبح). لم يجب «جرالد». كان حضوره شبحياً، غير طبيعي، بالنسبة إليهما.

---

* (زفيروس) إله الريح عند الإغريق. (المترجم).

خضّ «لوركه» الكظيمة.. ثم مسكها مقلوبة على الثلج. لم تنسكب غير بضع قطرات بنية اللون.

قال: (لقد نفدت كلها!).

كانت صورة الألماني الغريبة، الأقرب إلى الصغر، واضحة ومدركة، كما لو كانت منظورة بمنظار ميدان. وقد كره الشكل الضئيل غاية الكره، وأراد له الزوال. بعد ذلك خضّ «لوركه» العلبة الحاوية بسكويتاً، وقال: (لا يزال هناك بسكويت).

ومن موضع جلسته في المزلقة مدّ يده وناول «غدرون» البسكويت. ترددت ثم أخذت قطعة. كان سيقدم البسكويت لـ «جرالد»، لكن «جرالد» كان كارهاً تقديم البسكويت له إلى درجة من القطع بحيث أن «لوركه» وضع العلبة جانباً على نحو يشوبه بعض الغموض، ثم تناول القنينة الصغيرة ورفعها نحو الضوء.

خاطب نفسه: (ثم هناك شيء من الـ «شناپس»).

ثم رفع القنينة في الهواء فجأة، على نحو شهم، مائلاً على نحو غريب مضحك نحو «غدرون» وقال: (أيتها الآنسة المحترمة، في صحتك)*.

انطلق صوتُ ضربةٍ، وطارت القنينة، وارتد «لوركه» فزعاً، ووقف الثلاثة يرتجفون بانفعال شديد.

التفت «لوركه» إلى «جرالد» وعلى وجهه الملتمع البشرة نظرة شزراء شيطانية.

قال في سورة انفعال شيطانية ساخرة: (حسناً فعلت!) وأردف: (هي ذي الروح الرياضية دون شك)**.

في اللحظة التالية كان جالساً في الثلج على نحو يبعث الهزء، فقد دوّتْ قبضة «جرالد» على جانب رأسه. لكن «لوركه» استجمع قواه، ونهض وهو يرتجف، محدقاً في «جرالد»، وقد وهن جسمه وتخفى. بيد أن عينيه كانتا شيطانية الاستهزاء، ثم هتف.

- (ليعش البطل، ليعش)***.

---

* نطق الجملة بالألمانية. (المترجم).

** قالها بالفرنسية. (المترجم).

*** قالها بالفرنسية. (المترجم).

بيد أنه جفل حين هوت قبضة «جرالد» عليه، في ومضة سوداء، وضربت الجهة الأخرى من رأسه بعنف، ملقية به جانباً، مثل قشة منكسرة.

لكن «غدرون» تقدمت. رفعت يدها المطبقة القبضة عالياً، وهوت بها بضربة عنيفة نازلة على وجه «جرالد» وصدره.

تفجّر فيه إندهاش شديد، كأن الهواء قد تكسّر. انفغرت روحه واسعةً، واسعة، من عجب، وهي تكابد الألم. ثم ضحكت روحه والتفتت، مبسوطة اليدين القويتين، لتنال أخيراً ثمرة رغبته. أخيراً، كان في مستطاعه إنجاز رغبته.

أمسك برقبة «غدرون» بين يديه الصلدتين والقويتين على نحو لا يقهر، وكانت رقبتها ناعمة جميلة، جميلة جداً، سوى أنه كان يشعر، في داخل الرقبة، بأوتار حياتها النزّاعة إلى الإفلات. وكان هذا هو ما حطمه، هذا هو ماكان يستطيع أن يحطمه. ياللنعيم! أوه، ياللنعيم، أخيراً، ياللهناء، أخيراً! لقد ملأت متعة الرضا الخالصة روحه. كان يلاحظ اللا وعي وهو يحل بوجهها المتورم، يراقب عينيها وهي تتقلب إلى الوراء. ما أقبحها! ياللإنجاز، ياللنعيم! ما أحلى ذلك.. أوه ما أحلى ذلك.. أية مسرة هي، هبة الله، أخيراً! لم يكن واعياً بالقتال والصراع اللذين كانت «غدرون» تبديهما. كان الصراع عبارة عن عاطفتها المشبوبة المتبادلة في ذلك التلاحم. فكلما زاد عنفاً زاد جنون البهجة، حتى تم بلوغ الذروة اللازمة حيث انحسر الصراع وغدت حركتها ألين وأهدأ.

استنهض «لوركه» نفسه من على الجليد، وهو أشد دواراً وأذى من أن يستطيع أن ينهض. عيناه فقط كانتا واعيتين.

قال، بصوته الرقيق المثار: (يا سيد! حين تكون قد انتهيت...)* استبد بروح «جرالد» نفور ملؤه ازدراء واشمئزاز. وهبط الازدراء إلى أسفل سافله، فأمسى غثياناً. آه، ما الذي كان يفعلَ! إلى أي درك أباح لنفسه أن يهبط! كأنه كان يهتم بها إلى حد يكفي ليقتلها، وليضع حياتها على راحة يده!

سرى وهن في بدنه، استرخاء فظيع، ذوبان، تفسخُ قوةٍ. وبدون أن يدري، كان قد

---

*قالها بالفرنسية . (المترجم) .

أرخى قبضته، فسقطت «غدرون» على ركبتيها. هل يجب عليه أن يرى، هل يجب عليه أن يعرف؟..

استبد به ضعف مخيف، استحالت مفاصله ماءً، انساق كأنه في مهب الرياح، وانعطف ومضى منساقاً إلى بعيد.

ـ (ما كنت أريد ذلك في الحقيقة)... كان ذلك آخر اعتراف بالاشمئزاز في روحه، فيما انحرف مرتقياً المنحدر، واهناً منتهياً، لا يسعى إلا إلى الابتعاد، دون وعي عن أي تماس آخر (لقد طفح الكيل... أريد أن أنام.. لقد طفح الكيل). وغرق في شعور من الغثيان.

كان ضعيفاً لكنه لم يشأ أن يستريح. أراد أن يواصل السير ويواصل حتى النهاية. لن يتلبث أبداً حتى يبلغ النهاية.. ذلك كان كل مابقي له من رغبة... وهكذا انساق دون توقف، دون وعي ولا قوة، دون تفكير بأي شيء ما دام كان في مقدوره مواصلة التحرك.

كان الشفق يلقي ضوءاً غريباً خارقاً للطبيعة، في الأعالي، لونه وردي ضارب إلى الزرقة، وكان الليل البارد الأزرق يرخي سدوله على الجليد. وفي الوادي، إلى الأسفل والأبعد، في مفرش الجليد الواسع، كان ثمة كيانان صغيران: «غدرون» جاثمة على ركبتيها، مثل شخص أُعْدِمَ و «لوركه» قاعداً في جلسة مسنودة بالقرب منها. كان ذلك كل ما هناك.

واصل «جرالد» ارتقاءه منحدر الثلج، متعثراً، في العتمة المزرقة، يصعد على الدوام دون وعي وإن كان قد نال منه التعب. على يساره كان هناك مرتقى شديد الانحدار فيه صخور سود وكتل ساقطة من الصخر وعروق من الجليد تتبدى هنا وهناك من خلال سواد الصخور. ومع ذلك ماكان ثمة صوت ما... كل هذا لم يكن ليُحْدِثَ أية نأمة.

ومما زاد في طينه بلة، إشراق قمر صغير نيّر متألق قبالته تماماً، من جهة اليمين... شيء مشرق مؤلم. لزم مكانه دون هوادة، لا خلاص منه. لقد اشتاق إلى بلوغ النهاية... فقد نال الكفاية. ومع ذلك، لم تأخذه سنة من نوم. ظل يندفع صعداً، مكابداً الألم في ذلك، وهو يضطر أحياناً إلى اجتياز منحدر متكون من صخور سود

عرّتها الرياح من الثلج. هنا، كان يخشى السقوط، يخشى السقوط جداً. وهنا، في الأعالي، على الذروة، كانت تهب ريح كادت أن تقهره برودتُها الثقيلة ثقلَ الرقاد. إنما نهاية ما كانت هناك، وكان عليه أن يستمر ويستمر، كان غثيانه اللا محدود لا يتيح له المكوث.

لما بلغ إحدى الربوات رأى الطيف الغامض لشيء أعلى أمامه. دائماً أعلى، دائماً أعلى، فعرف أنه كان يقتفي الأثر المفضي إلى قمة السفوح، حيث الـ (مارين هوته)، والمنحدر الهابط في الجهة الأخرى. بيد أنه لم يكن واعياً، في الحقيقة. لم يرد غير أن يواصل، أن يواصل مادام يستطيع، أن يتحرك، أن يظل ماشياً، ذلك كان كل مافي الأمر، مواصلة السير حتى النهاية. لقد فقد كل إحساسه بالمكان. ومع ذلك، وبما تبقى من غريزة الحياة، سعت قدماه إثر مسار المزالج.

انزلق هابطاً أحد المنحدرات الثلجية الشديدة التحدر، فأخافه ذلك. لم يكن يحمل عصا ألپية*، ولا أي شيء آخر، لكن حين بلغ بأمان مكاناً يرتاح فيه، شرع يواصل السير في العتمة المنارة. كان الجو بارداً برودة الرقاد. كان في غور واقع بين رابيتين، لذلك انعطف. هل يتعين عليه أن يرتقي الرابية الأخرى، أو يسير حدر الغور؟ كم رَقَّ خيط حياته شداً! لعله سيرتقي الرابية. كان الثلج ثابتاً وعادياً. مضى قدماً، كان ثمة شيء بارز من الثلج. اقترب بأضأل فضول.

كان صليباً نصف مطمور، (يسوعاً) صغيراً، تحت قلنسوة صغيرة مائلة في أعلى قمة عمود. مال مبتعداً. لسوف يقتله أحدهم، كان يرتعب كثيراً من مقتله. لكنه كان رعباً واقفاً خارج ذاته، كأنه شبحه نفسه. لكنْ لِمَ الخوف؟ لابد أن يحدث ذلك... أن يُقْتَل! نظر مرعوباً إلى الثلج حوله، إلى سفوح العالم العلوي الشاحبة، الطيفية، المتأرجحة. كان سيقتل حتماً. كان يستطيع أن يرى ذلك، هذه هي اللحظة التي يعلو فيها الموت، ولا مفر من ذلك.

مولاي، (يسوع). هل كان ذلك حتماً.. إذاً.. مولاي (يسوع)! لكنه أحس بالضربة نازلةً. كان يعرف أنه مقتول، مضى إلى الأمام، لا على التعيين، وقد رفع يديه

---

*عصا ألپية : عصا طويلة في أسفلها حديدة مستدقة الرأس يستعان بها على تسلق الجبال . (المترجم) .

كالمتحسس لما سيقع، منتظراً اللحظة التي سيتوقف فيها، حين ينتهي الأمر، لكنه لم ينته بعد.

بلغ حوض الثلج الغائر الذي تحيط به وهاد وسفوح شديدة التحدر. ظهر منها أثر يفضي بالمرء إلى قمة الجبل. لكنه هام دون وعي، حتى انزلق، وسقط وعند سقوطه انكسر شيء ما في روحه، فنام في الحال.

الفصل الحادي والثلاثون

الخروج*

حين جاؤوا بالجثة إلى النزل في صباح اليوم التالي، كانت «غدرون» معتكفة في غرفتها. شاهدت من نافذتها رجالاً مقبلين يجرون حِملاً على الثلج. لبثت جالسة دون حراك، ودعت الدقائق تمر.

ندَّت نقرة على الباب، فتحتها. كانت هناك امرأة واقفة. قالت برقة، بل على نحو يتسم بالتوقير المفرط.

- (لقد وجدوه ، يا سيدتي!).

- (أهو ميت؟)**.

- (نعم.. منذ ساعات).

لم تعرف «غدرون» ماذا عساها تقول، ماذا يجب عليها أن تقول؟ بماذا يفترض أن تحس؟ ماذا يتعين عليها أن تفعل؟ ماالذي كانوا يتوقعون منها ؟ كانت صريعةَ حيرةٍ باردة.

قالت: (شكراً)، وأغلقت باب غرفتها، ابتعدت المرأة وهي تشعر بالاختزاء... لا كلمة، لا دمعة.. ها! كانت «غدرون» امرأة باردة، باردة.

ظلت «غدرون» جالسة في غرفتها. وجهها شاحب، خال من التعبير. ما الذي يجب عليها أن تفعله؟ فهي لا تستطيع أن تبكي فتغدو محطّ أنظار الناس. ولا هي بقادرة على أن تغير ما بنفسها. فبقيت جالسة دون حراك، متوارية عن أنظار الناس.

---

* وردت (الخروج) باللاتينية ، وهي كلمة تستخدم في النصوص المسرحية للإشارة إلى مغادرة الممثل للمسرح (خروجه) . (المترجم) .

** نطقت السؤال بالفرنسية . (المترجم) .

كان همها الوحيد تجنب التماس الفعلي بالأحداث، واكتفت بكتابة برقية مطولة إلى «أرسيولا» و «بركن».

بيد أنها قامت فجأة، في العصر، تبحث عن «لوركه». ألقت نظرة وجلى على باب الغرفة التي كانت تخص «جرالد». لن تدخل هناك حتى لو ملّكوها الدُنى...

ألفت «لوركه» جالساً وحده في قاعة الاستراحة. توجهت إليه مباشرة.

قالت: (إنه غير صحيح، أليس كذلك؟).

تطلع إليها. تلوّى وجهه بابتسامة بؤس صغيرة، هزَّ كتفيه.

ردّد وراءها: (صحيح؟).

تساءلت: (نحن لم نقتله؟).

كره مجيئها إليه على هذا النحو. أعلى كتفيه مَلالاً.

قال: (لقد وقعت الواقعة).

نظرت إليه. كان جالساً مسحوقاً محبطاً ساعتئذٍ، مجدباً، ودون عاطفة، مثلها تماماً.

رباه! هذه مأساة مجدبة.. مجدبة، مجدبة.

عادت إلى غرفتها انتظاراً لـ «أرسيولا» و «بركن». كانت تريد الرحيل، الرحيل حَسْبُ، فلن تستطيع أن تفكر أو تحس، إلا بعد الرحيل، بعد الانعتاق من هذا الوضع.

انصرم اليوم وحل اليوم التالي. سمعت صوت المزلجة، ورأت «أرسيولا» و«بركن» ينزلان منها، فارتدّت منهما كذلك.

أقبلت «أرسيولا» متوجهة إليها مباشرة.

هتفت: («غدرون»!). وانهمرت الدموع على خديها، وأخذت أختها بين ذراعيها. أخفت «غدرون» وجهها على كتف «أرسيولا»، إلا أنها لم تستطع، مع ذلك، أن تتخلص من شيطان السخرية البارد الذي جمّد روحها.

فكرت: (ها ، ها، هو ذا السلوك القويم).

إلا أنها لم تستطع أن تبكي، وسرعان ما أوقف منظرُ وجهها البارد، الشاحب، الجامد ينبوعَ دموع «أرسيولا». وما إن مرت بضع لحظات، حتى لم يبق لدى الأختين ما تتحدثان عنه.

سألت «غدرون» أختها، بعد لأي، (هل كان من الشائن جداً جرّك إلى هنا ثانية؟).
رفعت «أرسيولا» بصرها في شيء من الذهول.
قالت: (لم أفكر في ذلك قط).
قالت: (لقد شعرتُ بحقارة البهيمة وأنا أستدعيكِ، لكنني ببساطة كنت عاجزة عن رؤية الناس. ذلك يتجاوز طاقتي).
فقالت «أرسيولا» وقد شعرت بقشعريرة: (هو كذلك).
قرع «بركن» الباب قرعاً خفيفاً، ودخل. كان وجهه أبيض من شحوب وجامد التعبير. عرفت أنه كان يعرف. ناولها يده قائلاً.
ـ (نهاية هذه الرحلة، على أية حال).
رمقته «غدرون» بنظرة وهي خائفة.
حل الصمت في ثلاثتهم، فليس ثمة ما يقال. وأخيراً سألت «أرسيولا» بصوت خفيض:
ـ (هل شاهدتَه؟).
رد على «أرسيولا» بنظرة باردة، قاسية، ولم يكلف نفسه مشقة الإجابة.
كررت: (هل شاهدته؟).
قال ببرود: (أجل)، ثم نظر إلى «غدرون» وقال:
(هل فعلتِ شيئاً ما؟).
أجابت: (لاشيء، لا شيء).
امتنعت في نفور بارد، عن الإدلاء بأي قول.
ـ (يقول «لوركه» إن «جرالد» جاء إليكِ حين كنتِ جالسة في المزلجة في نهاية المسلك، وتبادلتما الكلمات ثم مضى. عم كنتما تتحدثان؟ من الأفضل أن أعرف كي أطمئن السلطات، إذا اقتضى الأمر ذلك).
رفعت «غدرون» بصرها صوبه، بيضاء الشحوب، طفولية، وقد أخرسها الخطب.
قالت: (لم تكن ثمة اية كلمات بيننا، فقد صرع «لوركه» بضربة ألقته أرضاً وأفقدته الصواب، وكاد أن يخنقني خنقاً، ثم مضى). وإلى نفسها تحدثت قائلة: (أنموذج صغير لطيف من المثلث الأبدي*!).

* الحالة العاطفية التي تضم ثلاثة أشخاص: رجلين وامرأة، أو امرأتين ورجلاً. (المترجم).

ثم أعرضت مستهزئة، لأنها كانت تعرف أن الصراع كان يدور بينها وبين «جرالد»، وأن حضور الطرف الثالث كان مجرد حدث طارئ..

طارئ لا مفر منه، ربما، لكنه طارئ على أية حال. لكن ليتخذوه مثالاً على المثلث الأبدي، ثالوث الكراهية.. سيكون ذلك أيسر لهم.

خرج «بركن» بارد المسلك، شارد الذهن، لكنها كانت تعرف أنه، على الرغم من ذلك، سيتدبر الأمور نيابة عنها. ويقف معها حتى النهاية، ابتسمت ابتسامة خفيفة لنفسها، بازدراء. ليقم بالعمل، مادام يجيد رعاية شؤون الآخرين غاية الإجادة.

توجه «بركن» إلى «جرالد» مرة ثانية. كان قد أحبه، إلا أن شعوره كان في معظمه اشمئزازاً من البدن الهامد المتمدد هناك. كان هامداً جداً، ميتاً على نحو شديد البرودة، جثةً. بدت أحشاء «بركن» كأنها استحالت جليداً. كان عليه أن يقف وينظر إلى الجسم المتجمد الميت الذي كان «جرالد».

كانت الجثة المتجمدة لذكر ميت. تذكر «بركن» أرنباً كان قد وجده يوماً متجمداً، كلوح خشب، على الثلج، كان صلداً كلوح متيبس حين رفعه من على الثلج. وهاهو ذا «جرالد» متيبّس مثل اللوح، منطوٍ كمن يستعد للنوم، لكن بصلابة مروعة كانت تبين على نحوٍ ما، وهذا ما ملأه رعباً. لابد من تدفئة الغرفة، لابد من إذابة الثلج عن الجثة، ستتكسر الأطراف، كالزجاج أو كالخشب، إذا كان لابد من تعديلها.

مدّ يده ولمس الوجه الميت، فكدمت كدمة الجليد الثقيلة أحشاءه الحية. تساءل ما إن كان هو نفسه آخذاً في الانجماد كذلك، الانجماد من الداخل. وعند الشارب القصير الأشقر كانت الحياة الداخلية قد تجمدت إلى كتلة من الجليد تحت المنخرين، وهذا كان «جرالد»!..

عاد فتلمس الشعر المنسدل، الأشقر، الملتمع تقريباً، للجثة المتجمدة. كان بارداً برودة الجليد... شعراً في برودة الجليد، يكاد يكون سامّاً. طفق فؤاد «بركن» يتجمد... كان قد أحب «جرالد». وهاهو ذا الآن يشاهد الوجه الوسيم، الغريب اللون، ذا الأنف الصغير اللطيف، الدقيق، والخدين الرجوليين، يراه منجمداً مثل حصاة جليدية... ومع ذلك كان قد أحبه. ما الذي كان على المرء أن يفكر أو يحس به؟.. بدأ دماغه يتجمد، ودمه يتحول إلى ماء مثلج. ياللبرد، ياللبرد، ثمة برد ثقيل، كادمٌ، يثقل على ذراعيه من الخارج، وبردٌ أثقل يتجمد في داخله، في قلبه وفي أحشائه.

مضى إلى المنحدرات الثلجية كي يرى أين حدث الموت. أخيراً بلغ الغور الفسيح الواقع بين الوهاد والمنحدرات قرب قمة الشعب.كان يوماً كئيباً.. ثالث يوم من الكآبة والسكون. كان كل شيء أبيض، جليدياً شاحباً، خلا ثلمات الصخور السود التي نتأت كالجذور أحياناً، وكانت أحياناً بوجوه عارية. وعلى مبعدة، تحدّر سفح من إحدى القمم، حيث انزلق الكثير من كتل الصخر الأسود.

كان كوعاء مسطح قليلاً، مستقر بين حجر العالم العلوي وثلجه، في ذلك الوعاء كان «جرالد» قد رقد، وعند الطرف البعيد، كان الأدلاء قد غرزوا أوتاداً من الحديد عميقاً في الجدار الثلجي كي يتمكنوا، بواسطة الحبل المتين المربوط، من جرّ أنفسهم ارتقاءً لجبهة الثلج الضخمة، ومنها إلى قمة الشعب المثلمة العارية قبالة السماء حيث يختفي (المارين هوته) بين الصخور الجرداء. وحول ذلك كانت قمم الثلوج المدببة منها والمتشققة تخز السماء.

لعل «جرالد» كان قد وجد هذا الحبل، لعله قد جرّ نفسه صعوداً إلى القمة. لعله قد سمع الكلاب في الـ (مارين هوته)، ووجد له مأوى. لعله استمر نازلاً من السفح المتحدّر جراً، في الجانب الجنوبي، حتى بلغ الوادي المعتم ذا أشجار الصنوبر ومنه مضى إلى الطريق (الإمبراطوري) الرئيس المفضي جنوباً إلى إيطاليا.

ربما كان قد فعل ذلك! وماذا بعد ذلك؟ الطريق (الإمبراطوري)! الجنوب؟!.. إيطاليا؟.. ماذا بعد ذلك؟ هل كان ذلك طريقاً للخلاص؟.. كان مجرد طريق ولوج مرة ثانية. لبث «بركن» واقفاً في الأعالي حيث الهواء الموجع، ينظر إلى القمم وطريق الجنوب. هل كان يُجدي، على أي نحو ما، الذهابُ جنوباً، إلى إيطاليا؟ باتجاه الطريق (الإمبراطوري) القديم، القديم؟..

استدار مبتعداً. إما أن يتحطم القلب، أو يكف عن الاهتمام. الأفضل أن يكف عن الاهتمام. مهما كان السر الذي أخرج الإنسان والكون، فإنه سر لا بشري، له غاياته العظمى الذاتية.. ليس الإنسان هو المعيار. من الأحسن ترك كل شيء إلى ذلك السر الأعظم، الخلاق، اللا بشري، من الأفضل المجاهدة مع النفس فقط، لا مع الكون.

«لا يسع الله أن يستغني عن الإنسان». ذلك قول فقيه عظيم من فقهاء الدين الفرنسيين، بيد أن هذا غير صحيح، دون ريب، ففي وسع الله أن يستغني عن الإنسان.

فقد استغنى عن الأكصور والماستودون*. فقد أخفقت تلك الوحوش في التطور على نحو خلاق، ولذلك استغنى عنهم الله، وهو السر الخلاق.. وعلى المنوال نفسه يمكن للسر أن يستغني عن الإنسان إذا ما أخفق هو الآخر في التغير والتطور على نحو خلاّق. إن في مقدور السر الخلاق السرمدي أن يستغني عن الإنسان ويستبدل كائناً أفضل به.. تماماً مثلما حل الحصان محل الماستودون.

أشاعت أفكار «بركن» هذه مواساة جمة في روحه. إذا صادفت البشرية طريقاً مسدوداً، واستهلكت نفسها، فسوف يخرج السر الخلاق السرمدي كائناً آخر، ألطف وأروع.. جنساً جديداً ألطف لمواصلة تجسيد عملية الخلق. إن اللعبة لم تنته قط. فسر الخلق لا قرار له، وهو معصوم عن الزلل، سرمدي لا يفنى إلى أبد الآبدين. لقد جاءت أعراق وولّت، وزالت أجناس، لكنّ أجناساً جديدة كانت تقوم أبداً، ألطف، أو مساوية في اللطافة، دائمة التفوق على العجب. كانت عين الينبوع مما لا يمكن أن ينالها فساد أو تطالها يد البحث.. ولا تحدها حدود. كان يمكنها أن تأتي بالمعجزات، وتخلق أجناساً جديدة كل الجدة وأنواعاً جديدة في ميعادها، وصيغاً جديدة من الوعي وأشكالاً جديدة من الأبدان، ووحدات جديدة من الخلق. إن كوننا من البشر لم يكن شيئاً ذا بال بالمقارنة مع إمكانات السر الخلاق. أن يخفق نبض امرئ من السر مباشرة، فذلكم هو الكمال، والإشباع الذي يفوق الوصف. وسواءً أكان الكائن بشرياً أم غير بشرِي، فذلك لا يهم، فالنبض ينبض في الكيان الذي لا يوصف... في الأجناس الأعجوبية التي لم تولد بعد.

عاد «بركن» إلى «جرالد» في النزل، دخل الغرفة وقعد على السرير. ميت، ميت وبارد!..

«مات القيصر الإمبراطوري وصار طيناً
من شأنه أن يسد ثقباً فيصد الريح...»**

---

* (الأكصور): زحافة بحرية منقرضة سميكة الشكل. (الماستودون) حيوان منقرض شبيه بالفيل. (المترجم).

** ورد هذان البيتان ضمن مقطع من أربعة أبيات على لسان «هاملت» في مسرحية «هاملت» لـ «شكسبير» مستشهداً بها في مشهد حفار القبور الذي كان يشيد لحداً لـ «أوفيليا». ولا يُعرف القائل الأصلي لتلك الأبيات الأربعة على وجه التحديد. (المترجم).

لم يكن ثمة جواب من ذلك الذي كان «جرالد». مادة غريبة، منجمدة، متثلجة.. لا أكثر.. لا أكثر!..

خرج «بركن» متعباً على نحو فظيع، ليصرف أشغال اليوم. أنجزها جميعاً بهدوء، ودون جلبة، ودون أن يصخب، أو يعصف، أو يتأسى، أو يعقد المواقف.. ذلك كله قد فات أوانه، من الأفضل للمرء السكون والتصابر على الروح، في طول أناة وكمال.

لكنه حين دخل ثانية في المساء كي يرى «جرالد» بين الشموع جراء تشوّق قلبه، انكمش فؤاده فجأة، وكادت شمعته أن تسقط من يده، فيما انهمرت دموعه وندّت عنه صرخة متشنجة. جلس على كرسي مرتعداً من نوبة مفاجئة. أما «أرسيولا» التي كانت قد تبعته، فقد ارتدّت مشدوهة عنه فيما جلس منكوسَ الرأس، مرتجفَ الجسم متشنجَه، محدثاً صوتاً ناحباً، غريباً، مروِّعاً.

هتف لنفسه: (لم أردها أن تكون كذلك.. لم أردها أن تكون كذلك)..

لم تستطع «أرسيولا» إلا أن تفكر في قول قيصر ألمانيا: (أنا لم أرد ذلك)* ثم ألقت على «بركن» نظرة تكاد أن تكون مستفظعة.

صمت فجأة. لكنه جلس ورأسه مطأطأ إخفاءً لوجهه. ثم مسح وجهه بأصابعه خِفْيَةً. ثم رفع رأسه فجأة ونظر مباشرة إلى «أرسيولا» بعينين معتمتعين تكادان أن تكونان ثأريتين.

قال: (كان يجب عليه أن يحبني. لقد عرضتُ عليه ذلك).

أجابت خائفة، بيضاء الشحوب، مصمتة الشفتين:

- (وهل كان يمكن أن يكون هناك فرق!..).

- (يمكن!.. يمكن!).

نسيها واستدار كي ينظر إلى «جرالد». وإذ رفع رأسه على نحو غريب، مثل رجل يميل رأسه إلى الخلف رداً على إهانة، على نحو شبه متغطرس، أخذ يراقب الوجه البارد، الأخرس، المادي. كان ذا هيئة مزرقّة، يرسل شعاعاً من الثلج يخترق فؤاد الرجل الحي... بارد، أخرس، مادي! تذكر «بركن» كيف أن «جرالد» أمسك يده يوماً بقبضة

---

* ورد قول القيصر بالألمانية . . . وهو ما قاله القيصر «فيلهلم الثاني» حول الحرب العالمية الأولى . (المترجم) .

دافئة آنية ملؤها حب نهائي. حَسْبُهُ ثانية واحدة من الزمن... وبعدها فَلْيَرْخِ القبضةَ من جديد... ليرخها إلى الأبد.. لو كان قد أخلص لتلك المسكة، ماكان الموت ليهم، أولئك الذين يموتون ويحتضرون يمكنهم أن يحبوا، مع ذلك، وأن يؤمنوا، مع ذلك. إنهم يؤمنون، إنهم يعيشون في داخل الأحِبّة. كان يمكن لـ «جرالد» أن يستمر في العيش، بالروح مع «بركن» حتى بعد الممات. كان يمكن أن يعيش مع صديقه حياة ثانية.

لكنه قد قضى الآن، كالطين، كالثلج المزرق، القابل للتعفن. حدق «بركن» في الأصابع الشاحبة، في الكتلة الهامدة. تذكر جواداً نافقاً كان قد رآه: كتلة ميتة من الفحولة، تثير النفور. تذكر كذلك الوجه الميت لواحدة كان قد أحبها، ماتت وهي لا تزال تؤمن بالاستسلام للسر. ذلك الوجه كان جميلاً ولا يستطيع أحد أن ينعته بأنه بارد، أخرس، مادي، مامن أحد يستطيع تذكره دون أن يزداد إيماناً بالسر، دون أن تتدفأ الروح بثقة جديدة عميقة بالحياة.

و «جرالد»! الجاحد! لقد ترك القلب بارداً، منجمداً، يكاد لا يقوى على النبض. لقد بدا والد «جرالد» آنذاك ملتاعاً، ليحطم القلب: لكن ليس مثل هذا المنظر الأخير الفظيع لل (مادة) الباردة الخرساء. ظل «بركن» يتهجّد، يتهجد.

لبثت «أرسيولا» واقفة جانباً، ترقب الرجل الحي وهو يتفرس في الوجه المتجمد للرجل الميت. كان كلا الوجهين غير متأثر ولا مؤثر.

كانت ومضات الشموع تخفق في الهواء المنجمد ضمن السكون المطبق.

قالت: (ألم تنظر بما فيه الكفاية؟).

نهض.

قال: (إنه شيء مرٌّ بالنسبة إليَّ).

قالت: (ماذا؟ كونه ميتاً؟).

تلاقت أعينهما تماماً. لم يجب.

قالت: (أنا لديك).

ابتسم وقبّلها.

قال: (إذا متُ فستعرفين إنني لم أتخل عنك).

فهتفت: (وأنا؟).

قال: (وأنت لن تكوني قد تخلّيتِ عني. لن نضطر البتة إلى أن نقنط، عند الموت).
أمسكت بيده.
قالت: (ولكن، هل يلزمك القنوط بسبب «جرالد»؟).
أجاب: (نعم).
خرجا. نقل «جرالد» إلى إنكلترة ليوارى الثرى، رافق «بركن» و «أرسيولا» الجثمان بصحبة أحد إخوان «جرالد»، كان الإخوة والأخوات من عائلة «كريتش» هم الذين أصروا على إجراء الدفن في إنكلترة. كان «بركن» يريد أن يُتْرَك الرجل الميت في جبال الألب قرب الثلوج. لكن العائلة ضجّت وعجّت في إصرارها.
ذهبت «غدرون» إلى (درزدن). لم تكتب أية تفاصيل عنها، أما «أرسيولا» فقد مكثت مع «بركن» في (الطاحونة) مدة أسبوع أو أسبوعين كانا، كلاهما، هادئين جداً.
سألته في إحدى الأمسيات: (هل احتجت إلى «جرالد»؟).
قال: (نعم).
سألته: (ألا أكفيك أنا؟).
قال: (كلا، أنت تكفينني بقدر ما يخصُّ الأمرُ النساءَ. أنت كل النساء في نظري. لكنني كنت أريد رجلاً صديقاً أبدياً، في مثل أبديتنا نحن).
قالت: (لماذا لا أكفي أنا؟ أنتَ كافٍ بالنسبة إلي، ولا أريد أي شخص آخر سواك. لماذا لا يكون الشيء نفسه بالنسبة إليك؟).
قال: (وأنتِ لي، أستطيع أن أعيش حياتي كلها دون أي شخص آخر، دون أية ألفة حميمية أخرى، لكن بغية إكمالها وجعلها سعيدة حقاً أردتُ تواصلاً أبدياً مع رجل كذلك... حباً من نوع آخر).
قالت: (لا أصدق ذلك. إنه عنادٌ، نظريةٌ، ضَلالٌ).
قال: (حسن...).
- (أنت لا تستطيع أن تقع في نوعين من الحب، لماذا يجب عليك ذلك؟).
قال: (يبدو أنني غير قادر على ذلك. ومع هذا كنت أبتغيه).
قالت: (لا تستطيع ذلك، لأنه زائف، محال).
أجاب: (لا أعتقد ذلك).

الفهرس

شيء عن المؤلف

ولد «ديفيد هربرت لورنس» في (ايستوود) بمقاطعة (نوتنغام شير) في العام ١٨٨٥، وكان رابع خمسة أبناء لعامل منجم وزوجته المنحدرة من الطبقة الوسطى. داوم في مدرسة (نوتنغام) العليا ثم كلية (نوتنغام) الجامعية، نشرت روايته الأولى الموسومة (الطاووس الأبيض) في العام ١٩١١ بعد بضعة أسابيع فقط من وفاة أمه التي كان متعلقاً بها تعلقاً غير طبيعي. وفي تلك الحقبة أنهى أخيراً علاقته بـ «جسي تشيمبرز» («مريام» في روايته «أبناء وعشاق»)، وعقد خطبته على «لوي باروز» في ١٩١١، توقف عن مهنة التعلمي بسبب المرض الذي شُخِّصَ آخر الأمر على أنه التدرن. في العام ١٩١٢ هرب «لورنس» إلى ألمانيا مع «فريدا ويكلي» وهي ألمانية وزوجة مدرسه السابق في مادة اللغات المعاصرة، ثم تزوجا عند عودتهما إلى إنكلترة في العام ,١٩١٤ لقد غدا «لورنس» يعتاش على كتاباته، وإن كان على نحو هش، وأكمل معظم رواياته (قوس قزح) و(نساء عاشقات) في ١٩١٥ و ١٩١٦ وقد منعت الأولى ولم يستطع العثور على ناشر للثانية.

بعد الحرب، بدأ «لورنس» ما سماه «رحلة الحج المتوحشة» بحثاً عن نمط للحياة أكثر إشباعاً مما توفره المدنية الغربية الصناعية وهكذا بلغ صقلية وسيلان وأستراليا وأخيراً نيو مكسيكو، ثم عاد «لورنس» وزوجته إلى أوربا في ١٩٢٥ وفي ١٩٢٨ حظرت رواية «لورنس» الأخيرة (عشيق الليدي تشارتلي)، وصودرت رسوماته في ١٩٢٩. وفي ١٩٣٠ توفي في (فينيسيا) وعمره ٤٤ عاماً.

قضى «لورنس» معظم حياته القصيرة وهو يحيا الحياة، ومع ذلك أنتج قدراً مدهشاً من الأعمال ـ روايات، قصصاً، أشعاراً، مسرحيات، بحوثاً، كتب أسفارٍ، ترجمات، رسائل... لقد كتبت «فريدا» بعد موته: «ما كان قد شاهده وأحسن وعرفه، منحه إلى زملائه في كتاباته.... ألق العيش، الأمل في المزيد والمزيد من الحياة، موهبة بطولية لا تقاس ولا تقدر».

شيء عن المترجم

- بكالوريوس آداب (بمرتبة الشرف) من قسم اللغة الإنكليزية وآدابها، دار المعلمين العالية (كلية التربية لاحقاً)، جامعة بغداد، ١٩٥٣.
- ماجستير آداب في اللغويات التطبيقية، جامعة ستانفورد، الولايات المتحدة، ١٩٥٩.
- عضو هيئة تدريس في أقسام اللغة الإنكليزية في كلية التربية، جامعة بغداد (١٩٥٩-١٩٦٣). كلية الآداب، جامعة بغداد (١٩٧١-١٩٩٣) رئيس قسم اللغة الإنكليزية، كلية الآداب، جامعة السابع من إبريل، الزاوية، ليبيا (١٩٩٣-١٩٩٨)، قسم اللغات، كلية العلوم، والآداب، جامعة مؤتة، معان، الأردن(١٩٩٨-١٩٩٩)، كلية العلوم والآداب، جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، إربد، الأردن(١٩٩٩-٢٠٠٤).
- رئيس قسم الترجمة، شركة البترول الوطنية الكويتية، الكويت(١٩٦٤-١٩٧١).
- نال مرتبة «الأستاذية» في ١٩٩٣.
- أشرف على اثنتي عشرة رسالة ماجستير في فروع اللغة الإنكليزية.
- له أ بحاث منشورة في مجلات أكاديمية عراقية وأجنبية.
- له كتابات وترجمات في الآداب والسياسة منشورة في المجلات والصحف العراقية منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي.
- عضو هيئة تحرير مجلة (المثقف) العراقية (١٩٥٩ ـ ١٩٦٣).
- شارك في تأليف كتابين منهجيين باللغة الإنكليزية يدرسان في الجامعات العراقية وغيرها.

- ترجم مايلي:

(١) - رواية (الدون الهادئ) - الواقعة في أربعة أجزاء والحائزة على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٥، للروائي السوفييتي «ميخائيل شولوخوف» (بالتعاون مع زميلين آخرين).

(٢) ـ رواية (نساء عاشقات) لـ «د.هـ.لورنس»طبعت بجزئين في ١٩٨٨.

(٣) ـ مجموعة قصص قصيرة باسم (اللعب في الغسق). لـ «أنيتا جيساي»، في ١٩٨٩.

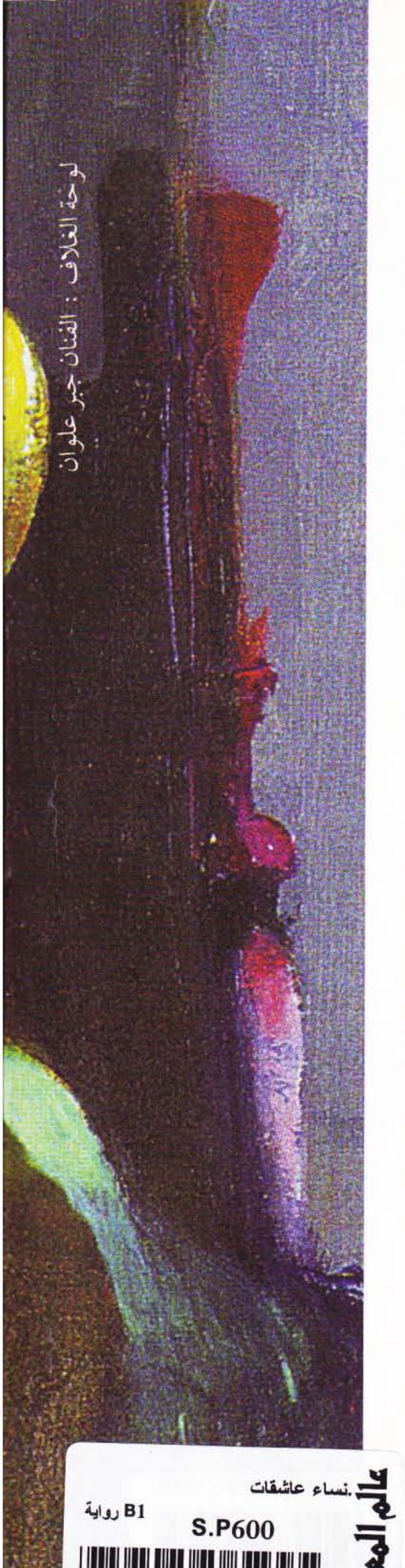
(٤) ـ كتاب (الدبلوماسية والمخابرات) لـ «ريتشارد لانغهورن» (لم يطبع).

(٥) رواية (حرب نهاية العالم) لـ «ماريو فارغاس يوسا».

(٦) كتاب (الآغا والشيخ والدولة ـ البنية السياسية والاجتماعية لكردستان) لـ«مارتن فان بروينسن»، بجزئين، ٢٠٠٧.

ـ مقيم حالياً في عمان، الأردن، ممارساً الترجمة بصفة حرة.

العنوان الإلكتروني Amjad-hussain-ali@hotmail-com



هذه رواية غير اعتيادية لروائي غير اعتيادي ، ولهذا فليس من اليسير إسباغ أية سمة مفردة عليها مما قد يصح على روايات غيرها ، سواء لـ (د. هـ. لورنس) أم لغيره. استثنائية الرواية لم تتأت من كون (لورنس) قد عدّها أفضل رواياته حسب ، بل لمجموعة من الخصائص يقف على رأسها امتلاكه ناصية التقنية الروائية المدهشة فيها ، ليس على مستوى الرواية الإنكليزية الحديثة فقط ، بل على المستوى العالمي.

إن تنامي الأحداث على يده أشبه بتنامي (الحركات) في سمفونية (بيتهوفينية) متقنة ، لا يسع القارئ حيالها سوى الانجراف مع تياراتها المتباينة في خضوع وانتشاء مطلقين. ثم هناك (اللورنسي) المرهف الحسّ الذي يغور في أعماق النفس الإنسانية ، بل وغير الإنسانية كذلك ، والذي يكشف لك عن أدق الخلايا بلا مواربة ولا اكتراث بأية رقابة.

